3 1761 07832934 9

Digitized by the Internet Archive
in 2010 with funding from
University of Toronto

http://www.archive.org/details/sirrtaqaddumalin00demo

184c

سر تقدم الانكليز السكسونيين

كامل

تأليف

محمد صالح

ادمون ديمولان

ترجمه من اللغة الفرنساوية

المرحوم

احمد فتحي زغلول باشا

ضبطه وشكله وشرح بعض عباراته الأستاذ

عبد الرحمن البرقوقي

بمجلس الشيوخ

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

حقوق الطبع محفوظة

المطبعة الرحمانية

LIBRARY
JUL 10 1978
UNIVERSITY OF TORONTO

CB
220
D49
1899

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العَالَمِينَ ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الأَمِينِ ، وَعَلَى آلهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ .

ظَهَرَ بِفَرَنْسَا فِي شَهْرِ أَفْرِيلَ سنة ١٨٩٧ ميلادية كِتابٌ أَلَّفَهُ مُوسيو إِدْمُونْ دِيمُولَانْ وَسَمَّاهُ (سِرّ تقدم الإِنكليز السَّكْسُونِيين) بَحَثَ فيهِ بَحْثاً دقيقاً عَنْ أَحْوَالِ الأُمَمِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، وَقَارَنَ بَيْنَ التَّرْبِيَةِ فِيهَا وَفِي أَلْمانيا وَبَيْنَهَا فِي انكلترَة . وَاسْتَدَلَّ عَلَى ضَعْفِ أُمَّتِهِ بِفَسَادِ التَرْبِيَةِ فِيهَا وَاسْتَشْهَدَ عَلَى فَضْلِ الأُمَمِ الإِنكليزِيَّةِ السَّكسونيةِ بِتَرْبِيَتِهِمْ وَنَشْأَتِهِمْ وَمَا أَلِفُوهُ مِنَ الْعَادَاتِ والأَخْلَاقِ. وَغَرَضُهُ مِنْ بيانِهِ هَذَا حَثُّ الأُمَّةِ الْفَرَنْسَوِيَّةِ عَلَى الْعُدُول عَنْ تَقاليدِهَا(١) فِي التَّرْبِيَةِ والتَّعلِيمِ وَإِدْخَالِ الإِصلَاحِ فِي المدَارِسِ حَتَّى تُؤَدِّيَ الغَرَضَ المقصودَ منها وَهو تخريجُ رِجالٍ قَادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ الصحيحِ غَيرِ مُعْتَمِدِينَ إِلَّا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَطْلُبُونَ سَعَادَتَهُمْ إِلَّا مِنْ كَدِّهِمْ وَاجتِهَادِهِم .

(١) تقاليدها: أى عاداتها الموروثة وأساليبها التى تتبعها كأنها لزام عليها، وكأنما جعلتها لذلك قلائد فى أعناقها.

وَالمُؤَلِّفُ رَجُلٌ ظَلَّ السِّنِينَ الطِوَالَ فِي عُزْلَةٍ لا يَكادُ يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِهِ ، وَأَنْشأَ مَجَلَّةً شَهْرِيَّةً سَمّاهَا (العِلْمِ الاجتماعى) مضَى عَليها إلَى يَوْمِ نشرِ الْكِتَابِ اثنَتَا عَشْرَةَ سَنةً وَلَم يَكُنْ لهَا مِنَ الشُهْرَةِ أَكْثرُ مِمَّا لِغَيْرِهَا مِنَ المجلاَّتِ العِلْميَّةِ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي عُزْلَتِهِ يرْكَبُ الصِعَابَ فِي الْبَحْثِ عَنْ أَحْوَالِ أُمَّتِهِ ويُطيلُ النَظَرَ فِي أَسْبَابِ تأخُّرِهَا عن الأُمَمِ الانكليزية السكسونيَّة ، وَيَجْمَعُ موادَّ كِتَابِهِ مِنْ كلِّ شَارِدَةٍ (١) يَعِزُّ نوالُهَا وَيَسْعَى وَرَاءَ الأَدِلَّةِ التى يُؤيِّدُ بهَا رَأيَهُ مِنَ النظَرِ فى الحوادِثِ وَنتَائِجِها والْعَادَاتِ وَآثَارِهَا وَالأَخْلاَقِ وَمَا يَترتَّبُ عليْها .

وَقسَمَ كِتَابَهُ إِلَى ثَلاثَةِ أَبْوَابٍ بَحَثَ فِي البَابِ الْأَولِ مِنْهَا عَن نظامِ المَدَارِسِ عِندَ أُمَّتِهِ وَالأُمَّتيْنِ الأَخيرتينِ ، وَأَعْرَبَ عَنْ نَتائِجِ ذلكَ النِّظَامِ فى كلِّ أُمَّةٍ مِنها . وَقارَنَ فى الثانى بينَ الفرَنْسَاوى والانكليزى السَّكسونى فى مَعيشَتهِمَا الْخُصُوصِيَّةِ فتَكلَّمَ عَنِ المَسْكَنِ والمَلْبَسِ وَالصِّناعَاتِ والحِرَفِ وَالزَّوَاجِ وَالمَوَاليدِ وَالوَفيَاتِ (٢) وَتأثيرِ ذلكَ فى الأُمَّةِ مِنْ جهةِ الثَّرْوَةِ العُموميَّةِ وَالزِّرَاعةِ وَالصنَاعَةِ والتجارةِ . وَخَصَّصَ البَابَ الثَّالثَ لِلْكلاَمَ عَليهِمَا فى حيا تِهما

(١) أي من كل مسألة شاردة : من شرد البعير ند ونفر . والمراد المسألة التي يعز الحصول عليها

(٢) الوفيات جمع وفاة : الموت

العُمُومِيَّةِ فقارَنَ بينَ أَهلِ السياسةِ في الْبَلَدَيْنِ وَفَرَّقَ بينَ مجلسَي النُوَّاب فِيهمَا ، وَأَفَاضَ في بيانِ مَزَايَا الحِرَفِ الْمُسْتَقِلَّةِ وَالصناعَاتِ الْفَنِيَّةِ كما أَطَالَ فِي ذِكْرِ مَضارِّ أَهْلِ الحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ كالْأَطِبَّاءِ وَالْمُحَامِينَ وَوُكَلاءِ الدعَاوى وَالْمُوَثِّقِينَ [١] وَأَهْلِ الصَحَافَةِ وَأَرْبَابِ الجرائدِ إذْ كانَ الصوتُ صَوتَهُمْ في سِياسَةِ الْأُمَّةِ . وَأَجْهَزَ عَلَى [٢] مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ بِسَاطِعِ البُرْهَانِ وَأَقْوَى الْحُجَجِ وَفَنَّدَ [٣] أَقْوَالَ أَصْحَابهِ تفنيداً يَخْضَعُ لهُ الْمُكَابِرُونَ ، وَخَاضَ في الْكلامِ عَلى مَعْنَى الوَطَنِ وَالوَطَنِيَّةِ فرَدَّهُمَا إلَى مَعْنَاهُمَا الصَّحِيحِ ، بَعْدَ أَنْ بيَّنَ المعَانى الْفَاسِدَةَ التي أَخْطأَ غُلاةُ [٤] الوطنِيَّةِ في فَهْمِهَا مِنْ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ ، وَدَلَّ عَلى الْفَرْقِ المَوْجُودِ بينَ أُمَّتِهِ وَبينَ الأُمَمِ الإنكليزية السَّكسونيَّة في إِدْرَاكِ مَعنَى التكافُلِ وَالتَّعاوُنِ مِنْ بَعْضِ الأَفرادِ لِبَعْضِهِمْ ، وَأَرْشَدَ إلَى أَحْسَنِ أَحْوَالِ الاجْتماعِ لِتَحْصِيلِ السَّعَادةِ فى هَذهِ الدَّارِ . وَهَذَا الفصلُ الأَخيرُ كلُّهُ حِكَمٌ بَليغَةٌ وَدُرَرٌ ثَمِينَةٌ [٥] .وَخَتَمَ الْكتَابَ بالْكلامِ على الدِّينِ وَتأثيرهِ في النُّفوسِ وفِعلِهِ في سَعَادَةِ الأُمَمِ بصَلاحِهِ ، وَشقائِها بفَسَاده . وَتخلَّصَ إلَى ذِكْرِ الحوادثِ الجديدَةِ التى أَخذَتْ تَبْدُو [٦] في الأُمَّةِ الفَرَنْسَاوِيَّةِ

(١) أى مأمورى العقود Notaires (٢) أتى عليه من أجهز على الجريح أسرع فى قتله
(٣) نقده وضعفه (٤) المتطرفون (٥) أى معانى قيمة تشبه الدرر جمع درة وهى اللؤلؤة (٦) تظهر

مِمّا يَدُلُّ على أَنَّهَا سَائِرَةٌ نَحْوَ التَّقَدُّمِ شَاخِصَةٌ (١) إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ حالةٍ سيئةٍ إِلَى حالةٍ رَاضِيَةٍ (٢)

وَيَمُرُّ القارئُ على الْكِتَابِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ فَلَا يَجِدُ فيهِ دَلِيلًا خَطَابِيًّا (٣) أَوْ حُجَّةً غَيْرَ مُعْتَرَفٍ بِهَا، لِأَنَّ الْمُؤَلِّفَ أَرْدَفَ كُلَّ قَوْلٍ بِدَلِيلِهِ الْمُنْتَزَعِ مِنَ الحوادثِ الصَّادِقَةِ وَالْمُشَاهَدَاتِ الصَّحِيحَةِ مِمَّا لَا يَدَعُ مَجَالًا لِلشَّكِّ أَوْ مَحَلًّا لِلاعْتِرَاضِ .

فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَمَى بِهِ بَيْنَ الْقُرَّاءِ مِنْ قَوْمِهِ كَانَ كَشُعْلَةٍ مِنَ النَّارِ أَصَابَتْ وَقُودًا (٤) جَافًّا ، فَالْتَهَمَتْهُ (٥) لِسَاعَتِهَا وَسَرَى لَهِيبُهَا فِي جَمِيعِ الْأَنْدِيَةِ (٦) وَالْبُلْدَانِ ، غَيْرَ أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَشْتَغِلُوا بِإِطْفَائِهَا بَلْ كُلٌّ يُذَكِّيهَا وَيُصْلِيهَا (٧) لِأَنَّهَا نَارُ هُدًى وَسَلَامٍ .

وَحَقِيقَةً (٨) مَا نُشِرَ الْكِتَابُ حَتَّى اشْتَهَرَ وَعَظُمَ شَأْنُهُ وَتَهَافَتَ (٩) النَّاسُ عَلَى تِلَاوَتِهِ وَأَقْبَلَتِ الْجُمُوعُ عَلَى مُطَالَعَتِهِ وَقَامَتْ لَهُ قِيَامَةُ الْمُدَرِّسِينَ وَاشْتَغَلَ بِالْبَحْثِ فِي أَبْوَابِهِ كُبَرَاءُ الْكُتَّابِ وَالْمُدَقِّقِينَ وَتَلَقَّفَتْهُ الجَرَائِدُ فَشَرَحَتْهُ وَذَيَّلَتْهُ وَقَرَّظَتْهُ (١٠) وَانْهَالَتْ عَلَى صَاحِبِهِ

(١) ذاهبة : سائرة، من شخص من بلد إلى بلد أى ذهب (٢) راضية: أى مرضية
(٣) أى غير قطعى (٤) الوقود بفتح الواو: ما يوقد به من حطب ونحوه (٥) التهم الشيء ابتلعه بمرة . والمراد أقبلت الامة على هذا الكتاب إقبالا عظيما (٦) المحافل والمجامع
(٧) يذكيها : يوقدها. ويصليها لعله يريد ويصطلي بها أى يستدفئ بها أو يتعرض لحرها
(٨) كان الاجمل أن يقول وفي الحق (٩) أقبلوا عليه من تهافت الفراش على النار ولذا أكثر ما يستعمل فى الشر (١٠) ذيلته علقت عليه تعليقات كانها ذيل له . وقرظته: مدحته

المُرَاسَلَاتُ تَتْرَى (١) مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ يَسْأَلُهُ أَصْحَابُهَا : أَيْنَ الْمَدَارِسُ الَّتِى يُشِيرُ إِلَيْهَا وَالسَّبِيلُ إِلَى تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ عَلَى غَيْرِ تَرْبِيَةِ آبَائِهِمْ ؟؟ وَلَمْ يَمْضِ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْأَيَّامِ حَتَّى تُرْجِمَ الْكِتَابُ (٢) إِلَى لُغَاتٍ عِدَّةٍ فَقَرَأَهُ الْإِنْكِلِيزُ وَالْأَلْمَانِيُّونَ وَالْإِسْبَانِيُّونَ وَالْبُولُونِيُّونَ . وَهَانَحْنُ (٣) الْيَوْمَ نَزُفُّهُ (٤) إِلَى قُرَّاءِ الْعَرَبِيَّةِ يَتَهَادَى فِى أَحَاسِنِ مَعَانِيهِ وَرَفِيعِ مَبَانِيهِ.

هَذَا كِتَابٌ لَمْ يَتْرُكْ مَنْقَصَةً فِى تَرْبِيَةِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ إِلَّا أَذَاعَهَا وَلَا خُلُقاً سَيِّئاً أَوْ عَادَةً سَافِلَةً إِلَّا نَدَّدَ (٥) بِهَا ، لِذَلِكَ اشْتَدَّ وَقْعُهُ فِى قُلُوبِهِمْ وَضَرَبُوا بِأَيْدِيهِمْ عَلَى جُيُوبِهِمْ (٦) وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَلُومُوا الْمُؤَلِّفَ بَلْ عَظَّمُوهُ ، وَلَمْ يُعَنِّفُوهُ بَلِ احْتَرَمُوهُ ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ مُخْلِصٌ يُحِبُّ أُمَّتَهُ وَيَطْلُبُ لَهَا النَّفْعَ وَالْفَخَارَ . فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَكْرَمَ مَثْوَى الْكِتَابِ (٧) وَرَأَى فِيهِ تَذْكِرَةً لِأُولِى الْأَلْبَابِ وَأَجْلَسَ صَاحِبَهُ حَيْثُ يَجْلِسُ الْحُكَمَاءُ وَأَحَلَّهُ حَيْثُ تَحُلُّ الْعُظَمَاءُ ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يَكُونَ قَائِدَ حَرَكَةِ التَّعْلِيمِ وَالْهَادِى بِهِمْ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ : فَجَاءَهُ أَرْبَابُ الْغِنَى وَالْيَسَارِ يُقَدِّمُونَ لَهُ الْأَمْوَالَ وَيَمُدُّونَهُ

---

(١) تتتابع (٢) يريد نقل (٣) كان الافصح أن يقول : وها نحن أولاء (٤) نزفه : نقدمه ، من زف العروس إلى زوجها (٥) ندد بكذا: أظهر عيوبه (٦) الجيب من القميص: طوقه. والمراد بقوله: وضربوا بأيديهم على جيوبهم أنهم روعوا مما جاء فى هذا الكتاب (٧) مثوى: أى مقام من ثوى بالمكان أقام به، والمراد عظموه .

بالنَّفْس وَالنَّفيس. وَامْتَازَ مِنْ بَيْنِهِم ْ ثلاثةَ عشَرَ رَجُلاً مِنْ سُرَاةِ الْقَوْمِ (١) عَقَدوا مَعَهُ شركةً وَاشْتَرَوْا عَلى مَسَافَةِ سَاعَتَيْنِ مِنْ مَدينَةِ بارِيس، قَصْرًا مُشَيَّدًا (٢) وَحَديقَةً أَنيقَةً وَأَرْضاً فَسِيحَةً تَبْلُغُ الأَرْبَعَة وَالْعِشْرِينَ فَدَّاناً وَاسْتَخْدَمُوا المُهَنْدِسينَ وَأَرْبَابَ الصِّنَاعَاتِ وَالحِرَفِ في إِعْدَادِ الْقَصْرِ مَدْرَسَةً وَالْبُسْتَان مَيْدَانَ تمرينٍ وَالْغَيْطِ مَوْضِعاً لِلتَّجَارِبِ وَالاخْتِبَارِ، فَقامَ كلٌّ وَاحِدٍ بِمَا عُهِدَ إِلَيْهِ وَأُعْلِنَ عَنِ افْتِتَاحِ المَدْرَسَةِ فِي شَهْرِ أَكْتُوبَر سنة ١٨٩٩ للطَّالبين.

وَأَلَّفَ مسيو ديمولان كتاباً آخرَ سَمَّاهُ (التربيةَ الجديدةَ). ظَهَرَ فِي السَّنَةِ المَاضِيَةِ، ذَكَرَ فِيهِ ما كانَ مِنْ أَمْرِ كِتَابِهِ الَّذِي نُقَدِّمُهُ لِلقُرَّاءِ وَضَمَّنَهُ نِظَامَ المَدْرَسَةِ الجَدِيدَةِ وَبَيَّنَ الفَرْقَ بينَ التَّعْلِيمِ الَّذِي يَقْصِدُهُ وَبينَ التَّعْلِيمِ الذي يَجْرِي عَلَيْهِ قَوْمُهُ وَجاءَ فِيهِ عَلى ذِكْرِ بَعْضِ الرَّسَائِلِ الَّتِي كُتِبَتْ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ وَكلِّ الجِهَاتِ. وَأَهْدَاهُ إِلى صَدِيقِهِ موسيو (جُولْ لُومِتْرْ) عالِمٌ مِنْ أَرْبَابِ الأَفْهَامِ وكاتِبٌ نابغةٌ بَيْنَ أَهْلِ الأَقْلامِ قَدرَ كِتَابَ (سِرِّ تَقَدُّمِ الإِنكليز) حَقَّ قَدْرِهِ وساعَدَ كَثِيراً بِخُطَبِهِ وَقَلَمِهِ عَلى إِذَاعَتِهِ وَنَشْرِهِ.

وَلأَجْلِ أَنْ يَعْلَمَ القُرَّاءُ ما كانَ لِلْكِتَابِ مِنَ التَّأْثِيرِ نُلَخِّصُ

(١) سراة بضم السين وفتحها: جمع سرى وهو السيد الشريف السخي ذو المروءة.

(٢) مشيد كمبجل. تقول شيدت البيت تشييداً اذا طولته ورفعته، وشدت البيت أشيده اذا بنيته بالشيد وهو الجص.

بَعْضَ شَذَرَاتٍ(١) مِمَّا نَشَرَتْهُ الجَرَائِدُ وَبَعْضَ الرَّسَائِلِ الَّتِى كُتِبَتْ إِلَى المؤَلِّفِ :

قالَ موسيو (جورج رودوناخ) فى جريدة (پاتريُوتدِى بُرُوكْسِيل) « ظَهَرَ كِتابٌ فى فَرَنْسَا عَظُمَ اشْتِهَارُهُ وكانَ لهُ تأْثِيرٌ كبيرٌ فى تِلْكَ الْبِلَادِ عُنوَانُهُ (سرّ تقدُّم الانكليز السكسونيين) وَمُؤَلِّفُهُ مُوسيو «إِدْمونْ ديمولَانْ» وقدِ اشْتَهَرَ هذا المؤلفُ بكتابه دَفْعةً وَاحِدَةً فإِنَّا عَرَفْنَاهُ مُنْذُ زَمَانٍ مُكِبًّا عَلَى العملِ بِصَبْرٍ وَسُكونٍ وَحَضَرْنا مَجْلِسَهُ عِنْدَ (لا بْلى) مُؤَسِّسِ العِلْمِ الاجْتِمَاعِىِّ، وكان أكبرَ تلامِذَتِهِ وهُوَ الذى كانَ يُحْيِى مَجْلِسَهُ بأَحاديثِهِ وَيُفيدُ الحاضِرينَ بمَعَارِفِهِ وَيُنْسِيهِمِ الوَقْتَ بمَا يَحْكِى مِنَ الحوادِثِ وما يَشْرَحُ مِنَ الحقَائقِ، فلَمَّا رَحَلَ أُسْتاذُهُ عَنْ هذهِ الدَّارِ انْزَوَى(٢) هذا الرَّجُلُ وَنَسِيَهُ أَكْثرُ العَارِفينَ بهِ وَصارَ اسْمُهُ لا يَرِدُ عَلَى الأَلْسِنَةِ إلاَّ ضِمْنَ الحديثِ، حتى إِنَّا كُنَّا نَتَسَاءَلُ عَنْهُ وَنَقُولُ: لَعَلَّ ديمولان لمْ يكُ منَ النَّاجِحِينَ مَعَ مَاظَهَرَ مِنهُ أَوَّلاً مِنْ غَزَارَةِ المَادَّةِ وَعِظَمِ العِرْفانِ. وَبَيْنَما النَّاسُ يَتَناسَوْنَهُ إِذَا بِهِ قدْ ظَهَرَ ظُهُورَ القَمَرِ فى اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ بكتابه (سرّ تَقَدُّمِ الإنكليز السكسونيين) الكتابُ(٣) الَّذِى امْتَحَنَ فِيهِ المؤَلِّفُ وِجْدَانَ الأُمَّةِ

(١) أى قطع مختارة، وأصل الشذرة القطعة من الذهب أو اللؤلؤ (٢) أى قبع فى زاوية يريد اعتزال العالم (٣) إما قرأت الكتاب بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى وهو الكتاب، أو بالجر على أنه بدل من بكتابه، أو بالنصب على تقدير أعنى الكتاب.

الفرنساوية، فجاء يُبَرْهِنُ على أَنَّ زَمَانَ السُّكْر بالزَّهْو[١] قد انقضى وَقَامَ العُلَمَاءِ وَالْـكُتَّابُ يَدُلُّونَ على مَوَاقِعِ الضَّعْفِ وَيُشْعِرُونَ الْأُمَّةَ بِمَا أَصْبَحَتْ فى حَاجَةٍ إليْهِ ، وَلم يأْتِ «مُوسيو ديمولان» فى مُقَابلَتِهِ بَيْنَ الفرنساويين وَبينَ الإنكليز السكسونيينَ إلاَّ بالوقائعِ الثَّابتَةِ وَالْمُشَاهدَاتِ الصَّحِيحَةِ . وَاخْتَارَ الْمُقَابلَةَ بَينَ المادِّيَّاتِ . فَلَيْسَ كِتَابُه كِتابَ مَذْهَبٍ يُرِيدُ نَشْرَهُ ، وَلَـكِنْ كِتَابُ أَفْكَارٍ[٢] تُؤَيِّدُهَا الحوَادِثُ وَالمشَاهدَاتُ . فالأرْقَامُ فيهِ نَاطِقَةٌ بِلِسَانٍ فَصِيحٍ . وَالإِحْصَاءُ يُنْتِجُ النَّتِيجَةَ مِنْ نَفْسِهِ وَيَدُلُّ على الْإِصلاحِ الَّذِى يَنْبَغى » اهـ

وَقالَ مُوسيو (درومون) فى جريدة (لِيْبْر پارُول)

« كثيراً مَاسألَنِى بَعْضُ الشُّبَّان : أَىَّ كِتَابٍ يَقْرَأُونَ ؟ . وَإِنِّى أُجِيبُهُمُ الآنَ : عَلَيكُمْ بكِتابٍ[٣] مِنَ الْـكُتُبِ الرَّئِيسِيَّةِ اخْتَبَرَ فيهِ مُؤَلِّفُهُ حالةَ الأُمَّةِ اخْتِبَاراً دَقِيقاً ، إقْرَأُوا كتابَ (سر تقدم الانكليز السكسونيين) فقد بحث فيه موسيو إدمُون ديمولان عَنْ مزَاجِ الأُمَّةِ الانكليزيَّةِ وَبينَ أَسْبَابَ انتِشَارِهَا العَجيبِ فى الدُّنْيَا وَدَلَّ عَلى عِلَّةِ سِيَادَتِهَا بينَ الأُمَمِ ، تِلْكَ الأُمَّةُ القَوِيَّةُ القَادِرَةُ الَّتِى تُلْجِئُ أكْبَرَ مُبْغِضِيهَا إلَى الإِعْجَابِ بِهَا وَالاعْتِرَافِ بِفَضْلِهَا » اهـ

---

(١) يريد الذهاب مع الاعجاب بالنفس . والزهو : الكبر والفخر (٢) أى ولـكنه كتاب أفكار (٣) أى الزموا هذا الكتاب — يعنى كتاب سر تقدم الانكليز كما بين ذلك بعد

وقال موسيو (ديلاهى) فى تلك الجريدة أيضا :

« إنِّي فَرَغتُ مِنْ قِرَاءَةِ كتاب موسيو ديمولان وَوَعَدْتُ نفسى بقِرَاءَتِهِ مَرَّةً ثانيَةً لِأَنَّهُ جمع شيئًا كثيراً ولكنِّى لا أَنْتَظِرُ تلكَ الفرصَةَ لِأَنْشُرَ مَاوَجَدْتُه فيه مِنَ المادَّةِ الْغزيرَةِ وَالْعِلْمِ الْكثير، وَلَيْسَ لنَا نحنُ أَصْحَابَ الجرائدِ مِنَ الخدَم إلاَّ أَنْ نقرَأَ كتابًا يكُونُ مُؤلفهُ قَدْ أَعْمَلَ الفِكْرَةَ فِى فُصُولِهِ قبلَ أَنْ يَكْتُبَهَا، وَهوَ نادِرٌ فى هذِهِ الْأَيَامِ، ثمَّ ننشُرهُ بيْنَ النَّاسِ .

« يُوجَدُ فى إِحْدَى زَوَايَا باريسَ أَرْبَعةُ شُبَّانٍ أَوْ خمسةٌ لاتفتُرُ لهُمْ هِمَّةٌ عَنِ الْبَحْثِ وَالتَّنقيب، لايعْرِفُونَ المَلَلَ مِنَ العمَلِ مَهْمَا كانَ شَاقًا . قدْ أفادُوا وحْدَهُم فى الْعَشْرِ السنينَ الْأَخيرَةِ أَكْثَرَ مِمَّا أَفَادَ ذَلِكَ الْقَطيعُ (١) الَّذِى يتَأَلَّفُ مِنَ أَعْضَاءِ مَجْلِسِ النُّوَّابِ وَمَجْلِسِ الْأَعْيَانِ .ولهُمْ مجلَّةٌ شَهْرِيَّةٌ لايعْرِفُهَا وَلاَ بالاسْمِ ، إلاَّ الْقَلِيلُ النَّادِرُ مِنْ ذَلِكَ الْقَطيعِ ! مَعَ أَنهَا كَنْزٌ أَعْظَمُ فَائِدَةً منْ مجمُوعَاتِ تِلْكَ المَجَالِسِ الَّتى غَصَّتْ (٢) بمُذَكرَاتِهَا وَخُطَبِهَا تحتَ حُكْمِ الْجُمْهُورِيَّةِ الثالثة ». إلى أنْ قالَ : « إنْ كانَ فى ديمولان شىءٌ يُوجِبُ الإِعْجَابَ فهُوَ حُسْنُ مَقْصدِهِ وسلامَةُ ذَوْقِهِ . رَجُلٌ ما قصَدَ إلاَّ استِخْلاصَ الحقِيقةِ

---

(١) أصل القطيع الطائفة من البقر أو الغنم. ولا يخفى مافى ذلك من التهكم اللاذع القاسى

(٢) من قولهم غص فلان بالطعام أو الماء : أى اعترض فى حلقه شىء منه فمنعه التنفس والمعنى امتلأت .

مِمَّا غَشِيَها[١] مِنَ الأَلفاظِ وَالجُمَلِ والأَوْهَامِ الَّتِى اعْتَادَ النَّاسُ عَليها . وَقَدْ توَصَّلَ بِحُسْنِ أُسْلوبِهِ إِلى إِحْيَاءِ حَقَائِقَ كانَتْ نَسْيًا مَنْسِيًّا[٢] . مَلأَ كِتابَهُ عِلْمًا وَأَسْنَدَهُ إِلى الوَقائعِ الصَّحِيحَةِ وَأَعمَلَ الفِكْرَةَ قبلَ أَنْ يَكْتُبَ؛ وَكلُّ النَّاسِ مُعْتَرِفٌ بأَنَّهُ مُصيبٌ فى تَخَلُّصِهِ إِلى السُّؤَالِ عَنْ سَبَبِ سُقُوطِ فرَنْسَا وجوَابِهِ بأَنَّهُ سُوءُ التَّرْبِيَةِ . وَلَيْسَتِ المَسْأَلَةُ الاجْتِماعِيَّةُ إِلاَّ مَسْأَلَةَ التَّرْبِيَةِ . فكَمَا تَكُونُ الآباءِ تكُونُ الأَبْناءُ، وَكَمَا تكُونُ الأَبْنَاءُ تكُونُ الرِّجَالُ، وَكما تكونُ الرِّجالُ تكونُ الأُمَّةُ . وموسيو دِمولان لا يُنكِرُ هذهِ الحَقِيقَةَ وَلَكِنَّهُ أَرادَ الدَّلاَلَةَ[٣] عَليْها بِبَيانِ مَعْنَى التَّرْبِيَةِ الاجْتِماعِيَّةِ الصَّحِيحَةِ . وَقدْ دَلَّ بِمُقَارَنَتِهِ بينَ الأُمَّتَيْنِ الفَرَنْسَاوِيَّةِ وَالإِنكليزية السكسونية فى التَّرْبِيَةِ وَالمَعيشَةِ البَيْتِيَّةِ وقُوَّةِ الانْتِشَارِ وَالمَعِيشَةِ العُمُومِيَّةِ والسِّيَاسِيَّةِ عَلى أَنَّ مِنَ البَدِيهِيَّاتِ ما يَنْسَاهُ النَّاسُ وَيَجْهَلونَهُ جَهْلاً كُلِّيًّا

« وَأَجْمَلُ فَصْلٍ فى الكِتَابِ ـ عَلى ما أَرَى[٤] ـ هُوَ الذى عَقَدَهُ لِبَيَانِ أَحْسَنِ الحَالاتِ لِنَوالِ[٥] السَّعَادَةِ وَهُوَ الذِى يَحْلُو لى النَّقْلُ عَنْهُ » ثمَّ أَخَذَ الكاتِبُ يَنْقُلُ عَنْ ذلكَ الفصْلِ مَا حَوَى مِنَ الحِكَمِ .

ولمَّا انتشَرَتْ هاتانِ الجُمْلَتانِ فى تِلكَ الجَرِيدةِ تهافتَ قُرَّاؤُها على

(١) أى غطاها (٢) نسيا بفتح النون وكسرها أى نسيانا (٣) بكسر الدال وفتحها (٤) على ما أرى: أى على ما أظن وأعتقد (٥) يريد أن يقول لنيل السعادة وتعبيره بنوال هنا خطأ لان النوال العطاء .

مُطَالَعَةِ الْكِتاب. وَنَقَلَتْ جَرَائِدُ الأَرْياف مَا كَتَبَ الْفَاضِلان وَعَلَّقَتْ عليْهِ مِنَ الشُّرُوحِ وَالأقْوالِ مَالا يُحْصَى، وَكلُّها تُمَجِّدُ الْكِتابَ وَتُعَظِّمُ الذى أَهْدَاهُ.

وقالت الجريدة (لاريبُوبْليكْ فرَانسِيزْ)

« جاءَ كِتابُ ذلكَ المؤلف العظيم الشأْن بمسْأَلة شغلت الأفْكارَ فى هذهِ الأيَّامِ أَلاَ وهىَ السِّرُّ فى انْتِشَارِ الأُمَّة الإنكليزيَّةِ السكسونيةِ ذلكَ الانْتشَارَ الْعَجيبَ. ولقدْ كانَ النَّاسُ يَشْعُرُونَ بوُجُودِ تِلْكَ الأَفْضَليَّةِ، إلاَّ أَنَّ موسيو ديمولان أتى لهَا بالْبَرَاهِينِ العَقْليَّةِ وَالْحُجَجِ العِلْميَّةِ » اه

وكتبت جريدة (الكوكارد) مَقالةً طَويلةً خَتَمَتْها بقوْلها: «يَنْبَغى لِصَادِقِى الْوَطَنِيَّةِ أَنْ يُطيلوا النَّظَرَ فى هذا الكتابِ وأَنْ يَشْكُرُوا موسيو ديمولان عَلى هَديَّتِه » اه

وقالت جريدة (لُوبتى پارزيان) بَعْدَ الفرَاغِ مِنَ الكلامِ على فَصْلِ التَّرْبيةِ: « تِلْكَ أَفْكارٌ حقَّةٌ صَحِيحَةٌ يَجِبُ الالْتِفاتُ إليْهَا بالنَّظَرِ إلى حالَتنا الحاضِرَةِ ».

وقالت جريدة (لوپوبل فرانسيه) « ذَلِكَ كِتابٌ يُثِيرُ الخاطرَ وَإنْ كانَ كلُّهُ جِدًّا[1] وَهُوَ لَذيذٌ وَإنْ كانَ قاسِيًا » اه

---

(١) الجِد: ضد الهزل

ونشر موسيو (باربيزيو) جُملاً في يَوْمٍ وَاحِدٍ في جرائد (لا ييه) و(لو پِي)و(سوڤرنتيه ناسيونال)و (لوليبيرال) و (لوكونستيتسيونيل) و (ليتندار) أَجْمَعَتْ عَلى مَدْحِ المؤَلِّفِ وَوَصْفِ الْكِتَابِ بأَنَّهُ « مُفِيدٌ مُؤَيَّدٌ بالشواهِد ، رُبَمَا حَمَلَنا عَلى التَّحَلِّي بأَخْلاقِ الْأُمَّةِ الانكليزيةِ السكسونية » اهـ

ونشرَ موسيو (لوسيان ديكاف) مقالة طَنَّانةً في جريدة (ايكو دي پاري) مِنها « هذَا كِتَابٌ شَدِيدُ الْوَقْعِ لَوْلاَ أَنَّ قِرَاءَتَهُ وَاجِبَةٌ عَلَى كلِّ رَبِّ عائِلَةٍ وكلِّ مُشْتَغِلٍ بالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ » ثم خَتَمَها بقَوْلِهِ : « إنَّ كِتَاباً حَوى تِلْكَ المَسَائِلَ كُلَّهَا لَجَدِيرٌ بالإذاعَةِ وَالِاشْتِهَارِ فكلنا في حاجةٍ إِلَى مَعْرِفَةِ سِرِّ تقدُّمِ الانكليز السكسونيين ، وَإلاَّ صَدَقَ فِينَا قَوْلُ (پرودون)[1] « أُورُوبا حُبْلَى[2] بثَوْرَةٍ اجْتِماعِيةٍ وَلَكِنَّنِي أَخْشَى أَنْ تَمُوتَ قَبْلَ أَنْ تَضعَ حَمْلَهَا » اهـ

وقال موسيو « فرنسيسك سارسي » في تِلْكَ الجرِيدَةِ مُخْتَتِماً كَلاَمَهُ عَلَى الْفَصْلِ المُتَعَلِّقِ بالمُقَارَنَةِ بينَ تَشْكِيلِ مَجْلِسِ النُّوَّابِ الفَرَنْسَاوِي وَمَجْلِسِ النُّوَّابِ الْإِنكليزِيِّ مَا نَصُّهُ : « ذلِكَ الكِتَابُ مُفِيدٌ جِدًّا لِمَا حَوَاهُ مِن الأَفْكارِ الجَدِيدَةِ ، أَوِ الَّتِي وُضِعَتْ في

(١) فيلسوف اشتراكي (٢) حامل: يريد أنها تجن ثورة اشتراكية إما أسعفتها الاقدار باظهارها وتحقيقها وإلا اضمحلت أوربا .

قَالَبٍ جديدٍ، وَلِلنَّاسِ فائدةٌ كُبْرَى فى مَعْرِفَةِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الحقائق فَإِنَّ المُؤَلِّفَ عَالِمٌ حَكِيمٌ » اه

وبعدَ أَيَّامٍ عَادَ الكاتبُ المشَارُ إليه الى الكلامِ عَلَى ذَلِكَ الكتابِ فى جريدة (رَاپِيل) وَبَدَأَ مَقَالَتَهُ بهذِهِ الجملةِ : « لَقَدْ هَاجَ كتابُ موسيو ديمولان عَامِلَ الهَوَسِ (١) فى نفسى وقدْ تَكَلَّمْتُ عليهِ قَبْلاً ، وَلاَ بُدَّ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَيْهِ لِأَنَّنِى لَا أَعْرِفُ كِتاباً أَحْسَنَ مِنْهُ فى الغَرَضِ المَقْصُودِ لِمُؤَلِّفِهِ » اه

وَلَم يكْتُبْ أَحدٌ كَلِمَةً ضِدَّ الكِتَابِ إلاَّ وَاحداً مِنَ النُّوَّابِ ؛ ومعَ ذلكَ فَإِنَّهُ اعْتَرَفَ بِأَفْضَلِيَّةِ الإنكليزِ السكسونيين وَالالمانيين وَعَلَّلَ ذلكَ بِشِدَّةِ الْإِقْدَامِ وَكِبَرِ الهِمَّةِ ؛ وَلَعَلَّهُ مِنْ أولَئِكَ الثَّلاثَةِ وَالْأَرْبعينَ نَائباً الَّذِينَ قَالَ فِيهم موسيو ديمولان : إِنَّهُ لَمْ يَجِدْ لَهُمْ طَائِفَةً أَوْ حِرفَةً يُلْحِقُهُمْ بِهَا (٢)

وَلَم يمْضِ الشَّهْرُ الثَّانى عَلَى نَشْرِ الْكِتَابِ إِلاَّ وَقَدْ طَبَّقَ صِيتُهُ الخَافِقَيْنِ (٣) وَتَنَاوَلَتْهُ الْأَيْدى فى المَشْرِقَيْنِ (٤) وَكَتَبَتْ عنهُ الجرائدُ الألمانيةُ والتليانيةُ وَالانكليزيةُ وَالامريكيَّةُ وَغيرُهَا بِلَهْجَةٍ تُمَجِّدُ الْكَاتِبَ وَتَمْدَحُ الكِتَابَ .

(١) الهوس : طرف من الجنون (٢) راجع جدول تشكيل مجلس النواب
(٣) الخافقان : أفقا المشرق والمغرب، لأن الليل والنهار يخفقان فيهما (٤) المشرقان : المشرق والمغرب على التغليب.

وَلمَّا نشرَ موسيو ديمولان كتابه الثانى (التربية الجديدة) صَدَّرَهُ بكثير من الرسائل الّتى وَرَدَتْ عليه إثْرَ (١) كتابه الأوّل، ومِنَ الفائدَة أنْ نقتطِفَ الْبَعْضَ مِنهَا :

كتبَ إليه صاحبُ مَعملٍ صِناعيّ فى مديريَّة (سين ايواز)

« أنا رَجلٌ مِنْ أهْلِ الصناعةِ وَقدْ انتهزْتُ فُرْصَةَ السفَرِ فطَالَعتُ كتابَكُمْ وَلاَ حَاجةَ بى أنْ أذْكُرَ لكُمْ مِقْدارَ استفادَتى منه، إلاَّ أنَّهُ ألْقَى الحيْرَةَ فى أمْرى مِنْ جهةِ أنّى صَانعٌ وَوَالِدُ ابنَيْن فى الْعَاشِرَةِ والحادِيَةِ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهمَا ؛ وَأنَا أكْتُبُ إليكم هذا الخطابَ تحتَ تأثيرِ الإعْجَابِ بالْفَصْلِ الْمُتعَلّق بنِظَام التَّرْبيَةِ فى المَدَارِسِ الإنكليزية . أتوجَدُ مدَارِسُ فى فرَنسَا على هذا النَّحْوِ قَدْ جمَعَت العِلْمَ وَالعَمَلَ وَالرّيَاضَةَ وَالمَعيشَةَ البَيتيَّةَ حتّى أُسَارِعَ إلى وَضعِ ابْنَيَّ فيهَا إلى أنْ يشْتَدَّا فأُرْسِلَهُمَا إلى إحدى المدارسِ الإنكليزيَّةِ ؟ » اه

وكتبَ إليه صاحبُ معمل فى (هيرولت) :

« لمَّا طَالَعْتُ كتَابَكُمْ عقَدْتُ الْعَزيمَةَ على إرْسَالِ ابْنى إلى إحْدَى المدَارِسِ التى وَصَفْتُمُوهَا ، وَهوَ الآنَ فى الثَّانيَةَ عَشْرَةَ ، وقدْ سَافَرْتُ لأُشَاهِدَ مدْرَسَةَ (بيدال) بنفسى فأعْجَبَنِى نظَامُ التَّعْلِيمِ فيها، وكان

(١) إثر: بمعنى أثر أى عقب

ذلك من مؤكدات رغبتي في إرسال ابني إلى إنكلترا. نعم سيكون الأمر صعبًا علينا وبالأخص على والدته لأننا نسكن في جنوب فرنسا ولا يتيسر لنا أن نراه إلا في المسامحات الكبيرة، غير أن تربيته أعز وأبقى » اهـ

وكتبت إليه سيدة من (تولوز):

« لعلكم لا تعجبون من أن إحدى الوالدات تكتب إليكم لتسألكم بعض المعلومات عن المدارس التي وصفتموها وجعلتم كل مشتغل بمستقبل أبنائه يعرف قدرها ومزاياها، فكل من أمعن النظر[(١)] في الفوائد التي تنجم عن[(٢)] التعليم فيها يندب[(٣)] عدم وجود مثلها في البلاد الفرنسوية. لي ولدان ولكن يعوزهما[(٤)] الإقدام والهمة الذاتية التي هي شرط النجاح في هذه الأيام وهما صغيران وتربيتنا التي استولت على زمام الأطفال[(٥)] واستغرقت كل أوقاتهم لا تترك وقتًا يكون لهما فيه فكر ذاتي أو تصور شخصي ولا تؤدي إلى الغرض الذي أقصده فيهما ولو أني أثق بمدرسة (بيدال) من الجهة الدينية لما تأخرت عن أرسال ابني إليها. وأرجو سيدي عفوًا إذا أكثرت من السؤال فأنتم

(١) الافصح انعم النظر لا أمعن (٢) نجم كذا عن كذا: نتج وصدر (٣) من ندب الميت بكى عليه (٤) أعوزه الشيء اذا احتاج اليه فلم يقدر عليه (٥) يريد استبدت بهم وبملكاتهم

الذين شوّقتمونى الى الاستفهام إذ كشفتم القناع[١] للآباء والأمهات الفرنساويين عن سبل وطرائق يجب على الكثير منهم أن يسلكوها، وكثير يودّ سلوكها » اهـ

وكتبت إليه سيدة :

« أبنائى ثلاثة وأنا أشتغل بتربيتهم كل الاشتغال وإنى لمحزونة لمخالفة التربية التى يتلقونها فى المدرسة لأفكارى على خط مستقيم : ترى الطفل مشغولاً على الدوام بالأمور العقلية فلا يكاد يتفرغ هنيهة لأمور الحياة العملية؛ وعلى التحقيق ليس له من وقته يسير يمكنه من الرياضة والتمرينات الجسمية التى تقوّم الجسم وتشد الأعصاب. لهذا أتشوّف[٢] إلى أخبار التعليم وأتتبع خطى تعديل طريقته بكل اهتمام.

ولقد يتولانى القنوط[٣] عندما أشاهد ابنى الأول الذى بلغ الثانية عشرة من عمره متخمشاً[٤] لا يقدر على مساعدتى فى أى أمر عملى، قليل الهمة ضعيف الإرادة، ولكنى أتّهم فى ذلك المدرسة[٥] والواجبات الكثيرة التى تطلب من الأطفال. وقد دللتمونى بكتابكم على أنه يجب علىّ أيضاً أن أعد نفسى من الآثمين. إذ

(١) يعنى أظهرتم وأوضحتم (٢) أتطلع (٣) القنوط : اليأس (٤) كذا بالاصل ولامعنى لها، ولعلها منكمشا من انكمش الضرع تقلص يريد متقبضا متبلدا (٥) أى احمل المدرسة والتكاليف الكثيرة التى يكلفون بها إثم ذلك.

صَحِيحٌ أَنَّى وَوَالِدَهُ كلّما أَرَدْنا الخَوْضَ فى مَوْضُوعٍ مُهِمٍّ أَوْ فى عملٍ مِنَ الأَعمَالِ المُفِيدَةِ نَنْتَظِرُ حَتى لا يكونَ الأَوْلادُ مَعَنا، وَلو اتفقَ لِأَحَدِهِمْ أَنَّهُ اشْتَرَكَ مَعَنَا فى الحديثِ أَوْ تَطَرَّفَ إلى الخَوْضِ فى كَيْفِيَّةِ مَعِيشَتِنا أَوْ تَطاوَلَ فَسَأَلَنا عَنْ أَمْرٍ لَمْ يُدْرِكْهُ فيهَا رَدَدْناهُ فى الحالِ عَلى عَقِبِهِ بِأَلْفاظٍ كَهذِهِ : لَيْسَ هذا مِمَّا يَعْنِيكَ — إِشْتَغِلْ بِوَاجِباتِكَ — مَنْ كانَ فى سِنِّكَ فلا يُعَوَّلُ عَلَيهِ — إِخْرَسْ !!

« وَقدِ اجْتَهَدْتُ فى تَلْقِينِ أَبْنائِى المَبدَأَ الآتى : إِنَّ الأَطْفالَ يُضايِقُونَ النَّاسَ فيَجِبُ عَلَيْهِمْ إِذا كانُوا فى غَيرِ بَيْتِهِمْ أَنْ يكُونوا بِحَيثُ لا يَشعُرُ بِوُجُودِهِمْ أَحَدٌ مِنَ الحاضِرينَ . وَقدْ كافَأَتْنى إِحْدَى صَدِيقَاتى على اجتِهادِى بِهذِهِ الجُملَةِ : إِنَّ ابْنَاءَكِ لَعلَى تَهْذِيبٍ عَظِيمٍ .

« سَيِّدِى : لَقَدْ هَدَيْتَنِى بِبَعْضِ أَسْطُرٍ مِنْ كِتابِكَ إِلى أَنَّنى ضَلَلْتُ السَّبِيلَ وَذَكَّرْتَنى بذلكَ القَوْلِ الَّذى لَسْتُ أَذْكُرُ أَيْنَ قَرَأْتُهُ : « إِذا عامَلْتَ ابْنَكَ مُعامَلَةَ الرِّجالِ لا يَلْبَثُ أَنْ يَصِيرَ رَجُلاً » . وَعلى العُمُومِ أُسَلِّمُ مَعَكَ أَنَّ الأُمَّهاتِ الفَرَنْساوِيَّاتِ عَقَبَةٌ عَظِيمَةٌ أَمامَ الأَفكارِ الَّتى قُمتُمْ أَنتم وموسيو (بونفالو) بِنَشْرِهَا ، وَأَنَّ بَناتِهِنَّ لا يَصْلُحْنَ زَوْجَاتٍ لِلْمُسْتَعْمَرِينَ (١) . وَالزَّوْجَةُ الحَقِيقِيَّةُ التى أَتَمَنَّى

(١) لعلها المستعمرين بفتح الميم يعنى أنهن لا يصلحن لاهل المستعمرات التى نستعمرها فضلاً عن أنها تصلح لنا ، والأظهر انها بكسر الميم أى انهن لا يصلحن لمن يستعمرون البلاد ، يعنى هم أى لا يلقن لعظمتهم

وُجُودهَا في الْقَرْن الْمُتَمِّم للعِشْرِينَ هي التي تكُونُ صَدِيقةَ زَوْجها وَشريكتَهُ ورَفيقتَهُ وهيَ التي لاتقْتصِرُ على كَوْنِها وَالدَةَ أبنائِها المحترمَةَ ، بل تكونُ أليفتهُمْ وَمَرْجعَ سِرِّهِمْ قدْ عَرَفتِ الْحَياةَ وَاخْتَبرَتْ كلَّ أُمُورِهَا؛ لا لِتوَافِقَ على كلِّ أمْرٍ بَلْ لِتَفْهَمَ كلَّ شَيْءٍ. وَلَنْ يَجِبَ عَلينا أنْ نَنْسُجَ[1] على مِنوَالِ تلكَ الرُّومانيةِ التي قِيل فيها (أقامَتْ في بيتِها وَبَرَمَتْ مِغْزَلَ صُوفِها[2] » اه

هَذا ولم تَقْتصِرْ حركةُ الأَفكارِ التي أحدثها الكِتَابُ على الجرائِدِ وَالرَّسائِلِ بلْ تعدَّتْ، بعدَانتشاره أيضاً ، إلى المشتغلينَ بالتعليم وظهَرَتْ في خِطاباتِ رُؤساءِ الامْتحانَاتِ وَالَّذِينَ توَلَّوْا توْزِيعَ الجوائزِ وَالمكافآتِ السَّنويَّةِ على تلامِذَةِ المدارِسِ.وَمِنْ تمامِ الْفائدَةِ أنْ نأتيَ على طَرَفٍ منْ ذلك .

قالتجريدة (الطان) وهيَ أكبرُ الجرائدِ الفرنساويَّةِ وَأنفذها رأياً:

« قرأنا خُطَبَ توزيعِ المكافآتِ في هذا العام والَّذِي استرْقفَ نظرَنافيهاهو اتفاقُ الخطبَاءِجميعاً ، منْ غيْرِ مَوْعِدٍ بينهُم،في الإرشاداتِ والنصائحِ الَّتي ألقوْها على التَّلامذةِ ، فلَم نرَ هذهِ المرَّةَ في خُطَبِهِم ما جرَت بهِ الْعادَةُ مِنْ تمجيدِ التعليمِ المعروفِ وَمَدحِ الطرقِ

(١) نسج من باب ضرب وقعد فينسج كيضرب وكيقعد (٢) المغزل بكسر الميم وضمها. وبرمته يريد : أدارته

المألوفةِ وَالإطْراءِ (١) بِنتائِجِ الامتِحَانَاتِ ولا ما كُنَّا نَسْمَعُهُ منْهُم من الْجُمَلِ الطَّويلَةِ والقوْلِ المُوَشَّى (٢) فى الأدَبِ وقواعِدِهِ ، وَلكنَّهم أَجمعُوا تقريباً على الخَطابةِ فى موضوعِ العَمَلِ وَالحثِّ عليهِ وَامتداحِ خِصالِ الرُّجوليَّةِ الحقَّةِ وَتعْظيمِ شَأنِ فَضيلَةِ الإقْدامِ وَالهمَّةِ الذَّاتيَةِ ، وَلم يَقِفوا عِنْدَ ذلك بل امتَدَحُوا الُجرْأَةَ وَالتَّزَاحُمَ .

« هذا موسيو (رنى ميامى) مبعوثُنا فى تُونُسَ قدْ هَنَّأَ نفسَهُ بما شاهدَ منْ تقَدُّمِ التمرينَاتِ الرياضيَّةِ وَتَرْكِ تلْكَ الطَّريقةِ الوحشيَّةِ فى التعليمِ التى ما كانَ يُلتَفَتُ فيهَا لِغيرِ الرأْسِ حَيْثُ يُهْمَلُ الجِسْمُ أيَّ إِهمَالٍ (٣)

« وَهذا موسيو (بولسون) يَرْفَعُ رَايةَ المَجْدِ وَالْفخَارِ لِأَصحَابِ الإِرَادَةِ الصَّادِقةِ وَيُشيرُ إلى أَنَّ أوَّلَ وَاجِبٍ فى التَّرْبيَةِ هُوَ تكوينُ الرِجَالِ بالمعنى الصَحيح

« وَهذا موسيو (هنات) يحكُم على طَريقةِ التَّرْبيَةِ الَّتى تَرْجعُ إلَى أَنَّ الحكومةَ وَصيَّةٌ على الأَفْرَادِ (٤) بالرَّدَاءَةِ (٥) والفسادِ وَيَدْعُو الشُّبَّانَ إلى اعتناقِ الحِرَفِ المُسْتقِلَّةِ وَإن كانَتْ مما يَقْتضى المخاطَرَةَ وَالمُجَازفَةَ .

---

(١) يريد المبالغة فى المدح والثناء على نتائج الامتحانات (٢) يريد المزين المزخرف.
(٣) أى اهمالا أى اهمال (٤) أى تتحكم فى الافراد تحكم الوصى فى القاصر (٥) بالرداءة متعلقة بيحكم .

وَأُولئكَ غَيرُهم كثيرونَ مِنَ الخُطَبَاءِ يُحَادِثُونَ شبيبَتَنَا فيما وراءَ المُسْتَعْمَرَاتِ مِنَ الخيرَاتِ وَما يَنالُ النَّازحُ [1] اليها مِنَ المعيشةِ المُسْتقِلَّة وَبَسْطةِ اليَدِ ممَّا يُؤَدِّى أَيْضًا إلى زيادةِ ثَرْوَةِ الوَطَنِ وَيُعلى شأنَهُ وَيَشُدَّ أَزْرَهُ [2] »

وعلى هذا فقد ظهرَ اليومَ فى الأفكار رَدُّ فِعْلِ الماضى وَانْعَطفت [3] الأميالُ إلى التمَثُّلِ بالانكليز، وَهى حركةٌ من شأنها أن تُدْخِلَ الفرحَ فى قلوبِ مُحِبِّى الوَطَنِ. فَعَلينَا أَنْ نُقابلَ تلكَ الفصَاحةَ الحربيَّةَ بِهزَّةِ فرحٍ [4] فى النفوسِ وَأَنْ نرَى فيها تحذِيراً وَوعْداً وَرجاءً

وخطب موسيو بنى دى جولفيل فى مدرسة (كوندورسى):

يجبُ عليكم فى مسَاعدَةِ الضُّعَفَاءِ أَن تكُونوا أَقْوِيَاءَ فَقولوا وَلا تخشُوا أَحَدًا : إنَّ التكافُلَ فى الوُجُودِ نَوْعَانِ صحيحٌ وَفَاسِدٌ، طيبٌ وَرَدِىءٌ . أمَّا الأَوَّلُ فهوَ أَنْ يعمَلَ الرجُلُ لِغَيْرِهِ ما استطَاعَ ، وَهُوَ التكافُلُ الحقُّ فاعمَلُوا به جُهْدَكُم . وَأَمَّا الثانى فهو أَنْ ينتَظِرَ الوَاحِدُ كُلَّ شَىْءٍ مِنْ غيرِهِ وَهُوَ تكافلٌ لاخيرَ فيهِ ولا قيمَةَ لهُ، وَإنْ كانَ لهُ أحزَابٌ وَمُعجَبُونَ . فَاحْذَروهُ وَاجْتَنِبُوهُ وَلاَ يُعَوِّلَنَّ الوَاحِدُ منكم فى نفسهِ على غَيْرِهِ ؛ بل لِيكُنِ اعْتمادُهُ أوّلاً على نَفْسِهِ وَهِمَّتِهِ وَإِرَادَتِهِ

(١) أى ماينا له الذاهب إليها من بلاده، ويقال نزحت الدار أى بعدت (٢) الأزر: القوة وشد أزره أى قواه وعاونه (٣) انعطفت مالت والتمثل التشبه (٤) الهزة: الطرب

وَصَبْرِهِ وَجَلَدِهِ وَمُثابرَتِهِ على الْعَمَل بِذَاتِهِ، وَعَوِّدُوا أَنفسَكم على الإِرَادَةِ» اهـ

وَقابل موسيو (فاجت) في مدرسة شارلمان بين الحِرَفِ اليَدَوِيَّةِ وَبينَ الْحِرَفِ الأَدَبِيَّةِ وَبَرْهَنَ على أَنَّ الأُولى ليسَتْ أَقَلَّ فَضْلاً ولاَ شَرَفاً مِنَ الثَّانيةِ.

إلاَّ أَنَّ الكاتِبَ الَّذِى اهْتَزَّتْ لِقامِهِ الأفكارُ وَانحَازَتْ لِصَوْتِهِ الأَمْيالُ[1] وَتَمَّ بقولِهِ النصرُ لِكاتِبِ سرِّ تقدم الإِنكليز السَّكسونيين ومؤلفه هو موسيو (جول لومتر) وهو الذى أهْدَاهُ المُؤلفُ كتابَهُ الثانى (التربية الجديدة) قالَ فى جريدة الفيجَارو وَهِيَ أيضاً مِنْ أَهَمِّ الجرائدِ الفرنساويةِ وَأَكثرِهَا انتشاراً:

« ما أصْعَبَ كِتابَ موسيو ديمولان على النفُوسِ. وَلكنْ يجِبُ أنْ يَقرَأَهُ النَّاسُ وَيَشرَبُوا ذَلكَ الكأسَ الذِى مُلِئَ بالحسَرَاتِ[2] إِنَّ الَّذِى يَقُولهُ موسيو (ديمولان) كُنَّا نَعرِفُهُ أوْ نشعُرُ بهِ، ولكنَّهُ حَدَّدَ المَطْلَبَ وَجَمعَ بينَ شَتَاتِهِ جَمعاً محكماً. وَالَّذِى يُسْتَخْلَصُ مِنْ هذا الكتاب الَّذِى يُقنِعُ القُرَّاءَ بقَدْرِ مَا يُحْزِنهُمْ هُوَ أَفْضَلِيَّةُ الأُمَّةِ الانكليزية السكسونية مِنْ جهَةِ أَحْوَالِهَا الاجتمَاعِيَّةِ[3] وَسياسَتِها وَتجارَتِهَا وماليَّتها وأخلاقِها وآدابِها مقَابلَ ضَعفِنا وَمَسْكَنَتِنا وَعدَمِنا

(١) انحازت: انضمت له (٢) الكأس مؤنثة فتذكيره إياها خطأ والمؤلف رحمة الله عليه على مبدأ خطأ مشهور ولا صواب مهجور... (٣) عبارة المترجم من حيث ولكنا استبدلنا بها من جهة.

فى الوُجُودِ ، لِأَنَّ أَفضَلِيَةَ هَزلِيَّاتِنا وَأَفضَلِيةَ طُهَاتِنا (١) لَنْ تنجينا مِنَ الوَهْدَةِ الَّتِى نحنُ فيها . ولقدْ يجُوزُ أَنْ تكُونَ أَفضَلِيَّتُنا الفنِّيَّةُ لافائِدَةَ فِيها

« وَمِنْ سُوءِ الحظِّ لا يمكننا القولُ بأنَّ الزَّمانَ قُلِّبَ فاليومَ مُرٌّ وَغداً حُلوٌ ؛ لِأَنَّنا أُمَّةٌ اتكاليةٌ : كلُّ واحدٍ مِنْ أَفرادِها يَعتَمِدُ عَلى البَقِيَّةِ ؛ وَالانجليزُ السكسونيون أُمَّةٌ استقلاليةٌ لا يَعتَمِدُ الواحدُ مِنْ قومِها إِلاَّ عَلى نَفسِهِ ؛ وَالنَّتِيجةُ مِنْ هذا خطرٌ عَلينا »

ثمَّ أَخَذَ الكاتِبُ يَسرُدُ أَفكارَ المؤلفِ وَيؤيِّدُ استنتاجاتِهِ إِلى أَنْ قالَ :

« ذَلِكَ ما يجدُهُ القُرَّاءُ مُفَصَّلاً وَمُبرْهَناً عليهِ بأَقوَى الحُجَجِ فى كتابِ موسيو ديمولان مُضافاً إِلى كثيرٍ غيرِهِ ؛ كلُّهُ حقٌّ وَكلُّهُ لا يُوجِبُ العَزَاءَ ولا يُؤدِّى إِلى السُّلوانِ (٢) »

وَبَعدَ أَنْ جارَى المؤلفَ فى مُقدِّمةِ الكتَابِ وَأَتى على ذِكرِ انتشَارِ الأُمةِ الانكليزية السكسونية خَتمَ مقالتَه بما يأتى :

« ليس لنا إلاَّ أَنْ نحملَ ما فاتنا منَ الفضائلِ التى كثرتْ فى أُمةِ الانكليز السكسونيين فنساعد على نُموِّ الهِمةِ الشخصيةِ وَنعوِّدَ أَهلَنا عَلى الاعتمادِ على أَنفسِهمْ وَعلى ذلكَ الإِقدامِ والعزيمةِ والاهتمامِ .

(١) جمع طاه: الطباخ (٢) بمعنى العزاء

« يَلْزَمُنا آباء يعتقدُون كلَّ الاعتقادِ أنَّهُ لا يَجِبُ عليهم لأَبْنائِهِم إلاَّ التَّرْبِيةُ بشرْطِ أنْ تكُونَ حقيقيةً قويةً .

« يَلْزَمُنا شُبَّانٌ يعتقِدُون كلَّ الاعْتِقادِ أنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ لأنفُسِهِمْ تحصيلُ رِزْقِهِمْ في الحياةِ الدُّنيا .

« يَلْزَمُنا شُبَّانٌ يَعقِدُونَ الخناصِرَ(١) على أنْ يَطْلُبُوا مِنَ الزَّوَاجِ رَفِيقاً لا مَهْرًا جَزِيلاً

« يَلْزَمُنا حُكُومَةٌ تُرْجِعُ اختِصاصَها إلى الحدِّ الأَدْنَى وَتُقَلِّلُ عمَّالَها إلى الحدِّ الأَدْنَي وَتَرُدُّ بذلكَ الشُّبانَ إلى المِهنِ الْمُسْتَقِلَّةِ الَّتي تَقْتَضِى الهِمَّةَ الذَّاتيَّةَ والإقدامَ والعملَ .

يَلْزَمُنا حالةُ اجْتِماعٍ يكونُ فيها المُوَظَّفُ وَالسِّياسيُّ وَمَنْ لا عملَ لهُ أَقَلَّ اعْتبارًا مِنَ الزُّرَّاعِ وَالصُّنَّاعِ وَالتُّجَّار

« يَلْزَمُنا أَنْ نُلْغِيَ دُرُوسَ اللُّغاتِ المَيِّتةِ مِنْ مَدارِسِنا الابتِدَائيَّةِ وَأَنْ نُلْغِيَ جمعيَّةَ المَعارِفِ ذَاتَها إنْ لمْ تُلْغَ جمعياتُ الْعُلوم ، وَأَنْ نُلْغِيَ مدرسةَ الهندَسةِ وجميعَ مدارسِ الحكومةِ ، وَأَنْ نُلْغِيَ طريقةَ الانتخابِ التى يتساوَى فيها صوتُ العَظِيمِ بالحقيرِ والجاهِلِ بالْعالِمِ وَالزَّارعِ بأَهْلِ البَطالةِ وَالكَسَلِ ، وَأَنْ نُلْغِيَ ثلاثةَ أَرْباعِ المُوَظَّفينَ وأنْ نُلْغِيَ ذلكَ النِّظامَ الإِدارِيَّ الَّذِى أَسَّسَتْهُ الثَّوْرَةُ وَأَيَّدَتْهُ الإمْبرَاطوريَّةُ الأُولَى .

(١) يقال هذا أمر تعقد عليه الخناصر: أي يعتبر و يحتفظ به، والخنصر: الاصبع الصغرى.

« إنِّي لا أَرَى ضَرَرًا منْ إلغاءِ هَذَا كلِّهِ ، وَإنْ كُنْتُ أَرَاهُ صَعْبًا.

« يَلْزَمُنَا اقْتِصَادُ الْأَمْوالِ الَّتِي نَصْرِفُهَا على الجُيُوشِ فإِنَّهَا تَجْلُبُ[١] عَلَينَا الخَرَابَ وَالدَّمَارَ ، وَإِلْغَاءُ[٢] الخِدْمَةِ العَسْكَرِيَّةِ الَّتِي تأْخُذُ منْ حيَاةِ شُبَّانِنَا ثلاثَ سِنينَ وَلاَ تُنْمِي رُوحَ الْهِمَّةِ فِيهِمْ إلاَّ يَسِيرًا ، وَأَنْ نكْتَفِيَ كما تكتفِي انكلترَه بجَيْشٍ لاَ يَزِيدُ عَدَدُهُ على مائةِ أَلْفٍ أَوِ الْوِلاَيَاتُ الْمُتَّحِدَةُ[٣] بجُنْدٍ لا يَزِيدُ عَنْ سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفًا .

« يَلْزَمُنَا أَنْ نُلْغِيَ تِلْكَ الْحُجَّةَ الْمَادِّيَةَ[٤] إلى الدِّفَاعِ عَنِ الْوَطنِ وَالطُّمُوحِ إلى الْأَخْذِ بالثأْرِ مِنْ قَاهِرِينَا .

« يَلْزَمُنَا أَنْ نَنْسَى انكِسَارَنَا الَّذِى أَضْعَفَنَا وَجَعَلَنَا نَخْجَلُ فى كُلِّ آنٍ .

« يَلْزَمُنَا أَنْ نُبَدِّلَ نُفُوسَنَا

« يَا قَوْمِ هَلْ تَعْرِفُونَ وَسِيلَةً نُوجِدُ بِهَا الهِمَّةَ وَالإِرَادَةَ مِنْ حَيْثُ فُقِدَتَا ، وَنَجْعَلُ اللَّاتِينِيَّ أَوِ السَّلْتِيَّ[٥] الضَّعِيفَ انكليزِيًّا سَكْسُونِيًّا مِنَ الْجَبَّارِينَ .

« وَبَعدَ هَذَا فعَلَيكُمْ بِمَا يُسَرِّي[٦] الْهَمَّ عنكمْ لَعَلَّ صَاحِبَ

---

(١) جلب يجلب كضرب يضرب وكطلب يطلب (٢) أى ويلزمنا الغاء (٣) أى أو كما تكتفى الولايات المتحدة بجند الخ (٤) لعله يريد التعلة الحقيرة التي نتعلل بها ونتلهى عن واجباتنا — تعلة الدفاع عن الوطن (٥) السلت شعب قديم تشعب منه الفرنسيون (٦) يذهب

الكِتَابِ الذى اشتَدَّ وَقعهُ قد بالَغ وَغَالى

« يَاقوم لَا ينفعكم اعتقادكم بأنكم أمَّة خير تطلب الخيرَ للنَّاسِ ، وبأنَّ الإنكليزَ السَّكسونيينَ أمة اختصاصٍ [1] وَخِداعٍ وَبأنَّ الدَّوْلَةَ الألمانيَّة إنما تَعيشُ مِنْ فوائِد نصرِهَا عَليكمْ

يَاقومِ لَا يَنفعُكمْ غَيرُ إصْلاحِ حَالِكمْ فَاعملُوا إنْ كُنْتُمْ فِى التَرَقِّى رَاغبينَ » اه

ثم كتبَ ذَلكَ العَالمُ الشهيرُ رِسالةً أُخرى ، وَكانَتِ الأُولى قَدْ أَجْهَزَت [2] على الطَّبْعةِ الْأُولى مِنَ الكتاب . وَيقولُ صاحبُ الْتِزامِهِ إِنَّهُ اضْطُرَّ إِلى طَبعِ الثانيةِ عَلى عَجَلٍ فَقَدْ كانَ يُطْلَبُ مِنه فى الْيَوْمِ الْوَاحدِ مَا يَزِيدُ عَلى مِائةِ نُسْخَةٍ . وَرَدَّدَتْ جميعُ الجَرَائدِ صَدَى هاتَيْنِ المَقَالَتَيْنِ وَنَشَرَتْهُمَا جرَائِدُ الأَقاليم كُلُّهَا على التَّقْرِيب ، وَلِكلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا قَوْلٌ يُشَجِّعُ عَلَى اقْتِناءِ هذَا الْكِتَابِ وَيؤَيِّدُ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ النَّصائحِ وَالمَبَادِئ .

هَذا هوَ الْكِتَابُ الَّذِى نُهْدِى الْيَومَ تَرْجمتَهُ إِلَى النَّاطِقينَ بالضَّادِ [3] عمُومًا وَإِلى المِصْرِيِّينَ خُصوصاً لِمُطَابَقَةِ الْوَقَائعِ الَّتى دُوِّنَتْ

---

(١) لعله يريد أمة أنانية تعمل لنفسها فقط (٢) يريد أن الرسالة الاولى كانت سببا فى رواج الطبعة الاولى ونفادها (٣) الذين لغتهم اللغة العربية

فيهِ عَنِ الأُمَّةِ الفرنساوية لِمَا هُوَ حَاصِلٌ فى بِلَادِنَا وَلِاتِّفَاقِ البَلَدَيْنِ فى كَثِيرٍ مِنَ الْعَادَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَفْكَارِ الَّتِى عُنِىَ[٢] المُؤَلِّفُ بِبَيَانِ جِهَاتِ النَّقْصِ فِيهَا. اللَّهُمَّ إِلَّا أَنَّ الصَّغِيرَةَ لَدَيْهِمْ كَبِيرَةٌ لَدَيْنَا وَالِاسْتِثْنَاءُ فيهم قاعدةٌ عموميَّةٌ عِنْدَنَا .

وَوَجْهُ الشَّبَهِ هذا هو الذى اخْتَرْنَاهُ سَبَباً فى طَلَبِ الْإِذْنِ مِنَ المُؤَلِّفِ . وَإِلَيْكَ نَصَّ مَا بَعَثْنَا به اليهِ بَعْدَ الدِّيبَاجَةِ :

لَمَّا قَرَأْتُ كِتَابَكُمْ النَّفِيسَ « سِرَّ تَقَدُّمِ الانكليز السكسونيينَ » أَثَّرَ عِنْدِى بِمَا رَأَيْتُهُ مِنَ الشَّبَهِ الكُلِّى بين أُمَّتِى وَأُمَّتِكُمْ : فَأَخْلَاقُنَا أَخْلَاقُكُمْ وعَادَاتُنَا عَادَاتُكُمْ ، والفَرْقُ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَنَّ العُيُوبَ عِنْدَنَا كَبِيرَةٌ جِدًّا . ولا شَكَّ فى أَنَّهُ سَيَكُونُ لِكِتَابِكُمْ هَذَا مِنَ التَّأْثِيرِ ما يَرْجِعُ بِالْفَائِدَةِ عَلى الأُمَّةِ الفَرَنسَاوِيَةِ ، لِذَلِكَ رَأَيْتُ أَنَّ نَقْلَهُ إِلى اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ يُفِيدُ أَهْلَ بِلَادِى أَفَهَلْ[١] تَسْمَحُونَ لى بِتَرْجَمَتِهِ .

وَقَدْ تَفَضَّلَ حَضْرَتُهُ فَأَجَابَنِى عَلى طَلَبِى فى ٤ يوليو سنة ١٨٩٨ بما يأتى :—

« أَخَذْتُ خِطَابَكُمْ بَعْدَ عَوْدَتِى مِنْ غَيْبَةٍ قَصِيرَةٍ وَقَدْ سُرِرْتُ جِدًّا من حُسْنِ ظَنِّكُمْ بِكِتَابِى . وفى اعْتِقَادِى أَنَّ بَلَدَكُمْ يَسْتَفِيدُ مِنْ تِلْكَ

---

(١) عنى بكذا مبنى للمجهول : أى اهتم به (٢) الاصح وهل دون الهمزة التى هى استفهام آخر .

الأَفكارِ مِثلَ بَلدِى فأنا أُصرِّحُ لَكُمْ، بِكَمالِ الارْتِياحِ، أَنْ تُتَرجِمُوه إِلى اللُّغةِ الْعَرَبِيَّةِ »

وَيَحْتَاجُ سِرُّ تقدُّمِ الانكليزِ السكسونيين فى مُطالَعَتِهِ إلى دِقَّةِ نَظَرٍ وَرَوِيَّةٍ حتى لا يفُوتَ الغَرَضُ المَقصودُ لنا مِنْ تَرْجَمَتِهِ وهُوَ تَنْبيهُ الفِكْرِ إلى أَسْبابِ ما نحْنُ فيهِ مِنَ التَّأَخُّرِ وَالانحِطاطِ.

ومِنَ المُقَرَّرِ أنَّ مَيْلَنا إلى مُطالَعَةِ المؤلَّفاتِ التى مِنْ هذا القَبيلِ ضَعيفٌ حتَّى فى هذهِ الأيَّامِ، وأنَّ المُشْتَغِلينَ بنَشْرِها أشْقَى العامِلِينَ: فإنَّ الواحِدَ مِنهمْ قدْ يَنْتَهِبُ أوْقاتَ العمل فيها مِنْ سُوَيْعاتِ نَوْمِهِ وَلحظَاتِ رَاحَتِهِ وَيَتَحَمَّلُ مِنَ المَتاعِبِ مالاَ تُقَدَّرُ قيمتُهُ ثمَّ لا يَسْتَعِيضُ عَنْ تَعَبِهِ بِلَذَّةِ أنَّ النَّاسَ يقرأُونَ مَا أَهْدَى إِلَيْهِمْ فيَرْتاحَ لِكَوْنِهِ كانَ لِقوْمِهِ مِنَ النَّافِعِين.

لَكِنَّ الذي لاَ يأْخُذُ الأُمُورَ بِظَوَاهِرِهَا بلْ يَطْلُبُ الحَقيقةَ أنَّى وُجِدَتْ، يَعْلَمُ أنَّ انْزِوَاءَ رَغْبَةِ النَّاسِ عَنْ مُطالَعَةِ المُؤَلَّفاتِ المُفِيدَةِ ومَلَلَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِمَا يَجْرِى فى الْوُجُودِ مِنْ تَقَدُّمِ الأُمَمِ بِتَرَقِّى المَعارِفِ وَاتِّسَاعِ نِطَاقِ التَّرْبِيَةِ والتَّعْلِيمِ لم يكُنْ ناشِئاً عَنْ بُغْضِهِمْ لِلعِلْمِ أَوْ نُفُورِهِمْ مِنَ القَائِمِينَ بِنَشْرِهِ، وَإِنما هو مُسَبَّبٌ عَنْ طُولِ زَمَنِ التَّرْكِ النَّاشِئِ عَنِ الضَّعفِ العَامِّ الَّذى أَلَمَّ بِرُوحِ الشَّرْقِيِّ مُنْذُ أَجْيَالٍ طَوِيلَةٍ حَتَّى أَماتَ مَلَكَةَ حُبِّ الاسْتِطْلاَعِ، وَجَعَلَ النَّظَرَ فى أَحْوَالِ

الأُمَّةِ خُصُوصًا وَأَحْوَالِ الأُمَمِ عُمُومًا مَقْصُورًا على ما يُحَسُّ إِحْسَاسًا مادِّيًّا ، فلا يَتَحَرَّكُ الفِكْرُ إلاَّ مِنْ جَانِبِ الشُّعُورِ الجِسْمانيِّ . على أَنَّ تَحَرُّكَهُ إِنَّما يكُونُ لِمُجَرَّدِ التَّوَجُّعِ وَالتَّحَسُّرِ أَوْ لِمُجَرَّدِ الِابْتِهاجِ وَالفَرَحِ الْوَقْتِيِّ ثمَّ لا يَلْبَثُ أَنْ يَرْجِعَ إِلى السُّبَاتِ[1] الْعميقِ فَيَذْهَلُ عَنْ أُمَّتِهِ وَعَنْ نَفْسِهِ وَيُصْبِحُ كَما أَمْسَى ، بلْ أَقَلَّ عَزْمًا وَأَكْثرَ هَمًّا

ذَلكَ ما أَصَابَ الأُمَمَ الشَّرْقِيَّةَ وَاسْتَحكَمَ فى عقُولِنا حَتَّى عَمَّ الفُتُورُ وَصَارَ كأَنَّهُ حالةٌ فِطْرِيَّةٌ فَحَسِبْنَاهُ خُلُقًا مِنْ أَخْلاقِنَا وَعَدَدْنا مَنْ يَخْرُجُ عَنْ حَالَتِنا هذه مُبْتَعِدًا عَنِ المَنْهَجِ القَوِيمِ وَمَارِقًا[2] عَنْ تَقالِيدِ الأُمَّةِ وَعادَاتِهَا وَمُهِينًا لهَا فِيما ترَى التَّمَسُّكَ بِهِ مِنْ مُوجِباتِ كَمالِهَا . خُصُوصًا إِذَا جَاءَ بِمَا يكْشِفُ الْقِناعَ[3] عَنِ المَصَائِبِ المُتَوَلِّدَةِ مِنْ ذَلِكَ الخُمُولِ وَيُبَيِّنُ وَجْهَ الضَّرَرِ فِيما نَحْنُ فيهِ مِنَ الانْزِوَاءِ وَنَدَّدَ بِمَا اعْتَقدَ — كَما هُوَ الصَّحِيحُ — أَنَّهُ أَصْلُ الشَّقَاءِ وَمَجْلَبَةُ الْعَنَاءِ مِنْ أَخلاقٍ تُخَالِفُ الْغَرَضَ مِنَ الحَياةِ وَطِباعٍ تَبْعُدُ بأَصْحَابِهَا عَنْ مَحَجَّةِ[4] النَّجاةِ وَمُعْتَقَدَاتٍ يَقُومُ فيها الوَهْمُ وَالخَيالُ مَقامَ حَقِيقَةِ الحَالِ . تِلْكَ عادَةُ المَرْءِ إِنْ كَلَّتْ هِمَّتُهُ وَوَهَنَ عَنِ الْقِيامِ بِمَا وَجَبَ كَانَ أَقْرَبَ إِلى الْغَضَبِ دَفْعًا لِمُؤَثِّرٍ يُؤْلِمُهُ ، وَانْتِقَامًا مِنْ نَصُوحٍ يَدِبُّ على

(١) السبات: النوم واصله الراحة ومنه سمى يوم السبت (٢) من مرق السهم من الرمية خرج من الجانب الآخر. ومنه يقال مرق فلان من الدين (٣) استعارة من قناع المرأة ما تقنع به وجهها (٤) المحجة: جادة الطريق

مَوْضع الألم فتتأثرُ النفسُ مع فقدِ القُدْرَةِ على نفي أسبابِ التأثرِ ويَصيرُ المُخَاطَبُ كمَنْ شُدَّ وَثاقه(١) وانهالَتْ عليهِ السياطُ(٢) فلا هُوَ قادرٌ على تحمّلِ آلامِها ولا هُوَ يَجِدُ مِنْ وَثاقِهِ فَكاكاً فيَكتفي بالصِّياحِ والإكثارِ مِنَ النُّواحِ وتمتلئ نفسُهُ بالحقدِ على ذلكَ المُسيءِ إليْهِ في نَظَرِهِ فيَبيتُ نفوراً منهُ لا يَسْمَعُ لهُ قوْلاً ولا يَعِي عنْهُ فِعلاً.

هذا هوَ السبَبُ في الإقبالِ على مُطالعةِ القِصَصِ والخُرافاتِ والتّهافُتِ(٣) على اقتناءِ التافِهِ(٤) منَ المؤلّفاتِ والتّسابُقِ إلى حِفْظِ كُتُبِ المُجُون.(٥) والرِّواياتِ، والنُّفورِ منَ القَوْلِ الجِدِّ وهَجْرِ النَّافعِ وإغفالِ المُفيدِ وفيهِ تعليلٌ واضحٌ لِكَثْرَةِ انْتشارِ كُتُبِ المُجُونِ والهَذَيان(٦) وقلّةِ كُتُبِ العُلومِ الصّحيحة. فإنّ الأولى لا تطلبُ شيئاً منْ همّةِ القُرّاءِ ولا تَشْغَلُ مَحلاً منْ مُدْرِكَتِهِمْ(٧) ولا يتكلّفونَ أكثرَ منَ النظرِ إلى الأحْرُفِ لِيُحَصِّلوا(٨) مِنْهَا صُورَةً في الذِّهْنِ تُضْحِكُهُمْ أَوْ يُدْرِكُوا واقعةً تُعْجِبُهُمْ. ثمّ يَنْقَضِي الوَقْتُ بِسَلامٍ وغِطاءُ الإدْراكِ

---

(١) الوثاق بفتح الواو وكسرها: القيد والحبل ونحوهما (٢) جمع سوط الذى يضرب به (٣) من قولهم تهافت الفراش فى النار اذا تطاير اليها (٤) التافه الحقير الخسيس من كل شيء (٥) أصل المجون أن لا يبالى الانسان ما صنع، والمراد كتب الهزل (٦) يريد الهزل الشبيه بالهذيان (٧) أى الحاسة التى تدرك الاشياء ومعلوم أن أول مراتب وصول العلم الى النفس هو الشعور ثم الادراك ثم الحفظ الى آخر ما هو مبسوط فى كتب الفلسفة (٨) يقال حصل الشيء تحصيلا

الحقيقي مُقفلٌ عليه. ولأنَّ الثانية تقتضي إمعانَ النظر[١] وتستوقفُ الفكرَ وتنسابُ فى النفسِ فتُحدِثُ فيها من التأثيرِ ما يهيجُ خاطرَ المطالعِ ويدعوهُ إلى العملِ أو يُنبِّهُهُ إلى الواجبِ عليهِ. فإنْ كانَ من أهلِ الهممِ الساقطةِ — وهوَ الغالبُ — وجدْتَهُ يشعرُ بثقلِ الواجبِ المطلوبِ منه. ومتى أحسَّ من نفسِهِ العجزَ عن القيامِ بهِ أسرعَ إلى طرحِ الكتابِ واشتغلَ عن العملِ بالتعنيفِ والعتابِ وربَّما أوقدَ النارَ وأحرقَ الكتابَ كما فعلَ بعضُهُمْ فى العامِ الماضى بترجمةِ كتابِ الإسلامِ ظنًّا بأنَّ إحراقَهُ ينجيهِ من وصمةِ[٢] الخمولِ الذى انغمسَ فيهِ.

تلكَ حالٌ تسوءُ عقباها وتدعو إلى أسوأَ منها، وقد أحدثتْ عندنا من انحلالِ الأخلاقِ وتمزُّقِ الروابطِ ما ظهرتْ نتائجُهُ فى جميعِ مشاعرِ الأمَّةِ وتقاليدِها.

هذهِ المجتمعاتُ أصبحتْ معدومةً فى منازلنا حتى بينَ أهلِ الحرفةِ الواحدةِ، بلْ صارَ هؤلاءِ أشدَّ الناسِ نفورًا بعضُهم من بعضٍ: فجهلَ كلٌّ واحدٍ سبيلَ أخيهِ وغابتْ عنهُ بذلك منفعتُهُ ومنفعةُ مواطنيهِ وضعفْنا بتفرُّقِنا وسهُلَ على المزاحمِ أن يفوزَ بيننا فوزًا مبينًا. نعمْ يُوجدُ عندنا مجتمعاتٌ كثيرةٌ فى هذهِ الأيامِ ولكنها حولَ

(١) الافصح إنعام (٢) الوصمة العيب والعار

الكُؤوسِ وَالأَكْوَابِ (١) أو في مَيادِينِ المَلاهِي وَالأَلْعاب

وَتِلْكَ الجرائدُ على كَثْرَتِها وَانْتِشارِها لا يُقرَأُ مِنْها في كُلِّ يَوْمٍ إلاّ سافرَ فُلانٌ وَعادَ فلانٌ وَنَشكُرُ فُلاناً وَنُحَذِّرُ فُلاناً ، وهكذا. وكُلُّهُ رَاجِعٌ الى ذَلِكَ الحالِ (٢) الّذِي استَولَى على الأُمَّةِ فجعلها لا تَقبَلُ إلاّ ما يُوافِقُ الكَسَلَ وَيُلائِمُ عَدَمَ الحَرَكَةِ في كُلِّ شَيْءٍ . أَمَّا ما كانَ في تلكَ الجرائِدِ مِمَّا يُرْشِدُ الى فَضِيلَةٍ أَوْ يُنَبِّهُ إلى رَذِيلَةٍ أَوْ يُوَضِّحُ حَقِيقَةً فحَظُّهُ حَظُّ كُتُبِ الجِدِّ مِنْ جعلها خَلْفَ الظَّهْرِ وَالِاسْتِعاضَةِ عَنْها بما لا يُفِيدُ .

لَكِنْ على قَدْرِ فِقْدانِ الشُعورِ العَامِّ في الأُمَّةِ يَجِبُ العَمَلُ عَلَى تَنْبِيهِهِ وَبِمِقْدَارِ إعْراضِها عَنِ النَّافِعِ يَنْبَغي السَّعْيُ في حَمْلِها عَلى الرَّغْبَةِ فيهِ .

وَمِنَ الحقَائِقِ أَنَّ الأُمَّةَ لا تَنْهَضُ مِنْ رَقْدَتِها ولا تَهُبُّ مِنْ سُباتِها إلاَّ اذا خَلَصَتْ مِنْ قُيودِها وفارَقَتْها الأَمْراضُ التي تَنْهَكُ (٣) قُواهَا وَتَحُطُّ مِنْ عَزِيمَتِها .

وَلاَ يَتَيَسَّرُ لِلأُمَّةِ أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْ آلامِها وَتَبْرَأَ مِنْ أَمْراضِها إلاَّ اذا عَرَفَتْ أَسبابَها وأَحاطَتْ بِمُوجِباتِ الضَّعْفِ فيها

فَأَوَّلُ وَاجِبٍ على من يَطْلُبُ مَصلحَةَ أُمَّتِهِ أَنْ يُبَيِّنَ لَها مَواضِعَ الضعفِ المُلِمِّ بِها (٤) حَتَّى اذا تَمَّ تَشْخِيصُ الداءِ سَهُلَتْ مَعْرِفَةُ الدواءِ .

---

(١) جمع كوب : الكوز الذى لاعروة له (٢) الحال يذكر ويؤنث فيقال حال حسن وحال حسنة، وقد يؤنث بالهاء فيقال حالة (٣) من نهكته الحمى هزلته (٤) الملم بها : النازل بها

وَلَيْسَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّنَا مُتَأَخِّرونَ عَنْ أُمَمِ الغَرْبِ وَأَنَّنَا أَمامَهَا ضِعافٌ لا نَسْتَطِيعُ مغالبَتها ولا يَسَعُنا أَنْ نفوزَ ببُغيَتِنا ما دُمنا ودامَتْ على هذا الحال :

نَحْنُ ضِعافٌ فى كلِّ شَىْءٍ تقومُ به حياةُ الأُمَمِ ، مُتأَخِّرونَ فى كُلِّ شىء عليه مَدارُ السّعادَةِ . ضِعافٌ فى الزِّراعَةِ وهِىَ الأُسُّ(١) المَتِينُ الذى تَقومُ بهِ حياةُ الأُمَمِ والشُّعوبِ فلا مَطْمَعَ لِرَجُلٍ لا يُحَصِّلُ عَيشَ يَوْمِهِ ولا حَوْلَ لِأُمَّةٍ لا تَجِدُ ما تَقْتاتُ منه . وَبالزِّراعةِ تَأْمَنُ الأُمةُ غائلَةَ الشَقاءِ(٢) المادِّىِّ فتتمكَّنُ مِنَ النُّهُوضِ إِلى الحَياةِ الأَدَبِيَّةِ وطَلَبِ الكمالِ ، وَنحْنُ لا نَعرِفُ حَتَّى اليَوْمِ مِنْ أُصُولِها غيْرَ شَقِّ الأَرْضِ بِقِطْعَةٍ مِنْ حَدِيدٍ مُرَكَّبَةٍ فى كُتْلَةٍ مِنَ الخَشَبِ يَجُرُّهَا ثَوْرَانِ، وَرَمْىِ الْبُذُورِ كما كانَ يَرْمِيهَا آباؤُنا ثُمَّ انْتِظارِ الرِّبْحِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الْكَسَلِ وَالِانْكِمَاشِ(٣) وَأَهْلُ الْغَرْبِ يَسْتَحْدِثُونَ لإِصْلاحِ الأَراضِى كلَّ يَوْمٍ جَدِيداً ، وَيَخْتَرِعُونَ مِنَ الآلاتِ ما تَتَضاعَفُ بِهِ الهِمَمُ وَتَشْتَدُّ بِهِ الأَيْدِى ، وَيُؤَلِّفُونَ الشَّرِكَاتِ لِلْقِيامِ بِمَا يَعْجِزُ عَنْهُ الأَفْرَادُ مِنْ جَلْبِ المِيَاهِ وَتَصْرِيفِهَا وَجَمْعِ الحاصِلاتِ وَبَيْعِهَا وَغَيْرِ ذَلكَ مِمَّا جعلهُمْ يَسْتَغِلُّونَ(٤)

(١) الأس والأساس: أصل البناء (٢) الغائلة: الفساد والشر والهلاك (٣) المراد بالانكماش هاهنا التقبض من انكماش الضرع وهو تقلصه (٤) أى يجعلون الصخر يأتى بالغلة والثمرة

الصَّخْرَ وَيَسْتَنبِتُونَ الجبالَ ، والزِّرَاعَةُ عِندَنا حَلِيفَةُ (١) الانحطاطِ .
فالفلاَّحُ هُوَ ذَلكَ المِسْكِينُ الَّذِى اقتفى أَثَرَ أَبيهِ القَدِيمِ فى عملِه وَلَمْ
يُجَدِّدْ بعدَهُ طريقةً ولا صِنفًا فاكتَسَى أَرْدَأَ الملاَبِسِ وَتَغذَّى بأَخسِّ
المأْكُولاتِ وَقضَى حياتَهُ فى أَدْنَى المَسَاكِنِ ، وهوَ أَبُو الجهالةِ المُحقَّرُ
المَرْذُولُ ، فلا نَزَالُ نَقولُ عَنْ أَنفُسِنا إذا أَرَدْنا أَنْ نُبالِغَ فى ذَمِّ أَحَدِنا
بالجهلِ إِنَّهُ فَلاَّحٌ ...

ضِعافٌ فى الصِّناعَةِ لأَنَّنا أَهْمَلْنَاهَا وَجَهلْنَا طَرَائِقَهَا فأَصْبَحْنا وَلَيْسَ
مِنَّا إلاَّ الْفَعلَةُ وَالحمَّالُونَ وَمُنفِذُو إِرَادَةِ الْأَجْنَبِىِّ ، نَشْقَى لِيَسْعَدَ ،
وَنَموتُ لِيَحْيَ. هذهِ المَعَامِلُ الفَسِيحَةُ وَالمصانعُ الْعظِيمةُ الَّتى أُقِيمَتْ
بيْنَ بُيُوتِنا كلُّها لِلأَجْنَبِىِّ ، وَإذا زُرْتَها وَجَدْتَها تَنْقَسِمُ إِلى أَقْسَامٍ
مُخْتَلِفَةٍ بِحَسَبِ طَبِيعةِ الْعَمَلِ المَطْلوبِ وفى كلِّ قِسْمٍ رَئِيسٌ مِنَ
الإِفرِنْجِ وَالكلُّ بَعْدَ ذلكَ مِصْرِيُّونَ . هذه المَبانِى الشَّاهِقَةُ ،
والقصورُ الشَّامِخَةُ ، شُيِّدَتْ كلُّها بيَدِ المِصْرِيينَ لكِنَّهُمْ كانوا
فى تَشْيِيدِهَا مِنَ الأُجَرَاءِ يَعملُونَ بمَشِيئَةِ الأَجْنَبِىِّ وَلِفَائِدَته .

اُدْخُلْ بَيْتَ عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَائِنا أَوْ بَيْتَ شَيْخٍ مِنْ عُلمَائِنا أَوْ بَيْتَ
رَاهِبٍ مِنْ رُهْبانِنَا أَوْ بَيْتَ حَقِيرٍ مِنْ أُجَرَائِنَا ثمَّ اعْدُدْ ما فيهِ مِنْ
أَنوَاعِ الْأَثاثِ وَالأَمْتِعَةِ وَانْظُرْ إلى بنائِهِ وما يَتَرَكَّبُ مِنْهُ ، ووَزِّعْ

(١) ملازمته

كلَّ شيْءٍ عَلى صانِعهِ وَابْحثْ عَنْ يَدِ المِصْرِيِّ فيهِ لاتَجِدْهَا إلاَّ في قَطْعِ الأَحْجَارِ وَرَصِّها وَما بَقِيَ كلُّهُ مِنْ آنِيةِ طَعامٍ وموائِدَ وَأَخْشَابٍ وَأَطَالِسَ(١) وَحرائِرَ وَبُسُطٍ وحَديدٍ وَمَقاعِدَ وَمَصابِيحَ وَأَكْوابٍ وَمَفاتِيحَ وَأَلْوانٍ وَملابِسَ وَمَطابِخَ وكلِّ شيْءٍ صُنْعُ الأَجْنَبِيِّ(٢)

ضِعَافٌ في التِّجارَةِ فلانَعْرِفُ مِنْها غَيرَ أَنَّ الرَّجُلَ مِنَّا يَشْتَرى الصَّفْقَةَ(٣) مِنَ المَخْزَنِ الْكَبيرِ ويَجْلِسُ بهافي حَانوتهِ الصَّغيرِ حَيْثُ يَفْتَحُهُ مُتأَخِّراً وَيقْفِلُهُ قَبْلَ المَسَاءِ وَيَتَحادَثُ مَعَ جارِهِ طُولَ النهَارِ واذا جاءَهُ طالِبٌ أَجْلَسَهُ مكانَهُ وَبالَغَ في مُؤَانَسَتِهِ وإِكْرامِهِ بِمَا يَنْقَضِى بهِ الْوَقْتُ وَالرَّجلُ مَا اشْترَى والتَّاجِرُ ما اسْتَفادَ، وَهُوَ يُحْسَبُ مِنَ التِّجارِ(٤) ذَوِى المَكانَةِ والِاعْتبارِ(٥) معَ أَنهُ لايَعْرِفُ أَيْنَ تُصْنعُ بضَاعَتُهُ وَلا مَنِ الَّذى جَلبَها إِليْهِ ولا ثَمَنَ مادَّتِها الأُولَى.وَلِلهِ الآخِرَةُ والأُولَى. لِذلكَ ضَرَبَ الأَجْنبيُّ عَلى أَبْوابِ التِّجَارَةِ وأُحِيطَتْ بِسُورٍ مِنْ عِلْمِهِ وَهِمتِهِ فاسْتأْثَرَ بِصَادِرَاتِها، وَاخْتصَّ بوارِداتِها، وَأَنشأَ الشَّرِكاتِ تَوَسُّعاً فيها واسْتَخْدَمَ الوَطنِيِّينَ سَماسِرَةَ لا يَكْسِبُونَ مِنْ كَدِّهِمْ إِلاَّ الْيَسيرَ.

ضِعافٌ في الْعِلمِ؛ اللَّهُمَّ إِلاَّ في عِلْمٍ مَدَارُهُ جَهْلُ حَقائِقِ الأَشْياءِ

---

(١) جمع أطلس: ثوب من حرير منسوج (٢) صنع الاجنبى خبر قوله ما بقى
(٣) أصل الصفقة ضرب اليد على اليد فى البيع مما هو علامة وجوب البيع، ومنه يقال صفقة رابحة وصفقة خاسرة (٤) التجار بكسر التاء وتخفيف الجيم وبضم التاء والتشديد
(٥) يريد الاحترام، والاعتبار بهذا المعنى غير صحيح

فى الْوُجُودِ . أَمَّا المُفِيدُ مِنهُ فقد اقتصَرْنا فِيهِ على ما يَخْتَصُّ بعلاقةِ الإنسان مَعَ رَبِّهِ وَالْبَاقى مِنهُ أَخْرَجْناه عَن مَعْناهُ الصَّحِيحِ وَحَكمنا عَلَيْهِ بالإعْدَامِ وَشَهَّرْنا[١] المُشْتَغِلِينَ بِهِ حتى أَمَتْنَا رُوحَ التَّقدُّم وَأَطْفأنا مَصَابِيحَ الْعِرْفانِ فى الأَذْهَانِ. أينَ مِنَّا المؤَرِّخُ والنَّباتىُّ والطَّبيبُ وَالْكيميائىُّ وَالمُهْنْدِسُ وَالطَّبِيعِىُّ وَالأَدِيبُ وَالمَنْطِقىُّ وَاللُغَوِىُّ وَعالِمُ الأَخْلاَقِ وَالحَكِيمُ وَالفَلَكىُّ وَعَالِمُ الزِّرَاعَةِ وَغَيرُ هؤلاءِ ؟! نَعَمْ نَحْنُ لَا نَعْدَمُ نَفَرًا مِنْهُمْ وَلكِنَّهُمْ قليلونَ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَوْ كانَ عِنْدَنَا مِنْهُمْ عَدَدٌ يَكْفِينَا لَمَا وُجِدَ الْأَجْنَبىُّ بَيْنَنَا عَلى هَذِهِ الكَثْرَةِ التى نُشَاهِدُها لِأَنَّهُ مَا كانَ يَجِدُ عِنْدَنَا ذلكَ المُرْتَزَقَ الفَسِيحَ .

ضِعَافٌ فِى الْعَزِيمَةِ فَلَا يَبْدَأُ الْوَاحِدُ مِنَّا بِعَمَلٍ إِلَّا وَقَدْ أَدْرَكَهُ الْمَلَلُ وَأَحَاطَ بِهِ الْفَشَلُ فَتَرَكَ عَمَلَهُ وَتَقَهْقَرَ فَرِحًا بِسَلَامَتِهِ ، وَإِذَا قامَ أَحَدٌ مِنَّا بِمَشْرُوعٍ يَقْتَضِى المَعُونَةَ لُبِّيَتْ دَعْوَتُه مِنْ كلِّ مَكَانٍ حَتَّى إِذَا آنَ أَوَانُ الشُّرُوعِ فِى العَمَلِ هَرَبَ كلٌّ وَاحِدٍ مِنْ نَاحِيَةٍ وَأَصْبَحَ صَاحِبُهُ يَنْدُبُ الوَقْتَ الذِى قَدْ أَضَاعَهُ فِيهِ ، بَلْ رُبَّمَا وَجَدَ فى نَفْسِهِ ارْتياحاً أيضاً لِأَنَّهُ كانَ قَدْ عَرَّضَهَا لِأَمْرٍ يَجُرُّ إِلَيهِ ضَرًّا ؛ بَلْ إِنَّ تَلْبِيَةَ النداءِ أَصْبَحَتْ مَعْدُومَةً لِكَثْرَةِ ما كانَ مِنَ الفَشَلِ وَالخِذْلاَنِ فَمَاتَتْ بِذلِكَ رُوحُ الطَّلَبِ وَاسْتَوْلَى الْخُمُولُ عَلى كلِّ

(١) يريد شنعنا عليهم وجعلناهم شهرة.

الطَبَقاتِ وانفَردَ أولو العَزيمَةِ بمثْلِ هَذهِ المَشْرُوعاتِ .

ضِعافٌ فِي الألفَةِ وَالمودَّةِ فكلَّ يومٍ ترى الأَصحَابَ أَعْدَاءَ والأصدقاءَ متنافرينَ وَأَهلَ العِلْمِ متباغِضينَ متحاسِدينَ .

ضِعَافٌ فِي النَّخْوَةِ[1] والشعُورِ المِلِّيِّ وَالجامِعَةِ القَوْمِيَّةِ : فالعَظيمُ منّا يُهَانُ وَالكَبيرُ يَنْتَابُهُ[2] الزّمانُ وأَمْثالُهُ ينظرُونَ إِليْهِ فَرِحِينَ بمُصيبَتِهِ مُسْتَبْشِرِينَ بِنَكبَتِهِ أَوْ آسِفِينَ مِنْ بَعيدٍ بحَيْثُ لاَ يَسْمَعُ لَهُمْ صَوتٌ لِمَعُونَتِهِ ، والأصاغرُ يَشْمَتُونَ جهلاً أو انتِقاماً . وما دَرَى العُظَمَاءُ أنَّ ذُلَّ الواحِدِ مِنهُمْ ذُلٌّ لَهم أجمعينَ ، وَلا حَسِبَتِ الطبقَاتُ النازِلَةُ أنَّ زَوالَ الطّبَقَاتِ العالِيَةِ مِنَ الأُمَّةِ بمَثَابَةِ[3] زوالِ الرُوحِ مِنَ الجِسْمِ لِأَنَّهَا سِياجُ[4] الأخْلاقِ ومَرْجِعُ صِيَانَةِ العَاداتِ وَمُشَخِّصُ الأُمَّةِ فِي حَياتِهَا وشعُورِها ولا حَياةَ لِقَوْمٍ لا يشعرونَ .

ضِعَافٌ في الخَيْرَاتِ فمَا أثقَلَ طَلَبَ الإحْسَانِ على أغْنِيَائِنَا وَالموسِرِينَ .

ضِعَافٌ فِي طَلَبِ حُقُوقِنا فالرَّجُلُ مِنّا يُسْلَبُ حَقُّهُ وَيُهانُ مِلْكهُ وَهُوَ يَقولُ لاحَوْلَ وَلا قُوّةَ إلاّ باللهِ العليِّ العَظيمِ وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوكيلُ .

ضِعَافٌ فِي أداءِ الواجِبِ علَيْنا فكلُّ مَنْ أقامَ فِي عمَلٍ يَهْرُبُ

---

(١) أصل النخوة العظمة ، والمراد الشهامة والمروءة (٢) يريد يصيبه الزمان بنوبه
(٣) يريد بمنزلة (٤) أصل السياج الحائط وما أحيط به على شيء .

منهُ، إنْ كانَ رئيساً استعملَ الرياسةَ فى البطالةِ (١) واتخذها شعاراً (٢) لِعَدَمِ العملِ ورمى أحمالَهُ على مرؤوسيهِ، وإن كانَ مرؤوساً طفقَ يُندِّدُ بالرئيسِ ويقولُ كانَ يجبُ عليهِ أن يعملَ كذا وكذا ولقد أخطأَ فى كذا وكذا وعاقبونى لأنى قمتُ بالواجبِ ولكنهم قومٌ لا يعقلونَ.

ضعافٌ فى الاعتبارِ (٣) بالحوادثِ فنحنُ ننسى كلَّ شىءٍ وقد يكونُ النسيانُ حاصلاً فى زمنِ التذكيرِ، لذلكَ نقعُ فى الخطأِ بعينهِ كلَّ يومٍ.

ضعافٌ فى حفظِ ما تركَ الآباءُ فكلَّ يومٍ تشرقُ الشمسُ (٤) على بيوتٍ دُمِّرتْ وأملاكٍ تفرُّ منْ أيدي وارثيها فتتلقفها أيدٍ (٥) عرفتْ مكانَ الضعفِ منَّا وتنبأتْ بزوالِ النعمةِ عنَّا فتربَّصتْ بنا ريبَ الزمانِ (٦)

ضعافٌ فى التحصيلِ فالرجلُ يولدُ ويتربَّى (٧) ويهرمُ ويموتُ وقلَّما تراهُ قدْ حافظَ على ما كانَ فى يدهِ، والنادرُ هوَ الذى يزيدُ عليهِ شيئاً يسيراً

ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كلَّ شىءٍ منَ الحكومةِ فهىَ التى

---

(١) هى الرياسة والرآسة، أما البطالة بفتح الباء فمصدر بطل الأجير يبطل بطالة أى تعطل (٢) الشعار فى الأصل مايلى الجسد من الثياب والمراد الزق البطالة بنفسه كلزوق الشعار من الثياب بالجسد (٣) الاعتبار: الاتعاظ (٤) شرقت الشمس طلعت وأشرقت أضاءت (٥) تلقف الشيء: تناوله بسرعة (٦) ريب الزمان: حوادثه (٧) تقول ربيته فتربى أى نشأته فنشأ

نُطَالِبُهَا بِحِفْظِ حيَاتِنا وَخُصُوبَةِ أَرْضِنَا وَتَرْوِيجِ تِجَارَتِنَا وَتحْسِينِ صِنَاعَتِنَا . هِىَ الَّتِى نَطْلُبُ منها أن تُرَبِّىَ الأبناءَ وَتُطْعِمَ الفُقَرَاءَ وَتَرْزُقَ العَجَزَةَ[1] وَتَنْفِىَ أَسبابَ البَطَالَةِ وَتَحْفَظَ الأَخْلاقَ وَتَلُمَّ شَعَثَ[2] العائِلاتِ وَتَجْمَعَ أَشتَاتَ القُلُوبِ ، هِىَ الَّتِى نُطَالِبُهَا بِتَعْوِيضِ مَا نَقَصَ مِنْ إِرَادَتِنَا وَتَقْوِيمِ مَا اعْوَجَّ مِنْ سَيْرِنا وَسِيرَتِنا وَرَدِّ هَجَمَاتِ الْمُزَاحِمِينَ عَنَّا وَالسَّهَرِ على مَصَالِحِ كُلِّ واحِدٍ مِنَّا ، فاذا تأَخَّرنا فى عَمَلٍ مِنْ تِلْكَ الْأَعمال بِإِهْمالِنا رَمَيْنَاهَا بِسُوءِ الْإِدَارَةِ وَاتَّهَمْنَاها بِحُبِّ الأَثَرَةِ[3] وَأَلْقَيْنا عليها تَبِعَةَ خُمولِنا كلِّها .

لا رَيْبَ أَنَّنا بِهذا الزَّعْمِ قَدْ ضَلَلْنا السَبِيلَ فَإِنَما الحكومةُ وازِعٌ[4] لا يُكَلَّفُ إلا ما اقْتَضَتْهُ طبيعتُهُ ، وشَأنُ الحكوماتِ فى الْأُمَمِ تأييدُ النِظامِ وحِفْظُ الْأَمْنِ وإِقامةُ الْعَدْلِ وَتَسْهِيلُ سُبُلِ الزِّراعَةِ ومعاهَدَةُ بَعْضِهِمْ بَعْضاً على ما يَضْمَنُ حُرِّيَّةَ التِّجَارَةِ وَيُشَجِّعُ أَهْلَ الصنائِعِ وَالحِرَفِ كما تَقْتَضِيه المَصالحُ الْمُشْتَرَكَةُ وعلى قَدْرِ ما تَسْمَحُ بهِ الْمُمْكِنَاتُ . وَبالجملةِ فالحكومةُ وازِعٌ عامٌّ لا واجبَ عليهِ إلاَّ الْأَمْرُ العامُّ ممَّا يَدْخُلُ تحتَهُ جميعُ الناسِ ولا يَنفَرِدُ بالاستِفادَةِ منه واحدٌ بخُصُوصِهِ .

وَعلى الأُمَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَسْتَفِيدَ مِنْ هذا النِظامِ وَتَنْتَهِزَ فُرْصَةَ

(١) جمع عاجز (٢) الشعث : انتشار الأمر ، ولم الله شعثك أى جمع أمرك المتفرق
(٣) يقال استأثر بالشيء أى استبد به والاسم الأثرة (٤) الوازع : الذى يزع الناس أى يكفهم .

الْأَمْنِ والطمأنينةِ لِتَسْعَى وَرَاءَ مَنافعِها وتَطْلُبَ الكمالَ فى زِرَاعتِها وَصِنَاعَتِها وَتِجارَتِها وفى نَشْرِ المَعارِفِ وإِحْياءِ العُلوم وفى أَداءِ الْوَاجِبِ والمُحافظَةِ على الحقوق، وهذا هُوَ الذى أَهْمَلناهُ حتَّى أَضَعْناهُ.

تركْنا الزّراعةَ فى انْحِطاطِها والصّناعَةَ فى تأَخُّرِها والتِجارةَ فى كَسادِها وصارَ كُلُّ الذى نَطْلُبُهُ مِنَ التعليم لِأَبْنائِنا وَظيفةً فى الحكومَةِ يَعيشُونَ فيها عِيشَةَ الانكماش[1] جَرْياً على سُنَّةِ الآباءِ؛ وما دَرَيْنا أَنَّ الزَّمانَ يَتَقَلَّبُ وأَحْوَالَ المَعيشةِ تَتَبَدَّلُ وأَنَّ وظائفَ الحكومَةِ أَصْبَحَتْ آخِرَ الحِرَفِ كَسْباً وأَشَدَّها تَقْييداً لِحُرِّيَّةِ العَمَلِ وأَقَلَّها مُشَجِّعاً على الهِمَّةِ والْإِقْدَامِ لانْحِصارِ مَزاياها فى ذَلكَ الراتِبِ الزَهيدِ الذى لا يَفِى فى الحقيقةِ بِجَميعِ حَاجَاتِ الْإِنْسانِ فى حَياته بَعْدَ أَنْ كانت مَصْدَرَ الثَرْوَةِ وَمَوْضِعَ الراحَةِ والأَمَلِ ومَظْهَرَ الأُبَّهَةِ والفَخارِ وَعُنْوانَ الشَرَفِ وَالِاعْتِبارِ[2].

ولما أُقْفِلَ بابُ التَوَظُّفِ خُصُوصاً فى وجه العَطَلَةِ[3] وَالذين أَضاعوا وَقْتَهُمْ فى اللَّهْوِ وَاللَعِبِ ظَنَّ الناسُ كلُّهم أَنَّ أَبوابَ الرِّزقِ كُلَّها أُقْفِلَتْ فى وُجُوهِهم وظَهَرَتْ فى الوجود نَشْأَةٌ جَديدَةٌ[4] نَراها فى الْغُدُوِّ

(١) الانكماش هنا: التقبض من انكماش الضرع أى نقلصه كما تقدم (٢) يريد بالاعتبار الشرف والحرمة واستعمال الاعتبار بهذا المعنى عامى مبتذل (٣) يريد العاطلين (٤) يريد نشأ جديداً أى شبابنا.

وَالرَّواحِ مُجْتَمِعةً في القَهاوِي (١) وَمُنْتَشِرَةً في الطُّرُقاتِ وَهِيَ أَعْلَمُ النّاسِ بِطُرُقِ التَّخْرِيبِ وَأَسْرَعُهُمْ الى الانْصِبابِ على تَمْزِيقِ ثَرْوَتِهِم وتَبْدِيدِ ما جَمَعَ الآباءُ ، وَأَصْبَحَتِ الشَّبِيبَةُ (٢) أَقلَّ اسْتِعْداداً الى العَمَلِ الذي يَعودُ على الأُمَّةِ بِالخَيْرِ وَيَنْهَضُ بها الى التَّقَدُّم والتَّرَقِّي .

هكذا انْصَرَفْنا عَنْ مَصالِحِنا وأَضَعْنا الْوقْتَ فيما لا يُفيدُ حَتّى أَحْدَقَتْ (٣) بِنا الْمَصائِبُ وَضاقَتْ علينا أَرْضُنا .

مَصائِبُنا جَهْلٌ بِما احْتَجْنا إِلَيْهِ ، وَإِهْمالٌ لِما يُعَوَّلُ في حَياةِ الْأُمَمِ عليه ، وَتَمَسُّكٌ بِأَهْدابِ (٤) أَحْلامٍ قَدْ أَشْرَقَتْ عليها شَمسُ الحَقيقةِ فَبَدَّدَتْ غَياهِبَها (٥) إلاّ مِنْ عُقُولِنا ، وَبَرْهَنَتْ على بُطْلانِها إلاّ في خَيالِنا، فكانَ مِنْ وَرَاءِ إِصْرَارِنا على التَّعَلُّقِ بِهذا الخَيالِ أَنْ تَرَبَّعَ الْأَجْنَبيُّ بَيْنَ رُبُوعِنا وَانْفَرَدَ بِمَصالِحِ دَارِنا وصِرْنا نَتَرَدَّدُ عليه لِنَخْدُمَهُ وهو يَتَرَدَّدُ في قَبُولِنا لِكَثْرَةِ ما أَهْمَلْنا أَنْفُسَنا وَقِلَّةِ ما اهْتَمَمْنا بِمَصالِحِنا وطُولِ غَيْبَةِ الصَّوابِ عَنّا

بِذلِك ازْدَدْنا ضَعْفاً على ضَعْفٍ فأَصْبَحَتْ شُؤُونُنا في أَيْدِ غَيْرِ أَيْدِينا وذَهَبَتْ أَمْوالُنا الى غَيْرِ أَهْلِينا مِمَّنْ لا يُشْفِقُ علينا وَلا لَوْمَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ استفادَها بِجِدِّهِ مِنْ خُمُولِنا واكْتَسَبَها بِكَدِّهِ مِمّا أَضْعَفَنا .

---

(١) يريد المقاهي: أي المشارب (٢) يريد الشباب جمع شاب. أما الشبيبة فهي الحداثة خلاف الشيب (٣) أحدقت: أحاطت (٤) أهداب أطراف من هدب العين وهو ما نبت من الشعر على أشفارها أو من أهداب الشجرة أغصانها (٥) غياهبها: ظلماتها

وَاسْتَخْدَمَنا فى مَنافِعِه جَزاءَ ما أَهْمَلْنا مَنافِعَنا . وَلِأَنَّهُ رَجُلٌ ثَقَّفَتْهُ الْعلومُ وَهَذَّبَتْهُ التربيةُ الصحيحةُ فأَنمَتْ فيهِ الْإِدْرَاكَ وَاسْتَنارَتْ بصيرَتُه وَقَوِيَتْ إِرَادَتُهُ وَاشْتَدَّتْ عَزِيمَتُهُ وَعَلِمَ أَنَّ الحياةَ لاتقومُ إِلاَّ بالمثابَرَةِ(١) على العَمَلِ وَالسَّعْىِ المُسْتَمِرِّ فى طَلَبِ الـكمالِ، وَمِنْ سُنَنِ الله فى خَلْقِهِ أن يَسُودَ العِلْمُ عَلى الجَهْلِ وَأَنْ تَعْلُوَ القُوَّةُ على الضَّعْفِ وَأَنْ يُبَدِّدَ النُّورُ الظُلُماتِ . وَعِلْمُ ذَلِكَ الرَّجُلِ نُورٌ انبَعَثَتْ أَشِعَّتُهُ وَرَاءَ عَزِيمَتِهِ تُضِىءُ جَوانِبَ الجَهْلِ فَمَالَتْ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الشَّرْقِ وَانكَشَفَ السِتَارُ عَنْ رَجلَيْنِ أَحَدُهُمَا عالِمٌ مِقْدامٌ ، وَمُدْرِكٌ هُمامٌ ، عَزِيزُ الجانِبِ بِهِمَّتِهِ ، رَفيعُ الشأنِ بِفِطْنَتِهِ ، والثَّانى جاهِلٌ قَدِ اسْتَولى الْجُبْنُ عليهِ فاسْتكانَ لِحُكْمِ الزمانِ وأَنَّ تحتَ أَثقالِ الخمولِ(٢)

هذا هُوَ الداءُ الذى نتأَلَّمُ منه وتِلكَ هىَ الأَمْرَاضُ الَّتى تنهَكُ(٣) جِسْمَ أُمَّتِنَا ، وَبَدِيهِىٌّ أَنَّ معرِفَةَ الدواءِ صارَتْ سَهْلَةً على القُرَّاءِ.

دَوَاؤنَا التَّرْبِيةُ وَسَلامَتُنا فى نَشْرِ الْمَعارِفِ والْعُلُومِ فَعلينا بها بما بَقِىَ فينا من الشعورِ وما تُرِكَ لنا منَ الاخْتيارِ فى العَمَلِ قبلَ أَنْ يَتِمَّ الانحلالُ ويتعذَّرَ علينَا القيامُ . نَعَمْ — لا أُنْكِرُ أَنَّ النِّداءَ بوُجُوبِ التَرْبِيةِ والتعليمِ يُشْعِرُ بأَنَّ المنادَى بعيدٌ عنهُمَا وَمِثْلُ هذا النِّداءِ لَا يَرُوقُ الَّذِينَ تَمكَّنَتْ من قلوبِهم الأَثَرَةُ وحُبُّ الذَّاتِ وَصارَ أَحَبَّ الناسِ

(١) المداومة (٢) استكان: ذل ، واستخذى ، وأن الرجل من الوجع : صاح
(٣) من نهكته الحمى هزلته

إِلَيْهِمْ مَنْ يَهَشُّ لَهم وَيَبَشُّ فِى وُجُوهِهِمْ وَإِنْ كانَ أَقَلَّهُمْ رَحمةً بِهِمْ وَحَنانًا عليْهِمْ — وَكأنَّنَا ذَاكَ الرَّجُل — لَـكِنَّ الَّذِى يَسْعَى وَرَاءَ الحقيقةِ وَيطلُبُ النَّفعَ لِقَوْمِهِ مضطَرٌّ إِلَى التَّخْفِيفِ مِنْ تِلكَ الْعِزَّةِ البَاطِلةِ وَالإِقْلاعِ عَنْ حُبِّ ذَاتِهِ وعدَمِ الإِسراعِ إلى النُّفُورِ من النِّدَاءِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ صوابَهُ مِنْ خَطَائِهِ وَيُمَيِّزَ ضَارَّهُ مِنْ نَافِعِه .

وحُبُّ الأَثَرَةِ هَذا هُوَ الَّذِى جَعَلَ كتابَ حَضْرَةِ صَدِيقِى الفاضلِ قاسم بك أمين (تحرير المرأة) الذى نَشَرَهُ فى الشهرِ المـاضى لا يَرُوقُ فى عَيْنِ بَعْضِ القُرَّاءِ لأَنَّهُ يَدْعُوهُمْ إلى تَرْكِ عَادَةٍ تَأَصَّلَتْ فى النُّفُوسِ وعُدَّتْ مِنَ الاعْتِقاداتِ و نُسِبَتْ غَلطًا إلى الشَّرِيعةِ السَّمْحَاءِ وَلَيْسَتْ مِنْها فى شَىْءٍ ، مِنَ الأَشْيَاءِ مَعَ أَنَّ المُؤَلِّفَ جمعَ فى كتابهِ مِنْ شَوَارِدِ الأَفْكارِ وَرَفيعِ الأقوالِ مَا يُعْجَبُ بهِ كلُّ مُحِبٍّ لخَيْرِ الأُمَّةِ طَالبٍ لِنَفْعِها وَلَـكِنَّهُ بَرْهَنَ عَلى أَنَّ عِلَّةَ تأَخُّرِنَا سُوءُ حَالِ النساءِ وَعَدَمُ تَرْبِيَتِهِنَّ وَتَعَدِّى الرجالِ على حقُوقِهِنَّ ، فَكانَ ذَلِكَ النُّفُورُ مِنْ كتابهِ لَمجيئِهِ على ما يُخَالِفُ مَا أَلِفَتْهُ النُّفُوسُ وارْتَاحَتْ إِلَيْهِ .

وَلعلَّ سِرَّ تَقَدُّمِ الإِنْـكليز السَّكْسُونِيِّين لا يَسْلَمُ مِنْ مِثْلِ هذا الانتقادِ وَلـكِنَّمَا الأَعْمالُ بالنيَّات ولِـكُلِّ امْرِئٍ ما نَوى .

غَرَضِى مِنْ تَرْجَمَةِ هَذَا الْـكِتَابِ تَنْبِيهُ الأَفْـكارِ إِلَى حَالَتِنَا الَّتِى

نحنُ فيها ومُقارنتها[١] بحالةِ الأُمةِ الفرنساويةِ لنوقنَ بعدَ علمنا بما هِيَ عليهِ مِنَ التقدُّمِ والعمرانِ وبما بلغتهُ مِنَ الدرجاتِ الرفيعةِ فِي العِلمِ والحضارةِ[٢] والعِرفانِ أنها احتاجتْ، وهِيَ على تلكَ الأحوالِ، إلى إصلاحِ شؤونها لِتُضارِعَ غيرَها مِنَ الأُمَمِ فنحنُ أُحوجُ منها إلى التعلمِ وأشدُّ افتقاراً إلى التربيةِ وأعوزُ الناسِ إلى الاشتغالِ بما ينفعنا في هذه الحياةِ، كما أني أقصدُ لفتَ الأذهانِ إلى أنَّ الزمانَ يمرُّ بالأقوالِ والأُمَّةَ لا تحيا إلاَّ بصالحِ الأعمالِ، وأنَّنا أَولَى الأُمَمِ بالجدِّ في تحصيلِ سعادتِنا فبقدرِ التأخرِ ينبغي شدُّ العزائمِ وتقويةُ الهِمَمِ وإدامةُ السهرِ في العملِ حتَّى نفوزَ بحظِّنا من هذه الدُّنيا.

كذلكَ أُريدُ أنْ تميلَ الأفكارُ إلى إطالةِ النظرِ في أحوالِ الأُمَّةِ الإنكليزيةِ التي تحتلُّ البلادَ وإلى أنَّ عُمَّالَ الاحتلالِ هُمْ قومٌ مِنْ ذلكَ الجنسِ الذِي أُلِّفَ هذا الكتابُ لِبيانِ السرِّ في تقدُّمهِ وسيادتهِ في الوجودِ، وهُمْ ما داموا في بلادِنا يجبُ علينا أنْ نقارنَ بينَ أحوالِهم وأحوالِنا وعاداتِهم وعاداتِنا ومعارفِهم ومعارفِنا وهمتِهم وهمتِنا وحركتِهم وحركتِنا واقتدارِهم واقتدارِنا وكفايتِهم وكفايتِنا وحولِهم وحولِنا[٣] وثروتِهم وثروتِنا، يجبُ

---

(١) إما معطوف على تنبيه أو على حالتنا (٢) الحضارة بكسر الحاء وبفتحها

(٣) الحول: القوة

علينا أنْ نقارنَ بينَ هذا كلِّه وبينَ ذلكَ كلِّه ، لأنَّنا مُضطَرُّونَ إلى مُعاشرتِهِمْ ومُعاملتِهِمْ والاحْتِكاكِ معَهُمْ فى جميعِ أُمُورنا حتَّى إذا صحَّ نَظَرُنا وعرَفْنا الأمْرَ على حقيقتِهِ وتشبَّعَتْ نفوسُنا بِمَا هُوَ واقِعٌ لا بِمَا نتخيَّلُهُ مِنْ غيرِ تبصُّرٍ ورَوِيَّةٍ اهْتَدَيْنا إلى واجبِنا القوْميِّ ، وعَلِمْنا إنْ كانَ مُجرَّدُ القَوْلِ يُجْدِينا نفعاً وهَلِ الأَجْدَرُ بنا دَوامُ الاسْتِرْسالِ معَ الأَمانىِّ التى لا مَرْجِعَ لهَا مِنْ عملِنا وكَدِّنا أَوْ إطالةُ التفكيرِ فى الحوادِثِ التى تجْرِى علينا لِنميِّزَ الصَّالِحَ لَنا مِنَ الضَّارِّ بنا ولِنَقْصِدَ بابَ النجاةِ فندْخُلَ منْهُ ولا نبْتَغِي عَنْهُ مِنْ ذلكَ الخيالِ بَدِيلاً .

غرَضِى مِنْ ترْجمةِ هذا الكتابِ أنْ يكونَ مِرْآةً يرَى القُرَّاءُ فيها أُمَّتينِ عظيمَتينِ ودَوْلتينِ فخمتينِ تتنازَعانِ اقْتِسامَ الوُجودِ قدْ سبَقَتْ إحْداهُما الأُخْرَى ؛ فلمَّا رأَتْ هذه تأَخُّرَها جعلَتْ تُفكِّرُ فى أسْبابِ تلكَ الأفْضَليةِ وقامَ العُقلاءُ فيها وأَرْبابُ الأقْلامِ يُخْبِرُونَها بأسْبابِ ضعفِها ويُرْشِدُونَها إلى سُبُلِ الإصْلاحِ فلَمْ تنفِرْ مِنْ هذا النِّداءِ بلْ أجابَتِ الدعوةَ شاكرةً مُرْشِديها وثارَتْ مَذْعُورةً[1] فى طلَبِ الكمالِ والتشبُّهِ بجارَتِها . وأخْلقْ بنا أنْ نتَّعظَ بأعْظَمَ منَّا ونتمثَّلَ بمَنْ بيْننا وبَيْنَهُ فى العِلْمِ والتهذيبِ والقوَّةِ والسُّلطانِ والهِمَّةِ والإقْدامِ

(١) مذعورة : فزعة

مَا بَيْنَ الأَرْضِ والسماءِ . ثُمَّ نأسفُ على زمنٍ قضيناهُ في التمنّي ونفضُ غُبارَ الأَوْهام ونلتمسُ إصلاحَ شؤوننا بأنفسنا ولا نحجمُ عن سلوكِ طَرِيقِ الكدِّ والعملِ فهوَ الذي فيه الحياةُ ودونهُ الموتُ الصحيحُ .

غرضي مِنْ ترجمةِ هذا الكتابِ لقومي هُوَ غرضُ المؤلِّفِ مِنْ نشْرِهِ على قومِهِ . لذلكَ يجملُ بي أَنْ أَستعيرَ في البيانِ عبارتَهُ حيثُ يقولُ :

« إنَّ الحياةَ ليستْ لعباً ولهْوًا وإنما هي مُغالبةٌ دائمةٌ للمتاعبِ ، والمتاعبُ لا تحصى والمتاعبُ مُتجدِّدةٌ في كلِّ آنٍ . ولنْ تنالوا النصْرَ في هذا الجهادِ إلاَّ إذا جعلتُمْ كلَّ اعتمادِكم على أنفسِكم لا على غيرِكم إذْ كلُّ ما يُمكنُ أهاليكم وأصدقاءكُمْ ومُحبيكُمْ وجيرانكُمْ وحكومتكُمْ أنْ يُساعدوكم بهِ أقلُّ في الحقيقةِ بكثيرٍ مما يُمكنكُم أنْ تُساعدوا بهِ أنفسَكم بأنفسِكم إذا عوّلتُمْ عليْها ولمْ ترجعُوا في أُمورِكُمْ إلاَّ إليْها »

هذا غايةُ الحكمةِ ومُنتهى الرأْيِ الصوابِ فاتبعوهُ إنْ كُنتُمْ للسعادةِ طالبين .

وإنَّما رجلُ الدُّنيا وواحدُها   مَنْ لا يُعوِّلُ في الدُّنيا على رجلِ

أحمد فتحي زغلول .

مصر في أول صفر سنة ١٣١٧ — ١٠ يونيه سنة ١٨٩٩

مُقَدِّمَةُ الْمُؤَلِّفِ

لِلإنْكليزِ السَكْسُونيِّين أَفْضَلِيَّةٌ لا شَكَّ فِيها، لِأَنَّ كُلَّ إِنْسانٍ يَشْعُرُ بِهاويَقْدِرُها قَدْرَها. وَمِنْ أَكْبَرِ الدَلائِلِ عَلَيْها ما يَجِدُهُ كُلُّ واحِدٍ عِنْدَ مُلاقاةِ الإِنكليزيِّ مِنَ التَّهَيُّبِ والحذَرِ والغِبْطَةِ أَحْياناً[1]

نَحْنُ لا نَكادُ نَخْطُو خُطْوَةً فى الْعالَمِ إلاَّ وَجَدْنا الإِنكليزَ أَمامَنا ولا نَرمى بنَظَرِنا إلى أَمْلاكٍ قَديمةٍ إلاَّ رَأَيْنا الْعَلَمَ الانْكليزيَّ يَخْفُقُ عَلَيْها. وَقَدِ احْتَلَّ الإِنكليزىُّ السَكْسونيُّ الْأَماكِنَ التى كانَتْ لَنا فى أَمَريكا الشمَالِيَّةِ مِنْ كَنَدَا الى لويزيانْ وفى الْهِنْدِ وفى مُورِيسَ التى كانَتْ جَزِيرَةً فرَنْساوِيَّةً قَدِيمةً وفى مِصْرَ، وَهُوَ الْآنَ يُشْرِفُ على أَمريكا بِكَنَدَا والْولاياتِ الْمُتَّحِدَةِ وَعَلى أفريقيا بمِصْرَ وَرأسِ الرَجا الصالحِ وعلى آسْيا بالهِنْدِ وَبَرْمانْيا وعلى الْأَقْيانوس بأُوستْرالْيا وزيلانْدا الجديدَةِ وَعَلى أُوربَّا وعَلى الْعالَمِ بأَجْمَعِهِ بمَتاجِرِهِ وَصَنائِعِهِ وَسِياسَتِهِ. وَالْخَرِيطَةُ الَّتى رَسَمْناهَا فى أَوَّلِ الْكِتابِ تَدُلُّ بأَجْلَى بَيانٍ عَلى مَالهذهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلى الانْتِشارِ فَيُخَيَّلُ أَنَّها تُرِيدُ أَنْ تَقُومَ مَقامَ الْمَمْلَكَةِ الرُومَانِيَّةِ فى سِياسَةِ الدُنْيا.

(١) الغبطة أن تشتهى أن يكون لك مثل ما المغبوط ولا تتمنى زوال ماهو عليه، ورجل مغتبط بالكسر ومغتبط بالفتح أى في غبطة، وهي حسن الحال

لغيرِ الانكليز مِنَ الأُمَمِ مُستعمرَاتٌ كفرنسا وألمانيا وإيطاليا
وإسبانيا، إلاّ أنّها مستعمرات تنحصر منافعها على الخصوص في الموظّفين
فنرى سلطتها العسكرية ممتدّة في تلك الأقاليم ولكنها لا تأهل بها
ولا تغيّر من أحوالها ولا تتعوّد الإقامة فيها كما هو شأن الإنكليزي
السكسوني. وللروسيا والصين أملاك شاسعة[1] إلاّ أنّ غالبها خراب
وقد لا يدخلها التمدّن إلاّ بعد زمن طويل. أمّا الأمم الإنكليزية
السكسونية فإنّها بلغت ذروة[2] التمدّن الفعّال الذي يترقّى على
الدوام وينبسط في جميع الأرجاء فلا يكاد ذلك الجنس ينزل بمكان،
مهما كان من الأرض، إلاّ بدّله وأدخل فيه بسرعة عجيبة أقصى
ما وصلت إليه الأمم الغربية من التقدّم والترقّي. وقد تفوتنا في ذلك
غالباً تلك الأمم الحديثة حتّى إنها تسمّينا بالدنيا القديمة تسمية تشعر
باحتقارها لنا، ونحن في الواقع نظهر بجانبها من القدماء. انظر إلى
ما فعلناه في كاليدونيا الجديدة وأملاكنا في الأوقيانوس وانظر إلى
ما فعلوه في أستراليا وزيلاندا الجديدة وقابل بين ما فعله الإسبانيون
والبرتغاليون في أمريكا الجنوبية وبين ما فعله الإنكليزي السكسوني
في أمريكا الشمالية تجد الليل والنهار[3].

(١) شاسعة: بعيدة يريد مترامية الأطراف متسعة (٢) ذروة بكسر الذال وضمها واحدة الذرى وهي الأعالي (٣) أي تجد الفرق كالفرق بين الليل والنهار

وَلنَا عَلَى هَذِهِ الْأَفْضَلِيَّةِ دَلِيلٌ قَاطِعٌ فى الْإِحْصَائِيَّاتِ الرَسْمِيَّةِ التَّى تَنْشُرُهَا شَرِكَةُ قَنَالِ السّوِيس فَقَدْ كانَ عَدَدُ المَرَاكِبِ التَّى مَرَّتْ فى الْقَنَالِ مُدَّةَ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ كما يَأْتى : —

مراكب فرنساوية	١٦٠
مراكب ألمانية	٢٦٠
مراكب إنكليزية	٢٢٦٢

وَعِنْدِى أَنَّهُ لا يَكْفِى بيانُ هَذِهِ الْأَفْضَلِيَّةِ وَالنِدَاءِ بها عَلَى مَنَابِرِ النُوَّابِ أَوْ صَفَحَاتِ الْجَرَائِدِ وَإِظْهارُ الْغَيْظِ مُشيرِينَ بِقَبْضَةِ الْيَدِ إِلى الإنكليز كما تَفْعَلُهُ الْقَوَاعِد[١] مِنَ النِساءِ الْغضَابَى، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى الْأَمْرِ من جِهَةِ ضَرُورَةِ الِاسْتِعدَادِ لَهُ كَبَاحِثٍ يَرْتَادُ الْحَقائِقَ بِتَأَنٍّ وَإِمْعَانٍ حَتَّى يَصِلَ إلى مَعْرِفَةِ أَسْبابِها ، لأَنَّ حاجَتَنا هِىَ فى الوَاقِعِ اكْتِشَافُ السِّرِّ فى انْتِشَارِ تِلْكَ الأُمَّةِ وَتَقَدُّمِها فى المَدَنيَّةِ وَالْعُمْرَانِ لِنَهْتَدِىَ بِذَلِكَ إلى مَعْرِفَةِ الوَسَائِلِ التى أَدَّتْ إِلَيْهِ .

وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْكِتاب هُوَ الْبَحْثُ عَنْ تِلْكَ الأَسْبابِ لأَنِّى أَرَى أَنَّ حَياتَنَا وَمُسْتَقْبَلَ أَبْنائِنا مُتَوَقِّفانِ عَلَيْهِ .

(١) القواعد : اللائى قعدن عن الولد والحيض أى العجائز

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ

قَوْلٌ

﴿ فِيما يُدَّعَى مِنْ أَفْضَلِيَّةِ الْأَلْمَانِيِّينَ ﴾

أَبْدَأُ بِشُكْرِ الصَّحَافَةِ وَالْقُرَّاءِ عَلَى حُسْنِ قَبُولِهِمْ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِى انْتَهَتِ الطَّبْعَةُ الْأُولَى مِنْهُ فِى بِضْعَةِ أَيَّامٍ ، وَغَرَضِى فِى هَذِهِ الطَّبْعَةِ الْجَدِيدَةِ أَنْ أُجِيبَ مُقَدَّمًا عَنِ اعْتِرَاضٍ عَسَاهُ يَخْطُرُ بِالْبَالِ وَهُوَ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ التِّجَارَةَ الْأَلْمَانِيَّةَ عَظُمَتْ مُنْذُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً حَتَّى أَحْجَمَتْ أَمَامَهَا (١) التِّجَارَةُ الْفَرَنْسَاوِيَّةُ فِى جَمِيعِ الْجِهَاتِ وَأَضَاعَتْ جَمِيعَ الْمَرَاكِزِ الَّتِى كَانَتْ تَشْغَلُهَا وَاحِدًا فَوَاحِدًا ، وَقَدْ يَخْطُرُ بِبَالِ الْمُتَأَمِّلِ فِى هَذَا التَّقَدُّمِ التِّجَارِىِّ أَنَّهُ رُبَّمَا يُخْشَى مِنْهُ أَيْضًا عَلَى تَقَدُّمِ الْأُمَمِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ فِى التِّجَارَةِ ؟

وَيَكْفِى لِلْإِجَابَةِ عَنْ ذَلِكَ أَنْ نُوَضِّحَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَسْبَابِ الَّتِى تُوجِبُ قُوَّةَ الْإِنْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ وَكُنْهَ (٢) هَذِهِ الْقُوَّةِ وَبَيْنَ عِلَّةِ قُوَّةِ الْأَلْمَانِيِّينَ ، وَإِنِّى أَقْتَصِرُ هُنَا عَلَى بَيَانِ مُقَدِّمَاتِ هَذِهِ الْمَسْئَلَةِ

(١) يريد انحازت وتأخرت عنها (٢) كنه الشيء : حقيقته

وَتَوْضِيحِ عَنَاصِرِهَا وَأُشِيرُ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الشُّبَّانِ الَّذِينَ حَضَرُوا دَرْسَنَا فِي الْعِلْمِ الاِجْتِمَاعِيِّ أَنْ يَتَوَجَّهُوا فِي هَذَا الصَّيْفِ إِلَى أَلْمَانِيَا لِيُشَاهِدُوا حَالَةَ تِلْكَ الْبِلَادِ بِأَنْفُسِهِمْ .

تَكْثُرُ الْجِبَالُ فِي الْقِسْمِ الْجَنُوبِيِّ مِنْ أَلْمَانِيَا كَمَا تَكْثُرُ الرِّمَالُ وَالْمُسْتَنْقَعَاتُ وَالْجَدْبُ فِي الشَّمَالِ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَهْلُهَا عَلَى الدَّوَامِ مِنَ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ اعْتَادُوا التَّدْبِيرَ فِي حَاجَاتِهِمْ وَالْبَسَاطَةَ فِي مَعِيشَتِهِمْ وَالِاكْتِفَاءَ بِالْأَجْرِ الْقَلِيلِ . فَفَضِيلَةُ الْبَسَاطَةِ الْمَشْهُورَةُ عَنِ الْأَلْمَانِيِّينَ هِيَ فَضِيلَةٌ أَلْجَأَتْهُمْ إِلَيْهَا طَبِيعَةُ بِلَادِهِمْ ، وَلِقِلَّةِ أُجُورِ الْفَعَلَةِ وَقِلَّةِ حَاجَاتِ تِلْكَ الْأُمَّةِ انْحَصَرَتِ الْمَصْنُوعَاتُ الْأَلْمَانِيَّةُ بِحُكْمِ الطَّبِيعَةِ دَائِمًا فِي الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَعْمَلَةِ عِنْدَ الْعُمُومِ[1] ذَاتِ الْقِيمَةِ الزَّهِيدَةِ ، وَهِيَ حَالَةٌ تَسْتَلْزِمُ فِي الْحَقِيقَةِ تَأَخُّرَ أُمَّتِهَا إِلَّا أَنَّهَا صَارَتِ الْآنَ مَزِيَّةً عِنْدَ الْأَلْمَانِيِّينَ لِسَبَبٍ خَارِجِيٍّ عَلَى أَنَّهَا لَنْ تَدُومَ أَبَدًا . وَبَيَانُهُ أَنَّ اتِّسَاعَ نِطَاقِ وَسَائِلِ النَّقْلِ سَهَّلَ الْوُصُولَ إِلَى الْبِلَادِ الْجَدِيدَةِ أَوِ الْمُتَأَخِّرَةِ فِي التَّمَدُّنِ وَمَكَّنَ مِنَ الِاخْتِلَاطِ بِالْأُمَمِ الْبَسِيطَةِ أَوِ الْهَمَجِيَّةِ فَكَثُرَ عَدَدُ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ الْبَضَائِعَ الْمُعْتَادَةَ الرَّخِيصَةَ وَوَجَدَتِ الْأُمَّةُ الْأَلْمَانِيَّةُ سُوقًا جَدِيدَةً[2] لِبَيْعِ سِلَعِهَا وَاسْتَفَادَتْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى قَدْرِ أَمْوَالِ تُجَّارِهَا[3]

(١) العموم مصدر فاستعماله هنا خطأ لأنه يريد جمهرة الناس وسوادهم الأعظم وعامتهم

(٢) السوق يذكر ويؤنث (٣) جمع التاجر تجار وتجار بالتشديد والتخفيف

واقتدارهم في الصناعة والبيع والشراء ولكنها فائدة صغيرة لقلة رأس مال كل تاجر على حدته وضعفه منفردا. وطلبا للزيادة مال التجار إلى الشركات فجاءت لهم عونا على نشر متاجرهم وتوسيع نطاقها وتوافر المال لديهم فأقاموا الأسواق الكبيرة لعرض متاجرهم ومعرفة الأنواع التي يكثر الطلب فيها.

وهذا عمل نستفيد منه علما لدلالته على أن الشركات تسد جزءا عظيما من النقص الذي ينشأ عن طبيعة الأماكن. والعمل والتربية التي تزيد في الشخص قوة الميل إلى الاشتراك أكثر مما تهيئه إلى العمل بنفسه سنبينه في هذا الكتاب، إلا أن الشركات لا تزيل النقص وإن خففته، ولذلك لا تفيد الألمانيين إلا من جهة تسهيل العمل دون أن تحدث فيهم ما احتاج إليه كل فرد من القدرة الشخصية التي تمكنه من التقدم في الصناعة والتجارة بنفسها. ولنا على ذلك ما جاء في رسالة نشرت حديثا في ألمانيا عن تجارة تلك الأمة في بلاد الترنسفال وبعث سفيرنا المركيز دي نواي بنسخة منها إلى وزير التجارة مما يدل على تأخر التاجر الألماني منفردا عن التاجر الإنكليزي السكسوني كذلك (١) قال كاتب الرسالة: «يحتاج التاجر الألماني إلى مساعدة حكومته وإلا أحاط

(١) كذلك، أي منفردا

بِهِ الْفَشَلُ كَمَا أَصَابَهُ فِى مُنَافَسَتِهِ مَعَ الإِنْكِلِيزِ أَوَّلاً . فَالأَلْمَانِىُّ يَخْرُجُ إِلَى الْعَمَلِ بِرَأْسِ مَالٍ صَغِيرٍ ثُمَّ هُوَ عَلَى مَا بِهِ مِنْ إِقْدَامٍ قَلِيلُ الصَّبْرِ غَالِبًا » وَلَعَلَّهُ قَالَ قَلِيلُ الْوَسَائِلِ ، لأَنَّ الأَلْمَانِىَّ صَبُورٌ « فَلا يَنْتَظِرُ النَّجَاحَ بَلْ تَنْحَلُّ عَزِيمَتُهُ إِذَا خَابَ مَرَّةً فِى مَسَاعِيهِ أَمَّا الإِنْكِلِيزِىُّ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ النَّجَاحَ مَعْقُودٌ بِأَطْرَافِ الْمُثَابَرَةِ[1]» وَلَدَيْهِ مِنَ الْوَسَائِلِ مَا يُسَاعِدُهُ عَلَى الانْتِظَارِ . « وَفِى الأَلْمَانِيِّينَ عَيْبٌ خَاصٌّ يُحْبِطُ[2] مَسَاعِيَهُمْ غَالِبًا فِى « التَّرَانْسِفَالِ » وَهُوَ جَهْلُهُمْ بِحَرَكَةِ الأَسْوَاقِ فَيَأْتُونَ بِبَضَائِعَ لا طَلَبَ لَهَا ، يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ عَدَمُ اعْتِنَائِهِمْ بِرَبْطِ الْمَتَاجِرِ وَتَغْلِيفِهَا » وَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى مِقْدَارِ تَمَكُّنِهِمْ فِى عِلْمِ الاقْتِصَادِ الْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ قَدِيمًا « وَجَهْلُهُمْ بِطُرُقِ التَّسْفِيرِ وَعَدَمِ الْتِفَاتِهِمْ إِلَى اخْتِلاطِ الأَجْنَاسِ فِى أَسْوَاقِ تِلْكَ الْبِلادِ . وَمِنْ أَسْبَابِ عَدَمِ نَجَاحِ التِّجَارَةِ الأَلْمَانِيَّةِ اخْتِيَارُ الْعُمَّالِ مِمَّنْ لا خِبْرَةَ لَهُمْ بِالتِّجَارَةِ وَحَاجَاتِ الْبِلادِ الَّتِى يَعْمَلُونَ بِهَا ثُمَّ عَدَمُ إِطْلاقِ سَرَاحِهِمْ فِى الْعَمَلِ كَمَا يَنْبَغِى » .

وَيَعْلَمُ الْقَارِئُ مِنْ أَقْوَالِ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ ، وَهُوَ الأَلْمَانِىُّ . أَنَّ الأَلْمَانِيِّينَ — وَإِنْ تَوَصَّلُوا بِالشَّرِكَاتِ إِلَى تَوْسِيعِ نِطَاقِ تِجَارَتِهِمْ حَتَّى خُيِّلَ أَنَّهُمْ يُهَدِّدُونَ تِلْكَ الْقُوَّةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِى امْتَازَ بِهَا الإِنْكِلِيزُ

(١) أى أنه لا نجاح بلا مثابرة . والمثابرة على الأمر : المواظبة عليه (٢) يحبط : يبطل ويفسد

فِى التِجَارَةِ وَالصِنَاعَةِ — لَا يَتيسَّرُ لهم أَنْ يُلحِقوا ضَرَرًا صَحِيحًا بِهؤلاءِ.

ذَلِكَ لِأَنَّ طَرِيقه الإنكليزِى السَكسُونىِّ فِى التِجَارَةِ وَالصِنَاعَةِ تَخْتَلِفُ عَنْ طَرِيقةِ نظيرِهِ : فَالإنكليزُ السَكسونيُّون إِنَمَا اسْتَوْلَوْا عَلَى الْأَسْوَاقِ فِى الدُنْيَا بأَنفُسِهِمْ وَجِدِّهِمْ الشَخْصِىِّ مِنْ غَيْرِ مُشَارَكَةِ غَيْرِهِمْ لَهُمْ فِى الْعَمَلِ وَلاَ مُسَاعَدَةِ الْحُكُومَةِ. وَبالجملةِ فَإِنَّهُمْ تَوَصَّلُوا إِلَى ذَلِكَ بِوَاسِطَةِ أَحْوَالِهِم الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِى أَلَّفْنَا هَذَا الْكِتَابَ فِى بَيَانِهَا . وَبَدِيهِىٌّ أَنْ أَفْضَلِيَّةَ الرَجُلِ الَّذِى يَأْتِى بِنَفْسِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ مَالَمْ يَأْتِهِ غَيْرُهُ مَعَ الِاسْتِعَانَةِ فِيهِ إِلاَّ نَاقِصًا، لاَ تَحْتَمِلُ الشَّكَّ وَلاَ تَحْتَاجُ إِلَى الدَلِيلِ . وَهَذَا هُوَ حَالُ الإِنكليزِ السَكسُونِيِّينَ بِالنَّظَرِ إِلَى غَيْرِهِمْ . وَمَهْمَا اجْتَهَدَ الْأَلْمَانِيُّونَ وَبَالَغُوا فِى نَشْرِ مَتَاجِرِهِمْ فِى أَسْوَاقِ الدُنْيَا فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْبِقُوهُمْ بَلْ تَبْقَى لَهُمْ تِلْكَ الْأَفْضَلِيَّةُ لِأَنَّ الْفَضْلَ الذَّاتِىَّ أَثْبَتُ قَدَمًا مِنَ الْفَضْلِ الْمُكْتَسَبِ . وَكلُّ إِنكِلِيزِىٍّ تَاجِرٌ كبيرٌ بِنَفْسِهِ وَصَانِعٌ عَظِيمٌ بِعَمَلِهِ فلا خَوْفٌ عَلَيهِمْ مِنْ صُنَّاعٍ لا قوَّةَ لهُمْ إِلاَّ مُجْتَمِعِينَ وَمِنْ تُجَّارٍ لاحَوْلَ لهُمْ إِلاَّ مُشْتَرِكِينَ .

ثُمَّ إِنَّهُ يجِبُ عَلى التُجَّارِ أَنْ يُنَوِّعُوا تِجَارَتَهُمْ وَعَلَى الصُنَّاعِ أَنْ يَتفَنَّنُوا فى صِنَاعَتِهِمْ حتَّى تَكُونَ المتاجِرُ وَالمصْنُوعَاتُ مُوَافِقَةً لِرَغَائِبِ النَّاسِ وَطَلبَاتِ الشَرَّائينَ بحَسَبِ الزمَانِ والمكَانِ فى كلِّ

آنٍ . وهو معلوم أنه يصعب على الشركات التجارية والصناعية ، مهما قوي نظامها، أن تتكيف بحسب الظروف لما يوجد بين بعضها والبعض عادةً من تخالف المنافع وحصول المنافسة ، فالخلف لازم لطبيعة الشركات وهو السبب في اختلالها . وهنا يثبت أن العمل قد يخالف العقول وإن كانت سديدة .

إن الشركات الصناعية لا يمكنها أن تقاوم هذه البيوتات الإنكليزية السكسونية لاجتماع أزمتها⁽¹⁾ في قبضة رجل واحد أو رهط من الرجال متحدين في المنافع ذوي رأس مال طائل ولهم من الدراية ما يفوق الوصف مما هو طبيعي في تلك الأمة التي يسهل عليها أن تدور مع أحوال التجارة كلما رأت أن الكسب قد وقف لتتجه في طريق جديد . وبرهانه أنه لما أحس الإنكليز بغارة التجارة الألمانية صاحت جرائدهم بأصوات التحذير ، كما هو الواجب على كل حارس أشد تيقظاً من حراسنا ، وذلك يدل على شدة حذرهم وقوة التفاتهم لما عساه يهدد — ولو من بعيد — أفضليتهم العظيمة في التجارة والصناعة . ولقد أخطأنا في فهمنا أن ذلك الصوت نذير الدمار ، صاحوا به لكي ينجو من يتمكن من النجاة ، ولا يجوز أن يجول هذا بخيالنا لأن الفرق بين مائتين وستين مركبا ألمانية تمر

(١) الأزمة جمع زمام وهو هنا استعارة

فى السَّنَةِ بقَنَالِ السّوِيسِ وَبَيْنَ أَلْفَيْنِ وَمِائَتَيْنِ وَاثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ مَرْكَبًا إنكلِيزِيَةً لا يَخْفى عَلى مَنْ تَأَمَّلَ.

عَلى أَنَّ الصِنَاعَةَ الْأَلمانِيَةَ لَمْ تَتَقَدَمْ فى الْأَسْواقِ عَلى الصِناعَةِ الإنكليزِيَّةِ، كما قدَّمْنا، إلاَّ فى السِلَعِ الاعْتِيادِيَةِ ذَاتِ الثمَنِ الزَهِيدِ. وَلَمَّا رَأَى الإنكليزِىُّ أَنَّهُ لا يمكِنُهُ صُنْعُ مِثْلِهَا بِمِثْلِ ثمنِها فى بِلَادِهِ، حَيْثُ الْأجُورُ مُرْتَفِعَةٌ، حَوَّلَ نَظَرَهُ إلى صُنْعِها فى بِلادٍ أُخْرَى تَقِلُّ فِيهَا حَاجَاتُ الْأَهَالِى فاتَّخذَ فى تِلْكَ الْبِلادِ بُيُوتًا تِجَارِيَةً، وَلا يَخْفى مَا لِلإنكلِيز مِنْ سُهُولَةِ التوَطُّنِ فى الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ. وَإِنِّى أَوَدُّ أَنْ يَرْتاحَ ضَمِيرِى فَتَلِينَ تِجَارَةُ فَرَنْسَا وَصِناعَتُهَا كما لانَ الإنكليزُ فِيهِمَا.

وَيفْضُلُ الإنكليزِىُّ الْأَلمانِىَّ بِأَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ لا بُدَّ أَنْ يَتَغَلَّبَا فى الْمُسْتَقْبَلِ: الأَوَّلُ أَنَّ الْأَلمانِيِّينَ عَلى الْعُمُومِ[1] — ما عَدَا سُكَّانَ (هنفر ووستفالى) الَّذِينَ يُلْحَقُونَ بِجنسِ الإنكليزِ السَكْسُونِيِّينَ — قَلِيلُو الهِمَّةِ فى الزِرَاعَةِ فَهُمْ حَضَرِيُّونَ يُفَضِّلُونَ الهِجْرَةَ لِلتجارَةِ عَنْها لِلاسْتِعْمَارِ والزِّرَاعَةِ فَلَا يَتَأَصَّلُ نَوْعُهُمْ فى الْبِلَادِ كما يَفْعَلُ الإنكلِيزِىُّ السَكْسُونِىُّ. وَمِنْ هُنا جَاءَ أَنَّهُمْ كلَّمَا الْتَقَوْا بِهِ يَبْتَلِعُهُمْ[2]، هكَذَا يَصِيرُ الْمُهَاجِرُونَ مِنَ الْأَلْمَانِ فى أَمرِيكا الشَمَالِيَةِ سَكْسُونِيِّينَ بِسُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ فَلَمْ يَتَكَلَّم

(١) يريد جميعا (٢) أى كلما تلاقى الألمانى والانكليزى ابتلع الانكليزى الألمانى، أى حوله اليه كما بين ذلك بعد

الْجِيلُ الثَّانى مِنْهُمْ إلاَّ الإِنْـكلِيزِيةَّ وَيُصْبِحُونَ انْـكلِيزًا فى عَادَاتِهِمْ وَطِبَاعِهِمْ، إِنَّهُمْ يَتعَجَّلُونَ فى هذَا التَحوُّلِ فيَخْتَارُونَ حتى مِنَ الْأَسْمَاءِ ما يُوَافِقُ أَسْمَاءَ الإِنْـكلِيزِ، وَهذَا هُوَ السَبَبُ فى أَنَّ الْجرَائدَ التَّى تَصْدُرُ بالْأَلمانِيَّةِ لاَ تثْبُتُ قدَمُهَا فى الولاياتِ المُتَّحِدَةِ إلاَّ قليلاً لِأَنَّ قُرَّاءهَا يَنْحَصِرُونَ فى المُهَاجِرينَ الْوَافِدِينَ قَرِيبًا مِنَ الْبِلَادِ الْأَلمانِيَّةِ. وَبَيْنَما طُلاَّبُ المَصْنُوعاتِ الْإِنْـكلِيزِيَّةِ يَكْثُرُونَ، لِزِيادَةِ عَدَدِ المُسْتَعْمِرِينَ مِنْهُمْ فى جَمِيعِ أَنْحَاءِ المَسْكُونَةِ وَانْتِشَارِ جِنْسِهِمْ فى الْأَصْقَاعِ كُلِّها، يَقلُّ عَدَدُ طَالِبِي المَصْنُوعاتِ الْأَلمانِيَّةِ لِتَحوُّلِ الْأَلْمَانِيِّينَ عَنِ الزِرَاعَةِ وَاسْتِحَالَتِهِمْ[1] إلى إِنْـكلِيزِ سَكْسُونِيِّينَ طَوْعًا لِما فى هَؤُلاءِ مِنْ شِدَّةِ المُقَاوَمَةِ وَقُوَّةِ التَّغلُّبِ.

وَثَانِيهِمَا شَكْلُ الْحُكُومَةِ الَّتى وُجِدَتْ فى الْبِلَادِ الْأَلمَانِيَّةِ عقبَ قِيامِ الإِمْبرَاطُورِيَّةِ لِأَنَّا ذَكَرْنَا فيما سبَقَ كيفَ أَنَّ ألْمَانِيَا الْقَدِيمَةَ تَوَصَّلَتْ عَلَى فَقْرِهَا بِعَمَلِها واقتِصَادِهَا إلى بَثِّ رُوحِ الانْتِشَارِ الصنَاعِيِّ وَالتِجَارِيِّ فى هَذِهِ الْأَزْمَانِ وَقُلْنَا إِنَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إلَى مَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْأُمَّةُ مِنَ المَزَايَا الحَقِيقِيَّةِ الَّتى بَقِيَتْ كامِنَةً[2] فِيهَا إلى أَنْ سَاعَدَتِ الظُّرُوفُ عَلَى نُمُوِّهَا نُمُوًّا فجَائِيًا، وَتِلْكَ الظُّرُوفُ هِيَ اتِّسَاعُ نِطَاقِ وَسَائِلِ النَّقْلِ وَتَسْهِيلُ طُرُقِ المُوَاصَلَاتِ. فَتقَدَّمُ الْأُمَّةِ الْجِرْمَانِيَّةِ فى

(١) أى تحولهم (٢) مستترة

عَصرِنَا هذَا نَاتِجٌ عَنْ أَلْمَانيَا الْقَدِيمَةِ. أَمَّا الإمْبرَاطُورِيَّةُ الأَلْمَانِيَّةُ الْجَدِيدَةُ فإِنَّهَا لَا تُنْتِجُ غيرَ انْتِشَارِ الْجُنْدِيَّةِ وَالإِدَارَةِ وَمَذَاهِبِ الإشْتِرَاكِيِّينَ، كما هُوَ مُشَاهَدٌ الْآنَ مَا دَامَتْ عَلَى نِظَامِهَا الْحَالِيِّ. وَلَا يَخْفَى أَنَّ تِلْكَ النَّتَائِجَ لَا تَقْتَرِنُ بِسَعَادَةِ الْأُمَمِ الَّتِي تُوجَدُ فِيهَا وَثَرْوَتِهَا، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا أَيَّامَ لُوِيزَ الرَّابِعَ عَشَرَ وَنَابُلْيُونَ غَيْرُ الدَّاءَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ، وَلَقَدْ ذَهَبَا بِنَا إِلَى أَسْوَإِ الْأَحْوَالِ، وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْنُ الْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ أَيَّامَ الْمَلِكِ شَارْلِكَانَ وَفِيلِيب الثَّانِي.

وَمِنْ لَوَازِمِ تِلْكَ النِّظَامَاتِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنَّهَا تُمَثِّلُ الْأُمَّةَ بِمَظْهَرِ الْقُوَّةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ لِأَنَّهَا تَجْمَعُ بِسُرْعَةٍ جَمِيعَ الْعَنَاصِرِ الْحَيَّةِ الَّتِي تَكَوَّنَتْ شَيْئًا فَشَيْئًا تَحْتَ ظِلِّ النِّظَامَاتِ السَّابِقَةِ فِي قَبْضَةِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَذَلِكَ هُوَ الزَّمَنُ الْمَجِيدُ الَّذِي كَانَ لِلْبُرُوسْيَا أَخِيرًا كما كَانَتْ عَلَيْهِ الأَنْدَلُسُ وَبِلَادُنَا فِي الأَزْمَانِ الْغَابِرَةِ(١). غَيْرَ أَنَّ اجْتِمَاعَ قُوَى الأُمَّةِ الْحَيَّةِ فِي يَدٍ وَاحِدَةٍ يُؤَدِّي، مَعَ الزَّمَنِ، إِلَى ضَعْفِهَا كُلِّهَا وَتَعْطِيلِ مَنْفَعَتِهَا فَتَنْحَلُّ وَتَصِيرُ عَقِيمَةً(٢) وَحِينَئِذٍ يَسْتَوْلِي الدَّمَارُ وَالانْحِطَاطُ عَلَى الأُمَّةِ. وَإِذَا اسْتَمَرَّتِ الإِمْبرَاطُورِيَّةُ الأَلْمَانِيَّةُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي وَصَلَتْ مِنْهَا —وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا تَسْتَمِرُّ— فَإِنَّهَا لَا تَنْجُو مِنْ

(١) الغابر من أسماء الاضداد فيكون بمعنى الماضي كما هنا، وبمعنى الآتي.

(٢) يريد غير مثمرة، وصوابها عقيما من قولهم امرأة عقيم أي لا تلد.

نتائجها . وعلى الألمانيين أن يعجلوا الاستفادة من فضائلهم الأولى فينشروا تجارتهم ويكفوا عن ملامنا على تأخرنا فإنما نحن السابقون وهم بنا لاحقون . والخلاصة أن الأمة الإنكليزية السكسونية تعظم وتتقدم بما لأفرادها من الأعمال المفيدة المتجددة على الدوام وبما لها من حكومة نفسها بنفسها ، والأمة الألمانية القديمة تفقد كل يوم فضائلها الأولى التى كانت أساس قوتها الاجتماعية ، ولا تزال تفقدها إلى الآن ، وسببه الإفراط فى السلطة السياسية . وقد توخيت تمييز ألمانيا القديمة من ألمانيا الجديدة فى هذه المقدمة لأن كلامى فى الفصل الثانى من هذا الكتاب راجع كله إلى هذه الأخيرة ، وأريد ألا يلتبس الأمر على القراء . وسنبين فى هذا الفصل كيف يسعى امبراطور ألمانيا — كما اعترف هو بنفسه — إلى إعدام ألمانيا القديمة وإيجاد ألمانيا الجديدة بواسطة تنظيم التعليم على مثال الأمة البروسيانية .

البابُ الأول

﴿ الفَرَنْسَاوِيُّونَ والإنجليزُ السَكْسُونيُّونَ فِي المَدْرَسَةِ ﴾

يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ إنْكلترا وَالأُمَمِ الْغَرْبِيَّةِ الْأُخْرَى مُنْذُ عَهْدِ المَدْرَسَةِ ، وَهُوَ فَرْقٌ كَبِيرٌ إذَا عَرَفْنَاهُ سَهُلَتْ عَلَيْنَا مَعْرِفَةُ السَبَبِ فِي أفْضَلِيَّةِ الإنجليزِ السَكْسُونِيِّينَ .

كلُّ أُمَّةٍ تُنَظِّمُ التَّرْبِيَةَ عَلى حَسَبِ طَبِيعَتِهَا وَعَلَى مُقْتَضَى أَخْلاقِها وَعَوَائِدِها ، ثمَّ التَّرْبِيَةُ نَفْسُهَا تُؤَثِّرُ فى الْهَيْئَةِ الاجْتِماعِيَّةِ . وَسَيَقِفُ الْقارِئُ عَلَى بَيانِ ذَلِكَ بِمَا نُقَدِّمُهُ لهُ مِنَ الشَّرْحِ عَلى التَّرْبِيَةِ فى فَرَنْسَا وَأَلْمَانْيَا وإنجلترا ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نُخَصِّصُ مَطْلَبًا رَابِعًا نُبَيِّنُ فِيهِ تَغْيِيرَ الْأَحْوَالِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ وَنَأْتِي عَلَى ذِكْرِ الطَرِيقَةِ الَّتي يَجِبُ أَنْ نَتَّبِعَهَا فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا حَتَّى يَكُونُوا عَلَى دَرَجَةٍ مِنَ الاسْتِعْدَادِ تُنَاسِبُ الأَزْمَانَ الحَاضِرَةَ الَّتي أَصْبَحَتْ تُخَالِفُ الْأَزْمَانَ القَدِيمَةَ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ .

الفصل الأول

﴿ فيما إذا كان نظام التعليم بالمدارس الفرنساوية يربى رجالاً ﴾

إذا سألت مائة شاب فرنساوى عقب خروجهم من المدرسة أى صنعة يريدون أن يشتغلوا بها؟ أجابك ثلاثة أرباعهم: إنهم يتطلعون إلى التوظف فى الحكومة فأغلبهم يطمع فى الانتظام فى الجندية أو القضاء أو النظارات أو المديريات أو السفارات أو المصالح الأخرى كمصلحة القناطر والجسور والمعادن والدخان والمياه والغابات والمعارف والمكاتب العمومية ودور المحفوظات وغيرها، ولا يميل إلى الصنائع (١) الحرة فى العادة منهم إلا الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بإحدى المصالح الأميرية.

ولما كانت الوظائف فى الحكومة معدودة عمدت إلى طريقة الاختيار بقدر مالديها من الوظائف الخالية. وطرق الاختيار ثلاثة: الامتحان، والوسائط (٢)، ومراعاة الأنساب والأحساب. إلا أن الوسائط والأنساب لا يعول عليها إلا نادرا، والامتحان هو القاعدة العمومية. لذلك أصبح النجاح فيه الشغل الشاغل لجميع

(١) الأحسن الأعمال الحرة ليكون أعم (٢) يريد الوساطات: جمع وساطة أى التوسط بين طالب التوظف وبين من بيدهم الأمر، يعنون الشفاعة.

شُبَّانِنَا فإِنَّ مُسْتَقْبَلَهُمْ مُتَوَقِّفٌ عَلَيْهِ وَانْحَصرَ فِكْرُ الْعَائِلَاتِ فِي إِيجَادِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُمَكِّنُ أَبْنَاءَهَا مِنْ هَذَا النَّجَاحِ ، وَهَكَذَا تَوَلَّدَتْ فِي أَذْهَانِ الفَرَنْسَاوِيِّينَ أَهَمِّيَّةُ الْمَدَارِسِ لِأَنَّهَا الْوَاسِطَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تُوَصِّلُ إِلَى تِلْكَ الْمَطَامِعِ وَتَجْعَلُ لِلْإِنْسَانِ مَرْكَزًا فِي أُمَّتِهِ ، وَعُنِيَ الْقَائِمُونَ بِأَمْرِهَا إِلَى جَعْلِ نِظَامِهَا بِحَيْثُ يُسَاعِدُ عَلَى هَذَا النَّجَاحِ . وَهُمْ مَعْذُورُونَ لِأَنَّ أَهَالِيَ التَّلَامِذَةِ لَا تَعْتَبِرُهَا إِلَّا بِقَدْرِ مَنْ يَنْجَحُ مِنْ طَلَبَتِهَا فِي الِامْتِحَانَاتِ السَّنَوِيَّةِ ، وَالْمَدْرَسَةُ الَّتِي يَقِلُّ عَدَدُ النَّاجِحِينَ مِنْ مُتَخَرِّجِيهَا تَنْحَطُّ دَرَجَتُهَا وَيَهْجُرُهَا التَّلَامِذَةُ حَتَّى صَارَ الْفَوْزُ فِي الِامْتِحَانِ عِلَّةَ حَيَاةِ الْمَدَارِسِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ .

وَلَا سَبِيلَ إِلَى تَهْيِئَةِ الطَّلَبَةِ لِلِامْتِحَانِ إِلَّا بِإِنْهَاكِ قُوَى الْمُتَعَلِّمِ حَتَّى يَحْصُلَ فِي زَمَنٍ يَسِيرٍ عَلَى تَعْلِيمٍ سَطْحِيٍّ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ الْعُلُومِ الْمَطْلُوبَةِ فِي الِامْتِحَانِ .

فَأَمَّا قِلَّةُ الزَّمَنِ فَلِسَبَبَيْنِ : الْأَوَّلُ مُلَاحَظَةُ السِّنِّ الْمُقَرَّرَةِ قَانُونًا لِلدُّخُولِ فِي بَعْضِ الْوَظَائِفِ، وَقَدْ لَاحَظَتِ الْحُكُومَةُ فِي تَحْدِيدِهَا تَقْلِيلَ عَدَدِ الطُّلَّابِ الَّذِي يَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ وَجَعْلَ الِامْتِحَانِ صَعْبًا ، وَالسَّبَبُ الثَّانِي تَعَجُّلُ الشُّبَّانِ التَّوَظُّفَ لِكَيْ يَتَرَقَّوْا سَرِيعًا قَبْلَ وُصُولِهِمْ لِلسِّنِّ الْمُحَدَّدَةِ لِلتَّقَاعُدِ .

وَلاَ شَكَّ فِي أَنَّ التَّسَرُّعَ فِي الزَّمَنِ وَالإِكْثَارَ مِنَ الْمَوَادِّ يَجْعَلاَنِ التَّعْلِيمَ سَطْحِيًّا إِذْ كُلَّمَا زَادَ عَدَدُ الْمُتَعَلِّمِينَ كَثُرَتِ الْعُلُومُ الْوَاجِبُ تَعَلُّمُهَا وَزَادَتْ صُعُوبَةُ الامْتِحَانِ وَلَمْ يَعُدْ فِي إِمْكَانِ الطَّالِبِ، مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الْعَقْلِ وَالذَّكَاءِ، أَنْ يُتْقِنَ تَلَقِّيَ تِلْكَ الْعُلُومِ كُلِّهَا وَأَصْبَحَ يَكْتَفِي مِنْهَا بِتَصَفُّحِ أَوْرَاقِهَا . وَلَوْ أَنَّ الْمُعَلِّمِينَ أَنْفُسَهُمْ تَقَدَّمُوا إِلَى الامْتِحَانِ مَعَ طَلَبَتِهِمْ لَعَجَزُوا عَنِ الإِجَابَةِ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمَسَائِلِ وَخِيفَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْخِذْلاَنِ[1] . وَلَوْ كَانَ الْغَرَضُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ إِيدَاعَ الْمَعْلُومَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي أَذْهَانِ التَّلاَمِذَةِ وَتَرْبِيَةَ مَلَكَاتِهِمِ الْعَقْلِيَّةِ لَرَسَخَتِ التَّعَالِيمُ عِنْدَهُمْ ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ نَتِيجَةَ لَهَا وَلاَ يُقْصَدُ بِهَا إِلاَّ شَحْذُ[2] الذَّاكِرَةِ . لِذَلِكَ قُلْنَا إِنَّ التَّعْلِيمَ لاَ يَدُومُ إِلاَّ قَلِيلاً فَلاَ يَكَادُ التِّلْمِيذُ يَجْتَازُ الامْتِحَانَ إِلاَّ وَقَدْ أَدْرَكَهُ النِّسْيَانُ ، وَالنَّاسُ لاَ يَرَوْنَ فِي هَذَا ضَرَرًا لِحُصُولِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ إِذْ يَكْفِي أَنْ يَكُونَ الطَّالِبُ مُسْتَعِدًّا لِجَوَازِ الامْتِحَانِ فَإِنْ وَفَّاهُ حَقَّهُ صَارَ كُلُّ مَرْغُوبٍ بَعْدَهُ مِنَ الْكَمَالِيَّاتِ ، فَبِهِ يَحْصُلُ التَّوَظُّفُ وَهُوَ مُنْتَهَى الآمَالِ . وَعَلَى هَذَا يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ الامْتِحَانَ أَصْبَحَ السَّبَبَ الْوَحِيدَ فِي تَكْلِيفِ التَّلاَمِذَةِ مَا لاَ يُطِيقُونَ ، وَمِنْ أَجْلِهِ أَيْضًا وُجِدَ نِظَامُ

(١) يريد الاخفاق وعدم النجاح. واصل الخذلان من خذله يخذله ترك عونه ونصرته

(٢) من شحذ السكين حده. وهم يقولون شحذ الذهن يعنون ارهفه. ولكن الظاهر أن المترجم يريدهنا ملء الذاكرة بالمعلومات وإذن يكون استعمال شحذ فى غير موضعه وانما تستبدل بها كلمة شحن .

انْقِطَاعِ الأَبْنَاءِ عَنْ أَهْلِيهِمْ وَسُكْنَاهُمْ بِالْمَدَارِسِ لَيْلاً وَنَهَارًا وَهُوَ النِّظَامُ الْمَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ (بِالدَّاخِلِيَّةِ)

وَقَدِ احْتَاجُوا إلَى ذَلِكَ لاعْتِمَادِ الْفرَنْسَاوِيِّينَ فى تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ عَلَى الْمَدْرَسَةِ تَوَصُّلاً إلَى النَّجَاحِ فِى الامْتِحَانِ حَتَّى يَنَالُوا وَظِيفَةً فِى الْحُكُومَةِ ، وَصُعُوبَةُ الامْتِحَانِ عَلَى مَا قَدَّمْنَا تَقْتَضِى طُرُقًا مَخْصُوصَةً فِى التَّعْلِيمِ وَوَسَائِلَ تَجْهَلُهَا الْعَائِلاَتُ ،وَإِنْ لَمْ تَجْهَلْهَا فَإِنَّهُ لاَ يَتَيَسَّرُ لَهَا اسْتِعْمَالُهَا وَلاَ أَنْ تُرَاقِبَ الْعَمَلَ بِهَا.وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ فَإِنَّهُمْ يَخَافُونَ أَنْ يَضِيعَ الْوَقْتُ وَيَخْشَوْنَ مِنِ اشْتِغَالِ أَبْنَائِهِمْ بِمَا يُلْهِيهِمْ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ إِنْ لَمْ يَبِيتُوا فِى الْمَدَارِسِ.

وَمِمَّا لاَشَكَّ فِيهِ أَنَّ هذَا النِّظَامَ مُلاَئِمٌ لِذَلِكَ الْغَرَضِ كَمَا يَنْبَغِى أَىْ أَنَّهُ يُهَيِّئُ الطَّلَبَةَ إِلَى الْوَظَائِفِ الْمَلَكِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ ، وَبَيَانُهُ أَنَّ الْمُوَظَّفَ الْحَقِيقِىَّ هُوَ الَّذِى يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ إِرَادَتِهِ وَلِهَذَا وَجَبَ أَنْ يَتَرَبَّى عَلَى الطَّاعَةِ لِيَسْهُلَ عَلَيْهِ تَنْفِيذُ أَوَامِرِ رُؤَسَائِهِ مِنْ غَيْرِ مُنَاقَشَةٍ وَلاَ نَظَرٍ فِيهَا، لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُ أَنْ يَكُونَ آلَةً فِى يَدِ غَيْرِهِ ، وَالدَّاخِلِيَّةُ مِنْ أَعْظَمِ الْبَوَاعِثِ عَلَى هذِهِ التَّرْبِيَةِ لِأَنَّ الْمَدْرَسَةَ نُظِّمَتْ عَلَى نَسَقِ ثُكْنَةٍ(١) عَسْكَرِيَّةٍ يَقُومُ الطَّلَبَةُ

(١) ثكنة كلمة فارسية واحدة ثكن الجند وهى مراكزهم

فِيهَا مِنْ نَوْمِهِمْ عَلَى صَوْتِ البُوقِ [١] أَوْ رَنَّةِ الجَرَسِ وَيَنْتَقِلُونَ مُصْطَفِّينَ بِالنِّظَامِ مِنْ عَمَلٍ إِلَى آخَرَ، وَرِيَاضَتُهُمْ تُشْبِهُ الِاسْتِعْرَاضَ الْعَسْكَرِيَّ فَهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الدَّرْسِ إِلَّا فِي رَحَبَاتٍ دَاخِلَ الْبِنَاءِ عَالِيَةِ الْأَسْوَارِ وَيَتَمَشَّوْنَ فِيهَا جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ كَأَنَّهُمْ لَا يَلْعَبُونَ، وَلَيْسَ لَهُمْ مِنَ الزَّمَنِ مَا يَسْتَرِيحُونَ فِيهِ مِنْ عَنَاءِ الدَّرْسِ وَالْمُطَالَعَةِ. فَلَهُمْ نِصْفُ سَاعَةٍ فِي الصَّبَاحِ وَسَاعَةٌ بَعْدَ طَعَامِ الظُّهْرِ وَنِصْفُ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ وَمُعَدَّلُ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْمَدْرَسَةِ يَوْمٌ وَاحِدٌ فِي الشَّهْرِ. وَلَا يَتَيَسَّرُ لِلْعَائِلَاتِ زِيَارَةُ أَبْنَائِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّتَيْنِ فِي الْأُسْبُوعِ مُدَّةَ سَاعَةٍ عَلَى الْأَكْثَرِ فِي مَكَانٍ مَخْصُوصٍ مُزْدَحِمٍ بِالْمَوْجُودِينَ بِحَيْثُ يَسْمَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ يُضْعِفُ فِي الشَّابِّ قُوَّةَ الْعَمَلِ الِاخْتِيَارِيِّ وَيُوهِنُ الْهِمَّةَ وَالْإِقْدَامَ، كَمَا أَنَّ مِنْ شَأْنِهِ أَيْضًا إِزَالَةَ مَا قَدْ يُوجَدُ بَيْنَ الطَّلَبَةِ مِنْ تَفَاوُتِ الْأَنْسَابِ. لِأَنَّ الدَّائِرَةَ الَّتِي تَدُورُ عَلَى الجَمِيعِ وَاحِدَةٌ فَتَجْعَلُهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ آلَاتٍ مُعَدَّةً لِلْعَمَلِ الَّذِي يُقْصَدُ مِنْهَا. وَمِمَّا يَزِيدُ فِي سُهُولَةِ انْقِيَادِهِمْ وَحُسْنِ طَاعَتِهِمْ كَوْنُ النِّظَامِ الَّذِي تَرَبَّوْا عَلَيْهِ لَا يُؤَدِّي إِلَى تَرْبِيَةِ الْفِكْرِ وَالتَّعَقُّلِ بَلِ الطَّالِبُ يَتَنَاوَلُ مُسْرِعًا كَثِيرًا مِنَ الْمَوَادِّ سَوَاءٌ أَحْكَمَ تَعَلُّمَهَا أَمْ لَا وَلَا تَشْتَغِلُ مِنْ مَلَكَاتِهِ إِلَّا

(١) البوق: الآلة التي ينفخ فيها

الذاكرة . فكما أنه يتلقى التعليم من دون نظر فيه تراه ينحنى من غير تردد أمام الأوامر التى تصدر له من رؤسائه فى المصالح التى يوظف فيها ، ولا غرابة فى هذا فإن مصدر ذلك التعليم وتلك الأوامر واحد فى الحقيقة وهى الحكومة ، وكأنى بهم يقولون له : أيها التلميذ إن الحكومة قد علمتك مبادئها فصرت اليوم موظفاً تتلقى أوامرها ، ومرجع الصفتين واحد كما ترى .

وأول من التفت إلى جعل المدارس أماكن لتربية الموظفين نابليون الأول ، ففى القرن السابع عشر والثامن عشر كانت « الداخلية » نادرة ولم تعمم إلا أيام الأمبراطورية الأولى ، فلما أسس نابليون الأول مدارس الحكومة جعلها قاعدة عمومية لأنه ما كان يتيسر له أن يدير السلطة الكلية التى جمعها فى يده إلا بكثرة عدد الموظفين ، ووجب من ذلك الحين على الحكومة أن تلاحظ تربية الشبان الذين تضطر إلى استخدامهم فمالت بالطبع إلى تقرير المبادئ التى توافق مصلحتها وتعويد الطلبة عليها قبل نمو الإدراك الحقيقى فيهم حتى تتوصل بذلك إلى الغرض المقصود وهو إضعاف همتهم وتعويدهم الطاعة والاشتراك فى الإحساسات والتجانس فى الأفكار . وبالجملة فإنهم ينشئون

عَلى مَا مِنْ شَأْنِهِ مَحْوُ الْأَنَانِيَةِ فِي الْإِنْسَانِ. وَقَدْ سَرَتِ الْحُكُومَاتُ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَ الْإِمْبِرَاطُورِيَةِ الْأُولَى عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا فِي ذَلِكَ النَّهْجِ وَهُوَ الَّذِي تُبْنَى عَلَيْهِ الْيَوْمَ سِيَاسَةُ الْبِلَادِ فَلَمْ يَنْقُصْ عَدَدُ الْمُوَظَّفِينَ وَلَمْ يَضْعُفْ جَمْعُ السُّلْطَةِ فِي الْيَدِ الْعُلْيَا بَلْ زَادَ ذَلِكَ مِنْ أَوَّلِ هَذَا الْقَرْنِ وَنَشَأَ عَنْهُ اتِّسَاعُ نِطَاقِ التَّعْلِيمِ السَّطْحِيِّ كَمَا انْتَشَرَ نِظَامُ الدَّاخِلِيَّةِ فِي الْمَدَارِسِ.

ذَلِكَ هُوَ النِّظَامُ الَّذِي يَتَرَبَّى عَلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ رَجَاءَ الْفَوْزِ فِي الْامْتِحَانِ الَّذِي يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ الْوَظَائِفِ فِي الْحُكُومَةِ. غَيْرَ أَنَّ نَجَاحَهُمْ لَيْسَ عَلَى قَدْرِ أَمَلِهِمْ فَكُلُّهُمْ آمِلٌ وَلَيْسَ الْكُلُّ مُوَظَّفِينَ، وَيُصْبِحُ الَّذِينَ سُدَّتْ أَبْوَابُ الْحُكُومَةِ فِي وُجُوهِهِمْ مُضْطَرِّينَ إِلَى طَلَبِ الْعَيْشِ مِنْ بَابٍ آخَرَ، وَهُنَا يَجِبُ النَّظَرُ فِيمَا إِذَا كَانَ نِظَامُ الْمَدَارِسِ الْحَالِيُّ وَافِيًا بِالْغَرَضِ الْمَقْصُودِ مِنْ تَرْبِيَةِ الرِّجَالِ عَلَى مَبَادِئِ الِارْتِزَاقِ مِنْ غَيْرِ الْحُكُومَةِ أَمْ لَا كَمَا أَنَّهُ صَارَ وَافِيًا بِتَرْبِيَةِ الْمُوَظَّفِينَ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ كُبْرَى يَنْبَغِي الِالْتِفَاتُ إِلَيْهَا.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا يَتَيَسَّرُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُحَصِّلَ مَعِيشَتَهُ إِلَّا إِذَا كَانَ ذَا إِرَادَةٍ وَهِمَّةٍ وَكَانَ مُتَعَوِّدًا الِاعْتِمَادَ عَلَى نَفْسِهِ، وَالنِّظَامُ الَّذِي شَرَحْنَاهُ لَا يُسَاعِدُ عَلَى تَرْبِيَةِ هَذِهِ الْمَلَكَاتِ بَلْ إِنَّهُ يُضْعِفُهَا

وَيُمِيتُهَا وَيُعَوِّدُ الْعَقْلَ انْتِظَارَ الْمَرَاكِزِ الْمُجَهَّزَةِ مِنْ قَبْلُ حَيْثُ لَا يُكَلِّفُهُ التَّقَدُّمُ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَبُورًا لَا أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ عَمَلٍ إِذِ التَّرَقِّي فِي الْجَيْشِ وَفِي مَصَالِحِ الْحُكُومَةِ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالْأَقْدَمِيَّةِ وَالِاسْتِصْنَاعِ (١) وَكُلُّ الَّذِي يَجِبُ عَلَى الطَّالِبِ أَنْ يَعْمَلَهُ هُوَ الدُّخُولُ فِي الْخِدْمَةِ، وَمَتَى اسْتَقَرَّ فِي وَظِيفَتِهِ يَتْرُكُ نَفْسَهُ فَيَنْتَقِلُ بِحُكْمِ الْعَادَةِ مِنْ وَظِيفَةٍ إِلَى أُخْرَى ، وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ قَلَّ أَنْ يَكُونَ شُجَاعَ النَّفْسِ ذَا قَلْبٍ يَمِيلُ إِلَى التَّعَبِ حُبًّا فِي الْحَيَاةِ . وَيَنْبَغِي أَيْضًا لِمَنْ يَطْلُبُ الرِّزْقَ بِنَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ شَابًّا لِأَنَّ الشُّبُوبِيَّةَ (٢) تُسَهِّلُ لِلْإِنْسَانِ اجْتِيَازَ الْعَقَبَاتِ الَّتِي تُصَادِفُهُ بِالطَّبْعِ فِي بِدَايَةِ الْعَمَلِ أَيًّا كَانَ ، ثُمَّ هِيَ لَازِمَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَلَّمَ صَنْعَةً مِنَ الصِّنَاعَاتِ، وَطَالِبُ التَّوَظُّفِ فِي الْحُكُومَةِ مُضْطَرٌّ إِلَى الْبَقَاءِ بِغَيْرِ كَسْبٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْحَادِيَةَ وَالْعِشْرِينَ أَوِ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ وَرُبَّمَا كَانَتِ الثَّلَاثِينَ وَأَكْثَرَ ، فَإِذَا ضَاعَ أَمَلُهُ فِي الِاسْتِخْدَامِ أَمْسَى وَقَدْ سُدَّتْ أَمَامَهُ أَبْوَابُ حِرَفٍ كَثِيرَةٍ وَلَاتَ حِينَ اعْتِنَاقِهَا لِفَقْدِ وَسَائِلِهَا ، ثُمَّ الْحِرَفُ فِي الْغَالِبِ صَعْبَةُ الْمَنَالِ قَلِيلَةُ النَّفْعِ

(١) لعله يريد أن يكون الموظف صنيعة أحد الرؤساء يعنى « محسوبه » والفصيح فى هذا الاصطناع،يقولون : اصطنعه لنفسه فهو صنيعته اذا أدبه وخرجه ورباه ويقولون صانعه أى داراه وداهنه ولعله يريد هذا لأن المقام يحتمله

(٢) الفصيح الشباب والشبيبة

فِي أَوَائِلِهَا ، وَلَا تَنْسَ أَنَّ الطَمَعَ يَشْتَدُّ فِي الْإِنْسَانِ كُلَّمَا تَقَدَّمَ فِي العُمْرِ (١) . وَكُلَّمَا زَادَ الطَمَعُ صَعُبَ نَيْلُ المَطْلُوبِ ، وَهَكَذَا يَفُوتُ الْوَقْتُ وَتَتَعَاقَبُ الْأَعْوَامُ وَتَزْدَادُ الصُعُوبَاتُ وَالمَرْءُ وَاقِفٌ بَيْنَ الْإِقْدَامِ وَالْإِحْجَامِ .

وَلَيْسَتِ الشَبُوبِيَّةُ (٢) بِكَافِيَةٍ وَحْدَهَا بَلْ لَا بُدَّ مَعَهَا مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي الشَابِّ اسْتِعْدَادٌ وَمَيْلٌ لِلصِنَاعَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا وَأَنْ يَكُونَ عَلَى مَعْلُومَاتٍ تَلِيقُ بِهَا ، إِذْ لَا يَصِيرُ المَرْءُ مِنْ أَرْبَابِ الزِرَاعَةِ أَوِ الصِنَاعَةِ أَوِ التِّجَارَةِ دَفْعَةً وَاحِدَةً بَلْ كُلُّهَا أَعْمَالٌ تَقْتَضِي الدُّرْبَةَ (٣) وَلَا تُنَالُ إِلَّا بِالْعَمَلِ وَاقْتِفَاءِ أَثَرِ الآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ

وَنِظَامُ مَدَارِسِنَا لَا يُهَيِّئُ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ بَلْ إِنَّهُ يُبْعِدُ المُتَعَلِّمِينَ عَنْهَا لِأَنَّهُ يَغْرِسُ فِيهِمِ اعْتِقَادَ أَفْضَلِيَّةِ الْوَظَائِفِ فِي الْحُكُومَةِ ، وَكَثِيرٌ مِمَّنْ لَا حَيَاةَ لَهُمْ إِلَّا بِالزِّرَاعَةِ أَوِ الصِنَاعَةِ أَوِ التِّجَارَةِ يَدْهَشُونَ عِنْدَ مَا يَسْمَعُونَ أَبْنَاءَهُمْ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ المَدْرَسَةِ يَقُولُونَ إِنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ نَحْذُوَ حَذْوَ آبَائِنَا ، وَمَا لِلدَهْشَةِ مُوجِبٌ فَإِنَّ المَدْرَسَةَ قَدْ بَغَّضَتْ إِلَيْهِمْ حِرَفَ آبَائِهِمْ حَتَّى صَارَ النَاسُ لَا يَلُومُونَ الشُبَّانَ عَلَى فِرَارِهِمْ مِنَ الْمِهَنِ وَالصِنَاعَاتِ الجَارِيَةِ

(١) يريد تقدم به العمر (٢) يريد الشباب (٣) الدربة العادة والمران

مَعَ كَوْنِهَا أَشْرَفَ الْأَعْمَالِ وَأَنْفَعَهَا ، وَمَنْ يَرْجِعُوا مِنْهُمْ إِلَيْهَا بَعْدَ خِذْلَانِهِمْ فِى الِامْتِحَانِ لَا يَعْمَلُوا فِيهَا إِلَّا عَنْ قَهْرٍ وَاضْطِرَارٍ عَلَى غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ وَلَا مَيْلٍ ، فَهُمْ يَدْخُلُونَهَا وَشُرُوطُ النَّجَاحِ غَيْرُ مُتَوَافِرَةٍ لَدَيْهِمْ .

وَمَعَ مَا تَقَدَّمَ فَإِنَّ نِظَامَ الْمَدَارِسِ عِنْدَنَا يُهَيِّئُ الْمُتَخَرِّجِينَ مِنْهَا إِلَى عَمَلَيْنِ آخَرَيْنِ غَيْرِ التَّوَظُّفِ فِى الْحُكُومَةِ وَهُمَا الِاسْتِخْدَامُ فِى الْمَصَالِحِ الْحُرَّةِ وَاحْتِنَاقُ الْحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ ، فَأَمَّا كَوْنُهُ يُهَيِّئُ إِلَى الِاسْتِخْدَامِ فِى الْمَصَالِحِ الْحُرَّةِ فَظَاهِرٌ لِمَا بَيْنَ مَصَالِحِ الْحُكُومَةِ وَالْمَصَالِحِ الْحُرَّةِ مِنَ الشَّبَهِ فَإِنَّ هَذِهِ لَا تَطْلُبُ مِنْ مُسْتَخْدَمِيهَا اسْتِقْلَالًا فِى الْعَمَلِ وَلَا قُوَّةً فِى الْإِرَادَةِ وَلَا اجْتِهَادًا أَكْثَرَ مِنْ تِلْكَ ، وَهِىَ مِثْلُهَا فِى ضَمَانِ الْمَعِيشَةِ ، وَالتَّقَدُّمُ فِيهَا مُحَقَّقٌ بِطَبِيعَةِ نِظَامِهَا وَإِنْ كَانَ بَطِيئًا ، فَإِنْ لَمْ يَنْجَحْ فِى الِامْتِحَانِ رَكَضَ (١) نَحْوَ تِلْكَ الْمَصَالِحِ حَتَّى كَثُرَ عَدَدُ الطُّلَّابِ وَتَعَذَّرَ عَلَيْهَا أَنْ تَسْتَخْدِمَهُمْ جَمِيعًا ، وَكَذَلِكَ كَثُرَ الْمَيْلُ إِلَى الِاحْتِرَافِ بِالْحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ لِأَنَّ نِظَامَ الْمَدَارِسِ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُحْدِثَ عِنْدَ الطَّلَبَةِ مَعْلُومَاتٍ عَامَّةً لِكَثْرَةِ عَدَدِ الْمَوَادِّ الَّتِى يَدْرُسُونَهَا فَيَخْرُجُ الطَّالِبُ مِنْهَا وَهُوَ عَلَى اعْتِقَادٍ تَامٍّ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِكُلِّ شَىْءٍ لِأَنَّهُ

(١) جرى

مَرَّ عَلى كلِّ شَيْءٍ وَفِى وُسْعِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ عَنْهُ أَوْ يَكْتُبَ فَيَصِيرَ رَجُلاً أَدِيباً مِنْ أَىِّ صِنْفٍ كَانَ ، عَلَى أَنَّهُ مُضْطَرٌّ لِلالْتِجَاءِ إِلَى تِلْكَ الْحِرْفَةِ فَإِنَّ الْمَدْرَسَةَ لَمْ تُحْسِنْ تَرْبِيَتَهُ أَوْ أَنَّهَا جَعَلَتْهُ غَيْرَ صَالِحٍ لِأَنْ يَكُونَ ذَا صَنْعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ غَيْرِهَا . وَمِمَّا هُوَ مُشَاهَدٌ لِلْعِيَانِ أَنَّ نِظَامَ التَّعْلِيمِ عِنْدَنَا يُرَبِّى أَذْهَانَ الذينَ يَحْتَرِفُونَ تِلْكَ الْمِهْنَةَ عَلَى كَيْفِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ وَهِىَ ضَعْفُهُمْ فِى الْبَحْثِ فَلاَ يَكَادُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يُجِيدُ النَّظَرَ فِى مَسْأَلَةٍ إِلاَّ قَلِيلاً ، لَـكِنَّهُمْ مِنْ ذَوِى الاقْتِدَارِ التَّامِّ فى التَّخَيُّلاَتِ وَالْحُكْمِ بِالاسْتِقْرَاءِ النَّاقِصِ (١) مِمَّا يَقْرُبُ إِلَى الْخَطَإِ أَكْثَرَ مِنْهُ إِلى الصَّوَابِ . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى ذَلِكَ مُطَالَعَةُ (جَرِيدَةِ المَطْبُوعَاتِ) التِى تَنْشُرُ كلَّ يَوْمٍ مَا يُؤَلَّفُ مِنَ الـكُتُبِ الْأَدَبِيَّةِ فِى فَرَنْسَا إِذْ يَتَبَيَّنُ أَنَّ الْمُؤَلَّفَاتِ الَّتِى تَقْتَضِى وَقْتاً وَعَنَاءً تَقِلُّ يَوْماً فَيَوْماً ، وَالَّذِى يُؤَلَّفُ مِنْهَا هُوَ فِى الْغَالِبِ نَقْلٌ (٢) مِنْ كُتُبٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَلَى شَكْلِ كُتُبِ دَائِرَةِ الْعُلُومِ لاَمُؤَلَّفَاتٌ شَخْصِيَّةٌ وَضَعَهَا

---

(١) جاء فى التعريفات : الاستقراء هو الحكم على كلى لوجوده فى أكثر جزئياته وانما قلنا فى أكثر جزئياته لأن الحكم لو كان في جميع جزئياته لم يكن استقراء بل قياسا مقسما ويسمى هذا استقراء لأن مقدماته لا تحصل إلا بتتبع الأجزاء كقولنا كل حيوان يحرك فكه الأسفل عند المضغ لأن الانسان والبهائم والسباع كذلك وهو استقراء ناقص لايفيد اليقين لجواز وجود جزئى لم يستقرأ ويكون حكمه مخالفا لما استقرىء كالتمساح فانه يحرك فكه الأعلى عند المضغ (٢) نقل على صيغة المصدر أى منقول ولك أن تقرأه بالبناء للمجهول

صاحبها بعد إطالة الفكر وإنعام النظر ، بل تلك رسائل مطولة سهلة التناول ، والغرض منها جمع عدة مسائل بكيفية تسهل الوقوف عليها ولم يعد يوجد فى فرنسا من مؤلفى الكتب الشخصية وقرائها إلا عدد يسير ، ومن هنا جاء أن ملتزمى طبع الكتب يحجمون عن طبعها إذا زادت على مجلد واحد أو ما يقرب منه ، وليلاحظ أن هذا الضعف وعدم القدرة على درس المسائل كما ينبغى ليس ناشئاً من طبيعة الأمة الفرنساوية بدليل الفرق بين مؤلفات القرنين السابقين وأول القرن الحالى وبين المؤلفات التى ظهرت منذ أربعين سنة ، بل مرجع هذا الضعف صيرورة التعليم سطحياً فى المدارس لعلة الامتحان ، ومتى تعود الفكر الأخذ بظواهر الأشياء ، وألا يطالع الإنسان إلا فى كتب صغيرة ، وأن يكون سريع الفهم لا قويم الحكم (١) وأن يكثر من الإحاطة بعدد كبير من المسائل فى أقرب وقت تشبثاً بواضعيها من غير تأمل استحال عليه أن يجيد البحث لصيرورته غير قادر عليه ، ويزداد هذا الضعف بمقدار زمن ذلك التعليم السطحى ، وأشده عند طلبة المدارس العالية فهم يفضلون غيرهم بقوة الذاكرة وسرعة الخاطر وسهولة فهم المراد وهى

(١) أى مستقيم الحكم مسدده

المَلَكَاتُ (١) الَّتِى عُنِىَ بِتَرْبِيَتِها فِيهِمْ وَكَانَتْ سَبَباً لِنَجَاحِهِمْ فِى الِامْتِحَانِ ، إِلاَّ أَنَّ عَجْزَهُمْ يَظْهَرُ إِذَا طُلِبَ مِنْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا عَمَلاً مِنْ وَظَائِفِ تِلْكَ المَلَكَاتِ الَّتِى ارْتَفَعَتْ صُورَةً وَانْحَطَّتْ حَقِيقَةً . وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ وَظِيفَةَ المَدَارِسِ عِنْدَنا فِى هَذِهِ الْأَيَّامِ قَدِ انْحَصَرَتْ فِى تَرْبِيَةِ المُوَظَّفِينَ وَلَمْ تَعُدْ صَالِحَةً لِغَيْرِها وَبَعُدَتِ الشُّقَّةُ (٢) بَيْنَها وَبَيْنَ ما يَجِبُ لِتَرْبِيَةِ رِجَالٍ حَقِيقِيِّينَ .

الفصل الثانى

﴿ فِيما إِذَا كانَ نِظامُ التَعليمِ فى المَدَارِسِ الْأَلْمَانِيَّةِ يُرَبِّى رِجَالاً ﴾

مِنْ نَكَدِ الطَّالِعِ (٣) أَنَّهُ لا يَدُومُ لَنا مَوْضِعُ رَجَاءٍ ، كَأَنَّ نَمَارُوحٌ خَبِيثَةٌ (٤) سُلِّطَتْ عَلى كُلِّ عَمَلٍ نَرْجُو الْفَلَاحَ مِنْهُ ، وَقَدْ حَانَ حِينُ الْمَدَارِسِ .

مَضَى عَلَيْنا زَمَنٌ لَمْ نَدَّخِرْ ثَمِيناً إِلاَّ بَذَلْنَاهُ فى سَبِيلِها حَتَّى بَلَغَ

(١) جاء فى تعريفات الجرجانى : الملكة هى صفة راسخة فى النفس ، وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الافعال ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية وتسمى حالة مادامت سريعة الزول. فاذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال صارت ملكة (٢) الشقة بضم الشين وقد تكسر : المسافة البعيدة

(٣) الطالع مايتفاءل به من السعد أو النحس بطلوع الكواكب . والطالع النكد المشؤم

(٤) الروح تذكر وتؤنث وتأنيثها على معنى النفس

اعْتِنَاؤُنا بِهَا دَرَجَةَ الْعِبَادَةِ ، والسَبَبُ فى هَذَا الِاهْتِمامِ أَنَّهُ لَمَّا انْتَصَرَ عَلَيْنَا الأَلْمَانِيُّونَ ظَنَنَّا أَنَّ عِلَّةَ انْتِصَارِهِمْ تَقَدُّمُ مَدَارِسِهِمْ فَأَكْثَرْنَا مِنْ مَوَادِّ التَعْلِيمِ وَزِدْنَا عددَ الْمَدَارِسِ وَبَذَلْنَا النَّفِيسَ حَتَّى أَصْبَحَتْ أَمَاكِنُ التَعْلِيمِ قُصُورًا عَالِيَةً وَعَمَّ الِاهْتِمامُ جميعَ أَفْرادِ الأُمَّةِ ثُمَّ صَيَّرْنَا التعْلِيمَ مجَّانًا ثُمَّ إِجْبارِيًّا عَلَى جَميعِ النَّاسِ ، فَدَخَلَ الْمَدْرَسَةَ ابْنُ الْفَلَّاحِ وَابْنُ الحَضَرِى[1] وَمَقَتْنَا[2] كُلَّ مَن ارْتَابَ[3] فى نَفْعِهَا ، وَكَانَتِ الأَفْكَارُ مُتَّجِهَةً إِلَى تَقْلِيدِ الأَلْمَانِيِّينَ فى كُلِّ شَىْءٍ فَأَخَذْنَا عَنْهمْ نِظَامَهُمُ العَسْكَرِىَّ وَجَارَيْنَاهُمْ فى أَسَالِيبِ التَعْلِيمِ وَطُرُقِ التَرْبِيَةِ وَعِلْمِ أُصُولِ اللُغَاتِ الَّذِى اشْتَهَرُوا فِيهِ بِتَعَمُّقِهِمْ وَسَفْسَطَتِهِمْ[4] ، اعْتِقَاداً مِنَّا بِأَنَّهُ لا تَقُومُ لَنا قائمَةٌ إِلاَّ إِذَا تَعَلَّمَ أَطْفالُنَا مُتُونَ اللُّغَةِ اللاَّتِينِيَّةِ ، هكذا كانَ رَأْىُ الْمُدَرِّسِينَ وَفِى أَثَرِهِمْ جَميعُ الفَرَنْسَاوِيِّينَ.

وَلَمْ يَمْضِ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى انْقَلَبَ هذَا الاعْتِقادُ وَقالَ أَهْلُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا فى رَأْيِهِمْ مُخْطِئِينَ، وَأَجْمَعُوا فى الْبَلَدَيْنِ عَلى عَدَمِ فائِدَتِهِ كما كانُوا عَلى اسْتِحْسانِه مِن قَبْلُ مجْمِعِينَ .

أَمَّا عِنْدَنَا فَبَدَأَ الْمُتَأَمِّلُونَ يَهْمِسُونَ بِرَأْيِهِمْ فَلَمَّا وَضَحَ الْأَمْرُ جَهَرُوا

---

(١) الحضرى : المقيم بالحواضر — المدن — (٢) مقتنا : أبغضنا (٣) شك
(٤) السفسطة : قياس مركب من الوهميات الغرض منه تغليط الخصم واسكاته كقولنا الجوهر موجود فى الذهن وكل موجود فى الذهن قائم بالذهن عرض لينتج أن الجوهر عرض .

بأنَّ المَدارسَ لمْ تأتِ بالفائدةِ التي كانت تُنتظرُ منها ، وأنَّ الإكثارَ مِنْ موادِّ التعليمِ قدْ أوجبَ ضعفَ المعلوماتِ ، وأنَّ عددَ الناجحينَ في الامتحانِ يميلُ كلَّ يومٍ إلى النُّقصانِ ، واستشهدُوا بالوقائعِ والأرقامِ ، وقالَ المتطرِّفونَ: إنَّ توسيعَ نطاقِ المدارسِ كانَ سبباً في كثرةِ منْ لا صناعةَ لهمْ ومنْ لا قُدرةَ فيهمْ على العملِ، وإنَّ في ذلكَ خطراً عظيماً . وصدرتْ هذهِ الأقوالُ في مبدإ الأمرِ عنْ قومٍ لا علاقةَ لهمْ بجماعةِ المعلِّمينَ ورجالِ الحكومةِ فلمْ يلتفتْ أحدٌ إليها وظنَّها النَّاسُ تحامُلاً على المعلِّمينَ ، وما كانَ إلاَّ قليلٌ حتَّى قامَ رجالُ التَّعليمِ في فرنسا ومنهمُ الرُّؤساءُ العظامُ كوزراءِ المعارفِ ورفعُوا أصواتَهمْ بتلكَ الشكوى وصاحَ بعضُهمْ في صحنِ مدرسةِ السُّربونْ [1] إنَّهُ لابُدَّ مِنْ إدخالِ الإصلاحِ على نظامِ التَّعليمِ ، وإنَّ الحالَ تقتضي التَّعجيلَ بلا مهلٍ ، ولولا أنَّ الألمانيِّينَ كانُوا يضجُّونَ في برلينَ عاصمةِ بلادِهمْ بمثلِ هذهِ الشكوى لظنَّ النَّاسُ أنَّ صُراخَنا منْ قبيلِ ما عُرفنا بهِ منْ حُبِّ التَّغييرِ وسُرعةِ الانتقالِ بينَ حدَّي التَّفريطِ والإفراطِ ، وناهيكَ أنَّ صاحبَ الشكوى الألمانيةِ هوَ الأمبراطورُ نفسُهُ ، وكانتِ النَّتيجةُ أنِ اتَّفقَ البلدانِ على الجهرِ بأنَّ نظامَ المدرسةِ

(١) هي أكبر مدرسة جامعة وفيها مركز الجمعية الكبرى للتعليم

لَمْ يَأْتِ بِمَا كانَ يُنْتَظَرُ مِنهُ بَعْدَ أَنْ كانا يُطَنْطِنَانِ[١] بأَنَّهُ لاَ فَضلَ فَوْقَ فضْلِهِ.

وَلإِفادَةِ الْقُرَّاءِ نَذْكُرُ لَهُمْ خِطَابَ إِمْبَرَاطُورِ أَلْمَانيَا[٢] لِيَعْرِفوا السَّبَبَ فى شَكْوَاهُ وَيَقِفُوا عَلَى الَّذِى يُرِيدُ مِنَ الْمَدَارِسِ فى بِلاَدِهِ، وَطَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ الَّتى يَمِيلُ إِلَيْهَا، وَيَتَبَيَّنُوا إِنْ كَانَ فِى الْإِمْكَانِ تَحْقِيقُ أَمَانِيهِ.

خَصَّ الْإِمْبَرَاطُورُ الْقِسْمَ الأَوَّلَ مِنْ خِطَابِهِ بِشَرْحِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ «إِنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تُعْطِنَا مَا كُنَّا نَرْجُوهُ مِنْهَا» وَمِنْ رَأْيِهِ «أَنَّ الْمَدْرَسَةَ لَمْ تَنْجَحْ فى التَّعْلِيمِ نَفْسِهِ أَىْ فى إِيجَادِ الْمَعَارِفِ فى الْأَذْهَانِ» قال « مَا كُنْتُ فِى احْتِيَاجٍ لِإِصْدَارِ الْأَمْرِ الَّذِى تَفَضَّلَ حَضْرَةُ الْوَزِيرِ بِذِكْرِهِ لَوْلاَ أَنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تَصِلْ إِلَى الدَّرَجَةِ اللَّائِقَةِ بِهَا، وَلْيُعْلَمْ عَنِّى أَنِّي مَا قَصَدْتُ بِالشِّدَّةِ وَاحِداً مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنَّ فِكْرِى مُوَجَّهٌ إِلَى نِظَامِ التَّعْلِيمِ نَفْسِهِ، وَأَقُولُ إِنَّ الْمَدْرَسَةَ لَمْ تَأْتِ بِمَا كُنَّا نَنْتَظِرُهُ مِنْهَا ، وَسَبَبُهُ الْخَطَأُ فى أُمُورٍ كَثِيرَةٍ ثُمَّ أَخَذَ يُنَدِّدُ[٣] بِالتَّعْلِيمِ وَبِالْمَوَادِّ الَّتى يَجْرِى فِيهَا وَالطَّرِيقَةِ الْمُتَّبَعَةِ وَبَدَأَ بِفَنِّ تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ الَّذِى كانُوا يَبْنُونَ عَلَيْهِ آمَالاً كَثِيرَةً مُعْتَقِدِينَ أَنَّهُ سَيَصِيرُ

(١) الطنطنة : كثرة الكلام والتصويت به (٢) هو خطاب القاه الامبراطور غليوم الثانى على جمعية المعارف الالمانية منذ سنوات (٣) يقال ندد بالرجل اذا شهر به وصرح بعيوبه

عِلْمًا يكُونُ مِنْ أَكْبَرِ الأَسْبَابِ فى تَضَلُّعِ[١] الطَّلَبَةِ مِنْ عُلُومِ الأَدَبِ فقالَ: « إنَّ الأَمْرَ الْمُهِمَّ الَّذِى يَجِبُ الالْتِفَاتُ إلَيْهِ هُوَ أَنَّ مُدَرِّسِى اللُّغَةِ وَجَّهُوا جُلَّ اهْتِمامِهِمْ إلَى مَادَّةِ التَّعْلِيمِ وَإلَى التَّعْلِيمِ نَفْسِهِ مُنْذُ سنة ١٨٧٠ لَكِنَّهُمْ لَمْ يَلْتَفِتُوا إلَى تَرْبِيَةِ الأَخْلاقِ وَالنُّفُوسِ عَلَى مايُحْتَاجُ إلَيْهِ فى هَذِهِ الأَوْقاتِ وَإنَّكَ ياحَضْرَةَ الْمُسْتَشَارِ هِنْزْبِيتَرْ — وَأَسْأَلُكَ الْعَفْوَ فِيما أَقُولُ — مِنْ عُلَمَاءِ اللُّغَاتِ ذَوِى الْخَيَالِ، غَيْرَ أَنِّى أَرَى الأَمْرَ وَصَلَ إلَى حَدٍّ لا يَجُوزُ أَنْ يَتَعَدَّاهُ ».

وَيَرَى الْقَارِئُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الإمْبَرَاطُورَ شَدِيدٌ عَلَى النِّظَامِ اشْتِدَادَهُ عَلَى مَوْضُوعِ التَّعْلِيمِ وَهُوَ اللُّغَةُ اللاتِينِيَّةُ الَّتِى اعْتُبِرَتْ[٢] إلَى الآنَ أَسَاساً لِكُلِّ تَعْلِيمٍ فإنَّ الأَلْمَانِيِّينَ يَفْتَخِرُونَ بعُلَمَاءِ تِلْكَ اللُّغَةِ مِنْهُمْ افْتِخَارَهُمْ بعُلَماءِ اللُّغَاتِ الأُخْرَى، وَقَدْ آنَ أَوَانُ انْصِرَافِهِمْ عَنْ هَذَا الْخَيَالِ. قالَ مَلِكُهُمْ: « يُكْثِرُ النَّاسُ أَيُّها السَّادَةُ مِنَ الاعْتِرَاضِ فَيَقُولُونَ إنَّ اللاتِينِيَّةَ لازِمَةٌ لِتَعْوِيدِ الْمَرْءِ مُطَالَعَةَ اللُّغَاتِ الأَجْنَبِيَّةِ إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَقْوَالِ، عَلَى أَنِّى أَيُّها السَّادَةُ كُنْتُ أَيْضاً أَتَعَلَّمُ اللاتِينِيَّةَ وَأَعْرِفُ كَيْفَ كانَ يَكْتُبُ التِّلْمِيذُ دَرْسَهُ فِيها، كانَ الْوَاحِدُ مِنَّا يَنَالُ الدَّرَجَةَ الرَّابِعَةَ فى دَرْسِهِ الأَلْمَانِىِّ وَهِىَ الدَّرَجَةُ

---

(١) هذا من قولهم شرب فلان حتى تضلع أى انتفخت أضلاعه من كثرة الشرب فتكون تضلع هنا استعارة والمراد امتلاء من علوم الادب ويقال فلان مضطلع بهذا الامر أى قوى عليه متمكن منه (٢) يريد عدت

المُتَوَسِّطَةُ فى الْغالِبِ وَينالُ الدرجَةَ الثانيةَ فى اللُّغَةِ اللاَّتينيةِ وَهِيَ درجة عال ، وَلَوْ كانَ الأَمْرُ بِيَدِى لَعاقبْتُهُ بَدَلَ المَدْحِ والثناءِ ، إِذْ مِنَ الْواضِحِ أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الَّذِى كَتَبَ دَرْسَهُ اللاَّتِينِيَّ بنَفسِهِ بَلْ إِنَّهُ لَمْ يُوجَدْ وَاحِدٌ فِى الاثْنَىْ عشرَ كَتَبَ دَرْسَهُ بِغَيْرِ مُعِينٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ كانَتْ كلُّها مَلحوظةً بعَينِ القَبولِ وَالرضا ، هَكَذا كانَ يتعلَّمُ الشُبَّانُ تلكَ اللُّغةَ . عَلى أَنَّهُ لمَّا كُنَّا فى الْمَدْرَسَةِ الابْتِدَائِيَّةِ ما كانَ الْوَاحِدُ مِنَّا يَنالُ الدَرَجَةَ المُتَوَسِّطة فى كِتابَتِهِ على (مينا برنهلم) أو على (ليسنج)[1] إِلاَّ بِالمَشَقَّةِ وَالْعَناءِ ، لهذا أَقُولُ: تَبًّا للدَرْسِ[2] اللاَّتِينِيِّ إِنَّهُ يُضايِقُنا وَيُضَيِّعُ عَلَيْنا وَقْتَنا »

ثمَّ انتقلَ إلى الكلامِ عَلى خيبَةِ التَّعْليمِ مِنَ الجِهَةِ الْعَمَلِيَّةِ أَعْنِى مِنْ جِهَةِ تَكْوِينِ الرِّجالِ وَإِعْدَادِهِمْ لِلنَّجاحِ ، وَهُوَ أَهَمُّ قِسْمٍ فى خِطَابِهِ ، وَعَلى كلِّ حَالٍ فإِنَّهُ تَوَسَّعَ فِيهِ كَثِيراً وَكانَ نَاظِرُ المَعارِفِ شَرَحَ فى خِطابِهِ الافتتَاحِيِّ فِكْرَةَ الأَمْبِرَاطُورِ وَبَحَثَ فِيما إِذا كانَ يَنْبَغِي لِلأُمَّةِ الأَلْمانيةِ « أَنْ تبقَى أُمَّةَ تَفَكُّرٍ[3] وَتَصَوُّرَاتٍ تَبْحَثُ عَنْ رَاحَتِها فى مُخَيِّلَتِها مَعَ مَا حَصَلَ مِنَ التَّغْيِيرِ فى حَالةِ الْبُرُوسْيا وَأَلْمانْيا » وَقالَ بأَنَّ ذَلِكَ لم يَعُدْ فِى الإمْكَانِ « إِذْ قَدِ اتَّجَهَتْ أَنْظَارُ

---

(١) اثنان من رجال الادب الالمانيين ولد الاخير سنة ١٧٢٩ وتوفى سنة ١٧٨١

(٢) قولهم:تباً له منصوب على المصدر بأضمار فعل أى ألزمه الله هلاكا وخسرانا

(٣) يريدتخيل

الأُمَّةِ إلى الخارجِ بل ومالت إلى الاستعمار » وهو قولٌ واضحٌ لا إبهام فيه يدل على أنَّ الغرض مساعدة انتشار الأمة الألمانية وإعدادها إلى مشاركة الأمم الأوربية فى الاستيلاء على العالم. لذلك أشار الوزير إلى وجوب العدول عن طريقة التعليم فى المدارس العالية المتبعة الآن ، واشتد الامبراطور فى الكلام على كيفية التعليم فقال: « ألاحظ أولاً أنَّ الغرض من كلامى توجيه الأفكار خاصةً إلى طريقة التعليم والتربية التى يجب علينا اتباعها فى تهذيب شبيبتنا(١) حتى تكون مطابقةً للضرورات الحالية التى أوجدنا فيها مركزنا بين الأمم وقادرةً على احتمال متاعب التزاحم فى الحياة » . هاقد نطق الامبراطور بما كان مكنونا يريد إعداد الألمانيين إلى التزاحم فى الحياة وجعلهم رجال عملٍ قادرين على التحصيل ومقاومة مزاحميهم من الأمم الأجنبية فى البلاد الخارجية ، وقد أخفقت مساعى المدارس فى هذا الموضوع لأنه لا يخرج منها إلا قومٌ لا حرفة لهم أو لا أهلية فيهم ، أو أنهم لا يقدرون على غير الاشتغال بتحرير الجرائد ، ومنهم من أنهك الدرس قواه فصار أعشى(٢) وأمسى ضعيف القلب فاتر العزم فى أى عملٍ يحتاج إليه ،

(١) يريد شبابنا أما الشبيبة فمصدر (٢) الاعشى : هو الذى لايبصر بالليل ويبصر بالنهار

ذلك ما صرح به الامبراطور فى كلامه . قال مبتدئاً بتكليف التلامذة فى التعلم فوق طاقتهم مما أضعف أبدانهم وحط من قوة الإرادة فيهم ما يأتى: « وإذا رجعنا إلى أوقات التعليم رأينا من الضرورى تغيير ساعات العمل الذى يكلفه التلميذ فى بيته إذ يذكر حضرة المستشار (هينزبيتر) أن شكوى العائلات وعدم رضاهم عن الطريقة المتبعة الآن موجودان منذ كنت أنا بمدرسة (كاستيل) الابتدائية ، وأن تلك الشكوى بلغت مسامع الحكومة فأمرت بتحقيقها وتبين منها أنه كان يجب على كل تلميذ أن يقدم لناظر مدرسته فى كل صباح شهادة بمقدار الساعات التى قضاها فى تحضير دروس اليوم الثانى بمنزله ، أما أنا فكنت أشتغل سبع ساعات كما يشهد به حضرة المستشار ، يضاف إليها ست ساعات فى المدرسة وساعتان فى الأكل والباقى من اليوم معلوم » .

وهو فى الحقيقة تكليف شديد لم ينج الإمبراطور من ضرره إلا باستعمال طرق لا تتيسر لجميع الناس . كما قال : « لولا أنى كنت أركب جوادى وأنطلق حراً فى غير الأوقات لما عرفت شيئاً من أحوال الدنيا » .

نعم ركوب الخيل يخفف ضرر الإفراط فى الدرس ولكنه

لَا يَكْفِي مَعْرِفَةَ أَحْوَالِ الدُّنْيَا». وَمَهْمَا كَانَ فِي قَوْلِهِ مِنْ مَوَاضِعِ الِانْتِقَادِ فَإِنَّهُ أَصَابَ مَنْشَأَ الضَرَرِ وَحَثَّ عَلَى وُجُوبِ تَلَافِيهِ فَقَالَ: « وَأَرَى مِنَ الْوَاجِبِ مُدَاوَاةَ هَذَا الدَّاءِ فَقَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى[1] أَيُّهَا السَّادَةُ وَلَا قِبَلَ لَنَا بِتَرْكِ الْحَالِ كَمَا هِيَ إِذْ جَاوَزْنَا الْحَدَّ الَّذِي يَنْبَغِي لَنَا الْوُقُوفُ عِنْدَهُ وَأَتَتِ الْمَدَارِسُ بِمَا هُوَ فَوْقَ طَاقَةِ الْبَشَرِ وَتَخَرَّجَ مِنْهَا مِنَ الْمُسْتَنِيرِينَ مَنْ زَادَ عَلَى الْمَطْلُوبِ زِيَادَةً لَا تَحْتَمِلُهَا الْأُمَّةُ وَلَا تُطِيقُهَا الْأَفْرَادُ ». هَذَا كَلَامٌ يُخَالِفُ رَأْيَ الَّذِينَ يَزِنُونَ عَظَمَةَ الْأُمَمِ وَقُوَّتَهَا بِقَدْرِ عَدَدِ الْمُسْتَنِيرِينَ مِنْ رِجَالِهَا. قال الامبراطور: « وقَدْ أَصَابَ البرنسُ بسْمَارْكْ فِي قَوْلِهِ إِنَّ لَنَا مِنْ حَائِزِي الشَّهَادَاتِ صَعَالِيكَ[2]، لِأَنَّ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ مِمَّنْ رَشَّحَهُمُ الْجُوعُ — وَعَلَى الْخُصُوصِ حضَرَاتِ أَرْبَابِ الْجَرَائِدِ — مِنْ مُتَخَرِّجِي الْمَدَارِسِ الَّذِينَ لَمْ يُفْلِحُوا ». أَمَّا قَوْلُهُ: « مِمَّنْ رَشَّحَهُمُ الْجوعُ » فَجَافٍّ وَأَمَّا قَوْلُهُ: « لَمْ يَنْجَحُوا » فَصَوَابٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ. قَالَ: « وَفِي هَذَا مِنَ الْخَطَرِ مَا لَا يَخْفَى، لِأَنَّ هَذَا الْإِفْرَاطَ الَّذِي بَلَغَ حَدَّهُ قَدْ جَعَلَ بِلَادَنَا شَبِيهَةً بِأَرْضٍ غَصَّتْ[3] بِالْمِيَاهِ فَلَمْ تَعُدْ تَحْتَمِلُ السَّقْيَ.

(١) الزبى: جمع زبية وهي الرابية التي لا يعلوها الماء. وقولهم بلغ السيل الزبى أو الربى، مثل بلغت الروح التراقي. مثل يراد به بلغ الأمر أشده (٢) الصعلوك الفقير

(٣) غصت: امتلأت

مِنْ جَدِيدٍ ، لِذَلِكَ لَنْ أَسْمَحَ مِنَ الْآنَ بِزِيَادَةِ عَدَدِ الْمَدَارِسِ الْعَالِيَةِ إِلاَّ إِذَا قَامَ الدَلِيلُ عَلَى ضَرُورَةِ تِلْكَ الزِيَادَةِ، أَمَّا الْآنَ فَعِنْدَنَا مِنْهَا عَدَدٌ يَكْفِينَا ». وَهَذَا الْقَوْلُ أَيْضًا يُخَالِفُ رَأْىَ الذِينَ يَزِنُونَ عَظَمَةَ الْأُمَمِ وَقُوَّتَهَا بِقَدْرِ عَدَدِ مَدَارِسِهَا . وَمِمَّا هُوَ جَدِيرٌ بِالنَظَرِ أَنَّ الَّذِى يُقِيمُ هَذِهِ القِيَامَةَ على المَدَارِسِ لَيْسَ مُتَبَرِّرًا وَلاَ جَهُولاً خَرَجَ مِنْ غَابَاتِ جِرْمَانْيَا ، بَلْ هُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثِمَارِ أَكْبَرِ تَقَدُّمٍ وَصَلَتْ إِلَيهِ المَدَارِسُ فى الدُنْيَا وَنَاشِئٌ فِى الْبِلَادِ الْأَلْمَانِيَّةِ الَّتى اشْتَهَرَتْ بِالِاجْتِهَادِ والتَّمَكُّنِ مِنَ الْعُلُومِ والتَّعَمُّقِ فِيهَا .

رَدَّدَ الْإِمْبرَاطُورُ الْكَلَامَ فى آخِرِ خِطَابِهِ عَلى مَضَارِّ طَرِيقَةِ التَّعليمِ الحَالِيَّةِ بِأَجْسَامِ التَّلَامِذَةِ فقال: «وَمَا الَّذِى نَرْجُوهُ مِنْ رَجُلٍ لَا يَرَى الْأَشْيَاءَ بِعَيْنَيْهِ؟ فَقَدْ قَلَّ الإِبْصَارُ بَيْنَ تَلَامِذَةِ الْمَدَارِسِ حَتَّى بَلَغَ الْأَعْشَوْنَ مِنْهُمْ أَرْبعًا وَسَبْعِينَ فِى كُلِّ مِائَةٍ ، وَمَعَ أَنَّ غُرَفَ التَدْرِيسِ فى مَدْرَسَةِ كاسيلْ —مُذْ كُنْتُ فِيهَا— كَانَتْ نَقِيَّةَ الهَوَاءِ إِجَابَةً لِرَغْبَةِ وَالِدَتِى؛ وَلَمْ يَزِدْ عَدَدُنَا عَلى وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ تِلْمِيذًا كَانَ مِنَّا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَلْبَسُونَ الْعُيُونَ الصِنَاعِيَّةَ (نظَّارَات) وَقَدْ تَوَلَّانِى الْفَزَعُ مِنْ ذَلِكَ، وَأُؤَكِّدُ لَكُمْ أَنَّ كَثِيراً مِنَ الْعَائِلاتِ قَدَّمَتْ عَرَائِضَ لا تُحْصَى شَاكِيَةً مِنْ تِلْكَ الحالِ وَرَاجِيَةً تَوْجِيهَ أَنْظَارِى إِلَيْهَا ، وَلَمَّا كَانَ أَمْرُ ذَلِكَ رَاجِعًا إِلَىَّ لِأَنِّى أَبُو الْوَطَنِ

فَمِنَ الْوَاجِبِ عَلَيَّ أَنْ أُعْلِنَ النَّاسَ بأَنَّ تِلْكَ الحالةَ لَنْ تَدُومَ . أَيُّهَا السادةُ لا يَنبَغِي أَنْ يَنظُرَ النَّاسُ إِلَى الدُّنيَا بِعُيُونٍ مِنَ الزُّجَاجِ بَلْ بِأَعْيُنِهِمِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَأَنَا أَعِدُكُمْ بِأَنِّي سَأُوَجِّهُ الأَفْكَارَ نَحْوَ مَا ذُكِرَ ».

وَالَّذِي يَتَلَخَّصُ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ أَنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تَنْجَحْ فِي التَّعْلِيمِ العَمَلِيِّ كَمَا حَبِطَتْ مَسَاعِيهَا مِنَ الجِهَةِ الْعَمَلِيَّةِ .

ثُمَّ إِنَّهَا لَمْ تَأْتِ بِالْمُرَادِ أَيضاً مِنْ جِهَةٍ ثَالِثَةٍ وهِيَ الجِهَةُ السِّيَاسِيَّةُ وَهِيَ أَهَمُّ الجِهاتِ الَّتِي تُلَامُ عَلَى النَّقْصِ فِيهَا ، إِذْ لا يَخْفَى أَنَّهُ كَانَ يُنْتَظَرُ مِنَ الْمَدَارِسِ تَوْجِيهُ أُفكَارِ الشُّبَّانِ إِلَى الخُطَّةِ السِّيَاسِيَّةِ المطْلُوبَةِ ، وَهَذَا الأَمَلُ هُوَ الَّذِي مَالَ بِالأَحْزَابِ عُمُوماً وَالحُكُومَاتِ خُصُوصاً إِلَى رِيَاسَةِ المَدَارِسِ وَالْقَبْضِ عَلَى زِمَامِ التَعْلِيمِ فِيهَا لاعْتِقَادِ الْكُلِّ يَقِيناً أَنَّهَا أَنْجَحُ الْوَسَائِلِ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ فَلا يَخْتَلِفُ فِي ذَلِكَ اثْنَانِ ، تِلْكَ هِيَ الْعِلَّةُ فِي اشْتِدَادِ الخِصَامِ بَيْنَ الأَحْزَابِ عَلَى المَدَارِسِ وَطُرُقِ التَّعْلِيمِ فِيهَا وَمَا يَجِبُ تَعْلِيمُهُ حَتَّى صَارَتْ فِي الْبَلَدَيْنِ ـ فَرَنْسَا وَأَلمانيا ـ مِنْ أَهَمِّ الْوَسَائِلِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ لِلْفَوْزِ فِي الاِنْتِخَابَاتِ ، وَقَدْ كَثُرَ اخْتِلَافُ الأَحْزَابِ عَلَى قَوَانِينِهَا حَتَّى سَنَّتْ كُلُّ بَلَدٍ قَانُونًا مَخْصُوصًا تَحَرَّتْ فِيهِ حُكُومَتُهَا تَأْيِيدَ النِّظَامِ الَّذِي يُوَافِقُ مَصْلَحَتَهَا فَأَصْبَحَتْ فِي يَدِ الحُكُومَةِ تُقَلِّبُهَا كَيْفَ تَشَاءُ

وَلَعِبَ الإمْبِرَاطُورُ بالمَدَارِسِ الأَلْمَانِيَّةِ كما لَعِبْنا بِالْمَدَارِسِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ مِنْ غَيْرِ مُعارِضٍ وَلا مُنازِعٍ .

وَمِنَ الْمُسْتَغْرَبَاتِ بَعْدَ هَذَا أَنْ يَقُولَ الإمْبِرَاطُورُ نَفْسُه الْيَوْمَ : إنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تَأْتِ بِمَا كانَ يَنْتَظِرُهُ مِنْها سِياسِيًّا وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْ غَيْرِهِ بِما يَقُولُ .

وَلَقَدْ بَدَأَ رِجَالُ السِّيَاسَةِ عِنْدَنا يَقُولُونَ مِثْلَ ذَلِكَ الْقَوْلِ لِأَنَّ عَدَدًا غَيْرَ قَلِيلٍ مِنَ الأَغْلَبِيَّةِ ، وَهُوَ الأَكْثَرُ فِطْنَةً وَذَكاءً ، يُجاهِرُونَ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَفِيدُوا مِنَ الْمَدَارِسِ ما كانُوا يَرْجُونَ ، وَيُشِيرُونَ بِالْعُدُولِ عَنْها وَيُلاحِظُونَ بِأَنَّ عَدَدَ الَّذِينَ نَفَرُوا مِنْهُمْ بِسَبَبِ الْقَوَانِينِ الَّتى سَنُّوهَا لها أَكْثَرُ مِنَ الَّذِينَ اسْتَمالُوهُمْ بِوَاسِطَتِها .

ثُمَّ أَفْصَحَ الإِمْبِرَاطُورُ عَنِ الَّذِى كانَ يَرْجُوهُ مِنَ الْمَدَارِسِ سِيَاسِيًّا فَقالَ : « وَلَوْ أَتَتِ الْمَدَارِسُ بِالْفَائِدَةِ الْمَقْصُودَةِ مِنْها لَقاوَمَتْ أَحْزَابَ الْجُمْهُورِيَّةِ ، أَقُولُ هَذَا عَنْ خِبرَةٍ وَعِلْمٍ لِأَنِّي كُنْتُ فى الْمَدَارِسِ وَعَالِمٌ بِما يَجْرِى فِيها » . وَقَوْلُهُ هَذَا يُطَابِقُ قَوْلَ الْفِئَةِ الْقَلِيلَةِ فى مَجْلِسِ النُّوَّابِ الْفَرَنْسَاوِىِّ بِالتَّمامِ أَيَّامَ كانَ الأَمْرُ بِيَدِها فى الْبِلادِ ، وَيُطابِقُ أَيْضًا قَوْلَ الأَغْلَبِيَّةِ الْحاضِرَةِ لِأَنَّها كانَتْ تَرَى وُجُوبَ الاسْتِظْهارِ (١) عَلى الحِزْبَيْنِ الْمُلُوكِىِّ وَالدِّينِيِّ بِوَاسِطَةِ الْمَدَارِسِ. وَهَذِهِ

(١) يقال ظهر على فلان أى غلبه وأظهره الله على عدوه.

المُطابَقةُ تدُلُّ على أنَّ الأفكارَ واحِدَةٌ في الجِهَتَيْن وَصِيَغُ القَوْلِ مُتَّحِدَة، وَالغَرَضُ وَاحِدٌ هُوَ اتِّخاذُ المَدَارِسِ سُلَّماً لِلتَّسَلُّطِ السِّياسيِّ. وَلْنَرْجِعْ إلى خِطابِ الإمبراطورِ لِنَتَبيَّنَ حَقيقَةَ مُرادِهِ، قال: «كانَ مِنَ الواجِبِ عَلَى المَدَارِسِ أنْ تَلْتَفِتَ إلى المَطْلُوبِ مِنْها كما يَنْبَغِي فَتَنْشُرَ في الأُمَّةِ تَعْليماً يَجْعَلُ الشُّبَّانَ الَّذِينَ مِنْ سِنِّي، أي الَّذِينَ قارَبُوا الثَّلاثِينَ، على صِفاتٍ تُسَهِّلُ لَهُمْ أنْ يُهيِّئُوا مِنْ أنفُسِهِم مَا أنَا مُحْتاجٌ إليْهِ مِنَ المُعَدَّاتِ وَالوَسائِلِ في خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ فأتَمَكَّنَ مِنَ الإشْرافِ عَلَى حَرَكَةِ البِلادِ في وَقْتٍ قَرِيبٍ». وَالحقُّ يُقالُ إنَّ المَلِكَ لَمْ يَسْلُكْ في خِطابِهِ سَبِيلَ الإبْهامِ بَلْ قَوْلُهُ وَاضِحٌ صَرِيحٌ، يُرِيدُ أنْ تُعِدَّ لَهُ المَدَارِسُ عُمَّالاً وَأعْوَاناً يَتَمَكَّنُ بِهِمْ مِنَ الاسْتِيلاءِ عَلَى زِمامِ الحَرَكَةِ في بِلادِهِ. هذا هُوَ رَأيُهُ في التَّعْلِيمِ، وَهذا هُوَ الشَّأنُ الَّذِي يُرِيدُ أنْ يَكُونَ لِلْمَدَارِسِ، وَلَيْسَ لَنا أنْ نَبْحَثَ فيما إذا كانَ رَأيُهُ مَقْبُولاً عِنْدَ المُدَرِّسِينَ وَالعائِلاتِ في تِلْكَ البِلادِ. ثُمَّ أشارَ إلى أنَّ المَدَارِسَ لَمْ تَقُمْ بالوَاجِبِ فقال: «وَلَمْ تَأْتِ المَدَارِسُ بما ذُكِرَ وَلَيْسَ مِنْ زَمَنٍ نَجَحَتْ فيهِ مَدَارِسُنا في جَميعِ أدْوارِ حَياتِنا الوَطَنِيَّةِ وَسَاعَدَتْ عَلَى تَقَدُّمِنا إلا سنة ١٨٦٤ وسنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ فَفِي ذَلِكَ الحِينِ كانَتِ المَدَارِسُ البْرُوسْيانِيَّةُ والمكاتِبُ مَوْدِعَ فِكْرِ الوحْدَةِ الألْمانِيَّةِ ثُمَّ سَرَى هذا الفِكْرُ مِنْها في جَميعِ النَّاسِ وَشَخَصَ الكُلُّ إلى غَرَضٍ وَاحِدٍ هُوَ إعادَةُ

الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ وَاسْتِرْدَادُ بِلَادِ الْأَلْزَاسِ وَاللّورين، غَيْرَ أَنَّ تِلْكَ الْحَرَكَةَ بَطَلَتْ من سنة ١٨٧١ لَمَّا أُعِيدَتِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةُ وَنِلْنَا ما كُنَّا نَرْجُوهُ فوقفنا عِنْدَهُ وكان مِنَ اللازم علينا الآنَ أَنْ نُعَلِّمَ الشُّبَّانَ طَرِيقَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى ما كَسَبْنَا، وَلَكِنَّنَا لم نَعْمَلْ شَيْئًا بَلْ أَخَذَتِ الْأَفْكَارُ مُنْذُ حِينٍ تَتَحَوَّلُ عَنْ هَذَا الْمَبْدَأِ. أَقُولُ هَذَا لِأَنِّي فِي مَرْكَزٍ يُمَكِّنُنِي مِنَ النَّظَرِ فِيهِ وَقَدِ اشْتَغَلْتُ بِهِ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ نَاشِئٌ عَنِ التَّرْبِيَةِ». ثُمَّ بَحَثَ الْإِمْبِرَاطُورُ عَنِ السَّبَبِ فِي ذَلِكَ وَقَالَ إِنَّهُ نَاشِئٌ مِنْ طُرُقِ التَّعْلِيمِ وَمَوَادِّهِ وَشَدَّدَ النَّكِيرَ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، عَلَى أَحْزَابِ اللُّغَاتِ — وَبِالْأَخَصِّ اللُّغَةَ اللَّاتِينِيَّةَ فَوَجَّهَ قَوَارِصَ الْكَلَامِ إِلَى الْمَدَارِسِ — الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّ وَظِيفَةَ الْمَدْرَسَةِ إِنَّمَا هِيَ تَدْرِيبُ الْعُقُولِ: وَأَرْدَفَ تَعْنِيفَهُ بِقَوْلِهِ، «وَلَيْسَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَسْتَمِرَّ الْعَمَلُ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ» وَلَوِ الْتَفَتْنَا إِلَى أَنَّ الْإِمْبِرَاطُورَ أَمِيرٌ بُرُوسْيَانِيٌّ سَادَ قَوْمَهُ بِقُوَّةِ السِّلَاحِ وَأَنَّ أُمَّةَ الْبُرُوسْيَا لَمْ تَتَوَصَّلْ إِلَى ابْتِلَاعِ أَلْمَانِيَا كُلِّهَا وَتَنْظِيمِ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ الَّتِي بِيَدِهَا الْأَمْرُ فِي (بَرْلِينَ) بِوَاسِطَةِ ذَلِكَ التَّدْرِيبِ الْعَقْلِيِّ، وَأَنَّهُ لَا يَكْفِيهَا وَحْدَهُ فِي حِفْظِ مَا نَالَتْهُ، حَكَمْنَا بِأَنَّ الْإِمْبِرَاطُورَ مُصِيبٌ فِي قَوْلِهِ وَسَلَّمْنَا لَهُ اعْتِبَارَهُ تَدْرِيبَ الْعُقُولِ آلَةً ضَعِيفَةً فِي الْحُكْمِ وَالسِّيَادَةِ وَجَارَيْنَاهُ فِي أَنَّ الْمَدَارِسَ لَمْ تُعْطِهِ مَا كَانَ يَرْجُوهُ مِنْهَا سِيَاسِيًّا

كَمَا خَابَتْ مِنَ الجهتَيْنِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ.

وَعَلَى هَذَا يَكُونُ الإِخْفَاقُ(١) فِي المَدَارِسِ حَاصِلاً مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ وَلاَ بُدَّ مِنْ إِصْلاَحِ هَذِهِ الحَالِ ، فَالإِمْبِرَاطُورُ مُصَمِّمٌ عَلَى ذَلِكَ وَمِنَ الْوَاجِبِ أَنْ تَنْثَنِيَ(٢) جَمِيعُ الإِرَادَاتِ أَمَامَ إِرَادَتِهِ لأَنَّهُ المَلِكُ .

فَأَمَّا رَأْيُهُ فِي إِصْلاَحِ التَّعْلِيمِ مِنَ الجِهَةِ الْعِلْمِيَّةِ فَبَسِيطٌ يَرْجِعُ إِلَى إِبْطَالِ اللُغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ المَدَارِسِ إِلاَّ الْخُصُوصِيَّةَ ،وَهِيَ الَّتِي لاَ يَمِيلُ إِلَى الإِكْثَارِ مِنْهَا ،لِقَوْلِهِ : « لَنْ أَسْمَحَ مِنَ الآنَ بِزِيَادَةِ عَدَدِ المَدَارِسِ الْعَالِيَةِ إِلاَّ إِذَا قَامَ الدَلِيلُ عَلَى ضَرُورَةِ تِلْكَ الزِيَادَةِ أَمَّا الآنَ فَعِنْدَنَا مِنْهَا عَدَدٌ يَكْفِينَا ».والمَدَارِسُ الْخُصُوصِيَّةُ هِيَ الَّتِي يَتَعَلَّمُ فِيهَا أَبْنَاءُ الطَبَقَةِ الْعَالِيَةِ فِي الأُمَّةِ أَوِ المُدَرِّسُونَ ، وَرَغْبَتُهُ فِي إِبْطَالِ اللُّغَةِ اللاَّتِينِيَّةِ صَرِيحَةٌ لاَ تَقْبَلُ التأويلَ كَمَا دَلَّ عَلَيهِ قَوْلُهُ :

« تَبًّا لِلدَرْسِ اللَّاتِينِيِّ إِنَّهُ يُضَايِقُنَا وَيُضِيعُ عَلَيْنَا وَقْتَنَا، وَمِنَ الْوَاجِبِ أَنْ نَبْحَثَ لِلتَّعلِيمِ عَنْ أَسَاسٍ غَيرِ هَذا الأَسَاسِ الذِي عَاشَ عِدَّةَ قُرُونٍ، لأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يُفِيدُ فِي تَعْلِيمِ القُسُوسِ والرُهْبَانِ أَيامَ القُرُونِ الوُسْطَى مَعَ قَلِيلٍ مِنَ اللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ» .

وَلَيْسَ مِنْ غَرَضِنَا أَنْ نُطِيلَ الْقَوْلَ فِي اللّغة اللاّتينيةِ وَكَوْنِهَا

(١) عدم النجاح (٢) تنثنى تنعطف وتنهزم

لازمةً فى المَدارِس أم لاَ ،وفى استِحْسَانِ الطريقةِ المُتبعَةِ فِى تَعْليمِهَا أو تقبيحِهَا وكَوْنِهَا لا تُنْتِجُ فائدَةً كُبْرَى وأنَّهُمْ أفرطُوا فيهَا إلى حَدِّ يَسْتغرقُ مِنَ الزَمَن مَا يزيدُ على الحدِّ الَّذى لاَ يَنبَغِى ، وَنَكْتفِى هُنَا بأنْ نُلاحِظَ لِلقُرَّاءِ أَنَّ الإِصْلاَحَ الذى يَقصِدُهُ الإِمبراطُورُ سَلبىٌّ مَرْجِعهُ حَذْفُ شَىْءٍ موْجُودٍ فِى المَدَارِس الآنَ .

وَأمَّا رَأيُه فِى الإِصْلاَحِ مِنَ الجِهَةِ العَمَليَّةِ فعَلَى خِلاَفِ مَاتقدَّمَ وَهُوَ الَّذِى وَجَّهَ إِلَيْهِ كلَّ اهتِمَامِهِ لأنَّهُ يُرِيدُ تَرْبيَةَ الشُّبَّانِ عَلَى الْمَبَادِىءِ التَّى تُمكِّنُهُمْ مِن احتِمَالِ مَتَاعِبِ التزاحُمِ فِى الحيَاةِ وتُسَاعِدُ على انتِشَارِ الأُمَّةِ الأَلمَانِيَّةِ فى أَنْحَاءِ المَسكُونَةِ وتُعِينُهَا على أنْ تَسْبِقَ فى ذَلِكَ الأُمَمَ المُنْتَشِرَةَ فِى الدُنْيَا.وَبِالْجُملةِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ تَرْبِيَةَ العَقْلِ عَلى الْعَمَلِ وَالِاجْتِهَادِ حتَّى يَكُونَ المُتَخَرِّجُ مِنَ المَدَارِسِ عَالماً بِمَا يَجْرِى فِى الوُجُودِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ أنَّ الإِمْبراطُورَ آسِفٌ عَلَى كوْنِهِ لَمْ يَصِلْ إِلى معْرِفَةِ ذَلِكَ إِلاَّ وَهُوَ رَاكِبٌ جَوَادَهُ.

أَمَّا الطَرِيقَةُ التَّى يَرَاهَا لاَزِمَةً لِلوُصُول إِلى غَايَتِهِ فَمِمَّا لاَ يَخْطُرُ عَلى بَالِ أَحَدٍ. وَمَثَلُهُ فى رَأيِهِ مَثَلُ رَجُلٍ يُحَاوِلُ تَعْلِيمَ الطِفْلِ الْمَشْيَ فَيَشُدُّ سَاقَيْهِ شَدّاً مَتِيناً ؛ أو كَالَّذِى يُرِيدُ أَنْ يُطْلِعَ تِلميذَهُ عَلى مَشَاهِدِ الْكَوْنِ كُلِّهَا فَيَحْبِسُهُ فِى مَكَانٍ ضَيِّقٍ مَسْدُودِ المَنَافِذِ بِحَيْثُ لاَ تُبْصِرُ عَيْنَاهُ مِنْ خَارِجِهِ شَيْئاً ، فَلاَ فَرْقَ بَينَ هَذَيْنِ المُعَلِّمَيْنِ فِى تَعْلِيمِهِمَا وَبَيْنَ الاِمْبرَاطُورِ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنَ النِظَامِ لِمَدَارِسِهِ وَهُوَ مِنَ

المُسْتَغرَبات. لكن، حتى أكون صادقاً فيما أقول، أذكر للقراء نص عبارته في هذا المطلب. قال: «يجب أن تكون اللغة الألمانية هي الأساس لجميع التعاليم الأخرى، ومتى نجح التلامذة في امتحانها التحريري كان ذلك دليلاً على ذكائهم ومقدار استعدادهم. أما تعلم اللغة اللاتينية فإنه يضيع علينا من الوقت ما نحن محتاجون إليه من اللغة الألمانية»

وليلاحظ أن الامبراطور لا يريد بهذا تعليم الألمانيين لغتهم الألمانية فقط بل هو يريد ألا يتعلم الألمانيون شيئاً إلا ما كان ألمانياً حتى لا يدخل بينهم شيء أجنبي من أي نوع كان، قال: «ولقد يفرحني أن لو استعملنا كلمة ألمانية للدلالة على مداولاتنا هذه بشأن المدارس بدل الكلمة الفرنساوية التي نستعملها الآن فلنقتصر على اللفظ الألماني الذي يدل عليها». ولقد يحمل هذا العداء حتى في الألفاظ على شدة وطنية الإمبراطور.

ثم إنه أفصح عن غرضه من المدارس بقوله: «إني أريد أن يعرف الألمانيون تاريخ بلدنا وخططها وقصصها معرفة حقيقية إذ يجب علينا أن نبتدئ بمعرفة الدار التي نسكنها»، والدار التي يعنيها ليست البلاد الألمانية المعروفة منذ القدم بل هي الدار التي شادها ملوك البروسيا وضموا إليها، طوعاً أو كرهاً، جميع الأمة الألمانية.

وَعَلَيْهِ فالتَّارِيخُ الَّذى يُشِيرُ إِلَيْهِ هُوَ تَارِيخُ الزَمَنِ الَّذِى نَهضَتْ فِيهِ الأُمَّةُ الْبرُوسْيَانِيَّةُ فأَدْخلت تحتَ سُلطتِهَا رُوَيْدًا رُوَيْدًا جَمِيعَ الْبِلَادِ الأَلمانيةِ حَتَّى يَتيَسَّرَ لِلشُّبَّانِ الَّذِينَ يَتلقَّوْنَهُ أَنْ يَترَبَّوْا مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهِم[١] عَلَى مَحبَّةِ النِّظَامِ الحَالِيِّ وَالإِعْجَابِ بِهِ . هَذا هُوَ مُرَادُ الْإِمْبرَاطُور كما صَرَّحَ بهِ فى قولهِ : « لَمَّا كُنْتُ فى المَدْرَسَةِ مَا كانَ التَلَامِذَةُ يَذْكُرُونَ (المُنْتخَبَ الكَبِيرَ) إِلَّا كالخَيالِ وَلَمْ يكُنْ لِحَرْبِ السَّبْعِ السِنِينَ ذِكْرٌ فى دَرْسِ التَّارِيخ كما أُهْمِلَتْ حَرْبُ سنة ١٨١٣ مَعَ أَنَّ معْرِفتهَا لَازِمَةٌ لِكلِّ شَابٍّ أَلمانيٍّ ، ولَوْلَا الدُّرُوسُ الخُصُوصِيَّةُ خَارِجَ المَدْرَسَةِ لَمَا عَرَفْتُ مِنْ ذَلكَ شَيْئًا ، إِلَى أنْ قالَ : « مَعَ أَنَّ فى تَعْلِيمِ ذَلِكَ أَهَمِّيَّةً عُظْمَى وَلَا مُوجِبَ لِلتَّضْلِيلِ عَلَى شُبَّانِنَا بِتَوْجِيهِ المَلَامِ إِلَى حُكُومَتِنَا وَالْإِعْجَابِ بِمَا عِنْدَ الأَجْنَبِيِّ » .

هَذَا غَايَةٌ فى الصَرَاحَةِ فَلْيُحْرِزْهُ السَّامِعُونَ[٢] يُرِيدُ الْإِمْبرَاطُورُ أَلَّا تَشْتَغِلَ أَفكارُ أُمَّتِهِ بِأَجْنَبِيٍّ عَنْهَا فلا تَعرِفَ مَا يَجْرِى فى الْبِلَادِ الأُخْرَى وَأَنْ تَصِيرَ مُعْجَبَةً بِالحَوَادِثِ التَّي أَوْجَدَتْ وَحْدَةَ أَلمانيا إِذْ هِىَ الأَمْرُ المُهِمُّ ، وَبِهَذَا التَّضْيِيقِ عَلَى الأَفكارِ يَنْقطِعُ التَّنْدِيدُ بِالحُكُومَةِ وَتَتَغَيَّرُ أَفكارُ الشُّبَّانِ فى الزَمَنِ الحَاضِرِ إِلَى أَحْسَنَ مِنْهَا كما يَشَاءُ الْإِمْبرَاطُورُ . وَلَا شُبْهَةَ فى أَنَّ أَفكارَهُمْ تَتغيَّرُ إِذَا لَمْ يَتَعَلَّمُوا

(١) أى منذ الصغر (٢) أحرز الشىء صانه، والمراد هنا فليعرفه السامعون ويعوه

مِنَ التاريخِ إِلاَّ مَا اخْتُصَّ بِشَجَاعَةِ الْبُرُوسْيا ، لِأَنَّ فى ذَلِكَ إِبْعَادًا لَهُمْ عَنِ الاشْتِغَالِ بِأَلمَانيَا الْقَدِيمَةِ وَمَاضِيهَا الطَّوِيلِ . وَلِكَىْ لاَ تَبْقَى شُبْهَةٌ فى مُرَادِ الإِمْبَراطُورِ مِنَ التَّرْبِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ قال : « أَيُّهَا السَّادَةُ إِنِّى فى حاجَةٍ إِلى الْجُنْدِ فلاَبُدَّ لِى مِنْ نَسْلٍ قَوِىٍّ قادِرٍ عَلى خِدْمَةِ الْبِلاَدِ ، وَلِهَذَا يَنْبَغِى إِدْخَالُ نِظَامِ المَدَارِسِ الحَرْبِيَّةِ فى المَدَارِسِ الْعَالِيَةِ » . وَلَعَمْرِى إِنَّ هَذِهِ التَّرْبِيَةَ لاتَجْعَلُ الشَّبِيبَةَ[1] الأَلمَانِيَّةَ قادِرَةً عَلى احْتِمالِ الحَياةِ الحَقِيقِيَّةِ وَكَسْبِ عَيْشِهَا الْيَوْمِىِّ حَيْثُ لامُوجِبَ لِلْقِتَالِ وَلامَحَلَّ لِلنِّزَالِ ، بَلِ الْغَرَضُ الارْتِزَاقُ . وَمَا ذَلِكَ النِّظَامُ هُوَ الَّذِى يُرَبِّى الرِّجَالَ وَيُهَيِّؤُهُمْ إِلى الأَعْمَالِ المُفِيدَةِ وَيُوَلِّدُ فِيهِمْ قُوَّةَ الإِرَادَةِ الَّتِى تُنَاسِبُ حَرَكَةَ التَّرَقِّى الشَّدِيدِ فى عَصْرِنَا هَذَا ، وَكَيْفَ تَكْبُرُ عَزَائِمُهُمْ وَهُمْ لَمْ يَتَعَلَّمُوا غَيْرَ النِّظَامِ الأَلْمَانِىِّ حَيْثُ يَسُودُ النِّظَامُ الْعَسْكَرِىُّ فى المَدَارِسِ ، إِنَّمَا الْوَاجِبُ تَثْقِيفُ عُقُولِهِمْ وَتَوْسِيعُ نِطَاقِ تَهْذِيبِهِمْ وَتَدْرِيبُهُمْ عَلى جَمِيعِ الأَعْمَالِ النَّافِعَةِ الَّتِى تُسَاعِدُ الأُمَّةَ عَلى نَشْرِ سِيادَتِها الاجْتِماعِيَّةِ لاَ الْعَسْكَرِيَّةِ حَتَّى تَسْبِقَ غَيْرَهَا مِنَ الأُمَمِ الَّتِى لَمْ تَبْلُغْ شَأْوَهَا[2] فى التَّقَدُّمِ ، وَلَكِنَّهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَضَعُوا فَوْقَ أَعْيُنِهَا عُيُونًا لاَ تُمَكِّنُهَا مِنَ النَّظَرِ فى أَحْوَالِ الأُمَمِ الماضِيَةِ وَلاَ فى حَرَكَةِ الأُمَمِ الحاضِرَةِ إِلاَّ ما كانَ أَلمانِيًّا ، فَلاَ تَرَى مِنْ هَذَا المَشْهَدِ الْعَظِيمِ المُفِيدِ إِلاَّ تارِيخَ الْبُرُوسْيا وَهُوَ يَسِيرٌ[3] . وَلاَ

(١) يريد الشبان (٢) الشأو : الغاية والأمد (٣) قليل

تَعْرِفُ لِلفَوْزِ مَعْنًى إلاَّ ما كانَ بِحَدِّ الْمُرْهَفاتِ[١] وَأَفْوَاهِ الْمَدَافِعِ لاَ الَّذِي يُكْتَسَبُ بالجِدِّ وَالمُثَابَرَةِ[٢] وَالهِمَّةِ وَالإرَادَةِ ، وَكَأَنِّي بالإمْبرَاطُورِ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ جَمِيعَ الأُمَّةِ الأَلْمَانِيَّةِ فِى حَالَةِ بَعْضِ فُقَرَاءِ الهِنْدِ الَّذِينَ يَقْضُونَ حَيَاتَهُمْ فِي مُشَاهَدَةِ مادُونَ بُطُونِهِمْ مُعْتَقِدِينَ أَنَّهُمْ يَنالُونَ بِذَلِكَ تَمَامَ السَّعَادَةِ ! إِذْ هُوَ يُرِيدُ أَلاَّ تَعْرِفَ أُمَّتُهُ غيرَ طَرَفٍ وَاحِدٍ مِنْ هَذا الْعَالَمِ الشَّاسِعِ وَأَنْ يُحْجَبَ عَنْهَا كُلُّ شَيْءٍ سِوَى ذَلِكَ .

وَإِنَّا نَتْرُكُ الفَصْلَ فى إِمْكَانِ تَحَقُّقِ هَذا الْخَيَالِ إِلى الأُمَّةِ الأَلْمانِيَّةِ نَفْسِها، غيرَ أَنَّا نَسْتَفِيدُ مِنْهُ لِنعرِفَ مَوْضِعَ النَّقْصِ عِنْدَنا . وَما مِنَّا مَنْ يَجْهَلُ إِعْجَابَنا بأَنْفُسِنا وَاعْتِقَادَنا بِأَنَّ أُمَّتَنا أَكْبرُ الأُمَمِ وَفى مُقَدِّمَتِها حَضارَةً وَتَمَدُّنًا وَأَنَّ كلَّ شَيْءٍ لَدَيْنا أَصْلُهُ الثَّوْرَةُ الفَرَنْسَاوِيَّةُ ، ثُمَّ نَنقُلُ هَذا الاِعْتِقَادَ إِلى أَبْنَائِنَا غيرَ شَاعِرِينَ باسْتِمْرَارِ الزَّمَانِ فى تَقَدُّمِهِ مِنْ دُونِ اشْتِرَاكِنَا فى حَرَكَتِهِ .

ثَبَتَ إِذَنْ أَنَّ الإِصْلاَحَ الَّذِي يُشِيرُ إِلَيْهِ الإِمْبرَاطُورُ عَقِيمُ الْفَائِدَةِ مِنَ الْجِهَةِ الْعِلْمِيَّةِ قَلِيلُ النَّفْعِ مِنَ الْجِهَةِ الْعَمَلِيَّةِ ؛ فَلْنَبْحَثْ عَنْ فائِدَتِهِ مِنَ الْجِهَةِ السِّيَاسِيَّةِ عَلَّنا نَرَاهُ يُؤَدِّى إِلى الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ وَإِلاَّ ذَهَبَتْ أَمَانِى الإِمْبرَاطُورِ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ ؛ خُصُوصاً إِذَا لُوحِظَ أَنَّهُ لا يَقْصِدُ

(١) السيوف المرهفة (٢) الجد بكسر الجيم : الاجتهاد، والمثابرة : المداومة

مِنْ سَعْيِهِ كُلِّهِ فى الْحَقِيقَةِ وَنَفْسِ الْأَمْرِ إلاَّ إِلى الْمَنْفَعَةِ السِّيَاسِيَّةِ — أَوْ ما يَتَصَوَّرُهُ كَذَلِكَ — بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : «وَمِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْنَا الْآنَ أَنْ نُعَلِّمَ الشُّبَّانَ طَرِيقَ الْمُحَافَظَةِ عَلى ما أَحْرَزْنَاهُ وَلكِنَّنَا لَمْ نَعْمَلْ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ بَلْ أَنَا أُشَاهِدُ مُنْذُ حِينٍ فى الْأُمَّةِ جُنُوحاً إِلَى الْمَيْلِ عَنْهُ »

وَعَلى هَذا يَكُونُ غَرَضُ الْإِمْبَراطُورِ مِنْ ذَلِكَ النِّظَامِ هُوَ التَّغَلُّبَ عَلى هَذَا الْمَيْلِ الَّذِى يَخْشَاهُ وَلكِنَّ أَمَانِيَّهُ لا يُمْكِنُ تَحَقُّقُهَا إِلاَّ إِذَا كانَتِ الْمَدَارِسُ كَما يُرِيدُهَا ، وَهِيَ لَيْسَتْ كَذَلِكَ ، لِأَنَّ غَايَةَ مَا يُرِيدُ اسْتِحْدَاثَهُ هُوَ الزِّيَادَةُ فِيما جَرَتْ عَلَيْهِ أُمَّتُهُ مِنْ قَبْلِهِ تَحْتَ رِعَايَةِ أَسْلَافِهِ وَبِأَمْرِهِمْ ، وَهُمْ أَيْضاً كانُوا يَقْصِدُونَ الْغَايَةَ الَّتِى يَرْمِى إِلَيْهَا وَهِيَ إِكْبَارُ شَأْنِ الدَّوْلَةِ الْبرُوسْيَانِيَّـةِ وَإِعْلَاءُ كَلِمَتِهَا وَقَدْ جَرَّبَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ .

لِذَلِكَ نَدَّدَ رِجَالُ الْمَدَارِسِ فى بَرْلِينَ بِخِطَابِهِ وَأَجْمَعُوا عَلى إِظْهَارِ أَسَفِهِمْ وَاسْتِيَائِهِمْ مِنَ اللَّوْمِ الَّذِى وَجَّهَهُ إِلَيْهِمْ وَقَالُوا : « إِنَّهُمْ كانُوا يَعْتَبِرُونَ (١) عَلى الدَّوَامِ أَنَّ أَقْدَسَ وَاجِبٍ عَلَيْهِمْ هُوَ غَرْسُ مَحَبَّةِ الْوَحْدَةِ الْأَلْمَانِيَّـةِ فى قُلُوبِ تَلَامِذَتِهِمْ وَإِعْدَادُهُمْ لِحِفْظِ النِّظَامِ الِاجْتِمَاعِيِّ الْحَاضِرِ وَمُقَاوَمَةِ أَهْلِ الثَّوْرَةِ وَمَنْ يَسْعَى بِالْفَسَادِ » . وَمَعَ

(١) يعتبرون هنا فى معنى يعدون ذلك معتبرا أى مبجلا مقدسا واستعمال الاعتبار بهذا المعنى غير صواب .

كَوْنَ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ لَمْ تُجْدِ نَفعاً — باعْتِرَافِ الإِمْبِرَاطُورِ نفسِهِ — تَرَاهُ يَميلُ إلى تعزيزِهَا(١) وَالزِّيَادَةِ فِيها ، وَلَنْ ينالَ مَا يرْجُوهُ مِنْها ؛ بَلْ مِنَ الْمُحْتَمَلِ الْقَرِيبِ جدًّا أَنَّها تُؤَدِّى إلى عَكْسِ مَا يَتَمَنَّى لأَنَّها تَزِيدُ فِى ضَعفِ أَهْلِيَّةِ الْأَوَاسِطِ مِنَ النَّاسِ وَفى عَدَمِ قُدْرَتِهِمْ عَلَى تحْصِيلِ عَيْشِهِمْ مِنَ الْحِرَفِ الْحُرَّةِ ، فَتَضْعُفُ فِيهِمْ قُوَّةُ التَّزَاحُمِ فِى الْحَيَاةِ وَالِانْتِشَارِ فِى الْخَارِجِ وَمُبَارَاةِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الَّتى سَبَقَتْهُمْ فى مَعْرِفَةِ مُقْتَضَى أَحْوَالِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِىِّ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَدَارِسَ الَّتى يُرِيدُ الْإِمْبِرَاطُورُ تَنْظِيمَ طُرُقِ التَعْلِيمِ فِيهَا هِىَ الَّتى يَدْخُلُهَا أَبْنَاءُ الْأَوَاسِطِ فى أَلمَانْيَا ، أَمَّا عَدَمُ أَهْلِيَّةِ تِلْكَ الطَبَقَةِ مِنَ النَّاسِ فى الْأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ فَقَدْ بَرْهَنَ عَلَيْهِ مُوسْيُو (بُوانْسَارْ) فى الْجُزْءِ التَّاسِعِ مِنْ مَجَلَّةِ (الْعِلْمِ الْاجْتِمَاعِىِّ) صفحة ٤٦٨ تحت عُنْوَانِ (الْأَلْمَانِيُّونَ خَارِجَ بِلَادِهِمْ وَطُمُوحُ الْحُكُومَةِ الْإِمْبِرَاطُورِيَّةِ إِلَى الِاسْتِعْمَارِ) وَأَبَانَ أَنَّ أَهْلَ الطَبَقَةِ الْمَذْكُورَةِ يُفَضِّلُونَ الوَظَائِفَ الْعَسْكَرِيَّةَ وَالْإِدَارِيَّةَ وَالْحِرَفَ الْأَدَبِيَّةَ عَلَى الْحِرَفِ الْحُرَّةِ الْمُفِيدَةِ أَى الَّتى تَسْتَفِيدُ مِنْهَا الْأُمَّةُ وَالْأَفْرَادُ كَسْباً كَبِيراً ، فَإِذَا زِيدَ أَيْضًا فِى ضَعْفِ تِلْكَ الطَبَقَةِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ زَادَ الضَنْكُ(٢) وَعَظُمَ اشْتِدَادُ الْحَالِ ، إِذْ لَيْسَ فِى قُدْرَةِ الْحُكُومَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ أَنْ تَتَكَفَّلَ

---

(١) تقويتها (٢) الضنك : الضيق

بِمَعِيشَةِ جَمِيعِ الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنْ مَدَارِسِهَا بَعْدَ أَنْ أَبْعَدَهُمْ ذَلِكَ النِّظَامُ عَنْ وَسَائِلِ الْكَسْبِ الْحَقِيقِيَّةِ فَتَضِيقُ دُونَهُمْ ثُكْنَاتُ الْعَسَاكِرِ وَمَصَالِحُ الْحُكُومَةِ مَهْمَا تَشَعَّبَتْ فُرُوعُهَا، ثُمَّ هُمْ يَرْجِعُونَ طَبْعاً بِاللَّوْمِ عَلَيْهَا وَيَنْسُبُونَ خَيْبَتَهُمْ إِلَيْهَا. تِلْكَ سُنَّةُ الأُمَمِ لَا يَشِذُّ عَنْهَا وَلَا يَنْفِرُ مِنْ حُكُومَتِهَا إِلَّا الْخَائِبُونَ ، وَحِينَئِذٍ يَزْدَادُ النُّفُورُ وَيَشْتَدُّ حَرَجُ النُّفُوسِ الَّذِي تَظْهَرُ عَلَامَاتُهُ الآنَ لِلإِمْبَرَاطُورِ.

وَفِيمَا تَقَدَّمَ أَكْبَرُ بُرْهَانٍ عَلَى فَسَادِ نِظَامِ الْحُكُومَاتِ الَّتِى يَتَوَلَّى الْمَلِكُ فِيهَا النِّيَابَةَ عَنِ الأَفْرَادِ فِى جَمِيعِ الأَعْمَالِ حَتَّى الَّتِى هِيَ مِنْ خَصَائِصِهِمْ ، وَأَعْظَمُ عَمَلٍ تَخْتَصُّ بِهِ الأُمَّةُ وَالأَفْرَادُ دُونَ الْحُكُومَةِ هُوَ التَّرْبِيَةُ ، وَمَا مِنْ مَرَّةٍ تَوَلَّتْهُ الْحُكُومَةُ إِلَّا سَاءَتِ الْعَاقِبَةُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ. تِلْكَ حَقِيقَةٌ سَيَعْلَمُهَا الإِمْبَرَاطُورُ كَمَا عَرَفَهَا قَوْمٌ سَابِقُونَ.

هَذَا ؛ وَفِى يَقِينِى أَنَّ الإِمْبَرَاطُورَ يَسْتَغْرِبُ كَثِيراً إِذَا قَرَأَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ كَلَامِى لِمَا هُوَ عَلَيْهِ، أَوْ مَا عُلِمَ عَنْهُ، مِن اعْتِقَادِهِ بِأَنَّ النِّظَامَ الَّذِى يُرِيدُ إِدْخَالَهُ فِى الْمَدَارِسِ هُوَ الَّذِى يَفْتَحُ لِلأُمَّةِ الأَلْمَانِيَّةِ بَابَ التَّقَدُّمِ الَّذِى اتَّجَهَتْ نَحْوَهُ الأُمَمُ فِى هَذَا الْعَصْرِ وَأَنَّهُ هُوَ النِّظَامُ الَّذِى يَلِيقُ بِمُسْتَقْبَلِ الأَيَّامِ .وَلَا يَحْسَبَنِّى الْقَارِئُ مُبَالِغاً فِيمَا أَسْنَدُهُ إِلَيْهِ فَهَذَا خِتَامُ خِطَابِهِ قَالَ : « نَحْنُ فِى زَمَنِ انْتِقَالِ الأُمَمِ مِنْ حَالَةٍ

إلى أخرى وفى استقبال جيل جديد[١] وقد كان من خصوصيات القياصرة أسلافى على الدوام أن يسبقوا إلى معرفة تقلب الزمان ويتبصروا الحوادث المقبلة وينهضوا فى مقدمة الكل رغبة فى توجيه حركة الأمة نحو الغرض الجديد ، وإنى قد عرفت مسير الأفكار الجديدة وأدركت الغاية التي يرمى إليها هذا القرن المنصرم ، لذلك حولت عزيمتى كما فعلت أيام اشتغالى بالنظامات العمومية إلى تربية الشبيبة الألمانية على نظام جديد يفتح أمامها أبوابا لا بد لنا من الدخول منها لنصل إلى التقدم المقصود لأننا إذا لم نفعل ذلك اليوم ألجأتنا الضرورات إليه بعد عشرين عاما »

ومن المدهشات أن ينطق بهذا اللسان ملك عرفناه يقف بالتعليم فى المدارس عند معرفة الوقائع الحربية التى انتصر أسلافه فيها ويقضى على التربية العلمية الحقيقية قضاءه المبرم ويجعل جميع الأجيال المستقبلة من أمة كبيرة غير قادرة على احتمال التزاحم فى الحياة الذى طنطن بذكره وأطنب فى الكلام عليه

على أنه لا موجب للدهشة لأن القائل رجل بروسيانى وبلاد البروسيا قسم صغير من ألمانيا وقد تكاد تكون كأمم المشرق فهى آخر أمة دخلت فى عداد الدول الأوربية العظمى كما فى اصطلاح

(١) الجيل هو الصنف من الناس وهو يريد الزمن هنا

السِّيَاسِيِّينَ . وَمَا صَارَتْ أُمَّةً كَبِيرَةً إِلاَّ بَعْدَ جَمْعِ الأُمَمِ الأُخْرَى فَهِيَ أَشْبَهُ بِرَجُلٍ وُلِدَ مُتَأَخِّراً عَنْ أَقْرَانِهِ بِرُبْعِ سَاعَةٍ وَلَيْسَ فِي إِمْكَانِهِ أَنْ يَسْتَعِيضَ عَنْ هَذَا التَّأْخِيرِ ، فَالْبرُوسْيَا مُتَأَخِّرَةٌ عَنْ غَيْرِهَا مِنْ أُمَمِ الْغَرْبِ بِقَرْنَيْنِ كَامِلَيْنِ وَلاَ يَزَالُ أَهْلُ نَهْرِ (سيرى) عَلَى بَعْضِ الْعَوَائِدِ الَّتِي كَانَتْ مَأْلُوفَةً أَيَّامَ الْمَلِكِ (فيليب) الثَّانِي و (لويز) الرَّابِعَ عَشَرَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَشْعُرُوا بِأَنَّ الأَرْضَ قَدْ ضَمَّتْ أَجْسَامَ أُولَئِكَ الْمُلُوكِ الْفِخَامِ مِنْ زَمَنٍ مَدِيدٍ فَبَادُوا وَبَادَتْ حُكُومَتُهُمْ وَانْطَوَتْ سِيَاسَتُهُمْ كَمَا أَنَّهُمْ لاَ يَزَالُونَ يَعُدُّونَ مَا مَضَى مُسْتَقْبَلاً يَرْجُونَهُ

وَإِذْ أَنَّ الْبَحْثَ دَائِرٌ عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ وَالتَّزَاحُمِ فِي الْحَيَاةِ وَمُسَاعَدَةَ الأُمَّةِ الأَلْمَانِيَّةِ عَلَى الانْتِشَارِ فِي الْخَارِجِ وَالْمُنَافَسَةِ مَعَ الأُمَمِ الَّتِي تَسْتَوْلِي عَلَى الدُّنْيَا فَمِنَ الْمُفِيدِ أَنْ نَعْرِفَ الطَّرِيقَةَ الَّتِي اتَّخَذَتْهَا تِلْكَ الأُمَمُ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا وَإِعْدَادِهِمْ لِهَذِهِ الْحَرْبِ الْجَمِيلَةِ حَتَّى تَكُونَ لَهَا الأَرْجَحِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْبِلاَدِ عَلَى غَيْرِهَا وَسَيَرَى الْقُرَّاءُ أَنَّ السَّبِيلَيْنِ مُخْتَلِفَانِ

وَبَيْنَمَا أَنَا أَكْتُبُ هَذِهِ السُّطُورَ إِذْ دَخَلَ عَلَيَّ أَحَدُ الأَصْدِقَاءِ زَائِراً وَهُوَ رَجُلٌ لَهُ وَلَدٌ يُرِيدُ أَنْ يُرَبِّيَهُ تَرْبِيَةً تُمَكِّنُهُ مِنَ التَّزَاحُمِ فِي الْحَيَاةِ وَكَسْبِ عَيْشِهِ بِنَفْسِهِ فَلاَ يَوَدُّ لَهُ أَنْ يَكُونَ مُوَظَّفاً فِي إِحْدَى مَصَالِحِ الْحُكُومَةِ وَهُوَ نَادِرٌ عِنْدَنَا وَالْخُلاَصَةُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُرَبِّيَ ابْنَهُ

تَرْبِيَةً عَمَلِيَّةً إرَادَةً صَحِيحَةً [١] لاَ كَمَا يُرِيدُ الْإِمْبِرَاطُورُ ، وَهِيَ التَّرْبِيَةُ الَّتِي يَسْتَحْسِنُهَا كُلُّ إنْسَانٍ وَلاَ يَعْمَلُ بِهَا إلاَّ الْقَلِيلُ ، وَكَانَ لِهَذِهِ الْغَايَةِ حَصَلَ عَلَى نِظَامَاتِ عَدَدٍ مِنَ الْمَدَارِسِ الْأَجْنَبِيَّةِ فَأَعْجَبَهُ وَاحِدٌ مِنْهَا وَهُوَ الَّذِي قَدَّمَهُ إلَيَّ ، فَلَمَّا تَصَفَّحْتُهُ رَأَيْتُ مِنَ الْفَائِدَةِ تَلْخِيصَهُ لِلْقُرَّاءِ مُسْتَعِيناً فِي ذَلِكَ بِمَا عَلِمْتُهُ بِنَفْسِي عَنِ الْمَدْرَسَةِ الْمُتَعَلِّقِ بِهَا

الْمَدْرَسَةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ أَنْشَأَهَا صَاحِبُهَا لِتَعْلِيمِ الشُّبَّانِ طُرُقَ الِارْتِزَاقِ فِي غَيْرِ بِلَادِهِمْ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ إجْرَاءِ تِلْكَ الْأَعْمَالِ الزِّرَاعِيَّةِ الَّتِي مَهَّدَتْ لِلْأُمَمِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ سُبُلَ الِاسْتِيلَاءِ عَلَى الْعَالَمِ شَيْئاً فَشَيْئاً وَجَعَلَتْهَا تَفْضُلُ مَنْ سِوَاهَا ، وَهِيَ تُوَافِقُ غَرَضَ الْإِمْبِرَاطُورِ إلاَّ أَنَّهَا لاَ تَنْسِجُ فِي التَّعْلِيمِ عَلَى مِنْوَالِهِ

وَأَمَّا النِّظَامُ الْمَذْكُورُ فَهُوَ رِسَالَةٌ صَغِيرَةٌ يُطَالِعُ الْقَارِئُ فِي أَوَّلِهَا قَوْلَيْنِ حَكِيمَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنْ (جُونْ سِتِيوَارْتْ مِيلْ) وَهُوَ « مِمَّا لاَ شُبْهَةَ فِيهِ الْآنَ بِالنَّظَرِ إلَى أَحْوَالِ الْأُمَمِ الْحَاضِرَةِ أَنَّ الِاسْتِعْمَارَ هُوَ أَنْجَحُ الْوَسَائِلِ فِي اسْتِعْمَالِ الْأَمْوَالِ الْمُدَخَرَةِ فِي خَزَائِنِ الْأُمَمِ الْغَنِيَّةِ الْقَدِيمَةِ » وَالثَّانِي عَنْ (فُوسْتَرْ) وَهُوَ : « تَزْدَادُ حَاجَةُ النَّاسِ إلَى الْهِجْرَةِ كُلَّ يَوْمٍ وَلاَ فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ »

وَيَتَبَيَّنُ مِنْهُ أَنَّ الْغَرَضَ مِنَ الْمَدْرَسَةِ تَتْمِيمُ مَا نَقَصَ مِنَ التَّعْلِيمِ

(١) ارادة صحيحة مفعول مطلق لقوله يريد

فى المَدَارِسِ الأُخرَى لِلشُّبَّانِ الَّذِينَ يحتاجُونَ إلى تَرْبِيَـةٍ خُصُوصِيَّةٍ ، وَلاَ يَغِيبنَّ عنَّا أَنَّ التَّرْبِيَـةَ فى المَدَارِسِ الإِنْـكلِيزِيَّـةِ عَلَى الْعُمُومِ هِيَ تَرْبِيَـةٌ عَمَلِيَّـةٌ كَمَا يَنْبَغِي ، وَأَنَّ التَّزَاحُمَ في الْحيَاةِ الَّذِى قرَأْنَاهُ فى خِطَابِ الإِمْبرَاطُورِ هُوَ الْغَايَـةُ مِنْ تِلكَ التَّرْبِيَةِ ، وَأَنَّ بَيْنَ رُؤَسَاءِ المَدْرَسَةِ وَجَمِيعِ الْمُسْتَعْمَرَاتِ الإِنْـكلِيزِيَّـةِ مُرَاسلاَتٍ يَقِفُونَ بوَاسِطَتِهَا عَلَى مَا يحْتَاجُ إِلَيْهِ التَّلاَمِذَةُ فى الْمُسْتَقْبَلِ فَلاَ يُقدِمُونَ عَلى أَمْرٍ إِلاَّ وَهُمْ بِهِ عَالِمُونَ ، وَقَدْ أَفادَتْ تِلْكَ التَّرْبِيَةُ كَثِيراً مِنْ مُتخَرِّجِى الْمَدْرَسَةِ فَسَاعَدَتْهُمْ عَلى تَحْصِيلِ رِزْقِهِمْ فى الْبِلاَدِ الْأُخْرَى ، ثمَّ بَيَّنَ وَاضِعُ الرِسَالَةِ مَوْقِعَ الْمَدْرَسَةِ وَأَلحَقَهُ بِرَسْمِ بِنَائِهَا تَتميماً لِلْفَائِدَةِ ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِى الرِّيفِ وَكَانَ ذِكْرُ ذَلِكَ مِنْ قبِيلِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ ، لَوْلاَ أَنَّ جَمْعِيَّةَ الزِرَاعَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةَ تَسْكُنُ فِى وَسَطِ مَدِينَةِ بَارِيسَ الجَمِيلَةِ ، وَبنَاؤُهَا قَائِمٌ عَلَى مُرْتفَعٍ — نَشْزٍ — يُحِيطُ بِهِ الْبَحْرُ وَأَحَدُ الْأَنْهَارِ مِنْ جهَةٍ وَيَمْتَدُّ مِنَ الجَانِبِ الْآخَرِ سَهْلٌ مَزْرُوعٌ ، وَهَـذَانِ شَرْطَانِ يُعَوِّدَانِ التَّلاَمِذَةَ الْهِجْرَةَ وَالاسْتِعْمَارَ ، وَتَحَمُّلَ أَتْعَابِهِمَا أَكْثَرَ مِنْ جَمْعِهِمْ فِى الْمَدَارِسِ بِالْمُدُنِ الْأَلْمَانِيَّةِ ، وَذَلِكَ السَهْلُ مُنْقَسِمٌ إِلى أَجْزَاءٍ تَسْهِيلاً لِتَجْرِبَةِ طُرُقِ الزِرَاعَةِ وَغَرْسِ جَمِيعِ الْمَزْرُوعَاتِ عَلى اخْتِلاَفِ أَنْوَاعِهَا فَهَذَا قِسْمُ الْعِزْبَةِ ، ثُمَّ قِسْمُ الْأَلْبَانِ ، فَمَكَانُ تَرْبِيَةِ الطُيُورِ الْمَنْزِلِيَّةِ ، فَالْمَعَامِلُ ، وَمَخَازِنُ

المَرَاكِبِ وَغَيْرُهَا ، وَلِكَيْ يُحَافِظَ التَّلَامِذَةُ عَلَى دِينِهِمْ بُنِيَ لَهُمْ مَعْبَدَانِ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الْمَدْرَسَةِ

أَمَّا مَوْضُوعُ التَّعْلِيمِ فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَدْرَسَةَ عَمَلِيَّةٌ مَحْضَةٌ وَأَنَّهُ لَا اشْتِغَالَ لِأَصْحَابِهَا بِالسِّيَاسَةِ بَلْ هُمْ مُنْصَرِفُونَ إِلَى تَسْلِيحِ التَّلَامِذَةِ بِجَمِيعِ الْمَعَارِفِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي يُحْتَاجُ إِلَيْهَا ، وَأَنَّ أَعْظَمَ مَكَانٍ فِي الْمَدْرَسَةِ مُخَصَّصٌ بِتَطْبِيقِ الْعِلْمِ عَلَى الْعَمَلِ لَا كَمَا هُوَ حَاصِلٌ فِي جَمْعِيَّتِنَا الْعِلْمِيَّةِ الزِّرَاعِيَّةِ ، وَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ تَدْرِيسِ الْعُلُومِ هُوَ شَرْحُ مَا يَشْتَغِلُ بِهِ التَّلَامِذَةُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَلَدَى الْمَدْرَسَةِ عَدَدٌ مِنْ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ وَالصَّنَائِعِ لِتَعْلِيمِ طُرُقِ الِاسْتِعْمَارِ ، وَأَنَّ أَهَمَّ عَمَلٍ هُوَ الزِّرَاعَةُ ، لِذَلِكَ يَأْتِي التَّلَامِذَةُ بِأَنْفُسِهِمْ جَمِيعَ أَعْمَالِهَا وَعِنْدَهُمْ مِنْ آلَاتِهَا مَا كَمُلَ صُنْعُهُ ، وَبِاسْتِعْمَالِهَا تُعْرَفُ قُوَّةُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، وَهُنَاكَ دَوْحَةٌ[1] تَبْلُغُ أَرْبَعِينَ أَلْفَ مِتْرٍ مُرَبَّعٍ تُزْرَعُ فِيهَا الْفَوَاكِهُ الْمُخْتَلِفَةُ الْأَنْوَاعِ وَالْخُضَرُ بِأَجْنَاسِهَا وَتُشَاهَدُ فِيهَا التَّجَارِبُ لِإِنْمَاءِ الزَّرْعِ بِقَدْرِ مَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْإِمْكَانُ ، وَلَهُمُ اعْتِنَاءٌ خُصُوصِيٌّ بِتَرْبِيَةِ النَّحْلِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ فِي الْمُسْتَعْمَرَاتِ إِذْ يَخْرُجُ مِنْهُ الْعَسَلُ وَالشَّمْعُ وَهُمَا سِلْعَتَانِ نَادِرَتَانِ فِي تِلْكَ الْجِهَاتِ وَقِيمَتُهُمَا عَالِيَةٌ ، وَفِي هَذَا السَّهْلِ قِسْمٌ تُغْرَسُ فِيهِ أَنْوَاعُ الْأَشْجَارِ وَيَتَعَلَّمُ التَّلَامِذَةُ كَيْفِيَّةَ تَغْذِيَتِهَا

(١) الدوحة الشجرة العظيمة وهو يريد هنا مزرعة واسعة

وَطُرُقَ تَرْبِيَتِهَا وَهُوَ عَمَلٌ لَازِمٌ لِمَنْ يُرِيدُ اسْتِيطَانَ[١] (كَنَدَا) أَوْ (أُسْتِرَالْيَا) وَلَهُمْ عِنَايَةٌ لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا بِتَرْبِيَةِ الْمَاشِيَةِ لِضَرُورَتِهَا فِي أَغْلَبِ الْمُسْتَعْمَرَاتِ لِأَنَّهُ يُبْدَأُ عَادَةً فِي الِاسْتِعْمَارِ بِتَرْبِيَةِ الْمَوَاشِي فَعِنْدَهُمْ سَبْعُونَ حِصَانًا وَمُهْرًا مِنْ أَحْسَنِ الْأَنْوَاعِ وَكُلُّهَا مِنَ الْخَيْلِ الْمُسْتَعْمَلَةِ فِي الْمُسْتَعْمَرَاتِ ثُمَّ أَنْوَاعٌ مِنَ الثِّيرَانِ وَالْغَنَمِ وَالْخِنْزِيرِ وَالطُّيُورِ، وَيَتَعَلَّمُ التَّلَامِذَةُ طَبَائِعَهَا وَفَائِدَةَ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا وَيَقْضُونَ طُولَ السَّنَةِ فِي اخْتِبَارِ أَحْوَالِهَا وَتَنْوِيعِ اسْتِعْمَالِهَا مَعَ الْمُكَلَّفِينَ خِدْمَتَهَا، وَفِي مَعْمَلِ اللَّبَنِ خَمْسُونَ بَقَرَةً مِنْ أَجْوَدِ نَوْعٍ، وَالْعَمَلُ عَلَى أَحْسَنِ طِرْزٍ[٢] تُشَاهَدُ فِيهِ أَنْوَاعُ طَرِيقَةِ صُنْعِ اللَّبَنِ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهُ بِحَسَبِ الْبِلَادَيْنِ الْبَارِدَةِ وَالْحَارَّةِ، وَفِي الْمَدْرَسَةِ مُدَرِّسُونَ لِلطِّبِّ الْبَيْطَرِيِّ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ الْمُسْتَعْمِرُ فِي غُرْبَتِهِ إِلَى غَيْرِهِ لِتَمْرِيضِ مَاشِيَتِهِ، وَيَتْلُو الْعِلْمَ تَطْبِيقُهُ عَلَى الْعَمَلِ، وَيَقْضُونَ وَقْتًا كُلَّ يَوْمٍ فِي رُكُوبِ الْخَيْلِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا فِي حَاجَةٍ مِثْلِ إِمْبِرَاطُورِ أَلَمَانْيَا إِلَى هَذِهِ الرِّيَاضَةِ لِيَقِفُوا عَلَى مَجْرَى الْأَحْوَالِ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا هُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْخَيْلَ أَحْسَنُ وَاسِطَةٍ لِلْمُوَاصَلَةِ فِي الْبِلَادِ الْجَدِيدَةِ وَأَنَّهَا أَحْسَنُ طَرِيقَةٍ لِتَفَقُّدِ الْأَمْلَاكِ الْوَاسِعَةِ، كَذَلِكَ لَهُمْ وَقْتٌ لِتَعَلُّمِ فَنِّ مِسَاحَةِ الْأَرَاضِي وَأَخْذِ مَوَازِينِهَا وَطُرُقِ إِصْلَاحِهَا

---

(١) اتخاذها وطنا (٢) الطرز والطراز واحد وهو الزى والمراد على أحسن حال

وَرَيِّهَا وَصَرْفِ الْمِيَاهِ الْفَاضِلَةِ عَنْهَا ، وَلِتَمَامِ اسْتِقْلَالِ كُلِّ وَاحِدٍ تَرَاهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ يَتَعَلَّمُونَ بَعْضَ الصِّنَاعَاتِ الْعَادِيَّةِ فَاتَّخَذَتِ الْمَدْرَسَةُ مَعَامِلَ عِدَّةً ، هَذَا لِلْبِنَايَةِ وَطَرْقِ الْحَدِيدِ وَفِيهِ تُصْنَعُ آلَاتُ الزِّرَاعَةِ كُلُّهَا وَإِصْلَاحُ مَا فَسَدَ مِنْهَا وَتَطْبِيقُ الْخُيُولِ ، وَذَاكَ مَعْمَلُ النِّجَارَةِ وَصُنْعِ الْعَرَبَاتِ وَإِصْلَاحِهَا وَصِنَاعَةِ الْخَشَبِ وَإِقَامَةِ الْمَسَاكِنِ وَالْبُيُوتِ مِنْهُ وَذَلِكَ مَعْمَلُ الْبَرَاذِعِ وَالسُّرُوجِ ، وَالتَّلَامِذَةُ يَتَعَلَّمُونَ كُلَّ ذَلِكَ كَمَا يَتَعَلَّمُونَ الْعَوْمَ فِى الْبَحْرِ وَالسِّبَاحَةَ فِى النَّهْرِ وَالتَّجْذِيفَ[1] وَالْمِلَاحَةَ وَصُنْعَ الْقَنَاطِرِ الْقَائِمَةِ وَاتِّخَاذَ الرَّوَامِصِ[2] وَغَيْرَ ذَلِكَ ، وَفِى الْمَدْرَسَةِ أَحَدُ رِجَالِ خَفَرِ السَّوَاحِلِ مَنُوطٌ بِهِ حِفْظُ الْمَرَاكِبِ وَتَعْلِيمُ التَّلَامِذَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا حَتَّى إِنَّهُ يُعَلِّمُهُمْ كَيْفَ يَجْمَعُونَ بَيْنَ طَرَفَى الْحَبْلَيْنِ مِنْ دُونِ أَنْ يَعْقِدُوهُمَا ، وَلَقَدْ يَلَذُّ لِى هَذَا الْبَيَانُ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ الْتِفَاتِهِمْ إِلَى مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ عَمَلًا وَاعْتِنَائِهِمْ بِتَعْلِيمِهِ كُلَّ شَىْءٍ ، وَتَعْرِيفِهِ بِأَنَّهُ لَا شَىْءَ غَيْرُ مُفِيدٍ

وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْرِفُوا طَرَفًا مِنْ فَنِّ الطِّبِّ عَلَى قَدْرِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِى الْمُسْتَشْفَيَاتِ النَّقَّالَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِشَرِكَةِ (صَانْ جَانْ) وَجَمْعِيَّةِ مُسَاعَدَةِ الْغَرْقَى وَكَيْفَ يُرْبَطُ الْعُضْوُ الْمَكْسُورُ وَالْمَرْضُوضُ وَيُرَدُّ

(١) التجديف بالدال والذال لغتان فصيحتان ومنه مجداف السفينة (٢) هكذا فى الاصل ولعله يريد الارماث جمع رمث وهو الطوف من خشب يضم بعضه إلى بعض ثم يركب عليه في البحر

الْمَخْلُوعُ وَيُوقِفُ النَّزِيفَ(١) ، وَتُضَمِّدُ الْجُرُوحُ ، وَتُعَالِجُ الْحُرُوقَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْعَوَارِضِ الِاعْتِيَادِيَّةِ حَتَّى يَكُونُوا عَلَى عِلْمٍ بِتَمْرِيضِ أَنْفُسِهِمْ وَمُعَالَجَةِ غَيْرِهِمْ

وَلَقَدْ تَوَسَّعَ صَاحِبُ الْمَدْرَسَةِ فِي شَرْحِ مَا بَيَّنَّاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الزِّرَاعِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ لِكَوْنِهَا الشَّاغِلَ الْمُهِمَّ فِيهَا وَلِأَنَّ الْغَرَضَ مِنْهَا تَرْبِيَةُ رِجَالٍ يَعْمَلُونَ فِي الْخَارِجِ لَا تَعْلِيمُ أُنَاسٍ يَتَرَبَّعُونَ فِي مَقَاعِدِ الْمَصَالِحِ ، لِذَلِكَ جَعَلَ الْكَلَامَ عَلَى الْقِسْمِ الْعِلْمِيِّ فِي آخِرِ الْكُرَّاسَةِ وَاخْتَصَرَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَمَا قَدَّمْنَا عِبَارَةٌ عَنْ شَرْحِ مَا يُشْغَلُ بِهِ التَّلَامِذَةُ مِنَ الْأَعْمَالِ ، فَلَا يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ وَحْدَهُ إِلَّا سَاعَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ فِي الْيَوْمِ (وَلَيْسَ فِي هَذَا إِفْرَاطٌ كَمَا تَرَى) يُلْقِي فِيهِمَا نَاظِرُ الْمَدْرَسَةِ وَمُعَلِّمُوهَا دُرُوساً فِي عِلْمِ الزِّرَاعَةِ وَعِلْمِ طَبَقَاتِ الْأَرْضِ وَالْمَعَادِنِ وَالنَّبَاتَاتِ وَفَنِّ الْغَابَاتِ وَالْمِسَاحَةِ وَالْعِمَارَةِ وَالطِّبِّ الْبَيْطَرِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، ثُمَّ يُتْلَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُتُبِ الْوَارِدَةِ مِنْ حُكُومَاتِ الْمُسْتَعْمَرَاتِ مَا تَهُمُّ مَعْرِفَتُهُ

وَيَجِدُ الْمُطَالِعُ فِي آخِرِ الْكُرَّاسَةِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ صُورَةً تُمَثِّلُ مَبَانِيَ الْمَدْرَسَةِ وَالطَّلَبَةَ يَشْتَغِلُونَ فِيهَا بِالْأَعْمَالِ الَّتِي سَرَدْنَاهَا ، وَإِنِّي لَآسِفٌ عَلَى عَدَمِ تَمَكُّنِي مِنْ نَقْلِهَا فِي هَذَا الْكِتَابِ لِأَنَّ صُورَةَ

(١) أي نزيف الدم

أُولَئِكَ الطَلَبَةِ وَهُمْ يَعمَلُونَ بِتِلْكَ المَدْرَسَةِ تُلقِى فى النَفْسِ شُعُوراً بأَنَّهُمْ مِنْ أُمَّةٍ ذَاتِ هِمَّةٍ وَإقْدَامٍ مَيَّالَةٍ إلَى العَمَلِ الحَقِيقِىِّ قَدْ تَعَوَّدَتْ احْتِمَالَ الْمَتَاعِبِ فَلاَ تَخْشَى العَنَاءَ ، فَهِىَ تَعْمَلُ بِجِدٍّ فِى عَمَلٍ جِدٍّ[1] لاَ يَعتَمِدُ الاِنْسَانُ فِيهِ إلاَّ عَلَى نَفْسِهِ بَعْدَ اللهِ

وَمِمَّا يَزِيدُ الْفَائِدَةَ مِنْ مُشَاهَدَةِ أُولَئِكَ الشُبَّانِ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الفُقَرَاءِ الَّذِينَ قَدْ لَفَظَتْهُمُ الأَيَّامُ فَالْتَجَئُوا إلَى الْهِجْرَةِ بِدَافِعِ الْفَقْرِ ، وَلٰكِنَّهُمْ كَمَا جَاءَ فِى الرِّسَالَةِ نَفْسِهَا أَبْنَاءُ عَائِلاَتٍ غَنِيَّةٍ أَوْ تَقْرُبُ مِنَ الغِنَى أَعْنِى مِنْ أَوَاسِطِ النَّاسِ الَّذِينَ يُرِيدُ إمْبِرَاطُورُ أَلْمَانْيَا إدْخَالَ الْإِصْلاَحِ بَيْنَهُمْ ، عَلَى أَنَّ أُجْرَةَ التَعْلِيمِ فِى تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ كَافِيَةٌ فِى إثْبَاتِ ذَلِكَ لِأَنَّهَا أَلْفَانِ وَمِائَتَانِ وَخَمْسُونَ فَرَنْكاً فِى السَنَةِ إلَى أَنْ يَبْلُغَ الطَّالِبُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَأَلْفَانِ وَسَبْعُمِائَةِ فَرَنْكٍ إلَى عِشْرِينَ سَنَةً ، وَثَلاَثَةُ آلاَفٍ وَمِائَةٌ وَخَمْسُونَ فَرَنْكاً إلَى مَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ كَانَ فِى قُدْرَةِ أُولَئِكَ الشُبَّانِ أَنْ يَطْلُبُوا الرِزْقَ فِى بَلَدِهِمْ بِلاَ تَعَبٍ وَلاَ عَنَاءٍ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَرْضَوْا لِأَنْفُسِهِمْ مِثْلَ هَـذَا الْعَيْشِ بَلْ فَضَّلُوا عَلَيْهِ مَا يَقْتَضِى الْكَدَّ وَاسْتَعَدُّوا إلَى مُغَالَبَةِ الصِعَابِ فَطَرَحُوا بِأَنْفُسِهِمْ فِى الْمُسْتَعْمَرَاتِ ، وَنَزَحُوا إلَى الْبَلَدِ الْأَقْصَى[2]

(١) الجد الاولى الاجتهاد والثانى ما قابل الهزل (٢) الابعد

وَلِلرِّسَالَةِ مُلْحَقٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أُولَئِكَ الشُّبَّانَ إِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ على أَنْفُسِهِمْ بِالْإِنْصَاتِ إلى خُطَبِ كِبَارِ الْقَوْمِ الَّذِينَ حَضَرُوا حَفْلَةَ تَوْزِيعِ الْجَوَائِزِ فى السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ بِتِلْكَ الْمَدْرَسَةِ الَّتِى هِىَ مِنْ مُبْتَكَرَاتِ(١) الهِمَمِ الشَّخْصِيَّةِ(٢) كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فى أَغْلَبِ الْمُنْشَآتِ الْإِنْكلِيزِيَّةِ، وَقَدْ جَعَلَ أُولَئِكَ الْكُبَرَاءِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةَ تَحْتَ حِمَايَتِهِمْ وَأَكْثَرُهُمْ مِنَ الَّذِينَ اشْتَغَلُوا بِالِاسْتِعْمَارِ أَوِ الْمُشْتَغِلِينَ بِهِ إِلى الْآنَ، وَيَجِدُ الْقَارِئُ فِى خُطَبِهِمْ تَحْذِيراً لِلشُّبَّانِ مِنَ الصُّعُوبَاتِ الَّتِى هُمْ قَادِمُونَ عَلَيْهَا وَتَنْبِيهاً لَهُمْ إِلى وُجُوبِ مُغَالَبَتِهَا بِقُوَّتِهِمِ الذَّاتِيَّةِ وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ قَوْلَهُمْ هَذَا لَا يَثْنِى مِنْ هِمَمِ أُولَئِكَ الطَّلَبَةِ بَلْ إِنَّهُ يَزِيدُ فِيهَا رُوحَ الْغَيْرَةِ . ذَلِكَ لِأَنَّ تَصَوُّرَ الصُّعُوبَةِ يُثِيرُ عَزِيمَةَ الْأَقْوِيَاءِ كَمَا يُثَبِّطُ هِمَّةَ الضُّعَفَاءِ وَمِنْ كَلَامِ اللورد «كنونسفرد» إِلَيْهِمْ مَا يَأْتِى : «يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقْسُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّ أَمَامَكُمْ مِنَ الْمَتَاعِبِ مَا لَا بُدَّ لَكُمْ مِنَ التَّغَلُّبِ عَلَيْهِ وَرُبَّمَا هَلَكَ زَرْعُكُمْ وَمَاتَتْ مَاشِيَتُكُمْ فَلَا تَنْحَلُّ عَزَائِمُكُمْ أَمَامَ الْمُصِيبَةِ بَلْ قُومُوا كَمَا يَقُومُ الشُّجَاعُ وَغَالِبُوا تِلْكَ الْحَوَادِثَ وَاسْعَوْا فِى تَعْوِيضِ مَا خَسِرْتُمْ» ذَلِكَ حَقّاً هُوَ التَّزَاحُمُ فِى الْحَيَاةِ . وَكَأَنِّى بِهَذَا الْقَوْلِ نَشِيداً تَتَرَنَّمُ بِهِ الْجُمُوعُ يَوْمَ تَقُومُ الْأُمَّةُ سَائِرَةً نَحْوَ افْتِتَاحِ الْعَالَمِ لَا كَفَتْحِ

(١) مخترعات (٢) يريد همم الافراد

الْبرُوسيْا ، وقال السير «جراهام برى» وَهوَ الْوَكيلُ الْعَامُّ فى مُسْتَعْمرَةِ فِكْتُورْيَا : « إنَّكُمْ تجِدُونَ فِى جَميع أَنحَاءِ المَسْكُونَةِ أَرْضاً يخفقُ عَلَيْهَا الْعَلمُ الْبرِيطَانىُّ ، فَلَكُمْ أنْ تَسِيرُوا مِنْ أقاليمِ كَنَدَا البَارِدَةِ إلى نَوَاحِي إفْرِيقْيا الْحَارَّةِ أَوْ إلى بِلَادِ أُوسْترالْيَا ، وَحَيْثُما وُجدْتُمْ تَرَوْنَ الْعَلَمَ الَّذِى يُقَاوِمُ الْحُرُوبَ وَعَوَاصِفَ الرِّيَاحِ مُنْذُ أَلْفِ عَامٍ ، وَالْيَوْمُ يَوْمُكُمْ ، فافقهُوا الْخُطَّةَ الَّتى يجبُ عَلَيْكُمْ اتبَاعُهَا ، وَتَبَيَّنُوا مَا أَرَدْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِيهَا ، وَاتَّخذُوا لَكُمْ فى ذَلِكَ سَبيلاً مَعْرُوفاً ، وَلاَ تَتَرَدَّدُوا فِى أمْرِكُمْ بَلْ كُونُوا شُجْعاناً ذَوِى إقْدَامٍ وَجدٍّ وَاحْتِمالٍ ، عَلى أَنِّى لا أَظُنُّ أَنَّ شَابًّا إنْكليزِيًّا تقعدُ بِهِ الْحَاجَةُ وَأَمَامَهُ مُسْتَعْمَرَاتٌ كَثِيرَةٌ كلُّهَا مَفْتُوحَةُ الْأَبْوَابِ لَهُ ، وَمُعَوَّلُ نَجَاحِهِ فِيهَا عَلَيْهَا ، لَستُ الْآنَ شَابًّا مِثْلَكُمْ فَقَدْ مَضَى أَرْبَعُونَ عَاماً مِنْ يَوْمِ أَنْ سَافَرْتُ وَمَا كُنْتُ أَمْلِكُ مِنَ المَزَايَا مَا أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ ، كُنْتُ غرِيبًا قَلِيلَ المَالِ لاَ خِبْرَةَ لِى بالمَسَائِلِ الْفَنِّيَّةِ وَلا صَدِيقَ فِى الْبِلَادِ الَّتى قَصَدْتُهَا ، وَمعَ ذَلِكَ قدْ وَصَلْتُ إلى رُتْبَةِ الْوَزِيرِ الْأَوَّلِ فِى تِلْكَ الْمُسْتَعْمَرَةِ وَتَرَأَّسْتُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ عَلى سُلْطَةِ التَّشْرِيعِ فِيهَا »

هَذَا وَإِذَا ذَكَرَ الْقَارِئُ أَنَّ ذَلِكَ التَّعْلِيمَ لَيْسَ مَقْصُوراً على شُبَّانِ مَدْرَسَةٍ وَاحِدَةٍ ، بَلْ هُوَ عَامٌّ فِى الْأُمَّةِ بتَمامِهَا ، وَالْغَرَضُ مِنْهُ الاسْتِعْدَادُ لِذَلِكَ التَّزَاحُمِ فى الْحَيَاةِ ، وَعلِمَ أَنَّ الَّذِى يَنْتَشِرُ فى الْخَارِجِ

هُوَ تِلْكَ الْأُمَّةُ بِتَمامِها صاحِبَةِ تِلْكَ التَّرْبِيَةِ الْقَوِيَّةِ الْفَعَّالَةِ ، تَجَلَّتْ الْأَحْوالُ كَما يَنْبَغِى ، وَعَلِمَ لِمَنِ الْمُسْتَقْبَلُ وَلِمَنِ الدُّنْيا ، وَاخْتارَ لِأَبْنائِهِ التَّرْبِيَةَ الْإِنْكِلِيزِيَّةَ السَّكْسُونِيَّةَ لَا التَّرْبِيَةَ الْأَلْمانِيَّةَ إِنْ أَرادَ أَنْ يَدْرَأَ عَنْهُمْ (١) طَوارِئَ الْأَيَّامِ ، وَكَيْفَ يَتَأَتَّى أَنْ يَعِيشَ الشَّابُّ الْأَلْمانِيُّ بِجانِبِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْجَبَّارِ الَّذِى تَرَبَّى تِلْكَ التَّرْبِيَةَ الَّتِى شَرَحْناها وَهُوَ إِنَّما تَلَقَّى فِى إِحْدَى الْمَدارِسِ الْأَلْمانِيَّةِ تَعْلِيماً مَقْصُوراً عَلَى تَمْجِيدِ الْحُكُومَةِ الْبُرُوسْيانِيَّةِ وَالْجُنْدِيَّةِ الْبُرُوسْيانِيَّةِ فَلَا يَعْرِفُ مِنْ تَخْطِيطِ الْأَرْضِ إِلَّا الْبُرُوسْيا ، وَلَا مِنَ التَّارِيخِ إِلَّا الْبُرُوسْيا أَوْ تارِيخَ مُلُوكِها ، وَلَا يَعْرِفُ شَيْئاً مِنْ حالَةِ الدُّنْيا الْخارِجَةِ لِاحْتِجابِهِ عَنْها ، وَلَا كَيْفَ تَكُونُ مُزاوَلَةُ الْأَعْمالِ الْحُرَّةِ ثُمَّ أُلْقِىَ بِهِ فَجْأَةً بَعْدَ هَذا فِى إِحْدَى الْأَقاصِى كَأَنِّى بِكَ أَيُّها الْقارِئُ وَقَدْ عَرَفْتَ أَىَّ الرَّجُلَيْنِ أُعِدَّ لِلْمُسْتَقْبَلِ الَّذِى قَضَتْ بِهِ حالَةُ الدُّنْيا الْجَدِيدَةِ عَلَى الْأُمَمِ الْجَدِيدَةِ وَأَيُّهُما يَكُونُ ذا الْهِمَّةِ فِى الْأَعْمالِ الْعَظِيمَةِ الَّتِى لَمْ تَعُدْ مِنْ خَصائِصِ الْمُلُوكِ بَلْ مِنْ لَوازِمِ الْأُمَمِ كَما قالَ إِمْبَراطُورُ أَلْمانْيا

هاقَدْ بَيَّنْتُ لَكَ نِظامَيْنِ أَحَدُهُما صادِرٌ مِنْ أَقْوَى مَلِكٍ ، وَيُعْزَى (٢) الثَّانِى إِلَى بَعْضِ الْأَفْرادِ ، وَلَعَلَّ الْمَلِكَ الْعَظِيمَ لَمْ يَفْطُنْ إِلَى أَنَّ أَحْسَنَ

---

(١) يدرأ يدفع (٢) يعزى ينسب

طَرِيقٍ فِى تَشْجِيعِ الأُمَّةِ وَتَحْرِيضِهَا عَلَى العَمَلِ الذَّاتِىِّ إِنَّمَا هُوَ أَنْ يَنْسَحِبَ المَلِكُ لِأَنَّ الهِمَّةَ الشَّخْصِيَّةَ تَبْتَدِئُ حَيْثُ يَنْتَهِى تَدَخُّلُ الْحُكُومَاتِ

البَابُ الثَّالِثُ

﴿ فِيمَا إِذَا كَانَ نِظَامُ التَّعْلِيمِ بِالْمَدَارِسِ الْأَنْكلِيزِيَّةِ يُرَبِّى رِجَالاً ﴾

لَوْ أَرَدْنَا تَلْخِيصَ المَسْئَلَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِى صِيغَةٍ صَغِيرَةٍ لَقُلْنَا إِنَّ مَرْجِعَهَا التَّرْبِيَةُ إِذِ الْمُرَادُ بِحَلِّ الْمَسْئَلَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ هُوَ تَعْوِيدُ الشَّخْصِ حُبَّ الأَحْوَالِ الْجَدِيدَةِ فِى الْعَالَمِ وَكُلُّهَا تَطْلُبُ أَنْ يَصِيرَ الْمَرْءُ قَادِرًا عَلَى الِارْتِزَاقِ بِنَفْسِهِ لِأَنَّ الْوَسَائِلَ الْقَدِيمَةَ الَّتِى اعْتَادَ النَّاسُ اسْتِعْمَالَهَا صَارَتْ غَيْرَ مُفِيدَةٍ وَلَا وَافِيَةٍ بِالْمُرَادِ وَلَا شُبْهَةَ فِى أَنَّنَا صَائِرُونَ إِلَى زَمَنٍ يَتِمُّ فِيهِ التَّغَيُّرُ الَّذِى تَبْدُو لَنَا إِشَارَاتُهُ(١) سَوَاءٌ أَكَانَ فِيهِ سَعَادَةٌ لَنَا أَمْ شَقَاءٌ وَلَيْسَ الْحَرَجُ الَّذِى نَشْعُرُ بِهِ آتِيًا إِلَّا مِنَ التَّنَاقُضِ بَيْنَ وَسَائِلِ تَرْبِيَتِنَا الْمُؤَسَّسَةِ عَلَى طَرِيقَةٍ تَقَادَمَ عَهْدُهَا وَبَيْنَ مَا تَقْتَضِيهِ ظُرُوفُ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ ، فَإِنَّا لَا نَزَالُ نُرَبِّى رِجَالاً لَا يَصْلُحُونَ إِلَّا لِجَمْعِيَّةٍ قَدْ قَضَتْ نَحْبَهَا(٢) ، وَمِنَ الصَّعْبِ أَنْ نَعْدِلَ

(١) يريد انذاراته وما يشير به اليها (٢) قضى نحبه مات والكلام هنا استعارة

عَنْ تِلْكَ التَرْبِيَةِ ، وَلَسْتُ أَدرِى إِنْ كَانَ الْقُرَّاءُ يَشْعُرُونَ بِمَا أَقُولُ بالنظرِ لِأَنْفُسِهِمْ ، غَيْرَ أَنِّى شَاعِرٌ بِهِ فِي نَفْسِي فأحِسُّ أَنِّى رَجُلَانِ ، رَجُلٌ دَرَسَ عِلْمَ الاجْتِمَاعِ وَرَأَى مَا يَجِبُ فِعْلُهُ ، وَرَجُلٌ حُبِسَ فى دَائِرَةِ تَرْبِيَتِهِ الأُولَى ، وَرَزَحَ تَحْتَ أَثْقَال(١) مَاضِيهِ فَهُوَ غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى عِلْمِ الأَوَّلِ وَإِنْ أَتَى عَمَلاً فَهُوَ صَعْبٌ وَنَاقِصٌ ، كَأَنَّ رَأْسِى دَخَلَ فى نِظَامِ التَرْبِيَةِ الاسْتِقْلَالِيَّةِ الَّتِى تُقَوِّى الهِمَّةَ الذَّاتِيَّةَ وَظَلَّ جِسْمِي مَحْجُورًا عَلَيْهِ فى نِظَامِ التَرْبِيَةِ الاتِّكَالِيَّةِ الَّتِى تَضْغَطُهُ ، وَمِنْ هُنَا جَازَ عَلَيْنَا قَوْلُ (فيرجـل) الشَهِير « إِنَّ مِنَ الصَعْبِ أَنْ يَتَحَوَّلَ الإِنْسَانُ عَنْ تَرْبِيَتِهِ الأُولَى » ذَلِكَ لِأَنَّ الأُمَمَ قِسْمَانِ : فَمِنْهَا مَنْ تَرَبَّتْ عَلَى الاتِّكَالِ وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مَيْلِ أَفْرَادِهَا إِلى الاعْتِمَادِ عَلَى الْهَيْئَةِ أَوِ الْحِزْبِ مِنْ عَائِلَةٍ وَعَشِيرَةٍ وَقَبِيلَةٍ وَحُكُومَةٍ وَغَيْرِهَا لَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَأَكْبَرُ مِثَالٍ لِتِلْكَ الْأُمَمِ هُوَ الشَرْقُ ، وَمِنْهَا مَنْ تَرَبَّتْ عَلَى النَشْأَةِ الاسْتِقْلَالِيَّةِ أَىْ أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهَا يَعْتَمِدُ عَلَى نَفْسِهِ لَا عَلَى الْجَمَاعَةِ ، وَأَعْظَمُ مِثَالٍ فِيهَا هِيَ الْأُمَمُ الإِنكليزِيَّةُ السَكْسُونِيَّةُ

إِلَّا أَنَّ مَا صَارَ صَعْبًا عَلَيْنَا وَغَيْرَ مُمْكِنٍ فى السِّنِّ الَّتِي وَصَلْنَا إِلَيْهَا لَيْسَ كَذَلِكَ بِالنَّظَرِ إِلى أَبْنَائِنَا لِأَنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ كَالْعُودِ الأَخْضَرِ

(١) من قولهم رزخ البعير اذا سقط من الاعياء ولم يستطع نهوضا

يَسْهُلُ تقويمُهُ وَالتعليمُ في الصغر كالنقش في الحجر ، وإذْ قدْ حُكِمَ عَلَيْنا بالإقامةِ على شاطِئِ النهر وَجَبَ أنْ نَمُدَّ إليهمْ يَدَ المُساعدةِ كيْ يعبُرُوه ، ذلكَ هُوَ أكبرُ الأعمالِ بالنظرِ للآباءِ في هذهِ الأوقاتِ ، فمَنْ لمْ يفعلْهُ فقدْ أهملَ أوّلَ واجبٍ عليهِ ، ولابُدَّ أنْ يُعاقَبَ على إهمالِهِ في أبنائِهِ ، أمّا أنا فقدْ عقدتُ النيّةَ على أدائِهِ بالنسبةِ لأبنائي، ولهذا انتهزتُ فُرْصَةَ وُجودي المرّةَ الأخيرةَ ببلادِ الإنكليزِ ، واختبرْتُ أحوالَ التربيةِ هُناكَ مِنْ جهتِها العمليّةِ ، وها أنا ذا أعرضُ نتيجةَ اختباري على إخواني آباءِ العائلاتِ الفرنساويّينَ لعلّهُمْ يستفيدُونَ منهُ كما أفادَني

يجتهدُ الإنكليزُ أكثرَ منّا في إصلاحِ تربيةِ شُبّانِهِمْ على الدّوامِ مَعَ أنَّ التربيةَ الإنكليزيّةَ توافقُ حالةَ الحياةِ الحاضرةِ أكثرَ مِنْ تربيتِنا والنّجاحُ فيها عندَهُمْ أكثرُ مِنَ النّجاحِ عندَنا ، لِذلكَ ترَى فيهِمْ رجالاً أكبرَ هِمّةً وأقدرَ في الاعتمادِ على أنفسِهِمْ وهُمْ متقدّمونَ علينا في التمشّي مع تقلّباتِ العصرِ الجديدةِ ، فيشعرُونَ أكثرَ منّا بوجوبِ الاستعدادِ لما تقتضيهِ ، وهيَ تقتضي على الخصوصِ تربيةَ شُبّانٍ قادرينَ على الارتزاقِ بأنفسِهِمْ مهما صعبتْ متاعبُ الحياةِ وتنوّعتْ ظروفُها ، ومِنْ أجلِ هذا كانَ منهُمْ رجالٌ ذوُو عملٍ وعزيمةٍ لا موظّفونَ أوْ أديبُونَ لا يعرفونَ منَ الحياةِ إلاَّ

مَا تَعَلَّمُوهُ فى الْكِتَابِ[١] وَهُوَ فى الْوَاقِعِ شَىْءٌ يَسِيرٌ ، أَمَّا الثَّمَرَةُ الَّتى يَطْلُبُهَا الْإِنْكِلِيزُ فإِنَّهَا تُوَافِقُ كلَّ الْمُوَافقَةِ ظُرُوفَ التَّقَلُّبَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فى عَصْرِنَا هَذَا ، وَتِلْكَ الثَّمَرَةُ هِىَ الرِّجَالُ

دَارَ الْحَدِيثُ ذَاتَ يَوْمٍ فى (ادمبرج) بَيْنِى وَبَيْنَ أَحَدِ الْمُعَلِّمِينَ فى مَدْرَسَةِ (دونديه) عَلَى التَّعْلِيمِ فى إِنْكلترَا فَقَالَ لى : « غداً سَيَخْطُبُ رَجُلٌ لَعَلَّكَ تَسْتَفِيدُ مِنْهُ فى مَدْرَسَةِ (صوميد ميتنج) وَهُوَ مُؤَسِّسُ مَدْرَسَةٍ فى دَاخِلِيَّةِ الْبِلَادِ وَمُدِيرُهَا وَاسْمُهُ الدكتور (سسل ريدى) وَقَدْ دُهِشْتُ فى الْيَوْمِ الثَّاني لَمَّا تَعَارَفْنَا ، فَعَهْدِى بِنُظَّارِ الْمَدَارِسِ وَالْمُعَلِّمِينَ عِنْدَنَا أَنَّ لَهُمْ زِيًّا مَخْصُوصاً : يُنَمِّقُونَ لِبَاسَهُمْ وَيَخْتَارُونَ الْأَلْوَانَ الدَّاكِنَةَ[٢] وَيُفَضِّلُونَ الرِّدَاءَ الطَّوِيلَ حَتَّى تَلُوحَ عَلَيْهِمْ عَلَائِمُ الاحْتِفَالِ وَالتَّرَفُّعِ كَرَجُلٍ مُقْتَنِعٍ بِأَنَّهُ ذُو سُلْطَةٍ رُوحِيَّةٍ يُرِيدُ أَنْ يُظْهِرَهَا ، يَمْشُونَ بِبُطْءٍ مُتَجَهِّمِينَ[٣] ، وَيُكْثِرُونَ فى حَدِيثِهِمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ وَالْجُمَلِ الَّتى تَلِيقُ بِتَرْبِيَةِ عَقْلِ الشُّبَّانِ وَلُبِّهِمْ ، وَقَدْ بَلَغَتْ مِنْهُمُ الْأَنَفَةُ[٤] مُنْتَهَاهَا ، لٰكِنِّى وَجَدْتُ الرَّجُلَ الَّذِى قَبَضَ عَلَى يَدِى بِشِدَّةٍ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ بِالْمَرَّةِ ، فَهُوَ

---

(١) الكتاب واحد الكتب أى إلا ما تعلموه من الكتب (٢) الداكنة لون يضرب إلى السواد (٣) عبوسين (٤) يريد العجرفة والغطرسة

أَشْبَهُ بِرَجُلٍ يُزَاوِلُ الْأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ، طَوِيلُ الْقَامَةِ، نَحِيفُ الْجِسْمِ، قَوِيُّ الْعَضَلَاتِ، تَرْكِيبٌ يُوَافِقُ جَمِيعَ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَقْتَضِي سُرْعَةَ الْحَرَكَةِ وَاللِّينَ وَالْإِقْدَامَ، بِلِبَاسٍ يُوَافِقُ تِلْكَ الصِّفَاتِ كَأَنَّهُ سَائِحٌ إِنْجِلِيزِيٌّ، فَقَدِ ارْتَدَى ثَوْبًا (سُتْرَةً) صَغِيرَةً مِنَ الْجُوخِ رَمَادِيَّةَ اللَّوْنِ فِي وَسَطِهَا حِزَامٌ، ثُمَّ سَرَاوِيلَ قَصِيرَةً[1]، وَجَوْرَبًا طَوِيلًا يَنْثَنِي تَحْتَ الرُّكْبَةِ، وَحِذَاءً مَتِينًا، وَعَلَى رَأْسِهِ قَلَنْسُوَةٌ صَغِيرَةٌ[2] وَقَدْ وَصَفْتُهُ لِأَنَّ هَيْئَتَهُ تُمَثِّلُ الْمَدْرَسَةَ الَّتِي سَأَشْرَحُ حَالَهَا لِلْقُرَّاءِ، فَالرَّجُلُ مِثَالُ الْعَمَلِ بِالتَّمَامِ.

وَلَمَّا كَانَ[3] الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ حَيْثُ الدُّرُوسُ مُعَطَّلَةٌ رَكِبْتُ مَعَ الدُّكْتُورِ (ريدى) فِي إِحْدَى الْعَرَبَاتِ الْمُخَصَّصَةِ بِنُزْهَةِ أَعْضَاءِ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ، وَقَضَى مَسَافَةَ الطَّرِيقِ وَوَقْتًا كَبِيرًا مِنَ النَّهَارِ يَشْرَحُ لِي حَالَتَهَا وَنِظَامَهَا وَيُجِيبُنِي عَمَّا كُنْتُ أَسْأَلُ عَنْهُ وَيَسْأَلُنِي عَمَّا أُرِيدُ، وَمِمَّا قَالَهُ لِي: (إِنَّ التَّعْلِيمَ الْحَالِيَّ لَمْ يَعُدْ مُوَافِقًا لِظُرُوفِ الْحَيَاةِ الْعَصْرِيَّةِ فَإِنَّهُ يُرَبِّي رِجَالًا هُمْ أَلْيَقُ بِالْمَاضِي مِنْهُمْ بِالزَّمَنِ الْحَاضِرِ، وَأَكْثَرُ شُبَّانِنَا يَقْتُلُونَ قِسْمًا كَبِيرًا مِنْ وَقْتِهِمْ فِي دَرْسِ اللُّغَاتِ الْمُنْدَثِرَةِ[4] وَلَنْ يَسْتَعْمِلَهَا النَّزْرُ الْيَسِيرُ مِنْهُمْ فِي حَيَاتِهِ

(١) السراويل كلمة فارسية معناها اللباس الذى يستر النصف الاسفل من الجسم والمراد هنا « بنطلون » (٢) يريد قبعة « برنيطة » (٣) كان هنا تامه (٤) المندثرة من دثر الرسم درس وعفا.

إِلاَّ قَلِيلاً ، وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ يَكَادُونَ يَمُرُّونَ كَالْخَيَالِ فِي تَعَلُّمِ اللُّغَاتِ الْعَصْرِيَّةِ وَالْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ ، ثُمَّ يَمْضُونَ عَلَى جَهْلٍ تَامٍّ بِجَمِيعِ مَا يَجِبُ مَعْرِفَتُهُ فِي الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ ، أُرِيدُ اسْتِعْمَالَ الْأَشْيَاءِ وَالْوُقُوفَ عَلَى مَنْفَعَتِهَا فِي الْهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، كَذَلِكَ تَحْتَاجُ أَلْعَابُنَا إِلَى الْإِصْلَاحِ كَمَا يَجِبُ إِصْلَاحُ طُرُقِ الشُّغْلِ فَإِنَّ الْإِفْرَاطَ فِي الْعَمَلِ حَاصِلٌ كَالْإِفْرَاطِ فِي الدَّرْسِ ، غَيْرَ أَنَّ الْإِصْلَاحَ صَعْبٌ لِخُضُوعِ مَدَارِسِنَا إِلَى تَأْثِيرِ الْمَدَارِسِ الْكُلِّيَّةِ الَّتِي تَأْخُذُ طَلَبَتَهَا مِنْ تَلَامِذَتِنَا ، وَتِلْكَ الْمَدَارِسُ الْكُلِّيَّةُ غَيْرُ مُتَمَكِّنَةٍ مِنْ نَفْسِهَا شَأْنَ جَمِيعِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْقَدِيمَةِ ، كَأَنَّ عَامِلاً خَفِيًّا يَحُومُ[1] فَوْقَ رُءُوسِ نُظَّارِهَا وَمُعَلِّمِيهَا وَلَا أَرَاهُ إِلاَّ تَمَسُّكَهُمْ بِالتَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ وَالْعَوَائِدِ السَّابِقَةِ وَهِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنَ الْقُوَّةِ نَفْسِهَا) وَلَمَّا سَأَلْتُهُ وَكَيْفَ حِينَئِذٍ يَتَأَتَّى لِمَدْرَسَتِكُمْ أَنْ تُغَيِّرَ هَذَا التَّعْلِيمَ أَجَابَنِي (إِنَّ غَرَضَنَا هُوَ الْوُصُولُ إِلَى تَرْبِيَةِ جَمِيعِ الْمَلَكَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ إِذْ يَجِبُ أَنْ يَصِيرَ الطِّفْلُ رَجُلاً كَامِلاً حَتَّى يَكُونَ قَادِرًا عَلَى الْوُصُولِ إِلَى الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْحَيَاةِ ، لِذَلِكَ يَنْبَغِي أَلاَّ تَكُونَ الْمَدْرَسَةُ وَسَطًا صِنَاعِيًّا لَا يُخَالِطُ فِيهِ الطَّالِبُ الْحَيَاةَ إِلاَّ بِالْكِتَابِ[2] ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ وَسَطًا عَمَلِيًّا يُقَرِّبُ بَيْنَ الطِّفْلِ وَطَبِيعَةِ

(١) حام الطائر وغيره حول الشيء دار (٢) أى بواسطة الكتاب أى الكتب

الْأَشْيَاءِ وَحَقِيقَتِهَا بِقَدْرِ الإِمْكَانِ ، فَلَا يَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ وحْدَهُ بَلْ يَقْرِنَ الْعِلْمَ بِالْعَمَلِ إِذْ هُمَا أَمْرَانِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَا مُتَلَازِمَيْنِ فِى الْمَدْرَسَةِ كَتَلَازُمِهِمَا فِى الخَارِجِ حَتَّى إِذَا دَخَلَ الشَّابُّ فِى الْحَيَاةِ لَا يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِى عَالَمٍ جَدِيدٍ لَمْ يَتَأَهَّبْ لَهُ وَحَتَّى لَا يُصْبِحَ فِى حَيْرَةٍ لَا يَدْرِى أَيْنَ قِبْلَةُ(١) الْأَعْمَالِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ عَقْلاً مُجَرَّدًا عَنِ الْمَادَّةِ بَلْ هُوَ عَقْلٌ يُلَازِمُهُ الْجِسْمُ ، فَيَجِبُ أَنْ تَعُمَّ التَّرْبِيَةُ هِمَّتَهُ وَإِرَادَتَهُ وَقُوَّتَهُ الْمَادِّيَّةَ وَمَهَارَتَهُ الْيَدَوِيَّةَ وَخِفَّتَهُ فِى حَرَكَاتِهِ) وَكُلَّمَا أَوْغَلَ(٢) الدكتور ريدى فى حَدِيثِهِ ازْدَدْتُ إِلْمَاماً(٣) بِالْغَرَضِ الَّذِى قَصَدَهُ مِنْ مَدْرَسَتِهِ ، غَيْرَ أَنِّى لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ تَمَاماً لِذَلِكَ طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُبَيِّنَ لِى كَيْفَ يَشْتَغِلُ الطَّلَبَةُ فِى يَوْمِهِمْ سَاعَةً فَسَاعَةً ، وَلَمَّا أَحْرَزْتُ(٤) جَوَابَهُ وَوَعَيْتُ بَيَانَهُ وَضَحَ لِى الْمُرَادُ وَأَدْرَكْتُ حَقِيقَةَ نِظَامِ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ وَسَأَذْكُرُهُ فِيمَا بَعْدُ ثُمَّ انْتَهَى بِنَا الْمَسِيرُ إِلَى كَنِيسَةِ (دو نفرملين) وَخَرَجْنَا مِنْهَا إِلَى مَنْزِلِ أَحَدِ الْمُوسِرِينَ(٥) لِتَنَاوُلِ الشَّاىِ اسْمُهُ موسيو (هنرى بيفردج) وَهُوَ مِنْ قُرَّاءِ مَجَلَّتِنَا (الْعِلْمِ الاجْتِمَاعِىِّ) وَمِنَ الْمُوَاظِبِينَ عَلَى سَمَاعِ دَرْسِنَا مُنْذُ ثَلَاثِ سِنِينَ وَقَدْ رَغِبَ إِلَىَّ أَنْ أُقِيمَ عِنْدَهُ إِلَى مَوْعِدِ

---

(١) يريد لايدرى أين يتجه (٢) أى أمعن وازداد وأصل الأيغال السير السريع والأمعان فيه وتوغل فى الأرض سار فيها وأبعد (٣) أصل الألمام المقاربة من الشىء والأحسن ازددت علما (٤) يريد وعيت (٥) الموسرين أى الأغنياء

شُرُوعِى فى إِلْقَاءِ خُطَبِي يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ صَبَاحاً ، فَسَأَلْتُهُ هَلْ يَعْرِفُ شَيْئاً عَنْ مَدْرَسَةِ الدكتور (ريدى) فَأَجَابَنِى أَنَّهُ زَارَهَا وَأَنَّهُ سَيُرْسِلُ ابْنَهُ الْأَوَّلَ إِلَيْهَا بَعْدَ شَهْرَيْنِ وَعُمْرُهُ الْآنَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً وَأَنَّهُ لَمْ يَكْتَفِ بِزِيَارَتِهَا بَلْ كَتَبَ إِلَى كَثِيرِينَ يَسْأَلُهُمْ عَنْ رَأْيِهِمْ فى تَعْلِيمِ أَبْنَائِهِمْ فِيهَا فَأَجْمَعُوا عَلَى اسْتِحْسَانِهَا وَفَوَائِدِهَا ، ثُمَّ قَدَّمَ إِلَىَّ رَسَائِلَهُمْ وَإِلَيْكَ نَصَّهَا

سَيِّدِى العزيز

مَكَثَ ابْنِى سَنَةً وَنِصْفَ سَنَةٍ فى مَدْرَسَةِ (أبو تصولم) وَكَانَ عُمْرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَقَدِ ازْدَادَ عَقْلُهُ فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا نَالَهُ فى الْمَدَارِسِ الْأُخْرَى وَتَرَعْرَعَ جِسْمُهُ (١) ، وَزَكَتْ أَخْلَاقُهُ (٢) وَسُرِرْتُ جِدًّا مِنْ نَتِيجَةِ تَعَلُّمِهِ ، أَمَّا الدكتور (ريدى) فَرَجُلٌ قَوِىُّ الاِسْتِقْلَالِ ، وُلِدَ مُرَبِّيًا ، وَعِنْدِى (٣) أَنَّ طَرِيقَةَ التَّعْلِيمِ فى تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ وَمَبَادِئَهَا جَيِّدَةٌ ، وَكَانَ ابْنِى يُحِبُّهَا وَيَمِيلُ إِلَى أَعْمَالِهَا وَأَظُنُّ أَنَّ جَمِيعَ التَّلَامِذَةِ مِثْلُهُ ، وَهِىَ كَامِلَةٌ مِنَ الْجِهَةِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَفِى اعْتِقَادِى أَنَّكُمْ لَا تَجِدُونَ أَحْسَنَ مِنْهَا لِتَرْبِيَةِ نَجْلِكُمْ

وَهَذَا كِتَابٌ آخَرُ

(١) يريد نما (٢) أى طهرت (٣) أى وفى رأيى واعتقادى

سيدى العزيز

رَدًّا عَلى خِطَابِ حَضرَتِكُمْ المُتعَلِّقِ بِمَدْرَسَةِ (ابوتصولم) أَعُدُّ نَفْسِي سَعِيدًا بِإِجَابَتِكُمْ عَن مَسْأَلَتِكُمْ

لَنا فى (ابوتصولم) وَلَدَان قَدْ حَسُنَتْ صِحَّتُهُمَا جِدًّا فِيهَا ، وَجَاءَنَا مِنْهُمَا خِطَابٌ يُخبِرَانِي فِيهِ بأَنَّ الثَّلَاثَةَ الأَشْهُرَ الْأُولَى انقَضَتْ بِهُدُوءٍ وأَنَّهُمَا مُمَتَّعَانِ بالرَّاحَةِ وَالْهَنَاء ، وَقَدْ تَوَفَّرَتْ فِيهَا شُرُوطُ الصِّحَّةِ فِي المَعِيشَةِ ، وَيَتعَلَّمُ التَّلَامِذَةُ كِفَايَةَ حَاجَاتِهِمْ بِأَنفُسِهِمْ ، وَأَنْ يَكُونُوا عَلى اسْتِقْلَالٍ تَامّ ، وَأَرَى أَنَّ التَّرْبِيَةَ الأَدَبِيَّةَ فِى تِلْكَ المَدْرَسَةِ رَفِيعَةٌ ، وَأَنَّ التَّلَامِذَةَ يُنتَخَبُونَ باعْتِنَاءٍ وَبينَ المُعَلِّمِينَ وَالطَّلَبَةِ حُرِّيَّةٌ تَامَّةٌ فِى المُعَامَلَاتِ ، وَاتَّفَقَ أَنَّ أَحَدَهُمْ أَقَامَ عِنْدَنَا فُسْحَةَ الْعِيدِ فَدُهِشْنَا مِنْ عَدَمِ التَّكلِيفِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنجَالِنَا ، وَلِهَؤُلَاءِ شَغَفٌ بِأَسَاتِذَتِهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ نَجْلُنَا الْبِكْرُ تَقَدُّمًا سَرِيعًا فى التَعْلِيمِ أَمَّا الثَّانى فَمُتَأَخِّرٌ إِلاَّ أَنَّهُ ذُو تَيَقُّظٍ أَكْبَرَ مِنْ ذِى قَبْلُ وصَارَ الاثْنَانِ أَكثَرَ نَشَاطًا ، فَفِى المَدْرَسَةِ مَجَالٌ فَسِيحٌ لِتَرْبِيَةِ الأَنَانِيَةِ الشَخْصِيَّةِ (١)

وَلَيْسَ فِيهَا تَعلِيمٌ دِينِيٌّ مَخْصُوصٌ وَإِنَّمَا تُتْلَى الصَّلَوَاتُ فِى الصَبَاحِ وَالمَسَاءِ وَفِيمَا خَلَا ذَلِكَ يَذْهَبُ التَّلَامِذَةُ إِلَى كَنِيسَةِ الأَبْرَشِيَّةِ إِذْ

(١) يريد الاستقلال وعدم الاعتماد على أحد

نَحْنُ مِنْ مَذْهَبِ الجماعَةِ ، وَيَرْتَاحُ أَوْلَادُنَا بِذَهَابِهِمْ إِلَى مَعْبَدِهِمْ وَفِي عَزْمِنَا أَنْ نُدْخِلَ نَجْلَنَا الثَّالِثَ تِلْكَ الْمَدْرَسَةَ لَكِنَّهُ لَا يَزَالُ صَغِيرًا لِأَنَّ عُمْرَهُ ثَمَانِي سِنِينَ وَنِصْفُ سَنَةٍ

وَهَذَا خِطَابٌ آخَرَ

سَيِّدِي العزيز

أُجِيبُ حَضْرَتَكُمْ بِكُلِّ ارْتِيَاحٍ عَنْ سُؤَالِكُمْ عَنْ مَدْرَسَةِ (ابوتصولم) لِأَنَّ ابْنِي فِيهَا مُنْذُ سَنَةٍ ، وَحَالَتُهُ مَرْضِيَّةٌ وَهُوَ يَسْتَفِيدُ كَثِيرًا ، وَلَا بُدَّ أَنَّكُمْ عَرَفْتُمْ شَأْنَ الْمَدْرَسَةِ مِنْ نِظَامِهَا ، وَهِيَ لَا تَهْتَمُّ بِالتَّعْلِيمِ الْمَدْرَسِيِّ الْمَشْهُورِ ؛ إِلَّا أَنَّهَا تَعْتَنِي بِاللُّغَاتِ الْعَصْرِيَّةِ وَبِكُلِّ مَا يُفِيدُ الشُّبَّانَ فِي حَيَاتِهِمْ ؛ وَلَهَا اهْتِمَامٌ عَظِيمٌ بِالصِّحَّةِ وَتَرْبِيَةِ الْأَخْلَاقِ ، وَأَطْعِمَتُهَا جَيِّدَةٌ مُنَوَّعَةٌ تُخَالِفُ الْأَطْعِمَةَ الَّتِي تُقَدَّمُ عَادَةً فِي الْمَدَارِسِ ، وَالْمَبَادِئُ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي النِّظَامِ يُعَلِّمُهَا بِغَايَةِ الضَّبْطِ وَالْإِحْكَامِ رَجُلٌ امْتَازَ بِالْعَقْلِ وَالْإِقْدَامِ ، ذُو مَيْلٍ خَاصٍّ إِلَى تَرْبِيَةِ الشُّبَّانِ ، أَمَّا عَدَدُ طَلَبَتِهَا فَخَمْسُونَ ، وَلِذَلِكَ يُعْتَنَى بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى حِدَتِهِ ، وَلَمْ أَمْكُثْ فِيهَا سِوَى يَوْمَيْنِ ، غَيْرَ أَنِّي أُعْجِبْتُ كَثِيرًا بِمَا شَاهَدْتُهُ مِنَ الْمَعِيشَةِ الرَّاضِيَةِ ، وَلَمْ أَجِدْ فِيهَا نَقْصًا إِلَّا عَدَمَ تَعْلِيمِ التَّوْرَاةِ الْمُقَدَّسَةِ وَلَعَلَّكَ لَا تَرَى ذَلِكَ عَيْبًا ، أَمَّا مَوْقِعُهَا فَصِحِّيٌّ قَدْ كَمُلَتْ فِيهِ وَسَائِلُ الرَّاحَةِ وَمُدَرِّسُوهَا عَلَى جَانِبٍ مِنَ

الظَرْفِ وَالْعِلمِ الْوَافِرِ لِأَنَّ الدكتورَ « ريدى » يَختارُهُمْ مِنْ ذَوِى الْأَخْلاقِ الْفَاضِلَةِ وَالْفَضَائِلِ الْكامِلَةِ لِكَىْ يَبُثُّوا حُبَّ الخَيْرِ فِى التَلامِذَةِ وَكَثِيرٌ مِنهُمْ مَاهِرُونَ فِى فَنِّ الْمُوسِيقَى اه

فَلَمَّا قَرَأْتُ هَذِهِ الرَسَائِلَ وَأَخَذْتُ حَظِّى مِنْ مُحَادَثَةِ موسيو « بيرفردج » عَوَّلْتُ عَلَى اخْتِبَارِ الْأَمْرِ بِنَفْسِى وَإِلَيْكَ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ أُفْتُتِحَتْ مَدْرَسَةُ الدكتور « ريدى » فِى شَهْرِ اكْتُوبَرَ سنة ١٨٨٩ بِمَدِينَةِ « ابو تصولم » مِنْ إِقْلِيم « دربيزير » وَهِىَ وَاقِعَةٌ فِى الْخَلاءِ وَسْطَ حَقْلٍ[١] زِرَاعِىٍّ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ التَرْبِيَةِ فِيهَا وَلَيْسَ حَوْلَهَا مُدُنٌ كَبِيرَةٌ وَمَعَ كَوْنِهَا قَرِيبَةَ الْعَهْدِ فَإِنَّ أَحَدَ الْمُتَخَرِّجِينَ مِنْهَا وَهُوَ موسيو « بادلى » أَنْشَأَ مَدْرَسَةً عَلَى مِثَالِهَا فِى جَنُوبِىِّ إِنْكِلْتِرَا باقليم « صوصكص » فى مدينة « بيدال » وَبَيْنَ يَدَىَّ الْآنَ مَقَالَةٌ نُشِرَتْ فى « مجلة المجلات » تَحْتَ عُنْوَانِ « تَجْرِبَتَانِ » « أبو تصولم » و « بيدال » وَصَفَ فِيهَا صَاحِبُهَا هَاتَيْنِ الْمَدْرَسَتَيْنِ وَأَضَافَ إِلَى الْوَصْفِ صُوَرًا تُمَثِّلُ مَا احْتَوَتَا عَلَيْهِ وَقَدْ تَوَجَّهْتُ إِلَى مَدْرَسَةِ بيدال مَرَّتَيْنِ وَشَاهَدْتُ بِنَفْسِى نِظَامَ التَّعْلِيمِ وَحَرَكَةَ الْأَعْمَالِ فِيهَا

لَيْسَ مِنْ شَبَهٍ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْمَدْرَسَتَيْنِ وَمَدَارِسِنَا الْكَبِيرَةِ

(١) الحقل الارض الطيبة يزرع فيها « الغيط »

الْـكَثِيرَةِ الْمُجَرَّدَةِ عَنِ الْمَظَاهِرِ بَلْ هُمَا أَشْبَهُ شَيْءٍ بِبَيْتَيْنِ خَلَوِيَّيْنِ مِنْ بُيُوتِ الإِنْـكِلِيزِ يَشْعُرُ فِيهِمَا الإِنْسَانُ بِالْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ لاَ الصِّنَاعِيَّةِ وَعَلَيْهِمَا سِيمَاءُ الْبُيُوتِ الْعَائِلِيَّةِ لاَ مَظَاهِرُ الثُّـكَنِ (١) الْعَسْكَرِيَّةِ أَوْ دِيَارِ السُّجُونِ يَكْتَنِفُهُمَا الْهَوَاءُ وَالضَّوْءُ وَالْخَلاَءُ وَالْخُضْرَةُ لاَ الرِّحَابُ الضَّيِّقَةُ الْمَحْصُورَةُ بَيْنَ الْمَبَانِي الْعَالِيَةِ ، وَهَذِهِ الْهَيْئَةُ الْخَارِجِيَّةُ تُحْدِثُ فِي الإِنْسَانِ شُعُوراً بِأَنَّ الْمُقَامَ هُنَاكَ لَذِيذٌ ، إِذْ لَيْسَ مِنْ مُوجِبٍ يَقْتَضِي أَنْ تَـكُونَ الْمَدْرَسَةُ فِي بِنَاءٍ خَشِنٍ ثَقِيلٍ ، فَإِذَا دَخَلَ الإِنْسَانُ فِي تِلْكَ الدَّارِ طَابَقَ شُعُورَهُ الْوَاقِعُ ، فَغُرْفَةُ الأَكْلِ عَائِلِيَّةٌ صِرْفَةٌ ذَاتُ مَنْظَرٍ بَهِيجٍ مَقْبُولٍ ، آنِيَتُهَا لَطِيفَةٌ ، وَمَائِدَتُهَا مَفْرُوشَةٌ بِالْقُمَاشِ الأَبْيَضِ ، وَأَثَاثُهَا نَقِيٌّ مُزَخْرَفٌ ، وَفِيهَا آلَةُ طَرَبٍ « بيانو » وَصُوَرٌ وَتَمَاثِيلُ وَكَرَاسِيٌّ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الاعْتِنَاءِ بِالْجَمْعِ بَيْنَ النَّافِعِ وَالْمَقْبُولِ ، وَمَنْ يُقَابِلْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَنَابِرِ الطَّعَامِ الْقَبِيحَةِ فِي مَدَارِسِنَا يَتَبَيَّنْ لَهُ مِنْ هَذِهِ الْمُقَارَنَةِ وَحْدَهَا الْفَرْقُ بَيْنَ طَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ فِي الْمَدْرَسَتَيْنِ

وَمِمَّا يَزِيدُ هَذَا الشُّعُورَ حُسْناً وَقَبُولاً مُشَارَكَةُ الْمُعَلِّمِينَ وَنَاظِرِ الْمَدْرَسَةِ وَزَوْجَتِهِ وَبَنَاتِهِ لِلطَّلَبَةِ عَلَى الْمَائِدَةِ كَأَنَّهُمْ جَمِيعاً عَائِلَةٌ

(١) جمع ثكنة وهى مقام الجند

وَاحِدَةٌ وَبِهَذِهِ الوَاسِطَةِ لاَ يَشْعُرُ الطِّفْلُ بِأَنَّهُ انتُزِعَ مِنَ الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْتَقِلْ إِلى عَالَمٍ صِنَاعِيٍّ جَدِيدٍ بَلْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلٍ إِلى مَنْزِلٍ مِثْلِهِ بِلاَ تَغْيِيرٍ ، وَصَحِيحٌ مَا جَاءَ فى كُرَّاسَةِ نِظَامِهَا مِنْ أَنَّهَا « مَنْزِلٌ كَامِلٌ لاَ مَكَانٌ يُقْتَصَرُ فِيهِ عَلى التَّعْلِيمِ » وَإِذْ قَدْ عَرَفْتَ الظَّرْفَ فَلْنَشْرَحِ المَظْرُوفَ وَأَرَى أَنَّهُ يَنْبَغِى الابْتِدَاءُ بِذِكْرِ سَاعَاتِ الْعَمَلِ فى الْيَوْمِ ثُمَّ نَرْجِعُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلى التَّفْصِيلِ

دقيقة	ساعة	
١٥	٦	قِيَامٌ مِنَ النَّوْمِ «وَفى الشِّتَاءِ حَيْثُ السَّاعَة ٧ » وَفُطُورٌ خَفِيفٌ
٣٠	٦	رِيَاضَةٌ جِسْمِيَّةٌ وَاسْتِعْمَالُ السِّلاَحِ
٤٥	٦	الدَّرْسُ الأَوَّلُ
٣٠	٧	صَلاَةٌ
٤٥	٧	فُطُورٌ وَهُوَ غِذَاءٌ كَامِلٌ مِنْ بَيْضٍ وَلَحْمٍ وَغَيْرِهِ يَعْقُبُهُ إِصْلاَحُ أَمَاكِنِ النَّوْمِ وَكُلُّ تِلْمِيذٍ يُعِدُّ سَرِيرَهُ بِنَفْسِهِ
٣٠	٨	الدَّرْسُ الثَّانِى
٤٥	١٠	طَعَامٌ خَفِيفٌ ، فَإِنْ كَانَ الْوَقْتُ صَحْوًا اشْتَغَلَ التَّلاَمِذَةُ بِالرِّيَاضَةِ الجِسْمَانِيَّةِ فى الْخَلاَءِ عَارِينَ عَنِ المَلاَبِسِ بَطْنًا وَظَهْرًا
١٥	١١	الدَّرْسُ الثَّالِثُ

دقيقة	ساعة	
٤٥	١٢	أَلْحَانٌ أَوْ عَوْمٌ فِي النَّهْرِ عَلَى حَسَبِ الْفُصُولِ
	١	طَعَامُ الْغَدَاءِ
٣٠	١	تَمْرِينٌ بِآلاتِ الطَّرَبِ
٤٥	١	أَلْعَابٌ وَأَشْغَالٌ فِي الْبُسْتَانِ وَالزِّرَاعَةِ أَوْ رِيَاضَةٌ بِالْمَشْيِ عَلَى الْقَدَمِ أَوِ الدَّرَّاجَةِ
	٤	اشْتِغَالٌ فِي الْمَصَانِعِ وَالْمَعَامِلِ
	٦	تَنَاوُلُ الشَّايِ
٣٠	٦	غِنَاءٌ وَمُذَاكَرَةُ رِوَايَاتٍ مُضْحِكَةٍ وَمُوسِيقَى وَرَقْصٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ
٣٠	٨	طَعَامُ الْعَشَاءِ ثُمَّ الصَّلَاةُ
	٩	نَوْمٌ

وَأَوَّلُ شَيْءٍ يُلاحِظُهُ الْقَارِئُ فِي هَذَا الْبَيَانِ تَنَوُّعُ الْأَعْمَالِ فِي سَاعَاتِ النَّهَارِ، وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ إِدَارَةَ الْمَدْرَسَةِ تَخْشَى تَكْلِيفَ الطَّلَبَةِ فَوْقَ جُهْدِهِمْ، وَتَرْغَبُ فِي تَرْبِيَةِ جَمِيعِ الْمَلَكَاتِ عَلَى السَّوَاءِ، لِذَلِكَ يَقْتَرِنُ التَّعْلِيمُ الْعِلْمِيُّ بِالتَّعْلِيمِ الْيَدَوِيِّ وَالتَّعْلِيمِ الصِّنَاعِيِّ، وَيَنْقَسِمُ بَيْنَ الْأَعْمَالِ كَمَا يَأْتِي:

دقيقة	ساعة	
	٥	أَشْغَالٌ عَقْلِيَّةٌ
٣٠	٤	تَمْرِينَاتٌ جِسْمِيَّةٌ وَأَشْغَالٌ يَدَوِيَّةٌ
٣٠	٢	أَشْغَالٌ صِنَاعِيَّةٌ وَرِيَاضَاتٌ عَادِيَّةٌ
	٩	نَوْمٌ
	٣	أَكْلٌ وَخُلُوٌّ عَنِ الْعَمَلِ

فَالمَجْمُوعُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً

وَلَيْسَ فى يَوْمِ الْأَحَدِ عَمَلٌ مَّا بَلْ يَقْضِيهِ الطَّلَبَةُ كما يَشَاءُون وَبالْجُمْلَةِ فَإِنَّ الْيَوْمَ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلاثَةِ أَقْسَامٍ: الصَّبَاحِ وَعَمَلُهُ عَقْلِيٌّ وَبَعْدَ الظُّهْرِ وَعَمَلُهُ يَدَوِيٌّ فى الْغَيْطِ أَوِ المَصَانِعِ ، وَالمَسَاءِ وَعَمَلُهُ الْفُنُونُ وَالْمُوسِيقَى وَالرِيَاضَاتُ الْعَادِيَّةُ وَلْنَبْحَثْ فِى كَيْفِيَّةِ اسْتِعْمَالِ كُلِّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الأَقْسَامِ الثَّلاَثَةِ لِنَقِفَ عَلَى نَتَائِجِهِ

أَمَّا التَعْلِيمُ الْعَقْلِيُّ فَمَدَارُهُ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْآتِيَةِ (تَقْرِيبُ الْمُسَمَّيَاتِ مِنْ أَسْمَائِهَا بِحَيْثُ يَتَعَوَّدُ الْفِكْرُ الانْتِقَالَ مِنَ الْمَادَّةِ إِلَى مَعْقُولِهَا وَتَرْبِيَةُ الطَلَبَةِ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَا تَعَلَّمُوهُ وَالرَّغْبَةُ فِى التَعَلُّمِ لِفَائِدَةِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ دُونِ تَحْرِيضٍ عَلَيْهِ بِمُكافَأَةٍ أَو امْتِيَازٍ) وَمِمَّا اشْتَهَرَ فى انْجِلْتِرَا وَفى الْوِلاَيَاتِ المُتَّحِدَةِ بِأَمْرِيكَا أَنَّ طَرِيقَةَ التَعْلِيمِ الَّتِى يُحَثُّ فِيهَا التِّلْمِيذُ عَلَى الْعَمَلِ بِالْمُكَافَأَةِ وَالتَّمْيِيزِ مَعِيبَةٌ لِأَنَّهَا تَجْعَلُ

الْغَيْرَةَ أَسَاسَ التَّقَدُّمِ بَدَلَ تَأْسِيسِهِ عَلَى مَحَبَّةِ الْوَاجِبِ وَهِيَ طَرِيقَةٌ تُوَلِّدُ فِي الإِنْسَانِ إِحْدَى الرَّذَائِلِ ، وَالْوَاجِبُ فِي تَرْبِيَةِ الْأَطْفَالِ وَجَعْلِهِمْ رِجَالاً أَنْ يُعَامَلُوا مُعَامَلَةَ الرِّجَالِ ؛ فَيَسْتَفِزُّهُمْ الْمُرَبِّي بِمُخَاطَبَةِ وِجْدَانِهِمْ عَلَى قَدْرِ الإِمْكَانِ ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي الدكتور (ريدى) أَنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لاَ تُضْعِفُ مِنْ رَغْبَةِ الْأَطْفَالِ فِي الْعَمَلِ بَلْ تُقَوِّيهَا لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مُتَعَلِّقَةً بِمُكَافَأَةٍ أَوْ امْتِيَازٍ بَلْ رَاجِعَةٌ إِلَى الْعَمَلِ نَفْسِهِ إِذْ يَجِبُ أَلاَّ يَفْهَمَ الطِّفْلُ أَنَّ الْمُكَافَأَةَ أَوْ الامْتِيَازَ هُوَ الْغَرَضُ النِّهَائِيُّ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَأَنَّ الْحَيَاةَ مُقَامَرَةٌ أَوْ إِرْضَاءٌ لِشَهْوَةِ التَّفَاخُرِ وَالإِعْجَابِ

وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَدْهَشَ الْفَرَنْسَاوِيُّونَ مِنْ مُطَالَعَةِ مَا تَقَدَّمَ لِأَنَّ طَرِيقَةَ التَّعْلِيمِ عِنْدَنَا مُنَاقِضَةٌ لِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ عَلَى خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ ، غَيْرَ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الَّتِي شَرَحْنَاهَا مَقُولٌ بِهَا مِنْ كَثِيرٍ مِنْ مُعَلِّمِي الإِنْكِلِيزِ الَّذِينَ وَصَلُوا فِي تَرْبِيَةِ الرِّجَالِ إِلَى دَرَجَةٍ عَالِيَةٍ ، وَالْأَمْرِيكَانِيُّونَ عَلَى هَذَا الرَّأْيِ أَيْضاً كَمَا أَخْبَرَنِي بِهِ موسيو (بول بيرو) فِي خِطَابٍ أَرْسَلَهُ إِلَيَّ جَاءَ فِيهِ أَنَّ مُدِيرَ مَدْرَسَةِ الْقِدِّيسِ (بول) فِي مدينة (مينيزونا) كَتَبَ إِلَيْهِ ضِمْنَ رِسَالَةٍ مَا يَأْتِي : (إِنَّا لاَ نُعْطِي جَوَائِزَ لِتَلاَمِيذِنَا ، وَلاَ نَطْلُبُ مِنْهُمْ أَنْ يَكْتُبُوا مَقَالاَتٍ أَبَداً نَعَمْ قَدْ يَتَّفِقُ أَنَّهُمْ يَبْحَثُونَ جَمِيعاً فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ غَيْرَ أَنِّي عِنْدَ

ما أُلْقِي عَلَيْهِمْ نَتِيجَةَ عَمَلِهِمْ أجعلُ كَلَامِي بِحَيْثُ لَا يَتَبَيَّنُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ أَحْسَنُهُمْ عَمَلًا بَلْ أقولُ لَهُ إِنَّ عَمَلَكَ هَذِهِ المَرَّةَ أَحْسَنُ مِنْ عَمَلِكَ فِي يَوْمِ كَذَا أَوْ أَقَلُّ مِنْهُ لِأَنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يَرَى الطِفْلُ نَفْسَهُ أَرْقَى مِنْ غَيْرِهِ بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَعرِفَ أَنَّهُ يَتَقَدَّمُ عَمَّا كانَ عَلَيْهِ هُوَ مُنْذُ أُسْبُوعٍ) وَلَهُمْ فِي تَعْلِيمِ اللُّغَاتِ الْعَصْرِيَّةِ اعْتِنَاءٌ عَظِيمٌ وَطَرِيقَةٌ تُخَالِفُ مَاجرَى عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ ، وَلَيْسَ مِنَ المُدْهِشَاتِ أَنْ أَقُولَ إِنَّا نَتَعلَّمُ اللُّغَاتِ وَلَكِنَّا لَا نَعْرِفُهَا ، فَمِنَ الْبَدِيهِيِّ أَنْ طَرِيقَةَ التَعْلِيمِ عِنْدَنا سَيِّئَةٌ وَيَظْهَرُ لِي أَنَّ طَرِيقَةَ موسيو (ريدى) أَضْمَنُ لِلْوُصُولِ إِلَى الغَرَضِ المَقْصُودِ فَيُبْدَأُ فى التَّعْلِيمِ بِاللُّغَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ مَدَى السَنَتَيْنِ الْاولَيَيْنِ أَيْ مِنَ الْعَاشِرَةِ إِلَى الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ ، ثُمَّ يُخْتَارُ الْكَلَامُ السَنَتَيْنِ الثَّانِيَتَيْنِ بِالفَرَنْسَاوِيَةِ ، ثُمَّ تُسْتَعْمَلُ اللُّغَةُ الْأَلْمَانِيَّةُ سَنَتَيْنِ ، ولاَ تُقرأُ اللُّغَةُ اللَّاتِينِيَّةُ إِلَّا بَعدَ ذَلِكَ ، وكَذَلِكَ اللُّغَةُ اليُونَانِيَّةُ لِمَنْ أَرَادَهَا مِنَ الطَلَبَةِ وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذا التعليمَ بِتِلْكَ اللُّغَاتِ المُخْتَلِطَةِ لَا يُنْتِجُ الثَمَرَةَ المَقْصُودَةَ إِلَّا إِذَا كانَتِ الطَرِيقَةُ المُسْتَعْمَلَةُ عَمَلِيَّةً تَرْجِعُ بِالنَظَرِ إِلَى اللُّغَاتِ الْحَيَّةِ إِلَى التَّكَلُّمِ أَوَّلًا وَحِفْظِ النَّحْوِ ثَانِيًا عَلَى قَدْرِ اللَّازِمِ فى الاسْتِعْمَالِ؟ وَهِيَ طَرِيقَةٌ جَهِلَهَا مُدَرِّسُو اللُّغَاتِ غَالِبًا مَعَ أَنَّهَا طَبِيعِيَّةٌ لِأَنَّ الطِفْلَ يَبْدَأُ بِتَقْلِيدِ أَبَوَيْهِ فِي الْكَلَامِ مِنْ غَيْرِ عَمْدٍ وَلَا الْتِفَاتٍ وَيَتَمَكَّنُ مِنَ

اسْتِعْمَالِهِ وَهوَ شيْءٌ غيْرُ يَسِيرٍ ، فلِي أَرْبعَةُ أَطْفَالٍ سِنُّ أَكْبَرِهِمْ تِسْعُ سِنِينَ ، وَكلُّهُمْ يَتَعَلَّمُونَ الْأَلْمَانِيَّةَ على هَذِهِ الطرِيقَةِ بوَاسِطَةِ الْكلامِ مَعَ إِحْدَى الْمُرَبِّيات ، وَأَرَاهُمْ يَتقدَّمُونَ فِيهَا تَقدُّمًا سَرِيعًا فإِنَّهُمْ بعْدَ أَرْبعَةِ أَشْهُرٍ صَارُوا يَتَكلَّمُونَ بتِلْكَ اللُّغَةِ فِي أَلْعَابِهِمْ ، وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّهُمْ صَارُوا يَسْتَعْمِلُونَهَا فِي خِصَامِهِمْ وَهُمُ الْيَوْمَ يَتعَلَّمُونَ نَحْوَهَا بوَاسِطَتِهَا كمَا يَقرَءُونَ النَّحْوَ الفرَنْسَاوِيّ باللُّغَةِ الفرَنْسَاوِيَّةِ وَقَدْ أَتَيْتُ بِهَذَا الْمِثَالِ الحَاضِرِ بينَ يَدَيَّ لِأُبَرْهِنَ على طَرِيقَةِ حُسْنِ التَعليمِ فِي الْمَدْرَسَةِ الجَدِيدَةِ إِنْ كانَ هُنَاكَ احْتِيَاجٌ لِلدَّلِيلِ ، وَلِكَيْ لا يَنْسَى التلامِيذُ اللُّغَةَ الَّتِي تَعلَّمُوهَا فِي اشْتِغَالِهِمْ بِغَيْرِهَا وَجَبَ أَنْ يَتَكلَّمُوا بِهَا سَاعَاتٍ مَعْدُودَةً فِي النهَارِ كَذَلِكَ هُمْ يَتعَلَّمُونَ عِلْمَ الْحِسَابِ فبَعْدَ أَنْ يَقرَءُوا الْقَوَاعِدَ يُطَبِّقُونَهَا عَلَى الْعَمَلِ كأَنْ يُكَلَّفُوا صُنْعَ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَى التَّنْسِيبِ بَيْنَ أَجزَائِهِ ، وَمِنْ ذَلِكَ اشْتِغَالُهُمْ بالمِسَاحَةِ وَتُعْطَى إِلَيْهِمْ مَصَارِيفُ الْعِزْبَةِ وَالْبُسْتَانِ وَالمَصْنَعِ وَالْأَلْعَابِ وَأَدَوَاتِ الْكِتَابَةِ وَالمَعْمَلِ الْكِيمِيَائِيّ وَالرَسْمِ وَالْمَأْكَلِ وَحَطَبِ التَدْفِئَةِ لِيَحْسُبُوهَا وَيَفْصِلُوا كلَّ شَيْءٍ عَنِ الْآخَرِ ، وَمِنَ الظَاهِرِ أَنَّ هَذِهِ الطرِيقَةَ تجْعَلُ الدَرْسَ مَقبُولا إِذْ تتَبَيَّنُ فَائِدَتُهُ لِكُلِّ طَالِبٍ ، فيَتَعلَّمُونَ مِنَ الْأَرْقَامِ كَيْفَ يُدِيرُونَ حَرَكَةَ الْمَنْزِلِ ، وَيَتَوَلَّوْنَ إِدَارَةَ المَصْنَعِ أَوِ المَتْجَرِ .. وهكذا يصِيرونَ رِجَالا عَامِلِينَ

مُتَّصِفِينَ بِمَا تَقْتَضِيهِ مَعِيشَةُ الِاجْتِمَاعِ

وَيُبْنَى تَعْلِيمُ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ عَلَى النَّظَرِ الذَّاتِيِّ (١) وَهُوَ سَهْلٌ لِأَنَّ الْمَدْرَسَةَ قَائِمَةٌ فِى الْخَلَاءِ فَلَا يَتْعَبُ الطَّلَبَةُ فِى جَمِيعِ الْعَنَاصِرِ مِنْ جَمَادٍ وَنَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَيَتَعَلَّمُونَ كَيْفَ يَعِيشُ الْحَيَوَانُ كَمَا يَتَعَرَّفُونَ عَادَاتِهِ وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ أَجْزَائِهِ الْخَارِجِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفُوا أَعْضَاءَهُ الدَّاخِلِيَّةَ وَهَيْكَلَهُ الْخَفِىَّ ؛ وَيَعْرِفُونَ شَكْلَ النَّبَاتِ وَتَرْكِيبَهُ قَبْلَ مَعْرِفَةِ أَقْسَامِهِ وَأَنْوَاعِهِ ، وَأَسْمَاءَ النُّجُومِ وَمَظَاهِرَهَا قَبْلَ قَوَانِينِ حَرَكَاتِهَا ، وَيَتَوَصَّلُونَ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ بِالرِّيَاضَاتِ الَّتِى قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا وَبِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ يَصِيرُ الْعِلْمُ طَبِيعِيًّا عِنْدَهُمْ فَيَقِفُونَ عَلَيْهِ كَمَا يَنْبَغِى وَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ إِقْبَالاً وَيَدْخُلُ أَذْهَانَهُمْ بِسُهُولَةٍ ثُمَّ يَرْتَسِمُ فِيهَا ارْتِسَاماً ، وَيَخْرُجُ الطَّالِبُ مِنَ الدَّرْسِ مَيَّالاً إِلَى الْإِكْثَارِ مِنْ مَعْلُومَاتِهِ حَتَّى بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ لِأَنَّ فَائِدَتَهُ ظَاهِرَةٌ لَدَيْهِ لَا كَالْمَلِيلِ الَّذِى يَشْعُرُ بِهِ الْمُتَعَلِّمُ عَلَى طَرِيقَتِنَا إِذْ يَتَوَلَّاهُ الْمَلَلُ غَالِباً

وَتَقْرُبُ طَرِيقَةُ تَعْلِيمِ التَّارِيخِ مِنَ الطَّرِيقَةِ الْمُتَّبَعَةِ عِنْدَنَا فِى تَعْلِيمِ الْعِلْمِ الِاجْتِمَاعِىِّ ، فَيَجْتَهِدُ الْمُعَلِّمُ فِى بَيَانِ الْفَائِدَةِ مِنْهُ بِتَقْرِيبِ الْعِلَلِ مِنْ مَعْلُولَاتِهَا وَبَيَانِ مَدْلُولَاتِ الْوَقَائِعِ لَا فِى تَعْبِئَةِ الذَّاكِرَةِ بِالْحَوَادِثِ وَالتَّوَارِيخِ كَمَا يَجْتَهِدُ فِى بَيَانِ النِّسَبِ بَيْنَ طَبِيعَةِ الْبِلَادِ وَسِيَاسَتِهَا وَتَقَدُّمِ

(١) يريد الاختبار الشخصى

تِجَارَتِهَا ، وَيَبْدَأُ بِتَعَلُّمِ التَّارِيخِ الإِنْجِلِيزِيِّ ، ثُمَّ بِمُقْتَطَفَاتٍ مِنَ التَّارِيخِ الْعَامِّ ، فَيَتَعَلَّمُ الطَّلَبَةُ مِنْ تَارِيخِ الْيُونَانِ أُصُولَ الأُمَمِ الْحَاضِرَةِ ، وَمِنْ تَارِيخِ الرُّومَانِ مِثَالَ حُكُومَةٍ عَظُمَتْ فِيهَا السُّلْطَةُ وَكَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الْمُسَاعِدَاتِ عَلَى انْتِشَارِ الأُمَّةِ فِى الْخَارِجِ ، ثُمَّ التَّعْلِيمُ وَاحِدٌ لِجَمِيعِ الطَّلَبَةِ حَتَّى يَبْلُغُوا الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ وَبَعْدَ ذَلِكَ يَخْتَلِفُ لِكُلِّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ الْعَمَلِ الَّذِى يَتَوَخَّاهُ بَعْدَ إِتْمَامِ دَرْسِهِ ، وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَكُونُوا مُدَرِّسِينَ أَوْ مِنْ أَرْبَابِ الْحِرَفِ الأَدَبِيَّةِ أَوْ مُوَظَّفِينَ أَوْ مِنَ الزُّرَّاعِ أَوِ الصُّنَّاعِ أَوِ التُّجَّارِ أَوِ الْمُسْتَعْمِرِينَ وَكُلٌّ وَاحِدٍ يَجْتَهِدُ فِى الْعِلْمِ الَّذِى يُوَافِقُ إِرَادَتَهُ ، وَفِى ذَلِكَ مِنَ التَّسْهِيلِ وَاللِّينِ فِي التَّعْلِيمِ مَا تَعْظُمُ فَائِدَتُهُ مِمَّا لَا يُضْطَرُّ مَعَهُ جَمِيعُ الْمُتَعَلِّمِينَ إِلَى قِرَاءَةِ دَرْسٍ وَاحِدٍ لَا يُفِيدُهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَهُنَا يُقَالُ إِنَّ التَّعْلِيمَ مَقْصُودٌ لِمَنْفَعَةِ الطَّلَبَةِ لَا أَنَّ الطَّلَبَةَ خَاضِعُونَ لِلتَّعْلِيمِ

وَخُلَاصَةُ الْقَوْلِ يَدُورُ مِحْوَرُ التَّعْلِيمِ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ الْمَعَارِفِ النَّافِعَةِ فِى الْحَيَاةِ

وَلِتَلَقِّى الدُّرُوسِ الَّتِى بَيَّنَّاهَا ثَلَاثَةُ أَوْقَاتٍ كُلُّهَا فِى الصَّبَاحِ وَمَا بَعْدَ الظُّهْرِ مِنَ النَّهَارِ مُخَصَّصٌ بِالأَعْمَالِ الْيَدَوِيَّةِ وَالرِّيَاضَاتِ الْجِسْمِيَّةِ ، هَكَذَا يُرَبَّى الْجِسْمُ بَعْدَ الْعَقْلِ ، وَلَا شَكَّ فِى أَنَّ الآبَاءَ مِنَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ يَدْهَشُونَ كَثِيراً مِنَ الْقِسْمِ الأَخِيرِ لِأَنَّ تَرْبِيَةَ

الْجِسْمِ عِنْدَنا فِى غايَةِ الْإِهْمالِ ، فَقَدْ رَأَيْتُ أَخِيراً تلميذاً عُمْرُهُ تِسْعُ سِنِينَ مِنْ طَلَبَةِ مَدْرَسَةِ « سانيسلامس » الْخارِجِينَ يَشْتَغِلُ طُولَ النَّهارِ فيها ثُمَّ يَذْهَبُ إِلى الْبَيْتِ مُنْكَبًّا فى المَساءِ على دَرْسِهِ إِلى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ أَو الْعاشِرَةِ ، وَهُوَ تَكليفٌ مُضِرٌّ بِالصِّحَّةِ وَغَيْرُ مُفِيدٍ فى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ . وَسَبَبُهُ وَهْمُ الْبَعْضِ بِأَنَّ التِّلْميذَ يُحَصِّلُ مِنَ الْعُلُومِ عَلى قَدْرِ الزَّمَنِ الَّذِى يَشْتَغِلُ فيهِ

وَيَقْضِى الطَّلَبَةُ مِنَ السَّاعَةِ الْأُولى وَالدَّقيقَةِ الْخَامِسَةِ وَالْأَرْبَعِينَ إِلى السَّاعَةِ السَّادِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ مُشْتَغِلِينَ فى الْبُسْتانِ وَالزِّرَاعَةِ وَالمَصانِعِ وَالرِّيَاضَةِ بِالْمَشْىِ عَلَى الْقَدَمِ أَو الدَّرَّاجَةِ ، وَالْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ كَما هُوَ مَذْكُورٌ فى الْكُرَّاسَةِ « إِنَّمَا هُوَ التَّرْبِيَةُ الْجِسْمِيَّةُ وَالْإِحاطَةُ بِالْأَشْغالِ الصِّنَاعِيَّةِ وَفائِدَتِها وَتَشْجِيعُ الْعَزِيمَةِ عَلى الْمَشْرُوعاتِ وَتَقْدِيرُ الْعَمَلِ الَّذِى تَمَّتْ مُباشَرَتُهُ لِيَكُونَ كُلٌّ وَاحِدٍ عارِفاً ما يَأْتِيهِ بِنَفْسِهِ أَوْ ما يُكَلَّفُ مُلاحَظَتَهُ مِنَ الْأَعْمالِ ، وَلَمَّا كانَ فُتُورُ الْعَزِيمَةِ عَنِ الْعَمَلِ اللازِمِ في الْحَياةِ ناشِئاً فى الْغالِبِ مِنْ ضَعْفِ الْجِسْمِ وَجَبَ أَنْ يَرْتَاضَ التَّلامِيذُ فى كُلِّ يَوْمٍ عَلى الْأَعْمالِ الْجُثْمانِيَّةِ ، وَالْأَشْغالِ الْيَدَوِيَّةِ ، فَإِنَّها تَزِيدُ فى تَقْوِيَةِ الهِمَّةِ ، وَإِنْعاشِ الْجِسْمِ وَالتَّخْفِيفِ مِنْ تَأَثُّرِهِ مِمَّا هُوَ لازِمٌ لِلْإِفْراطِ فى الدَّرْسِ وَعَدَمِ الْحَرَكَةِ »

وقدْ لاحَظُوا فى ذَلِكَ اخْتِيَارَ الأَعمالِ ذَاتِ الْفائِدَةِ الْعلميةِ حَتَّى يَكُونَ الطَّالِبُ غيْرَ بعيدٍ عَنْ شوَاغِلِ الْحياةِ الْحَقِيقيَّةِ فكادَ أَنْ يَكونَ الطَّلبَةُ هُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَدْرَسَتَهُمْ ونَظَّمُوها وَهُمُ الَّذِينَ صَنَعُوا الْقِسْمَ الأَكْبَرَ مِنَ الاشْياءِ التى يَتَمَتَّعُونَ بِها فيها كَمَا فَعلَ « رُوبانسُونْ »(١) فى جزيرتِهِ

كَانَ الْبُسْتَانُ أَيَّامَ افْتِتاحِ الْمَدْرَسَةِ مَمْلُوءًا بالْحَشائِشِ الرَّدِيئَةِ ، وَالْعِزْبَةُ مُفعَمَةً بالأَنْقاضِ ، فَأَصْلَحَ الطَّلَبَةُ كُلَّ شَيْءٍ ، ثُمَّ أَحْدَثُوا الطُّرُقَ ، ونَظَّمُوا الْمَصارِفَ ، وَطَلَوُا الْحَوَاجِزَ بالْقَطِرَانِ ، وَدَهَنُوا الأَخْشابَ وَالمَحلاَّتِ بالأَلْوانِ ، وَاتَّخَذُوا مَيْدَانًا فَسِيحًا لِلأَلْعابِ ، وَصَنَعُوا كَثِيراً مِنْ أَثاثِ الْبَيْتِ بِما تَعَلَّمُوهُ فى الْمَصانِعِ مِنْ أَنْوَاعِ النِّجارَةِ ، واتَّفَقَ أَنَّ رَجُلاً مِنْ رِجالِ الْعِزْبَةِ مَرِضَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فقامَ الطَّلَبَةُ بأَعْمالِهِ وَمُلاحَظَةِ الْمَاشِيَةِ ، وَمَالَ بَعْضُهُمْ إلى اقْتِناءِ جَوَادٍ فاشْتَرَوْهُ مِنَ السُّوقِ وعَلَّمَهُمُ الْمُتَقَدِّمُونَ عَنْهُمْ رُكُوبَهُ وَقِيادَتَهُ

ويَزْدَادُ الْعَمَلُ مُدَّةَ الصَّيْفِ في الْبُسْتانِ والْعِزْبَةِ ، كَما تَتَغَيَّرُ الأَلْعابُ ، ولاَ يَتَلَهَّى التَّلامِذَةُ بأَخْذِ صُوَرِ الأَشْيَاءِ بِوَاسِطَةِ الآلَةِ « الْفُوتُوغْرَافِيَّةِ » أَوْ بالرِّياضَةِ عَلَى الدَّرَّاجَةِ إلاَّ فى أَوْقاتِ الْفَرَاغِ ، وَقَدْ شَاهَدْتُ مِنْ صُنْعِهِمْ مائِدَةً ودُولاَبًا وآلَةً لِلنُّزُولِ فى جَوْفِ الْماءِ

(١) يريد روبانسون كروزو

وَبَيْتاً لِلْبَطِّ ، وَآخَرَ لِلْحَمامَ ، وَمِظَلَّةً كَبيرَةً مِنَ الْخَشَبِ « عَنْبَرًا » وَمَرْكَبَتَيْنِ تامَّتَيْنِ وَثالِثَةً غيرَ تامَّةٍ وَغيرَ ذَلِكَ

وَبَيْنَما أَنا أَكْتُبُ هَذِهِ السُّطُورَ وَرَدَ عَلَيَّ كِتابٌ مِنْ مُوسْيُو « بيفردج » يُخْبِرُنِي بأَنَّهُ ذَهَبَ بابْنِهِ إِلى الْمَدْرَسَةِ وَيَحْكِي مَا رَآهُ فِيها فاقْتَطَفْتُ مِنْ كِتابِهِ ما يَأْتِي : « لَمَّا وَصَلْتُ إِلى الْمَدْرَسَةِ وَجَدْتُ عَدَداً مِنَ الْأَطْفالِ مُشْتَغِلِينَ بِطِلاءِ آلَةِ لَعِبٍ صَنَعُوها بِأَنْفُسِهِمْ فِي السَّنَةِ الماضِيَةِ ، وَقَدْ شَرَعَتِ الْمَدْرَسَةُ فِي إِقامَةِ قَنْطَرَةٍ على النَّهْرِ الْمُجَاوِرِ لَها وَعَرْضُهُ مِنْ ثَلاثِينَ مِتْراً إِلى أَرْبَعِينَ قَوائِمُها مِنَ الْبِناءِ حَتَّى تَصِيرَ مَتِينَةً وَسَيَقُومُ التَّلامِذَةُ بِجَمِيعِ تِلْكَ الْأَعْمالِ وَشَاهَدْتُ وَادِياً صَغِيرًا مَغْرُوساً بالْأَشْجارِ يَمْتَدُّ مِنْ أَرْضِ الْمَزَارِعِ إِلى مَبانِي الْمَدْرَسَةِ الْمَوْجُودَةِ على مُرْتَفَعٍ عَظِيمٍ يَعْلُو النَّهْرَ بِمائَةِ قَدَمٍ تَقْرِيبًا ، وَفِي وَسَطِ ذَلِكَ الْوادِي غَدِيرٌ صَغِيرٌ مِنَ الْماءِ قَدِ اتَّخَذَ التَّلامِذَةُ فِيهِ حِياضاً صَغِيرَةً جَمَعُوا بَيْنَها بِطُرُقٍ ضَيِّقَةٍ وَقامُوا بِجَمِيعِ ما اسْتَوْجَبَتْهُ مِنَ الْأَعْمالِ وَلَمْ يَسْتَعِينُوا بِبِناءٍ إِلاَّ فِي حالَةِ الضَّرُورَةِ الْمُطْلَقَةِ ، وَعَوَّلَتِ الْمَدْرَسَةُ عَلى تَوْسِيعِ بِنائِها حَتَّى يَسَعَ مِائَةَ تِلْمِيذٍ وَهُوَ أَكْبَرُ عَدَدٍ يَرَى الدكتور « ريدى » إِمْكانَ قَبُولِهِ لِيَتَمَكَّنَ مِنْ إِدارَتِهِ كَما يَنْبَغِي ، وَقَدْ شَرَعَ التَّلامِذَةُ تَمْهِيداً لِذَلِكَ فِي مَقاسِ الْأَرْضِ وَتَخْطِيطِ الْبِناءِ ، وَيُوجَدُ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ الْمَدْرَسَةِ مَعْمَلٌ

كيميائى ومصنع للنجارة يشتغل فيهما الطلبة تحت إدارة موسيو « هيرنومان » الذى رأيتموه فى « ادنبورج » بأعمال منوعة لأنفسهم وللمدرسة ، ومن نيتهم فى الثلاثة الأشهر القابلة أن يعلموا التلامذة صناعة الخشب على طريقة « لويد » التى شاهدتموها مدة وجودكم هنا ، وليس فى داخل المكان شىء من الزخارف التافهة غير أثاث الغرف قد استجمع موجبات الراحة كلها ثم إنى شاهدت على وجوه الطلبة وهم يتناولون طعام الضحى علائم الهناء والعيشة الراضية فاجتمعوا حول ست موائد صغيرة يرأس كل واحدة منها أحد المعلمين وأنشدوا دعاء الطعام بهمة واشتياق ورأيت بينهم وبين معلميهم حرية تامة واطمئنانا كاملا ومن عادة هؤلاء أن يمشوا مع الطلبة وقت الارتياض ويعاملوهم كأنهم إخوة أكبر سنا لا باعتبار أنفسهم قوما ممتازين وهم يتحرون على الدوام استعمال الألفاظ المألوفة عندهم وقد ينطقون أحيانا بما يألفه الطلبة عادة من كلمات العامة ولا فرق بينهم وبينهم إلا رداء يلبسونه علامة على أنهم من العلماء ، وللدكتور « ريدى » شغف بتعويد التلامذة الأشغال الخارجية لذلك يندبهم فى مهمات جسيمة كأن يرسلهم إلى البيوت المالية ليأتوا له بالنقود منها وغير ذلك وظاهر أن غرض موسيو « ريدى » من هذه الأعمال الجارية والأشغال اليدوية ليس

مَقْصُوراً عَلى تَعْلِيم الطَلَبَةِ مَالاَ يَكْتَسِبونَهُ بالدَرْسِ وَالْمُطَالَعَةِ بَلْ يَتنَاوَلُ تَرْبِيَةَ أَجْسَامِهِمْ وَتَقْوِيمَ صِحَّتِهِمْ وَإِعْدَادَهُمْ لِلتَّغَلُّبِ عَلى مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ ، وَلَهُ اعْتِنَاءٌ بالوُقُوفِ بِنَفْسِهِ عَلى مَا يُحَصِّلُونَهُ مِنْ ذَلِكَ كلِّهِ فَمِنْ كلامِهِ مَا يَأْتِى « لَقَدْ أَرَدْنَا أَنْ نَقِفَ عَلى تَقَدُّمِ الأَطْفَالِ وَتَرَعْرُعِ أَجْسَامِهِمْ حَتَّى نَعْرِفَ جَوْدَةَ غِذَائِهِمْ ، وَمُوَافَقَةَ أَحْوَالِ مَعِيشَتِهِمْ لِصِحَّتِهِمْ ، لِذَلِكَ نُقَارِنُ بَيْنَ تَقَدُّمِ جِسْمِ كلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُدَّةَ وُجُودِهِ فِى الْمُسَامَحَةِ وَلَوْ أَنَّا رَأَيْنا تَقَدُّمَهُ فِى الْمُدَّةِ الثَّانِيَةِ أَعْظَمَ مِنْهُ فِى الأُولَى لَتَبَيَّنَّا أَنَّ حَالَةَ الْمَعِيشَةِ عِنْدَنَا سَيِّئَةٌ ، نَعَمْ إِنَّ الْمَوَازِينَ الَّتِى نَزِنُهُمْ بِهَا لاَ تَدُلُّ عَلى مِقْدَارِ مَا اكْتَسَبُوهُ مِنَ الخِفَّةِ وَسُهُولَةِ الْحَرَكَةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يُهِمُّنَا أَلَّا يَكُونَ كَسْبُهُمْ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ مُضْعِفاً لِأَجْسَامِهِمْ ، وَقَدْ دَلَّتْنَا تَجَارِبنا عَلى أَنَّ النَّتِيجَةَ حَسَنَةٌ » وَيَلِى هَذَا بَيَانَانِ أَحَدُهُمَا فِى الْوَزْنِ وَالثَّانِى فِى الطُّولِ يَعْلَمُ مِنْهُمَا الْقَارِئُ مَا كَسَبَهُ التِّلْمِيذُ فِى الْمُدَّتَيْنِ ، وَيَرَى أَنَّ مُدَّةَ الْمَدْرَسَةِ رَاجِحَةٌ عَلى زَمَنِ الإِجَازَةِ ، وَلاَ غَرَابَةَ فِى هَذَا فَإِنَّ نَوْعَ الْمَعِيشَةِ فِى الْمَدْرَسَةِ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُطْلَبُ لِتَرْبِيَةِ الأَجْسَامِ قَالَ مُوسيو « ريدى » « وَتَدُلُّ هَذِهِ الأَرْقَامُ مِنْ أَوَّلِ الأَمْرِ عَلى أَنَّ مَدْرَسَتَنَا تُعَدُّ مِنْ جِهَةِ تَغْذِيَتِهَا وَمَلْبَسِهَا وَحَالَةِ مَعِيشَتِهَا مَعْمَلاً يَتَخَرَّجُ مِنْهُ رِجَالٌ أَشِدَّاءُ أَقْوِيَاءُ ، فَالأَمْرَاضُ عِنْدَنَا قَلِيلَةٌ حَتَّى دُوَارِ الرَأْسِ وَالزُّكَامِ إِذْ مِنْ طَرِيقَتِنَا

تَعْلِيمُ الشُّبَّانِ أَنَّ الرَّجُلَ يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ فِى صِحَّةٍ تَامَّةٍ ، وَأَنَّ الأَمْرَاضَ إِنَّمَا تَنْشَأُ عَنِ الْخَطَإِ وَالْجَهْلِ وَالْإِفْرَاطِ فِى الشغْلِ وَعَدَمِ تَرْتِيبِهِ أَوْ مِنَ الْفَسَادِ ، وَلِذَلِكَ نَجْتَهِدُ كَثِيراً فِى تَعْوِيدِهِمْ حُبَّ النَّظَافَةِ وَالتَّمَسُّكَ بِالْعَوَائِدِ الصِّحِّيَّةِ » وَلِكُلِّ طَالِبٍ إِنَاءُ مَاءٍ بِجَانِبِ سَرِيرِهِ ، وَقَدْ ذَكَرْتُ هَذِهِ الْجُزْئِيَّةَ لأُقَابِلَ بَيْنَ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ وَبَيْنَ مَدَارِسِنَا حَيْثُ لَا يُسْتَعْمَلُ الْمَاءُ إِلَّا بِالتَّقْتِيرِ وَالتَّدْقِيقِ الْكُلِّيِّ كَأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الزَخَارِفِ ، كَذَلِكَ نَحْنُ نَقْتَصِدُ فِى الْهَوَاءِ كَمَا نَقْتَصِدُ فِى الْمَاءِ أَمَّا فِى « أبوتصولم » و « بيدال » فَإِنَّ الطَلَبَةَ يَنَامُونَ فِى غُرْفَةٍ فُتِحَتْ مَنَافِذُهَا حَتَى فِى الشِّتَاءِ

إِلَى هُنَا بَيَّنَّا كَيْفَ يَقْضِى التَلَامِذَةُ وَقْتَهُمْ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى السَّاعَةِ السَّادِسَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ وَهُوَ وَقْتُ تَنَاوُلِ الشَاىِ وَبَقِىَ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ حَتَّى يَأْتِىَ مَوْعِدُ النَّوْمِ وَهَذَا عَمَلُهُمْ فِيهَا

قَالَ « بُونَالْدْ » فِى تَعْرِيفِ الإِنْسَانِ « الْإِنْسَانُ عَقْلٌ تَخْدُمُهُ الْأَعْضَاءُ » وَقَدْ عَلِمْتَ كَيْفَ أَنَّهُمْ فِى تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ اسْتَخْدَمُوا الصَبَاحَ لِتَرْبِيَةِ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ وَمَا بَعْدَ الظُهْرِ لِتَرْبِيَةِ الثَّانِى ، إِلَّا أَنَّ الرَجُلَ يَزِيدُ عَلَى هَذَا التَعْرِيفِ بِكَوْنِهِ مَدَنِيًا بِالطَبْعِ لَا مَحِيصَ لَهُ عَنِ الاجْتِمَاعِ ، فَيَنْبَغِى أَنْ تَكُونَ تَرْبِيَتُهُ مُوَافِقَةً لَهُ ، وَالِاجْتِمَاعُ يَطْلُبُ مِنَ الْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ مُهَذَّبَ الأَخْلَاقِ حَتَّى يَكُونَ أَنِيسَ

العِشْرَةِ مَقبُولَ المُسامَرَةِ بَيْنَ أَمْثالِهِ وَقَدْ خَصَّصَتْ تِلْكَ المَدْرَسَةُ السَّاعَاتِ الثَّلاثَةَ الباقيَةَ لِهذهِ التَرْبيَةِ قال موسيو « ريدى » من غَرَضِنا أَنْ نُعَوِّدَ الشُّبَّانَ ما يَنفِي عَنْهُمُ الخَجَل وَسُوءَ الحَرَكَةِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الارْتِيَاحِ مِنَ الاجْتِمَاعِ بِأَكْبَرَ مِنْهُمْ سِنًّا ، لِذلِكَ يَجْتَمِعُونَ كلَّ مَساءٍ فى غُرْفَةٍ وَاحِدَةٍ مَعَ سَيِّدَاتِ المَدْرَسَةِ وَالزَّائِرِينَ ، وَقَدْ نُظِّمَتْ تِلكَ الغُرْفَةُ عَلَى مِثالٍ مُنَسَّقٍ تَسْتَرِيحُ إِلَيْهِ النُفُوسُ وَانتُخِبَ أَثاثُهَا وَالصُوَرُ وَالتَمَاثِيلُ الَّتى فيهَا لِهذا الغَرَضِ » فإِذَا أَقبلَتِ السَاعةُ السادسةُ تَحَوَّلَتِ المَدْرَسَةُ إِلَى بَهْوٍ [1] يَتَسامَرُ فيهِ الحاضِرُونَ وَيلعَبُونَ بآلاتِ الطَرَبِ وَأَهَمُّهَا المُوسِيقى وَيَتَرَنَّمُونَ بِالأَنَاشِيدِ وَيُمَثِّلونَ المُضْحِكَاتِ وَيُقِيمُونَ المَرَاقِصَ وَالمَلاَهِىَ ، جاءَ فى الكُرَّاسَةِ « إِنَّ المُوسِيقى مِنْ أَهَمِّ اشْتِغَالاتِنا فَلَنَا فى كلِّ أُسْبُوعٍ لَيْلَةٌ مُوسِيقِيَّةٌ وَفى كلِّ ليلةٍ أَلْعابٌ على الْبِيَانُو وَلِذلِكَ تأْثيرٌ عَظِيمٌ فى التَّلامِذَةِ وَلَهُمْ أَيضًا كثيرٌ مِنْ آلاتِ الطَرَبِ الأُخرَى وَآلاتِ الرَّسْمِ وَالتَصْوِيرِ » وَقَدْ بَنَى التَلامِذَةُ مَلْهًى لِتَشْخِيصِ الرِوَايَاتِ لِأَنَّهُمْ لايَنْظُرُونَ إِلَى هَذهِ الأَلْعابِ كأَنَّهَا رِيَاضَاتٌ بَسِيطَةٌ بَلْ يَعُدُّونَهَا مِنْ أَعْظَمِ وَسائِلِ التَرْبِيَةِ ، وَلَهُمْ لَيلةٌ فى كلِّ أُسْبُوعٍ يَقرَءُونَ فيهَا مُؤَلَّفَاتِ « شِكسْبيرَ » ، وَقَدْ

(١) البهو : قاعة الاستقبال أو ما يسمى اليوم : صالة

تَأَلَّفَتْ جَمْعِيَّتَانِ مِنْهُمْ لِلْمُنَاقَشَةِ فِى الْمَسَائِلِ الْمُخْتَلَفِ عَلَيْهَا ، وَلَهُمْ جَرِيدَةٌ تُسَمَّى « مَجَلَّةَ الْمَدْرَسَةِ » يَنْشُرُونَ فِيهَا أَخْبَارَهَا وَحَوَادِثَهَا مَصْحُوبَةً بِصُوَرٍ وَفِيهَا قِسْمٌ لِلْأَدَبِيَّاتِ ، وَيَقُولُ صَاحِبُ الْكُرَّاسَةِ إِنَّ الْغَرَضَ مِنْهَا تَرْبِيَةُ الْمَلَكَاتِ الْأَدَبِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ وَتَمْثِيلُ الْمَدْرَسَةِ فِى أَذْهَانِ التَّلَامِذَةِ كَأَنَّهَا عَالَمٌ تَامٌّ صَغِيرٌ ، وَمِمَّا يَزِيدُ فِى نُمُوِّ الْمَلَكَاتِ الْفَنِّيَّةِ دَارٌ لِلتُّحَفِ شُرِعَ فِى تَأْسِيسِهَا وَقَدْ وُجِدَ فِيهَا نُسَخٌ مِنْ صُوَرِ أَكَابِرِ الْمُصَوِّرِينَ وَتَمَاثِيلُ وَأَثَاثَاتٌ جَمِيلَةٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَنْتَهِى الْيَوْمُ بِالصَّلَاةِ كَمَا بَدَأَ إِلَّا أَنَّ الْمَدْرَسَةَ لَيْسَتْ تَابِعَةً لِمَذْهَبٍ مَخْصُوصٍ مِنْ مَذَاهِبِ « البروتستانت » فَهُمْ فِيهَا غَيْرُ مُقَيَّدِينَ بِطَرِيقَةٍ دُونَ أُخْرَى وَلَاهَمَّ لَهُمْ بِمَا يُسَمُّونَهُ « الاعتراف » وَيَقْتَصِرُونَ فِى صَلَاتِهِمْ فِى الْمَعْبَدِ وَقَبْلَ الطَّعَامِ عَلَى تِلَاوَةِ بَعْضِ آيَاتِ التَّوْرَاةِ وَنَشِيدِ بَعْضِ الْأَلْحَانِ وَالْاسْتِغَاثَةِ بِبَعْضِ التَّضَرُّعَاتِ الْأَدَبِيَّةِ الدِّينِيَّةِ الْعُمُومِيَّةِ

وَلِلتَّلَامِذَةِ مِنْ يَوْمِ الْأَحَدِ فُسْحَةٌ يَعْبُدُ فِيهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِى الْكَنَائِسِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ عَلَى حَسَبِ قَوَاعِدِ مَذْهَبِهِ الْخَاصِّ وَيَذْهَبُ الْكَاثُولِيكُ مِنْهُمْ لِسَمَاعِ الْقُدَّاسِ فِى كَنِيسَةٍ قَرِيبَةٍ

وَإِلَيْكَ مَا جَاءَ فِى الْكُرَّاسَةِ مُخْتَصًّا بِالدِّينِ « لِلدِّينِ شَأْنٌ خَطِيرٌ فِى الْحَيَاةِ فَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ مَمْزُوجَةً بِهِ ، غَيْرَ أَنَّا لَا نُعَلِّمُهُ

التَّلَامِذَةَ كأَنَّهُ جُزْءٌ مِنهَا بَلْ باعْتِبَارِهِ كُلاًّ مُنتَظِمًا يَنْتَشِرُ فى الذَّاتِ كلِّهَا وَإنِ اخْتَلَفَتِ المَذَاهِبُ وَتَشعبَّتِ الطُرُقُ ، فيَجْتَمِعُونَ رُبْعَ سَاعَةٍ فى الصبَاحِ ، وَمِثْلَ ذَلِكَ فى المَسَاءِ لِيَشْتَغِلُوا بالدِّينِ وَيَتَوَجَّهُوا بإِشَارَاتٍ ظَاهِرَةٍ »

تِلْكَ هِيَ المَدْرَسَةُ وَذَاكَ هُوَ نِظَامُهَا ، وَهِيَ تَجْرِبَةٌ أَرَاهَا مُفِيدَةً لِلْغَايَةِ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلى مَيْلِ الْأَفكَارِ إلَى اخْتِيَارِ طَرِيقَةٍ فى التَّعليمِ تُوَافِق مُقْتَضَيَاتِ الهَيْئَةِ الاُجْتِمَاعِيَّةِ فى الْأَعْصُرِ الحَاضِرَةِ وَهِيَ تُخَالِفُ كُلَّ المُخَالَفَةِ جَمِيعَ الطُّرُقِ المَأْلُوفَةِ فى غيْرِهَا لِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ التَّعْلِيمِ الْعَمَلِيِّ وافرَاغِ جُهْدِهَا فى تَرْبِيَةِ الرَّجُلِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ وَالْوُصُولِ بمَلَكاتِه إلى المُمْكِنِ مِنَ التَقَدُّمِ وَإِنماءِ قُدْرَتِهِ وَعَزِيمَتِهِ وَهِمتِهِ إلى الحدِّ المُسْتَطَاعِ ، وفى هَذا مَيْلٌ إلى التَّرْبِيَةِ الاسْتِقْلَالِيَّةِ الَّتى تَنْتَشِرُ الآن فى جَمِيعِ أنحاءِ المسْكُونَةِ

يَجِبُ فى الْعَالَمِ الجَدِيدِ تَرْبِيَةٌ جَدِيدَةٌ يَشِبُّ المَرءُ فِيهَا مُعْتَمِدًا عَلى نَفْسِهِ لَا عَلَى الْجَمْعِيَّةِ أَوْحِزْبٍ مِنَ الْأَحْزَابِ فيَنْظُرُ فى عمَلِهِ إِلَى المُسْتَقبَلِ لِيَكُونَ هُوَ قِبْلَةَ حَيَاتِهِ الَّتى تَشْخَصُ إِلَيْهَا[١] وَيُهْمِلُ المَاضِيَ فَلَا يَرْبِطُ أَعمَالَهُ بِمَا كَانَ يَقْتَضِيهِ

وَبَيْنَما كُنتُ ذَاتَ يَوْمٍ أُحَادِثُ صَدِيقاً لى بِهَذِهِ المَدْرَسَةِ قالَ لِي :

---

(١) أى ليكون المستقبل الوجهة التى تتجه اليها حياته

« إنها لتجربة مفيدة غير أنى أرى فيها عيباً هو أن نظامها داخلى »
والداخلية كما هى عندنا فى البلاد الفرنساوية نظام مضر فى الحقيقة
بالتلامذة جسماً وعقلاً لأنها تجعل المدرسة ثكنة تحشد المئات من
الأطفال فى أماكن ضيقة وفى نظام اشتدت مقتضياته وذلك أدعى
إلى إضعاف الهمم وأولى بتربية العساكر والموظفين منه بتربية
عزيمة الأفراد وإطلاق السراح لما فيهم من القوى وما فطروا عليه
من الاقتدار ، لكن من الخطإ الواضح عدم تمييز هذه
الحال من التى شرحناها فلا جامعة بينهما إلا فى الاسم ، ومن
الواجب التحرز (١) من الألفاظ لأنها تطلق غالباً على مسميات لا شبه
بينها فعدد الطلبة فى تلك المدرسة محدود لا يزيد اليوم على الخمسين
ولن يزيد فى المستقبل على المائة كما صرح به الدكتور « ريدى »
لعلمه أن الزيادة على ذلك تعوق سير التربية ، ثم إنهم لا يخرجون
من عائلاتهم إلا ليدخلوا فى عائلة أخرى وهى عائلة ناظر مدرستهم
التى تقاسمهم الحياة فى المأكل والمقام (٢) ، فحياتهم فى الواقع حياة
عائلية على مثال أوسع ، ثم انقطاعهم عن عائلاتهم أقل منه عندنا
لأن إجازاتهم أكثر من إجازاتنا ومدتها أطول : يسامحون سبعة
أسابيع فى الصيف وأربعة فى الميلاد (٣) وثلاثة فى الربيع وبذلك يقيم

(١) التحرز : يريد التدقيق فيها والتفطن للمناسبات التى بينها وبين مسمياتها
(٢) المقام مصدر ميمى بمعنى الاقامة (٣) يريد عيد الميلاد

التَّلامِذَةُ بَيْنَ عَائِلاتِهِمْ ثلاثة أَشْهُرٍ وَنِصْفَ شَهْرٍ فى السَّنَةِ عَلى مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَيَظَلُّونَ ذَاكِرِينَ عَادَاتِها وَتقالِيدَهَا

لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْجَمْعِيَّاتِ تأثِيرٌ خاصٌّ فى طَرِيقَةِ التَّرْبِيَةِ وَهُوَ الَّذِى تَنْتَزِعُ مِنْهُ الْأُمَّةُ نِظامَ مَدَارِسِهَا

فَمِنْها الْجَمْعِيَّات الاتِّكالِيَّةُ الْعَائِلِيَّةُ وَتمْتازُ بانْضِمامِ عَدَدٍ مِنْ تِلْكَ الْعائِلاتِ بَعْضِها إِلى بَعْضٍ فى مَنْزِلٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ الْمِثالُ الَّذِى تَأَخَّرَتْ بِسَبَبِهِ أَغْلَبُ الْأُمَمِ الْأَسْيَوِيَّةِ وَأُمَمِ الشَّرْقِ الْأُورُبِّيَّةِ ، هُناكَ لا يَعْتَمِدُ الْأَطْفالُ عَلى أَنْفُسِهِمْ فى كَسْبِ حَياتِهِمْ بَلْ اعْتِمادُهُمْ عَلى جَمْعِيَّتِهِم الْعائِلِيَّةِ حَيْثُ يَبْقَوْنَ فِيها لِتَقُومَ بِحاجاتِهِمْ أَوْ يَرْجِعُونَ إِلَيْها إِنْ أَدْرَكَتْهُمُ الْخَيْبَةُ فى طَرِيقِهِمْ ، وَمَنْ كانَ هَذا شَأْنُهُ ضَعُفَ شُعُورُهُ بِالْحَاجَةِ إِلى التَّعْلِيمِ الشَّخْصِىِّ فَيَهْبِطُ ذَلِكَ التَّعْلِيمُ إِلى أَسْفَلِ الدَّرَجاتِ وَرُبَّما اقْتُصِرَ فِيهِ عَلى مَعارِفِ الْعَائِلَةِ مُسْتَعِينَةً بِنَصَائِحِ أَحَدِ رِجالِ الدِّينِ ، وَمِنَ الْمَعْرُوفِ أَنَّ شَأْنَ الْمَدَارِسِ فى تِلْكَ الْجَمْعِيَّةِ غَيْرُ خَطِيرٍ فَفِيهَا مِثالُ التَّرْبِيَةِ الْمَحْصُورَةِ فى الْعائِلَةِ وَالْمَوْكُولِ أَمْرُهَا إِلى الْعَائِلَةِ

وَمِنَ الْجَمْعِيَّاتِ الاتِّكالِيَّةُ الْحُكُومِيَّةُ ، وَمُمَيِّزُها قِيامُ الْحُكُومَةِ مَقامَ الْعائِلَةِ الَّتِى انْعَدَمَتْ فَتَنْحَصِرُ آمالُ الشَّبِيبَةِ فى وَظَائِفِها الْإِدَارِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ وَهذا شَأْنُ أَغْلَبِ الْأُمَمِ الْغَرْبِيَّةِ الْأُورُبِّيَّةِ وَأَخَصُّها

فَرَنسَا وَأَلْمَانيا ، وَيَنبَغِي لِلطَّلَبَةِ فِي نَيلِ تِلْكَ الْوَظَائِفِ أَنْ يَفوزوا فِي امْتِحَانٍ تَزْدَادُ صُعُوبَاتُهُ كُلَّ يَوْمٍ تَخَلُّصًا مِنْ تَكَاثُرِ الطَّالِبِينَ ، وَإِذْ ذَاكَ تُحَوِّلُ الْمَدَارِسُ وِجْهَتَهَا إِلَى طَرِيقَةٍ جَدِيدَةٍ فِي التَّعْلِيمِ فَتُكَلِّفُ الطَّلَبَةَ مَالاَ طَاقَةَ لَهُمْ بِاحْتِمَالِهِ وَتَطْلُبُ مِنَ الذَّاكِرَةِ حِفْظَ الْمَعْقُولَاتِ مِنْ غَيْرِ تَفَقُّهٍ ، فَمَا الْغَرَضُ مِنَ التَّعْلِيمِ تَرْبِيَةُ رِجَالٍ قَادِرِينَ عَلَى احْتِمَالِ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ بَلِ الْمُرَادُ إِعْدَادُ الطَّلَبَةِ لِلْمُحَاضَرَةِ فِي الِامْتِحَانِ ، وَأَعْظَمُ الْمَدَارِسِ نَجَاحًا فِي ذَلِكَ هِيَ الَّتِي اخْتَارَتْ نِظَامَ الدَّاخِلِيَّةِ لِأَنَّهَا تُضَحِّي بِكُلِّ فَائِدَةٍ إِلَّا مَا قُصِدَ بِهِ الِامْتِحَانُ كَأَنَّمَا حَيَاةُ الْمَرْءِ تَنْتَهِي بِالِامْتِحَانِ فَيَجْتَهِدُونَ فِي تَوْصِيلِهِ إِلَيْهِ بِتَكْلِيفِهِ مَالاَ قُدْرَةَ لَهُ عَلَيْهِ ، وَمِنْ فَائِدَتِهِمْ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي الْمَدْرَسَةِ الْوَاحِدَةِ خَمْسُمِائَةِ تِلْمِيذٍ أَوْ أَلْفٌ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمُعَلِّمِينَ لَا يُعْنَوْنَ بِكُلِّ وَاحِدٍ عَلَى انْفِرَادِهِ كَيْ يَصِيرَ رَجُلًا كَامِلًا يَقُومُ مَقَامَ رَبِّ عَائِلَةٍ ، وَعَلَيْهِ لَيْسَ لِلِاخْتِلَاطِ فَائِدَةٌ ، وَلَيْسَ أَحْسَنُ الْمُعَلِّمِينَ فِي تِلْكَ الْأَحْوَالِ أَكْثَرَهُمْ عِلْمًا أَوْ أَكْمَلَهُمْ وَقَارًا أَوْ أَبْعَدَهُمْ نَظَرًا بَلْ أَحْذَقَهُمْ (١) فِي حَشْوِ رُءُوسِ التَّلَامِذَةِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْمَوَادِّ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ ، وَأَكْثَرَهُمْ خِبْرَةً بِطُرُقِ النَّجَاحِ فِي الِامْتِحَانِ ، وَأَدْرَاهُمْ بِطُرُقِ الْمُمْتَحِنِينَ وَأَخْلَاقِهِمْ

(١) أمهرهم

وَالنَّوْعُ الثَّالِثُ هُوَ الْجَمْعِيَّاتُ الِاسْتِقْلَالِيَّةُ وَمِثَالُهَا الْأُمَمُ الْإِسْكَنْدِينَاوِيَّةُ وَالْإِنْجِلِيزُ السَّكْسُونِيَّةُ ، وَتَخْتَلِفُ مَدَارِسُ هَذَا النَّوْعِ عَنْ مَدَارِسِ النَّوْعَيْنِ السَّابِقَيْنِ ، هُنَالِكَ لَا يَعْتَمِدُ الْمَرْءُ عَلَى الْعَائِلَةِ لِانْحِلَالِهَا وَلَا عَلَى الْحُكُومَةِ لِقِلَّةِ وَظَائِفِهَا وَعَدَمِ انْحِصَارِهَا فِي يَدٍ وَاحِدَةٍ بَلْ كُلٌّ اعْتِمَادُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَهِمَّتِهِ وَإِقْدَامِهِ

وَمِنْ هُنَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْغَرَضُ مِنَ التَّعْلِيمِ تَرْبِيَةَ تِلْكَ الْمَلَكَاتِ كُلِّهَا حَتَّى يَكُونَ مُفِيدًا لِلرِّجَالِ فِي أَعْمَالِهِمْ وَأَنْ تَكُونَ الْمَدْرَسَةُ قَرِيبَةَ الشَّبَهِ فِي نِظَامِهَا مِنَ الْحَيَاةِ الْخَارِجِيَّةِ عَلَى قَدْرِ الْإِمْكَانِ ، وَهِيَ لَا تَصِلُ إِلَى تِلْكَ الدَّرَجَةِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ صَغِيرَةً وَعَدَدُ تَلَامِيذِهَا غَيْرَ كَبِيرٍ وَأَوْلَى فِي الْمَدِينَةِ أَنْ يَنَامَ الطَّلَبَةُ فِي بُيُوتِهِمْ لَيْلًا وَفِي الرِّيفِ أَنْ يُقِيمُوا فِي الْمَدَارِسِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَيَنْبَغِي فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْأَخِيرَةِ أَنْ تَكُونَ حَالَةُ الْمَعِيشَةِ فِيهَا شَبِيهَةً بِمَعِيشَةِ الْعَائِلَةِ كَيْ لَا يَنْفَصِلَ الطِّفْلُ عَنْ عَادَاتِهِ فِي بَيْتِ أُمِّهِ

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّهُ لَا يَكْفِي تَقْسِيمُ الْمَدَارِسِ بِحَسَبِ كَوْنِهَا دَاخِلِيَّةً أَوْ خَارِجِيَّةً بَلْ تُلَاحَظُ أَنْوَاعُ كُلٍّ مِنَ الْقِسْمَيْنِ فَلِكُلِّ نَوْعٍ نِظَامٌ مَخْصُوصٌ وَمَعِيشَةٌ مُمْتَازَةٌ وَنَتَائِجُ عَلَى حِدَتِهَا

وَيُؤْخَذُ مِمَّا قَدَّمْنَاهُ أَنَّ السَّبَبَ فِي عَدَمِ إِمْكَانِنَا إِصْلَاحَ مَدَارِسِنَا عَلَى النَّحْوِ الَّذِي شَرَحْنَاهُ هُوَ حَالَتُنَا الِاجْتِمَاعِيَّةُ أَيْ أَخْلَاقُنَا الَّتِي تَدْفَعُ

الشُّبَّانَ نحوَ الِامْتِحَانِ وَالْوَظَائِفِ الَّتى تؤدِّى إِلَيْها ، وَقَدْ يَظُنُّ الْبعضُ أَنَّ نِظَامَ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ لَا يُفِيدُنَا إِلاَّ مِنْ قبيلِ الْعِلْمِ بِهِ وَهُوَ خطا لِأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَمَّا كانَ عَدَدُ التَّلامِذَةِ قليلاً كانَ أَمَلُ النَّجَاحِ فى الِامْتِحَانِ مَعَ الِاجْتِهَادِ كَبِيرًا ، وَلَكِنَّ الْأَحْوَالَ تبدَّلَتْ وَتزَاحَمَ الشُّبَّانُ عَلى الْوَظَائِفِ وَجرَتِ الطَّبَقَاتُ الْوَضِيعَةُ مِنَ الْأُمَّةِ عَلى مِثَالِ الطَّبَقَاتِ الْوُسْطَى حَتَّى صَارَ لِكلِّ وَظِيفَةٍ مِائَةُ طَالِبٍ فَلا يَجِدُ الطَّالِبُ بَعْدَ الِامْتِحَانِ بَابًا يَدْخُلُ مِنْهُ عَلى الْوَظَائِفِ بَلْ سُورًا مَنِيعًا بَعِيدَ الْمَنَالِ ، وَلَيْسَ مِنَ الحِكْمَةِ حَمْلُ الشَّبَابِ عَلى مُنَاطَحَةِ السُّورِ، لِذَلِكَ أَخَذَ الْمُتَأَمِّلُونَ يُخَفِّفُونَ مِنْ احْتِقَارِهِمْ لِلْمِهَنِ الْحُرَّةِ غَيْرَ أَنَّهَا يَجِبُ لَهَا صِفَاتٌ لَا تُنْتِجُهَا تَرْبِيَتُنَا الْحَالِيَّةُ كَمَا هِىَ مِنْ ثَمَرَاتِ تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ الَّتى بَيَّنَّا نِظَامَهَا

الفصل الرابع

﴿ كَيفَ يَنبَغى أَنْ نُرَبِّىَ أَوْلَادَنَا ﴾

اعْتَدْنَا مَعْشَرَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ إِيجَادَ مُرْتَزَقٍ لِأَبْنَائنَا عَلى إِمْهَارِهِمْ شَيْئًا مِنَ الْمَالِ نَجْمَعُهُ بِالِاقْتِصَادِ ثُمَّ نَتْبَعُ ذَلِكَ بِالْبَحْثِ لَهُمْ عَنْ زَوْجٍ أَوْ زَوْجَةٍ مُتَنَاسِبٍ فى الثَّرْوَةِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ نَجْتَهِدُ فى إِنَالَتِهِمْ إِحْدَى الْوَظَائِفِ

الْعُمُومِيَّـةِ مَتَى تَيَسَّرَ ، وَقَدْ قامَتْ الْعَقَباتُ هَذِهِ الْأَيَّامَ فى سَبِيلِ النَّجَاحِ بِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ لِانْخِفاضِ فائِدَةِ النُّقُودِ فَبَعْدَ أَنْ كانَتْ خَمْسَةً فى المِائَةِ صارَتْ أَرْبَعَةً ثُمَّ ثلاثَةً وَصارَ مِنَ الْمُتَعَذِّرِ جَمْعُ المَالِ اللاَّزِمِ لِلْأَبْناءِ ، وَقَدْ كانَتْ هَذِهِ الصُّعُوبَةُ خافِيَةً عَلَيْنا إِلى هَذَا الْيَوْمِ لِوَفْرَةِ المالِ عِنْدَنا فإِنَّكَ تَسْمَعُ النَّاسَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ يَقُولُونَ إِنَّ فَرَنْسَا بَلْدَةٌ غَنِيَّةٌ لَدَيْها كَثِيرٌ مِنَ الْأَمْوَالِ وَهُوَ صَحِيحٌ بِدَلِيلِ أَنَّ أَكْبَرَ سُوقٍ لِلنُّقُودِ يُوجَدُ فِيها غَيْرَ أَنَّهُ لِسُوءِ الْحَظِّ لَيْسَتْ وَفْرَةُ المالِ مِنْ عَمَلِ الْأُمَّةِ خاصَّةً بَلْ سَبَبُهُ أَحْوالٌ عَرَضِيَّةٌ لا تَدُومُ طَوِيلاً وَتِلْكَ الْأَحْوالُ فى الْحَقِيقَةِ مِنْ أَمَارَاتِ الانْحِطاطِ لا مِنْ عَلامَاتِ التَّقَدُّمِ وَالرَّخاءِ

فَمِنْ تِلْكَ الْأَسْبابِ الاقْتِصادُ فى النَّسْلِ إِذْ لا شُبْهَةَ فى أَنَّ عَدَدَ الْفَرَنْساوِيِّينَ يَقِلُّ سَنَةً عَنْ سَنَةٍ فَقَدْ دَلَّ التَّعْدادُ الْأَخِيرُ عَلى أَنَّ الْوَفَياتِ تَزِيدُ عَلى المَوَالِيدِ وَهِىَ حَالَةٌ نادِرَةٌ إِلاَّ أَنَّها الْيَوْمَ خاصَّةٌ بِفَرَنْسَا حَتَّى جَعَلَتْها فى مُؤَخَّرِ الْأُمَمِ وَمِنْ هُنا أَىْ مِنْ قِلَّةِ عَدَدِ الذُّرِّيَّةِ يَكْثُرُ المالُ لِأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِى يَصْرِفُ سِتَّةَ آلافٍ فَرَنْكٍ فى السَّنَةِ لِتَرْبِيَـةِ سِتَّةٍ مِنَ الْأَوْلادِ لا يَصْرِفُ إِلاَّ أَلْفاً فى تَرْبِيَـةِ وَلَدٍ واحِدٍ وَيَقْتَصِدُ خَمْسَةَ آلافٍ فى كُلِّ سَنَةٍ ، وَلِلْفَرَنْساوِيِّينَ مَيْلٌ شَدِيدٌ إِلى هَذَا الاقْتِصادِ لِذَلِكَ تَرَاهُمْ أَكْثَرَ مالاً مِنَ الْأُمَمِ الَّتى

يَكْثُرُ فِيها عَدَدُ أَفْرَادِ الْعائِلاتِ ، وَهذا مِنَ الأَسْبابِ الَّتى جَعلَتْ فى فَرَنْسَا أَكْبَرَ سُوقٍ لِلنُّقودِ

ثَبَتَ إِذًا أَنَّ لِقِلَّةِ الأَوْلادِ دَخلاً فى وَفْرَةِ المالِ ، وَهُناكَ سَبَبٌ آخَرُ هُوَ تَباعُدُ الفَرَنْسَاوِيِّينَ عَنِ المِهَنِ الْجَارِيَةِ وَهَرَبُهُمْ مِنَ الزِّرَاعَةِ وَالصِّناعَةِ وَالتِّجارَةِ فَلاَ يَمِيلُ إِلَيْها إِلاَّ الْقَلِيلُ وَالْكَثِيرُ يُفَضِّلُ عَلَيْها الْوَظَائِفَ الإِدَارِيَّةَ لِهَذَا اجْتَمَعَ الأَطْفالُ كُلُّهُمْ حَوْلَ مَدَارِسِ الْحُكُومَةِ حَيْثُ يَضِيعُ مُسْتَقْبَلُهُمْ فى جَوَانِبِهَا ، فَكُلُّ مَنْ كَسَبَ دِرْهَماً أَوْ دِرْهَمَيْنِ مِنَ الزِّرَاعَةِ أَوِ الصِّناعَةِ أَوِ التِّجَارَةِ يُمْسِى وَيُصْبِحُ مُفَكِّرًا فى الْخُرُوجِ مِنْ مِهْنَتِهِ وَفى تَرْبِيَةِ ابْنِهِ لِيَكُونَ ضَابِطًا فى الْجَيْشِ أَوْ مُوَظَّفًا فى الْحُكُومَةِ أَوْ مِنَ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الأَدَبِ وَعَلَيْهِ فَالْفَرَنْسَاوِيُّ لاَ يُدِيرُ مَا جَمَعَ مِنَ الْمَالِ بِنَفْسِهِ بَلْ يَدَّخِرُهُ حَتَّى يَرْمِيَ بِهِ فى أَسْوَاقِ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ الْمَالِيَّةِ « البورصة » وَهَكَذَا كانَ هَرَبُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ مِنَ الْحِرَفِ وَالصِّنَاعَاتِ مُوجباً لِزِيادَةِ الْمَالِ الْمَخزُونِ ، إِلاَّ أَنَّ هَذِهِ الأَسْبابَ الَّتى تَدْعُو الآنَ إِلى وَفْرَةِ الْمَالِ تُؤَدِّى أَخِيرًا إِلى النَّقْصِ فِيهِ سَنَةً بَعْدَ الأُخْرَى وَتَنْتَهى بِضَياعِهِ فى زَمَنٍ يَتَخَيَّلُونَ أَنَّهُ بَعِيدٌ ، فَكَمَا أَنَّ نَقْصَ الأَطْفَالِ يَزِيدُ فى الأَمْوالِ فَإِنَّهُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى يُضْعِفُ الْقُدْرَةَ عَلى الأَعْمَالِ فَإِنْ كانَ لِلرَّجُلِ سِتَّةُ أَوْلادٍ لَزِمَهُ أَنْ يَشْتَغِلَ كَثِيرًا وَكَثْرَةُ شُغْلِهِ تَزِيدُ فى ثَرْوَةِ

الْأُمَّةِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ إِلاَّ وَلَدٌ وَاحِدٌ قَلَّ عَمَلُهُ وَضَعُفَ تَأْثِيرُهُ فِي إِنْمَاءِ الثَّرْوَةِ الْعُمُومِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ إِذَا خَرَجَ الطِّفْلُ مِنْ عَائِلَةٍ كَبِيرَةِ الْعَدَدِ قَلَّ أَمَلُهُ فِي ثَرْوَةِ أَبَوَيْهِ ، وَعَوَّلَ فِي رِزْقِهِ عَلَى نَفْسِهِ فَيَزْدَادُ إِقْدَامُهُ عَلَى الْعَمَلِ وَتَكْبُرُ فِيهِ الهِمَّةُ بِخِلَافِ مَا لَوْ خَرَجَ مِنْ عَائِلَةٍ هُوَ وَحِيدُهَا فَإِنَّهُ يَجْعَلُ كُلَّ اعْتِمَادِهِ عَلَيْهَا وَلَا يُعَوِّلُ عَلَى نَفْسِهِ إِلاَّ قَلِيلاً . وَزَادَ عَلَى هَذَا أَنَّ نُفُورَنَا مِنَ الصِّنَاعَاتِ ذَاتِ المَكَاسِبِ ، وَإِنْ سَهَّلَ لَنَا أَنْ نُلْقِيَ بِجَمِيعِ مَا اقْتَصَدْنَا مِنَ المَالِ فِي الْأَسْوَاقِ المَالِيَّةِ ، يُبْعِدُنَا عَنْ مَنَابِعِ[1] ذَلِكَ الاِقْتِصَادِ إِذْ لَا مَصْدَرَ لِلثَّرْوَةِ الْعُمُومِيَّةِ إِلاَّ الزِّرَاعَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ. وَقَدْ نَسِينَا أَنَّ غَيْرَهَا مِنَ المِهَنِ وَالْحِرَفِ دَخِيلٌ لَيْسَ بِالْأَصِيلِ وَأَنَّ مَرْجِعَهَا كُلَّهَا إِلَى تِلْكَ المَنَابِعِ الثَّلَاثَةِ .

وَرُبَّمَا قَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ تِلْكَ الحَالَةَ تَدُومُ لَنَا بِدَوَامِنَا ، فَنُجِيبُ بِأَنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَأْمُونٍ .وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَمِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّهَا لَا تَدُومُ لِأَطْفَالِنَا. أَلَا تَرَى أَنَّ كَثِيراً مِنْ أُولَئِكَ الشُّبَّانِ التُّعَسَاءِ لَا يَنْجَحُونَ الْيَوْمَ فِي الامْتِحَانِ لِكَثْرَةِ عَدَدِ الطَّالِبِينَ مَعَ ازْدِيَادِ عَدَدِ الْوَظَائِفِ إِلَى حَدِّ الْإِفْرَاطِ ، فَهُمْ أَشْبَهُ بِالظَّمْآنِ يَرَى السَّرَابَ فَيَظُنُّهُ مَاءً حَتَّى

(١) يريد مصادر

إذا جاءهُ لمْ يجدهُ شيئاً . وليت[١] شعري ماذا يفعلون بعد ذلك كما لستُ أدري ما الذي في إمكانهم أنْ يفعلوهُ ؟ وما الذي أهلتهم إليه تربيتهم في العائلات والمكاتب والمدارس غير الحرف الأدبية والمصالح العمومية والوظائف الحربية ؟ كم قالوا لهم إنها أشرف الصناعات ، وأنه لا يليق بهم سواها ، لا فرق في ذلك بين عائلات الطبقة الوسطى وعائلات الدرجة السفلى حتى صار كل الناس يذكرون ذلك في القصور والحوانيت والمدن والأرياف وأصبح كل شاب يحلم بالوظائف في الحكومة وأمسى على باب بعض الوظائف آلاف من الطالبين كما تشهد به التقارير الرسمية ، وظل أولئك التعساء يتقلبون على جمر الانتظار ، وقد غصت بهم رحاب المصالح وملئوا جيوبهم من رسائل التوصية وجعلوا يندبون حالهم وينتحبون ولا يحجمون عن أمر إلا استعملوهُ اللهم إلا رجوعهم إلى أنفسهم وطلبهم الرزق بعلمهم مما ربما كان أوفر حالاً وأعظم ثمرة ، ومما هو بلا شك أدعى إلى الاستقلال وأولى بحفظ الكرامة ، وما عدولهم عن ذلك إلا من خوف الخيبة . لذلك فضلوا التردد على الوظائف مهما صغرت وإن

---

(١) ليت شعري أى ليت علمي بذلك موجود

رُدُّوا وَطَالَ عَلَيْهِمْ أَمَدُ الانتِظَارِ ، وَظَنُّوهَا حَالَةً يُحْسَدُونَ عَلَيْهَا ، فَطَالِبُ الاسْتِخْدَامِ يُلْحَقُ بِالْمُسْتَخْدَمِينَ فِي رَأْيِ هَذِهِ الْبِلَادِ الَّتِي سَادَتْ فِيهَا الْوَظَائِفُ ـ وَاأَسَفَاهُ ـ وَإِنْ ذَابَتْ مَرَارَتُهُ مِنَ الانْتِظَارِ عَلَى مَقَاعِدِ الْحُجَّابِ ، وَصَغُرَ الْمَطْلُوبُ وَعَزَّ النَّوَالُ . كَذَلِكَ هُمْ يَعْدِلُونَ لِكَوْنِهِمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى تِلْكَ الصِّنَاعَاتِ الْمُسْتَقِلَّةِ ، لِأَنَّ تَرْبِيَتَنَا الْفَرَنْسَاوِيَّةَ ، كَمَا بَلَغَتِ الْمُمْكِنَ مِنْ تَخْرِيجِ الْمُوَظَّفِينَ ، قَدْ وَصَلَتْ إِلَى الْعَدَمِ فِي تَرْبِيَةِ الرِّجَالِ الْمُسْتَقِلِّينَ مِمَّنْ لَهُمْ هِمَّةٌ وَقُدْرَةٌ عَلَى مُغَالَبَةِ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ : فَلَا يَلِيقُ شُبَّانُنَا لِغَيْرِ تِلْكَ الْوَظَائِفِ الَّتِي يَكُونُونَ فِيهَا تَابِعِينَ ، وَيَفْرَحُونَ لِكَوْنِهِمْ يَتَنَاوَلُونَ بِلَا عَنَاءٍ فِي آخِرِ كُلِّ شَهْرٍ رَاتِبًا مَعْدُودًا وَيَعْرِفُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَصِيرَهُ قَبْلَ دُخُولِهِ فِي الْوَظِيفَةِ ، وَأَنَّهُ إِذَا بَلَغَ مِنَ الْعُمْرِ كَذَا صَارَ وَكِيلًا لِرَئِيسٍ ، وَإِذَا بَلَغَ كَذَا صَارَ رَئِيسًا لِأَحَدِ الْأَقْلَامِ ، ثُمَّ إِذَا بَلَغَ كَذَا تَقَاعَدَ وَأَخَذَ الْمَعَاشَ ، وَلَا يَجْهَلُ مِنْ تِلْكَ الْأَزْمَانِ إِلَّا زَمَنَ الْمَوْتِ ، وَظَاهِرٌ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ حَصْرُ دَائِرَةِ الْحَيَاةِ فِي حُدُودٍ أَشَدَّ ضِيقًا مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ .

وَيُسْتَخْلَصُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا التَّنْوِيعُ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِنَا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ يَكُونُوا قَادِرِينَ عَلَى حَيَاتِهِمْ فِي الْأَزْمَانِ الَّتِي اسْتَهَلَّتْ(١) مُسْتَعِدِّينَ لِمُقَاوَمَةِ سُوءِ الْحَالِ الِاجْتِمَاعِيِّ الَّذِي قَدْ فُتِحَتْ أَبْوَابُهُ .

---

(١) استهلت : بدت وأقبلت

الحَرَجُ الاجتماعيُّ اليومَ عامٌّ ولابُدَّ معه مِنْ وضعِ مسألةِ التربيةِ موضعَ النظرِ والتفكير ، والحقيقةُ التي يجبُ أنْ نتخذها قاعدةً للبحثِ فيها هي أنَّ طريقةَ التربيةِ المستعملةَ الآنَ لمْ تعدْ صالحةً للغرضِ المقصودِ منها ، وأنهُ لابُدَّ مِنَ العدولِ عنها لأنَّهُ لا نجاحَ فيها . ألا ترى أنَّ الرجُلَ يأتي كلَّ شيءٍ يعتقدُهُ مفيدًا لأبنائِهِ ، ولا يُهمِلُ شيئًا مِمَّا أفادهُ هوَ ، ومعَ ذلكَ لا يصلُ ابنُهُ إلى ما وصلَ إليهِ ،حتى أصبحَ الآباءُ المجدُّونَ ذوو الأفكارِ مِمَّنْ حسُنتْ تربيتُهُمْ واستقامتْ عشرتُهُمْ يتساءلونَ وهُمْ حيارَى : كيفَ يُربُّونَ أبناءَهُمْ ويجعلونَ لهُمْ مُرتزقًا ! هذا خذلانٌ لا نتخلصُ منهُ ومهواةٌ[1] لا نتحرَّزُ منها إلاَّ بالعلمِ الاجتماعيِّ . نقولُ ذلكَ لأنَّ الخذلانَ موجودٌ فالناسُ تحمارُّ وجوهُهُمْ مِنْ هذهِ الحالِ ثُمَّ يغضبونَ ثُمَّ يرونَ الجوَّ مظلمًا ويقولونَ إنَّ روحًا خبيثةً انتشرتْ في العالمِ وإنَّ الناسَ جبنُوا فتركُوا المبادئَ الصحيحةَ، ثُمَّ يشتدُّ الغضبُ فيصخبُونَ ولكنَّهُمْ يبقونَ على ما كانوا عليهِ معتقدينَ أنَّهُ هوَ الذي يجبُ الرجوعُ إليهِ فيخيبونَ خيبةً كاملةً .

أمَّا العلمُ الاجتماعيُّ فهوَ أكبرُ اعتدالاً وأصدقُ مقالاً يختبرُ الحوادثَ ويقارنُها بعضَها ببعضٍ ويميِّزُ أشكالَها ويعلِّمُ الناسَ

---

(١) مهواة : مكان الهوي والسقوط

أَنَّ الْعَالَمَ مُنْتَقِلٌ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ أَحْسَنَ مِنْهُ غَيْرُ مَوْقُوفٍ بَلْ دَائِمِيٌّ ، وَهذَا الِانْتِقَالُ يَفصِلُ الدَّهْرَ إِلَى قِسْمَيْنِ : مَاضٍ وَمُسْتَقْبَلٍ ، وَهوَ الَّذِي يُرِيهِمْ أَسْبَابَ الْحَرَجِ الْحَاضِرِ وَوِجْهَتَهُ وَغَايَتَهُ وَأَنَّهُ حَرَجٌ لايُشَابِهُ غَيْرَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ .

فَمِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ تَغَيُّرُ طُرُقِ الْكَسْبِ وَالْمُوَاصَلَاتِ عَلَى الدَّوَامِ أَعْنِي تَغَيُّرَ طُرَقِ الْمَعِيشَةِ لِأَنَّ الْعَامِلَ كَانَ فِي الْمَاضِي يَعْمَلُ فِي مَصْنَعٍ صَغِيرٍ أَوْ فِي بَيْتِهِ أَوْ بَيْتِ الْمَصْنُوعِ لَهُ ، وَكَانَ الْمُقْبِلُونَ عَلَى سِلَعِهِ قَلِيلِينَ لَا يَخْرُجُونَ عَنْ أَهْلِ قَرْيَتِهِ وَكَانَ صُنْعُهُ فِي الْغَالِبِ يَدَوِيًّا أَوْ بِآلَاتٍ صَغِيرَةٍ وَكَانَتْ طُرُقُ الْعَمَلِ وَاحِدَةً يَتَلَقَّاهَا الْخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ وَكَانَ الْجَدِيدُ فِي الصُّنْعِ مَعْدُوماً أَوْ نَادِراً وَلَمْ يَكُنْ مِنْ مُسَابَقَةٍ إِلاَّ بَيْنَ الْمُتَجَاوِرِينَ لِأَنَّ طُرَقَ الْمُوَاصَلَاتِ كَانَتْ قَاصِرَةً لاتُسَاعِدُ عَلَى تَسْفِيرِ الْمَصْنُوعَاتِ إِلَى الْبِلَادِ الْقَاصِيَةِ وَجَلْبِ غَيْرِهَا مِنْهَا وَكَانَتْ الْمُنَافَسَةُ ضَعِيفَةً لِمَا أَلِفُوهُ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ مِنْ وَضْعِ النِّظَامَاتِ الَّتِي لَاتَجْعَلُ لِلتَّزَاحُمِ مَحَلاًّ حَيْثُ تَقَرَّرَتْ طُرُقُ الْعَمَلِ وَتَحَدَّدَ عَدَدُ الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَبِالْجُمْلَةِ كَانَتِ الْأَفْكَارُ مُتَّجِهَةً إِلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى طُرُقِ الْمَعِيشَةِ الْمَأْلُوفَةِ . وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَتْ التَّرْبِيَةُ مُوَافِقَةً لِمُقْتَضَيَاتِ الزَّمَانِ تُعَلِّمُ الشُّبَّانَ مَاتَعَلَّمَهُ آبَاؤُهُمْ وَتُهَيِّؤُهُمْ إِلَى مَاعَرَفَهُ الْمَاضِي مِنَ الْأَعْمَالِ وَبَقِيَتْ

كَذَلِكَ تُنْتِجُ النَّتَائِجَ الْحَسَنَةَ زَمَناً طَوِيلاً ، أَمَّا الْآنَ فَقَدْ تَغَيَّرَتِ الْأَزْمَانُ وَتَبَدَّلَتْ أَحْوَالُ الْاجْتِمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ وَصَارَ الْعَامِلُ يَشْتَغِلُ فِي مَصَانِعَ كَبِيرَةٍ بِآلَاتٍ ضَخْمَةٍ وَيَبِيعُ سِلَعَهُ فِي طَرَفَي الْمَسْكُونَةِ وَكُلَّ يَوْمٍ يَزْدَادُ عَدَدُ الطُّلَّابِ وَطُرُقُ الْعَمَلِ تَتَغَيَّرُ فِي كُلِّ حِينٍ تَبَعاً لِتَقَدُّمِ الْعُلُومِ ، وَقَامَ الْجَدِيدُ مَقَامَ التَّقْلِيدِ وَالْاتِّبَاعِ وَاشْتَدَّتِ الْمُزَاحَمَةُ وَوَجَبَ عَلَى الصُّنَّاعِ ، تَفَادِياً مِنْ شَرِّهَا ، أَنْ يَبْحَثُوا دَائِماً عَنْ طُرُقٍ تُمَكِّنُهُمْ مِنْ إِكْثَارِ سِلَعِهِمْ أَوْ تَحْسِينِهَا أَوْ تَخْفِيضِ أَثْمَانِهَا وَتَحَوَّلَتِ الْمَعِيشَةُ مِنْ هُدُوءٍ وَاسْتِقْرَارٍ إِلَى حَرَكَةٍ وَتَجْدِيدٍ وَاخْتِرَاعٍ ، وَمِنْ أَهَمِّ مَا تَجِبُ مُلَاحَظَتُهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِنَا اخْتِيَارُ إِحْدَى الْحَالَتَيْنِ لِأَنَّ الْحَالَةَ الْجَدِيدَةَ صَارَتْ ضَرْبَةَ لَازِبٍ [١] لَامَفَرَّ مِنْهَا .

وَمَعْلُومٌ أَنْ تَغَيُّرَ طُرُقِ الْمَعِيشَةِ يَسْتَلْزِمُ تَغْيِيرَ حَالَةِ الْعَالَمِ بِأَجْمَعِهِ ، وَمِنْ هُنَا تَوَلَّدَتِ الْمَسْأَلَةُ الْمَعْرُوفَةُ الْآنَ بِالْمَسْأَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الْبَحْثِ فِي وَسَائِلِ الْحَيَاةِ .

وَالسَّبَبُ فِي ظُهُورِ هَذِهِ الْحَالَةِ الْجَدِيدَةِ ظُهُورُ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَقِفِ الْعُلَمَاءُ عِنْدَ مُنْتَهَاهَا ، بَلْ هِيَ لَا تَزَالُ فِي مَبَادِيهَا كَمَا يَرَاهُ وَيَشْهَدُ بِهِ كُلُّ إِنْسَانٍ ، فَمِنْ ذَلِكَ الْحِينِ انْحَدَرَ الْمُجْتَمَعُ الْإِنْسَانِيُّ

(١) اللازب : بمعنى اللازم أى الثابت وهو أفصح من اللازم

فِي طَرِيق تبدُّل أَحوَالِهِ المَادِّيَّةِ انحِدَارًا لا يُقَاوَمُ وانحلّت الجَامِعَةُ بَيْنَ الحاضِرِ وَالمَاضِى لِمَا اعْتَادَ هذا مِنَ البَقَاءِ عَلَى حَالَتِهِ الأُولَى وَلِمَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ ذَاكَ مِنْ إِيجَادِ الوَسَائِلِ التِي تُمَكِّنُهُ مِنَ استِخْدَامِ تِلْكَ التَّقَلُّبَاتِ فِى فائِدَتِهِ وَرَفْعِ مَضَارِّهَا عَنْهُ ، والفَرْقُ بَيْنَ الزَّمَنَيْنِ كَالفَرْقِ بَيْنَ الْجُنْدِيِّ الَّذِي يُحَارِبُ مِنْ دَاخِلِ الْحِصْنِ والْجُنْدِيِّ الَّذِي يُحَارِبُ فِي البَيْدَاءِ وهُوَ فَرْقٌ جَسِيمٌ كُلِّيٌّ ، ولَيْسَ بِصَحِيحٍ أَنَّهُ نَتِيجَةُ مَيْلِ النَّاسِ إِلَى الشَّرِّ فِي هَذِهِ الأَزْمَانِ وجُبْنِ طِبَاعِهِمْ كما هُوَ رَأْيُ مَنْ لَمْ يَتَدَبَّرِ الْحَوَادِثَ ويَتَفَقَّهْ الأَحْوالَ ، بَلْ هَذِهِ حَالَةٌ مَادِّيَّةٌ جَدِيدَةٌ فِي العَالَمِ قَضَتْ بِهَا القُدْرَةُ الإِلٰهِيَّةُ بِمَا هَدَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ الَّتِي مِنْ خَصَائِصِهَا التَّقَدُّمُ وَالتَّرَقِّي ، ومَا عَلَى المَرْءِ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ بِحَالٍ تُطَابِقُ هَذَا التَّقَدُّمَ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مَصْلَحَتَهُ بَلْ إِنَّ هَذَا صارَ مِنْ وَاجِبِهِ .

قُلْنَا إِنَّ العِلْمَ الاجْتِمَاعِيَّ يُوَضِّحُ أَسْبَابَ الانحِطَاطِ كما أَنَّهُ يُبَيِّنُ الْغَايَةَ الَّتِي يَسُوقُ النَّاسَ إِلَيْهَا وَهِيَ وَاضِحَةٌ .

يَسُوقُ الانحِطاطُ النَّاسَ إِلَى حالَةٍ جَدِيدَةٍ غَيْرِ الَّتِي هُمْ فِيهَا ، فَلَنْ يَتَأَتَّى لامْرِئٍ أَنْ يَعِيشَ مَحْصُوراً فِي دَائِرَةٍ مَحْدُودَةٍ ولاَ أَنْ يَعْتَمِدَ فِي مَعِيشَتِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ تَعَوَّدَ الآنَ مُسَاعَدَتَهُمْ ولاَ عَلَى الاسْتِرْسَالِ مَعَ الْعَادَاتِ الَّتِي أَلِفَهَا بَيْنَ قَوْمِهِ لأَنَّ الْوَسَطَ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ

مَائِلٌ أَيْضاً إِلَى التَّمَزُّقِ وَالِانْحِلَالِ بِتَأْثِيرِ ذَلِكَ التَّغْيِيرِ الْمُسْتَمِرِّ فِي حَاجَاتِهِ الْمَادِّيَّةِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ . وَالرَّجُلُ إِذَا تَرَبَّى فِي وَسَطٍ مَخْصُوصٍ حَتَّى صَارَ يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَقَاءَ إِذَا فَسَدَ ذَلِكَ الْوَسَطُ، بَلْ إِنَّهُ يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِهِ . وَمِنْ هُنَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْغَرَضُ مِنَ التَّرْبِيَةِ تَعْوِيدَ الْإِنْسَانِ الِاعْتِمَادَ عَلَى نَفْسِهِ فِي حَيَاتِهِ فَلَا يَحْتَاجُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ لِغَيْرِهِ وَأَنْ يَكُونَ قَادِراً عَلَى أَنْ يَدُورَ مَعَ الزَّمَانِ كَيْفَ يَدُورُ ، وَهِيَ الْآنَ لَا تُنْتِجُ إِلَّا التَّمَسُّكَ بِالْوَسَطِ الَّذِي نَشَأَ فِيهِ وَالِاسْتِعَانَةَ بِعَائِلَتِهِ وَطَلَبَ الْمُسَاعَدَةِ مِنْ مُعَاشِرِيهِ ، وَالِاتِّكَالَ عَلَى بَعْضِ الصِّنَاعَاتِ الْعَرَضِيَّةِ كَالتَّوَظُّفِ فِي مَصَالِحِ الْحُكُومَةِ أَوْ الِاحْتِرَافِ بِالْأَعْمَالِ الْهَيِّنَةِ الَّتِي لَا تُكَلِّفُهُ جِدًّا وَلَا كَدًّا .

وَبِالْجُمْلَةِ لَا فَائِدَةَ الْيَوْمَ مِنَ التَّرْبِيَةِ إِذَا اقْتَصَرَتْ عَلَى تَعْلِيمِ الْمَرْءِ أَنْ يَعِيشَ فِي وَسَطٍ مَخْصُوصٍ كَالْعَائِلَةِ أَوْ أَهْلِ الْمَدَنِيَّةِ أَوِ السِّيَاسَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ تُفِيدُ إِذَا عَلَّمَتْهُ أَنْ تَكُونَ ذَاتُهُ الْوَسَطَ الَّذِي يَتَّكِلُ عَلَيْهِ فَيَتَمَكَّنَ مِنَ اسْتِعْمَالِ قُوَاهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ كَمَا خَلَقَهُ اللّٰهُ .

وَهَذِهِ التَّرْبِيَةُ مُخَالِفَةٌ لِمَا جَرَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ الْفَرَنْسَاوِيَّةُ مِنْ أَوَّلِ هَذَا الْقَرْنِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ، فَتَرَى الْآبَاءَ إِذَا تَكَلَّمُوا عَنْ أَبْنَائِهِمْ

يُكَرِّرُونَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ : « مَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ أَنْ يَعْمَلُوا عَمَلَنَا — كَفَى الْمَرْءَ شَرَفاً أَنْ يَتَقَدَّمَ وَيَتَرَقَّى فِي الْحَيَاةِ — يَلْزَمُ أَوْلاَدَنَا أَنْ يَنَالُوا وَظِيفَةً فِي الْحُكُومَةِ كَأَنْ يُعَيَّنُوا فِي الْمَحَاكِمِ أَوِ الْجَيْشِ أَوِ الْإِدَارَةِ ، لِأَنَّ الرِّزْقَ هُنَاكَ مَعْرُوفٌ مَأْمُونٌ ، فَلاَ نَخْشَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْمِحَنِ[1] فِيهَا — لَنَا مِنَ الثَّرْوَةِ مَا يَدْرَأُ[2] الْحَيْرَةَ عَنْ أَبْنَائِنَا فَسَنَتْرُكُ لَهُمْ كِفَايَتَهُمْ مَتَى عُيِّنُوا فِي وَظِيفَةٍ بِمُرَتَّبٍ مَضْمُونٍ وَتَزَوَّجُوا مِمَّنْ يَأْتِيهِمْ بِمَهْرٍ جَزِيلٍ[3] » وَمِثْلُ[4] ذَلِكَ مِنَ الْأَفْكَارِ الَّتِي نَعْرِفُهَا كُلُّنَا وَرُبَّمَا وَرَدَتْ عَلَى أَلْسِنَتِنَا . غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ يَعُدْ لَهَا فِي الْخَارِجِ مَعْنًى صَحِيحٌ . وَلَنْ تَكْفِيَ الْعَائِلَةُ وَلاَ تَنْفَعُ الْأَصْحَابُ وَالْوَظَائِفُ وَالْمَهْرُ النَّاسَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِأَوْلاَدِهِمْ ، وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنْ يَكُونَ قَادِراً بِنَفْسِهِ عَلَى كِفَايَةِ نَفْسِهِ مُسْتَعِدًّا بِذَاتِهِ لِاقْتِحَامِ[5] مَصَاعِبِ الْعَيْشِ وَمُغَالَبَةِ صُرُوفِ[6] الْحَيَاةِ ، وَهُنَا الصُّعُوبَةُ كُلُّ الصُّعُوبَةِ لِأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَتَعَوَّدُوا ذَلِكَ وَيَجْهَلُونَ أَيَّ طَرِيقٍ فِيهِ يَسْلُكُونَ . عَلَى أَنَّ الْفَائِدَةَ عَظِيمَةٌ فَلاَ يَنْبَغِي إِفْلاَتُهَا إِذِ التَّرْبِيَةُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي يَسْتَصْعِبُهَا النَّاسُ

(١) المحن : الشدائد (٢) يدرأ : يدفع (٣) جزيل : كثير (٤) ومثل معطوف على « هذه الكلمات » من قوله يكررون هذه الكلمات (٥) اقتحم الأمر : رمى بنفسه فيه من غير روية ، والمراد هنا الدخول مطلقا (٦) صروف الحياة : تصاريفها وتقلباتها

تُرَبِّى الرَّجُلَ عَلى فَضيلَةِ الاعْتِمادِ على نفسهِ، وَتخلقُ فيه مِن الشَّجاعَةِ مَا يُساعِدهُ على مُقاوَمةِ تقلُّباتِ الْأَعْصُرِ الحاضِرَة. وَالْفَرْقُ بَيْننا مِنْ جِهةِ اعْتِمادِ ناعلى أَهْلِنَا وَأَصْدِقائِنا وَ بَيْنَ الْأُمم الَّتى تُرَبّى أَفرادُهَا عَلَى الْقِيَام بِشُؤُون أَنفُسِهِمْ بِجِدِّهِمْ وَعَمَلِهِمْ كالْفرقِ بَيْننا مِنْ جِهةِ قُوَّةِ التَّغَلُّب وَقابلِيَّةِ الاسْتِظْهَار وَبَيْنَ تلكَ الْقبائِلِ الْمُتوَحِّشَةِ الَّتِي تَدْخُلُ فى دِينِنَا تَبَعاً لِدُخُولِ رُؤَسَائِهِمْ فيهِ .

تِلْكَ هِيَ أَسْبَابُ الِانحِطَاطِ فى التَّرْبِيَةِ وغيرِهَا، وَهذِهِ وِجْهَتُهُ وَغَايَتُهُ، وَلَابُدَّ لَنا مِنْ تَخَطِّى هَذِهِ الْعَقَبَةِ طَائِعِينَ أَوْ مُكْرَهِينَ، وَلَابُدَّ مِنَ الْعَمَلِ عَلى نَقِيضِ مَا نَحْنُ فِيهِ الْآنَ .

فى التَّجَارِبِ هَادٍ يُرْشِدُ إِلى الطَّرِيقَةِ الْمُثْلَى[1] لِنَيْلِ الْغَرَضِ الَّذِى نَدْعُو إِلَيْهِ، فِيهَا أَمَانٌ مِنَ التَّخَبُّطِ وَالزَّلَلِ[2]، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَاتَجَارِبَ عِنْدَنَا لِأَنَّ كلَّ شَىْءٍ فِى بَلَدِنَا يَجْرِى عَلَى نَقِيضِ الْمَطْلُوبِ. وَجَبَ إِذَنْ أَنْ نَسْتَعِيرَ تَجَارِبَ غَيْرِنا مِنَ الْأُمَمِ الَّتى اجْتَازَتْ هَـذِهِ الْعَقَبَةَ وَصَارَتْ تُرَبِّى شُبَّانًا قادِرِينَ عَلَى الْعَمَلِ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ دُونِ احْتِيَاجٍ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَوْ أَصْدِقَائِهِمْ أَوْ حُكُومَتِهِمْ، وَتِلْكَ الْأُمَمُ مَوْجُودَةٌ لَا يُنكِرُهَا إِلَّا الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا، وَهِيَ الَّتِى أَصْبَحَتْ تُغِيرُ عَلَى الدُّنْيَا وَتَسْتَخْرِجُ مَجْهُولَاتِهَا وَتَسْتَعْمِرُهَا وَتُقْصِى

(١) المثلى: الفضلى (٢) الزلل: الخطأ

عَنَاصِرُهَا الدُّنْيَا الْقَدِيمَةَ فِي تَقَدُّمِهَا ، وَتَأْتِي هَذِهِ الْمُعْجِزَاتِ كلّهَا بقوّة الهمة الشخصية وسلطان رجال لا يعتمدون في عملهم إلاّ على أنفسهم . ولنا في المقابلة بين ما فعله رجل التربية الجديدة في أمريكا الشمالية وما فعله رجل التربية القديمة التي لا تزال تربيتنا من سوء حظنا في أمريكا الجنوبية ما يكفي للإقناع بصحة قولنا.

الفرق عظيم كما بين الأبيض والأسود ، فأهل الشمال قد بلغوا في الزراعة منتهاها ، وحازوا من الصناعة والتجارة أقصى المراتب ، وفي الجنوب أمة أقعدها الخمول واستولى عليها الارتخاء وفترت عزائمها داخل المدن وفي مصالح الحكومة وفي الاشتغال بالثورة السياسية . في الشمال ترى المستقبل مشرقاً ، وفي الجنوب ترى الماضي مولياً . نعم قد تولى ذلك الماضي وأصبح رجال الشمال الأشداء الأقوياء يهبطون أمريكا الجنوبية التي ساء حظها ، وجعلوا يضعون أيديهم على أعظم مواقع الزراعة التي أماتها الكسل الأندلسي أو البرتغالي ، فأصبحوا قابضين على السكك الحديدية والبيوتات المالية ، ومعامل الصناعة الكبرى ومحال التجارة العظمى .

كنت أتحادث في هذا أيام المعرض العمومي في باريس مع رئيس قسم جمهورية « ارجنتين » نخبرني بغارة الانكليزي وأخيه

« اليانكى » وكان محزوناً يتأسف ويشدد النكير على غيره شأن الضعيف على الدوام لأن القول أسهل من حمل النفس على الجد حتى تساوى الأقوياء. على أن أولئك الذين ينافسونهم لم يتعودوا غير هذا الاجتهاد والدأب المستمر فهم أمم لا يخاف فتيانهم عيشة التزاحم والتنافس، وما حفظت تلك الأمم قوتها الأدبية والدينية إلا بتمسكها بأنانيتها واعتمادها على نفسها. نعم ليس الدين متيناً فيهم كما هو فى الكنيسة مثلاً، غير أنهم أقل عداء للدين بكثير منا معشر الفرنساويين، والسر فى ذلك شعور كل فرد منهم بأن تبعة عمله راجعة إليه دون سواه.

وليس هذا بغريب لأن المرء فى الجمعيات القديمة كان يعتمد على وسطه ويتبعه قوة وضعفاً وسعة وضيقاً أكثر مما كان يعتمد على نفسه وهمته وإرادته الخاصة، وذلك الوسط إما أن يكون العائلة أو الداخلية فى المدارس أو الفرقة العسكرية (الآى) أو المصلحة التى هو موظف فيها أو السياسة وهكذا، وكانت اللحم (١) التى ترتبط بها حياته فى الأفكار والمعتقدات والتقاليد السياسية والعادات الاجتماعية والدينية خارجة على ذاته لا مستمدة منها، فهو يفكر أو يعمل على هذا النحو أو على ذلك لأنه رأى الوسط

(١) اللحم : جمع لحمة وهى القرابة

الَّذِى عَاشَ فِيهِ يُفَكِّرُ هَكَذَا ، وَمَتَى انفَرَطَ عِقْدُ نِظَامِ هَذَا الْوَسَطِ ذَهَبَ كُلُّ فَرْدٍ عَلَى أُمِّ[(١)] رَأْسِهِ لاَ يَدْرِى أَيْنَ يَضَعُ قَدَمَيْهِ لأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ يَقُومُ بِذَلِكَ الْوَسَطُ فِى الْهَيْئَةِ الْقَدِيمَةِ قَوِيًّا مَتِيناً مُقَوِّماً لِجَمِيعِ الْأَفْرَادِ وَإِنْ ضَعُفَتْ مِنْهُمُ الْعَزَائِمُ وَانْحَلَّتْ الإِرَادَةُ ، وَكَانَ بَيْنَ الْوَسَطِ وَأَفْرَادِهِ تَفَاعُلٌ هَذَا يُقَوِّى ذَاكَ فَكَانَ الْمَجْمُوعُ مُتَمَكِّناً فِى وُجُودِهِ كَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ[(٢)] لاَ يَزَالُ قَائِماً لارْتِكَازِهِ عَلَى الْمَنَازِلِ الَّتِى تُجَاوِرُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَلْبَثُ أَنْ يُلَبِّىَ دَاعِىَ السُّقُوطِ إِذَا هُدِّمَتْ تِلْكَ الْمَنَازِلُ ، وَعَلَيْهِ يَنْبَغِى الْحَذَرُ مِنْهَا.

هَذَا هُوَ الَّذِى كَانَ مِنْ أَمْرِ وَسَطِنَا الاُجْتِمَاعِىِّ الْقَدِيمِ فَإِنَّكَ تَرَى الْيَوْمَ بَقَايَاهُ، بَعْدَ أَنْ تَهَدَّمَ ، مَنْثُورَةً فِى جَمِيعِ الْأَرْجَاءِ[(٣)] ، وَمَا كُنَّا مُسْتَعِدِّينَ لِنَخْرُجَ مِنْهُ وَنَسْتَعِيضَ غَيْرَهُ عَنْهُ ، لِذَلِكَ ضَلَّ رُشْدُنَا وَبَقِينَا نَطْلُبُ الْمَعُونَةَ مِنَ الْمَلاَجِىءِ الَّتِى تَعَوَّدْنَا الْحَيَاةَ تَحْتَ حِمَايَتِهَا كَالْعَائِلَةِ وَالطَّائِفَةِ وَالْحُكُومَةِ الْجُمْهُورِيَّةِ فِي نَظَرِ قَوْمٍ أَوِ الْمُلُوكِيَّةِ الْمُقَيَّدَةِ فِى نَظَرِ آخَرِينَ وَمِنَ الْكَنِيسَةِ وَمِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِلاَّ مِنْ أَنْفُسِنَا وَقَدْ مَلأْنَا الْفَضَاءَ بِالْعَوِيلِ[(٤)] بَدَلَ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى الْأُمَمِ الَّتِى لاَ تَعْتَمِدُ عَلَى غَيْرِ هِمَّةِ الْأَفْرَادِ الذَّاتِيَّةِ فَنُقَلِّدُهَا وَنَحْذُوَ حَذْوَهَا كَمَا يَفْعَلُ الرِّجَالُ.

---

(١) أم الرأس: الدماغ أو الجلدة الرقيقة التى عليها ، يريد ذهب هائماً (٢) العتيق : القديم (٣) الأرجاء : النواحى (٤) العويل : الصياح والبكاء

وَإِذَا أَرَدْتَ الْوُقُوفَ عَلَى مُعَامَلَةِ تِلْكَ الْأُمَمِ لِأَبْنَائِهَا فَإِلَيْكَ الْبَيَانَ :

أَوَّلاً : لَا يَعْتَبِرُ الرَّجُلُ فِيهَا أَنَّ الْأَبْنَاءَ مِلْكٌ لَهُ وَجُزْءٌ مِنْ مَالِهِ مُتَمِّمٌ لِذَاتِهِ كَأَنَّ الْأَبَ يَعِيشُ فِي بَنِيهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، بَلْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِ كَوْنِهِمْ أَفْرَادًا مَصِيرُهُمْ إِلَى الِاسْتِقْلَالِ عَنْهُمْ ، وَلِذَلِكَ لَا هَمَّ لِلْآبَاءِ إِلَّا تَعْجِيلُ هَذَا الْإِطْلَاقِ الْمُحَتَّمِ عَلَى النَّحْوِ الْأَكْمَلِ وَلَا مَرْجِعَ لِأُبُوَّتِهِمْ إِلَّا هَذَا ، فَلَا يَحْمِلُهُمْ حُبُّهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ عَلَى ابْتِلَاءِ أَبْنَائِهِمْ وَإِلْصَاقِهِمْ بِجَانِبِهِمْ وَتَعْوِيدِهِمْ مَا اعْتَادُوا وَاتِّخَاذِهِمْ حَاشِيَةً يَتَلَذَّذُونَ بِالنَّظَرِ إِلَيْهَا وَيَرْتَاحُونَ لِطَاعَتِهَا وَقِلَّةِ مَتَاعِبِهَا . أَمَّا نَحْنُ فَفِي مَيْلِنَا لِأَبْنَائِنَا جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ حُبِّ الذَّاتِ وَإِنْ كَانَ مَسْتُورًا بِسِتْرٍ جَمِيلٍ فَإِنِّي رَأَيْتُ - وَكُلُّنَا رَأَى - كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ رَغِبُوا عَنِ الزَّوَاجِ بَعْدَ مَا رَغِبُوا فِيهِ لِأَنَّ الزَّوْجَيْنِ لَا بُدَّ أَنْ يُقِيمَا فِي مَدِينَةٍ غَيْرِ الَّتِي يَسْكُنُهَا الْوَالِدَانِ ! وَمَا ظَنُّكَ بِمَا لَوْ وَجَبَ أَنْ يُقِيمَا فِي بِلَادٍ أَجْنَبِيَّةٍ ؟! وَالسَّبَبُ فِي هَذَا شِدَّةُ حُبِّ الْوَالِدَيْنِ . وَلَعَمْرِي لَسْتُ أَدْرِي إِنْ كَانَ يُرَادُ بِهَذَا الْحُبِّ مَنْفَعَةُ الْآبَاءِ أَوْ مَصْلَحَةُ الْأَبْنَاءِ .

ثانيا : مِنْ عَادَةِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ أَنْ يُعَامِلُوا أَبْنَاءَهُمْ مُنْذُ نُعُومَةِ الْأَظْفَارِ كَأَنَّهُمْ رِجَالٌ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَائِمٌ بِذَاتِهِ مُسْتَقِلٌّ عَمَّنْ سِوَاهُ وَبِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ يَصِيرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَجُلاً كَبِيرًا وَذَاتًا حَقِيقِيَّةً ،

إذ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَ. أَمَّا نحنُ فَنُعَامِلُ أَبْنَاءَنَا كالأَطْفَال وَهُمْ صِغَارٌ وَهُمْ كِبَارٌ وَبَعْدَ أَنْ يَصِيرُوا رِجَالاً لِأَنَّنَا تَعَوَّدْنَا أَنْ نَعْتَبِرَهُمْ أَطفَالاً لِعِلَّةِ أَنَّهُمْ أطفَالُنَا.

ثَالِثاً: يُلاَحِظُ الآبَاءُ فِى التَّرْبِيَةِ حَاجَات الأُمَّةِ المُسْتَقْبَلَةِ فِى الحَيَاةِ غَيْرَ مُلْتَفِتِينَ إِلَى مَا اقْتَضَاهُ المَاضِى وَدَرَجَ عَلَيْهِ الجِيلُ المُتَقَدِّمُ، فَلاَ يَنْصِبُونَ(١) أَنفُسَهُمْ أَمَامَ أَبْنَائِهِمْ مِثَالاً يَمْشُونَ عَلَيْهِ وَلاَ يُشَخِّصُونَ الْوَسَطَ الَّذِى عَاشُوا فِيهِ لِيَتَّبِعُوا خُطُوَاتِهِمْ فِيهِ. أَمَّا نَحْنُ فَنَجْرِى فِى التَّرْبِيَةِ عَلَى نَسَقِ أَشْرَافِ السِّنِينَ الأَخِيرَةِ مِنَ القَرْنِ المَاضِي حَيْثُ كَانُوا فِى أَوَّلِ القَرْنِ الحَالِيِّ يُرَبُّونَ أَوْلاَدَهُمْ عَلَى تَقَالِيدِ الزَّمَنِ القَدِيمِ وَعَلَى مَا كَانَ لَهُمْ فِيهِ مِنَ المَنْزِلَةِ المُمْتَازَةِ وَالثَّرْوَةِ الَّتِى فَرَّتْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَالْبَلاَطِ المُلُوكِيِّ الَّذِى كَانُوا يَمْرَحُونَ فِى جَوَانِبِهِ وَآثَارٍ لَيْسَ فِيهَا اليَوْمَ فَائِدَةٌ لِكَوْنِهَا عَفَتْ(٢) وَأَصْبَحَتْ خَيَالاً.

رَابِعاً: لِتِلْكَ الأُمَمِ عِنَايَةٌ كُلِّيَّةٌ بِصِحَّةِ الأَبْنَاءِ وَتَرْبِيَةِ قُوَّتِهِمْ الجِسْمِيَّةِ إِلَى الحَدِّ المُمْكِنِ إِنْمَاءً لِهِمَّتِهِمِ المَادِّيَّةِ لاَ كَمَا نَفْعَلُ نَحْنُ مِنَ الاقْتِصَارِ عَلَى الاعْتِنَاءِ بِالصِّحَّةِ ثُمَّ نُضَحِّى بِهَا فِى الدَّرْسِ وَالمُطَالَعَةِ وَنُنْهِكُهَا بِالامْتِحَانَاتِ وَلَوَازِمِهَا وَالإِقَامَةِ فِى المُدُنِ وَمَا يَتْبَعُهَا، وَهُمْ لاَ يَطْلُبُونَ تِلْكَ القُوَّةَ بِالإِفْرَاطِ فِى الرِّيَاضَةِ البَدَنِيَّةِ أَوْ إِجْهَادِ

(١) ينصبون : يقيمون (٢) عفت : درست وامحت

الجِسْم بِمَا يُؤَدِّى فِى الحَقِيقَةِ إِلَى ضَعْفِهِ أَو التَّفَنُّن فِى الحَرَكَاتِ الجِمْنَسْتِيكِيَّةِ وَإِنَّمَا هُمْ مِنْ ذَوِى الحِذْقِ فِى مَعْرِفَةِ لَوَازِمِ الأَجْسَام .

على أَنَّنَا اليَوْمَ نُحَاوِلُ إِدْخَالَ طُرُق الرِّيَاضَة الجِسْمِيَّة الإِنْكلِيزِيَّة فِى مَدَارِسِنَا لِنعْتَاضَ بِهَا عَن الجِمْنَاس المُضِر عِنْدَنَا وَلَيْسَ هُوَ إِلاَّ أَثرًا مِنْ آثار التَفنُّن الجَدِيد فِى التَّرْبِيَة لا فَائِدَةَ فِيه وَلَيْسَ مِنْ حَاجَةٍ صَحِيحَةٍ إِلَيْهِ وَلَكِنَّا نُحَافِظُ دَوَاماً عَلَى الوَسَطِ الَّذِى يُحْدِقُ بِنا أَنَّى وُجِدْنا(١) ، وَلاَ نَجْهَلُ أَنَّ قَوْمَنا لَمْ يَنجَحُوا عَلَى الدَّوَامِ فِى اسْتِعْمال الرِّيَاضَةِ الإِنكلِيزِيَّةِ عِنْدَنا لِأَنَّهُمْ يُضِيفونَ إِلَيْهَا ، كما هِيَ عَادَتُهُمْ فِى كلِّ شَىْءٍ ، كَثِيرًا مِنَ الخَلَاعَةِ وَالإِعْجَاب. كما لا نَجْهَلُ أَنَّهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْهَا كَأَنَّهَا وَظِيفَةٌ إِدَارِيَّةٌ يُشَدِّدُونَ فِى تَنْظِيمِها ، وَتَرْتِيبِ أَوْقَاتِهَا وَأَعْمالِهَا ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ التَّلَامِذَةِ يَمِيلُونَ إِلَيْها هَرَبًا مِنَ الدَّرْسِ وَالمُطَالعَةِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا المِثالَ النَّاقِصَ يَدُلُّ عَلَى أَصْلِهِ . وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ تِلْكَ الأَلْعَاب تلائِمُ نُمُوَّ الجِسْم كما يَنْبَغِى وَتُسَاعِدُ كَثِيرًا عَلى تَعْوِيدِ النَّفْس السُّكُون فَيَصِيرُ صَاحِبُها مُتَمَكِّنًا مِنْ ذَاتِهِ ، وَهَذَا شَرْطٌ لا بُدَّ مِنهُ لِمَنْ طَلَبَ النَّجَاحَ .

خَامِسًا : يُعَوِّدُ الآبَاءُ أَبْنَاءَهُمْ فِى تِلْكَ الأُمَّةِ مُنْذُ الصِّغَرِ عَلَى الاشْتِغَالِ بِالأَعْمَال المَادِّيَّةِ ، فَلَا يَخَافُونَ أَنْ يَتْرُكُوهُمْ وَحْدَهُمْ

(١) أى فى أى مكان وجدنا

يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ وَيُكَلِّفُونَهُمْ بَعْضَ الْأَعْمَالِ أَوْ بَعْضَ الْمَأْمُورِيَّاتِ الَّتِي تَلِيقُ بِسِنِّهِمْ وَيَقْصِدُونَ أَحْيَانًا أَنَّهَا تَكُونُ فَوْقَ ذَلِكَ ، وَهِيَ عَادَةٌ يَسْتَغْرِبُ مِنْهَا الْفَرَنْسَاوِيُّونَ إِذَا ذَهَبُوا إِلَى بِلَادِ إِنْكِلْتِرَا أَوِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ كَمَا يَسْتَغْرِبُ الْإِنْكِلِيزُ مِنِ اسْتِغْرَابِنَا إِذْ يَرَوْنَ أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي يُدْهِشُنَا طَبِيعِيٌّ وَهُوَ فِي اعْتِبَارِهِمْ أَحَدُ عَوَامِلِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْهُ أَوَّلاً وَبِالذَّاتِ تَكْوِينُ الرِّجَالِ لَا مُجَرَّدُ الْمُسْتَنِيرِينَ وَالْمُوَظَّفِينَ ، وَلَوْلَا أَنِّي أَخْشَى مِنْ خَجَلِ الْقُرَّاءِ عِنْدَنَا لَخَبَّرْتُهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُفَرِّقُونَ فِي هَذِهِ التَّرْبِيَةِ بَيْنَ الْبَنِينَ وَالْبَنَاتِ إِلَّا قَلِيلاً . فَالدَّوَاعِي[1] وَاحِدَةٌ بِالنَّظَرِ إِلَى الْفَرِيقَيْنِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ تَقْلِيدَهُمْ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَعِدَّ الْوَسَطُ لِقَبُولِهِ يَضُرُّ أَكْثَرَ مِمَّا يُفِيدُ فَهُوَ عِنْدَهُمْ أَكْثَرُ فَائِدَةً وَأَقَلُّ ضَرَرًا مِمَّا هُوَ عِنْدَنَا ، وَالْمَقَامُ لَا يَحْتَمِلُ أَنْ أُوَفِّيَ الْبَيَانَ حَقَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ، فَرُبَّمَا جَرَّ الْإِيضَاحُ إِلَى أَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ

سَادِسًا : يُعَلِّمُ الْآبَاءُ عَادَةً أَبْنَاءَهُمْ صَنْعَةً يَدَوِيَّةً لِأَنَّ تِلْكَ الْأُمَمَ لَا تَحْتَقِرُ تِلْكَ الصِّنَاعَاتِ ذَلِكَ الِاحْتِقَارَ الْعَظِيمَ الَّذِي نَجِدُهُ مِنْ نُفُوسِنَا بَلْ إِنَّهُمْ تَخَلَّصُوا مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ مِنْ هَذَا الْوَهْمِ الَّذِي أَضَرَّبِنَا أَكْثَرَ

(١) الدواعى : الأسباب الداعية

مِنْ مِائَةِ كَسْرَةٍ[1] فى مواقِفِ الْقِتَال ، فَلَا يعتقدُون أَنَّ مِن الصِّنَاعَاتِ مَا هُوَ شَرِيفٌ وَمِنْهَا مَاهُوَ وَضِيعٌ ، بَلْ يَرَوْنَ — كما هُوَ الْأَصَحُّ — أَنَّ النَّاسَ رَجُلَانِ : كُفْؤٌ وَغَيْرُ كُفْؤٍ ، وَأَنَّهُمْ عَامِلٌ وَكَسُولٌ ؛ وَهَكَذَا يَصِيرُ ابْنُ (اللُّورْدِ) زَرَّاعًا أَوْ صَاحِبَ مَصْنَعٍ أَوْ تَاجِرًا ، وَلَا يَنْقُصُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ شَرَفِهِ وَمَنْزِلَتِهِ لِأَنَّ الْأَمْرَ عَامٌّ فى أُمَّتِهِ ، أَجَلْ[2] هُنَاكَ صَنْعَةٌ يَحْتَقِرُونَهَا وَيَعُدُّونَهَا أَدْنَى مِنَ الْبَقِيَّةِ أَلَا وَهِىَ صِنَاعَةُ الْمُوَظَّفِ وَالْمُشْتَغِلِ بالسِّيَاسَةِ وَهُمْ يَنْتَقِدُونَهَا مِنْ جِهَتَيْنِ : الْأُولَى أَنَّهَا صِنَاعَةٌ لَا يَرْبَحُ صَاحِبُهَا كَثِيرًا إِلَّا فى الْوَظَائِفِ الْكُبْرَى ، الثَّانِيَةُ أَنَّهَا تَسْلُبُ الرَّجُلَ حُرِّيَّتَهُ . وَمِنْ هُنَا يَرَى الْقَارِئُ أَنَّ التَّرْبِيَةَ الإِنْكلِيزِيَّةَ السَّكْسُونِيَّةَ تَمِيلُ قَبْلَ كُلِّ شَىْءٍ بِالْإِنْسَانِ إِلَى الْحُرِّيَّةِ وَالاسْتِقْلَالِ ، لِذَلِكَ قَلَّتْ تِلْكَ الصِّنَاعَةُ فى بِلَادِهِمْ وَهِىَ فى بِلَادِ إِنكلترا مَوْكُولَةٌ فى الْغَالِبِ إِلَى الَّذِينَ مِنْ أَصْلٍ (سَلْتِىٍّ) أَوْإِيرلَنْدِىٍّ أَوْ إِيقُوسِىٍّ أَوْ مِنْ بِلَادِ الْغَالِ ، وَيَشْغَلُهَا الإِرْلَنْدِيُّونَ وَالْأَلْمَانِيُّونَ أَصْلًا فى الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ . وَقَدْ قَرَّرَ صَدِيقِى مُوسْيُو (بول روسيه) هَذِهِ الْحَقِيقَةَ بِأَجْلَى بَيَانٍ فى كِتَابِهِ (الْحَيَاةُ الأَمِرِيكِيَّةُ) الَّذِى أَلَّفَهُ بَعْدَ زِيَارَتِهِ لِلْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ لِاسْتِطْلَاعِ أَحْوَالِهَا عَلَى طَرِيقَتِنَا .

(١) هزيمة (٢) أجل : نعم

وَلِشِدَّةِ الْمَيْلِ إِلَى تَعْلِيمِ الأَطْفَالِ صِنَاعَةً يَدَوِيَّةً تَجِدُهُمْ يَتَعَلَّمُونَ الْكَثِيرَ مِنْهَا بِالتَّدَرُّبِ وَالاسْتِعْمَالِ ، وَذَلِكَ لاَ يَتَأَتَّى عِنْدَنَا بِغَيْرِ الْمَدَارِسِ . مِثَالُهُ أَنَّ الرَّجُلَ عِنْدَهُمْ يَصِيرُ مُهَنْدِسًا بِالشُّغْلِ فِى الْمَصَانِعِ لاَ بِالدَّرْسِ فِى الْمَدْرَسَةِ ، وَلَيْسَتْ النَّظَرِيَّاتُ لَدَيْهِمْ إِلاَّ مُتَمِّمَةً لِلْعَمَلِ فِى جَمِيعِ الصِّنَاعَاتِ وَالْحِرَفِ ، وَنَحْنُ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ نَحْتَقِرُ بِالْعِلْمِ الْعَمَلَ ، وَدَلِيلُهُ أَنَّ جَمْعِيَّةَ تَقَدُّمِ الزِّرَاعَةِ عِنْدَنَا تُقِيمُ فِى مَدِينَةِ بَارِيسَ ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لاَ يَتَخَرَّجُ مِنْهَا إِلاَّ مُوَظَّفُو نِظَارَةِ الزِّرَاعَةِ وَإِنَّ مِنَ الْمُتَمَنِّيَاتِ أَنْ تَنْتَقِلَ أَيضاً مَدْرَسَةُ الْبَحْرِيَّةِ فِى تِلْكَ الْمَدِينَةِ

سَابِعاً : يَسْبِقُ الآبَاءُ أَبْنَاءَهُمْ عَلَى الدَّوَامِ فِى مَعْرِفَةِ جَمِيعِ الْبَدْئِيَّاتِ النَّافِعَةِ شَأْنُ الأُمَّةِ الَّتِى تَهْتَمُّ دَائِماً بِالْمُسْتَقْبَلِ وَتُهْمِلُ الْمَاضِيَ وَتَلْتَفِتُ إِلَى الصِّنَاعَاتِ الْجَارِيَةِ الَّتِى يَتَقَدَّمُ التَّفَنُّنُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ لاَ إِلَى الْوَظَائِفِ الإِدَارِيَّةِ الَّتِى لاَ تَغْيِيرَ فِيهَا وَلاَ تَبْدِيلَ ، وَتَبْنِى آمَالَهَا فِى النَّجَاحِ عَلَى قُوَّتِهَا الذَّاتِيَّةِ لاَ عَلَى الْوَسَطِ بِأَنْوَاعِهِ وَهَذَا هُوَ الاسْتِعْدَادُ الَّذِى وَلَّدَ فِى الإِنْكِلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ اشْتِغَالَهُ الْمُسْتَدِيمَ بِمُلاَحَظَةِ الوَقَائِعِ الْمَادِّيَّةِ بَعْدَ تَحْقِيقِهَا تَحْقِيقاً صَحِيحاً ، وَقَدْ يُرَتِّبُهَا كَمَا يَنْبَغِى وَإِنَّمَا غَرَضُهُ أَنْ يَجْتَمِعَ إِلَيْهِ مِنْهَا مَا عَسَاهُ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِى كُلِّ شَأْنٍ مِنْ شُؤُونِهِ ، وَهَذَا هُوَ الَّذِى

يَطْلُبُهُ مِنْ قِرَاءَةِ جَرَائِدِهِ الَّتِى تُشْبِهُ جَرَائِدَنَا كَمَا يُشْبِهُ النَّهَارُ اللَّيْلَ(١) لِأَنَّ الغَرَضَ مِنْ جَرَائِدِنَا تَسْلِيَةُ النَّفْسِ كَمَا يَقُولُونَ وَالْجَدِيدَةُ مِنْهَا تَتَوَخَّى إِثَارَةَ النَّزَعَاتِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَهِيَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى لِلتَّسْلِيَةِ ، وَالنَّتِيجَةُ وَاحِدَةٌ هِيَ قَتْلُ الْوَقْتِ بِلَا جَدْوَى . أَمَّا جَرَائِدُهُمْ فَإِنَّهَا تَقْصِدُ الْإِفَادَةَ مَعَ الِاخْتِصَارِ وَالْإِجَادَةِ ، وَهِيَ قَلِيلَةُ الْخَوْضِ فِي النَّظَرِيَّاتِ وَالْإِكْثَارِ مِنَ الْعُمُومِيَّاتِ، وَكُلُّهَا مَحْشُوَّةٌ وَقَائِعَ تَحْكِى(٢) وَقَائِعَ وَتُخْبِرُ عَنْ وَقَائِعَ

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْنَا مِنَ الْمَعْلُومَاتِ إِلَّا مَا عَلَيْهِ الصَّحَافَةُ فِي الْأُمَّتَيْنِ لَكَفَى ذَلِكَ مُوَضِّحاً لِلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا

إِذَا عَلِمْتَ هَذَا عَلِمْتَ مِنْ غَيْرِ دَهْشَةٍ أَنَّ مُحَادَثَةَ الرَّجُلِ لِابْنِهِ تَدُورُ عِنْدَهُمْ عَلَى الْأُمُورِ الْحَقِيقِيَّةِ النَّافِعَةِ ، فَلَا يَقْضُونَ وَقْتَهُمْ فِي ذِكْرِ مَنْ يَتَحَرَّى الْجَدِيدَ فِي لِبَاسِهِ وَزِيِّهِ وَإِعَادَةِ مَامُلِئَتْ بِهِ الْمَجَالِسُ الْبَارِيسِيَّةُ وَتَكْرَارِ حَوَادِثِ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ زَمَنِ الْهَنَاءِ وَالصَّفَاءِ ، بَلْ حَدِيثُهُمُ التَّزَاحُمُ فِي الْحَيَاةِ وَقُدْرَةُ كُلِّ فَرْدٍ عَلَى كِفَايَةِ حَاجَاتِهِ لِنَفْسِهِ .

ثَامِناً : لَا يَسْتَعْمِلُ أُولَئِكَ الْآبَاءُ سُلْطَتَهُمْ عَلَى أَبْنَائِهِمْ فِي الظَّاهِرِ إِلَّا قَلِيلاً بَلْ يَدَّخِرُونَهَا لِلْأَحْوَالِ الْعَظِيمَةِ الِاسْتِثْنَائِيَّةِ ، ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَهُمْ مُسْتَقِلِّينَ عَنْهُمْ كَأَنَّهُمْ رِجَالٌ كَمَا قَدَّمْنَا وَلَا

---

(١) يريد أنه فى الواقع لاشبه بينهما (٢) تحكى تماثل

يَتأَتَّى أَنْ يُرَبَّى الرَّجُلُ مَقهورًا عَلَى الدَّوَامِ تَحْتَ سُلْطَةِ غَيْرِهِ وَلَوْ كَانَتْ سُلْطَةَ أَبَوَيْهِ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ التَّرْبِيَةَ الْحَقِيقِيَّةَ الْمُثْمِرَةَ هِيَ الَّتِي تَكُونُ بِالتَّدْرِيبِ وَالتَّدْرِيجِ، لِذَلِكَ تَرَاهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ الْإِيمَاءَ وَالنُّصْحَ أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُونَ الْقَسْرَ وَالْأَمْرَ مُظْهِرِينَ فِي إِيمَائِهِمْ وَنُصْحِهِمْ أَنَّهُمْ مُجَرَّدُونَ عَنِ الْمَنْفَعَةِ وَلَا يَجْعَلُونَ إِمْرَتَهُمْ بَاعِثًا إِلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُمَا بَلْ يَتْرُكُونَ الْوَلَدَ يُفَكِّرُ فِيهِمَا وَيَتَدَبَّرُهُمَا حَتَّى يَعْتَقِدَ أَنَّهُمَا صَوَابٌ فَيَجْرِيَ عَلَيْهِمَا.

تَاسِعًا: وَهُوَ أَهَمُّ الْوَسَائِطِ وَأَنْجَحُهَا وَقَدِ اخْتَرْنَاهُ خِتَامًا — عِلْمُ الْأَبْنَاءِ بِأَنَّ الْآبَاءَ لَا يَتَحَمَّلُونَ نَفَقَتَهُمْ بَعْدَ تَرْبِيَتِهِمْ، أَمَّا الْفَرَنْسَاوِيُّونَ فَكُلٌّ يَسْأَلُ صَاحِبَهُ: مَاذَا تُرِيدُ أَنْ يَكُونَ وَلَدُكَ؟ فَيُجِيبُهُ: سَأَجْعَلُهُ قَاضِيًا أَوْ مُوَظَّفًا إِدَارِيًّا وَهَكَذَا، وَمَا هَذَا إِلَّا لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ يَكُونُ وَالِدًا حَقِيرًا إِذَا لَمْ يَتَدَبَّرْ مُسْتَقْبَلَ ابْنِهِ وَيَهْتَمَّ بِاسْتِنْبَاطِ الْحِرْفَةِ الَّتِي يَحْتَرِفُ بِهَا عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ صَوَابًا نَافِعًا ثُمَّ يُبَالِغُ فِي حُنُوِّهِ فَيَتَجَرَّدُ عَنْ قِسْمٍ مِنْ مَالِهِ لِيَمْهَرَ أَوْلَادَهُ، لَكِنَّ الْآبَاءَ مِنَ الْإِنْكِلِيزِ وَالْأَمْرِيكَانِ لَا يُمْهِلُونَ أَبْنَاءَهُمْ بَلْ عَلَى كُلِّ جِيلٍ أَنْ يُحَصِّلَ حَاجَاتِ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ، وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْهُمْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ جِيلٍ سَابِقٍ عِنْدَنَا أَنْ يُوجِدَ أَسْبَابَ الرِّزْقِ لِلَّذِي يَلِيهِ. وَإِلَيْكَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ النَّتَائِجِ:

لِزَيْدٍ مِنَ النَّاسِ ثَلاثَةُ أَوْلادٍ أَوْ أَرْبَعَةٌ أَوْ خَمْسَةٌ فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُهَيِّئَ ثَلاثَةَ أَمْوَالٍ أَوْ أَرْبَعَةً أَوْ خَمْسَةً بِخِلافِ ثَرْوَتِهِ الْخُصُوصِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ الْأَوْلادُ رُشْدَهُمْ أَعْنِي فِي مَدَى عِشْرِينَ سَنَةً حَتَّى لا يَهْزَأَ بِهِ النَّاسُ وَلا يَسْقُطَ الْأَبْنَاءُ عَنْ دَرَجَتِهِمْ فِي الْهَيْئَةِ الْأُجْتِمَاعِيَّةِ وَإِلَّا لَمَا وَجَدَ سَبِيلاً لِزَوَاجِهِمْ فَإِنَّهُمْ لا يَتَزَوَّجُونَ إِلَّا بِأَمْوَالِهِمْ، وَهُوَ فِي عَمَلِهِ هَذَا يُشْبِهُ أَهْلَ اللِّيمَانَاتِ(١) الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْأَشْغَالِ الشَّاقَّةِ أَوْ كَمَنْ يُقَدِّمُ الذَّنَبَ قَبْلَ الرَّأْسِ ، وَلَيْسَ مَنْ يَجْهَلُ أَنَّ الْآبَاءَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ قَدْ أَهْمَلُوا الرَّأْسَ وَالذَّنَبَ مَعاً وَعَدَّ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ نَفْسَهُ مِنَ السُّعَدَاءِ بِوَلَدٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ .

كُنْتُ أَقْرَأُ أَخِيراً رَسَائِلَ فَرَنْكلان فَوَجَدْتُهُ فِي خِطَابٍ لِوَالِدَتِهِ يَتَكَلَّمُ عَنْ أَحَدِ أَوْلادِهِ وَكَوْنِهِ غَيْرَ مُهْتَمٍّ بِتَحْصِيلِ مَا يَقُومُ بِرِزْقِهِ مُعْتَمِداً عَلَى ثَرْوَةِ أَبِيهِ فَقَالَ : « سَأُزِيلُ عَنْهُ هَذَا الْخَيَالَ وَسَيَعْلَمُ مِنْ حَالَتِي وَمَا أُنْفِقُهُ كُلَّ يَوْمٍ أَنِّي لَنْ أَتْرُكَ لَهُ شَيْئاً » لَكِنَّ الرَّجُلَ مِنَّا يَرْتَعِدُ إِذَا رَأَى أَنَّهُ لَنْ يَتْرُكَ مَا يَرِثُهُ عَنْهُ الْأَبْنَاءُ وَيَغْضَبُ رَحْمَةً وَإِشْفَاقاً وَنَنْسَى أَنَّ الْأَبَ الْإِنْكِلِيزِيَّ السَّكْسُونِيَّ الَّذِي لا يَتْرُكُ شَيْئاً لِأَوْلادِهِ يُعْطِيهِمْ فِي الْحَقِيقَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يُعْطِي الْوَالِدُ الْفَرَنْسَاوِيُّ لِأَوْلادِهِ ، يُعْطِيهِمْ مَا نَهْتَمُّ بِهِ نَحْنُ وَلا نَصِلُ إِلَى

---

(١) يريد السجون

تَحْقِيقِه: يُعْطِيهِمْ هِمَّةً فى العَمَلِ وَقُدْرَةً عَلى طَلَبِ الرِّزْقِ وَعَزِيمَةً يَلْقَى بِهَا زَمَانَهُ رَابِطَ الْجَأْشِ (١) وَهُوَ مَالَوْ وَجَدْنَاهُ لاشْتَرَيْنَاهُ بِأَغْلَى الأَثْمَانِ وَمَالاَ يُفِيدُ المَالُ الَّذِى نَجْمَعُهُ بِالْكَدِّ وَالنَّصَبِ إلاَّ لإِطْفَائِهِ وَإِمَاتَتِهِ فى نُفُوسِ أَبْنَائِنَا لأَنَّنَا فى الْحَقِيقَةِ نُجَاهِدُ في سَبِيلِ الاقْتِصَادِ وَنَعِيشُ كالصَّعَالِيكِ وَنَتَّخِذُ العُقْمَ (٢) شِعَارًا لِكَىْ نُسَهِّلَ عَلى أَوْلاَدِنَا أَلاَّ يَعْمَلُوا شيئًا وَلِكَىْ لاَ يَعْمَلُوا إِلاّ القَلِيلَ مَا اسْتَطَاعُوا، وَنَظُنُّ بِهَذَا أَنّا جَعَلْنَاهُمْ عَلى المُسْتَقْبَلِ آمِنِينَ، غَيْرَ أَنّنا إذَا الْتَفَتْنَا إِلَى مَاحَوْلَنَا رَأَيْنَا أَنَّ تِسْعَةَ أَعْشَارِ الّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ عَلى غَيْرِهِمْ وَيَحُوزُونَ قَصَبَ (٣) السَّبْقِ فِي كُلِّ شَيْءٍ وَيَنْجَحُونَ النّجاحَ الحَقِيقِيَّ فِيمَا زَاوَلُونَ مِنَ الأَعْمَالِ يَخْرُجُونَ مِنْ صُفُوفِ الْوَاصِلِينَ بِأَنْفُسِهِمْ، أُولَئِكَ الّذِينَ غَالَبُوا الزَّمَانَ فَغَلَبُوهُ وَنَاجَزُوا كُلَّ صَعْبٍ حَتّى اسْتَظْهَرُوا عَلَيْهِ (٤) وَانْسَابُوا بِهِمَّتِهِمْ فى الْمُجْتَمَعِ الإِنْسَانِيِّ فَنَالُوا فِيهِ مَكَانًا عَلِيًّا، وَاذْكُرْ أَبْنَاءَ العَائِلاَتِ (وَمَا سُمُّوا كَذَلِكَ إِلاَّ لاِعْتِمَادِهِمْ عَلى عَائِلاَتِهِمْ وأَمْوَالِ عَائِلاَتِهِمْ أَكْثَرَ مِن اعْتِمَادِهِمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَرَكَنُوا إِلى مَهْرِ زَوْجَاتِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ رُكُونِهِمْ إِلى عَمَلِهِمْ) تَرَهُمْ يَسْقُطُونَ كُلَّ يَوْمٍ إِلى أَسْفَلِ الدَّرَجَاتِ لِأَنَّهُمْ أَقَلُّ مِنْ غَيْرِهِمْ فى كُلِّ شَيْءٍ مَعَ أَنَّهُمْ تَرَبَّوْا (تَرْبِيَةً

(١) أى قوى القلب (٢) يريد عدم الاكثار من النسل (٣) أى استولى على الأمد والغاية، وأصله أن الغاية التى يسبق اليها تذرع بالقصب وتركز تلك القصبة عند منتهى الغاية فمن سبق اليها حازها واستحق الشرف (٤) قهروه

جَمِيلَةً) كما يُقالُ ، وقدْ فقدُوا فِى هَذِهِ البِلادِ مَا كانَ لَهُمْ مِنَ النُّفوذِ كلِّهِ وَفرَّتْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ زعَامَتُهُمْ ، فَأَصْبَحَتْ المُلوكِيَّةُ لاَ حيَاةَ لَهَا وَأَمْسَتْ لاَ رَجاءَ فى إِعادَتِهَا ، ثُمَّ إِنَّهُمْ صَارُوا غيْرَ قادِرِينَ عَلَى نَيْلِ الْمَنْزِلَةِ وَاكْتِسَابِ الْجَاهِ بِكَدِّهِمْ وَعَمَلِهِمْ ، فبَاتُوا يَرْجُونَ الْبَقَاءَ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ شَرِيكٍ لَهُمْ فِى الْمِيرَاثِ وَمِنَ الْمَالِ الَّذِى تُقَدِّمُهُ إِلَيْهِمْ زَوْجَاتُهُمْ .

أَمَّا الشُّبَّانُ الَّذِينَ تَرَبَّوْا تِلْكَ التَّرْبِيَةَ الَّتِى شَرَحْنَاهَا فَهُمْ أَقوِيَاءُ الأَجْسَامِ مُتَعَوِّدُونَ مُزَاوَلَةَ الأَعْمَالِ الْحَقِيقِيَّةِ وَمُمَارَسَةَ الأَشْيَاءِ الْمَادِّيَّةِ ، تَرَبَّوْا عَلَى اعْتِبَارِهِمْ رِجَالاً وَتَمَرَّنوا عَلَى الاعْتِمادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ يَرَوْنَ الْحَيَاةَ كَحَرْبٍ وَنِزَالٍ (١) (وَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الدِّينُ الْمَسِيحِىُّ كلَّ الْمُوَافَقَةِ) لِذَلِكَ يَقْتَحِمُونَ مَتَاعِبَهَا بِشَبِيبَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ وَعَزْمٍ أَكِيدٍ بَلْ إِنَّهُمْ يُحِبُّونَ تِلْكَ الْمَتَاعِبَ وَيَشْعُرُونَ بِالْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، وَيَسْتَظْهِرُونَ عَلَيْهَا ، وَلَدَيْهِمْ مِنْ وَسَائِلِ مُقَاوَمَتِهَا مَا يَجْعَلُهُمْ يَرْتَاحُونَ لِمُلاَقَاتِهَا وَيَتَرَقَّوْنَ فِى مُجَاهَدَتِهَا

وَعَلَى الْقَارِىءِ أَنْ يُقَارِنَ بَيْنَ الاثْنَيْنِ ، وَيَحْكُمَ عَلَى نَتِيجَةِ التَّرْبِيَتَيْنِ ، أَمَّا أَنَا فَقَدْ كَشَفْتُ لَهُ الْقِنَاعَ عَنِ الْعَوَامِلِ الَّتِى تُحَرِّكُ تِلْكَ الأُمَّةَ الَّتِى تُغِيرُ الْيَوْمَ عَلَى جَمِيعِ الشُّعُوبِ الْقَدِيمَةِ وَتُهَدِّدُ

---

(١) نزال : قتال

وُجُودَهَا ، أَغَارَتْ تِلْكَ الأُمَّةَ عَلى الدُّنيا بأَجْمَعِهَا وَمُعْجِزَتُهَا هِيَ تِلْكَ الْغَارَةُ نَفْسُهَا مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا مِنْ سُلْطَةِ الْحُكُومَاتِ إِلاَّ النَّزْرُ الْقَلِيلُ، إِلاَّ أَنَّ لَدَيْهَا مِنَ الْقُوَّةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ أَعْظَمَهَا،وَالْقُوَّةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَكْبَرُ فِعْلاً مِنَ الْحُكُومَاتِ الْمُنَظَّمَةِ وَالْجُنُودِ الْمُحْتَشِدَةِ

مَا عَدُوُّنَا وَمَا الْخَطَرُ الَّذِي نَخَافُ مِنْهُ وَمَا الْبَلاءُ الَّذِي نَخْشَاهُ بِآتِيَةٍ لَنا مِنْ جَانِبِ نَهْرِ (الرين) الثَّانِي كما يظُنُّ قَوْمُنَا لِأَنَّ الْمُغَالاَةَ فِي تَجْنِيدِ الْعَسَاكِرِ وَتَقَدُّمَ مَذَاهِبِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ وَالْفَوْضَوِيِّينَ تَكْفِينَا مَؤُونَةَ(٢) ذَلِكَ الْعَدُوِّ وَلَيْسَ الصُّبْحُ بِبَعِيدٍ .

إِنَّمَا الْعَدُوُّ وَالْخَطَرُ وَالْبَلاءُ آتِيَةٌ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْ بَحْرِ الْمَانْشِ ، وَالْجَانِبِ الثَّانِي مِنَ الْمُحِيطِ الْإِتْلاَنْطِي فَهِيَ تُوجَدُ حَيْثُ يُوجَدُ الْإِنْكِلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ عَلى اخْتِلاَفِ مُسَمَّيَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي يَحْتَقِرُهُ النَّاسُ لِأَنَّهُ لاَ يَفِدُ عَلَيْهِمْ كَالْأَلْمَانِيِّ بِجَيْشِهِ الْجَرَّارِ وَسِلاَحِهِ الْمَصْقُولِ بَلْ يَأْتِيهِمْ بِمُفْرَدِهِ غَيْرَ مُسْتَصْحِبٍ إِلاَّ لِمِحْرَاثِهِ لَكِنَّهُمْ جَهِلُوا قِيمَةَ ذَاكَ الْمِحْرَاثِ وَقِيمَةَ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، وَمَتَى عَلِمُوا ذَلِكَ عَرَفُوا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِمِ الْخَطَرُ وَوَقَفُوا عَلى السَّبِيلِ الَّذِي يَسْلُكُونَهُ لِلْخَلاَصِ مِنْهُ .

(١) يريد تكاليف

الْبَابُ الثَّانِي

﴿ الْفَرَنْسَاوِيُّ وَالإِنْكِلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ ﴾

﴿ فِي حَيَاتِهِمَا الْخُصُوصِيَّةِ ﴾

آثَارُ الْفَرْقِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ فِي التَّرْبِيَتَيْنِ تَظْهَرُ أَوَّلاً فِي الْحَيَاةِ الْخُصُوصِيَّةِ وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ إِيرَادُ بَعْضِ الأَمْثِلَةِ الَّتِي اخْتَرْنَاهَا فِي فَرَنْسَا وَانْكِلْتِرَا

أَمَّا التَّرْبِيَةُ الَّتِي يَنْشَأُ عَلَيْهَا أَبْنَاؤُنَا فَإِنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى فُتُورِ هِمَّتِنَا وَضَعْفِ قُوَّتِنَا الاجْتِمَاعِيَّةِ وَهُمَا سَبَبَانِ مِنْ أَسْبَابِ انْحِطَاطِنَا بِالنَّظَرِ إِلَى انْكِلْتِرَا بِخِلافِهَا عِنْدَهُمْ فَإِنَّهَا هِيَ وَالْوَسَطُ الَّذِي يَعِيشُونَ فِيهِ يُؤَدِّيَانِ إِلَى إِنْمَاءِ الْقُدْرَةِ عَلَى مُغَالَبَةِ الْحَيَاةِ إِلَى الدَّرَجَةِ الْقُصْوَى فِي الأُمَّةِ بِتَمَامِهَا

الفصل الأول

﴿ فِى أَنَّ طَرِيقَةَ التَّرْبِيَةِ عِنْدَنَا تُقَلِّلُ المَوَالِيدَ فِى فَرَنْسَا ﴾

لَيْسَ الْغَرَضُ هُنَا أَنْ نُثْبِتَ نَقْصَ المَوَالِيدِ فِى فَرَنْسَا فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ أَثْبَتَتْهُ الْإِحْصَائِيَّاتُ كُلُّهَا وَاشْتَغَلَ بِهِ عُلَمَاءُ الْأَخْلَاقِ وَالِاقْتِصَادِيُّونَ وَالسِّيَاسِيُّونَ وَاتَّفَقُوا فِى إِثْبَاتِهِ ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّفِقُوا فِى بَيَانِ سَبَبِهِ وَكُلٌّ يَنْحُو نَحْوَهُ مِنْ غَيْرِ مُرْشِدٍ يَهْدِيهِ وَلَا طَرِيقَةٍ مُنْتَظِمَةٍ ، وَبَيَانُ السَّبَبِ هُوَ الْغَرَضُ الَّذِى نَتَوَخَّاهُ مُسْتَعِينِينَ فِيهِ بِنُورِ الْعِلْمِ الِاجْتِمَاعِىِّ

قُلْنَا إِنَّ نَقْصَ المَوَالِيدِ فِى فَرَنْسَا أَمْرٌ ثَابِتٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ وَيَكْفِى صِحَّةَ قَوْلِنَا إِيرَادُ بَعْضِ الْأَرْقَامِ

كَانَتْ حَالَةُ المَوَالِيدِ لِكُلِّ عَشَرَةِ آلَافِ نَسَمَةٍ(١) فِى مَدَى أَكْثَرَ مِنْ قَرْنٍ كَمَا يَأْتِى :

سِنِين مِنْ	سِنِين إِلَى	مَوَالِيد
١٧٧٠	١٧٨٠	٣٨٠
١٨٠١	١٨١٠	٣٢٥

(١) النسمة : الانسان والنفس

سنين من	سنين إلى	مواليد
١٨١١	١٨٢٠	٣١٦
١٨٢١	١٨٣٠	٣٠٩
١٨٣١	١٨٤٠	٢٨٩
١٨٤١	١٨٥٠	٢٧٤
١٨٥١	١٨٦٠	٢٦٧
١٨٦١	١٨٦٨	٢٦٤
١٨٦٩	١٨٨٠	٢٤٥
١٨٨١	١٨٩٦	٢٢٠

وَيُرَى مِنْ هَذَا أَنَّ نِسْبَةَ المَوَالِيدِ بَيْنَ سَنَةَ ١٧٧٠ وَسَنَةِ ١٨٩٦ سَقَطَتْ مِنْ ٣٨٠ إِلَى ٢٢٠ فِي كُلِّ عَشَرَةِ آلَافِ نَسَمَةٍ وَهِيَ أَكْثَرُ مِنَ الثُّلُثِ

وَقَدْ كَانَ عَدَدُ المَوَالِيدِ فِي فَرَنْسَا سَنَةَ ١٨٨١ : ٩٣٧٠٥٧ وَلَمْ يَبْلُغْ فِي سَنَةِ ١٨٩٠ إِلاَّ ٨٣٨٠٥٧ فَالنَّقْصُ هُوَ ١٠٠٠٠٠ وَلْيُلَاحَظْ أَنَّ هَذَا الْعَدَدَ أَقَلُّ مِنْ عَدَدِ الْوَفَيَاتِ بِمِقْدَارِ ٣٨٤٤٦ وَأَنَّ انْتِصَارَ المَوْتِ عَلَى الْحَيَاةِ كَمَا تَرَى حَاصِلٌ فِي زَمَنِ السِّلْمِ أَعْنِي أَنَّ هَـذِهِ هِيَ حَرَكَةُ المَوَالِيدِ وَالْوَفَيَاتِ الاعْتِيَادِيَّةُ فِي فَرَنْسَا وَهِيَ تَزْدَادُ عَامًا فَعَامًا

فَنَقَصَ عَدَدُ الْمَوَالِيدِ فى سَنَةِ ١٨٩٠ عَن

سَنَةِ	عدد
١٨٨٩	٤٢٥٢٠
١٨٨٨	٤٤٥٨٠
١٨٨٧	٦١٢٧٥
١٨٨٦	٧٤٧٧٩
١٨٨٥	٨٦٤٩٩
١٨٨٤	٩٩٦٩٩
١٨٨٣	٩٩٨٨٥

وَكَذَلِكَ يَنْقُصُ الزَّوَاجُ سَنَةً فَسَنَةً إِلاَّ أَنَّ نَقْصَهُ غَيْرُ مُحَسٍّ كَنَقْصِ المَوَالِيدِ

كانَ عَدَدُ الزَّوَاجِ فى

سَنةِ	عدد
١٨٨٤	٢٨٩٥٥٥
١٨٨٥	٢٨٣١٧٠
١٨٨٦	٢٨٣٢٠٨
١٨٨٧	٢٧٧٠٦٠
١٨٨٨	٢٧٦٨٤٨
١٨٨٩	٢٧٢٩٣٤
١٨٩٠	٢٦٩٣٣٢

فيكُونُ النَّقْصُ فى السَّنَةِ الْأَخِيرَةِ قَدْ بَلَغَ ٢٠٢٢٣ فى مَدَى السِّتِّ السِّنِينَ الَّتى قَبْلَهَا أَىْ سَنَةَ ١٨٨٦ وَكانَتِ النِّسْبَةُ عَلى الدَّوَامِ

بِالنَّاقِصِ وَإِنْ لَمْ تَخْتَلِفْ سَنَةَ ١٨٨٤ إِلاَّ بِبَعْضِ الْآحَادِ وَعَلَى عَكْسِ ذَلِكَ نَجِدُ عَدَدَ الْوَفِيَاتِ فِى ازْدِيَادٍ

قَدْ بَلَغَ فِى سَنَةِ وَفَاة

١١٨١	٨٢٨٨٢٨
١٨٨٢	٨٣٣٥٣٩
١٨٨٣	٨٤١١٤١
١٨٨٤	٨٥٨٧٨١
١٨٨٦	٨٦٠٢٢٢
١٨٩٠	٨٧٦٥٠٥

وَعَلَيْهِ زَادَ عَدَدُ الْوَفَيَات سَنَةَ ١٨٩٠ بِمِقْدَارِ ٤٧٦١٧ على ما كَانَ عَلَيْهِ سَنَةَ ١٨٨١ وَبِمِقْدَارِ ٣٥٣٦٤ على سَنَةِ ١٨٨٣ مَعَ أَنَّ عَدَدَ الْمَوَالِيدِ كَانَ قَدْ نَقَصَ بِمِقْدَارِ ١٠٠٠٠٠ فِى تِلْكَ السَّنَةِ فَتَكُونُ النَّتِيجَةُ وُجُودَ ١٣٥٠٠٠ خُلُوٍّ فِى الْأُمَّةِ

وَإِذَا قَابَلْنَا بَيْنَ حَرَكَةِ الْمَوَالِيدِ فِى فَرَنْسَا وَبَيْنَهَا فِى الْبِلَادِ الْأُخْرَى نَجِدْ مَا يَأْتِى:

تَضَاعَفَ عَدَدُ سُكَّانِ النَّرْوِيجِ فِى ٥١ عاماً وَعَدَدُ سُكَّانِ اسْتُرْيَا فِى ٦٢ وَانْكِلْتِرَا فِى ٦٣ وَالدَّانِيمَرْكِ فِى ٧٣ وَالسِّوِيدِ فِى ٨٩ وَالْمَانْيَا فِى ٩٨ وَفَرَنْسَا فِى ٣٣٤

وَلَمْ نَأْتِ بِبَيَانِ الْإِحْصَائِيَّاتِ الْأَجْنَبِيَّةِ لِعَدَمِ اتِّفَاقِ سِنِيهَا وَلَكِنَّهَا

تَنْطِقُ كُلُّهَا بِأَنَّ فَرَنْسَا مُتَأَخِّرَةٌ فِى مَوَالِيدِهَا تَأَخُّرًا عَظِيماً عَنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ.

ثَبَتَ أَنَّ ضَعْفَ النَّسْلِ أَمْرٌ حَقِيقِيٌّ فِى فَرَنْسَا فَنَبْحَثُ إِذَنْ عَنْ عِلَّتِهِ وَلَنْ يَنْفَعَنَا الْإِحْصَاءُ فِى هَذَا الْبَحْثِ إِلَّا يَسِيراً فَقَدْ نَأْخُذُ مِنْهُ الْأَرْقَامَ وَالْمُتَوَسِّطَاتِ وَالْعُمُومِيَّاتِ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكْفِينَا فِى بَيَانِ نَامُوسِ[1] تِلْكَ الْحَرَكَةِ

وَقَدْ ذَهَبَ الْبَاحِثُونَ فِى بَيَانِ تِلْكَ الْعِلَّةِ مَذَاهِبَ شَتَّى فَذَكَرَ حَضْرَةُ الْمَرْكِيز (نَادْيَاك فِى رِسَالَةِ ضَعْفِ الْمَوَالِيدِ فِى فَرَنْسَا) سَبْعَةَ عَشَرَ سَبَباً جَاءَ بَعْضُهَا مُكَرَّرًا وَإِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ فِيهَا رَأَيْنَاهَا تَفْتَرِقُ إِلَى قِسْمَيْنِ :

الْأَوَّلُ : الْأَسْبَابُ الْبَاطِلَةُ

الثَّانِى : الْأَسْبَابُ الثَّانَوِيَّةُ أَىِ الَّتِى يَرْجِعُ كُلٌّ مِنْهَا إِلَى سَبَبٍ أَوَّلِيٍّ.

وَسَنَبْحَثُ فِى هَذَيْنِ الْقِسْمَيْنِ بَحْثاً نَظَرِيًّا مَعَ الْمُقَارَنَةِ ثُمَّ نَجْتَهِدُ فِى اسْتِنْبَاطِ السَّبَبِ الْحَقِيقِيِّ بَعْدَ ذَلِكَ

﴿ الْأَسْبَابُ الْبَاطِلَةُ ﴾

مِنْهَا ضَعْفُ قُوَّةِ التَّنَاسُلِ الطَّبِيعِيَّةِ فِى الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، قَالَ مُوسْيُو (نادياك) : « وَلَيْسَتْ قُوَّةُ التَّنَاسُلِ الطَّبِيعِيَّةُ وَاحِدَةً فِى جَمِيعِ

(١) سر

الْأُمَمِ فَلِلْمُنَاخِ وَالْأَحْوَالِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ وَالاِقْتِصَادِيَّةِ وَمَعْدِنِ الْإِقْلِيمِ دَخْلٌ حَقِيقِيٌّ فِيهَا، وَإِنْ كَانَ لَا يَزَالُ غَيْرَ مُعَيَّنٍ تَمَامًا. وَقُوَّةُ التَّنَاسُلِ عَظِيمَةٌ عِنْدَ الصِّينِيَّاتِ وَلَكِنَّهَا ضَعِيفَةٌ عِنْدَ نِسَاءِ (الْبِيرِينِيه) وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْأُمَمَ اللَّاتِينِيَّةَ ـ وَخُصُوصًا الْأُمَّةَ الْفَرَنْسَاوِيَّةَ ـ أَضْعَفُ تَنَاسُلًا مِنَ الْأُمَمِ السِّلَافِيَّةِ وَالْإِنْكِلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ وَعَلَيْهِ فَلَا شَكَّ فِي أَنَّ دَرَجَتَنَا أَحَطُّ مِنْ غَيْرِنَا بِالنَّظَرِ إِلَى قُوَّةِ التَّنَاسُلِ»

وَمِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّ قُوَّةَ التَّنَاسُلِ أَشَدُّ عِنْدَ بَعْضِ الْأُمَمِ مِنْهَا عِنْدَ الْبَعْضِ الْآخَرِ، وَمِنَ السَّهْلِ الْوُقُوفُ عَلَى أَسْبَابِ هَذَا التَّفَاوُتِ بِالْبَحْثِ فِي الْأَحْوَالِ الطَّبِيعِيَّةِ وَالاِجْتِمَاعِيَّةِ لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، لَكِنْ لَا نُسَلِّمُ بِأَنَّ ضَعْفَ التَّنَاسُلِ فِي فَرَنْسَا أَمْرٌ لَازِمٌ لِطَبِيعَةِ الْأُمَّةِ إِذْ لَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَتَعَذَّرَ بَيَانُ السَّبَبِ فِي نُمُوِّهَا الْعَظِيمِ إِلَى قِيَامِ الثَّوْرَةِ فَقَدِ انْتَشَرَتْ فِي (كَنَدَا) وَفِي (لُوِيزِيَانْ) وَفِي (الْهِنْدِ) وَ(صَانْ دُومِنْيِج) وَ(جَزِيرَةِ فَرَنْسَا) وَ(بُورْبُونْيَا) وَ(إِيتَالْيَا) وَغَيْرِهَا وَلَا يَزَالُ فَرْعُهَا الْمَوْجُودُ فِي (كَنَدَا) يَزْدَادُ وَيَنْمُو بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ حَتَّى إِنَّهُ أَصْبَحَ يُزَاحِمُ الْعُنْصُرَ الْإِنْكِلِيزِيَّ السَّكْسُونِيَّ نَفْسَهُ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ سُكَّانَ (كَنَدَا) يَتَضَاعَفُونَ عَدَدًا فِي كُلِّ ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً مَرَّةً مَعَ أَنَّ سُكَّانَ فَرَنْسَا لَا يَتَضَاعَفُونَ إِلَّا فِي كُلِّ ثَلَاثِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً مَرَّةً وَاحِدَةً. وَظَاهِرٌ أَنَّ ذَلِكَ الْفَرْقَ لَا يَرْجِعُ إِلَى سَبَبٍ

طَبِيعِىّ فى الْأُمَّةِ بَلْ لاَ بُدَّ لَهُ مِنْ سَبَبٍ خَارِجِىٍّ لَمْ يُوجَدْ إلاّ مِنْ زَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ .

وَ مِمَّا تَجِبُ مُلاَحَظَتُهُ أَيْضًا أَنَّ التَّنَاسُلَ لاَ يَزَالُ نَامِيًا فِى بَعْضِ الْأَقَالِيمِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ كَأَقْلِيمِ (بْرُوتُون) . قَالَ مُوسْيُو (نادياك): « بَلَغَتْ زِيَادَةُ الْمَوَالِيدِ عَلَى الْوَفَيَاتِ مِنْ سَنَةِ ١٨٨٠ إِلَى سَنَةِ ١٨٨٣ فِى الْأَقَالِيمِ الْبُرُتُونِيَّةِ الْخَمْسَةِ ٧٤٩٩٠ وَهِىَ تُسَاوِى زِيَادَةَ الْمَوَالِيدِ فِى فَرَنْسَا كُلِّهَا عَلَى التَّقْرِيبِ ،وَلَوْ كَانَ التَّنَاسُلُ فِى جَمِيعِ الْأَقَالِيمِ بِمِقْدَارِ هَذِهِ النِّسْبَةِ لَمَا حَسَدْنَا جِيرَانَنَا إِذْ كُنَّا نُسَاوِيهِمْ فِى عَدَدِ الْمَوَالِيدِ إِنْ لَمْ نَزِدْ عَلَيْهِمْ »

وَكَذَلِكَ عَدَدُ الْمَوَالِيدِ لاَ يَتَغَيَّرُ فِى الْأَقَالِيمِ الَّتِى يَكْثُرُ الْفَعَلَةُ فِيهَا كَمَا سَنُبَيِّنُهُ فِيمَا بَعْدُ، أَمَّا فِى غَيْرِهَا فَإِنَّهُ يَنْقُصُ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ مِنْ مَبْدَإِ هَذَا الْقَرْنِ بِدُونِ أَنْ يَحْدُثَ تَغَيُّرٌ فِى النَّوْعِ يُمْكِنُ اتِّخَاذُهُ سَبَبًا فِى هَذَا النَّقْصِ الْمُسْتَمِرِّ.

وَعَلَى مَا تَقَدَّمَ يَكُونُ الِاسْتِدْلَالُ فِى نَقْصِ عَدَدِ الْمَوَالِيدِ بِطَبِيعَةِ النَّوْعِ بَاطِلاً لِأَنَّ الِاسْتِقْرَاءَ يُكَذِّبُهُ وَالِاسْتِقْرَاءُ يُبْطِلُ أَيْضًا الدَّلِيلَ فِى هَذَا النَّقْصِ الَّذِى انْتَزَعُوهُ مِنَ الْمُسْكِرَاتِ . نَعَمْ لاَ شُبْهَةَ فِى أَنَّ الْمَشْرُوبَاتِ الرُّوحِيَّةَ قَدْ تَغَيَّرَتْ مُنْذُ خَمْسِينَ عَامًا

إلى أَرْدَإِ الأَحْوَالِ لِاسْتِعْمَالِ التَّقْطِيرِ فى تَحْضِيرِهَا بَدَلَ التَّخْمِيرِ وَلِكَثْرَةِ اسْتِعْمَالِ الْعَرَقِىّ وَالمِسْتِكَا عمَّا كانَا عليْهِ ، إِذِ المِقْدَارُ الَّذِى كَانَ يُشْرَبُ مِنْهُمَا فى فَرَنْسَا سَنَةَ ١٧٨٨ لَمْ يَزِدْ عَلَى ٣٧٠٠٠٠ هِكْتُولِتْر وَقدْ بَلَغَ فى سَنَةَ ١٨٨٢ ١٧٦٦٠٠٠ هِكْتُولِتْر

غَيْرَ أَنَّهُ مِنَ المُحَقَّقِ أَيْضًا أَنَّ اسْتِعْمَالَ تِلْكَ المَشْرُوبَاتِ لَمْ يَبْلُغْ فى الْبِلَادِ الفَرَنْسَاوِيَّةِ مِقْدَارَ مَا بَلَغَهُ فى غَيْرِهَا ، وَخُصُوصًا فى جِهَةِ الشَّمَالِ مِنْ أُورُبَّا ، مَعَ أَنَّ عَدَدَ المَوَالِيدِ فى تِلْكَ الْجِهَةِ لَا يَزَالُ نَامِيًا حَتَّى فى فَرَنْسَا نَفْسِهَا فَأَكْثَرُ الْبِلَادِ اسْتِعْمَالاً لِتِلْكَ المَشْرُوبَاتِ هُوَ إِقْلِيمُ « بُرُوتَانْيَا » الَّذِى كَثُرَ نَسْلُهُ ؟ وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فى الْجَنُوبِ حَيْثُ لَا يُسْتَعْمَلُ المَشْرُوبُ إِلَّا قَلِيلاً تَرَى بَعْضَ الْأَقَالِيمِ يَزِيدُ فِيهَا عَدَدُ الْوَفَيَاتِ عَلَى عَدَدِ المَوَالِيدِ مِثْلَ إِقْلِيمِ « الفَارْ » . وَحِينَئِذٍ يَلْزَمُ التَّسْلِيمُ بِأَنَّ تَأْثِيرَ المَشْرُوبَاتِ الرُّوحِيَّةِ عَلَى عَدَدِ الْأَهَالِى غَيْرُ مُحَسٍّ فى فَرَنْسَا.

قالُوا : إِنَّ مِنْ أَسْبَابِ نَقْصِ المَوَالِيدِ ثِقَلَ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ . وَلَكِنَّنَا نُشَاهِدُ أَنَّ الْخِدْمَةَ الْعَسْكَرِيَّةَ عَامَّةٌ أَيْضًا وَوَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ فى الْبِلَادِ الْأَلْمَانِيَّةِ وَعَدَدُ المَوَالِيدِ فى تِلْكَ الْبِلَادِ غَيْرُ مُتَأَثِّرٍ بِهَذَا السَّبَبَ ، نَعَمْ إِنَّ الْوَفَيَاتِ فى الْجَيْشِ أَكْثَرُ مِنْهَا فى غَيْرِهِ لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يُؤَثِّرُ فى النَّتِيجَةِ الْعُمُومِيَّةِ لِلْأُمَّةِ .

وَقالُوا: إنَّ مِنْ أَسْبَاب ذَلِكَ أَيْضاً ثِقَلَ الضَّرَائِب عَلَى النَّاسِ ، وَلاَ شُبْهَةَ فى أَنَّ الضَّرَائِبَ الفَرَنْسَاوِيَّة بَاهِظَةٌ (١) جِدًّا فَالذى كَانَ يَدْفعُ أَيَّامَ الإِمْبرَاطُورِيَّةِ الثَّانيةِ ٥٩ فرَنكاً فى السَّنَةِ صَارَ يَدْفعُ سَنَةَ ١٨٧٢ (٨٥) فرَنكاً وَهُوَ الآنَ يُؤَدِّى ١٠٩ فرَنكاتٍ وَقَدْ زَادَتِ الضَّرَائِبُ الْعَقارِيَّةُ بَيْنَ سَنَةِ ١٨٢٠ إلَى يَوْمِنا هَذَا مِنْ ٢٤٣،٠٠٠،٠٠٠ فرَنْك إلَى ٣٥٧،٠٠٠،٠٠٠ وَزَادَتِ الضَّرَائِبُ الشَّخْصِيَّةُ وَالَّتى تُجْبَى عَلَى المَنْقُولاَتِ مِنْ ٢٧،٠٠٠،٠٠٠ إلَى ١٢٠،٠٠٠،٠٠٠ كَمَا زَادَتْ عَوَائِدُ الأَبْوَابِ وَالشَّبَابِيكِ مِنْ ٢٩،٠٠٠،٠٠٠ إلَى ٤١،٠٠٠،٠٠٠ وَبَلَغَتْ عَوَائِدُ البَاطِنْطَا «الْحِرَفِ وَالصِّنَاعَاتِ» ١٦٣،٠٠٠،٠٠٠ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ٤٠،٠٠٠،٠٠٠ فَقَطْ

إلاَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ الضَّرَائِبِ مِنَ الأَسْبَابِ المُؤَثِّرَةِ حَقِيقَةً فى عَدَدِ السُّكَّانِ لَوَجَبَ أَنْ يكُونَ عَدَدُ المَوَالِيدِ تَابِعاً لِفَقْرِ الأَقَالِيمِ وَثَرْوَتِهَا: فَتقِلُّ فى الَّتى رَزَحَتْ تَحْتَ أَثْقَالِ الضَّرَائِبِ وَتَكْثُرُ فى الَّتى وَجَدَتْ مِنْ ثَرْوَتِهَا مَا يُسَهِّلُ عَلَيْها احْتِمَالَهَا ، لَكِنَّا نَرَى الْحَالَ بِالْعَكْسِ فَلَيْسَ لأَغْنِيَاءِ بِلاَدِ «نُورْمَانْدِيَه» وَ «بِيكارْدِيَه» إلاَّ وَلَدٌ أَوْ وَلَدَانِ مَعَ مَا جَمَعُوه مِنَ الثَّرْوَةِ الطَّائِلَةِ قَبْلَ انحِطَاطِ الزِّرَاعَةِ عِنْدَهُمْ ، مَعَ أَنَّ المَوَالِيدَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فى الأَقَالِيمِ الفَقِيرَةِ مِثْلِ

(١) بهظه الحمل: أثقله وعجزعنه

إقليم «بُرُوتَانيا» وَ«أَرْدِيشَ» وَ«لوزير» وَ«أَفِيرُون» وَ«هُوتوارَ» وَ«كُورِيزَ» وَغَيْرِهَا. وقَدْ تَصَفَّحْتُ خَرِيطَةَ الْمَوَالِيدِ فِي فرَنسَا سَنَةَ ١٨٨١ فوَجَدتُ أَنَّ أَقلَّ الْبِلادِ مَوَالِيدَ أَكْثَرُهَا غِنى، وَعَلى هَذَا يَسْقُطُ دَلِيلُ ثِقَلِ الضَّرَائِبِ.

إِلَى هُنَا تبَيَّنَ أَنَّ تلكَ الْأَسْبَاب كلها لاَ تأْثِيرَ لَهَا فِي الْمَوَالِيدِ أَوْ أَنَّهَا لاَ تُؤَثِّرُ فِيهَا إِلاَّ قليلاً. وَهُنَاكَ أَسْبَابٌ أُخْرَى نَرَاهَا أَشدَّ فعلاً مِمَّا تقَدَّمَ.

﴿ الأَسْبَاب الثَّانَوِيَّةُ ﴾

لِهَذِهِ الأَسْبَاب بَعْضُ التَّأْثِيرِ فِي ضَعْفِ الْمَوَالِيدِ عِنْدَنا وَهِيَ لَيْسَتْ عَرَضِيَّةً إِذْ لاَ يُسَلَّمُ أَنَّ حَادِثاً يَحْدُثُ فِي بَلَدٍ مُعَيَّنٍ وَفِي زَمَانٍ مُعَيَّنٍ مِنْ دُونِ أَنْ يكُونَ لَهُ سَبَبٌ أَدَّى إِلَيْهِ مِنْ أَحْوَالِ هَذَا الْبَلَدِ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ، فإِذَا تَكَرَّرَ وُقُوعُهُ لزِمَ أَنْ يَكُونَ نَاشِئاً عَنْ سَبَبٍ عَامٍّ عَظِيمٍ، كما أَنَّنا إِذا رَأَيْنَا رَجُلاً قَدْ تَكَرَّرَ مِنْهُ الْخطأُ وَكَثُرَتْ غَلَطَاتُهُ حَكَمْنَا بِأَنَّ فِي عَقْلِهِ نَقْصًا أَوْ فِي إِرادَتِهِ عَيْباً هُوَ الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلى ارْتِكَاب تِلْكَ الْأَعْمَالِ النَّاقِصَةِ. وَسَنُبَيِّنُ لَكَ أَنَّ جَمِيعَ الأَسْبَاب الَّتِي نَسَبُوا إِلَيْهَا ضَعفَ الْمَوَالِيدِ فِي فرَنْسَا لاَ يَصِحُّ الِارْتِكَانُ عَلَيْهَا إِلاَّ إِذَا رَجَعَتْ هِيَ الْأُخْرَى إِلَى سَبَبٍ أَعْظَمَ. وَمِنْ تِلْكَ الأَسْبَابِ مَا يَأْتِي:

أَوَّلاً — قالَ مُوسْيُو « نادياك »: « إنَّ لِإِرادةِ الرَّجُلِ دَخلاً فى ضَعْفِ الْمَوَالِيدِ فى فَرَنْسَا » وَفِى الْوَاقِعِ لَوْ أَرادَ الْفَرَنْسَاوِيُّونَ أَنْ يكُونَ لَهُمْ مِنَ الذُّرِّيَّةِ مَا لِغَيْرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ لَحَصَّلُوا مُرَادَهُمْ، إلا أَنَّ السِّرَّ هُوَ فى مَعْرِفَةِ السَّبَبِ الَّذِى يَحْمِلُهُمْ عَلى عَدَمِ الْإِرادَةِ. وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَا قَالَهُ مُوسْيُو « نادياك » لا يُفِيدُ شَيْئاً فى مَوْضُوعِنَا.

ثانياً — قالُوا: إِنَّ مِنَ الأَسْبَابِ كَثْرَةَ تجزِئَةِ الْمِلْكِيَّةِ ، وَهُنَا تَفْصِيلٌ يَلْزَمُنَا بيَانُهُ ، فإِنْ كانَ مُرَادُهُمْ بِكَثْرَةِ تجزِئَةِ الْمِلْكِيَّةِ أَنَّ حَالَةَ الِاجْتِمَاعِ فى الأُمَّةِ اسْتَلْزَمَتْ مِنْ ذَاتِهَا تقسيمَ الْعَقَارَاتِ إِلى أَجْزَاءٍ صَغِيرَةٍ تَنْتَقِلُ مِنَ الرَّجُلِ إِلى غَيْرِهِ بِحَسَبِ مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنَ الِاحْتِيَاجَاتِ الَّتِى هُوَ حُرٌّ فى تَقْدِيرِهَا، قُلْنَا بِأَنَّ هَذَا لا يَسْتَلْزِمُ أَلْبَتَّةَ ضَعْفَ المَوَالِيدِ فى بَلَدٍ ذَلِكَ شأْنُهُ أَكْثَرَ مِنْ بَلَدٍ تَكُونُ فِيهِ الْمِلْكِيَّةُ كَبِيرَةَ الأَجْزَاءِ، إِذْ يُشَاهَدُ أَنَّ عَدَدَ المَوَالِيدِ فى « انكلترا » لا يَزِيدُ عَلى عَدَدِهَا فى بِلَادِ « النّرْوِيج » وَ « لُونيبُورْجَ » التَّابِعَةِ إِلى « هانوفر » وَأَقالِيمِ « سُويسرَه » وَغَيْرِهَا مَعَ أَنَّ الأَمْلاكَ فى الأُولَى عَظِيمَةٌ غَيْرُ مُجَزَّأَةٍ إِلاَّ قَلِيلاً، وَهِىَ فى الثَّانِيَةِ مُقَسَّمَةٌ أَقْسَاماً صَغِيرَةً جِدًّا ، وَإِذَا أَرَادُوا بِكَثْرَةِ التَّجْزِئَةِ اسْتِمْرَارَ تَقْسِيمِ الأَرَاضِى إِلى أَجْزَاءٍ صَغِيرَةٍ مَهْمَا كَانَتْ مِسَاحَتُهَا تَقْسِيماً قَهْرِيًّا ، فَفِى قَوْلِهِمْ نَظَرٌ سَنَأْتِى عَلَيْهِ. وَنَكْتَفِى الْآنَ أَنْ نُلَاحِظَ أَنَّ مُرَادَهُمْ هَذَا حاصِلٌ

فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَعَدَدُ الْمَوَالِيدِ ضَعِيفٌ فِي الْأَقَالِيمِ ذَاتِ الْأَمْلَاكِ الْوَاسِعَةِ مِثْلِ « نُورْمَانْدِيَا » وَ « بِيكَارْدِيَا » كَمَا هُوَ ضَعِيفٌ فِي الْأَقَالِيمِ ذَاتِ الْأَمْلَاكِ الصَّغِيرَةِ مِثْلِ إِقْلِيمِ « شَمْبَانْيَا » .

ثَالِثًا — ابْتِعَادُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ عَنِ الزَّوَاجِ وَانْحِطَاطُ عَزَائِمِهِمْ لِمَا أَلِفُوهُ مِنْ حُبِّ الزَّخَارِفِ وَالْحَاجَاتِ الصِّنَاعِيَّةِ وَالْمَلَاذِّ الْمُخْتَرَعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَمِنَ الْمُشَاهَدِ حَقِيقَةً أَنَّ عَدَدَ الزَّوَاجِ يَقِلُّ آنًا فَآنًا فَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَصِحُّ الْاقْتِرَانُ بَيْنَهُمْ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ كَانَتْ فَرَنْسَا الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ فِي الرُّتْبَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ إِذْ يَتَقَدَّمُ عَلَيْهَا «الْإِنْكِلِيزُ» وَ «الْبُرُوسْيَانِيُّونَ» وَ «الْهُولَانْدِيُّونَ» وَ «النِّمْسَاوِيُّونَ» وَغَيْرُهُمْ . وَلِضَعْفِ الْعَزَائِمِ الْمُسْتَمِرِّ دَخْلٌ فِي هَذَا الْانْحِطَاطِ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يُحْوِجُنَا هُوَ مَعْرِفَةُ السَّبَبِ الَّذِي حَمَلَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ مِنْ مَبْدَإِ هَذَا الْقَرْنِ عَلَى الْابْتِعَادِ عَنِ الزَّوَاجِ وَالْمُوجِبِ لِتَثْبِيطِ الْعَزَائِمِ بَيْنَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ .

رَابِعًا — الْمَيْلُ إِلَى الْاسْتِئْثَارِ بِأَكْبَرِ مَا يُمْكِنُ مِنَ اللَّذَّاتِ وَهُوَ مُسَلَّمٌ ، لَكِنْ بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ السَّبَبَ فِي انْصِبَابِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ عَلَى اللَّذَّاتِ فَجْأَةً انْصِبَابًا لَا حَدَّ لَهُ وَكَيْفَ أَنَّ ذَلِكَ الْمَيْلَ بِعَيْنِهِ لَمْ يُوجَدْ عِنْدَ الْإِنْكِلِيزِيِّ أَوِ الْأَلْمَانِيِّ أَوِ الرُّوسِيِّ وَغَيْرِهِمْ ، إِذْ لَيْسَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَلَّا يَكُونَ أُولَئِكَ الْقَوْمُ مِمَّنْ يَمِيلُونَ بِالطَّبْعِ إِلَى الزِّيَادَةِ

فِى لَذَّاتِهِمْ ؛ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ سَبَبٌ مَنَعَهُمْ عَنِ الإقْلاَلِ مِنَ النّسْلِ طَلَباً لِلذَّاتِهِمْ وَأَنَّ ذَلِكَ السَّبَبَ غَيْرُ مَوْجُودٍ فِى الْبِلاَدِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ.

خَامِساً — زِيَادَةُ السَّعَةِ فِى المَعِيشَةِ وَمُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ نَظَرًا لِارْتِفَاعِ الْأُجُورِ، ذَلِكَ أَيْضاً أَمْرٌ عَامٌّ. وَحِينَئِذٍ لاَ يُمْكِنُ الاعْتِمَادُ عَلَيْهِ فِى تَعْلِيلِ حَالَةِ فَرَنْسَا الْخُصُوصِيَّةِ، وَقَدِ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ مُوسْيُو «نادياك» حَيْثُ قَالَ: «زَادَتْ بَسْطَةُ الْعَيْشِ فِى كُلِّ مَكَانٍ زِيَادَةً كُبْرَى فَنَرَى فِى الْأَرْيَافِ، كَمَا نُشَاهِدُ فِى الْمُدُنِ، أَنَّ الأُجُورَ قَدِ ارْتَفَعَتْ كَثِيرًا وَتَحَسَّنَ الْمَلْبَسُ وَالْمَطْعَمُ وَصَارَتِ الْمَسَاكِنُ أَقْرَبَ إِلَى الصِّحَّةِ وَأَوْفَى بِحَاجَاتِ الْعَائِلاَتِ وَتَقَدَّمَ النَّاسُ فِى مَعْرِفَةِ لَوَازِمِ حِفْظِ الصِّحَّةِ، وَعِنْدِى أَنَّ لِهَذِهِ الْأَحْوَالِ تَأْثِيرًا حَسَنًا فِى النَّسْلِ وَلَكِنَّنَا لاَ نَدْرِى مَا السَّبَبُ فِى أَنَّهَا أَدَّتْ فِى الْبِلاَدِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ إِلَى عَكْسِ مَا ذُكِرَ»! كَذَلِكَ نَحْنُ نَبْحَثُ مَعَهُ عَنْ تِلْكَ الْعِلَّةِ.

سَادِساً — زِيَادَةُ الْحَضَارَةِ أَعْنِى كَثْرَةَ الْمُدُنِ الْمُتَرَفِّهَةِ حَيْثُ يَقِلُّ النَّسْلُ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَهْلَ الزِّرَاعَةِ يَقِلُّونَ وَأَهْلَ الْمُدُنِ يَكْثُرُونَ، فَفِى سَنَةِ ١٨٤٦ كَانَ عَدَدُ أَهَالِى بِلاَدِ الرِّيفِ يَبْلُغُ ثَلاَثَةَ أَرْبَاعِ سُكَّانِ فَرَنْسَا وَهُوَ الْيَوْمَ لاَ يَكَادُ يَبْلُغُ خَمْسَةً وَسِتِّينَ فِى الْمِائَةِ

وَلا يزَالُ آخذاً فِى النُّقْصَان . وَيُمْكِنُ تَقْدِيرُ زِيَادَةِ عَدَدِ سُكَّانِ الْمُدُنِ بِخُمسِ عَدَدِ الْأَهَالِى أَجْمَعِينَ . وَحَيْثُ إِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ ثَابِتٌ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ فَهُوَ عَامٌّ، لَزِمَ الْقَوْلُ بِأَنَّ تِلْكَ الْعِلَّةَ السَّادِسَةَ لَا تُثْبِتُ شَيْئاً ؛ إِذْ يُشَاهَدُ أَنَّ زِيَادَةَ عَدَدِ سُكَّانِ الْمُدنِ عَظِيمَةٌ جِدًّا فَيَقْطُنُهَا مِنَ التِّسْعَةِ خَمْسَةٌ ،وَالأرْبَعَةُ يَسْكُنُونَ الْأَرْيَافَ . كَذَلِكَ زَادَ عَدَدُ سُكَّانِ الْمُدُنِ فِى أَلَمَانْيَا مِنْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ إِلَى خَمْسَةَ عشَرَ فِى الْمَائَةِ: فَكَانَ فِى بَرْلِينَ مُنْذُ قَرْنَيْنِ سَبْعَةَ عَشَرَ أَلْفاً وَأَرْبَعَمِائَةِ نَسَمَةٍ وَصَارَ فِيهَا الْيَوْمَ مِلْيُونٌ وَثَلاثُمِائَةٍ وَسِتَّةَ عَشَرَ أَلْفاً وَمِائَتَان وَاثْنَتَانِ وَثَمَانُونَ نَسَمَةً ،وَهَكَذَا الْحَالُ فِى إِيطَالْيَا وَإِسْبَانْيَا وَأُوسْتُورْيَا وَغَيْرِهَا وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَنْقُصِ النَّسْلُ فِى تِلْكَ الْبِلَادِ كَمَا هُوَ حَاصِلٌ فِى فَرَنْسَا. وَعَلَيْهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ سَبَبٌ خَاصٌّ بِهَا .

سَابِعاً — تَكْلِيفُ التَّلَامِذَةِ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ فِى الْمَدَارِسِ، إِذْ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا التَّكْلِيفُ فِى أَيِّ بَلَدٍ مِنَ الْبِلَادِ مَبْلَغَهُ فِى الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ، يُزَادُ عَلَيْهِ اسْتِمْرَارُ إِقَامَةِ الطَّلَبَةِ بِدَاخِلِ الْمَدَارِسِ الْابْتِدَائِيَّةِ زَمَناً طَوِيلاً مِمَّا يَدْعُو إِلَى ضَعْفِ الشَّخْصِ فِى نَفْسِهِ وَفِى نَسْلِهِ . وَقَدْ يَظْهَرُ أَنَّ ذَلِكَ السَّبَبَ قَوِيُّ التَّأْثِيرِ لَكِنَّهُ لَا يُؤَثِّرُ إِلَّا فِى طَبَقَةِ الْمُسْتَنِيرِينَ ، وَلَا بُدَّ لَنَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنَ الْبَحْثِ عَنْ عِلَّةِ ذَلِكَ الْمَيْلِ لِأَنَّهُ لَيْسَ نَاشِئاً عَنْ طَبِيعَةِ الْإِقْلِيمِ الْفَرَنْسَاوِيِّ .

ثَبَت إذَنْ أَنَّ الأَسْبَابَ الَّتى بيَنَّاهَا لاَ تُنْتِجُ المَعْلُولَ بذَاتِها، وَأَنَّهُ لاَ بُدَّ فِيهَا مِنْ سَبَبٍ أَكْبَرَ وَأَعَمَّ، وَمَهمَا كانَ ذَلِكَ السَّبَبُ الَّذِى نَبْحَثُ عَنْهُ فَهُوَ لاَ بُدَّ أَنْ يكونَ مُؤَثِّرًا فى الْعَائِلَةِ مُبَاشَرَةً تأْثِيرًا قَوِيًّا إِذِ الْعَائِلَةُ هِيَ مَرْجِعُ التَّنَاسُلِ فى الأُمَّةِ، وَلاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْعَائِلاَتُ فى الْبِلاَدِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ عَلى حَالَةٍ صَعْبَةٍ مُؤَثِّرَةٍ فِيهَا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، خُصُوصاً إِذْ لُوحِظَ أَنَّ الْعَائِلَةَ تَمِيلُ عَلَى الدَّوَامِ إِلَى الْخُلُودِ: فالرَّجُلُ يُحِبُّ أَنْ يَسْتَمِرَّ وُجُودُهُ بِوَاسِطَةِ أَبْنَائِهِ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مِنَ الْمَوَانِعِ مَا يَثْنِيهِ عَنْ تِلْكَ الرَّغْبَةِ فَإِنَّهُ يَنْسَابُ إِلَيْهَا فَيُكْثِرُ نَسْلَهُ وَيفْرَحُ بِمَوْلِدِهِمْ. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الأَطْفَالَ يُعَدُّونَ فِي تِلْكَ الْحَالِ مِنْ مُوجِبَاتِ الْقُوَّةِ وَوَسَائِلِ الارْتِزَاقِ لاَ كَلاًّ[1] عَلَى آبَائِهِمْ. وَمَا فَرَحُهُمْ بِآتٍ إِلاَّ مِنْ سُهُولَةِ تَعَيُّشِ الأَبْنَاءِ وَعَدَمِ الحَيْرَةِ فِي فِي تَرْبِيَتِهِمْ طَوْعًا لِحَرَكَةِ الْهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِى يُولَدُونَ فِيهَا كما يُشَاهَدُ ذَلِكَ عِنْدَ الأُمَمِ الَّتِى لَمْ تَتَفَرَّقْ عَائِلاَتُهَا بَعْدُ إِذْ تَرَى الآبَاءَ يَرْتَكِنُونَ فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ عَلَى الْمَجْمُوعِ. وَمِنْ هُنَا كَانَ الشَّرْقُ كَثِيرَ النَّسْلِ، حَتَّى لَقَدْ ظَهَرَ شُعُورُ الشَّرْقِيِّينَ بِتِلْكَ الْحَالَةِ فِي أَمْثِلَتِهِمِ الْعَامَّةِ كَقَوْلِهِمْ: « إِنَّ اللهَ يُبَارِكُ فِي الْعَائِلاَتِ كَثِيرَةِ الْعَدَدِ »، وَكَقَوْلِهِمْ: « مَا أَتْعَسَ الْمَرْأَةَ الْعَقِيمَ ». وَمِمَّا يُؤَيِّدُهُ أَنَّ كَثْرَةَ النَّسْلِ

---

(١) عيالا عليهم وثقلا

لَا تُوجَدُ كَمَا كَانَتْ فِي الْأَصْلِ عِنْدَ الفَرَنْسَاوِيِّينَ ، إلَّا فِي الجِهَاتِ الَّتِي بَقِيَتْ فِيهَا الْعَائِلَاتُ مُجْتَمِعَةً عَلَى نَفْسِهَا وَهِيَ قَلِيلَةٌ كَإقْلِيمِ بُرُوتَانِيَا وَالبِيرِينِي وَالأَقَالِيمِ الجَبَلِيَّةِ الوُسْطَى .

وَعَلَى خِلَافِ مَا تَقَدَّمَ نَرَى النَّسْلَ نَامِياً عِنْدَ الْأُمَمِ الِاسْتِقْلَالِيَّةِ لِأَنَّ مَصِيرَ الْأَطْفَالِ مَكْفُولٌ بِمَا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنَ الْهِمَّةِ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي بَلَغَتْ مُنْتَهَاهَا ، وَلِمَا رُبِّيَ عَلَيْهِ الشُّبَّانُ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى تَحْصِيلِ عَيْشِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ فَلَا يَتَكَلَّفُ الْآبَاءُ إِيجَادَ مُرْتَزَقٍ لِأَبْنَائِهِمْ ، وَلَا يَجْمَعُونَ لَهُمْ مَالاً يَمُدُّونَهُمْ بِهِ .غَيْرَ أَنَّ كَثْرَةَ أَعْضَاءِ الْعَائِلَةِ الْوَاحِدَةِ يَزِيدُ فِي ثِقَلِ الْعِبْءِ[1] عَلَى الآبَاءِ زِيَادَةً لَيْسَ لَهُمْ طَاقَةٌ بِهَا مَهْمَا أَرَادُوا فَلَا مَلْجَأَ لَهُمْ إِلَّا الْهَرَبُ مِنْ تِلْكَ الزِّيَادَةِ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ مُعْظَمَ الفَرَنسَاوِيِّينَ لَا يَحْسُدُونَ الَّذِينَ كَثُرَ أَبْنَاؤُهُمْ بَلْ هُمْ يَرْثُونَ[2] لِحَالِهِمْ ، وَلِهَذَا أَيْضاً كَانَ كُلُّ مَا يَتَمَنَّاهُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ هُوَ أَلَّا يَكُونَ لَهُ إِلَّا وَلَدٌ وَابْنَةٌ أَوْ وَلَدٌ وَاحِدٌ حَتَّى يُقَالَ كَمَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ : « وَلَدٌ وَحِيدٌ » وَلَيْسَ لِأُولَئِكَ الآبَاءِ أَنْ يَعْتَمِدُوا فِي تَحْصِيلِ مُرْتَزَقِ أَبْنَائِهِمْ عَلَى العَائِلَةِ لِأَنَّهَا قَدْ انْحَلَّتْ أَوْ عَلَى هِمَّةِ الأَبْنَاءِ أَنْفُسِهِمْ لِأَنَّ التَّرْبِيَةَ قَدْ أَضَاعَتْهَا وَرَجَعَ الأَبْنَاءُ إِلَى آبَائِهِمْ يَطْلُبُونَ العَيْشَ مِنْهُمْ ، وَأَصْبَحَ هَؤُلَاءِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا إِذَا أَمْهَرُوا

(١) العبء : الحمل (٢) يرحمونهم ويعطفون عليهم

أَبْنَاءهُمْ ، وَهُمْ مُضْطَرُّونَ فى ذَلِكَ إِلَى إِيجَادِ ثَرْوَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ بِقَدْرِ مَالَدَيْهِمْ مِنَ الْأَبْنَاءِ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَىْ فى مُدَّةٍ تَخْتَلِفُ مِنْ ثَمَانِى عَشْرَةَ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً

وَإِذَا تَزَوَّجَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَجَاءَ لَهُ بَعْدَ سَنَةٍ مَوْلُودٌ تَرَاهُ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظَرَ مَنْ يَفْرَحُ بِشَعْرِهِ الأَصْفَرِ وَتَبَسُّمِهِ اللَّطِيفِ بَلِ الَّذِى يُفَكِّرُ فِيهِ الْوَالِدُ عِنْدَ مَا يَقَعُ نَظَرُهُ عَلَيْهِ هُوَ وُجُوبُ تَحْصِيلِ الْمَهْرِ لَهُ ، فَإِذَا مَضَى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَنَتَانِ وَجَاءَهُ مَوْلُودٌ ثَانٍ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُ عِبَارَةً عَنْ وُجُوبِ تَحْصِيلِ مَهْرٍ ثَانٍ ، ثُمَّ يَرَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَحْصِيلِ الْمَهْرَيْنِ فى مَدَى خَمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً ، وَيُحِسُّ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّ الْعِبْءَ صَارَ ثَقِيلًا ، وَأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لِلزِّيَادَةِ فِيهِ ؛ لِذَلِكَ لَا يَرَى مَلْجَأً إِلَّا الْعَمَلَ عَلَى مَا يُوقِفُ النَّسْلَ .

تِلْكَ هِىَ الْعِلَّةُ فِى قِلَّةِ عَدَدِ أَبْنَاءِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ ، فَالْعَادَةُ الَّتِى تَأَصَّلَتْ بِحُكْمِ طَبِيعَةِ الِاجْتِمَاعِ فِيهِمْ تُكَلِّفُهُمْ عَمَلًا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِمُ الْقِيَامُ بِهِ فَيَصِيرُونَ كَالَّذِينَ يَشْتَغِلُونَ فِى اللَّيْمَانِ وَهُمْ غَيْرُ قَادِرِينَ عَلَى إِبْطَالِ الْعَادَةِ فَيَرْكَنُونَ(١) إِلَى إِبْطَالِ النَّسْلِ . وَهُنَاكَ سَبَبٌ آخَرُ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِقْلَالِ مِنْهُ : ذَلِكَ أَنَّ حَالَةَ مَعِيشَتِهِمْ تَنْقُصُ بِمِقْدَارِ كُلِّ

---

(١) أى يميلون اليه ويسكنون

مهر يأخذه أحد الأبناء، وأنه بقدر ما لهم من الشرف والاعتبار يجب عليهم أن يكثروا من قيمة المهور، والناس يقدرونها من قبل فيقولون: إن فلاناً خصص كذا مهراً لابنه أو لابنته، وحينئذ لا بد للآباء من ثروة خصوصية ينتهبون منها عند الحاجة كلما كان لهم ولد يستحق الزواج.

وقد جاء الإحصاء مؤيداً لتأثير المهر في النسل تأثيراً حقيقياً فأقل الناس نسلاً أكثرهم مالاً وأكبرهم تبصرة، أي الذين يلاحظون وجوب إمهار أبنائهم في المستقبل، وأكثر الناس نسلاً أقلهم مالاً وأبعدهم عن التبصر وهم الفعلة، أي الذين يتركون النسل ينمو كما يتركون رزقه على الله.

هكذا نشاهد في إقليم الشمال، حيث تكثر المعامل ويكثر الفعلة، أن المواليد تزيد على الوفيات بكثير فتبلغ الأولى في السنة « ٥١١٩٧ » ولا تبلغ الثانية إلا « ٣٥٠٨٩ » وعلى العكس من ذلك يزيد عدد الوفيات على عدد المواليد في الأقاليم الغنية: ففي إقليم « أور » يبلغ عدد المواليد « ٦١٤٢ » وعدد الوفيات « ٨١٢٨ » وفي إقليم « وان » يبلغ عدد المواليد « ٨٨٥١ » والوفيات « ٩٠٦٨ » وفي إقليم « أورن » تبلغ المواليد « ٦٨٥١ » والوفيات « ٨٥٣٤ » وهكذا.

وَمِنْ هُنَا يَنْسَاقُ التَّأَمُّلُ إِلَى استخْلاص تلكَ النَّتِيجَةِ الْغَرِيبَةِ وَهِيَ أَنَّ مَدَارَ النَّسْلِ مَعَ قِلَّتِهِ فِي فَرَنْسَا عَلَى قَلِيلِي التَّبَصُّرِ وَعَدِيمِي الْكِفَايَةِ (١) وَلَسْتُ أَدْرِي مَا الَّذِي يَدَّخِرُهُ الْمُسْتَقْبَلُ لِفَرَنْسَا وَهَذِهِ حَالَةُ التَّنَاسُلِ فِيهَا.

وَلْنُبَيِّنْ حِينَئِذٍ أَنَّ هَذِهِ الْحَالَةَ الَّتِي اخْتُصَّتْ بِهَا الْعَائِلَةُ هِيَ الْعِلَّةُ الْأُولَى فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي سَبَقَ بَيَانُهَا: فَإِرَادَةُ الْآبَاءِ فِي الإِقْلَالِ مِنَ الْأَبْنَاءِ مَعْلُولَةٌ بِاسْتِحَالَةِ تَحْصِيلِ مَهْرٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِذَا كَثُرُوا. وَمِنْ هُنَا كَانَ الزَّوَاجُ حِمْلاً ثَقِيلاً عَلَى النَّاسِ فَهُمْ يَجْتَهِدُونَ فِي الْهَرَبِ مِنْهُ، وَمَتَى خَلَصَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مِنْ وَاجِبِ الْقِيَامِ بِشُؤُونِ عَائِلَةٍ كَبِيرَةٍ وَعَلِمَ أَنَّهُ لا يَتَحَمَّلُ الَّا الْقَلِيلَ مِنَ الْأَثْقَالِ كَأُمٍّ وَوَلَدٍ أَوْ وَلَدَيْنِ مَالَ بِالطَّبْعِ إِلَى تَحْصِيلِ قِسْمٍ أَكْبَرَ مِنَ اللَّذَاذَاتِ الشَّخْصِيَّةِ، إِذْ مَثَلُ الْآبَاءِ الَّذِينَ لاَ أَبْنَاءَ لَهُمْ أَوِ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنْهُمْ إِلاَّ الْعَدَدُ الْقَلِيلُ كَمَثَلِ الأَعْزَابِ الَّذِينَ تَمَكَّنَ مِنْهُمْ حُبُّ الذَّاتِ لِذَلِكَ تَرَاهُمْ غَيْرَ مُنْدَفِعِينَ إِلَى الاقْتِصَادِ وَلَا مَيَّالِينَ إِلَى حِرْمَانِ أَنْفُسِهِمْ مِمَّا يَشْتَهُونَ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ عَائِلَةٌ كَبِيرَةٌ يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُومُوا بِشُؤُونِهَا.

وَمِمَّا يَسْتَوْقِفُ النَّظَرَ أَنَّ حَالَتَنَا الاجْتِمَاعِيَّةَ تُنْتِجُ مَعِيشَتَيْنِ

(١) الأهلية

مُختَلِفَتَيْنِ : فَهُنَا آبَاءٌ كَثُرَ عَدَدُ أَبْنَائِهِمْ فَضَاقَ الرِّزْقُ فِى وَجْهِهِمْ وَعَاشُوا عِيشَةَ الْحِرْمَانِ، وَهُنَاكَ آبَاءٌ قَلَّ عَدَدُ أَبْنَائِهِمْ فَعَاشُوا فِى رَغَدٍ وَهَنَاءٍ يَتَوَسَّعُونَ فِى مَعِيشَتِهِمْ وَيُحَصِّلُونَ جَمِيعَ لَذَاذَاتِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُتَزَوِّجِينَ . وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى تَرَى الْأَبْنَاءَ قَدْ تَعَوَّدُوا الِاعْتِمَادَ عَلَى الْمَهْرِ أَكْثَرَ مِنَ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَمَالُوا عَنْ طَلَبِ عَيْشِهِمْ بِجِدِّهِمْ، سَوَاءٌ أَكَانَ فِى فَرَنْسَا أَمْ فِى الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ، وَفَضَّلُوا الِانْكِبَابَ عَلَى التَّوَظُّفِ فِى الْحُكُومَةِ وَرَأَتْ هَذِهِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ دَفْعِ تِلْكَ الْغَارَةِ عَنْهَا فَأَكْثَرَتْ مِنْ أَنْوَاعِ الِامْتِحَانَاتِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَنْجَحْ بَلْ تَكَاثَرَ الْعَدَدُ وَرَأَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الطَّالِبِينَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْأَنْهِمَاكِ (١) فى الدُّرُوسِ فَاضْطُرَّتِ الْمَدَارِسُ إِلَى تَكْلِيفِ التَّلَامِذَةِ فَوْقَ طَاقَتِهِمْ .

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ جَمِيعَ الْأَسْبَابِ الَّتِى دَلَّ عَلَيْهَا الِاقْتِصَادِيُّونَ رَاجِعَةٌ إِلَى سَبَبٍ وَاحِدٍ أَوَّلِىٍّ وَهُوَ حَالَةُ الْعَائِلَةِ الَّتِى وُجِدَتْ بِحُكْمِ طَبِيعَةِ الِاجْتِمَاعِ الْفَرَنْسَاوِىِّ

بَقِىَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ إِنْ كَانَتْ قِلَّةُ النَّسْلِ فِى فَرَنْسَا مُفِيدَةً أَوْ مُضِرَّةً .

أَمَّا الِاقْتِصَادِيُّونَ فَغَيْرُ مُتَّفِقِينَ فِى هَذَا الْمَوْضُوعِ أَيْضاً: فَذَهَبَ مُوسْيُو « مُورِيس بْلُوك » فى جَرِيدَةِ « الدِّيبَا » وفى مَجَلَّةِ « الْعَالَمَيْنِ

(١) انهمك الرجل فى الأمر جد ولج

الجديدة » إلى أن زيادة النسل زيادة سريعة من موجبات ضعف الأمم لأن الفقر من لوازمها . ووافقه موسيو « دى مولينارى » في جريدة « الاقتصاديين » التى هو مديرها .

ولكن الاستقراء لا يؤدى إلى هذه النتيجة ، إذ ليس من المسلم أولاً أن قلة النسل تفيد الأمة الفرنساوية . نعم لو كنا محاطين بسور كسور الصين فلا يتخلل أمتنا عنصر أجنبى من أى نوع كان لأصبحنا في معيشة راضية في بلاد قل عدد سكانها ، إذ قلة العدد تسهل لكل فرد مصادر العيش وتجعله يستفيد مما يجعل الأمة أغنى مما لو كانت كثيرة العدد . غير أن الأحوال لا تجرى كذلك ، والنقص في النسل يستعاض على الدوام بتهافت القصاد من الأجانب . فالوافدون على البلاد الفرنساوية كثيرون من جميع مجاوريها البلجيكيين والألمانيين والسويسريين والباسكيين[1] والأندلسيين ، ولا يزال عددهم يزداد يوماً عن يوم فكان عدد الأجانب فى فرنسا سنة ١٨٥١ (٣٦٩٠٠٠) نسمة وبلغ سنة ١٨٦١ (٤٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٢ (٧٩٩٠٠٠) وسنة ١٨٧٦ (٨٠١٠٠٠) وسنة ١٨٨١ (١٠٠١٠٠) فتكون النسبة واحداً من الأجانب فى كل ثلاثة وسبعين فرنساوياً .

(١) هم سكان أطراف جبال البيرينيه الغربية

قَالَ مُوسْيُو « فوفيل »: « إنَّ كَثْرَةَ وُرُودِ الأَجَانِبِ إلى فَرَنْسَا أَمْرٌ خَطِيرٌ إذْ لَوْلَاهُمْ لَمَا تَغيَّرَ عَدَدُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ » وَفَرَنْسَا هِيَ الْبَلَدُ الَّذِي قَلَّ عَدَدُ الْمُهَاجِرِينَ مِنْهُ وَكَثُرَ عَدَدُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِمَنْفَعَةِ قِلَّةِ النَّسْلِ يَعْلَمُونَ هَذَا وَلَكِنَّهُمْ لَا يَتَطَيَّرُونَ(١) مِنْهُ بَلْ يَفْرَحُونَ بِهِ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ مُوجِبٌ لِلاقْتِصَادِ فِي فَرَنْسَا لِأَنَّهَا بِوَاسِطَةِ الْغُرَبَاءِ تَجِدُ عُمَّالًا لَمْ تَتَكَلَّفْ تَرْبِيَتَهُمْ.

قَالَ مُوسْيُو «مولينالى» : « لَوْ فَرَضْنَا أَنَّ الْأُمَّةَ الْفَرَنْسَاوِيَّةَ اضْطُرَّتْ إِلَى تَرْبِيَةِ ذَلِكَ الْمِلْيُونِ مِنَ الْعُمَّالِ الَّذِينَ يَفِدُونَ إِلَيْهَا مِنَ الْخَارِجِ لَكَلَّفُوهَا مِنَ النَّفَقَاتِ مَالاً جَزِيلاً إِذِ الْحُصُولُ عَلَى مِلْيُونِ رَجُلٍ كُلُّهُمْ فِي سِنِّ الْعِشْرِينَ لَا يَتَأَتَّى إِلَّا مِنْ مِلْيُونٍ وَثَلَاثِمَائَةِ أَلْفِ نَسَمَةٍ ، وَمُتَوَسِّطُ النَّفَقَاتِ لِتَرْبِيَةِ مِلْيُونٍ مِنَ الشُّبَّانِ ثَلَاثَةُ مِلْيَارَاتٍ وَخَمْسُمِائَةِ مِلْيُونٍ. وَعَلَيْهِ فَفَرَنْسَا تَقْتَصِدُ مِثْلَ ذَلِكَ الْمَبْلَغِ بِاسْتِعْمَالِهَا الْعُمَّالَ الْأَجَانِبَ ،وَهَذَا الْمَالُ يُسَاعِدُ كَثِيراً عَلَى امْتِدَادِ ثَرْوَتِهَا الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَلَا يَشُكُّ أَحَدٌ فِي أَنَّهُ لَوْ جَاءَنَا مِنَ الْبِلَادِ الْأَجْنَبِيَّةِ مِلْيُونٌ مِنَ الثِّيرَانِ لِنَسُدَّ بِهِ نَقْصَ مَوَاشِينَا لَكَانَتْ فَائِدَتُنَا مِنْهَا مُسَاوِيَةً لِمَا صَرَفَتْهُ الْبِلَادُ الَّتِي أَرْسَلَتْهَا إِلَيْنَا فِي تَرْبِيَتِهَا »

وَلَا نَخَالُ هَذَا الْقَوْلَ صَحِيحًا ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا كَانَ الرَّجُلُ ثَوْرًا

(١) يريد يتشاءمون

وَلـٰكنه لمّا كان انسانا لزم عليه أنّ قلة أبنائنا وعدم تربيتهم كما يترتى أبناء العائلات كثيرة العدد وعدم تعوّدهم من صغرهم الاعتماد على أنفسهم فى تحصيل عيشهم وإهمالهم جانب المهر الذي يأخذونه من آبائهم أو الذى تأتيهم به نساؤهم وعدم اعتقادهم بأنّ النجاح إنما هو لمن قويت فيه القدرة على العمل وكان ذا عزيمة وإقدام لا يؤدّى إلى تربية الرجال عندنا، ولزم عليه أنّ أبناءنا بتعوّدهم ما ألفوه من التربية التى تجعلهم يعيشون فى حجور أمهاتهم ويأكلون من حيث لا يعرفون إذا احتكّوا بأولئك الأطفال الذين نشئوا بين عائلات كثيرة العدد، وتربّوا على نظام شديد من جهة العمل والاجتهاد يخسرون على الدوام ويتقهقرون خجلين. ألا ترى أنّ تجارنا ومهندسينا يفضلون العمال الألمانيين أو السويسريين والصناع البلجيكيين أو التليانيين على أمثالهم من الفرنساويين إذ يجدونهم أشدّ إطاعة وأكثر عملاً وأكبر اقتصادًا وأقلّ طمعًا، والواقع أنّ أولئك الأجانب يقتصدون من أجور لا تفى بحاجات الفرنساويين ولولا معونتهم لنا لما زادت قيمة متاجرنا الضعف ولاشتدّ عجزنا عن مقاومة المنافسة الأجنبية، والصناع الأجانب هم الذين عليهم مدار صناعتنا وزراعتنا بما أوتوه

مِنْ سَلامَةِ الْعقْلِ وَقوَّةِ الْجِسْمِ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لا يُنقِذُونَنَا مِنْ هَـذَا الِانْحِطَاطِ إِلاَّ بِأَرْفَعِ الأَثْمَانِ؛ إِذْ وُجُودُهُمْ بَيْنَنَا يُضْعِفُ مِنْ قُوَّةِ إِرَادَتِنَا وَيُقَلِّلُ مِنْ هِمَّتِنَا وَيَنْقُصُ مِنَ انْتِشَارِنَا وَيُثَبِّطُ هِمَّتَنَا فِي الِاسْتِعْمَارِ وَيَذْهَبُ بِنُفُوذِنَا فِي الْعَالَمِ بَلْ هُوَ يُؤَثِّرُ أَيْضًا فِي جِنْسِيَّتِنَا لِمَا يَعْرُوهَا [1] مِنَ التَّغَيُّرِ طَبْعًا لِاخْتِلَاطِهِمْ بِنَا.

الفصل الثاني

﴿ فِي أَنَّ طَرِيقَةَ التَّرْبِيَةِ عِنْدَنَا مُضِرَّةٌ بِثَرْوَةِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ﴾

يَقُولُ النَّاسُ فِي كُلِّ مَكَانٍ: إِنَّ هَذَا الْجِيلَ [2] جِيلُ الْمَالِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْرَحُ بِذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْزَنُ لَهُ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ الأَعْمَالَ الْمَالِيَّةَ وَصَلَتْ فِي زَمَنِنَا هَذَا إِلَى حَدٍّ لَا يَكَادُ الْعَقْلُ يَتَصَوَّرُهُ؛ وَلَيْسَ هَذَا أَمْرًا غَرِيبًا إِذْ لَيْسَ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ مُسَبَّبًا عَنِ الْمُصَادَفَةِ بَلْ سَبَبُهُ اكْتِشَافُ مَنَاجِمِ الْفَحْمِ فَهُوَ الَّذِي أَوْجَدَ فِي الْمَالِ تِلْكَ الْقُوَّةَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي امْتَازَ بِهَا فِي زَمَنِنَا هَذَا. فَبِوَاسِطَةِ الْفَحْمِ تَمَكَّنَتِ الْأُمَمُ مِنْ إِجْرَاءِ أَعْمَالٍ كَثِيرَةٍ تَقْتَضِي مِنَ الْمَالِ مَا يَفُوقُ ثَرْوَةَ أَغْنَى الْعَائِلَاتِ مِمَّا لَا يُمْكِنُ الْقِيَامُ بِهِ لِغَيْرِ الشَّرِكَاتِ. وَأَوَّلُ تِلْكَ

(١) يصيبها (٢) الجيل : الصنف من الناس ولعله يقصد أناس هذا العصر

الْأَعْمالِ هُوَ اسْتِغْلَالُ المَنَاجِمِ عَيْنِهَا لِأَنَّ الْفَحْمَ لا يُوجَدُ فى الْأَرْضِ مُخْتَلِطًا بِغَيْرِهِ كما تُوجَدُ المَعادِنُ الْأُخْرَى ، بَلْ هُوَ طَبقَاتٌ مُتَكَاثِفَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ لا تَكادُ تَنْتَهِى ، وَلِهَذَا فَإِنَّهُ يَقْتَضِى فى اسْتِخْرَاجِهِ عُمَّالاً كَثِيرِينَ وَعَمَلاً عَظِيماً . ثُمَّ الْإِكْثارُ مِنَ الاشْتِغَالِ فى المَنَاجِمِ ذُو فائِدَةٍ عَظِيمَةٍ لِأَنَّ الْفَحْمَ لَازِمٌ فى كَثِيرٍ مِنَ الصِّنَاعَاتِ فَبَيْعُهُ سَهْلٌ وَمَأْمُونٌ ،وَمِثْلُ هذَا الْعَمَلِ الْعَظِيمِ يَقْتَضِى مِنَ النَّفَقَاتِ مَا لا يُمْكِنُ جَمْعُهُ إِلاَّ بِوَاسِطَةِ الشَّرِكَاتِ . وَلَمْ تَنْتَصِرْ مَنْفَعَةُ الْفَحْمِ عَلَى كَوْنِهِ صَارَ مَحَلاًّ لِتِجَارَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ حَيْثُ هُوَ؛ بَلْ إِنَّهُ غَيَّرَ حَالَةَ الصِّنَاعَةِ تَغَيُّراً كُلِّيًّا ، فَبِهِ أَصْبَحَ المَصْنَعُ الصَّغِيرُ مَعْمَلاً كَبِيراً لِأَنَّ قُوَّتَهُ عَظِيمَةٌ يَحْصُلُ الْإِنْسَانُ بِوَاسِطَتِهَا عَلَى أَضْعَافِ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ بِدُونِهَا،وَزِيَادَةُ الْإِنْتَاجِ تَسْتَدْعِى زِيَادَةَ الْعُمَّالِ . ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ الْمَصْنُوعَاتِ تَسْتَلْزِمُ مَالاً كَثِيرًا لا يَتَأَتَّى جَمْعُهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ إِلاَّ بِوَاسِطَةِ الشَّرِكَاتِ .

وَمِنْ فَوَائِدِهِ أَيْضًا تَغْيِيرُ طُرُقِ النَّقْلِ وَالتَّسْفِيرِ فَبِهِ امْتَدَّتِ السِّكَكُ الْحَدِيدِيَّةُ وَجَرَتْ سُفُنُ التِّجَارَةِ فِي عُرْضِ الْبِحَارِ ، وَهَذِهِ الْأَعْمَالُ أَيْضًا تَطْلُبُ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لا بُدَّ فِي جَمْعِهِ مِنَ الشَّرِكَاتِ، وَالْفَحْمُ هُوَ السَّبَبُ فِى تَأْلِيفِ شَرِكَاتِ الْمُسَاهَمَةِ الْكَبِيرَةِ الَّتِى تَشْتَغِلُ بِإِنَارَةِ الْمُدُنِ بِالْغَازِ وَاسْتِعْمَالِ الْكَهْرُبَاءِ وَفَتْحِ قَنَاةِ السويس

وَغيْر ذلكَ ، وَهُوَ الَّذِى حَمَلَ الدُّوَلَ عَلى إِجْرَاءِ الْأَعْمَال الْعَظِيمَةِ ذَاتِ الْمَنْفَعَةِ العَامَّةِ . وَكلمَا زادَتْ قُوَّةُ الْفَحْمِ عَظُمَ اتِّسَاعُ تِلْكَ الأَعْمَال حَتَّى أَصْبَحَتْ أَمْوَالُ الْخزَائِنِ لاَ تَفِي بالْمَطْلُوب وَعَمَدَتِ الْحُكومَاتُ إلى الِاقْتِرَاضِ ، فَتَأَلَّفَ لِإقْرَاضِهَا شَرِكَاتٌ أَكبَرُ مِنَ الَّتِى سَبَقَ الْقَوْلُ عَنْهَا .

هكَذَا عَظُمَ سُلْطَانُ المَالِ إِلى حَدٍّ لَمْ يَكُنْ فِى الْحُسْبَانِ ، حَتَّى أَصْبَحَ ذَا ثَمَرَةٍ ذَاتِيَّةٍ أَىْ مِنْ دُونِ أَنْ يَأْتِىَ صَاحِبُهُ عَمَلاً مِنَ الْأَعْمَالِ. وَتغَيَّرَ الِاسْتِثْنَاءِ إِلى قاعِدَةٍ كُلِّيَّةٍ ، فَبَعْدَ أَنْ كانَ الْغَنِىُّ هُوَ الَّذِى لَهُ رَأسُ مَالٍ يَأْتِيهِ بِالرِّبْحِ اشْتَرَكَ مَعَهُ فى ذَلِكَ الْحَقِيرُ الَّذِى يَقْتَصِدُ المَالَ الْيَسِيرَ بِالْكَدِّ الْكَثِيرِ . وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا التَّغْييرَ الَّذِى أَحْدَثَهُ الْفَحْمُ وَحْدَهُ عَلِمَ أَنَّهُ تَغْيِيرٌ لاَزِمٌ جَاءَ مِنْ طَبِيعَةِ الْحَالِ . وَمُقْتَضَى الْحَالِ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ هِمَمِ الرِّجَالِ ، وَمَنْ طَلَبَ مُقَاوَمَةَ هَذَا التَّيَّارِ فَقَدْ ضَلَّ رُشْدَهُ إذْ لاَ بُدَّ لَهُ مِنَ الْخِذْلاَنِ.

وَلَيْسَتِ الْأَسْبَابُ الَّتِى جَعَلَتِ النَّاسَ يَتَهَافَتُونَ عَلى اقْتِنَاءِ السَّنَدَاتِ المَالِيَّةِ إلاَّ أَسْبَاباً جَوْهَرِيَّةً جَاءَتْ مِنْ مُقْتَضَى الْأَحْوَالِ الَّتِى ذَكَرْنَاهَا :

فَأَوَّلُ مَزِيَّةٍ فِى تِلْكَ السَّنَدَاتِ سُهُولَةُ حِيَازَتِهَا وَهِىَ سَهْلَةُ الْحِيَازَةِ لِكَوْنِهَا تَتَجَزَّأُ إلى مَا لاَ نِهَايَةَ لَهُ ، وَقابلِيَّتُهَا لِلتَّجَزُّؤِ تُسَهِّلُ لِأَحْقَرِ النَّاسِ اكْتِسَابَهَا ، وَرِبْحُهَا لاَ يَقْتَضِي كُلْفَةً وَلاَ عَنَاءً . فَكلُّ النَّاسِ

مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ يَمِيلُ إِلَيْهَا ، ثُمَّ الرِّبْحُ الَّذِى يَأْتِى مِنْهَا يَأْتِى بِانْتِظَامٍ فِى أَوْقَاتٍ مُقَرَّرَةٍ ، وَذَلِكَ لاَ يَتَأَتَّى لِمَنْ يُزَاوِلُ الزِّرَاعَةَ مَثَلاً أَوِ الصِّنَاعَةَ أَوِ التِّجَارَةَ . وَظَاهِرٌ أَنَّهُ لاَمُوجِبَ لِلإِنْسَانِ يَدْعُوهُ إِلى تَرْكِ هَذِهِ المَزَايَا .

وَثَانِيَتُهَا — لِمَالِكِ السَّنَدَاتِ أَمَلٌ فِى زِيَادَةِ قِيمَتِهَا ، أَوْ تَسْدِيدِ مَا عَلَيْهِ مِنْهَا بِطُرُقٍ مُفِيدَةٍ أَوْ فِى نَيْلِ رِبْحٍ كَبِيرٍ ، وَمَنْ أَصَابَهُ حَظٌّ مِمَّا ذُكِرَ فَقَدِ اغْتَنَى وَهُوَ نَائِمٌ ، وَالْكَثِيرُ يَعْتَمِدُ عَلَى مَا يَرْجُو كَسْبَهُ مِنْ هَذَا السَّبِيلِ ، فَأَصْحَابُ السَّنَدَاتِ وَالأَسْهُمِ الَّذِينَ حَصَّلُوا ثَرْوَةً طَائِلَةً كَثِيرُونَ ، وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَيَغْبِطُ مُسَاهِمِى شَرِكَةِ « إِنْزَانَ » الَّتِى اشْتَهَرَتْ بِوَفْرَةِ أَرْبَاحِهَا وَمُسَاهِمِى شَرِكَةِ قَنَاةِ السُّوَيْسِ وَشَرِكَةِ الْغَازِ فِى بَارِيسَ وَغَيْرِهَا ، فَقَدْ أَتَتْ تِلْكَ الشَّرِكَاتُ وَأَمْثَالُهَا بِالأَرْبَاحِ الَّتِي لاَ تُعَدُّ فِى زَمَنٍ يَسِيرٍ لِأَنَّهَا تَكَوَّنَتْ فِى زَمَنٍ كَثُرَتْ فِيهِ حَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْهَا وَقَلَّ الْمُتَنَافِسُونَ مَعَهَا وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَيْهَا وَلاَ يَزَالُونَ مُقْبِلِينَ إِقْبَالَ الظَّمْآنِ عَلَى المَاءِ . نَعَمْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْسَرُونَ فِيهَا إِلاَّ أَنَّ الْخَسَارَةَ غَيْرُ ظَاهِرَةٍ بِجَانِبِ الْكَسْبِ الْوَفِيرِ .

وَثَالِثَتُهَا — سُهُولَةُ شِرَاءِ هَذِهِ السَّنَدَاتِ فِى الأَسْوَاقِ الْمَالِيَّةِ « البورصة » وَبَيْعِهَا وَمَا يَتَخَلَّلُ ذَلِكَ فِى كُلِّ وَقْتٍ مِنْ هُبُوطِ الأَسْعَارِ وَارْتِفَاعِهَا يَحْمِلُ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَلَى الاشْتِغَالِ بِهَا رَجَاءَ الرِّبْحِ

فى المُضارَبَاتِ فَضْلاً عمَّا يجدُونَهُ فى ذَلِكَ مِنَ اكْتِفاءِ الغناء[1] فى حفظِ أَمْوالهِمْ وَالزِّيَادَةِ فِيهَا إلى الْحدِّ الأَقْصَى .

هَذِهِ هِيَ الأَسْبَابُ الَّتى تدْعُو إلَى اقتِنَاءِ الأوْرَاقِ المَاليَّةِ بوَجْهِ الإجْمَالِ ، وهِيَ حَرَكَةٌ أَوْجَبَتْ تغيرًّا عَظِيماً فى الأفْكارِ مِنْ جهةِ الْعَمَلِ ، وَرفعَتْ شَأْنَ النُّقُودِ إلَى المَقَامِ الأَسْمَى ، وَفَتَحَتْ أَمَامَ كلِّ طَالِبٍ بَاباً لِلْكَسْبِ فَسِيحاً ، وَارْتَقَتْ بالمَالِيِّينَ إلَى ذِرْوَةِ الْهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَأَصْبَحُوا مُلُوكَ الْعَصْرِ وَقيَاصِرَةَ الزَّمَانِ .

غَيْرَ أَنَّ لِكلِّ شَيْءٍ فى الْوُجُودِ ضِدًّا .والدَّهْرُ قُلَّبٌ ! وَهُنَا يَصْدُقُ تَشْبِيهُ السَّعْدِ بِعَجَلَةٍ تدُورُ فمَا أَكْثَرَ تقلُّبَاتِ الثَّرْوَةِ الْمَنْقُولَةِ لأَنَّهَا عَلَى الدَّوَامِ تَحْتَ رَحْمَةِ تَغَيُّرِ الأَسْوَاقِ عَلَى الدَّوَامِ ، تحْتَ رَحْمَةِ السِّيَاسَةِ وَالْمُضَارَبَاتِ ، وَلَسْنَا فى حَاجَةٍ إلَى سَرْدِ مَا تُحْدِثُهُ الأَسْوَاقُ المَالِيَّةُ كلَّ يَوْمٍ مِنَ التَّخْرِيبِ وَالتَّدْمِيرِ لأَنَّ عِلْمَهُ حَاصِلٌ لِكلِّ وَاحِدٍ مِنَّا ، وَإِنَّمَا الَّذِى نُرِيدُ تَوْجِيهَ الأفكارِ إِلَيْهِ هُوَ أَنَّ الخَسَارَةَ الْمَالِيَّةَ قَدْ تَشْتَدُّ فى بَعْضِ الأَحْيَانِ فتُصِيبُ أُنَاساً كثِيرِينَ حَتَّى تكُونَ طَامَّةً[2] كُبْرَى ،وتُشْبِهُ الْبِنَاءَ إِذا تدَاعَى[3] هُنَالِكَ يَصِيحُ الْقَوْمُ بأَصْوَاتِ الْفزَعِ ، وَيَنْطِقُ كلٌّ وَاحِدٍ بِمَا تُمْلِيهِ عَلَيْهِ مَنَافِعُهُ ، فَيَتَسَابَقُونَ فى تَعْنِيفِ الْمَالِيِّينَ وَرَمْيِهِمْ بِمُرِّ المَلاَمِ وَسُمِّ الْكلاَمِ ،

(١) المشقة (٢) الطامة : الداهية تغلب ما سواها (٣) أراد أن ينقض ويسقط

وَقَدْ يكُونُ اللاَّئِمُ نفسهُ مُسْتَحِقاً للزَّجْرِ وَالتَّعنيف ، وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ كلَّ مُسَاهِمٍ يَسْتَعِدُّ لاقتضاءِ[1] الأَرْبَاحِ ، وَلَـكِنَّهُ يَكْرَهُ تَحَمُّلَ الْخَسَارَةِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّ كِلَيْهِمَا نَتِيجَةٌ لاَزِمَةٌ لِطَبِيعَةِ الْعَمَلِ الوَاحِدِ : فالأَوْرَاقُ المَالِيَّةُ تَرْبَحُ وَتَخْسَرُ أَىْ تُثْمِرُ التَّقَلُّبَ كما يُثْمِرُ الكَرْمُ عِنَباً وَشَجَرَةُ التُّفَّاحِ تُفَّاحًا ، وَالَّذِى يَجِبُ الاهْتِمَامُ بِهِ وَالْبَحْثُ عَنْهُ هُوَ مَعْرِفَةُ مَا إِذَا كَانَ فِى الْإِمْكَانِ تَلاَفِى الضَّرَرِ الَّذِى يَنْجُمُ عَنْ تَقَلُّبِ الأَسْوَاقِ المَالِيَّةِ وَالتَّفَادِى منْ سُلْطَةِ المَالِيِّينَ. وَمِنَ الْمُشَاهَدِ أَنَّ ذَلِكَ فِى الإِمْكَانِ بَلْ إِنَّ بَعْضَ الْأُمَمِ قَدِ اتَّخَذَتْ مِنَ الْوَسَائِلِ مَا اتَّقَتْ بِهِ تِلْكَ الْمِحَنَ.

وَبَيَانُهُ أَنَّ انْتِشَارَ الأَوْرَاقِ المَالِيَّةِ لَمْ يُؤَثِّرْ فِى جَمِيعِ الْبُلْدَانِ بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ، إِذْ مِنَ الْمُشَاهَدِ أَنَّ البِلاَدَ الَّتِى أَصَابَهَا الضَّرُّ لَيْسَتْ هِىَ الَّتِى كَثُرَ فِيهَا الْأَخْذُ وَالْعَطَاءُ بِتِلْكَ الأَوْرَاقِ ، وَمِنَ الْبِلاَدِ مَا تَحَمَّلَ مِنَ الْمُضَارَبَاتِ مَالَوْ حَصَلَ فِى غَيْرِهَا لَأَضَرَّ بِهَا كَثِيراً ، وَيُمْكِنُنا أَنْ نُشَبِّهَ الْحَالَةَ الْمَالِيَّةَ بِكَرْمِ الْعِنَبِ وَهُوَ يُقَاوِمُ فِعْلَ الدُّودَةِ فى أَمرِيكا أَكْثَرَ مِنْهُ فى فَرَنْسَا.

وَلَوْ أَحْصَيْنا الْكُتُبَ وَالرَّسَائِلَ الَّتِى نُشِرَتْ حَدِيثاً فِى الْبِلاَدِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ لِتَنْبِيهِ الْأُمَّةِ إِلَى مَا هُوَ مُحْدِقٌ بِهَا مِنَ الأَخْطَارِ بِفِعْلِ

(١) طلب

اليَهُودِ وَتأْثيرِ الْمُضَارَبَاتِ لِمَلأَتْ خزَائِنَ بتمامِهَا ، إلاَّ أنَّ الْعقلَ لَيسَ هُوَ الَّذِي أمْلَى تِلْكَ المُؤَلَّفَاتِ كما أنَّ التُّؤَدَةَ لَمْ تُرَافِق الْكُتَّابَ فِي تأْليفِهَا ، وَإنَّمَا الدَّاعِي إلَيْهاهُوَ الشَّهْوَةُ وَالْهَوَى وقَدْ تَخطَّى أَكثرُهَا الْحَدَّ الَّذِي يَنْبَغي وَتِلْكَ أفْسَدُ الْوَسَائِلِ فِي الْوُصُولِ إلَى الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ . ثمَّ إنَّ الَّذِينَ كَتَبُوا كلُّهُمْ لَمْ يَنْظُرُوا إلاَّ إلَى ظَاهِرِ المَسْأَلَةِ فَجَاءتْ أَدْوِيَتُهُمْ الَّتِي أشَارُوا بِهَا غيْرَ مُفيدَةٍ أَوْ مُتَعَذِّرَةَ الاِسْتِعْمَالِ ، وَمَعَ هَذَا فإنَّ تِلْكَ القِيَامَةَ تَدُلُّ عَلى أمْرٍ صَحِيحٍ لاَ شَكَّ فِيهِ وَهُوَ الْحَرَجُ[1] الَّذِي اسْتَوْلَى عَلى الْأُمَّةِ الفَرَنْسَاوِيَّةِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ .

وَلَيْسَ مَنْشأُ هَذَا الضِّيقِ أنَّ الفَرَنْسَاوِيِّين تَهَافتُوا[2] عَلى اسْتِعْمَالِ الْأَوْرَاقِ الْمَالِيَّةِ أكْثَرَ مِنْ غيْرِهِمْ ؛ إذِ الْحَالُ وَاحِدٌ فِي إنْكلترا وَالبِلادِ الإِسْكَنْدِينَاوِيَّةِ ، وَأَلْمَانيا ، وَالوِلاَيَاتِ المُتَّحِدَةِ ، وَإنَّما السَّبَبُ اخْتِلاَفُ طُرُقِ الاِسْتِعْمَال :

فَأَمَّا الْأُمَمُ الَّتِي تمَكَّنتْ مِنْ مُفادَاةِ[3] الضَّرَرِ الَّذِي يَنْجُمُ عَادَةً مِنَ الاشْتِغَال بالْأَوْرَاقِ الْمَالِيَّةِ فإنَّهَا اتَّخذَتْ سَبيلاً وَاحِداً ، ذَلكَ أنَّهُمْ لَمْ يَضَعُوا جَمِيعَ أمْوَالِهِمْ فِي تِلْكَ الْأَوْرَاقِ بَلْ فرَّقُوا بَيْنَ رَأْسِ الْمَالِ وَمَا اقْتَصَدُوهُ مِنْ غَلَّتِهِ[4] وَاشْتَغَلُوا فِي الأَوْرَاقِ بالثَّانِي دُونَ الْأَوَّلِ . أمَّا الفرَنْسَاوِيُّونَ فقَدْ فرَّطُوا فِي الْكلِّ وَأسْلَمُوا إلَى الأَسْوَاقِ المَالِيَّةِ

(١) الشدة والضيق (٢) اقبلوا (٣) اتقاء (٤) ثمرته

أَصْلَ الثَّرْوَةِ وَمَا اقْتَصَدُوهُ، وهَـذَا هُوَ السَّبَبُ فِى قَوْلِهِمْ عَادَةً: إِنَّ فَرَنْسَا هِىَ الْبَلَدُ الَّذِى كَثُرَتْ فِيهِ وَفْرَةُ المَالِ وَهُوَ قَوْلٌ صَحِيحٌ لِمَيْلِ الفَرَنْسَاوِىِّ إِلَى جَعْلِ ثَرْوَتِهِ كلهَا مَنْقُولَةً، وَالْكَثِيرُ مِنْهُمْ يَوَدُّ أَنْ لَوْ جَمَعَ ثَرْوَتَهُ كلَّهَا فِى دَفْتَرِ جَيْبِهِ[1]

وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ أَيْضًا فى أَنَّ أَغْلَبَ الْقُرُوضِ الَّتى تَحْصُلُ يَقَعُ الاكْتِتَابُ فِيهَا بفَرَنْسَا فَهِىَ أَكْبَر سُوقٍ لِلْأَمْوَالِ وَهِىَ أَحْسَنُ بَلَدٍ يَسْتَفِيدُ مِنهُ المَالِىُّ لَوْ كَانَ مِنَ الْمَاهِرِينَ. وَتَرَى الْيَوْمَ الْأَمْوَالَ الْفَرَنْسَاوِيَّةَ تَجْرِى إِلى الْخَارِجِ فى جَدَاوِلَ[2] مُخْتَلِفَةٍ وَلَكِنَّهَا لاَ تَرْجِعُ إِلَيْهَا إِلاَّ قَلِيلاً؛ فَكَمْ ضَاعَتِ النُّقُودُ الفَرَنْسَاوِيَّةُ فى تُرْكِيَا وَ «هُونْدُورَاسَ» وَ «فَنزَوِيلاَ» وَمَعَادِنِ بِلاَدِ الْأَنْدَلُسِ وَجُمْهُورِيَّةِ «أَرْجَنْتِينَ» وَ «الْبِيرُو» وَغَيْرِهَا. وَالْمَالُ الْفَرَنْسَاوِىُّ هُوَ الَّذِى كَانَ لَهُ الْحَظُّ الأَوْفَرُ فى ذَيْنِكَ الْعَمَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ لاَ نَظِيرَ لَهُمَا فِى زَمَنِنَا هَذَا. أُرِيدُ فَتْحَ قَنَاةِ السويْسِ وَخَلِيجِ بَنَامَا لَكِنَّ كَوْنَهُمَا فُتِحَا بِمَالِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ لاَ يَسْتَلْزِمُ بَقَاءَهُمَا فِى حِيَازَتِهِمْ!!! فَأَمَّا قَنَاة السويْسِ فَقَدْ صَارَتْ مِلْكًا لِإِنْكِلْتِرَا، وَمِنَ الْمُحْتَمَلِ جِدًّا أَنْ يَصِيرَ بَنَامَا مِلْكًا لِلْأَمْرِيكَانِ، وَمَعْنَاهُ اسْتِيلاءُ الْعُنْصُرِ الإِنْكِلِيزِىِّ السَّكْسُونِىِّ.

(١) الجيب من القميص طوقه ويراد به هنا ذلك الكيس الذى يخاط فى جانب الثوب من الداخل ويجعل فمه من الخارج وهو استعمال غير فصيح (٢) الجدول فى الأصل النهير ويراد هنا : فى طرق مختلفة

عَلى كُلِّ شَيْءٍ . فالفَرَنْسَاوِيُّونَ يَزْرَعُونَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الأُمَمِ يَحْصُدُونَ وَالْفَرَنْسَاوِيُّونَ يَتَعَرَّضُونَ إلى الأَخْطارِ حَتَّى إِذَا وَجَبَتِ الْفائِدَةُ جَنَاهَا غَيْرُهُمْ وَهُمْ إِلَيْهِ يَنْظُرُونَ .

ثَبَتَ إِذَنْ أَنَّ فَرَنْسَا هِيَ الْبَلَدُ الَّذِي صَارَتِ الثَّرْوَةُ فِيهِ مَنْقُولَةً أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا

وَالسَّبَبُ فِي هَذَا إِهْمَالُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ عَلَى تَمَادِي الأَيَّامِ مَنَابِعَ الثَّرْوَةِ الْعُمُومِيَّةِ الثَّلاثَةَ : وَهِيَ الزِّرَاعَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ . وَلَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى إِعَادَةِ مَا سَطَّرَهُ الْغَيْرُ مِنْ إِصْرَارِ مُلُوكِنَا وَخُصُوصاً لِوِيزَ الرَّابِعَ عَشَرَ عَلَى حَمْلِ الشُّرَفَاءِ عَلَى تَرْكِ أَرَاضِيهِمْ وَجَلْبِهِمْ إِلَى دَائِرَةِ الْحَشَمِ وَالمَعِيَّةِ وَأَنَّ الطَّبَقَةَ الْعُلْيَا تَنَاسَتْ شَيْئاً فَشَيْئاً سُكْنَى الأَرْيَافِ وَأَعْمَالَ الْفِلاحَةِ وَاخْتَارَتِ الإِقَامَةَ فِي الْمُدُنِ الْكَبِيرَةِ ، وَصَارَتْ فَرَنْسَا الْيَوْمَ هِيَ الْبَلَدَ الَّذِي تَطُولُ فِيهِ غَيْبَةُ كِبَارِ الأَغْنِيَاءِ عَنْ أَمْلاَكِهِمْ وَتَحَوُّلُهُمْ عَنِ الاشْتِغَالِ بِاسْتِغْلاَلِ أَرَاضِيهِمْ ، وَأَصْبَحَتِ الأَمْوَالُ الَّتِي كَانَتْ يَنْبَغِي اسْتِعْمَالُهَا فِي الزِّرَاعَةِ وَتَحْسِينِ طُرُقِهَا مُعَطَّلَةً لاَ تُفِيدُ الزِّرَاعَةَ ، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ اسْتِعْمَالُهَا فِي الصِّنَاعَةِ أَوِ التِّجَارَةِ إِلاَّ أَنَّهُمَا مُعْتَبَرَانِ عِنْدَ كُلِّ مُلْتَصِقٍ بِتِلْكَ الطَّبَقَةِ مِنَ الأَعْمَالِ الدَّنِيئَةِ جَرْياً عَلَى ذَلِكَ الْوَهْمِ الْمُتَأَصِّلِ فِي الأَفْكَارِ مِنْ قَدِيمٍ حَتَّى إِنَّ الْمُشْتَغِلِينَ بِهِمَا لاَ يُفَكِّرُونَ إِلاَّ فِي الْكَسْبِ بِأَسْرَعِ

مَا يُمْكِنُ وَلاَ غَرَضَ لَهُمْ مِنْ جَمْعِ الأَمْوَالِ الطَّائِلَةِ إِلاَّ التَّقَاعُدُ عَنْ صِنَاعَتِهِمْ أَوْ تِجَارَتِهِمْ وَإِدْخَالُ أَبْنَائِهِمْ فِى الْمِهَنِ الَّتِى تَطَلَّعَتْ إِلَيْهَا الطَّبَقَةُ الَّتِى اتَّفَقُوا الْيَوْمَ عَلَى تَسْمِيَتِهَا بِالْعُلْيَا وَهِيَ الْوَظَائِفُ الإِدَارِيَّةُ. فَمُنْتَهَى أَمَلِ كُلِّ فَرَنْسَاوِيٍّ أَنْ يَلْتَحِقَ بِوَظِيفَةٍ فِى الإِدَارَةِ أَوِ الْجَيْشِ! وَهِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَكُونُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِهَا مُكَرَّمًا مُحْتَرَمًا، وَهِيَ الَّتِى تُؤَهِّلُهُ لِأَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ مِنَ الأَغْنِيَاءِ، وَتَجْعَلُهُ مَقْبُولاً بَيْنَ الْقَوْمِ الْمُمْتَازِينَ. إِذَنْ فَالْفَرَنْسَاوِيُّ إِمَّا مُوَظَّفٌ وَإِمَّا مُرَشَّحٌ[1] لِلتَّوَظُّفِ وَلَهُ مِنْ ذَلِكَ رَاتِبٌ يَقْبِضُهُ وَهُوَ يَقْتَصِدُ مِنْ رَاتِبِهِ مَا زَادَ عَلَى حَاجَتِهِ؛ وَلاَ شَكَّ أَنَّهُ لاَ يَمِيلُ إِلَى اسْتِعْمَالِ مَا اقْتَصَدَ فِى الزِّرَاعَةِ أَوِ الصِّنَاعَةِ أَوِ التِّجَارَةِ لِلأَسْبَابِ الَّتِى قَدَّمْنَاهَا وَهِيَ الْحَطُّ مِنْ قَدْرِهِ؛ عَلَى أَنَّهُ يَجْهَلُ سَبِيلَهَا بِالْمَرَّةِ. وَعَلَيْهِ فَلَمْ يَبْقَ لِاسْتِغْلاَلِ ذَلِكَ الْمَالِ إِلاَّ شِرَاءُ الأَوْرَاقِ الْمَالِيَّةِ فَهُوَ الْبَابُ الْوَحِيدُ الَّذِى يُمْكِنُ الدُّخُولُ مِنْهُ وَإِلَيْهِ يَمِيلُ كُلُّ ذِى مَالٍ لاَ يُرِيدُ أَنْ يَشْتَغِلَ لِاسْتِغْلاَلِهِ وَإِنْمَائِهِ أَوْ غَيْرِ قَادِرٍ عَلَى ذَلِكَ، وَهُنَاكَ سَبَبٌ آخَرُ فِي كَثْرَةِ النُّقُودِ الْمُتَوَفِّرَةِ لَدَى الْعَائِلاَتِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ وَهُوَ قِلَّةُ الأَبْنَاءِ كَمَا قُلْنَا، فَالْمَالُ الَّذِى تُنْفِقُهُ الأُمَمُ الأُخْرَى فِى تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهَا الْكَثِيرِينَ يَقْتَصِدُهُ الْفَرَنْسَاوِيُّونَ وَيَبْقَى هَكَذَا تَحْتَ طَلَبِ الشَّرِكَاتِ الْمَالِيَّةِ، فَإِصْرَارُهُمْ عَلَى تَقْلِيلِ

(١) مرشح : مؤهل

النَّسلِ يُوجِبُ ضَعفَ قوَّتِهِمْ الاجْتِماعِيَّةِ فِي المسْتَقبَلِ ، ولَكنه يَدْعُو إلَى زِيادَةِ الأمْوالِ حالاً فِي خزائِنِهِمْ ، ولاَ شكَّ فِي أنَّهُ لَوْ حَصَلَ هبُوطٌ فِي أسْعارِ تِلكَ الأوْراقِ المالِيَّةِ الَّتي جمعَتْ أموالَ الكثيرِ مِنَ الفرَنساوِيِّينَ كلّها لكانَتْ مُصِيبَةً كُبْرَى ولَخَسِرُوا خَسارَةً لاَ عِوَضَ لهَا .

ولَيْسَ هذا حالَ الأُمَمِ الإنكليزيَّةِ السَّكسُونيَّةِ فلاَ يَزالُ كُبَراؤُها وعامَّتها مُشْتغلينَ بالزِّراعَةِ ، ولِلوُرْداتِ الإنكليزِ أمْلاكٌ واسِعَةٌ يَسْكُنُونَ بَيْنَهَا وهُمْ يُدَبِّرُونَهَا بأَنفُسِهِمْ . ومَنْ عمدَ إلَى الاسْتِعانَةِ بالْغيْرِ فِي اسْتِغْلالِ أَراضِيهِ فإنَّهُ يَحْفَظُ علَى الدَّوامِ قسماً يُباشِرُهُ بنَفْسِهِ ، ومِنْ أجْلِ ذَلِكَ تَراهُمْ واقِفِينَ علَى أَحْوالِ الزِّراعَةِ ومُهتَمِّينَ بشُئُونِهَا ومُسْتَعِدِّينَ لِاسْتِعْمالِ أمْوالِهِمْ فِيهَا ، ولاَ يَكادُ الفرَنْساوِيُّ يُقَدِّرُ المالَ الَّذي يُنفِقُهُ أحَدُ أغْنياءِ الإنكليزِ في تَحْسِينِ طُرُقِهَا والتَّفنُّنِ فِي أَسالِيبِهَا « راجِعْ كِتابَ تَدْبيرِ الزِّراعَةِ عِنْدَ الإنكليزِ لمُوسْيُو لافارْج » ، واسْتِعْمالُ الأمْوالِ فِي الزِّراعَةِ هُوَ أكْبَرُ باعِثٍ علَى اعْتِبارِ[1] ذَوِي الحَيْثِيَّاتِ في تِلكَ البِلادِ « راجِعْ مُذَكَّراتٍ علَى إنكلْترا لمُوسْيُو تاين » . ومِنَ الإنكليزِ عائِلاتٌ كَثِيرَةٌ تُهاجِرُ إلَى أمرِيكا وأُوسْترالْيا وزِيلنْدَهْ الجَدِيدَةِ وكلُّهَا تَشْتَغِلُ بالزِّراعَةِ ،

(١) يريد احترام

وَلَهَا أَمْلاَكٌ كَبِيرَةٌ فِيهَا لِأَنَّ الزِّرَاعَةَ وَحِيَازَةَ الأَرَاضِى هُمَا أَقْصَى أَمَانِيهَا ، وَبِذَلِكَ سَهُلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ شُبَّانِ الإِنكليز أَنْ يَرْتَزِقُوا فِى الْبِلاَدِ الأَجْنَبِيَةِ . وَمَتَى اتَّجَهَتِ الهِمَمُ إِلَى هَذَا السَّبِيلِ لَمْ يَبْقَ إِلاَّ يَسِيرٌ مِنَ الْمَالِ لِشِرَاءِ الأَوْرَاقِ الْمَالِيَّةِ .

وَعَلَى الضِّدِّ مِنْهُمْ لاَ يُهَاجِرُ مِنَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ إِلاَّ النَّزْرُ القَلِيلُ، وَمَنْ تَكَلَّفَ الرَّحِيلَ عَنْ وَطَنِهِ فَإِنَّمَا يَقْصِدُ بِرِحْلَتِهِ أَنْ يَكُونَ مُوَظَّفًا فِى الْبِلاَدِ الَّتِى يَقْصِدُهَا إِلاَّ نَادِرًا ! وَهُمْ بِذَلِكَ يَعُوقُونَ تَقَدُّمَ الاسْتِعْمَارِ أَكْثَرَ مِمَّا يُسَاعِدُونَ عَلَيْهِ .

هَذَا وَلَمْ يَقْتَصِرِ الإِنْكليزِيُّ السَّكْسُونِيُّ عَلَى الزِّرَاعَةِ بَلْ هُوَ يَهْتَمُّ أَيْضًا بِالصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ حَتَّى الْكُبَرَاءِ مِنْهُمْ وَالأُمَرَاءِ وَأَبْنَاءِ اللُّورْدَاتِ الَّذِينَ يَذْهَبُونَ لِغَيْرِ بَلَدِهِمْ طَلَبًا لِحِيَازَةِ الأَرَاضِى وَزَرْعِهَا يُنْشِئُونَ فِى وَطَنِهِمْ مَعَامِلَ لِلصِّنَاعَةِ أَوْ يَتَّجِرُونَ، وَلاَ يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ فِيمَا يَعْمَلُونَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ تَقَالِيدِ آبَائِهِمْ ، كَمَا أَنَّ هَذَا الْخَاطِرَ لاَ يَجُولُ بِفِكْرِ أَحَدٍ مِنْ أُمَّتِهِمْ . وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الْوَحِيدُ فِى اتِّسَاعِ نِطَاقِ الصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ فِى إِنْكلْتِرَا وَالْوِلاَيَاتِ الْمُتَّحِدَةِ بِدَرَجَةٍ تَكَادُ تَبْلُغُ حَدَّ الإِعْجَازِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِى مَالاً كَثِيراً فَلَمْ يَبْقَ لِلأَوْرَاقِ الْمَالِيَّةِ إِلاَّ يَسِيرٌ .

وَمِمَّا يَزِيدُ أُولَئِكَ الْقَوْمَ رَغْبَةً فِي الزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ

عَدَمُ اعْتِبَارِ الْوَظَائِفِ عِنْدَهُمْ كما هِىَ عِنْدَ الفَرَنْسَاوِيِّينَ ، فَلاَ نَرَى فى إنكلترا مثلاً مِنَ الْمُوَظَّفِينَ إلاَّ مالاَبُدَّ مِنْهُ وَمِنْ هُنَا طَلَبَ النَّاسُ رِزْقَهُمْ مِنَ الْحِرَفِ النَّافِعَةِ الأُخْرَى وَهُمْ فى مَأْمَنٍ مِنَ الْمَخَاوِفِ لِمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فى شَرَائِعِهِمْ مِنْ أَنَّ تَرِكَةَ الرَّجُلِ لاَتُقَسَّمُ بَيْنَ جَمِيعِ وَرَثَتِهِ ؛ فَالرَّجُلُ يَعْمَلُ وَيَجْمَعُ الأَمْوَالَ وَلَهُ الْخِيَارُ فى تأسِيسِ الأَعْمَالِ الْبَاقِيَةِ عَلَى الدَّوَامِ بَعْدَ مَمَاتِهِ .

وَمِنَ الْمُسَلَّمِ أَنَّ الَّذِى يَجْعَلُ مَدَارَ ثَرْوَتِهِ عَمَلَهُ الذَّاتِىَّ وَكَسْبَهُ الشَّخْصِىَّ لاَيَكُونُ عُرْضَةً لِلأَخْطَارِ كَالَّذِى يَتَّكِلُ عَلَى تَقَلُّبَاتِ الأَوْرَاقِ الْمَالِيَةِ لِأَنَّ الأَوَّلَ لايَشْتَرِى تِلْكَ الأَوْرَاقَ إلاَّ مِنْ فَضْلَةِ مَالِهِ وَيشْتَرِيهَا وَهُوَ غَيْرُ جَازِمٍ بِالْكَسْبِ كَمَنْ يَدْخُلُ بَيْتَ الْقِمَارِ فَيَرْمِى فِيهِ بِبَعْضِ دُرَيْهِمَاتٍ مِنْ نَفَقَةِ نُزْهَتِهِ فَإِنْ أَصَابَ رِبْحًا فَبِهَا وَإِنْ أَضَاعَ مَا أَنْفَقَ فَالضَّرَرُ مُحْتَمَلٌ وَرَأْسُ الْمَالِ مَحْفُوظٌ مَصُونٌ .

أَلَّفَ مُوسيو « روزييه » كِتَاباً سَمَّاهُ « مِيشَةَ الأَمْرِيكان » تَلَذُّ قِرَاءَتُهُ خُصُوصاً الفَصْلَ الثَّالِثَ عَشَرَ الَّذِى عُنْوَانُهُ « كَيْفَ يَسْتَغِلُّ الأَمْرِيكِىُّ مَالَهُ » فَقَدْ وَرَدَ فِيهِ مَايَأْتِى : « رَأَيْتُ فى نِيُويُورْكَ وَفى بُوصْتُنْ رِجَالاً يَشْتَغِلُونَ فِى الْحِرَفِ الأَدَبِيَّةِ وَمَعَ ذَلِكَ يَضَعُونَ فى الزِّرَاعَةِ أَوْغَيْرِهَا قِسْماً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَلَهُمْ عِلْمٌ بِالْجِهَاتِ

التَّى يَضَعُونَ نُقُودَهُمْ فِيهَا ، وَلٰكِنَّهُ لا يَتَأَفَّفُ مِنْ ذَلِكَ شَرِكَاتٌ كَبِيرَةٌ بَلْ جَمْعِيَاتٌ صَغِيرَةٌ خُصُوصِيَّةٌ ، وَمِنْ هَمِّهِمْ أَنْ يَقِفُوا عَلى كَيْفِيَّةِ الاسْتِغْلَالِ وَطُرُقِهِ وَلِذَلِكَ لا يُقَسِّمُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَضَعُوا كُلَّ قِسْمٍ فى جِهَةٍ مَخْصُوصَةٍ كَمَا يَفعَلُ بعضُ الفَرَنْسَاوِيِّينَ احتِفَاظًا بِهَا بَلْ يَجْمَعُونَهَا كُلَّهَا فى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وَكُلُّهُمْ حُرَّاسٌ عَلَيْهَا . وَمِنْ هُنَا تَجِدُ الْجَرَائِدَ الْأَمرِيكِيَّةَ مَشْحُونَةً بِالأَخْبَارِ العَمَلِيَّةِ أى المُخْتَصَّةِ بِالزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ ، وَلاَ يَنْشُرُ أَسْعَارَ الْأَوْرَاقِ المَالِيَّةِ إلاَّ الْقَلِيلُ مِنْهَا لِأَنَّ الْكَثِيرَ مِنْ قُرَّائِهَا لا يَلْتَفِتُونَ إِلَيْهَا وَهُوَ مَعْقُولٌ إِذْ لَوْ كَانَ عِنْدَهُمْ مَالٌ لَمَا اسْتَغَلُّوهُ فِيهَا بَلْ جِهَاتُ الِاسْتِغْلَالِ عِنْدَهُم هِىَ الْهِمَمُ وَالْعَمَلُ فَيَتَّخِذُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مَصْنَعًا يَشْتَغِلُ بِإِدَارَاتِهِ أَوْ يَقْصِدُ التِّجَارَةَ وَلٰكِنَّهُ لا يَرْضَى أَنْ يَنَامَ عَلَى أَوْرَاقٍ مَالِيَّةٍ يَشْتَرِيهَا .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَجِدُ التَّعَامُلَ فِى الْأَسْوَاقِ المَالِيَّةِ عِنْدَهُمْ يَحْصُلُ عَلَى الدَّوَامِ بِالنَّقْدِ فَوْرًا ؛ فَكُلُّ بَيْعٍ أَوْ شِرَاءٍ تُدْفَعُ قِيمَتُهُ بِتَحَاوِيلَ يَقْبِضُهَا الْمُحَوَّلُ إِلَيْهِ فى الْيَوْمِ الثَّانِي وَمَنِ اشْتَرَى وَرَقًا لَزِمَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْ مَكَانِ ابْتِيَاعِهِ(١) وَذَلِكَ مِنْ أَكْبَرِ الْبَوَاعِثِ عَلَى الْإِقْلَالِ مِنْ أَعْمَالِ تِلْكَ الْأَسْوَاقِ فَلاَ يُقْدِمُ عَلَى الْعَمَلِ فِيهَا إِلاَّ

(١) ابتاع : اشترى

مَنْ كانَ المَالُ حَاضِراً فِي يَدِهِ وَلاَ يَجِدُ مَنْ يَبْتَغِي الْكَسْبَ بِالدَّيْنِ إِلَيْهِ سَبِيلا.

وَعَلَى هذَا يُمْكِننَا أَنْ نَقُولَ بِأَنَّ هُبُوطَ الْأَسْعَارِ عِنْدَ الْأُمَمِ الْإِنْكلِيزِيَّةِ لاَ يَضُرُّهَا كَمَا لَوْ حَصَلَ عِنْدَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ إِذِ الْأُولَى أَقَلُّ مِنَ الثَّانِيَةِ فِي اسْتِعْمَالِ الْأَوْرَاقِ المَالِيَّةِ.

إِنَّ الِانْصِبَابَ عَلَى تِلْكَ الْأَوْرَاقِ فِى البِلاَدِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ هُوَ الَّذِى جَعَلَهَا كَعْبَةَ الْقُصَّادِ مِنْ ذَوِى الْأَمْوَالِ، وَمَا الْيَهُودُ إِلاَّ بِذْرَةٌ لاَ تَنْبُتُ إِلاَّ فِى أَرْضٍ تُنَاسِبُهَا وَإِلاَّ لاَ نَنْتَشِرُ زَرْعُهُ فِي إِنْكلْتِرَا وَالْبِلاَدِ الإِسْكَنْدِينَاوِيَّةِ وَالْوِلاَيَاتِ الْمُتَّحِدَةِ وَأُوسْتُرَالْيَا وَغَيْرِهَا، وَلٰكِنَّهُ لَمْ يَهْبِطْ تِلْكَ النَّوَاحِي لِأَنَّ المَالَ فِيهَا غَيْرُ مَوْجُودٍ فِى الْأَسْوَاقِ وَلِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهُ فِيهَا يَسْتَغِلُّهُ بِنَفْسِهِ فِى أَرْضِهِ أَوْ صِنَاعَتِهِ أَوْ تِجَارَتِهِ. فَحَيْثُ لاَ يَجِدُ الْيَهُودِيُّ مَالاً يَقْتَنِصُهُ(١) وَحَيْثُمَا يَجِدُ قَوْمًا يَعْرِفُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ طَرِيقَ الدِّفَاعِ عَمَّا اقْتَنَى تَرَاهُ يَنْسَحِبُ مِنْ نَفْسِهِ أَوْ أَنَّهُ يَفْقِدُ مَافِى بُذُورِهِ مِنَ الْفَسَادِ.

(١) يصطاده ويسلبه

الفصل الثالث

﴿فِى أَنَّ التَّرْبِيَةَ الْإِنكِلِيزِيَّةَ السَّكْسُونِيَّةَ تُسَاعِدُ عَلَى التَّزَاحُمِ فِى الْحَيَاةِ﴾

« النَّوْعُ وَالْأَخْلَاقُ »

جَاءَنِى فِى شَهْرِ مَايُو سَنَةَ ١٨٩٢ دَعْوَتَانِ إِلَى بِلَادِ الإِنكِلِيز : الأُولَى مِنْ جَمْعِيَّةِ تَقَدُّمِ الْعُلُومِ البِرِيطَانِيَّةِ لِمُنَاسَبَةِ احْتِفَالِهَا بِالْمُؤْتَمَرِ الثَّانِى وَالسِّتِّينَ لَهَا مِنْ ٤ إِلَى ١٠ أُغُسْطُس سَنَةَ ١٨٩٢ بِمَدِينَةِ إِيدِنبُورْج، وَقِيلَ لِى فِي وَرَقَةِ الدَّعْوَةِ « إِنَّ لَجْنَةَ الإِدَارَةِ تَرْجُو أَنْ تُشَرِّفُوهَا بِبَقَائِكُمْ ضَيْفاً عَلَيْهَا مُدَّةَ إِقَامَتِكُمْ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ، وَكُونُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهَا لَنْ تُهْمِلَ شَيْئاً مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ لَكُمُ الْمُقَامَ حُلْوًا مَرْضِيًّا » . فَلَمَّا قَرَأْتُهَا أَحْسَسْتُ أَنِّى غَيْرُ قَادِرٍ عَلَى عَدَمِ الإِجَابَةِ، وَالثَّانِيَةُ مِنَ الأُسْتَاذِ « جيديس » مُؤَسِّسِ جَمْعِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ يُقَالُ لَهَا « جَمْعِيَّةُ الصَّيْفِ » فِى الْمَدِينَةِ ذَاتِهَا، وَكَانَ يَطْلُبُ مِنِّى أَنْ أُلْقِيَ بَعْضَ الدُّرُوسِ فِى الْعِلْمِ الاِجْتِمَاعِىِّ عَلَى أَصْحَابِهِ.

وَفِى الْيَوْمِ الثَّانِى مِنْ شَهْرِ أُغُسْطُس سَنَةَ ١٨٩٢ قَصَدْتُ مَدِينَةَ

ايْدِنبُورْج فَرَاقَنِى مَرْآهَا ، وَهَكَذَا صِرْتُ أَتَرَدَّدُ عَلَيْهَا أَرْبَعَ سَنَوَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ ، وَشَاهَدْتُ تِلْكَ الْجَمْعِيَّةَ الصَّيْفِيَّةَ فَإِذَا بِهَا مَدْرَسَةُ عُلُومٍ وَفُنُونٍ غَرِيبَةٍ فِى بَابِهَا! وَهِىَ فِى الْوَاقِعِ حَقِيقَةٌ(١) بِالإِنْكِلِيزِ وَيَنْبَغِى أَنْ يَعْرِفَهَا الْقُرَّاءُ : لِذَلِكَ نَذْكُرُ طَرَفاً مِنْ مَوْضُوعِهَا.

اشْتَغَلَتِ الأَفْكَارُ بِنَشْرِ التَّعْلِيمِ فِى الْبِلَادِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ حَتَّى انْتَهَى الْقَائِمُونَ بِهِ إِلَى تَأْسِيسِ دُرُوسٍ مُتَعَدِّدَةٍ فِي أَنْحَاءِ الْبِلَادِ عَلَى الْخُصُوصِ حَوْلَ كُلِّ مَدْرَسَةٍ مِنَ الْمَدَارِسِ الْكُلِّيَّةِ . وَتَدُومُ تِلْكَ الدُّرُوسُ فِي الْغَالِبِ شَهْراً وَاحِداً زَمَنَ الْعُطْلَةِ الصَّيْفِيَّةِ وَيَجْتَمِعُ إِلَيْهَا الطَّلَبَةُ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ رَغْبَةً فِي تَوْسِيعِ مَعْلُومَاتِهِمْ ، وَكُلُّ طَالِبٍ أَوْ طَالِبَةٍ يَدْفَعُ جُعْلاً(٢) مَعْلُوماً . وَقَدْ نَجَحَ هَذَا الْمَشْرُوعُ جِدّاً فِى تِلْكَ الْبِلَادِ لِكَثْرَةِ الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى زِيَادَةِ التَّحْصِيلِ عِلْماً بِأَنَّ الْعِلْمَ أَكْبَرُ مُسَاعِدٍ لِلإِنْسَانِ فِى حَيَاتِهِ ، فَإِذَا جَاءَ الصَّيْفُ وَحَانَ زَمَانُ تِلْكَ الدُّرُوسِ رَأَيْتَ النَّاسَ يَكْتَتِبُونَ فِيهَا مِئَاتٍ مِئَاتٍ فِى إِنْكِلْتِرَا وَأُلُوفاً أُلُوفاً فِى الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ .

وَلَقَدْ تَوَلَّانِى الدَّهَشُ أَوَّلَ مَرَّةٍ جَلَسْتُ فِيهَا لإِلْقَاءِ الدَّرْسِ فِى مَدِينَةِ إِيْدِنْبُورْجَ لَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ عَدَدَ الطُّلَّابِ يَبْلُغُ السِّتِّينَ إِلَى السَّبْعِينَ ، إِذْ مَا كَانَ يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَنَّهُمْ يَبْلُغُونَ هَذَا الْمِقْدَارَ فِى دَرْسٍ

(١) جديرة بهم (٢) الجعل : ماجعل للانسان من شيء على فعل . ومثله الجعالة

يُلقى باللُّغَةِ الفَرَنْسَاوِيَّةِ وَلَيْسُوا كلُّهُمْ مِنْ طَبَقَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ مِنْ طَبَقاتٍ وَأَجْنَاسٍ مُخْتَلِفَةٍ مِمَّا يفيدُ الْمُتَأَمِّلَ فِى أَحْوَالِ التَّرْبِيَةِ وَأَحْوَالِ الاِجتماعِ: فَمِنْهُمْ بَعْضُ ذَوِى الأَمْلاَكِ العِظَامِ، وَفِيهِم الْكَثِيرُ مِنَ الْمُدَرِّسِينَ وَالْكُتَّابِ وَمُدِيرِ جَمْعِيَّةِ الْبَحْثِ فِى أَحْوَالِ الأُمَمِ بِلُنْدُرَه وعَدَدٌ مِنْ طَلَبَةِ الْمَدَارِسِ، وَفِيهِمْ مِنَ الشُّبَّانِ الَّذِينَ يَتَلَقَّوْنَ دُرُوسًا فِى الْعِلْمِ الاِجْتِمَاعِىِّ بِبَارِيسَ — وقَدْ أَصَابُوا بِمَجِيئِهِمْ إِلى إِيدِنْبُورْج — ومِنْهُمْ بَعْضُ الْفَتَيَاتِ وبَعْضُ الْمُشْتَغِلِينَ بالتَّرْبِيَةِ والتَّعْلِيمِ والأَعْمَالِ الْخَيْرِيَّةِ مِنْ رِجَالٍ ونِسَاءٍ، وبَعْضُ الْمُعَلِّمِينَ وَالْمُعَلِّمَاتِ، وهَؤُلاَءِ أَكْثَرُهُم بالطَّبِيعَةِ عَدَدًا. واتَّفَقَ أَنِّي قُلْتُ لإِحْدَى الْمُعَلِّمَاتِ إِنَّ زَمِيلاَتِهَا فى فَرَنْسَا لاَ يُرِدْنَ ضَيَاعَ زَمَنِ الْعُطْلَةِ الْمَدْرَسِيَّةِ عَلَيْهِنَّ فى تَلَقِّى دُرُوسٍ جَدِيدَةٍ، وَعَلَى الْخُصُوصِ بِمُقَابِلٍ يَدْفَعْنَهُ، فَبَانَتْ عَلى وَجْهِهَا عَلاَمَةُ الاسْتِغْرَابِ، وَأَجَابَتْ: إِنَّ اسْتِعْمَالَ زَمَنِ الْعُطْلَةِ فِى الاسْتِفَادَةِ أَمْرٌ طَبِيعِىٌّ. وَالْوَاقِعُ أَنَّ عَدَدَ الطَّالِبِينَ وَالطَّالِبَاتِ لِتِلْكَ الدُّرُوسِ بِجِوَارِ كُلِّيَّاتِ «اكْسُفُورْد» وَ«كِمْبرِيدْج» وَغَيْرِهِما قَدْ يَبْلُغُ السِّتِّمِائَةِ كُلُّهُمْ يَدْفَعُونَ الْمُقَرَّرَ الْمَفْرُوضَ.

وَلَيْسَ لِهَذَا الانْصِبَابِ سَبَبٌ غَيْرُ رَغْبَةِ كُلِّ وَاحِدٍ فِى التَّحْصِيلِ لِيَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ قِيمَةٌ ذَاتِيَّةٌ تَعْظُمُ وَتَتَرَقَّى عَلى الدَّوَامِ.

وَقَدْ بيَّنَّا فِى مَجلَّةِ « الْعِلْمِ الاجْتِماعِىِّ » كَيْفَ أَنَّ تلكَ الرَّغْبَةَ تَنمُو بِالتَّرْبِيَةِ .

ثُمَّ زُرتُ ضَيْعَةً فِى ضَوَاحِى إِيدِنبُورْج فَشَاهَدْتُ أَنَّ المَيْلَ وَاحِدٌ عِنْدَ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ كَما هُوَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَلَمَّا وَصَلْنا إِلى المَحطَّةِ وجَدْنا صَاحِبَ الضَيْعَةِ فِى انْتِظارِنا ، وإِذَا بِهِ رَجُلٌ لا يُمْكِنُ التَّفرِيقُ بَيْنَهُ وبَيْنَ أَحَدِ أَصْحَابِ البُيُوتِ المَالِيَّةِ أَوْ أَحَدِ السِّياسِيِّينَ أَوْ أَحَدِ أَغْنِياءِ النَّاسِ بِحالٍ مِنَ الأَحْوَالِ ، لأَنَّهُ قَدْ جَمَعَ شَمائِلَ الظُّرَفاءِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَلِبَاسُهُ حَسَنُ التَّفْصِيلِ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ يَدِ خَيَّاطٍ شَهِيرٍ ، وَلِهَذَا التَّحَرِّى فِى الْبَيَانِ كَما لِغَيْرِهِ مِمَّا يَلِى فائِدَةٌ تَظْهَرُ لِلقُرَّاءِ فِيما بَعْدُ .

أَمَّا الضَّيْعَةُ فَكائِنَةٌ عَلى مَسَافَةِ كِيلُومِتْرٍ وَاحِدٍ مِنَ المَحطَّةِ ، ومُقامُ صَاحِبِها مُلاصِقٌ لِمُلْحَقاتِها ، يَصِلُ الزَّائِرُ إِلَيْهِ فِى طَرِيقٍ مُنْتَظِمٍ تَحُفُّهُ الأَزْهارُ مِنَ الْجَانِبَيْنِ ، وَفِى المَدْخَلِ بَاقَةٌ (١) مِنْها ، وَمَنْظَرُ الْبَيْتِ مِنَ الْخَارِجِ مَنْظَرُ دَارٍ لَطِيفَةٍ مِنْ تِلْكَ الدُّوْرِ الإِنْكلِيزِيَّةِ . وَلَمَّا دَخَلْنا وَجَدْنا الدِّهْلِيزَ مَفْرُوشاً بِالْبُسُطِ وَكَذَلِكَ السُّلَّمُ وَالطُّرُقاتُ حَتَّى انْتَهَيْنا إِلى قاعَةِ الاِسْتِقْبالِ حَيْثُ كانَتْ سَيِّدَةُ الْبَيْتِ فِى انْتِظارِنا فَقَابَلَتْنا بِلاَ تَحَمُّشٍ (١) كَما تَتَقابَلُ السَّيِّداتُ الْمُتَعَوِّدَاتُ الاِجْتِماعَ . وَاسْتَمَرَّ الْحَدِيثُ بَيْنَنا بِلاَ فُتُورٍ ، وَأَخَذْنا حَظَّنا مِنْ كُلِّ مَوْضُوعٍ ،

(١) الباقة من الزهر : الحزمة منه (٢) يريد بلا احتشام ولاتقبض

وَقَدْ أَلْفَيْتُها تعرفُ اللُّغَةَ الفَرَنْسَاوِيَّةَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّها أَخَذَتْ نَصِيبَهَا مِنَ التَّرْبِيَةِ ، ثُمَّ قدمَ الشَّايُ على أَحْسَنِ تَرْتِيبٍ ، وَشاهَدْتُ الْخَادِمَةَ لَيْسَتْ بِتِلْكَ المَرْأَةِ السَّمِينَةِ الْمُتَخَمِّشَةِ فى هَيْئَتِها ، الْبَطِيئَةِ فى حَرَكَتِها ، اللابسةِ لِبَاسَ الرِّيفِ المُنْتَقِلَةِ فَجْأَةً مِنْ عَلَفِ المَاشِيَةِ إلى خِدْمَةِ الظُّرَفاءِ ، بَلْ هِيَ خادِمَةٌ تَدُلُّ أَعْمالُهَا عَلى عِلْمِها بِوَاجِباتِها ، وَقَدْ اتَّشَحَتْ بفُوطَةٍ (١) بَيْضَاءَ مَحْبُوكَةِ الْأَطْرَافِ مَكْوِيَّةٍ بِإتْقانٍ ، وَعَلى رَأْسِهَا تِلْكَ الطَّاقِيَّةُ الْحَسْناءُ الَّتى تَتَقَلَّدُهَا الْخَادِمَاتُ الإِنْكليزيَّاتُ فى بُيُوتِ الْكُبَرَاءِ . وَلاَ شَكَّ فى أَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يَدُلُّ عَلى أَنَّ الرَّجُلَ يَعِيشُ عِيشَةَ هَنَاءٍ وَرَخاءٍ، إذْ لا يَتَأَتَّى أَنْ يَكُونَ قَدْ أَعَدَّ كُلَّ مَا رَأَيْنا لِاسْتِقْبالِنا وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ . وَلَقَدْ أَثَّرَ فِى نَفْسِى هَذَا الْمَنْظَرُ تَأْثِيرًا جَعَلَنِي عَلَى الدَّوَامِ أُفَكِّرُ فِيهِ وَأُقارِنُ بَيْنَ تِلْكَ الْحَالِ وَمَا شاهَدْتُ فى غَيْرِ تِلْكَ الْبِلادِ مِنْ نَظائِرِهِ ، فَبِالمُقارَنَةِ تَتَبَيَّنُ الأَشْيَاءُ . وَكَأَنِّى بِالْقُرَّاءِ وَقَدْ أَدْرَكُوا أَنِّى لَمَّا رَأَيْتُ صَاحِبَ ذَلِكَ الْمَكانِ الإِنْكليزِيَّ وَتَفَقَّدْتُ مُقامَهُ ، وَخَبَرْتُ نَوْعَ مَعِيشَتِهِ ، تَذَكَّرْتُ أَمْثالَهُ مِنْ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحْسَنَ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ عِنْدَنا هُمْ سُكَّانُ الشَّمَالِ فَهُمُ الَّذِينَ نَرَى مِنْ بَيْنِهِمُ الْمُتَعَلِّمَ الْمُسْتَنِيرَ أَوِ الْحَائِزَ لِلشَّهَادَةِ الثَّانَوِيَّةِ ، وَالَّذِى أَحَبَّ التَّرَفُّهَ وَجَمَعَ فى بَيْتِهِ كَثِيراً مِنْ مُوجِبَاتِ

(١) الفوطة: إزار يتزر به الخدم ونحوهم ، قال بعض أهل اللغة : ليس يدرى أعربى هو أم غير عربى

الرَّاحَةِ ، وَاتَّخَذَ لَهُ قاعةً مَخْصُوصَةً يَسْتَقْبِلُ الزُّوَّارَ فيهَا وَارْتَدَى رِدَاءَ الْحَضَرِ لَا رِدَاءَ الصُّنَّاعِ ، وَلَاحَتْ عَلَيْهِ أَمَارَاتُ رَبِّ المَالِ الَّذِي يُدِيرُهُ بِنَفْسِهِ وَعَاشَ فِي سَعَةٍ وَطَابَ طَعَامُهُ وَلَذَّ شَرَابُهُ . غَيْرَ أَنَّ كلَّ النَّاسِ لَيْسُوا كَهَؤُلَاءِ. وَلَسْتُ أَقْصِدُ أَهْلَ الْجَنُوبِ أَوِ الْوَسَطِ أَوْ سُكَّانَ (بُرُوتَانِيَا) مِمَّنْ لَا فَرْقَ فِي المَعِيشَةِ المَادِّيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأُجَرَاءِ بَلْ أَتْرُكُ هؤُلَاءِ لِأَتَكَلَّمَ عَنْ أَهْلِ (نُورْمَانْدِيَهْ) الَّتِي هِيَ مِنَ الْأَقَالِيمِ الْمُوسِرَةِ . وَأَنَا الْآنَ أَتَذَكَّرُ وَاحِدًا مِنْهُمْ زُرْتُهُ مَرَّاتٍ مُتَعَدِّدَةً وَلَهُ مِنَ الْأَطْيَانِ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ هِكْتُومِتْرًا أَيْ كَالَّذِي يَمْلِكُهُ صَاحِبُنَا الْإِنْكِلِيزِيُّ وَهُوَ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ جَعَلَ لِابْنِهِ — ذَلِكَ الْوَلَدُ الْوَحِيدُ[1] — مَهْرًا قَدْرُهُ مِائَةُ أَلْفِ فرَنْكٍ وَفِي قُدْرَتِهِ أَنْ يَعِيشَ الْعِيشَةَ الرَّاضِيَةَ[2] وَلَكِنَّهُ لَا يَمِيلُ إِلَيْهَا بَلْ هُوَ لَا يُدْرِكُهَا . تَرَاهُ لَابِسًا لِبَاسَ الْعَمَلَةِ وَهُوَ الْقَمِيصُ الْأَزْرَقُ الْقَصِيرُ الَّذِي يُلْبَسُ مِنْ فَوْقُ إِلَّا فِي أَيَّامِ الْأَسْوَاقِ وَالْمَوَالِدِ فَإِنَّهُ يَلْبَسُ رِدَاءً رَثًّا[3] مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ وَلَيْسَ فِيهِ مَحَلٌّ لِلنَّظَافَةِ قَطُّ ، وَامْرَأَتُهُ عَلَى مِثَالِهِ تَذْهَبُ بِنَفْسِهَا لِتَغْسِلَ الثِّيَابَ مِنْ حَنَفِيَّةٍ عُمُومِيَّةٍ وَلَا فَرْقَ بَيْنَهَا فِي لِبَاسِهَا وَحَرَكَاتِهَا وَحَدِيثِهَا وَبَيْنَ بَنَاتِ الضَّيْعَةِ كُلِّهِنَّ وَبَيْتُهُمْ مِنَ الدَّاخِلِ يُشْبِهُ السَّاكِنِينَ فِيهِ : فَكُلُّهُمْ يَقْضِي حَيَاتَهُ فِي قَاعَةٍ كَبِيرَةٍ لَهَا

(١) أى أعنى ذلك الولد الوحيد (٢) الراضية : المرضية (٣) الرث : البالى ويريد هنا الوسخ

بَابٌ مُطِلٌّ عَلى فِنَاءِ الضَّيْعَةِ ، وَحِيطَانُهَا مُبَيَّضَةٌ بِالْجِيرِ تَلْطِيخاً وَهِيَ عَارِيَةٌ عَنْ كلِّ زَخْرَفَةٍ وزِينَةٍ وفيها مِنَ الْأَثَاث كلِّه مَائِدَةٌ كبيرةٌ عِبَارَةٌ عَنْ أَلْوَاحٍ سُطِّحَتْ فوْقَ أَعْمِدَةٍ تَحْمِلُهَا وَعَلَيْهَا يأْكُلُ الْأَسْيَادُ والْخَدَمُ بلاَ فَرْشٍ وَلاَ غِطَاءٍ ، وَحَوْلَهَا مَقَاعِدُ مِنْ خَشَبٍ تُنَاسِبُهَا وَهِيَ أَرْبعةٌ كَرَاسِيَّ كُلٌّ وَاحِدٍ عَلى شَكْلٍ مَخْصُوصٍ مَصْنُوعَةٍ مِنَ الْبَرْدِيِّ [1] صُنْعاً رَدِيئاً ، ثُمَّ كَانُونٌ [2] الطَّبْخِ وَمَاجُورٌ تُغْسَلُ فِيهِ الْآنِيَةُ !! هَـذَا كلُّ أَثَاثِ تِلْكَ الْقَاعَةِ ؛ وَلَمْ أَخْتَرْهُ مِنَ الْمُسْتَثْنَيَاتِ بَلْ ذَلِكَ هُوَ الْحَالُ الْغَالِبُ عِنْدَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ أَجْمَعِينَ. وَرُبَّمَا شَاهَدَ ذَلِكَ كلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْقُرَّاء مِائَةَ مَرَّةٍ إِلاَّ أَنَّهَا حَالَةٌ لَا تَشْمَئِزُّ مِنْهَا نُفُوسُنَا لِأَنَّنَا نَرَاهَا عَادِيَةً طَبِيعِيَّةً وَنَفْهَمُ أَنَّ الْفَلاَّحَ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَعِيشَ إِلاَّ هَـكَذَا لِأَنَّ الزِّرَاعَةَ مِنْ لَوَازِمِهَا فَقْدُ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ وَالنَّظَافَةِ .

وَلَعَلَّ الْقُرَّاءَ يَحْسَبُونَ أَنَّ الزَّارِعَ الْإِنْكلِيزِيَّ الَّذِي زُرْتُهُ يُعَدُّ اسْتِثْنَاءً ، كَذَلِكَ كَانَ ظَنِّي بَادِئَ الْأَمْرِ وَلَـكِنِّي اعْتَقَدْتُ الْعَكْسَ لَمَّا دَخَلْتُ بُيُوتَ الْفَعَلَةِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ فى أَرْضِهِ. وَلَا حَاجَةَ بِي لِأَنْ أَشْرَحَ كَيْفَ يَعِيشُ الْفَعَلَةُ عِنْدَنَا ! فَالْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِمَّا أَنْ يَنَامَ فِي الْجُرْنِ عَلَى الْقَشِّ أَوِ الْحَشِيشِ أَوْ فى الْفِنَاءِ عَلَى أَرْدَإِ سَرِيرٍ ، أَوْ أَنَّ لَهُ

(١) البردى نبات كالقصب كان قدماء المصريين يستخدمون قشره للكتابة

(٢) الموقد المعروف

حُجْرَةً حَقِيرَةً يَأوِى إِلَيْهَا . ولمَّا أَذِنَ لى صَاحِبُ الضَّيْعَةِ بزيارة مَسَاكِنِ عُمَّالِهِ رَأَيْتُ عَلى بعْدِ مِائَةِ مِتْرٍ مِنْ مَنْزِلِه خَمْسَةَ بيُوت أَوْسِتَّةً تَمْتَدُّ عَلَى الطَّرِيق وَهِىَ ذَاتُ مَنَاظِرَ تُعجِبُ النَّوَاظِرَ(١) يَتقَدَّمُ كلَّ بَيْتٍ مِنْهَا بُسْتَانٌ صَغِيرٌ كلُّهُ أزْهَارٌ وَلَهُ طُرُقٌ فى غَايَةِ الانْتِظَامِ ، وَمِنَ الْخَلْفِ بُسْتَانٌ آخَرُ تُزْرَعُ فِيهِ أنوَاعُ الْخُضَرِ . وَعِنْدَ وُصُولِنَا إِلَى تِلْكَ المَنَازِل رَأَيْنَا فَتَاةً عَلَيْهَا سِيمَاءُ الْأَوَاسِطِ مِنَ النَّاسِ جَالِسَةً أَمَامَ أَحَدِهَا وَأَمَامَهَا رَضِيعٌ عَلَيْهِ المَلَابِسُ الْبَيْضَاءُ المُتْقَنَةُ فِى عَرَبَةٍ لَطِيفَةٍ فِى حَالَةٍ جَيِّدَةٍ ذَاتِ أرْبَعِ عَجَلَاتٍ مِنَ النَّوْعِ الَّذِى يُقَالُ لَهُ إِنكلِيزِىٌّ، وَهُوَ رَفِيعُ الثَّمَنِ كمَا هُوَ مَعْلُومٌ، وَكَانَ مَعِى حَضْرَةُ زَمِيلِي فِي مَجَلَّةِ الْعِلْمِ الاجْتِمَاعِىِّ مُوسْيُو « بوانسار » فَسَأَلَ صَاحِبَنَا إِنْ كَانَتْ تِلْكَ السَّيِّدَةُ مِنْ نِسَاءِ الْمَدِينَةِ أَقْبَلَتْ تَرْتَاضُ فِي هَذَا المَكَانِ؟ فأَجَابَنَا ـ وَالْعَجَبُ يأْخُذُ مِنَّا كلَّ مأخَذٍ كمَا لَا يَخْفَى ـ أَنَّهَا زَوْجَةُ ذَلِكَ الْعَامِلِ الَّذِى يَسْكُنُ الْبَيْتَ الذِى نَقِفُ نَحْنُ أَمَامَهُ . ثمَّ سَأَلَهَا سَيِّدُ المَكَانِ إِنْ كَانَتْ تَسْمَحُ لَنَا بِزِيَارَةِ بَيْتِهَا ؟ فَأَجَابَتْ بِالارْتِيَاحِ وَأَدْخَلَتْنَا فَوَجَدْنَا أَمَامَ الْبَيْتِ مِمْسَحَةً لِلْأَرْجُلِ وَفِي الدِّهْلِيزِ بِسَاطًا مِنَ الْحِبَالِ لِهَذَا الْغَرَضِ بِعَيْنِهِ ، وَوُجُودُ الدِّهْلِيزِ فِى المَنَازِلِ مِنْ مُوجِبَاتِ نَظَافَتِهَا وَرَاحَةِ سُكَّانِهَا فَلَا يَدْخُلُ الإِنْسَانُ فِي

(١) العيون

الْغُرَفِ مِنَ الْخلاءِ مُباشَرَةً . ثم الدِّهْلِيز يُوجِبُ حِمايَةَ مَنْ فى الْبَيْتِ مِنَ الْبَرْدِ أَكْثَرَ مِمَّا لَمْ يَكُنْ مَوْجُوداً . وَعَلَى الْيَمِينِ قاعَةٌ صَغِيرَةٌ جُعِلَتْ لِغَسِيلِ آنِيَةِ الطَّبْخِ وَالْمَلابِسِ ، وَوُجُودُهَا يُوجِبُ نَظَافَةَ حُجْرَةِ الأَكْلِ وَالطَّبْخِ ، لِعَزْلِ الْغَسِيلِ فى مَكانٍ مَخْصُوصٍ . وَحُجْرَةُ الأَكْلِ هِىَ أَيْضًا حُجْرَةُ الْمَطْبَخِ ، وهِىَ كَبِيرَةٌ يَبْلُغُ مُرَبَّعُها أَرْبَعَةَ أَمْتارٍ فى أَرْبَعَةٍ تَقْرِيباً ، وَفِيهَا مِنَ الأَثَاثِ مَا تَرْتَاحُ النَّفْسُ لِوُجُودِهِ . وَكَانُونُ الطَّبْخِ يَغِيبُ نِصْفُهُ فى الْحَائِطِ وَلاَ يَظْهَرُ مِنْهُ إِلاَّ نِصْفُهُ ، وَتِلْكَ عَادَةٌ مَأْلُوفَةٌ كَثِيراً عِنْدَهُمْ ، وَهُوَ فى غايَةِ النَّظَافَةِ ، نُحَاسُهُ بَرَّاقٌ . وَلاَ عَجَبَ مِنْ هَذِهِ النَّظَافَةِ لِأَنَّ طَبَّاخَاتِ الإِنْكلِيزِ أَكْثَرُ مَهارَةً فى نَظَافَةِ الآنِيَةِ مِنْهُنَّ فى طَهِىِ(١) الأَطْعِمَةِ ، فَهُنَّ يُنَظِّفْنَ عَلَى الدَّوَامِ ، وَيَسْتَعْمِلْنَ نُشَارَةَ الرَّصَاصِ وَمَاءَ النُّحَاسِ فى تَنْظِيفِ الْمَطْبَخِ ، كما يَسْتَعْمِلْنَ الطَّبَّاشِيرَ فى نَظَافَةِ الْحِيطَانِ وَالْحُجَرِ ، حَتَّى يُخَيَّلَ لِلإِنْسَانِ أَنَّ الطَّبَّاخَةَ الإِنْكلِيزِيَّةَ تَجْثُو عَلَى رُكْبَتَيْها زَمَناً أَطْوَلَ مِنَ الَّذِى تَقِفُ فِيهِ عَلَى قَدَمَيْها . وَيُوجَدُ فى تِلْكَ الْحُجْرَةِ قِطْعَةٌ مِنَ الأَثاثِ الْخَشَبِىِّ ذِى الصُّنْعِ الْجَمِيلِ أَشْبَهَ بِكُرْسِىٍّ كَبِيرٍ ، عَلَيْها أَنْواعٌ عِدَّةٌ مِنَ الْمَصْنُوعاتِ الدَّقِيقَةِ مُرَتَّبَةً تَرْتِيباً جَمِيلاً ، وَهَذَا وَحْدَهُ يَكْفِى بَيانَ

(١) طبخ

مِقْدَار اعْتِنَاءِ عائلةِ ذَلِكَ الْفَاعِلِ بِمَنْزِلِهَا . وَلَا يَغِيبَنَّ عَنِ الذِّهْنِ أَنَّنَا نَصِفُ بَيْتَ فَاعِلٍ مِنْ فَعَلَةِ الزِّرَاعَةِ . ثُمَّ دَخَلْنَا حُجْرَةَ النَّوْمِ فَإِذَا فِيهَا سَرِيرٌ مِنَ الْحَدِيدِ ، لَهُ أُكَرٌ مِنَ النُّحَاسِ ، لَمَّاعَةٌ مِنَ النَّظَافَةِ ، وَبِجَانِبِهِ صُنْدُوقٌ ذُو أَدْرَاجٍ « كومودينه » وَفِي مُقَابِلِهِ مَجْلِسٌ « كنبه » ثُمَّ مَائِدَةُ النَّظَافَةِ « تواليت » عَلَيْهَا أَحْقَاقٌ مِنَ الْوَرَقِ ، وَزُجَاجَاتُ الْمِيَاهِ الْمُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ ، مَصْفُوفَةً عَلَى أَكْمَلِ نِظَامٍ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَيْلِ أُولَئِكَ الْبُسَطَاءِ إِلَى الْأَشْيَاءِ الْجَمِيلَةِ وَحُسْنِ التَّرْتِيبِ ، وَتَنْظِيمِ الْمَأْوَى .

لِكُلِّ النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ مِثْلُ هَذَا الاهْتِمَامِ لِأَنَّهُ يُوجَدُ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الضَّيْعَةِ مَعْدِنُ فَحْمٍ ، وَقَدْ شَاهَدْتُ أَغْلَبَ بُيُوتِ الْفَحَّامِينَ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ : مِنْ بُسْتَانٍ صَغِيرٍ أَمَامَ الْمَسْكَنِ ، وَمَدْخَلٍ نَظِيفٍ وَسِتَارَاتٍ بِيضٍ ، أَوْ ذَاتِ أَلْوَانٍ جَمِيلَةٍ مُخْتَلِفَةٍ فَوْقَ النَّوَافِذِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَمَعَ هَذَا فَقَدْ شَاهَدْتُ بَعْضَ مَحَلَّاتِ الْفَعَلَةِ مَحْفُوفَةً بِمَنَازِلَ قَذِرَةٍ مُهْمَلَةٍ ، وَكُلُّ مَا يُرَى فِي الدَّاخِلِ يَدُلُّ عَلَى هَيْئَةٍ رَدِيئَةٍ ، وَالْأَطْفَالُ يَغْدُونَ وَيَرُوحُونَ حُفَاةَ الْأَقْدَامِ بِمَلَابِسَ رَثَّةٍ خَشِنَةٍ ، وَقَدْ سَأَلْتُ مُدِيرَ الْمَصْنَعِ عَنْ هَذَا التَّفَاوُتِ فَقَالَ لِي : « إِنَّ الْفَعَلَةَ الْإِرْلَنْدِيِّينَ لَا يَهْتَمُّونَ بِنَظَافَةِ الْبُيُوتِ وَمُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِيهَا ، لِذَلِكَ يُعْطُونَ الْمَسَاكِنَ الْعَتِيقَةَ أُجْرَةً زَهِيدَةً كَافِيَةً لِحَاجَاتِهِمْ . أَمَّا الْبُيُوتُ

الجديدة فقد بنيت للفعلة الايقوسيين الذين يعتنون بها ويزينونها بما يصل إليه الامكان[1] » . وقد أكد لى ذلك صاحب الضيعة ، قال: إنه يستعمل الإرلنديين في زمن الحصاد على الخصوص ويعطيهم منازل يسكنونها كيف كانت لأن السكنى لا تهمهم.

ومن هنا يتبين الفرق بين النشأة الاستقلالية التى هى نشأة الإنكليز السكسونيين ، وبين النشأة الاتكالية التى هى نشأة الإرلنديين فيما يتعلق باستعداد كل فريق منهما لنظام المعيشة وحسن الترتيب فى المسكن ، وهو فرق محس تأكدت منه فى زيارتي بعد أيام قلائل لأحد صناع الآلات الميكانيكية ببلدة « ينكويك »:

ذهبنا فى الساعة الخامسة بعد الظهر لتناول الشاى عند ذلك الصانع ، فوجدناه يسكن بيتا هو ملكه ، وهو طبقتان : أرضية وعلوية ، وقدم لنا الشاى فى حجرة معدة للأكل والاستقبال معا ، وفيها مجلس « كنبة » وآلة موسيقى « بيانو » وبساط يستر أغلبها ، وفوقه بساط أصغر منه وأقل ثمنا لحمايته مما يدل على أن سيدة البيت ذات اعتناء به وبنظافته . أما الشاى فقد تناولناه على مائدة مربعة فى آنية تكاد تكون من الزخارف ، فغطاء المائدة من نسيج التيل الدقيق

(١) الاستطاعة

وَالاكْوَابُ مِنَ الْخزَفِ الْجَمِيلِ ، وَخَمْسَةُ أَطْبَاقٍ أَوْسَتَةٌ مَلْأَى بِأَنْوَاعِ الْأَفطِرَةِ ، وَعَيْشٌ مُقَدَّدٌ مَدْهُونٌ بِالزُّبْدَةِ ، وَلَمَّا شَرِبْتُ أَوَّلَ مَرَّةٍ طَلَبَ مِنِّي أَنْ أُثَنِّيَ (١) فَرَضِيتُ ؛ وَإِذَا بِهِمْ غَسَلُوا كُوبِي قَبْلَ أَنْ يَصُبُّوا الشَّايَ فِيهَا مِنْ جَدِيدٍ وَأَوْدَعُوا الْمَاءَ صَحْفَةً مَوْجُودَةً فَوْقَ الْمَائِدَةِ لِهَذَا الْغَرَضِ بِعَيْنِهِ ، وَلَا أَظُنُّ أَنِّي مُخْطِئٌ إِذَا قُلْتُ إِنَّ الْفِرَنْسَاوِيِّينَ يَكْتَفُونَ غَالِبًا بِأَنْ يَصُبُّوا الشَّايَ مَرَّةً ثَانِيَةً لِضَيْفِهِمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةِ احْتِفَاءٍ وَاحْتِفَالٍ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهَذَا هُوَ الَّذِي أَعْلَمُهُ عَنْ بَلَدِي وَمَنْ جَاوَرَنِي . وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ ذَلِكَ الْعَامِلَ الْبَسِيطَ يَتَأَنَّقُ فِي تَنَاوُلِ الشَّايِ وَتَقْدِيمِهِ تَأَنُّقًا لَوْ أُدْخِلَ فِي كَثِيرٍ مِنْ بُيُوتِنَا لَعُدَّ تَقَدُّمًا .

ثُمَّ سَأَلْتُ صَاحِبَ الضَّيْعَةِ عَنْ أُجْرَةِ الرَّجُلِ عِنْدَهُ ؟ فَأَجَابَنِي : خَمْسَةٌ وَتِسْعُونَ فِرَنْكًا فِي كُلِّ شَهْرٍ وَمَسْكَنٌ وَبُسْتَانٌ لِلْخُضَرِ تَبْلُغُ مِسَاحَتُهُ « اكرين » وَنَصِيبٌ مِنَ الْبَطَاطِسِ كَبِيرٌ ، وَهَذَا هُوَ الإِيرَادُ الَّذِي يَتَمَكَّنُ بِهِ أُولَئِكَ الْفَعَلَةُ مِنْ تَحْصِيلِ الْعَيْشِ بِالْكَيْفِيَّةِ الَّتِي شَرَحْنَاهَا لِأَنَّ نِسَاءَهُمْ لَا يَشْتَغِلْنَ فِي الْخَارِجِ إِلَّا قَلِيلًا ، وَلَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّظَافَةَ وَحُسْنَ نِظَامِ الْمَنْزِلِ تَقْتَضِي مِنَ النَّفَقَاتِ أَكْثَرَ مِنَ اخْتِلَالِ الْحَالِ وَالْوَسَاخَةِ وَالِاضْطِجَاعِ عَلَى الْمَكَاسِلِ فِي الْمَقَاهِي وَالْحَانَاتِ .

---

(١) أشرب ثانيا

وَلْيُلاَحَظْ أَيضاً أَنَّ العَامِلَ الإِنكليزِىَّ لاَ يَقْتَصِدُ إِلاَّ قَلِيلاً بخِلاَفِ رَفِيقِهِ الفَرَنْسَاوِىِّ ، فالأَوَّلُ يُنْفِقُ مَا يَكْسِبُهُ كلَّهُ تقرِيباً وَاعْتِمَادُهُ فى تَحْصِيلِ عَيْش أَوْسَعَ إِنَّمَا هُوَ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ زِيَادَةِ الرَّاتِب بِانْتِقَالِهِ مِنْ دَرَجَةٍ إِلى أَرْفَعَ مِنْهَا لاَعَلى مَا يَدَّخِرُهُ مِنْ أَجْرِهِ الْيَوْمِىِّ ، وَلَهُ فى الْوَاقِعِ فِرَاسَةٌ وَحِذْقٌ فى الارْتِقَاءِ فَلاَ يُضَيِّعُ فُرْصَةَ التَّرَقِّى مَتى سَنَحَتْ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ في أَنَّهُ لاَ يُحْجِمُ عَنِ التَّغَرُّبِ وَلاَ يَخَافُ الهِجْرَةَ عَنْ بَلَدِهِ إِذَا رَأَى الضَّرُورَةَ القَائِمَةَ ، كما يَدُلُّ عَلَيْهِ عَدَدُ الَّذِينَ يُهَاجِرُونَ إِلى جَمِيعِ الأَقْطَارِ مِنَ الإِنكليزِ السَّكْسُونِيِّينَ ، وَلَيْس يَهُمُّهُ بِمُسْتَقْبَلِهِ إِلاَّ ادِّخَارُ بَعْضِ الشَّىْءِ لأَرْمَلَتِهِ[1] بَعْدَ وَفَاتِهِ ، لِذَلِكَ يَمِيلُ الإِنكليزُ إِلى التَّأْمِينِ عَلى الْحَيَاةِ كَثِيراً ، وَهَذَا هُوَ السِّرُّ فِى انْتِشَارِ شَرِكَاتِ التَّأْمِينِ المَذْكُورَةِ فِى إِنكلترا والْوِلاَيَاتِ الْمُتَّحِدَةِ انْتِشَاراً كَبِيراً .

وَفِيما تقَدَّمَ بُرْهَانٌ جَدِيدٌ عَلى مَا لِأَصْحَابِ هَـذِهِ النَّشْأَةِ مِنَ الاسْتِعْدَادِ لِلتَّقَدُّمِ وَالتَّرَقِّى

وَأَهَمُّ مِنْهُ أَنَّ الرَّجُلَ فى هَذِهِ الْبِلاَدِ — مَهْمَا صَغُرَ وَكَانَ حَقِيراً — يَعِيشُ عِيشَةً أَحْسَنَ مِنْ مَعِيشَةِ أَهْلِ أَقارَّةِ الأُورُبِّيَّةِ وَفِى رَاحَةٍ مِنْ جِهَةِ نِظَامِ الْبَيْتِ أَوْفَى وَفِى كَرَامَةٍ - كما يَقُولُ الإِنكليزُ - أَوْفَرَ ،

(١) الأرملة المرأة المتوفي عنها زوجها

وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ لاَ يَنْقُصُ عَامِلُ هَذِهِ الْبِلَادِ فِي الرِّيفِ أَوِ الْحَضَرِ إِلاَّ يَسِيراً جِدًّا لِيُصْبِحَ فِى الظَّاهِرِ ، بَلْ وَيَجُوزُ أَنْ يُصْبِحَ فِى الْحَقِيقَةِ أَيْضًا ، مِنْ ذَوِى الْحَيْثِيَّاتِ الَّذِينَ عَرَفُوا النِّعْمَةَ مُنْذُ نُعُومَةِ الأَظْفَارِ.(١) فَبُذُورُ التَّنَعُّمِ مَغْرُوسَةٌ عِنْدَهُ وَحَالَتُهُ فِى الظَّاهِرِ تَدُلُّ عَلَى مَيْلِهِ إِلَيْهِ وَطَمَعِهِ فِيهِ لأَنَّهُ يُفَضِّلُ أَنْ يُنْفِقَ لِيَعِيشَ فِى سَعَةٍ عَلَى أَنْ يُقَتِّرَ وَيَعِيشَ شَقِيًّا .

أَمَّا عِنْدَنَا فَالْفَضِيلَةُ الْكُبْرَى هِىَ التَّوْفِيرُ وَالادِّخَارُ وَلاَ تَقَدُّمَ لَنَا إِلاَّ بِالتَّقْتِيرِ وَالْحِرْمَانِ ، لِذَلِكَ يَرْضَى الرَّجُلُ مِنَّا بِمَا يَعَافُهُ(٢) الأَنْكلِيزِىُّ ، فَمُرَتَّبَاتُ مُوَظَّفِى الْحُكُومَةِ عِنْدَنَا مِنْ كُلِّ الطَّبَقَاتِ أَدْنَى مِنْ مُرَتَّبَاتِ الأَنْكلِيزِ وَمَعَ ذَلِكَ فَكَثِيرٌ مِنَ الْمُوَظَّفِينَ الفَرَنْسَاوِيِّينَ يَدَّخِرُونَ جَانِبًا مِنْ مُرَتَّبِهِمِ الزَّهِيدِ . لَكِنَّ الرَّجُلَ مِنَ الإِنْكلِيزِ سَخِىٌّ فِى الإِنْفَاقِ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يُحَصِّلَ أَكْبَرَ حَظٍّ مَيْسُورٍ مِنَ الْعَيْشِ وَالرَّغَدِ ثُمَّ يَسْتَغِلَّ مَافَاضَ عِنْدَهُ بِنَفْسِهِ .

وَلَقَدْ ظَهَرَتْ فِينَا آثَارُ تَعَوُّدِنَا التَّوْفِيرَ وَالْمَعِيشَةَ الْمُضَيَّقَةَ فَلاَ نَزَالُ نُحَافِظُ عَلَى تِلْكَ الْعَادَاتِ وَلَوْ بَلَغَ الْوَاحِدُ مِنَّا مَبْلَغًا مِنَ الثَّرْوَةِ وَالْمَالِ ، ذَلِكَ لِأَنَّ الْعَادَةَ لاَتَزُولُ فَنَكْتَفِى بِبَيْتٍ لَهُ مِنَ النِّظَامِ الْيَسِيرُ وَنَرْضَى بِالزِّينَةِ الْعَرَضِيَّةِ الْقَلِيلَةِ اللَّهُمَّ إِنْ لَمْ

(١) أى منذ الصغر (٢) يكرهه

نُفَضِّلُ مَعِيشَةَ أَهْلِ « نورْمانديَه » الَّذِينَ لَا يَبْتَغُونَ الْخُرُوجَ مِنْ تَعَسِهِمْ مَهْمَا كَسَبُوا.

إِنَّ فِي طَبَقَاتِ الْعَمَلَةِ مِنَّا اسْتِعْدَاداً لِتَحْصِيلِ الْمَالِ بِالِاقْتِصَادِ وَالتَّوْفِيرِ وَلَكِنَّهُمْ لَا اسْتِعْدَادَ فِيهِمْ لِلِارْتِقَاءِ مِنْ جِهَةِ الْأَحْوَالِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ، أَيْ أَنَّهُمْ لَا يَذُوقُونَ حَلَاوَةَ عِيشَةِ السَّعَةِ الرَّاضِيَةِ وَلَا يُدْرِكُونَ لَذَّةَ نِظَامِ الْمَنْزِلِ وَكَمَالَ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِيهِ.

بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ قِرَاءَةِ الدَّرْسِ ذَاتَ يَوْمٍ رَكِبْتُ مَعَ بَعْضِهِمْ عَرَبَةً وَقَصَدْنَا زِيَارَةَ عَائِلَةٍ تَسْكُنُ ضَوَاحِيَ إِيدِنْبُورْج حَيْثُ أُعِدَّ لَنَا طَعَامُ الظُّهْرِ وَكُنْتُ مَيَّالاً كَثِيراً لِزِيَارَةِ تِلْكَ الْعَائِلَةِ لِأَنَّهَا مِنْ قُرَّاءِ مَجَلَّةِ الْعِلْمِ الِاجْتِمَاعِيِّ إِذْ وَجَدْتُهَا فُرْصَةً أَقِفُ بِهَا عَلَى تَأْثِيرِ تَعَالِيمِنَا فِي أَذْهَانِ الْإِنْكِلِيزِ. فَلَمَّا قَرُبْنَا مِنَ الْمَنْزِلِ وَجَدْنَاهُ مُشَيَّداً عَلَى مُرْتَفَعٍ عَظِيمٍ وَقَدْ جَمَعَ مِنَ الزُّخْرُفِ وَحُسْنِ التَّرْتِيبِ شَيْئاً كَثِيراً وَالْعَائِلَةَ تَتَأَلَّفُ مِنْ زَوْجَيْنِ فِي رَيْعَانِ الشَّبَابِ وَوَالِدِ الزَّوْجِ وَثَلَاثَةِ أَوْلَادٍ، فِيمَا أَظُنُّ، وَكُلُّهُمْ يَسْكُنُونَ السَّنَةَ بِأَكْمَلِهَا فِي الْخَلَاءِ عَلَى مَسَافَةِ سِتَّةِ كِيلُومِتْرَاتٍ مِنْ إِيدِنْبُورْج. وَقَدْ شَاهَدْتُ فِي الطَّرِيقِ مَسَاكِنَ كَثِيرَةً قِيلَ لِي إِنَّهَا مَسْكُونَةٌ عَلَى الدَّوَامِ وَسُكْنَى الْخَلَاءِ عَلَى الدَّوَامِ، حَتَّى فِي الشِّتَاءِ، عَادَةٌ مِنْ عَادَاتِ الْإِنْكِلِيزِ فَقَدْ أَخْبَرَتْنِي فَتَاةٌ عَلَى وَشْكِ الزَّوَاجِ أَنَّهَا سَتَسْكُنُ الضَّاحِيَةَ وَإِنْ

كانَتْ أَشْغَالُ زَوْجِهَا تَسْتَدْعِيهِ كلَّ يَوْمٍ إِلَى المَدِينَةِ . وَمِمَّا يُدْهِشُنَا نَحنُ الفرَنْسَاوِيِّينَ قوْلُهَا : إنَّهَا تَرَى ذَلِكَ أَلَذَّ وَأهْنَأَ إذْ يَخلُصُ الْإِنْسَانُ مِنْ جَمِيعِ الْقيُودِ وَيجِدُ مُعَدَّاتِ الرَّاحَةِ وَلَوَازِمَ الرَّغَدِ كامِلَةً . وَفِي ظَنِّي أَنَّ الِاسْتِقْلَالَ وَرَغَدَ المَعِيشَةِ هُمَا القُطْبُ الَّذِي تَرْمِي إليْهِ أَفْكارُ الْإِنكلِيزِ وَتَتَّجِهُ نَحْوَهُ أَعْمَالُهُمْ كلُّهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، لِذَالِكَ تَرَاهُمْ يَرْتَاحُونَ فِي العُزْلَةِ وَالِاقْتِصَارِ عَلَى مَاقَلَّ مِنَ الْأَصْحَابِ ، وَفِي ذَلِكَ لِلأُمَّةِ مِنَ الْقُوَّةِ مَالَا يَخْفَى. وَلمَّا دَنَوْنَا مِنَ المَنْزِلِ قُوبِلْنَا بِحَفَاوَةٍ وَإِكْرَامٍ أثرًا فِي نَفسِي أيَّ تأْثِيرٍ كأَنِّي كُنْتُ لهُمْ صَدِيقاً عَرَفُوا مَبَادِئَهُ وَوَافَقُوهُ . وَالْوَاقِعُ أَنَّ الْعِلْمَ الِاجْتِمَاعِيَّ لَايَدْخُلُ أَمْخَاخَ الإِنكلِيزِ كَمَا يَعْلَقُ بِأَذْهَانِ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْأُمَّتَيْنِ فِي إِدْرَاكِهِ يرْجِعُ إِلَى أَنَّ الْفرَنْسَاوِيَّ يَقْرَؤُهُ لِيَبْحَثَ فيهِ عَنْ طَرِيقَةٍ تَنْتَظِمُ بِهَا أَحْوَالُ الْمُجْتَمَعِ الإِنْسَانِيِّ بِأَكْمَلِهِ . وَأَمَّا الإِنكلِيزِيُّ فإِنَّهُ يَسْتَهْدِيهِ طَرِيقَةً يَسِيرُ هُوَ عَلَيْهَا بَيْنَ النَّاسِ، وَمَيْلُ كلِّ أُمَّةٍ يُنَاسِبُ نَشْأَتَهَا فَنَحْنُ أَهْلَ النَّشْأَةِ الِاتِّكالِيَّةِ نَصْبُو[1] إِلَى الأَفْكَارِ الْعُمُومِيَّةِ وَالإِنكلِيزُ أَهْلُ النَّشْأَةِ الِاسْتِقْلَالِيَّةِ يَمِيلُونَ إِلَى الْأُمُورِ الْعَمَلِيَّةِ الْمُفِيدَةِ . هَكَذَا فَهِمَ أَهْلُ الدَّارِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا الْعِلْمَ الِاجْتِمَاعِيَّ وَالْتَمَسُوا مِنْهُ بَابًا لِلْمَعِيشَةِ وَهُمْ مِنْ أَرْبَابِ الأَمْلَاكِ

(١) نميل

الْوَاسِعَةِ أَجَّرُوهَا لِآخَرِينَ إِلَى زَمَنٍ يَنْتَهِي هَذَا الْعَامَ . وَقَدْ عَوَّلُوا عَلَى عَدَمِ تَجْدِيدِ الْإِيجَارِ وَأَنْ يَتَّخِذُوا أَرْضَهُمْ مُقَاماً لِأَنَّ الرَّجُلَ يُرِيدُ أَنْ يُدِيرَ أَمْلَاكَهُ بِنَفْسِهِ ، وَحَتَّى يَأْتِيَ الْأَجَلُ الْمَعْلُومُ تَرَاهُ مُشْتَغِلاً بِالِاسْتِعْدَادِ وَأَخْذِ الْأُهْبَةِ[١] لِمُزَاوَلَةِ الْعَمَلِ فَيَقْضِي يَوْمَهُ طُولَ النَّهَارِ فِي ضَيْعَةِ صَدِيقٍ يُجَاوِرُهُ حَيْثُ يُشَاهِدُ أَعْمَالَ الزِّرَاعَةِ وَيَتَعَرَّفُ طُرُقَهَا وَالْكِتَابُ فِي يَدِهِ وَالتَّطْبِيقُ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْمُثْلَى[٢] . وَقَدْ شَاهَدْتُ أَنَّ الْإِنْكِلِيزَ، حَتَّى الَّذِينَ يَشْتَغِلُونَ بِالتِّجَارَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَيَقْضُونَ نَهَارَهُمْ فِي الْمُدُنِ، أَكْثَرُ اسْتِعْدَاداً لِلزِّرَاعَةِ مِنْ صُنَّاعِنَا وَتُجَّارِنَا ، فَهُمْ أَقْرَبُ إِلَيْهَا مِنَّا ، وَيَسْتَسْهِلُونَ الدُّخُولَ فِيهَا عَنَّا : فَقَدْ أَخْبَرَنِي أَحَدُ الْأَصْدِقَاءِ مُوسْيُو « بياش » - وَكَانَ يُرَافِقُنِي - أَنَّهُ زَارَ أَحَدَ مُسْتَأْجِرِي الضِّيَاعِ فَعَلِمَ أَنَّهُ كَانَ وَكِيلاً لِأَحَدِ الْبُيُوتِ الْمَالِيَّةِ فِي نَاحِيَةٍ وَأَصَابَتِ الْبَيْتَ جَائِحَةٌ ، فَأَقْفَلَ أَبْوَابَهُ وَتَخَلَّى عَنْهُ ذَلِكَ الْوَكِيلُ ، فَاسْتَأْجَرَ أَرْضاً فَسِيحَةً وَأَقَامَ فِي فِلَاحَتِهَا . وَإِنِّي لَا إِخَالُنِي[٣] أَجِدُ كَثِيراً مِنْ أَمْثَالِ هَذَا الرَّجُلِ فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ .

وَقَدْ بَحَثْتُ عَنْ عِلَّةِ اسْتِعْدَادِ الْإِنْكِلِيزِ لِلزِّرَاعَةِ فَوَجَدْتُهَا التَّرْبِيَةَ

(١) العدة (٢) الفضلى (٣) لا أظننى

الَّتي تَكادُ تكون رِيفيةً لِكَثْرَةِ مَا يُوجَدُ مِنَ الْجِنانِ فى مَسَاكِنِهِمْ ، يُضَافُ إِلى ذَلِك مَا هُوَ لازِمٌ لِنشأَتِهِمْ الاسْتِقلالِيَّةِ مِنَ الشَغَفِ بِمَعرِفَةِ الْأَشْيَاءِ الَّتى تَقَعُ تَحْتَ نَظَرِهِمْ أَكْثَرَ مِنْ شَغَفِهِمْ بِمَعْرِفَةِ النَّاسِ فيَشِبُّونَ عَلى تَعَرُّفِ تِلْكَ الْكائناتِ ، وَتَسْهُلُ عَلَيْهِمْ عِيشَةُ الرِّيفِ لِمُطَابَقَتِها أَيْضًا لِرَغْبَتِهِمْ فى تَحْصيلِ رِزْقِهِمْ بأَنفسِهِمْ ، فَلاَ يَبْلُغُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ إِبَّانَ(١) الشَبَابِ إِلاَّ وَقَدْ مَارَسَ غَرْسَ الأَشْجَارِ وَزَرْعَ الْبُقُولِ وَتَرْبِيَةَ بَعْضِ الْحَيَوَاناتِ الْمَنزِلِيَّةِ . كلُّ ذَلِكَ يُدْرِكُهُ الْكَثِيرُ مِنْ شُبَّانِ الْإِنْكِليزِ بِمَحْضِ الْفِطْرَةِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ وَلاَ عَنَاءٍ ، وَهَذِهِ مَعْلُومَاتٌ لاَ يُحَصِّلُها عِنْدَنا إِلاَّ الْفلاَّحُونَ وَمَنْ أقامُوا عَلى إِدَارَةِ أَمْوَالِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَقَدْ شَاهَدَ أَحَدُ زُمَلائِنا مُوسْيُو « بيرو » آثارَ هَذِهِ التَّرْبِيَةِ بَادِيَةً حَتَّى فى مَدَارِسِ الْمُدُنِ بالْوِلاَيَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمريكِيَّةِ عِنْدَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهَا لِغَرَضٍ يَتَعَلَّقُ بِبُحُوثِنَا الاجْتِماعِيَّةِ فَرَأَى أَنَّ الاهْتِمامَ بِالْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ خُصُوصًا مَا يَتعَلَّقُ مِنْهَا بالنَّبَاتَاتِ وَالْحَيَوَانَاتِ هُنَاكَ أَكْثَرُ مِنْهُ عِنْدَنا ، وَأَنَّهُمْ لاَ يَقْتَصِرُونَ عَلى تَعْلِيمِهَا فى الدَّرْسِ ، بَلْ يَقْرِنُونَ الْعِلْمَ بِالْعَمَلِ وَالْمُشَاهَدَاتِ . وَكَثِيرًا مَا تَدُورُ بُحُوثُهُمْ عَلى مَوْضُوعٍ حَيٍّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَالْمُدَرِّسُ يَطْلُبُ مِنْ تَلامِذَتِهِ أَنْ يَأْتُوهُ فِى الدَّرْسِ الْقَابِلِ بِفَرْعٍ مِنْ شَجَرَةٍ أَوْ وَرَقَةٍ

(١) وقت

لِيُلْقِيَ عَلَيْهِمِ الدَّرْسَ بِمُشَاهَدَتِهَا حَتَّى يَكُونَ إِدْرَاكُهُمْ لِلشَّيْءِ حَاصِلاً بِوَاسِطَةِ ذَلِكَ الشَّيْءِ المَأْخُوذِ مِنْ مَكَانِهِ الطَّبِيعِيِّ . وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةٌ أَثْبَتُ فِى التَّعْلِيمِ وَأَبْقَى لِلْعِلْمِ فِى الْأَذْهَانِ ، فَيَسْأَلُ التِّلْمِيذُ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِى تَنَاوَلَ مِنْهُ الشَّيْءَ ، وَالْأَرْضَ الَّتِى كَانَ مَوْجُوداً بِهَا ، وَعَمَّا إِذَا كَانَ لاَحَظَ نُمُوَّهُ وَأَنْعَمَ النَّظَرَ فِى شَكْلِهِ وَهَيْئَتِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَذَا التَّعْلِيمَ غَيْرُ مَيْسُورٍ إِلاَّ إِذَا سَكَنَ التَّلاَمِذَةُ أَوْ بَعْضُهُمْ الْخَلاَءَ أَوْ كَانُوا بِهِ مُتَّصِلِينَ ، كَأَنْ يَكُونَ فِى مَدَارِسِهِمْ أَوْ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْهَا بَسَاتِينُ يَأْخُذُونَ مِنْهَا مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ فِى دَرْسِهِمْ .

لاَحَظَ « تاين » فِى الْإِنْكِلِيزِ هَذَا الِاسْتِعْدَادَ لِمُزَاوَلَةِ أَعْمَالِ الزِّرَاعَةِ وَالْمَيْلِ إِلَى الْمَعِيشَةِ فِى الْأَرْيَافِ ، وَأَذْكُرُ عَنْهُ أَنَّهُ كَتَبَ فِى بَعْضِ مؤَلَّفَاتِهِ أَنَّ الزِّرَاعَةَ مِنَ الْمَسَائِلِ الَّتِى تَجْرِى الْمُسَامَرَةُ فِيهَا فِى الْبُيُوتِ بَيْنَ الْمُجْتَمِعِينَ مِنْ أَهْلٍ وَزُوَّارٍ ، حَيْثُ يَدُورُ الْبَحْثُ فِى طُرُقِ إِصْلاَحِ الأَرَاضِي ، وَيَسْرِى الْحَدِيثُ إِلَى الْجُزْئِيَّاتِ ، وَالِاسْتِشْهَادِ بِالْأَمْثِلَةِ ، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ النَّاسِ يَمِيلُ إِلَى هَذَا الْحَدِيثِ وَلِلنِّسَاءِ فِيهِ حَظٌّ الرِّجَالِ .

وَعَلَيْهِ فَلاَ يُسْتَغْرَبُ أَنَّ زَوْجَةَ صَاحِبِنَا الَّذِى أَشَرْنَا إِلَيْهِ تَكُونُ مُسْتَعِدَّةً بِكَمَالِ الرِّضَا لِمُصَاحَبَتِهِ فِى سُكْنَى أَرَاضِيهِ الَّتِى يُرِيدُ

أَنْ يَتوَلَّى إدَارَتَهَا بنفسهِ ، وَقدْ حَادَثَتْنى فى هَذَا المَوْضُوع مَلِيّاً[(١)] فرَأَيْتُ منْها الْعَزِيمَةَ صَادِقةً وأَنَّها عوَّلتْ على مَا عَزَمَتْ بِرَوِيَّةٍ بَعْدَ أنْ أَحَاطَتْ بِأَطْرَافِهِ وَتبَيَّنَتْ وَجْهَىِ الضَّرَرِ وَالنَّفعِ مِنْهُ . وَلَوْ أَنَّ فِى زَوْجِهَا تَرَدُّدًا لوَجَدَ مِنهَا مُسَاعِدًا لِهِمَّتِهِ وَمُعِيناً لَهُ فى مُهِمَّتِهِ . وَلاَ شَكَّ فى أَنَّ مَعُونَةَ الْمَرْأَةِ لِلرَّجُلِ مِمَّا يَشُدُّ أَزْرَهُ[(٢)] وَيَزِيدُهُ قُوَّةً وَإقْدَامًا ، وَإِنِّى أَعْرِفُ كَثِيرًا مِنْ أَصْدِقَائِى فِى فَرَنْسَا يَوَدُّونَ أَنْ يَتَوَلَّوا إِدَارَةَ أَطْيَانِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ لِقِلَّةِ الْمُسْتَأْجِرِينَ ، وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ذَلِكَ لإِبَاءِ نِسَائِهِمْ مُرَافَقَتَهُمْ ، فَالْمَرْأَةُ الْفَرَنْسَاوِيَّةُ أَبْعَدُ عَنْ مَعِيشَةِ الرِّيفِ مِنَ الرِّجَالِ وَيَشُقُّ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَنْ تَتَخَلَّى عَنْ صَاحِبَاتِهَا وَزِيَارَاتِهَا وَالاجْتِمَاعَاتِ الَّتِى اعْتَادَتْهَا ،وَرُبَمَا كَانَتْ هِىَ حَجَرَ الْعَثْرَهِ[(٣)] الْوَحِيدَ فِى طَرِيقِ تَقَدُّمِ زِرَاعَتِنَا وَصِنَاعَتِنَا وَتِجَارَتِنَا بِمَا ارْتَكَزَ فِى ذِهْنِهَا مِنَ الوَهْمِ بِأَنَّ تِلْكَ حِرَفٌ دَنِيئَةٌ .لِذَلِكَ يَتَزَوَّجُ الرَّجُلُ أَحْسَنَ زَوَاجٍ أَىْ أَغْنَى امْرَأَةٍ « وَبَيْنَ الْأَوَّلِ وَالثَّانِى فَرْقٌ بَعِيدٌ » إِذَا كَانَ فِى الْجَيْشِ أَوْ مُوَظَّفاً فِى الْحُكُومَةِ ، وَيُقَالُ إِنَّ لِلرُّؤَسَاءِ الرُّوحَانِيِّينَ تَأْثِيرًا فِى النِّسَاءِ وَلَكِنِّى أَوَدُّ أَلاَّ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حِفْظًا لِشَرَفِهِمْ وَاسْتِبْقَاءً لِحُسْنِ السُّمْعَةِ عَنْهُمْ .

لَمْ يَكُنْ عِنْدِى دَرْسٌ يَوْمَىِ السَّبْتِ وَالأَحَدِ لِأَنَّهُمَا يَوْمَا عُطْلَةٍ

(١) زمانا طويلا (٢) الأزر: القوة (٣) يريد عقبة فى طريقه

فى إنكلتره ، فمن ظهر السبت تقف حركة الأعمال وتقفل المعامل والحوانيت إلى صبيحة يوم الاثنين . ورب سوفسطائى[(١)] يجول بخاطره أن الإنكليز هم أكثر الأمم علماً وأقلهم عملا ! والواقع أنه لا نظير للإنكليزى فى قدرته على العمل ولا فى قدرته على الاستراحة منه لأنه يعمل أكثر ما يمكن فى أقل ما يمكن من الزمن ليستريح ما أمكن . وقد شاهدت فى لندره أن بعض المخازن لا تفتح قبل الساعة التاسعة صباحاً ثم هى تقفل فى المساء مبكرة أكثر من عندنا ، وكذلك شأن المصالح ودوائر الأعمال. والخلاصة أن يوم العمل الصحيح أقصر عند الإنكليز منه عندنا . ومن هنا سهل على الإنكليزى أن يذهب كل يوم إلى بيته فى ضواحى المدينة ، وأن يعود فى الصباح لأنه لا يسكن حيث يشتغل ، كما قدمت، إلا نادرًا . وقد أكد لى بعضهم أن كثيراً من أرباب الحوانيت فى إيدنبورج يسكنون الخلاء ، ويقطعون كل يوم صباح مساء مسافة كبيرة ، أما عندنا فالأكثرون يسكنون خلف محال تجارتهم أو فوقها ، لذلك يسهل عليهم أن يفتحوا أبواب أشغالهم مبكرين ويقفلوها متأخرين . ثم إن كثيرا منهم

(١) السفسطة : قياس مركب من الوهميات والغرض منه تغليط الخصم وإسكاته كقولنا: الجوهر موجود فى الذهن وكل موجود فى الذهن قائم به عرض لينتج أن الجوهر عرض

لا يُعطِّلُون يومَ الأحدِ. ومامِنْ أحدٍ يستريح يومَ السَّبْتِ بَعْدَالظُّهْرِ أَبدًا، ولو اقتصرَ المتأمِّلُ على هذهِ الحالَ لقالَ إنَّ الفرنساويَّ أكثرُ عملاً مِنَ الانكليزيِّ غيرَ أنَّهُ لاَ ينبغِي الوُقوفُ عِندَ عددِ ساعاتِ العملِ بلِ الواجبُ زنتُها؛ وزنةُ عملِ الأنكليزيِّ أكبرُ بكثيرٍ: فهُوَ يعملُ كثيراً في وقتٍ يسيرٍ وَلاَ يكادُ يستريحُ هُنيهةً يتناولُ فيها شيئًا مِنَ الطَّعامِ وسْطَ النَّهارِ وقدْ يتناولُهُ وهو على قدميْهِ مِنْ دُونِ أنْ يتخلَّى عَنِ العملِ.

انتهزتُ فُرصةَ الفراغِ صبيحةَ يومِ السَّبْتِ وذهبتُ لِزيارةِ أحدِ مناجمِ الفحْمِ على مَقربةٍ مِنْ مدينةِ «هاوترندين» وهُناكَ تعرَّفتُ بابْنِ عَمِّ مُدِيرِ المَنْجمِ وهُوَ شابٌّ انكليزيٌّ يشتغلُ بتجارةِ الأغنامِ في زيلاندهْ الجديدةِ ويأتِي في كلِّ سنتيْنِ مرَّةً ليقضيَ شهرَيْنِ في إنكلترهْ وهُوَ راضٍ عَنْ حالتِهِ في تلكَ البلادِ وقدْ اختارَها مُقاماً أبديًّا وقالَ لي: «هُناكَ الحياةُ الحقيقيةُ!» فسألتُهُ عَنْ مُوجبِ إعجابِهِ بِها فقالَ: «الاستقلالُ!» وهو برْهانٌ جديدٌ على أنَّ محبةَ الاستقلالِ هِيَ الَّتي تُحرِّكُ الانكليزيَّ وتدفعهُ إلى العملِ في جميعِ الأحوالِ. ومهْمَا قلَّبْنا أحوالَهُمْ وبحثْنا في عاداتِهمْ وأخلاقِهمْ وسبرْنا غورَ (١) مقاصدِهمْ ومراميهِمْ فلانهتدِي إلى نتيجةٍ غيرَ أنَّهُمْ يُحبُّونَ الاستقلالَ.

(١) من سبر الجرح نظر ما غوره، والمراد حاول معرفة الحقيقة

سَأَلْتَهُ عَنْ أَنْجَحِ الطُّرُقِ لِلْمَعِيشَةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ فَقَالَ: « أَنْ يَبْتَدِئَ الْإِنْسَانُ كَعَامِلٍ بَسِيطٍ يَرْعَى الْأَغْنَامَ » هَكَذَا بَدَأَ ذَلِكَ الشَّابُّ! وَلَا تَنْسَ أَنَّ عَائِلَتَهُ مِنْ خِيَارِ الْعَائِلَاتِ الْوُسْطَى غَيْرَ أَنَّ الْإِنْكِلِيزِيَّ لَا يَحْتَقِرُ مِنَ الصِّنَاعَةِ إِلَّا مَاقَلَّ كَسْبُهَا لَكِنَّ رِعَايَةَ الْأَغْنَامِ كَثِيرَةُ الْفَوَائِدِ لِأَنَّهَا أَحْسَنُ وَسِيلَةٍ تُمَكِّنُ صَاحِبَهَا مِنْ مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْبِلَادِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا وَمِنَ الْوُقُوفِ عَلَى جَمِيعِ مَا يَلْزَمُ الِاتِّجَارَ بِالْأَغْنَامِ، وَأَكْبَرُ صُعُوبَةٍ عَلَى النَّفْسِ فِيهَا وُجُودُ الْإِنْسَانِ مَعَ قَوْمٍ خَشُنَتْ طِبَاعُهُمْ غَيْرَ مُثَقَّفِينَ[1]. قَالَ صَاحِبُنَا: (وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مِمَّنْ حَسُنَتْ تَرْبِيَتُهُ فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَصِيرَ مَحَلَّ احْتِرَامِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ، عَلَى أَنَّ مِنَ السَّهْلِ اجْتِنَابَ رَذَائِلِهِمْ بِالسُّكْنَى بَعِيدًا عَنْهُمْ) فَإِذَا تَمَّ الِاخْتِبَارُ وَكَمُلَ الْعِلْمُ بِحَاجَاتِ الصَّنْعَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا أَقْدَمَ عَلَى شِرَاءِ قَطِيعٍ مِنَ الْغَنَمِ. أَمَّا إِذَا أَرَادَ الْقَادِمُ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ أَنْ يَبْدَأَ بِالتِّجَارَةِ مُبَاشَرَةً فَإِنَّهُ يُصْبِحُ أُلْعُوبَةً فِي أَيْدِي السَّمَاسِرَةِ فَيَقَعُ فِي أَرْضٍ قَلِيلَةِ الْإِنْتَاجِ وَمَاشِيَةٍ مَعْدُومَةِ النِّتَاجِ. وَفِي ظَنِّي أَنَّ شَبَابَنَا لَا يَرْضَوْنَ أَنْ يَبْدَءُوا بِالْعَمَلِ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ عَلَى أَنَّهُ الْمِثَالُ الْأَقْوَمُ وَبِهِ يَنْجَحُ الْكَثِيرُ مِنْ شُبَّانِ الْإِنْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ.

وَجَّهْتُ الْعِنَايَةَ إِلَى زِيَارَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْمَنَازِلِ الْخَلَوِيَّةِ فَكُنْتُ أَذْهَبُ

(١) مهذبين

إِلَيْهَا كلَّ يَوْمٍ بَعْدَ الظُّهْرِ ، وَأَوَّلُ مَا تأثَّرتُ بِهِ كَوْنُ تِلْكَ العَائِلاتِ قَدِ اتَّخَذَتِ الرِّيفَ مُقَاماً أَصْلِيًّا يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا يُشَاهِدُهُ الزَّائِرُ لِتِلْكَ المَنَازِلِ مِنْ كَثْرَةِ الصُّوَرِ الَّتِي تُمَثِّلُ أَفْرَادَ العَائِلَةِ وَالْمُقْتَنَيَاتِ الْفَنِّيَّةِ الثَّمِينَةِ ، وَقَدْ يَحْتَوِي بَعْضُ هَاتِيكَ القُصُورِ عَلَى مُدَّخَرَاتٍ تَتَفَاخَرُ بِهَا المَدَائِنُ الْكَبِيرَةُ لَوْ كَانَتْ فِي دُورِ تُحَفِهَا ، وَمَعَ ذَلِكَ اتَّصَلَ بِي أَنَّ بَعْضَ تِلْكَ العَائِلاتِ أَصْبَحَتْ فِي حَالَةِ عُسْرٍ اضْطَرَّتْهَا إِلَى بَيْعِ أَرْضِهَا وَمِنْهَا صَاحِبَةُ قَصْرٍ وَبُسْتَانٍ كُنْتُ أَزُورُهَا وَهِيَ مِنْ أَشْرَافِ إِيقُوسْيَا الأَقْدَمِينَ مِنْ سُلالَةِ «السَّلْتِيِّينَ» وَمِنَ الاسْتِقْصَاءِ(١) عَلِمْتُ أَنَّهَا تَقَلَّبَتْ فِي أَدْوَارِ الحَيَاةِ كَتَقَلُّبَاتِ الشُّرَفَاءِ فِي فَرَنْسَا بِمَعْنَى أَنَّهَا ابْتَعَدَتْ عَنْ مُزَاوَلَةِ الأَعْمَالِ وَمَا حَفِظَتْ مَقَامَهَا بَيْنَ أَتْرَابِهَا إِلاَّ بِانْتِقَالِ ثَرْوَتِهَا مِنَ الأَرْشَدِ إِلَى الأَرْشَدِ ، وَكَثِيراً مَا كَانَ التَّوَارُثُ يَحْصُلُ بِطَرِيقِ الإِيصَاءِ(٢) مِمَّا يُشْبِهُ الوَقْفَ ، وَمَعَ هَذِهِ الحِيَاطَةِ فَقَدْ أَخْنَى الزَّمَانُ عَلَى الكَثِيرِ مِنْ تِلْكَ العَائِلاتِ وَأَمْسَتْ يُحْدِقُ بِهَا الزَّوَالُ وَالانْدِثَارُ .

وَلا غَرَابَةَ فِي هَذَا فَإِنَّ طَبَقَةَ أَشْرَافِ الإِنْكِلِيزِ لَيْسَتْ فِي الحَقِيقَةِ مِنْ نَتَائِجِ الاجْتِمَاعِ الانْجِلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ لأَنَّ الجَمْعِيَّاتِ الاسْتِقْلالِيَّةَ لا تَلِدُ مِثْلَ الطَّبَقَةِ المَذْكُورَةِ ، فَلا يَجِدُ البَاحِثُ فِي أَحْوَالِ الأُمَمِ

(١) التتبع والبحث (٢) من الوصية

طَبَقَةً مُمْتَازَةً يتوارث شرفها من الْخَلَف إلى السَّلَفِ فى الْبلادِ التى نَشَأَ فِيهَا رَجُل الاستقلال بعيداً عن المؤثرات الأجنبية أى على حالته الأصلية. هكذا الحالُ فى بلادِ « نرويج » وفى بعض جهات السكسون المسماة « باين » حيث يشاهدُ الزارعُ السكسونى على ما كان عليه منذ القدم بدون أن يختلط به غيره. كذلك لا تجدُ أثراً لطبقة الأشراف الوراثية فى البلادِ الجديدة التى يسودُ فيها الآنَ العنصرُ الإنجليزى السكسونى فلا أثر لها فى الولايات المتحدة ولا فى أوستراليا ولا فى زيلاندة الجديدة وغيرها. ولا غرابة فى هذا لأن طبيعة ذلك الجنس لا تقتضي ذاك الوجود. والذى يميز النشأة الاستقلالية عن غيرها من المجتمعات الإنسانية هو قيام كل ولد مستقلاً بنفسه على ما أودع فى شخصه من القوة والاقتدار من دون معونة الذين تربى فى حجورهم وهى الحالة التى يعبر عنها الإنجليز بقولهم: « مساعدة المرء لنفسه » و « التزاحم فى الحياة ». ومن المحقق أن طبقة أشراف الإنجليز وما يتبعها من حقوق الأرشدية والإيصاء بانتقال الملكية من الوالد إلى الولد آتية من مبدإ يخالف ما تقدم فهى أثر من آثار الجمعيات الاتكالية القائمة على قاعدة مساعدة العائلة لابنها، مما ينزل بهمته إلى الحد الأدنى، ويكفيه مؤونة مساعدته لنفسه

وَمُزَاحمتِهِ فِي الْحياةِ . فَأَرْشَدُ الْعَائِلَةِ الشَّرِيفَةِ فِي بِلَادِ الإِنجليز يَنْشَأُ كما يَنشأُ أَهْلُ جَمْعِيَةِ الاتـكال .

دَخَلَتْ طَبَقَةُ الأَشْرَافِ الْوِرَاثِيَّةِ بلَادَ إِنـكلتره مَعَ «النُّورْمَانْد» الَّذِينَ وَفَدُوا عَلَيْها بقِيَادَةِ غلْيُوم الْفَاتِحِ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْفاتِحِينَ مِنَ النُّورْمَانْدِ هُمْ مِنْ أُمَمِ الاتـكال ، تَجَمَّعُوا مِنْ كُلِّ الْجِهاتِ طَمَعاً فِي الْغنائِمِ ، وَأَخصهُمْ مِنْ فاسدِي الطِّباعِ وَمَنْ لا خَلَقَ لَهُمْ وَلا أَرْضَ يَطمَئِنُّونَ فِيها . وَالتَّارِيخُ يَدُلُّنَا دَلالَةً وَاضِحَةً عَلى كَيْفِيَّةِ احْتِشادِ تِلْكَ الْجُنُودِ ، وَيُبَيِّنُ لَنا بَيَاناً كافِياً كَيْفَ نَزَلُوا إِلَى بِلادِ الإنـكليزِ ، وَأَنَّهُمْ انفرَطُوا بَيْنَ أَهْلِها وَقاسَمُوهُمْ أَرْضَهُمْ ، فاختَصُّوا بأَحاسِنِها ، ولـكِنَّهُمْ لَمْ يَطمَئِنُّوا إِلَيْها كَاطْمِئْنان السَّكْسُونِيِّينَ أَوِ الْمُهاجِرِينَ مِنْ أَهْلِ الأُمَمِ الاسْتِقْلالِيَّةِ . واسْتَمَرَّ السَّكْسُونِيُّ المَغْلُوبُ يَزْرَعُ الأَرْضَ لِمَنْفَعَةِ النُّورْمانْدِ ؛ والنِّزاعُ الْقائِمُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ إِنَّما هُوَ نِزاعٌ بَيْنَ جَمْعِيَتَيْنِ مِنْ نَشأَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ كُلَّ الاخْتِلافِ .

وَبِمقدارِ ابْتِعادِ النُّورْمَانْدِ عَنْ الاطْمِئْنانِ إِلى الْأَرْضِ وَمُزَاوَلَةِ أَعْمالِهَا تَمَسَّكُوا كُلَّ التَّمَسُّكِ بِمَا يَرْجِعُ إِلَى نَشْأَتِهِمْ الاتِّـكالِيَّةِ وَهُوَ الشَّرَفُ الْوِرَاثِيُّ الَّذِي يَنْتَقِلُ مِنَ الْوالِدِ إِلَى الْوَلَدِ وَأَقامُوا عَلَى مَا أَوْجَدُوا مِنْ ذَلِكَ إِلى يَوْمِنا هَذَا فَأَضَرُّوا كَثِيرا مَدَى قُرُونٍ عِدَّةٍ بِالْعُنْصُرِ الإِنجليزيِّ السَّكْسُونيِّ أَوْ الاسْتِقْلالِيِّ فِي إِنْجلْتِرَة . وَلَيْسَ

مِنْ مَطْلَبِي أَنْ أُبَيِّنَ فِي هَذَا الْكِتَابِ كَيْفَ انْتَهَى الْحَالُ بِاجْتِيَازِ الْإِنْجِلِيزِيِّ تِلْكَ الْعَقَبَاتِ وَتَغَلُّبِهِ عَلَى هَاتِيكَ الْعَوَائِقِ الَّتِي قَيَّدَتْهُ أَزْمَانًا طِوَالاً وَصَيْرُورَتِهِ صَاحِبَ الْمَقَامِ الْأَوَّلِ بِمَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْمُقَاوَمَةِ وَالِاحْتِمَالِ وَالْحَيَاةِ الَّتِي تَفُوقُ حَيَاةَ غَالِبِهِ كَثِيراً وَلَكِنَّنِي أُشَاهِدُ أَنَّ مِنْ نَتَائِجِ نَصْرِهِ حَصْرَ السُّلْطَةِ الْمُلُوكِيَّةِ فِي أَضْيَقِ دَوَائِرِهَا ، فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْإِنْجِلِيزَ انْتَهَوْا بِتَأْسِيسِ نِظَامِهِمْ عَلَى أَنْ تَحْكُمَ الْأُمَّةُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا ، وَذَلِكَ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ النَّشْأَةِ الِاسْتِقْلَالِيَّةِ . وَكَانَ وُصُولُهُمْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ فِي الزَّمَنِ الَّذِي اسْتَوْلَتْ فِيهِ النَّشْأَةُ الِاتِّكَالِيَّةُ عَلَى أَزِمَّةِ الْأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، فَأَفْضَى أَمْرُهَا إِلَى سَيْطَرَةِ لُوِيزَ الرَّابِعَ عَشَرَ وَاسْتِبْدَادِهِ الْمُطْلَقِ فِي حُكُومَتِهَا .

غَيْرَ أَنَّ الْإِنْجِلِيزَ لَمْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ جَمِيعِ آثَارِ النُّورْمَانْدِ فِيهِمْ بَلْ بَقِيَ لَهُمْ مِنْهَا طَبَقَةُ الْأَشْرَافِ الْوِرَاثِيَّةُ وَاكْتَفَوْا فِي إِبَادَتِهَا بِأَنْ قَلَّلُوا مِنْ شَأْنِهَا وَجَعَلُوهَا كَالْمُلُوكِيَّةِ اسْمِيَّةً لَا فِعْلِيَّةً مَعَ بَعْضِ الِامْتِيَازَاتِ السِّيَاسِيَّةِ كَوُجُودِ قِسْمٍ مِنْ أَفْرَادِهَا فِي مَجْلِسِ اللُّورْدَاتِ وَلَمْ يُنَاضِلُوهَا عَلَى هَذَا الِامْتِيَازِ ، لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا مَزَايَاهُ رَاجِحَةً عَلَى مَضَارِّهِ حَتَّى الْآنَ . وَبَيَانُهُ أَنَّ الْإِنْجِلِيزِيَّ - وَأَعْنِي بِهِ الْقِسْمَ السَّائِدَ مِنَ الْإِنْجِلِيزِ ذَا النَّشْأَةِ الِاسْتِقْلَالِيَّةِ - مَيَّالٌ بِالطَّبْعِ إِلَى الصِّنَاعَاتِ وَالْحِرَفِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ احْتِيَاجِ الشُّبَّانِ إِلَى تَحْصِيلِ مُرْتَزَقِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ

منْ دُونِ التِفَاتٍ إلى ثَرْوَةِ آبَائِهِمْ أَو انْتِظَارِ مُهُورِ نِسَائِهِمْ ، وَبِمَا أُودِعَ فِيهِمْ مُنْذُ طُفُولَتِهِمْ مِنْ مَحَبَّةِ العَمَلِ وَالإِقْدَامِ عَلَيْهِ سَدًّا لِتِلْكَ الحَاجَةِ الَّتِى يَعْرِفُونَهَا ؛ وَمَنْ وَقَفَ عَلَى حَقِيقَةِ هَذَا المَيْلِ وَضَحَتْ لَهُ الْفَائِدَةُ الَّتِى يَرَاهَا الإِنجليزُ فى طَبَقَةِ الأَشْرَافِ الَّتِى وُجِدَتْ بَيْنَهُمْ بِالْقَهْرِ عَنْهُمْ : يَرَوْنَ فِيهَا وَسِيلَةً سَهْلَةً تَرْضَى بِهَا نُفُوسُهُمْ وَتَرُوقُ فى نَظَرِ الْغَيْرِ لِأَدَاءِ وَظِيفَةٍ لَابُدَّ مِنْهَا وهِىَ السِّيَاسَةُ الَّتِى هُمْ لَا يَمِيلُونَ إِلَيْهَا مَيْلاً خُصُوصِيًّا . وَمِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّ طَبَقَةَ الْأَشْرَافِ أَوْجَدَتْ لَهُمْ مَجْمُوعَ رِجَالٍ سِيَاسِيِّينَ مِنْ أَرْفَعِ السُّوَّاسِ مَقَامًا ، وَزِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ دَوَامَ مُصَادَمَةِ التَّرْبِيَةِ الاسْتِقْلَالِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَصْلٌ فى السَّكْسُونِىِّ لِلشُّرَفَاءِ خَفَّفَ مِنْ ثِقَلِ وَطْأَتِهِمْ كَثِيرًا ، وَعَلَى الْأَخَصِّ مُنْذُ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ.

أَثَّرَتِ النَّشْأَةُ الاسْتِقْلَالِيَّةُ فى الْأَشْرَافِ مِنْ جِهَتَيْنِ :

الْأُولَى أَنَّهَا انْتَشَلَتِ الْوَلَدَ الثَّانِى مِنَ الْبَطَالَةِ وَأَبْعَدَتْهُ عَنْ خِدْمَةِ الْبَلَاطِ وَحَوَّلَتْهُ عَنْ وَظَائِفِ الْحُكُومَةِ وَالْجَيْشِ ، وَهَذِهِ الْوَظَائِفُ هِيَ الَّتِى كَانَتْ عِنْدَنَا الْمَلْجَأَ الْوَحِيدَ لِأُولَئِكَ الأَبْنَاءِ وَأَدَّتْ بِهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى الاضْمِحْلَالِ وَفَقْدِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْعَمَلِ هُمْ وَالْأَرْشَدُونَ سَوَاءً ، فَانْحَدَرَ ذَلِكَ الْوَلَدُ مَعَ تَيَّارِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ حَيْثُ يَقُومُ الرَّجُلُ فِيهَا بِأَمْرِ نَفْسِهِ مِمَّا هُوَ خَاصٌّ بِالنَّشْأَةِ الاسْتِقْلَالِيَّةِ . لِذَلِكَ إِذَا انْقَرَضَ نَسْلُ الأَرْشَدِ وَوَقَعَ الْمَالُ إِلَى أَحَدِ أُولَئِكَ الْأَبْنَاءِ الثَّوَانِى

رَأَيْتَهُ يَدْخُلُ فِي صَفِّ الشُّرَفَاءِ وَقَدْ تَرَبَّى تَرْبِيَةً مَتِينَةً وَاكْتَسَبَ خِبْرَةً وَهِمَّةً لَمْ تَكُنْ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ لَمْ يَعِشْ مَعِيشَتَهُ وَلَمْ يَعْرِفْ شَيْئاً مِنَ الْحِرَفِ الَّتِي تَرْجِعُ إِلَى الزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ فَهُمْ يُجَدِّدُونَ حَيَاةَ تِلْكَ الطَّبَقَةِ آناً فَآناً وَلَوْلاهُمْ لَانْحَلَّتْ وَأَصْبَحَتْ عَفَاءً(١). وَمِنْ مُوجِبَاتِ حَيَاتِهَا أَيْضاً مَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الرِّجَالِ السَّكْسُونِيِّ الْأَصْلِ الَّذِينَ تَرْفَعُ الْحُكُومَةُ رُتَبَهُمْ وَتُنْعِمُ عَلَيْهِمْ بِأَلْقَابِ اللُّورْدَاتِ وَمَا يُمَاثِلُهَا.

الثَّانِيَةُ: أَنَّهَا مَا زَالَتْ بِالأَشْرَافِ ـ كَمَا فَعَلَتْ بِالْمُلُوكِيَّةِ ـ حَتَّى انْتَزَعَتْ مِنْ نُفُوسِهِمْ كُلَّ طُمُوحٍ إِلَى الْعَبَثِ بِحُرِّيَّةِ الْأَفْرَادِ وَاسْتِقْلَالِهِمْ، ذَلِكَ لِأَنَّ رَجُلَ الاسْتِقْلَالِ لَا يَهْتَمُّ بِالسِّيَاسَةِ اهْتِمَامَ رَجُلِ الاتِّكَالِ بِهَا، وَلَا يَعِيشُ مِنْهَا مِثْلَهُ وَلَكِنَّهُ شَدِيدُ الْحِرْصِ عَلَى اسْتِقْلَالِهِ وَخَلَاصِهِ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ يَعُوقُهُ عَنْ عَمَلِهِ الذَّاتِيِّ لِاحْتِيَاجِهِ إِلَيْهِ فِي تَحْصِيلِ مُرْتَزَقِهِ، فَلَا يُطِيقُ مَا يَعُوقُ زِرَاعَتَهُ أَوْ يُعَطِّلُ صِنَاعَتَهُ أَوْ يَضُرُّ بِتِجَارَتِهِ، وَلَا يَقْبَلُ أَنْ تُضَايِقَهُ الْحُكُومَةُ بِاسْتِبْدَادِهَا وَلَا أَنْ تُثْقِلَ عَلَيْهِ ضَرَائِبَهَا. وَنَتِيجَةُ تِلْكَ الْحَالِ مَيْلُهُ الدَّائِمُ إِلَى جَعْلِ الْحُكُومَةِ مَقْصُورَةً عَلَى وَظِيفَتِهَا الضَّرُورِيَّةِ، وَهِيَ حِفْظُ الْأَمْنِ الْعَامِّ اللَّازِمِ لِكُلِّ وَاحِدٍ فِي عَمَلِهِ. أَمَّا نَتِيجَةُ حَالِ الْأُمَمِ

---

(١) يريد لا أثر لها

الاتكالية فهى على الضد من ذلك ، الاخلال بالأمن العام بقدر الإمكان والناس يعملون لذلك جهدهم رجاء ما يسرون فى نفوسهم إذا تغلب حزبهم على نيل الوظائف ذات الرواتب الوافرة لهم أو لأبنائهم إذ الثابت فى الأذهان أن أحسن العيش ما كان ثمنه من أموال الأمة التى تجمعها الحكومة فى خزائنها ، وليس لما أحدثنا من القلاقل ، وما أضرمناه من نار الثورات والفتن المتعددة التى لا يزال أهل أمريكا الجنوبية يستخدمونها فى كل يوم سبب غير ما تقدم

هكذا كان تعود الأمة الانجليزية حكومة نفسها بنفسها ، مقللا لامتيازات الشرفاء منهم وهم الذين كان يخشى من ثقل وطأتهم ، وصيرورتهم ممقوتين بسببها

ومع أن طبقة الأشراف الوراثية طارئة على إنجلترا فإنها أضرت برجلها الأصلى وغيرت منه كثيراً ، وإذا قابلنا بين منافعها وأضرارها وجدنا الثانية هى الراجحة

مدار النشأة الاستقلالية على أن الرجل لا قيمة له إلا بنفسه وقدرته على العمل وهمته ومثابرته ولا فرق بين بعض الناس وبعضهم إلا بما كان راجعاً إلى تلك الصفات ودخول طبقة رفيعة المقام بمقتضى الوراثة والتناسل قد أوجد بجانب هذا الأصل فكراً

آخرَ اتِّكاليًّا مادَّته أنَّ الرَّجلَ ليسَ شيئًا بنفسهِ بلْ قيمتُهُ تأتيهِ مِنْ عائلتِهِ وعشيرتِهِ وحزبِهِ الذى ينتمى إليهِ وظاهرٌ أنَّ هذا تغييرٌ عظيمٌ كما أشرتُ إليه لأنَّهُ يغيِّرُ مثالَ الأمَّةِ فى أصلِهِ ونحنُ أهلَ القارَّةِ لا نشمئزُّ كثيرًا من هذا الفكرِ لأنَّنا رُبِّينا كلُّنا فى فكرةِ الاتِّكالِ على اختلافٍ فى قوَّةِ تأثيرِها عندَ كلِّ فردٍ بذاتِهِ ولذلكَ نرى تقسيمَ النَّاسِ إلى طبقاتٍ بحسَبِ النَّسْلِ والعشائرِ أمرًا طبيعيًّا . إلاَّ أنَّ الأمرَ ليسَ واحدًا فى انكلترا لاسيَّما عندَ مجموعِ الأمَّةِ حيثُ النَّشأةُ الاستقلاليَّةُ ثابتةُ الدَّعائمِ فى الأذهانِ وكثيرًا ماشاهدتُ هذا الشُّعورَ عندَهُمْ وهوَ ظاهرٌ فى كتابٍ ألَّفهُ مسيُو (شاكيرى) وسمَّاهُ (كتاب المستشرفينَ) فى التَّنديدِ بالَّذينَ يحبُّونَ الشَّرفَ ويميلونَ إليْهِ . والمُستشرفُ هوَ الَّذى يُعجبُ بالأُمراءِ ويقلِّدُهُمْ فيما يفعلُونَ وما يقولُونَ ويتَّخذُ كلَّ وسيلةٍ للتَّحكُّكِ(١) فيهِمْ والالتصاقِ بهِمْ ولاَ ينظُرُ فى أحوالِ النَّاسِ ويحكُمُ على أعمالِهِمْ برأيِهِ ونظرِهِ بلْ بما يراهُ أُولئكَ الأُمراءُ الَّذينَ جعلُوا لهُمْ حياةً على حدةٍ . قالَ المُؤلِّفُ « لقدْ يستغربُ الإنْسانُ مِنَ انْتشارِ اللُّورْديَّةِ والأهميَّةِ الَّتى صارتْ لها فى هذهِ البلادِ وكيفَ

---

(١) أصل التحكك بالشيء التمرس به والتعرض لشره ولكنه هنا يريد هنا الالتصاق كما بينه بعد

يَصِحُّ فى بَلَدِنَا الَّذِى يُقالُ إِنَّهُ حُرٌّ أَنْ تعبُدَ رُتبَةَ الْآبَاءِ (اللُّوردية) حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِينَا وَاحِدٌ لَمْ يَنْخَدِعْ بِخُيلَائِهَا وَلَمْ يَنْبَطِحْ عَلَى بطْنِهِ إِجْلَالاً لهَا وَتَعْظِيماً وَفى ظَنِّى أَنَّ تأثِيرَ الشُّرَفَاءِ فى الْمُتَشَرِّفِينَ كَانَ تأْثِيراً عَظِيماً فبَقَاءُ هؤُلَاءِ وَانتِشَارُهُمْ فَضِيلَةٌ مِنْ فَضَائِلِ الْأَشْرَافِ[1] الَّتِى نَحْمَدُهُمْ عَلَيْهَا » وَلْيُلَاحَظْ أَنَّ الْكَاتِبَ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ سَنَةَ ١٨٤٨ أَيَّامَ كَانَ صَوْتُ الأَشْرَافِ رَفِيعاً وَقَوْلُهُمْ مَسْمُوعاً ثمَّ أَخَذَ الْمُؤَلِّفُ يَذْكُرُ فُلَاناً وَفُلَاناً مِمَّنْ غَرَّتْهُمُ الظَّوَاهِرُ فَاسْتَشْرَفُوا وَجَعَلَ يَصِفُهُمْ بِصِفَاتٍ يَهْرُبُ الْعَاقِلُ مِنْهَا

وَاعْلَمْ بِأَنَّ الِاسْتِشْرَافَ مُنْتَشِرٌ فى فَرَنْسَا كَانتِشَارِهِ فى إِنْجِلْتِرَا فَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ الأشرَافَ وَيَصْبُو الى الشَّرَفِ ، غَيْرَ أَنَّ الفرْقَ بَيْننَا وَبَيْنَهُمْ أَنَّ حالتَنَا طَبِيعِيَّةٌ تَرْجِعُ إِلى نَشْأَتِنَا الِاتِّكَالِيَّةِ بِخِلَافِهَا عِنْدَ الانجليز فَإِنَّهَا عَرَضِيَّةٌ دَخِيلَةٌ فى بِلَادِهِمْ مُنَاقِضَةٌ لِنَشْأَةِ الْعُنْصُرِ السَّائِدِ فِيهَا ، وَلِذَلِكَ يُرْجَى حُصُولُ التَّغْيِيرِ مَتَى قَوِيَتْ النَّشْأَةُ الأَصْلِيَّةُ وَتَغَلَّبَتْ عَلى الدُّخَلَاءِ ، وهَذَا هُوَ مَا يَجْرِى الْيَوْمَ في تِلْكَ الْبِلَادِ ، إِذْ مِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّ تَأْثِيرَ الشُّرَفَاءِ يَضْعُفُ يَوْمًا فيَوْماً وَهُوَ الآنَ أَقَلُّ بِكَثِيرٍ مِنهُ في زَمَنِ « شا كيرى » عَلى قُرْبِهِ مِنَّا وَيُخَالُ أَنَّ مَرْكَزَهُمْ أَصْبَحَ مُزَعْزَعًا بِدَلِيلِ انحطاط سُلْطَةِ مَجْلِسِ اللُّورْدَاتِ

(١) يريد حسنة من حسناتهم

شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى انْتَهَى النَّاسُ فَبَحَثُوا جَهْرَةً فى وُجُوبِ إلْغائِهِ . وَمِمَّا لاَ شَكَّ فِيهِ أَنَّ إلْغاءَهُ لاَ يُحْدِثُ تَغْيِيراً أَلْبَتَّةَ[1] فى نِظَامِ الْأُمَّةِ الإِنْجِلِيزِيَّةِ لِأَنَّهُ مِنَ الأَصْلِ أَمْرٌ زَائِدٌ فى ذَلِكَ النِّظَامِ .

عَلَى أَنَّ إِنْجِلْتِرَا لَنْ تَعْدَمَ بِفَقْدِ اللُّورْدَاتِ وُجُودَ طَبَقَةٍ رَفِيعَةٍ لِأَنَّ الْعُنْصُرَ الاِسْتِقْلاَلِيَّ يَلِدُ هَذِهِ الطَّبَقَةَ وَإِنْ كَانَ التَّكْوِينُ مُخْتَلِفاً. وَتِلْكَ الطَّبَقَةُ مَوْجُودَةٌ فِعْلاً فى بِلاَدِ الإِنْجِلِيزِ وَمُنْتَشِرَةٌ بَيْنَ أَهْلِها وَهِيَ طَبَقَةُ الْمُهَذَّبِينَ . وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُهَذَّبِ وَبَيْنَ اللُّورْدِ أَوِ الشَّرِيفِ أَنَّ مَنْزِلَةَ الأَوَّلِ لَيْسَتْ وِرَاثِيَّةً بَلْ هِيَ ذَاتِيَّةٌ كَسْبِيَّةٌ وَلاَ دَخْلَ لِلْحكُومَةِ فِي إِقْرَارِهَا ، وَإِنَّمَا النَّاسُ يَعْرِفُونَهَا لِمَنْ أَصْبَحَ جَدِيرًا بِهَا . وَيُقَالُ الْيَوْمَ عِنْدَهُمْ فُلاَنٌ مُهَذَّبٌ أَوْ غَيْرُ مُهَذَّبٍ يُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّ لَهُ مِنْ حَمِيدِ الصِّفَاتِ وَجَمِيلِ الأَخْلاَقِ مَجْمُوعًا يَعْسُرُ التَّعْرِيفُ عَنْهُ ، وَرُبَّمَا جَمَعَها الإِنْكِلِيزُ فى كَلِمَةِ « الْكَرَامَةِ » أَوْ « الْوَقَارِ » . وَالْمُهَذَّبُ مَوْجُودٌ فِي جَمِيعِ الْحِرَفِ وَجَمِيعِ الصِّنَاعَاتِ مَا عَلاَ مِنْهَا وَمَا اتَّضَعَ ، كَمَا أَنَّ النَّاسَ لاَ يُطْلِقُونَ هَذَا اللَّقَبَ عَلَى رَجُلٍ كَرِيمِ الْحَسَبِ إِذَا بَدَا مِنْ أَطْوَارِهِ مَالاَ يَنطَبِقُ عَلى مُوجِبَاتِ الْكَرَامَةِ وَالْوَقَارِ . فَالْمُهَذَّبُ هُوَ مِثَالُ أَعْلَى طَبَقَاتِ السَّكْسُونِيِّ كَمَا أَنَّ اللُّورْدَ أَوِ الأَمِيرَ مِثَالُ أَعْلَى طَبَقَاتِ النُّورْمَانْدِ .

(١) قطعا

وَهُنَاكَ سَبَبٌ آخَرُ يُسَاعِدُ إِنْكلترَا عَلى التَّخَلُّصِ مِنْ شَرِّ الِاسْتِشْرَافِ: ذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ عِنْدَنَا يُصْبِحُ فِي صَفِّ الْعُظَمَاءِ مَعْدُودًا مِنَ الأُمَرَاءِ مَتَى احْتَرَفَ بَعْضَ الْحِرَفِ وَابْتَعَدَ عَنِ الْبَعْضِ الآخَرِ فَنَحْنُ كَالْهُنُودِ فِي تَعَدُّدِ الطَّبَقَاتِ وَالْمَرَاتِبِ. نَقُولُ إِنَّ مِنَ الْحِرَفِ الشَّرِيفَةَ وَالْوَضِيعَةَ ، وَالأُولَى هِيَ الْجُنْدِيَّةُ وَوَظَائِفُ الْحُكُومَةِ وَالِاشْتِغَالُ بِالآدَابِ كَالْكُتَّابِ ، وَالثَّانِيَةُ هِيَ الصِّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ ، وَزِدْ عَلَيْهِمَا الزِّرَاعَةَ لِأَنَّهَا تُرِكَتْ بِالْفِعْلِ وَاخْتُصَّ بِمُزَاوَلَتِهَا الْمُسْتَأْجِرُونَ وَالْوُكَلَاءُ وَالنُّظَّارُ ، وَلَسْنَا نُشَاهِدُ شَابًّا مِنْ أَهْلِ الْحَسَبِ يَسْعَى فِي الِاسْتِعْمَارِ بِأَيِّ جِهَةٍ كَانَتْ ، هَكَذَا قَوِيَ عِنْدَنَا التَّفْرِيقُ بَيْنَ طَبَقَاتِ الأُمَّةِ لِتَشْرِيفِنَا بَعْضَ الصِّنَاعَاتِ وَتَحْقِيرِنَا الْبَعْضَ ، وَلَيْسَ الِاسْتِشْرَافُ إِلَّا نَتِيجَةَ ذَلِكَ التَّمْيِيزِ ، لَكِنْ لَا وُجُودَ لِهَذَا التَّمْيِيزِ عِنْدَ الإِنْكلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ أَوْ أَنَّهُ يَمَّحِي شَيْئًا فَشَيْئًا . فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ حَيْثُ يُوجَدُ الْعُنْصُرُ الِاسْتِقْلَالِيُّ خَالِصًا مِنَ الْعَوَائِقِ الَّتِي تَكْتَنِفُهُ فِي إِنْكلترَا لَا يَشْعُرُ الإِنْسَانُ بِوُجُودِ فَرْقٍ بَيْنَ صَنْعَةٍ وَأُخْرَى ، وَيُحِسُّ بِأَنَّ اعْتِبَارَ كُلِّ انْسَانٍ رَاجِعٌ إِلَى قِيمَتِهِ الذَّاتِيَّةِ وَهِمَّتِهِ وَثَبَاتِهِ وَإِقْدَامِهِ ، وَالْحَالُ سَائِرٌ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ بِعَيْنِهَا فِي إِنْكلترَا وَكُلُّهُ نَتِيجَةُ اتِّسَاعِ نِطَاقِ الصِّنَاعَاتِ وَالْحِرَفِ الْجَارِيَةِ بِتَأْسِيسِ الْمَعَامِلِ الْكَبِيرَةِ وَتَسْهِيلِ طُرُقِ النَّقْلِ بَعْدَ

اسْتِكْشَافِ الفَحْمِ وَاسْتِعْمَالِهِ . وَهَذِهِ النَّهْضَةُ الْجَدِيدَةُ الَّتِي دَوَّخَتِ الْجَمْعِيَّاتِ الِاتِّكَالِيَّةَ شَدَّتْ عَزَائِمَ الْجَمْعِيَاتِ الِاسْتِقْلالِيَّةِ لِاسْتِعْدَادِهَا لِقَبُولِهَا ، فَبَعْدَ أَن انْزَوَتْ إِنْكَلْتِرَا وَقْتاً طَوِيلاً بِمَا طَرَأَ عَلَيْهَا مِنْ تَقَالِيدِ فَاتِحِي النُّورْمَانْدِ وَنِظَامَاتِهِمْ قَامَتِ الْيَوْمَ تَنْشَطُ مِنْ قُيُودِهَا وَتَتَمَالَكُ قُوَاهَا وَتَرْجِعُ شَيْئاً فَشَيْئاً إِلَى نِظَامِهَا الْإِنْكِلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ وَنَشْأَتِهَا الِاسْتِقْلَالِيَّةِ ، وَلَنْ يَعُوقَ نُهُوضَهَا هَذَا عَائِقٌ مِنْ بَعْدُ . وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَقِفَ عَلَى نِهَايَةِ تِلْكَ النَّهْضَةِ فَانْظُرْ إِلَى الْبِلَادِ الأَمْرِيكِيَّةِ ، وَأَعْنِي بِهَا الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةَ حَيْثُ الْعُنْصُرُ الإِنْكِلِيزِيُّ يَرْجِعُ إِلَى نَشْأَتِهِ الْخَالِصَةِ وَيَسْتَرِدُّ مَا لِأَصْلِهِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّفَاءِ مُسْتَعِيناً بِمَا هُيِّئَ لَهُ مِنْ فَسِيحِ الأَقْطَارِ الَّتِي يَبْسُطُ فِيهَا هِمَّتَهُ وَبِمَا أُتِيحَ(١) لَهُ مِنْ عَدَمِ وُجُودِ طَبَقَةِ أَشْرَافٍ وِرَاثِيَّةٍ فِي أُمَّتِهِ كَالَّتِي أَوْجَدَهَا التَّغَلُّبُ فِي الْبِلَادِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ .

الفصل الرابع

﴿ فِي أَنَّ طَرِيقَةَ الْمَعِيشَةِ الْمَنْزِلِيَّةِ تُسَاعِدُ عَلَى نَجَاحِ ﴾
(الإِنْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ)

أَكْبَرُ الْعَقَبَاتِ فِي سَبِيلِ تَرْقِيَةِ الأَفْرَادِ وَالْهَيْئَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ هِيَ

---

(١) أتيح : هيء

مَعْرِفَةُ الْغَايَةِ الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُقْصَدَ وَالْوَسِيلَةِ الَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهَا ، فَلَا فَائِدَةَ فِي مَعْرِفَةِ الْغَايَةِ إِنْ جُهِلَ سَبِيلُهَا؛ وَكَثِيرًا مَا جَاءَتِ النَّتَائِجُ عَلَى عَكْسِ الْمُرَادِ لِلْجَهْلِ بِالطَّرِيقِ الْوَاجِبِ اتِّخَاذُهُ أَوْ لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِهِ كَمَا يَنْبَغِي . وَفِي بَيَانِ مَبْدَإِ هَذَا الطَّرِيقِ وَالدَّلَالَةِ عَلَى أَوَّلِ مَرْحَلَةٍ مِنْهُ هُدًى لِلْقُرَّاءِ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ .

لَقَدْ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي ، كُلَّمَا أَقَمْتُ فِي بِلَادِ الْإِنْكِلِيزِ ، أَنْ أَبْحَثَ فِي انْتِقَالِ الرَّجُلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ آخَرَ وَكَانَ مَوْضِعُ الْبَحْثِ مُلَائِمًا لَهُ كُلَّ الْمُلَاءَمَةِ لِأَنَّهُ لَا يُوجَدُ فَوْقَ الْبَسِيطَةِ [1] بَلَدٌ اجْتَمَعَتْ فِيهِ أَشْكَالُ رَجُلِ الِاسْتِقْلَالِ مَعَ أَشْكَالِ رَجُلِ الِاتِّكَالِ مِثْلُ انْكِلْتِرَا فَهِيَ مَجْمَعُ أَشْكَالٍ مِنَ النَّاسِ كَبِيرٌ . وَقَدْ يُوجَدُ هَذَا الِاجْتِمَاعُ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ إِلَّا أَنَّ الْبَحْثَ فِيهَا أَصْعَبُ بِكَثِيرٍ ، لِأَنَّ الْأَشْكَالَ الْمَوْجُودَةَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ غَيْرُ مُقِيمَةٍ فِي الْوَسَطِ الَّذِي نَشَأَتْ فِيهِ أَصْلًا . فَسُكَّانُ أَمْرِيكَا لَفِيفٌ جُمِعَ إِلَيْهَا مِنْ كَافَّةِ الْبِلَادِ الْأُورُبِّيَّةِ بِحَيْثُ يَتَعَذَّرُ الْآنَ بَيَانُ بَلَدِ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ انْتِقَالُ أُولَئِكَ الْقَوْمِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ حَاصِلٌ فِي بِلَادٍ جَدِيدَةٍ وَلَا يَزَالُونَ سَائِرِينَ إِلَى نَشْأَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ قَدِ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِمْ فَصَارُوا فِيهَا كَالْمُعَلَّقِينَ بَيْنَ أَصْلِهِمِ الْقَدِيمِ وَوَطَنِهِمِ الْجَدِيدِ .

(١) الأرض

أَمَّا النَّازِلُونَ فِى الْبِلَادِ الْإِنكِلِيزِيَّةِ فَإِنَّهُمْ قَصَدُوهَا مِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ، فَتَرَى عُنْصُرَ «السَّلْتِ النُّورْمَانْد» وَعُنْصُرَ الْإِنكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ مُسْتَقِرِّينَ فِى حَالَةٍ طَبِيعِيَّةٍ تُسَهِّلُ عَلَى الْبَاحِثِ مَا يُرِيدُ مِنَ النَّظَرِ فِى أَحْوَالِهِمْ إِذْ يَجِدُ جَمِيعَ أَشْكَالِ الْأَجْنَاسِ حَاضِرَةً مِنَ السَّلْتِ الْهِجَلَنْدِيِّينَ فِي إِيقُوسْيَا وَإِرْلَنْدَه الَّذِينَ لَمْ يَدْخُلْهُمْ دَخِيلٌ إِلَى السَّكْسُونِيِّ الْحَقِيقِيِّ السَّاكِنِ فِى الْجَنُوبِ أَوِ الْوَسَطِ. وَبَيْنَ هَذَا وَذَاكَ أَشْكَالٌ مُتَوَسِّطَةٌ شَتَّى. وَمِنْ أَكْبَرِ الْفَوَائِدِ أَنْ يَتَسَنَّى (١) تَقْسِيمُ جَمِيعِ تِلْكَ الْأَشْكَالِ إِلَى فِرَقٍ مُمْتَازَةٍ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ لِيَقِفَ الْإِنْسَانُ عَلَى كَيْفِيَّةِ انْتِقَالِ السَّلْتِيِّ الِاتِّكَالِيِّ مِنْ حَالَتِهِ الْأُولَى حَتَّى صَارَ سَكْسُونِيًّا اسْتِقْلَالِيًّا. وَبِرِيطَانِيَا الْعُظْمَى أَشْبَهُ بِبُودَقَةٍ (٢) عَظِيمَةٍ تَتَحَلَّلُ فِيهَا عَلَى الدَّوَامِ عَنَاصِرُ هَيْئَتِهَا الِاجْتِمَاعِيَّةِ فَيَسْتَحِيلُ (٣) السَّلْتِيُّ إِلَى سَكْسُونِيٍّ خَاضِعًا فِى اسْتِحَالَتِهِ إِلَى سُنَّةٍ: مَا تَزَاحَمَ عُنْصُرَانِ مِنْ عَنَاصِرِ الِاجْتِمَاعِ إِلَّا تَغَلَّبَ الْقَوِيُّ مِنْهُمَا وَحَمَلَ الضَّعِيفَ عَلَى التَّشَبُّهِ بِهِ وَلَا مُشَاحَّةَ (٤) فِى أَنَّ أَقْوَى الْعُنْصُرَيْنِ هُنَا هُوَ السَّكْسُونِيُّ. ثَبَتَ إِذَنْ أَنَّ انكِلْتِرَا هِىَ أَحْسَنُ بَلَدٍ يَجِدُ فِيهِ الْبَاحِثُ أَوَّلَ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ تَحَوُّلِ الْأَشْكَالِ نَحْوَ الِاسْتِقْلَالِ وَيَقِفُ عَلَى

(١) يتيسر ويسهل (٢) البودقة والبوتقة: الوعاء الذى يذيب الصائغ فيه المعدن
(٣) يتحول (٤) يريد لا نزاع

مَبْدَإِ انتِقَالِ السَّلْتِيّ إِلَى سَكْسُونِيّ بِوَجْهٍ خَاصّ، وَعَلَى أَوَّلِ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا الِاتِّكَالِيُّ نَحْوَ الِاسْتِقْلَالِيّ بِوَجْهٍ عَامّ حَتَّى يَبْلُغَ أَرْقَى دَرَجَاتِهِ وَيَصِلَ إِلَى آخِرِ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِهِ.

وَلَسْتُ أَخْشَى الزَّلَلَ[1] إِذَا قُلْتُ إِنَّ أَوَّلَ دَرَجَاتِ ذَلِكَ الِانْتِقَالِ هِيَ كَيْفِيَّةُ الْإِقَامَةِ فِي الْمَسْكَنِ.

جَالَ بِخَاطِرِي هَذَا الرَّأْيُ أَوَّلَ مَرَّةٍ عِنْدَمَا كُنْتُ فِي أَيْدِنْبُورْج وَانْتَهَزْتُ الْفُرْصَةَ لِزِيَارَةِ مَنْجَمِ الْفَحْمِ وَالضَّيْعَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، كَمَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فِي الْفَصْلِ السَّابِقِ، وَقَدْ بَيَّنْتُ هُنَاكَ الْفَرْقَ الظَّاهِرَ بَيْنَ مَسَاكِنِ الْفَعَلَةِ الْإِيقُوسِيِّينَ مِنَ «اللُّولَانْدِ» وَمَسَاكِنِ السَّلْتِيِّينَ أَوِ الْإِرْلَنْدِيِّينَ. فَالْأُولَى نَظِيفَةٌ فِي غَايَةِ الِاعْتِنَاءِ، وَالثَّانِيَةُ قَذِرَةٌ فِي غَايَةِ الْإِهْمَالِ. وَهَذَا الْفَرْقُ هُوَ الَّذِي وَجَّهَ فِكْرَتِي إِلَى أَهَمِّيَّةِ الْمَسْكَنِ مِنْ جِهَةِ انْتِقَالِ الرَّجُلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَهُوَ هُنَا فِي الْوَاقِعِ أَوَّلُ خُطْوَةٍ فِي هَذَا السَّبِيلِ لِأَنَّ الْفَعَلَةَ الْإِيقُوسِيِّينَ مِنَ «اللُّولَانْدِ» هُمْ فِي الْأَصْلِ مِنْ أَهْلِ النَّشْأَةِ الِاتِّكَالِيَّةِ، وَأَوَّلُ شَيْءٍ يَمْتَازُونَ بِهِ عَنِ الِاتِّكَالِيِّينَ الْإِرْلَنْدِيِّينَ أَوِ الْهُجْلَنْدِيِّينَ هُوَ اهْتِمَامُهُمُ الزَّائِدُ بِتَحْسِينِ مَسْكَنِهِمْ؛ فَهُمْ مِنْ أُولَئِكَ الِاسْتِقْلَالِيِّينَ الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ فِي مَبْدَإِ انْتِقَالِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ صَارُوا فِي حَالَةٍ لَا بُدَّ مَعَهَا مِنْ صَيْرُورَتِهِمْ

---

(١) يريد الخطأ

اسْتِقْلالِيِّينَ كامِلِينَ أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ ذَلِكَ . وَكَيْفِيَّةُ سُكْناهُمْ هِيَ الَّتِي تُمَيِّزُهُمْ عَنْ غَيْرِهِمْ . وَمِنْ هُنا اسْتَنْتَجْتُ أَنَّ الانْتِقالَ فِى حَالَةِ المَسْكَنِ هُوَ أَوَّلُ شُخُوصِ[1] المَرْءِ نَحْوَ الانْتِقالِ إِلى حَالَةِ الاسْتِقْلالِ .

دَلَّ كَثِيرٌ مِنَ الاقْتِصَادِيِّينَ ، وَعُلَماءِ الاجْتِماعِ ، وَمُحِبِّي الإِنْسَانِيَّةِ عَلَى أَهَمِّيَّةِ المَسكَنِ ، وَفِى مُقَدَّمَتِهِمْ مُوسْيُو « لابلى » فَإِنَّهُ كَشَفَ الْقِناعَ عَنْ تِلْكَ الأَهَمِّيَّةِ وَاسْتَدَلَّ عَلَيْها بِوَقائِعَ شَتَّى . وَكَثِيراً مَا ذَكَرَ الْباحِثُونَ أَنَّ مِنْ جُمْلَةِ أَسْبابِ تَقَدُّمِ الإِنْسَانِ وَارْتِقاءِ الْعائِلَةِ وَالهَيْئَةِ الاجْتِماعِيَّةِ اسْتِقْرَارَ المَسكَنِ وَكَوْنَهُ مِلْكاً لِساكِنِهِ وَانْتِقالَهُ كَما هُوَ مِنَ الْوَالِدِ لِبَنِيهِ . وَالْواقِعُ أَنَّ هَذِهِ المَزَايَا الثَّلاثَ مِنْ أَهَمِّ النِّظَامَاتِ ، وَقَدْ تَدُلُّ عَلى دَرَجَةِ الأُمَّةِ الَّتِى تَوافَرَتْ فِيها مِنَ التَّقَدُّمِ وَالتَّرَقِّى ، إِلَّا أَنَّها لا تُؤَثِّرُ بِشَىْءٍ فِى انْتِقالِ الاتِّكالِيِّ إِلى الاسْتِقْلالِيِّ . وَأَكْبَرُ بُرْهَانٍ عَلى ذَلِكَ أَنَّنا نَجِدُ عِنْدَ النَّشْأَتَيْنِ — عَلى مَا بَيْنَهُما مِنَ الاخْتِلافِ — مَساكِنَ مَمْلُوكَةً لِأَهْلِها ، مُسْتَقِرَّةً يَتَوارَثُها الخَلَفُ عَنِ السَّلَفِ ، وَوُجُودُ تِلْكَ المَزَايا عِنْدَ الأُمَّتَينِ يَدُلُّ عَلى أَنَّها غَيْرُ مُؤَثِّرَةٍ فِى تَكْوِينِ النَّشْأَةِ الاجْتِماعِيَّةِ . وَقَدْ يَتَّفِقُ أَنَّ الاعْتِناءَ بِها يَكُونُ أَشَدَّ عِنْدَ بَعْضِ الأُمَمِ الاتِّكالِيَّةِ مِنْهُ عِنْدَ بَعْضِ الأُمَمِ الاسْتِقْلالِيَّةِ ، فَمِمَّا لا شُبْهَةَ فِيهِ أَنَّهُ لا شَىْءَ فِى الْوُجُودِ أَثْبَتُ

---

(١) توجهه

مِنْ مسَاكِن فَلَّاحِي الرُّوسِ أَوِ البُلْغارِيِّين أَوِ الصِّرْبِيِّين ، فالمَسكَنُ الوَاحِدُ يَنْتَقِلُ مِنَ الرَّجُلِ لِابْنِهِ وَمِنَ العَائِلَةِ إلى الَّتِي خَلَفَتْهَا عِدَّةَ قُرُونٍ وَأَجْيالٍ ، وَالمَسَاكِنُ فِي فَرَنْسَا أَكْثَرُ اسْتِقْرَارًا فِي أَقالِيمِ « أُوفَرْنيَا » وَ « وسِيفِينَ » وَ « بِيرِينِيَهْ » وَ « إِلْبَ » وَ « بُرُوتَانْيَا ». وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ الْأَقالِيمِ هُمْ أَشَدُّ النَّاسِ مُحَافَظَةً عَلَى النَّشْأَةِ الِاتِّكالِيَّةِ، وَرُبَّمَا كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ اهْتِمَامًا بِامْتِلَاكِ المَسَاكِنِ وَالِاعْتِنَاءِ بِهَا وَاسْتِبْقَائِهَا لِخَلَفِهِمْ.

وَلِبَيَانِ الْفَرْقِ بَيْنَ النَّشْأَتَيْنِ مِنْ جِهَةِ المَسْكَنِ يَجِبُ التَّفْرِيقُ بَيْنَ نَظَرِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا إِلَيْهِ . فَالِاتِّكَالِيَّةُ تَنْظُرُ إِلَى المَسْكَنِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وُجُودٌ مَادِّيٌّ، وَالِاسْتِقْلَالِيَّةُ تَنْظُرُ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ أَمْرٌ مَعْنَوِيٌّ ، وَهُوَ تَمْيِيزٌ لَمْ يَسْبِقْ لِأَحَدٍ الِالْتِفَاتُ إِلَيْهِ ، وَبِدُونِهِ لَا يُمْكِنُ الْوُقُوفُ عَلَى كَيْفِيَّةِ اعْتِبَارِ المَسْكَنِ عِنْدَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْهَيْئَتَيْنِ .

يُرَادُ بِالْبَيْتِ عِنْدَ الْأُمَمِ الِاتِّكَالِيَّةِ مَجْمُوعُ الْأَثَاثِ وَالْبِنَاءِ وَالْأَرْضِ وَالنَّاسِ مِنْ أَهْلٍ وَأَحْبَابٍ وَجِيرَانٍ ، فَالْفِكْرُ مُتَعَلِّقٌ عَلَى الدَّوَامِ بِالْأَشْيَاءِ وَالنَّاسِ وَالتَّعَلُّقُ شَدِيدٌ ؛ لِأَنَّ مِنْ خَصَائِصِ أَهْلِ الِاتِّكَالِيَّةِ ، أَنْ يَعْتَمِدُوا عَلَى الْأَشْيَاءِ وَالنَّاسِ ، أَكْثَرَ مِنَ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ . وَمِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ « أُوفَرْنيا » وَ « بِيرِنِيهْ » : « يَجِبُ

أَنْ يَكُونَ لِلْبَيْتِ دُخَانٌ » وَهُمْ فى سَبِيلِ اسْتِبْقَاءِ دُخَانِهِ يَسْتَرْخِصُونَ كُلَّ ثَمِينٍ : فَيَرْضَى الأَوْلَادُ الثَّوَانِى بِأَقَلَّ مِنْ نَصِيبِهِم الشَّرْعِىِّ ، وَيَعِيشُ الأَعْمَامُ وَالْعَمَّاتُ غَيْرَ مُتَزَوِّجِينَ كَىْ يَتْرُكُوا لِلْوَارِثِ الَّذِى أَوْصَى إِلَيْهِ الْمُتَوَفَّى مِنَ السَّعَةِ مَا يُمَكِّنُهُ مِنْ حِفْظِ الْحَقْلِ وَالدَّارِ ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَلْجَأٌ يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ أَحْيَانًا . وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ نَظَرَهُمْ إِلَى الْبَيْتِ نَظَرٌ إِلَى الْمَكَانِ الْمَخْصُوصِ . وَهَذَا هُوَ السِّرُّ فِى صُعُوبَةِ تَرْكِهِ وَالابْتِعَادِ عَنْهُ ، كَأَنَّ أَصْحَابَهُ قَدِ الْتَصَقُوا بِأَرْضِهِ وَالْتَحَقُوا بِحِيطَانِهِ . وَهُوَ أَيْضًا السِّرُّ فِى حُبِّ أَهْلِ الرِّيفِ لِبَيْتِ أَجْدَادِهِمْ وَدَارِ أَهْلِيهِمْ وَرَغْبَتِهِم الشَّدِيدَةِ في صِيانَتِها وَتَرْكِها إِرْثًا لِمَنْ يَأْتِى بَعْدَهُمْ .هَذَا هُوَ نَظَرُهُمْ إِلَى الْبَيْتِ مِنَ الْجِهَاتِ الثَّلَاثِ: اسْتِقْرَارِهِ ، وَمِلْكِيَّتِهِ ، وَتَوَارُثِهِ . فَهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ تَعَلُّقَ النَّبَاتِ الْمُتَسَلِّقِ بِالْجِدَارِ الْعَتِيقِ ، وَكَأَنَّهُمْ مِثْلُهُ يَرْتَكِنُونَ عَلَى ذَلِكَ الْوُجُودِ الْمَادِّىِّ ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ أَقْوَامَ النَّشْأَةِ الِاتِّكَالِيَّةِ يَسْكُنُونَ ذَلِكَ الْبَيْتَ الْمَوْرُوثَ الَّذِى خَلَّفَهُ لَهُمُ الأَجْدَادُ وَالآبَاءُ عَلَى أَبْسَطِ مَا يَكُونُ مِنَ الأَحْوَالِ . وَمَا مِنْ شَىْءٍ يَسْتَوْقِفُ الْمُتَأَمِّلَ دَهِشًا فى تِلْكَ الْبُيُوتِ أَكْثَرَ مِنَ اسْتِقْرَارِهَا وَعَدَمِ الاسْتِقْرَارِ فِيهَا ، وَأَعْنِى بِذَلِكَ كَيْفِيَّةَ سُكْنَاهَا الَّتِى تَكَادُ تَكُونُ عَلَى الْفِطْرَةِ الأُولَى .

إِذَا دَخَلْتَ بَيْتَ رِيفِىٍّ مِنَ الرُّوسِ أَوِ الْبَلْغَارِ أَوْ أَهْلِ « أُوفَرْنِيا » .

أَوْ « إلبرينيه » أَوْ « بُرُوتَانْيا » أَوْ « بُرُوفَانْصَ » وَسَأَلْتَهُ عَنْ أَصْلِهِ أَجَابَكَ فِى الْغَالِبِ : إِنَّ عائلَتَهُ تَسكُنُهُ جيلاً بَعْدَ جيلٍ مِنْ قُرُونٍ مَاضِيَةٍ ، وَعَامت مِنْ هذَا أَنَّ الْبَيْتَ مُسْتَقِرٌّ أَىَّ اسْتِقْرَارٍ ، وَرَأَيْتَهُ يُحِبُّهُ حُبًّا لاَمَزِيدَ عَلَيْهِ . ثُمَّ إِذَا نَظَرْتَ إِلَى كَيْفَ يَسكُنُهُ رَأَيْتَهُ أَشْبَهَ بِعَائِلَةٍ مَا كَادَتْ تفرُغ مِنْ حَطِّ رِحَالِهَا ! إِذْ يَقَعُ بَصَرُكَ عَلَى أَثَاثٍ قَدْ أُهْمِلَ شَأْنُهُ ، وَعَلَى مَطْبَخٍ قَذِرٍ ، وَمَخْدَعٍ (١) وَسِخٍ قَلَّ فِيهِمَا الضَّوْءِ ، وَقَدْ تَكُونُ الْغُرْفَةُ الوَاحِدَةُ مَطْبَخًا وَمَأْكَلاً وَمَنَاماً لِلْعَائِلَةِ كلِّهَا ، وَقَدْ يُلاَصِقُهَا الإِصْطَبْلُ فَلاَ يَفصِلُ بَيْنَهُمَا إِلاَّ حَاجِزٌ مِنَ الخَشَبِ تَنْبَعِثُ مِنْ خِلاَلِهِ الرَّوَائِحُ الْكَرِيهَةُ . هَكَذَا تَجِدُ أُولئِكَ الَّذِينَ أَحَبُّوا بَيْتَهُمْ ذَلِكَ الْحبَّ كَأَنَّهُمْ لاَ يُحِبُّونَ أَنْ يُحَسِّنُوا (٢) سُكْنَاهُ . أُولَئِكَ قَوْمٌ لاَيُحِبُّونَ الْبَيْتَ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَعَلَّقُونَ بِهِ مِنْ جِهَةِ اعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهِ ، أَوْ طَلَبًا لِلسُّمْعَةِ ، أَوْ تَظَاهُراً وَتَفَاخُراً : فَيَتَبَاهَوْنَ (٣) بِكَوْنِهِمْ مِنْ سُلاَلَةِ تِلْكَ الْعَائِلَةِ الَّتِى تَقَادَمَ عَهْدُ سُكْنَاهَا فى الْبِلاَدِ ، وَظَلَّتْ تَمْلكُ الْعَيْنَ الْوَاحِدَةَ السِّنِينَ الطِّوَالَ وَلَهَا قَرَابَةٌ مَعَ عَائِلَةٍ كَذَا الَّتِى اسْتَقَرَّتْ مُنْذُ الْقِدَمِ حَيْثُ تُقِيمُ . أُولَئِكَ قَوْمٌ لاَ يَقْتَنُونَ صِوَانًا (دولابًا) لَطِيفًا يَمْلَئُونَهُ بأَنوَاعِ الْمَلاَبِسِ إِلاَّ لِلْمُفَاخَرَةِ وَبيَانِ أَنَّهُمْ فِى هَنَاءٍ أَمَامَ مُجَاوِرِيهِمْ وَالأَجَانِبِ

(١) البيت الصغير داخل البيت الكبير ، والمراد هنا غرفة النوم (٢) أى أن يجعلوها حسنة جميلة (٣) المباهاة : المفاخرة

عَنْ بَلَدِهِمْ . هَذَا هوَ شُغْلُهُمُ الشَّاغِلُ لاَ تَحْسِينُ مَسْكَنِهِمْ وَتَنْظِيمُ إقامَتِهِمْ فِيهِ . وَالْخُلاَصَةُ أَنَّ الرَّجُلَ الاتِّكالِيَّ يَعِيشُ خَارِجَ بَيْتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعِيشُ فِيهِ وَيُحِبُّهُ لِلتَّظَاهُرِ لاَ لِنَفْسِهِ . وَيَكْثُرُ هَذَا المَيْلُ فِى الْعائِلاَتِ الْمُتَوَسِّطَةِ الَّتِى تَسْكُنُ الْمُدُنَ الْعَظِيمَةَ ، وَإِنْ كَانَ رُوحُ الاِسْتِقْرَارِ فِى الْبُيُوتِ لَمْ يَعُدْ لَهُ أَثَرٌ فِيهَا . وَبُيُوتُ بَارِيسَ — إلاَّ مَا شَذَّ — كُلُّهَا عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ كَبِيرَةٌ كَثِيرَةُ الطَّبَقاتِ مُتَعَدِّدَةُ المَسَاكِنِ كَالْقُصُورِ الْعالِيَاتِ ، إذَا رَأَيْتَهَا مِنَ الْخَارِجِ تتركَّبُ مِنْ خَمْسِ طَبَقَاتٍ أَوْ سِتٍّ ، وَوَاجِهَتُهَا فَسِيحَةٌ ذَاتُ سَبْعِ نَوَافِذَ أَوْ ثَمانٍ حَسَبْتَ الْعائِلاَتِ الَّتِى تَسْكُنُها عَرَفَتْ كَيْفَ تَتَنَعَّمُ بِبَيْتِهَا ، وَأَنَّهَا بَذَلَتِ النَّفِيسَ حُبًّا فى المَعِيشَةِ الدَّاخِلِيَّةِ مَعِيشَةِ الْعائِلَةِ . فَإِذَا دَخَلْتَ إِلَيْهَا، وَالدُّخُولُ مُبَاحٌ لِكُلِّ وَارِدٍ ، وَجَدْتَ المَسَاكِنَ مُتَعَدِّدَةً ، وَكُلَّ عائِلَةٍ تَسْكُنُ طَبَقَةً مِنْهَا ، وَقَدْ تَأْوِى الطَّبَقَةُ الْوَاحِدَةَ عائِلاَتٌ تَرَاكَمَ بَعْضُها عَلَى بَعْضٍ . ثُمَّ إِذَا دَخَلْتَ أَحَدَ المَسَاكِنِ رَأَيْتَ أَوَّلاً قَاعَةَ الاِسْتِقْبالِ وَغُرْفَةَ الطَّعامِ مُزَيَّنَتَيْنِ زِينَةً حَسَنَةً ، فَسِيحَتَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إلى الْبَقِيَّةِ ، وَمُطِلَّتَيْنِ عَلَى الطَّرِيقِ . أَمَّا بَقِيَّةُ الْغُرَفِ فِى الْجِهَةِ الْخَلْفِيَّةِ وَهِىَ ضَيِّقَةٌ جِدًّا تُطِلُّ عَلَى فِنَاءٍ كَأَنَّهُ فى الْغالِبِ بِئْرٌ لِضِيقِهِ ، قَلِيلَةَ الضَّوْءِ ، وَلاَ يَدْخُلُهَا الهَوَاءُ ، وَتِلْكَ الْغُرَفُ هِىَ مَقَرُّ الْعائِلَةِ ، وَمَخَادِعُ

السُّكان . أمَّا الغُرفُ الأَمامِيَّةُ فإنها اتُّخِذَتْ لِلزَّهْوِ وَالمُباهَاةِ لا يَدْخُلُها إلاَّ الأَجانِبُ ،لأَنَّها إنَّما أُعِدَّتْ « لِلاسْتِقْبال » . وَعَدَمُ الاعْتِناءِ بِالْبَيْتِ عِنْدَ أَهْلِ هذهِ النَّشْأَةِ عامٌّ بَيْنَ الأَوَاسِطِ وَأَهْلِ الأَرْيَافِ وَالأُجَرَاءِ .

إلاَّ أَنَّ الاهْتِمامَ بِذَلِكَ هُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يَلْتَفِتُ إلَيْهِ أَهْلُ النَّشْأَةِ الاسْتِقْلالِيَّةِ، ذَلِكَ لأَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ لا يَعْتَمِدُ عَلى العَائِلَةِ أو العَشِيرَةِ أو العِلاقَاتِ، قَلَّتْ أوْ كَثُرَتْ ، وَإنْ شِئْتَ فَقُلْ إنَّهُ لا اعْتِمادَ لَهُ عَلى وَسَطٍ صِنَاعِيٍّ بَل اعْتِمَادُهُ عَلى نَفْسِهِ :فَهُوَ يَسْكُنُ البَيْتَ لِنَفْسِهِ وَهُوَ مُقِيمٌ لا نَزِيلٌ وَلاَ يُعْطِي الحَيَاةَ الخَارِجِيَّةَ إلاَّ يَسِيراً ،وَكُلُّ الَّذِي فِي إمْكانِهِ مُوَجَّهٌ إلَى حَيَاتِهِ الدَّاخِلِيَّةِ . فالْبَيْتُ عِنْدَهُ حِصْنُ اسْتِقْلالِهِ وَيُسَمِّيهِ اسْماً لا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ بِغَيْرِ لُغَتِهِ وَقَدْ أَوْدَعَهُ رُوحَهُ وَوُجُودَهُ وَهُوَ (هُومْ) بِمَعْنَى مَأْوَى أوْ مَلْجَأً ، وَلِهَذَا الاسْمِ عِنْدَ الإنكليزيِّ السَّكْسُونيِّ مَعْنًى أَكْبَرُ وَأَبْعَدُ عَنِ المَادَّةِ مِنَ الاسْمِ الفَرَنْسَاوِيِّ (فويبه) أيْ بَيْتٌ :فَهُوَ يَدُلُّ خُصُوصاً عَلى الإقَامَةِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالنِّظَامِ الَّذِي يَسْتَرِيحُ لَهُ السَّاكِنُ كُلَّ يَوْمٍ مِمَّا اخْتُصَّ بِهِ ذَلِكَ العُنْصُرُ لا فَرْقَ بَيْنَ الأَجِيرِ الرِّيفِيِّ وَمَنْ فَوْقَهُ مِنَ الطَّبَقَاتِ الوُسْطَى .

وَلَسْتُ أَقْصِدُ الحُكْمَ عَلى هَذا التَّصَوُّرِ عِنْدَهُمْ ، بَلْ أُرِيدُ أَنْ

أقفَ عَلى حَقِيقَتِهِ وَأنْ أُبَيِّنَهَا لِلقُرَّاءِ كَمَا هِيَ ، لِأَنَّ الأُمَمَ أُمَّتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ تَتَمَشَّى كُلٌّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا فى طَرِيقٍ يُخَالِفُ سَبِيلَ الأُخْرَى، وَمَبْدَأُ الْخُلْفِ سُكْنَى المَنَازِلِ، فمِنَ المُفِيدِ جِدًّا تَمَامُ الْعِلْمِ بِأَوَّلِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.

وَيَتَجَلَّى الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا مِنْ جِهَةِ اعْتِبَارِ المَسْكَنِ بِأَمْرَيْنِ:

الْأَوَّلُ : أنَّ أهَمِّيَّةَ المَسْكَنِ عِنْدَ أُمَمِ الاسْتِقْلَالِ أقَلُّ مِنْهَا عِنْدَ أُمَمِ الاتِّكَالِ، فَالمَسْكَنُ الْغَالِبُ عِنْدَ الْأُولى عِبَارَةٌ عَنْ بَيْتٍ صَغِيرٍ لَا يَحْتَوِى مِنَ الْغُرَفِ إِلَّا عَلى مَا يَفِي بِسُكْنَى عَائِلَةٍ عَادِيَّةٍ بِأَوْلَادِهَا. وَيَتْبَعُ الْبَيْتَ فِى الْغَالِبِ بُسْتَانٌ يَخْتَلِفُ فى سَعَتِهِ عَلى حَسَبِ دَرَجَةِ السَّاكِنِ مِنَ الغِنَى وَبِاعْتِبَارِ سُكْنَى الرِّيفِ أو المَدِينَةِ . وَهَذِهِ المسَاكِنُ مَنْثُورَةٌ فى جَمِيعِ جِهَاتِ الأَرْيَافِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ ثُمَّ هِيَ تَكْثُرُ مُتَقَارِبَةً فى ضَوَاحِي المُدُنِ الْكَبِيرَةِ، لِأَنَّ الإِنْكلِيزِيَّ المَدَنِيَّ يَمِيلُ كَثِيرًا إلَى السُّكْنَى خَارِجَ الْأَسْوَارِ وَهِيَ المِثَالُ الْغَالِبُ فِى دَاخِلِ المَدِينَةِ نَفْسِهَا لِأَنَّهَا تُوَافِقُ مَا يَطْلُبُهُ ذَلِكَ الْجِنْسُ فِي الْبَيْتِ الَّذِى يَأْوِى إِلَيْهِ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فى عِظَمِ الْمُدُنِ الْإِنْكلِيزِيَّةِ بِالنَّظَرِ إلَى عَدَدِ سُكَّانِهَا.

وَبِخِلَافِ ذَلِكَ تَجِدُ المَسْكَنَ الْغَالِبَ عِنْدَ أُمَّةِ الاتِّكَالِ هُوَ الْبَيْتَ الْعَظِيمَ ذَا الْغُرَفِ الْفَسِيحَةِ ، فَلَيْسَتْ هِيَ مَسَاكِنَ اتُّخِذَ

كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا لِتَأْوِيَ إِلَيْهِ عَائِلَةٌ عَلَى انفِرَادِهَا ، بَلْ دَارٌ كَبِيرَةٌ تَسْكُنُهَا عَائِلَاتٌ عِدَّةٌ يُقِيمُ بَعْضُهَا مَعَ بَعْضٍ فِي عِيشَةٍ وَاحِدَةٍ . هـكَذَا المَسَاكِنُ فِي إِيتَالْيَا. وَيُوجَدُ فِي مُدُنِنَا الرِّيفِيَّةِ كَثِيرٌ مِنْ تِلْكَ الدُّوْرِ الفَسِيحَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ فِيهَا العَائِلَاتُ بَعْدَ نَقْصِ عَدَدِهَا كَالتَّائِهَةِ فِي انزِوَائِهَا، وَتِلْكَ هِيَ القُصُورُ الفَخْمَةُ المُشَيَّدَةُ فِي الْأَرْيَافِ. وَكَمْ مِنْ عَائِلَاتٍ أَدْرَكَهَا الفَقْرُ لِـكَثْرَةِ إِنْفَاقِهَا فِي حِفْظِ تِلْكَ المَبَانِي، اللَّهُمَّ إِلاَّ الَّتِي فَطِنَتْ إِلَى الِاقْتِصَارِ مِنْهَا عَلَى نَاحِيَةٍ تُقِيمُ فِيهَا وَتَتْرُكُ البَاقِيَ . وَمِنْ مُقَارَنَةِ هَذِهِ الدُّورِ العَظِيمَةِ وَالقُصُورِ الشَّامِخَةِ بِتِلْكَ المَنَازِلِ الإِنكلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ تَتَبَيَّنُ لَكَ إِحْدَى جِهَاتِ الفَرْقِ العَظِيمِ بَيْنَ النَّشْأَتَيْنِ.

الثَّانِي : أَنَّ العَائِلَاتِ الِاسْتِقْلَالِيَّةَ تَنْتَقِلُ مِنْ مَسْكَنٍ إِلَى مَسْكَنٍ بِسُهُولَةٍ أَكْثَرَ مِنَ العَائِلَاتِ الِاتِّكَالِيَّةِ . قُلْتُ إِنَّ أَهْلَ الِاتِّكَالِ أَشَدُّ الْتِصَاقًا بِالمَسَاكِنِ الوِرَاثِيَّةِ مِنْ غَيْرِهَا ، فَهِيَ أَبْقَى فِي المَسْكَنِ الوَاحِدِ لِاسْتِمْدَادِهَا مِنْهُ قِسْمًا كَبِيرًا مِنْ قُوَّتِهَا بَلْ رُبَّمَا كَانَ جُلُّ اعْتِمَادِهَا عَلَى ذَلِكَ البِنَاءِ المَادِّيِّ أَمَّا الِاسْتِقْلَالِيُّ فَلَا شَيْءَ أَسْهَلُ عَلَيْهِ مِنَ الِانْتِقَالِ ، وَمَتَى سَنَحَتْ لَهُ الفُرْصَةُ أَسْرَعَ لِانْتِهَازِهَا لِيَنْتَقِلَ مِنْ حَالٍ إِلَى أَحْسَنَ مِنْهُ وَبَدَّلَ مَسْكَنَهُ ، وَقَدْ يَتْرُكُ طَرَفًا مِنَ الدُّنْيَا لِيَأْوِيَ إِلَى الطَّرَفِ الثَّانِي لِأَنَّ أَنْظَارَهُ مُتَّجِهَةٌ

عَلى الدَّوَامِ إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ لاَ إِلَى الْمَاضِى ، وَلِأَنَّ اعْتِمَادَهُ عَلى نَفْسِهِ لَاعَلَى تقَالِيدِ أَبَوَيْهِ وَرُسُومِ[1] الأَجْدَادِ . وَهَـذَا الحَالُ الَّذِى نَشَأَ فِيهِ بِحُكْمِ طَبِيعَةِ أُمَّتِهِ هُوَ الَّذِى جعَلَهُ يَبْتَكِرُ ذَلِكَ المَلْجَأَ الْمُخْتَصَرَ، لِأَنَّ الرَّجُلَ أَشَدُّ تَعَلُّقاً بِبَيْتٍ صَغِيرٍ مِنْهُ بِبَيْتٍ كَبِيرٍ ، فَهُوَ رَبُّهُ لَاأَسِيرُهُ ، وَلاَ هَمَّ لَهُ بِالأَحْجَارِ وَلاَ تُمْسِكُهُ الأَحْجَارُ. رُبَّ مُعْتَرِضٍ يَقُولُ إِنَّهَا حَالٌ لَا اسْتِقْرَارَ لِلْمَسْكَنِ فِيهَا ؛ لَكِنَّ هَذَا نَظَرٌ إِلَى ظَوَاهِرِ الْأُمُورِ ، فَالِاسْتِقْلَالِيُّ مُسْتَقِرٌّ فِي مَسْكَنِهِ كَالِاتِّكَالِيِّ سَوَاءً بِسَوَاءٍ ، وَإِنَّمَا الفَرْقُ فِي الْكَيْفِيَّاتِ . وَلِتَبْيِينِهِ يَجِبُ الِالْتِفَاتُ إِلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْمَسْكَنِ الْخَارِجِيِّ وَالإِقَامَةِ الدَّاخِلِيَّةِ : فَالِاسْتِقْرَارُ عِنْدَ الِاتِّكَالِيِّ رَاجِعٌ إِلى المَسْكَنِ الْخَارِجِي وَهُوَ يَرْجِعُ عِنْدَ الِاسْتِقْلَالِيِّ إِلَى الإِقَامَةِ الدَّاخِلِيَّةِ ، وَكَأَنَّ الأَوَّلَ جُنْدِيٌّ لَمْ يَكَدْ يَنزِلُ بِمَسْكَنِهِ الْعَتِيقِ وَكَأَنَّ الِاسْتِقْلَالِيَّ رَابِضٌ مُنْذُ الْقِدَمِ وَإِلَى مَا شَاءَ اللهُ فِى مَسْكَنِهِ الْوَقْتِيِّ فَهُوَ يُقِيمُ حَقَّ الإِقَامَةِ وَلَوْ إِلَى بِضْعَةِ أَيَّامٍ حَتَّى فِي الْفُنْدُقِ — وَقَدِ اشْتَهَرَ أَنَّ الإِنكِليزَ كَانُوا سَبَباً فِى تَحْسِينِ الْفَنَادِقِ الْأُورُبِّيَّةِ — وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مُقِيماً إِلاَّ سُوَيْعَاتٍ مَعْدُودَةً وَلَوْ فِي السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ أَعْرِفُ عَنْهُ أَنهُ رَجُلٌ لَا يَتَعَمَّدُ مُضَايَقَةَ نَفْسِهِ فِى شَيْءٍ، وَالِاسْتِقْرَارُ عِنْدَهُ عِبَارَةٌ عَنْ رَاحَتِهِ

(١) آثار

وَمُوجِبَاتِهَا . وَلَيْسَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ السُّكْنَى لَهُ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ مَا لِلْأَسْوَارِ وَالْجُدْرَانِ وَأَنَّهَا تُؤَثِّرُ فِي الإِنْسَانِ وَحَيَاتِهِ الْيَوْمِيَّةِ وَأَنَّهَا تَفْعَلُ فِي وُجُودِهِ الذَّاتِيِّ وَوُجُودِهِ فِي أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا

نَتَجَ مِنْ هَذَا أَنَّ الاسْتِقْرَارَ فِي الْمَسْكَنِ مَادِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ ، وَالثَّانِي أَهَمُّ وَهُوَ الْبَحْثُ الَّذِي بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نُبَيِّنَهُ :

أَمَّا كَوْنُ الثَّانِي أَهَمَّ فَذَلِكَ حَاصِلٌ بِالضَّرُورَةِ لِأَنَّ تَحْسِينَ السُّكْنَى وَإِتْقَانَ نِظَامِهَا هُمَا أَوَّلُ حَرَكَةٍ يُشَاهِدُهَا الإِنْسَانُ فِي الَّذِينَ شَخَصُوا إِلَى الانْتِقَالِ مِنْ حَالَةِ الاتِّكَالِ إِلَى حَالَةِ الاسْتِقْلَالِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ غَامِضًا لَا يَبْدُو لِأَوَّلِ نَظْرَةٍ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نُوَضِّحَهُ :

إِنِّي أَرَى لِكَيْفِيَّةِ السُّكْنَى الْمَذْكُورَةِ ثَلَاثَ نَتَائِجَ فِي الاجْتِمَاعِ ، وَأَنَّ تِلْكَ النَّتَائِجَ تُؤَدِّي إِلَى تَحْوِيلِ الْأَفْرَادِ وَجَعْلِهِمْ اسْتِقْلَالِيِّينَ .

الْأُولَى طَرِيقَةُ السُّكْنَى الْمَذْكُورَةُ تُقَوِّي فِي الإِنْسَانِ شُعُورَهُ بِعِزَّتِهِ وَاسْتِقْلَالِهِ .

تَخَيَّلْ أَيُّهَا الْقَارِئُ مَا اسْتَطَعْتَ مَسَاكِنَ الْإِرْلَنْدِيِّينَ الرَّدِيئَةَ الَّتِي وَصَفْنَاهَا لَكَ أَوْ مَنَازِلَ الْفَعَلَةِ فِي مُدُنِنَا وَرِيفِنَا مِمَّا لَا يَقِلُّ عَنْ تِلْكَ

رَدَاءَةً وَقُبحًا. وَلْيَحْضُرْكَ بَعْضُ أُولَئِكَ السُّكَّانِ الَّذِينَ عَرَفْتَهُمْ تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ، ثُمَّ فَكِّرْ فِي قَوْمٍ شَبُّوا مُنْذُ طُفُولَتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْوَسَطِ، وَعَاشُوا دَائِمًا فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ جُحْرٍ مُتَوَحِّشٍ دَخَلَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّحْسِينِ، لَا شَكَّ أَنَّكَ تَقْتَنِعُ بِأَنَّهُ وَسَطٌ لَا يَقْوَى عِنْدَ مَنْ تَرَبَّى فِيهِ حَاسَّةَ الْعِزَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ؛ قَالُوا: لَيْسَ الْمَرْءُ بِطَيْلَسَانِهِ، وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ لِلطَّيْلَسَانِ(١) شَأْنًا فَوْقَ مَا يَظُنُّونَ؛ فَكَمْ مِنْ رَجُلٍ لَا قِيمَةَ لَهُ إِلَّا بِلِبَاسِهِ الَّذِي يَرْتَدِيهِ، هَذَا شِعَارُ قَاضٍ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ، وَذَاكَ زِيُّ الْجُنْدِ، وَآخَرُ وِسَامُ كَذَا، وَتِلْكَ شَارَاتُ كَذَا، وَلَهَا كُلِّهَا تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي عُقُولِ النَّاسِ. وَقَدْ تَحْمِلُ الْكَثِيرِينَ عَلَى النَّظَرِ إِلَى أَنْفُسِهِمْ بِعَيْنِ الرِّفْعَةِ وَالِاعْتِبَارِ، فَيَنْبَغِي أَلَّا يُهْمَلَ مَا تُحْدِثُهُ الظَّوَاهِرُ مِنَ التَّأْثِيرِ.

وَأَهَمُّ تِلْكَ الظَّوَاهِرِ تَأْثِيرًا هُوَ الْبَيْتُ لِأَنَّهُ يَسْتَوْلِي عَلَى الْإِنْسَانِ وَهُوَ فِي عِيشَتِهِ الذَّاتِيَّةِ، وَحَيَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، وَلِأَنَّهُ ثَابِتٌ مُسْتَمِرٌّ فِي كُلِّ يَوْمٍ. وَلَا شُبْهَةَ فِي أَنَّ الْعَامِلَ الَّذِي زُرْتُ مَسْكَنَهُ فِي «هوتردين» وَالصَّانِعَ الْمِيكَانِيكِيَّ الَّذِي تَنَاوَلْتُ عِنْدَهُ الشَّايَ فِي «ينكويك» كَانَا شَاعِرَيْنِ بِتَأْثِيرِ مَسْكَنَيْهِمَا فِيهِمَا مُبَاشَرَةً،

(١) الطيلسان فى الأصل: كساء أخضر يلبسه الخواص من المشايخ والعلماء، وهو من لباس العجم.

وَبِمَا فِيهِمَا مِنَ النِّظَامِ وَحُسْنِ التَّرْتِيبِ ، وَكَانَا بِذَلِكَ يَرَيَانِ نَفْسَيْهِمَا أَرْقَى وَأَرْفَعَ مِنْ غَيْرِهِمَا ، وَكَانَا يُمَيِّزَانِ تَمَامَ التَّمْيِيزِ مَا هُمَا فِيهِ مِنْ رِفْعَةِ النَّفْسِ وَالاسْتِقْلَالِ ، وَكَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمَا إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ يُحِسُّ مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ إِنْسَانٌ شَاعِرٌ بِكَرَامَتِهِ كَمَا يَقُولُ الْإِنْكِلِيزُ . وَالرَّجُلُ إِذَا عَرَفَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَرَامَةَ يَكُونُ مَيَّالاً إِلَى الزِّيَادَةِ مِنْهَا ، لِأَنَّهُ يَكُونُ قَدِ اجْتَازَ الْعَقَبَةَ الْأُولَى فِي سَبِيلِ الِارْتِقَاءِ ، وَهِيَ الْخُطْوَةُ الْأُولَى .

الثَّانِيَةُ — طَرِيقَةُ السُّكْنَى الْمَذْكُورَةُ تَحْفِزُ[1] الْمَرْءَ إِلَى الْعَمَلِ وَتُقَوِّيهِ عَلَى الْكَدِّ وَالِاجْتِهَادِ .

إِنَّ الْأُمَمَ الَّتِي اعْتَادَتِ الْمَعِيشَةَ الْبَسِيطَةَ وَالسُّكْنَى السَّاذَجَةَ تَكْتَفِي بِالْقَلِيلِ ، وَلَا تَلِدُ إِلَّا أَفْرَاداً يَقِفُونَ عِنْدَ الْكَسْبِ الْيَسِيرِ ، فَأَطْمَاعُهُمْ مَحْدُودَةٌ وَبِالْقَلِيلِ يَقْنَعُونَ . وَتَرَى الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَعِيشُ رَاضِياً مَتَى حَصَّلَ مَا يُخْرِجُهُ عَنْ دَرَجَةِ الْخُمُولِ وَالِانْزِوَاءِ . لَكِنْ لَيْسَ الْحَالُ كَذَلِكَ عِنْدَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى ، فَالْمَعِيشَةُ الْأَنِيقَةُ وَالْمَسْكَنُ الْمُنَظَّمُ يَقْتَضِيَانِ الْكَدَّ وَيُسَاعِدَانِ عَلَيْهِ ، خُصُوصاً إِذَا كَانَ الرَّجُلُ يَعْمَلُ لِيَنَالَ الْفَائِدَةَ الْعَاجِلَةَ الْمَحَسَّةَ . وَلَقَدْ يَحْضُرُنِي ذَلِكَ الصَّانِعُ الْمِيكَانِيكِيُّ فِي « بِنْكُويِك » وَهُوَ يَطْلُبُ اقْتِنَاءَ أَثَاثِ قَاعَةِ طَعَامِهِ أَوْ

(١) تدفع

آلةَ طَرَبهِ « بيانو » أَوْ بِسَاطِهِ الـكبيرِ الَّذِى تحلَّتْ بهِ غُرْفَةُ اسْتِقْبالهِ ، فَأَرَاهُ يزِيدُ فى همتِهِ تحْتَ تَأْثِيرِ مَا اتجهتْ إليْهِ رَغْبَتُهُ ، وَيَتَفَنَّنُ فى أَسَالِيبِ الْعَمَلِ بِمَا يَسَعُهُ لاسْتِزَادَةِ رَاتِبِهِ . وَمَا أُلُوفُ الْعَمَلَةِ الَّذِينَ يَحْضُرُونَ دُرُوسَ جَمْعِيَّةِ تَوْسِيعِ نِطَاقِ التَّعْلِيمِ فِى إِنـكلترا وَالْوِلاَيَاتِ الْمُتَّحِدَةِ بِثَمَنٍ يَدْفَعُونَهُ مِنْ كَسْبِهِمْ إِلاَّ أَمْثِلَةٌ حَيَّةٌ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ الْمَيْلِ نَحْوَ الْـكَدِّ وَالْعَمَلِ ، فَهُمْ لاَ يُحْجِمُونَ أَمَامَ ذَلِكَ الاشْتِغَالِ الزَّائِدِ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ لِطَمَعِهِمْ فِى نَيْلِ حَالٍ أَحْسَنَ ، وَعِيشَةٍ أَرْضَى.

رُبَّ قَائِلٍ يَقُولُ : إِنَّ رُوحَ الاقْتِصَادِ الَّذِى امْتَازَ بِهِ الْـكَثِيرُ مِنْ عُمَّالِنَا هُوَ أَيْضًا مِنْ مُوجِبَاتِ الْحَثِّ عَلَى الْعَمَلِ وَالاجْتِهَادِ ، وَهُوَ مُسَلَّمٌ ، إِلاَّ أَنَّهُ بَاعِثٌ أَقَلُّ عَزْمًا وَأَصْغَرُ تَأْثِيرًا ، لأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِى يَدَّخِرُ لأَوْلاَدِهِ يَعْمَلُ لأَجَلٍ بَعِيدٍ وَلِغَيْرِهِ ، وَذَلِكَ الْغَيْرُ لاَ يَجْنِى ثَمَرَةَ الْعَمَلِ إِلاَّ بَعْدَ وَفَاةِ صَاحِبِهِ ، وَلاَ يُقْدِمُ عَلَى ذَلِكَ إِلاَّ مَنْ بَلَغَتِ الشَّجَاعَةُ مِنْ نَفْسِهِ حَدَّ الاسْتِقْلاَلِ ، وَتِلْكَ فَضِيلَةٌ قَلَّمَا تُوجَدُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَإِنِ ادَّخَرَ الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ كَىْ يَسْتَغِلَّ[1] مَا ادَّخَرَ أَدْرَكَهُ الْمَلَلُ سَرِيعًا ، خُصُوصًا إِذَا كَانَ مِنَ الْعُمَّالِ ، بِمَا يَتَصَوَّرُهُ مِنْ جَسَامَةِ مَا يَجِبُ ادِّخَارُهُ حَتَّى يَزِيدَ فِى إِيرَادِهِ زِيَادَةً مُحَسَّةً ؛ فَـكَمْ مِنَ الأَيَّامِ

(١) يستثمر

يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْمَلَ لِيَكْنِزَ مِائَةً مِنَ الْفَرَنْكَاتِ ، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ لَا يُفِيدُهُ مِنَ الرِّبْحِ إِلَّا ثَلَاثَةَ فَرَنْكَاتٍ فِي السَّنَةِ ، وَهِيَ نَتِيجَةٌ تَظْهَرُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ صَغِيرَةً بَعِيدَةَ الْأَمَدِ ، وَيَرَاهَا لَا تُسَاوِي الْمَتَاعِبَ الَّتِي تُبْذَلُ فِي سَبِيلِهَا . اُنْظُرْ إِلَى النِّظَامَاتِ الَّتِي تُخْتَرَعُ كُلَّ يَوْمٍ لِإِنْمَاءِ حَرَكَةِ الِاقْتِصَادِ عِنْدَ الْفَعَلَةِ وَتَأَمَّلْ كَيْفَ أَنَّ الرِّبْحَ مِنْهَا يَسِيرٌ . وَانْظُرْ إِلَى الْفَاعِلِ الْإِنْكِلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ تَرَهُ يَدَّخِرُ فِي تَنْظِيمِ بَيْتِهِ وَتَوْفِيرِ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِيهِ مَالًا أَكْثَرَ كَثِيرًا مِنْ دُونِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْحُكُومَةِ أَوْ يَكُونَ لَهُ مِنَ احْتِفَائِهَا بِهِ بَاعِثٌ أَوْ مُشَجِّعٌ . لَا تَقُلْ إِنَّ ذَلِكَ مَالٌ مَصْرُوفٌ لَا مُدَّخَرٌ لِأَنَّهُ وَإِنْ صُرِفَ فَلَيْسَ بِضَائِعٍ سُدًى ، وَإِنَّمَا هُوَ يُسْتَغَلُّ بِرِبْحٍ جَزِيلٍ لَا يُقَدَّرُ بِثَلَاثَةٍ فِي الْمِائَةِ بَلْ بِمِائَةٍ فِي الْمِائَةِ لِكَوْنِهِ يُسْتَعْمَلُ فِي زِيَادَةِ الْقُوَّةِ عَلَى الْعَمَلِ . أَلَا تَرَى أَنَّ ذَلِكَ الصَّانِعَ الَّذِي اشْتَرَى أَثَاثَ غُرْفَةِ الطَّعَامِ أَوْ آلَةَ الطَّرَبِ أَوِ الْبِسَاطَ يَتَمَتَّعُ بِمَا اقْتَنَى مِنْ سَاعَتِهِ وَكُلَّ يَوْمٍ ، ثُمَّ فَرْقٌ بَيْنَ تَمَتُّعِ رَجُلَيْنِ اقْتَصَدَ أَحَدُهُمَا مِائَةً مِنَ الْفَرَنْكَاتِ وَلَا يَرْبَحُ إِلَّا ثَلَاثَةً فِي كُلِّ عَامٍ وَاقْتَصَدَ الْآخَرُ مِثْلَهَا فَاقْتَنَى بِهَا مَا تَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَيْهِ لِيَجْعَلَ بَيْتَهُ مَحْبُوبًا لَدَيْهِ وَلِيَتَمَتَّعَ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ ، ذَلِكَ فَرْقٌ عَظِيمٌ ، ذَلِكَ فَوْزٌ يُشَجِّعُهُ عَلَى كَدٍّ جَدِيدٍ لِيَسْكُنَ بَيْتًا أَوْسَعَ وَلِلرَّاحَةِ أَدْعَى ، أَوْ لِيَزِيدَ فِي نِظَامِ مَسْكَنِهِ

وَتَجْمِيلِهِ ، وَهُوَ كلَّمَا حسَّنَ فِي مَسْكَنِهِ دَبَّ وَرَاءَ تَحْسِينٍ جَدِيدٍ أَرْفَعَ ذَوْقًا وَأَحْكَمَ صُنْعًا ، وَأَصْبَحَ يَتَأَنَّقُ فِى الرَّغَائِبِ وَهِيَ تَزْدَادُ فِي كلِّ حِينٍ وَلاَ سَبِيلَ لَهُ إِلَى إِرْضَائِهَا إِلَّا بِعَمَلِهِ فَيَعْمَلُ بِجِدٍّ لِيَتَرَقَّى. وَلَمَّا كانَتِ الْقُدْرَةُ عَلَى الْجِدِّ الْمُتَنَاهِي مِنْ خَصَائِصِ رَجُلِ الاِسْتِقْلاَلِ وَهِيَ الَّتِي تُمَيِّزُهُ عَنْ رَجُلِ الاِتِّكَالِ ،كانَ هَذَا الَّذِى شَرَحْنَا حَالَهُ يَتَقَدَّمُ نَحْوَ النَّشْأَةِ الاِسْتِقْلاَلِيَّةِ، وَثَبَتَ أَنَّ طَرِيقَةَ السُّكْنَى هِيَ أَوَّلَ بَادِرَةٍ مِنْ بَوَادِرِ[1] التَّرَقِّي المَذْكُورِ.

الثَّالِثَةُ : طَرِيقَةُ السُّكْنَى الْمَذْكُورَةُ تُهَيِّئُ الرَّجُلَ لِأَنْ يَصِيرَ مُهَذَّبًا. إِنِّي أَلْفِتُ الْقُرَّاءَ بِنَوْعٍ خَاصٍّ إِلَى هَذِهِ النَّتِيجَةِ الثَّالِثَةِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ فِى تَمْيِيزِ النَّشْأَةِ الاِسْتِقْلاَلِيَّةِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّشْأَةِ الاِتِّكَالِيَّةِ وَلَمْ نَبْدَأْ بِذِكْرِهَا لِأَنَّ تَقْرِيرَهَا كانَ مُتَوَقِّفًا عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلاَمِ فِي مَلْجَأ[2] الأَنكليزِيِّ السَّكْسُونِيِّ.

مِنْ لَوَازِمِ النَّشْأَةِ الاِتِّكَالِيَّةِ وُجُودُ طَبَقَاتٍ فِي الأُمَّةِ تَمْتَازُ كلٌّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا عَلَى الْبَقِيَّةِ امْتِيَازًا تَامًّا . وَمِنَ الصَّعْبِ أَنْ يَنْتَقِلَ الإِنْسَانُ فِى تِلْكَ الْأُمَمِ مِنْ مَرْتَبَةٍ وَضِيعَةٍ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا . فَلاَ يَسْهُلُ عَلَى الأَجِيرِ أَنْ يَصِلَ إِلَى دَرَجَةِ الأَوَاسِطِ ، وَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا بِمَا كَسَبَ مِنَ الْمَالِ فَإِنَّهُ يَبْقَى أَجِيراً فِى أَزْيَائِهِ وَعَادَاتِهِ وَأَذْوَاقِهِ وَكَيْفِيَّةِ

(١) يريد تباشير (٢) يعنى بيته الذى يلجأ اليه

مَعِيشَتِهِ فَهُوَ لَا يَتَرَفَّهُ(١) بِالسُّهُولَةِ ، وَالسِّرُّ فِي هَذَا أَنَّ ارْتِقَاءَهُ مُسَبَّبٌ عَنِ اقْتِصَادِهِ ، وَقَدْ بَيَّنْتُ فِيمَا سَبَقَ عِلَّةَ هَذَا الِاقْتِصَادِ ، وَزِدْ عَلَيْهِ أَنَّ الِاقْتِصَادَ لَا يَتَأَتَّى إِلَّا لِمَنْ يَعِيشُ فِي مَسْكَنِهِ عِيشَةً ضَيِّقَةً يَحْرِمُ فِيهَا نَفْسَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَيَقْتَصِدُ مِنْ مَسْكَنِهِ وَيُقَتِّرُ فِي مَلْبَسِهِ ، وَيُقَلِّلُ مِنْ أَثَاثِ بَيْتِهِ ، وَيُنْقِصُ مِنْ مَصَارِيفِ رِيَاضَتِهِ ، وَالَّذِي يُحْرِزُ الثَّرْوَةَ عَاجِلًا هُوَ الَّذِي يَقْتَصِدُ كَثِيرًا أَيْ يَعِيشُ حَقِيرًا ، وَمَتَى وَصَلَ إِلَى الثَّرْوَةِ رَأَيْتَهُ اسْتَمَرَّ عَلَى الْعِيشَةِ حَقِيرًا لِأَنَّ الْعَادَةَ صَارَتْ حَاجَةً ؛ بَلْ أَقُولُ صَارَتْ مَطْلَبًا .

رَأَيْتُ فِي الْأَقَالِيمِ رَجُلًا يُمَثِّلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ بَدَأَ مُنْذُ أَرْبَعِينَ عَامًا بِصَنْعَةِ بَائِعٍ جَوَّالٍ ، وَكَانَ يَبِيعُ السِّيَاطَ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالسُّرُوجِيَّةِ عَلَى عَرَبَةِ يَدٍ يَنْتَقِلُ بِهَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى أُخْرَى ، فَلَمَّا اجْتَمَعَ فِي يَدِهِ مَبْلَغٌ مِنَ الْمَالِ اشْتَرَى مَسْبَكًا صَغِيرًا يُدَارُ بِقُوَّةِ الْمَاءِ وَجَعَلَ يَصْنَعُ بِنَفْسِهِ اللُّجُمَ وَالْمَشَابِكَ وَجَمِيعَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي تُصْنَعُ مِنَ الْحَدِيدِ أَوْ مَا شَابَهَ لِلسُّرُوجِ ، وَقَدْ عَرَفْتُهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ فَوَجَدْتُ عِنْدَهُ أَرْبَعِينَ صَانِعًا وَاشْتَرَى مِنَ الْأَطْيَانِ مَا يَبْلُغُ مِائَةَ هِكْتُولِتْر وَثَلَاثَةَ بُيُوتٍ أَوْ أَرْبَعَةً فِي الْقُرَى الْمُجَاوِرَةِ لِمَسْكَنِهِ وَصَارَ لَدَيْهِ مَالٌ عَظِيمٌ لِإِدَارَةِ حَرَكَةِ الْمَسْبَكِ . وَقَدْ تُوُفِّيَ قَرِيبًا وَتَبِعَتْهُ زَوْجَتُهُ وَلَمْ يَتْرُكَا

(١) يتنعم

عَقِبًا (١) وَقُدِّرَتْ ثَرْوَتُهُ بِأَرْبَعِمِائَةِ أَوْ خَمْسِمِائَةِ أَلْفِ فرَنْك قُسِّمَتْ بَيْنَ أَبْنَاءِ إِخْوَتِهِ . وَعَاشَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى آخِرِ يَوْمٍ مِنْ حَيَاتِهِ كَالأُجَرَاءِ (تِلْكَ طَرِيقَةٌ مُثْلَى (٢) فِى اسْتِعْمَالِ الثَّرْوَةِ وَالْمَالِ) فَبَقِىَ عَلَى لَهْجَتِهِمْ فِى الْكَلَامِ وَأَزْيَائِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ وَكَانَ فِى الْأَصْلِ ذَا لَهْجَةٍ عَامِّيَّةٍ وَزِىٍّ وَضِيعٍ وَهَيْئَةٍ رَثَّةٍ (٣) وَلَا أَقُولُ أَكْثَرَ مِمَّا ذُكِرَ . شَاهَدْتُهُ مِرَارًا يَبْرُدُ بِنَفْسِهِ بَعْضَ الْمَصْنُوعَاتِ فِى مَسْبَكِهِ كَأَجِيرٍ بَسِيطٍ اسْتُخْدِمَ لِيُدِيرَ آلَةً مِنَ الْآلَاتِ . وَعَلَيْهِ فَقَدْ بَلَغَ هَذَا الرَّجُلُ مَا بَلَغَ مِنَ الثَّرْوَةِ وَالْغِنَى وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرْتَقِ فِى طَبَقَاتِ الِاجْتِمَاعِ . وَمَا سَبَبُ عَدَمِ ارْتِقَائِهِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّدْ فِى بَيْتِ أَبِيهِ مُنْذُ الصِّغَرِ الْهَيْئَةَ الْحَسَنَةَ وَلَمْ يَعْرِفْ نِظَامَ الْمَعِيشَةِ وَمُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِى السُّكْنَى وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ لُطْفِ الشَّمَائِلِ (٤) وَظَرْفِ الْأَزْيَاءِ .

يُوجَدُ بَيْنَ الْأَهَالِى فِى فَرَنْسَا قَوْمٌ لَهُمُ اسْتِعْدَادٌ كَبِيرٌ لِلتِّجَارَةِ وَهُمْ أَهْلُ (أُوفرينا) كَمَا أَنَّ لَهُمْ تَفَنُّنًا عَظِيمًا فِى الِاقْتِصَادِ ، وَلَسْتُ أَتَعَرَّضُ لِبَيَانِ السَّبَبِ فِى هَذَا الِاسْتِعْدَادِ وَلَكِنِّى أَكْتَفِى بِالدَّلَالَةِ عَلَيْهِ ، وَالرَّجُلُ مِنْهُمْ قَدْ يَبْلُغُ دَرَجَةً مُعْتَبَرَةً (٥) مِنَ الثَّرْوَةِ وَلَكِنَّهُ لَا يَخْرُجُ عَنْ حَالَةِ التَّاجِرِ الصَّغِيرِ وَلَا يَتَخَلَّى عَنْ عَادَاتِهِ وَمَا أَلِفَ

(١) يريد أولادا (٢) فضلى (٣) الرث : البالى ، ويريد هنا أن هيئته قذرة (٤) الشمائل : الطبائع والأخلاق (٥) يريد عظيمة

بَلْ يَبْقَى عَلَى عَادَاتِ فَلَّاحِى بَلَدِهِ وَهِيَ لاَ تُسْتَحْسَنُ مِنْ جِهَةِ الْهَيْئَةِ أَوِالنَّظَافَةِ أَوِالْأَزْيَاء .وَ كلُّ مَنْ زَارَ تِلْكَ الْبِلَادَ يَعْلَمُ مَانَقُولُ وَأَنَّهُ لَيْسَ فِى الْوُجُودِ أَقْرَبُ إِلَى الطَّبِيعَةِ مِنْ مَسَاكِنِ فَلَّاحِى (أوفرينا) وَلاَ أَقْذَرُ مِنْهَا ، وَلاَ أَزَالُ أَذْكُرُ مَا قَاسَيْتُهُ مَعَ مُوسيو (روسيه) مِنَ الصُّعُوبَاتِ في تَنَاوُلِ الطَّعَامِ بِضْعَ مَرَّاتٍ بِتِلْكَ الْبِلَادِ وَمَا كَانَ يَقُومُ بِنفوسِنَا مِنَ الاشْمِئْزَازِ مِمَّا هُوَ طَبِيعِيٌّ عِنْدَ رَجُلٍ ذَاقَ لِلتَّمَدُّنِ طَعْماً،وَانَّنَا مَا تَغَلَّبْنَاعَلى أَنْفُسِنَا إِلاَّ بِشِدَّةِ رَغْبَتِنَا في اسْتِطْلاَعِ أَحْوَالِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ وَمَعْرِفَةِ كَيْفَ يَعِيشُونَ .

نَشْأَةُ النَّاسِ في تِلْكَ الْبُيُوتِ هِيَ الَّتِى تُعَطِّلُ صِفَاتِهِمْ فِى التِّجَارَةِ وَتَعُوقُهُمْ عَنِ الارْتِقَاءِ أَدَبِيًّا بَيْنَ الَّذِينَ يُخَالِطُونَهُمْ مَعَ مَاهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْقَنَاعَةِ وَتَعَوُّدِ الاِقْتِصَادِ وَالتَّوْفِيرِ . وَهَذِهِ الْحَالُ ظَاهِرَةٌ فِى وَصْفِ الْبَيَّاعِ الشَّرَّاءِ الْأُوفَرْنِيِّ فِى بَارِيسَ «رَاجِعْ كِتَابَ الصُّنَّاعِ فى الدنيوين جزء رابع صحيفة ٣١١و٣١٢ » حَيْثُ جَاءَ فِيهِ » : تَنْقَسِمُ تِلْكَ الْفِئَةُ إِلَى قِسْمَيْنِ أَهْلِ أُوفرينا وَأَهْلِ نُورْمَانْديه وَكِلاَهُمَا قَنُوعٌ مَيَّالٌ إِلَى الاِقْتِصَادِ يَهْرُبُ مِنْ مُخَالَطَةِ الْعَمَلَةِ الْبَارِيسِيِّينَ خَشْيَةً مِنْ كَثْرَةِ إِنْفَاقِهِمْ « مَا أَجْمَلَ » وَيَشْتَرِى الْأُوفَرْنِىُّ الْمَلاَبِسَ الْبَالِيَةَ وَبِالْأَخَصِّ الْقُبَّعَاتِ وَالْأَحْذِيَةَ الَّتِى لَمْ تَعُدْ صَالِحَةً لِلاِسْتِعْمَالِ وَلَكِنَّهُ غَيْرُ مَاهِرٍ فِى ذَلِكَ كَمُزَاحِمِهِ ، لِذَلِكَ يَتَخَوَّفُ مِنْهُ عَلَى الدَّوَامِ إِذَا

اجْتَمَعَ الاثْنَانِ فى بَيْتٍ لِمساوَمَةِ مَبِيعٍ مّا ، فترى النَّاسَ يرْكَنُونَ إلى النُّورْمَانديِّ لِمَا امْتَازَ بِهِ عَلى رَفِيقِهِ مِنَ المُوَادَعَةِ وَالأَدَب ، وَهُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ لِبَاساً وَأَعْذَبُ مِنْهُ لِسَاناً وَبِمَهَارَتِهِ يَتغلَّبُ عَلى صَاحِبِهِ فى جَمِيعِ الْأَحْوَالِ عَلى التَّقْرِيب . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ يَتْرُكُ الْأُوفَرْنِيُّ مَعَ مَا اخْتُصَّ بِهِ مِنَ الثَّبَاتِ وَالْمُقَاوَمَةِ ، الاتّجارَ فى المَلَابِسِ الْعَتِيقَةِ عَلى كَثْرَةِ رِبْحِهِ مِنهَا إلى مُزَاحِمِهِ النُّورْمَانْديِّ لِيشْتَغِلَ فى الخِرَقِ الْبَالِيَةِ وَالْحَدَائِدِ الْعَتِيقَةِ وَالْعِظَامِ وَجُلودِ الْأَرَانب »

وَيَعْرِفُ الْقَارِئُ مِمَّا تقدَّمَ كَيْفَ أَنَّ التَّرْبِيَةَ الْخَشِنَةَ النَّاتِجَةَ عَنْ حَالَةِ سُكْنَى الْبَيْتِ تَمْنَعُ الْأُوفَرْنِيَّ مِنَ الارْتِقَاءِ حَتَّى فى تِجَارَةٍ لَا تَقْتَضِى تَرْبِيَةً عَالِيَةً . وَلَاشَكَّ فى أَنَّهُمْ لَوْ حَسَّنُوا سُكْنَاهُمْ لاسْتَفَادُوا مِمَّا يَصْرِفُونَ فى هَذَا السَّبِيلِ رِبْحًا جَزِيلاً ، وَذَلِكَ الرِّبْحُ هُوَ الَّذِى يَسْتَفِيدُهُ الْإِنكلِيزِيُّ السَّكْسُونِيُّ مِنْ تَنْظِيمِ مَلْجَئِهِ .

وَلنَرْجِعْ إِلَى عُمَّالِ ضَوَاحِى إِيْدِنْبُورْجْ فَهُمْ تَرَبَّوْا وَيُرَبُّونَ أَوْلَادَهُمْ فى مَلْجَأٍ يُعَوِّدُهُمْ شَيْئاً مِنَ التَّحْسِينِ فى السُّكْنَى وَإِنْ كَانَ بَيْتاً صَغِيراً ، كَمَا يُعَوِّدُهُمْ لِبَاساً مَخْصُوصاً ، وَلَهْجَةً مَخْصُوصَةً ، وَشَمَائِلَ مَخْصُوصَةً ، فَيَصِيرُونَ بذَلِكَ مُتَرَفِّهِينَ ، وَمُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يَتَرَفَّهُوا إِنْ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، فَإِذَا سَنَحَتْ لَهُمْ فُرْصَةُ ارْتِقَاءٍ - وَقُدْرَتُهُمْ عَلى الْعَمَلِ مِمَّا يَخْلُقُهَا - رَأَيْتَهُمْ يَنْتَهِزُونَهَا وَيَجِدُونَ

مِنْ حَالِهِمِ الشَّخْصِيِّ مَا يَجْعَلُهُمْ جَدِيرِينَ بِهَا ، إِذْ لَيْسَ فِيهِمْ مَا يَمْنَعُ مِنْ نَيْلِ ذَلِكَ الارْتِقَاءِ . وَالْخُلاصَةُ أَنَّ نِظَامَ الْبَيْتِ عِنْدَهُمْ ، حَتَّى بُيُوتِ الْأُجَرَاءِ ، يَجْعَلُ الْأَفْرَادَ قَابِلِينَ لِأَنْ يَصِيرُوا مِنْ طَبَقَةِ الْمُهَذَّبِينَ ، فَلَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَرَاتِبِ الَّتِي يَرْتَقُونَ إِلَيْهَا أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا .

هَذَا وَإِنِّي أَجِدُ مِنْ نَفْسِي دَافِعًا إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ النَّشْأَةَ الاسْتِقْلَالِيَّةَ لَا تَلِدُ طَبَقَةً دَنِيئَةً وِرَاثِيَّةً كَمَا هُوَ الْحَالُ عِنْدَ أَهْلِ النَّشْأَةِ الاتِّكَالِيَّةِ إِذِ الْمُشَاهَدَةُ ظَاهِرَةُ الْوُضُوحِ ، وَالْوَقَائِعُ الَّتِي تَحْضُرُ الذَّاكِرَةَ تُؤَدِّي إِلَى تِلْكَ النَّتِيجَةِ وَتُبْرِزُهَا فِي صُورَةِ قَاعِدَةٍ عُمُومِيَّةٍ . وَمِنْ أَجْلِ هَذَا أَصْبَحَ أَهْلُ النَّشْأَةِ الْأُولَى فِي مُقَدِّمَةِ الْمُتَقَدِّمِينَ نَحْوَ حَلِّ الْمَسْأَلَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَعَلَى الْخُصُوصِ مَسْأَلَةَ الْأُجَرَاءِ . وَإِنِّي أَكْتَفِي بِإِيرَادِ ثَلَاثِ مُشَاهَدَاتٍ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قَابِلِيَّةِ تِلْكَ الْأُمَمِ لِلتَّرَقِّي :

الْأُولَى — قِلَّةُ عَدَدِ الْخُدَّامِ مِنَ الْإِنْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ . فَغَالِبُ الْخَدَمِ فِي إِنْكِلْتِرَا ، وَفِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ ، إِمَّا سَلْتِيُّونَ أَصْلًا ، أَوْ جِرْمَانِيُّونَ ، أَوْ لَاتِينِيُّونَ ، وَلَا تَجِدُ خَدَمًا مِنَ الْجِنْسِ الْإِنْكِلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ إِلَّا مِنْ نَوْعٍ مَخْصُوصٍ كَالْمُرَبِّيَاتِ اللَّاتِي هُنَّ طَبَقَةٌ أَرْقَى مِنَ الْخَدَمِ الاعْتِيَادِيِّينَ ، وَكَالْخَادِمَاتِ مُؤَقَّتًا وَهُنَّ بَنَاتُ الْفَعَلَةِ اللَّاتِي يَخْدُمْنَ وَقْتًا مَحْدُودًا لِيَتَعَلَّمْنَ بَيْنَ قَوْمٍ أَرْفَعَ مِنْهُنَّ رُتْبَةً كَيْفِيَّةَ إِدَارَةِ الْبَيْتِ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجْنَ .

الثَّانِيَةُ — وُجُودُ تِلْكَ الْآلَافِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنَ الفَعَلَةِ الَّذِينَ مَارَسُوا العَمَلَ بِأَيْدِيهِمْ وَارْتَقَوْا بِكَدِّهِمْ إِلَى أَرْفَعِ المَقَامَاتِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا فِيهَا خَارِجِينَ عَنْ صَفِّهَا ، بَلْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُهَذَّبِينَ مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الَّتِي وَصَلُوا إِلَيْهَا ، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ . وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَنْهُ فِي مَجَلَّةِ (العِلْمِ الاجْتِمَاعِيِّ) عِنْدَ ذِكْرِ رُؤَسَاءِ أَحْزَابِ الفَعَلَةِ الَّذِينَ أَصْلُهُمْ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا الْيَوْمَ مُتَرَبِّعِينَ فِي مَجْلِسِ النُّوَّابِ « مَجَلَّةُ أُكْتُوبَرْ سَنَةَ ١٨٩٣ وَدِيسَمْبَرْ سَنَةَ ١٨٩٤ وَيُولْيُو وَنُوفَمْبَرْ سَنَةَ ١٨٩٥ » .

كَانَ مُوسْيُو كَايفْلَنْد رَئِيسُ جُمْهُورِيَّةِ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ صَبِيًّا عِنْدَ أَحَدِ البَقَّالِينَ بِوَظِيفَةِ سَاعٍ يَقْضِي الطَّلَبَاتِ مِنَ الخَارِجِ وَكَانَ يَكْنُسُ المَكَانَ وَيَكْسِرُ الخَشَبَ وَيُوقِدُ النَّارَ ، وَكَانَ اللُّورْدُ جِلَاسْكُو حِكِمْدَارُ بِلَادِ زِيلَنْدَا الجَدِيدَةِ صَبِيَّ نُوتِيٍّ[1] فِي أَحَدِ المَرَاكِبِ مُنْذُ كَانَ عُمْرُهُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، كَذَلِكَ كَانَ فِرَنْكلانُ الَّذِي طَارَ صِيتُهُ فِي الآفَاقِ فَاعِلًا . وَلَيْسَ فِي ارْتِقَائِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الحَضِيضِ إِلَى هَذَا النَّعِيمِ مَا يَسْتَوْجِبُ العَجَبَ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يُدْهِشُ لَهُ الإِنْسَانُ هُوَ كَثْرَةُ عَدَدِ الْوَاصِلِينَ ، وَأَنَّ أَصْلَهُمُ الصَّغِيرَ لَمْ يَتْرُكْ فِيهِمْ أَثَرًا مِنَ الْآثَارِ الَّتِي نُشَاهِدُهَا فِي قَوْمِنَا الَّذِينَ يَرْتَقُونَ . قُلْتُ إِنَّ هَذِهِ

(١) النوتى : الملاح

مُشَاهَدَةٌ غَرِيبَةٌ ، وَأَنَا أَحُجُّ[١] كلَّ إِنْسَانٍ يُعَلِّلُهَا بِغَيْرِ طَرِيقَةِ الْإِنْكلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ الْأَجِيرِ فِي السُّكْنَى.

الثَّالِثَةُ — وَهِيَ مُهِمَّةٌ فِي بَابِهَا : مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يُوجَدُ مِنْ قُطُرِ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ بِبِلَادِ الْإِنْكلِيزِ عَدَدٌ كَبِيرٌ لَيْسَ فِيهِ عَرَبَاتٌ لِلدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ لِأَنَّ النَّاسَ أَهْمَلُوهَا ، وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ أَرَى الْإِحْصَائِيَّاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَدَدَ مُسَافِرِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى فِي تِلْكَ الْبِلَادِ أَقَلُّ مِنْ مِثْلِهِ فِي أُورُبَّا ، وَبَيْنَمَا أَنَا أَكْتُبُ هَذِهِ السُّطُورَ عَلِمْتُ أَنَّ إِحْدَى شَرِكَاتِ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ الْإِنْكلِيزِيَّةِ عَرَضَتْ إِلْغَاءَ الدَّرَجَةِ الْأُولَى. وَأَنَّ اللَّجْنَةَ الَّتِي تَشَكَّلَتْ لِلنَّظَرِ فِي طَلَبِهَا وَافَقَتْ عَلَيْهِ مُحْتَجَّةً بِقِلَّةِ عَدَدِ مُسَافِرِيهَا ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى رَأْيِهِمْ بِأَنَّ الدُّوقَ « كَامْبِرْلَانْ » صِهْرَ الْمَلِكَةِ يُسَافِرُ دَائِمًا فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَحَبَّةَ الِاقْتِصَادِ إِذِ الْمَعْرُوفُ عَنِ الْإِنْكلِيزِ وَالْأَمْرِيكَانِيِّينَ أَنَّهُمْ يَتَوَسَّعُونَ فِي عِيشَتِهِمْ ، وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ نَجِدُ عَدَدَ السُّيَّاحِ مِنَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى كَبِيرًا مَعَ أَنَّ ثَرْوَتَهُمْ أَقَلُّ وَمَيْلَهُمْ إِلَى الِاقْتِصَادِ أَشَدُّ . وَجَبَ إِذَنْ أَنْ نَبْحَثَ عَنْ عِلَّةٍ أُخْرَى وَلَا أَرَاهَا إِلَّا كَيْفِيَّةَ مَعِيشَةِ الطَّبَقَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ أُمَّةِ الْإِنْكلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ وَهَيْئَتِهِمْ وَزِيِّهِمْ ، فَنَحْنُ نَتَأَفَّفُ[٢] مِنَ السَّفَرِ مَعَ

(١) أى أغلبه بالحجة والبرهان (٢) تأوف: اذا قال أف . يريد نشمئز

رَجُلٍ ذِى هَيْئَةٍ رَثَّةٍ وَعَادَاتٍ مُنحطَّةٍ خَشِنَةٍ ، وَلَكِنَّ هذَا التَّأَفُّفَ ضَعِيفٌ عِنْدَ الإِنكليزِ السَّكسونِيِّينَ لِارْتِقَاءِ الطَّبَقَةِ السُّفْلَى بَيْنَهُمْ ارْتِقَاءً مُحَسًّا ، وَمِنْ أَقْطَعِ الأَدِلَّةِ عَلى ذَلِكَ أَنَّ شَرِكَاتِ السِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ وَصَلَتْ فِى تَحْسِينِ إِدَارَةِ أَحْوَالِهَا إِلى إِيجَادِ تَذَاكِرَ مُشْتَرَكَةٍ لِقَاصِدِى إِنكلترا تُبِيحُ لِلْمُسَافِرِ أَنْ يَرْكَبَ الدَّرَجَةَ الثَّانِيَةَ مَا دَامَ سَائِرًا فِى الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، فَإِذَا بَدَأَ السَّيْرَ فِى الْبِلَادِ الإِنكليزِيَّةِ انْتَقَلَ إِلى الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ . وَلْيُلاحَظْ أَنَّ الإِنكليزَ بِاسْتِعْمَالِهِم الدَّرَجَةَ الثَّالِثَةَ لَمْ يَنْسَوْا مُوجِبَاتِ رَاحَتِهِمْ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَدْ جَعَلَتْ الشَّرِكَاتُ الَّتِى تُلاحِظُ رَغَبَاتِ النَّاسِ عَرَبَاتِ الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ أَكْمَلَ نِظَامًا وَأَتَمَّ تَرْتِيباً مِنْ عَرَبَاتِ الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ عِنْدَنَا ، وَرُبَّمَا ضَارَعَتْ دَرَجَتَنَا الأُولَى زُخْرُفًا وَحُسْنًا فِى بَعْضِ الْفُرُوعِ ، أَمَّا الاِعْتِنَاءُ بِهَا فَيَفُوقُ الاِعْتِنَاءَ بِغَيْرِهَا .

وَحِينَئِذٍ يُمْكِنُنَا أَنْ نَسْتَخْلِصَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ حُسْنَ السُّكْنَى وَاسْتِيفَاءَ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِى الْبُيُوتِ مِمَّا يَجْعَلُ الطَّبَقَاتِ النَّازِلَةَ فِى الأُمَّةِ أَهْلاً لِبُلُوغِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ بِحَيْثُ لا يُرَى أَنَّهُمْ دُخَلَاءُ فِيهَا بِمَا يَلُوحُ عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّمَائِلِ وَالأَزْيَاءِ ، وَذَلِكَ يُؤَدِّى عَلَى الدَّوَامِ إِلى مَحْوِ الطَّبَقَةِ السَّافِلَةِ الْوِرَاثِيَّةِ فِى الأُمَّةِ الَّتِى هِىَ دَاءُ الأُمَمِ الاِتِّكَالِيَّةِ الْعَظِيمَةِ .

لَيْسَت الْمَسْأَلَةُ الاِجْتِمَاعِيَّةُ عِبَارَةً عَنْ مُسَاعَدَةِ الأَفْرَادِ ، كَمَا أَنَّ

مَسْأَلَةَ الْحَيَاةِ لَا تَقُومُ بِكَثْرَةِ تَناوُلِ الْأَدْوِيَةِ وَالْعَقَاقِيرِ ، اذْ لَيْسَتِ الْمُسَاعَدَةُ أَوِ الْعَقَاقِيرُ مِنْ وَسَائِلِ الْحَيَاةِ الطَّبِيعِيَّةِ .وَلَيْسَتِ الْحِكْمَةُ إِلَّا مَا أَدَّتْ إِلَى الْاسْتِغْنَاءِ عَنْ تِلْكَ الْوَسَائِلِ الصِّنَاعِيَّةِ ، وَلَيْسَ مِنْ حَلٍّ لِلْمَسْأَلَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ إِلَّا جَعْلَ الْأَفْرَادِ بِحَيْثُ يَسْتَطِيعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَقُومَ بِأَوْدِ نَفْسِهِ(١) ، وَأَنْ يَرْتَقِيَ بِجِدِّهِ وَعَمَلِهِ ، لِأَنَّ سَلَامَةَ الِاجْتِمَاعِ كَالسَّلَامَةِ الْأُخْرَوِيَّةِ ـ كَمَا قَدَّمْنَا ـ تَقُومُ بِكُلِّ وَاحِدٍ عَلَى حِدَتِهِ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ أَنْ يَسْعَى إِلَيْهَا . وَقَوْلِي هَذَا لَا يَرُوقُ(٢) فِي أَعْيُنِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا السِّيَاسَةَ حِرْفَةً وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ طَلَبُوا رِزْقَهُمْ مِنَ انْحِطَاطِ الْأُمَّةِ وَضَعْفِ مَدَارِكِ الطَّبَقَاتِ النَّازِلَةِ ، وَكَانَتْ فَائِدَتُهُمْ فِي بَقَاءِ النَّاسِ دَائِمًا عَلَى حَالَةٍ يُشْبِهُونَ فِيهَا الْقُصَّرَ حَتَّى يَتَيَسَّرَ لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِمْ أَوْصِيَاءَ ، غَيْرَ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ الْمُلَاحَظَاتِ ، بَلْ إِنَّهُ يَجْهَلُهَا وَيَسْلُكُ الطَّرِيقَ الَّذِي تَدُلُّ الْمُشَاهَدَاتُ عَلَيْهِ .

عَلِمْنَا أَنَّ قَابِلِيَّةَ التَّرَقِّي تَنْمُو أَوَّلاً بِتَحْسِينِ الْمَسْكَنِ عِنْدَ أَجْنَاسِ الْأُمَمِ الِاتِّكَالِيَّةِ إِذَا اخْتَلَطَتْ بِالْأُمَمِ الِاسْتِقْلَالِيَّةِ ، وَظَاهِرٌ أَنَّ هَذَا اخْتِلَاطٌ مَفْقُودٌ عِنْدَنَا إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يُسْتَعَاضَ عَنْهُ مَعْرِفَةَ حَقَائِقِ الْأَحْوَالِ كَمَا يَنْبَغِي . فَالْمَعَارِفُ تُوَصِّلُنَا إِلَى أَنْ

(١) أي بحملها (٢) لا يعجب

نَعْمَلَ بِغَيْرِ اخْتِلَاطٍ مَا نَفْعَلُهُ بِلَا تَأَمُّلٍ بَلْ لِمُجَرَّدِ الاحْتِكَاكِ بَيْنَ نُخْبَةِ الْعَمَلَةِ الإِيقُوسِيِّينَ أَوِ الإِرْلَنْدِيِّينَ فِى انـكلـترا، وَمَا تَفْعَلُهُ كَذَلِكَ نُخْبَةُ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أُورُبَّا الْقَدِيمَةِ إِلَى الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ بِأَمْرِيكَا.

عَلَى الطَّبَقَاتِ الْوُسْطَى مِنَّا أَنْ تَبْدَأَ بِهَذَا التَّرَقِّى بِنَفْسِهَا لِنَفْسِهَا فَهِىَ الْآنَ تُجْهِدُ نَفْسَهَا كَثِيراً وَتُنْفِقُ الْمَالَ الْجَزِيلَ لِتَعِيشَ خَارِجَ الْبَيْتِ وَلِتُكْثِرَ مِنْ عَلَاقَاتِهَا مَعَ الْمُتَطَرِّفِينَ وَالْأَصْحَابِ الْعَادِيِّينَ وَتَكْرَهُ الْإِقَامَةَ فِى الْأَرْيَافِ كُرْهاً شَدِيداً، لِأَنَّ الْعَلَاقَاتِ وَالْمَعِيشَةَ الْخَارِجَةَ عَنِ الْبَيْتِ هُنَاكَ أَصْعَبُ. وَتَعْتَنِى فِى بَيْتِهَا بِفَرْشِ الْقِسْمِ الْمُخَصَّصِ لِلِاسْتِقْبَالِ بِالْأَثَاثِ الْفَاخِرِ وَالزَّخَارِفِ وَتَعُدُّ مِنَ الْفَضَلَاتِ تَنْظِيمَ الْقِسْمِ الْمُخَصَّصِ بِمَعِيشَةِ الْعَائِلَةِ نَفْسِهَا وَتَوْفِيرَ مُوجِبَاتِ الرَّاحَةِ فِيهِ. وَهِىَ بِذَلِكَ تَجْعَلُ الْبَيْتَ ثَقِيلاً عَلَيْهَا وَعَلَى أَبْنَائِهَا فَلَا تُخَصِّصُ بِهِمْ غُرْفَةً يَشْعُرُونَ بِاجْتِمَاعِهِمْ فِيهَا أَنَّهُمْ فِى بَيْتِهِمْ حَقِيقَةً، وَيَتَعَلَّمُونَ مِن صِغَرِهِمْ طَرَفاً مِنَ الاسْتِقْلَالِ. أَلَا إِنَّ الْأَطْفَالَ هُمْ ضَحَايَا الْبُيُوتِ فِى فَرَنْسَا!! وَالْوَاقِعُ أَنَّ بُيُوتَنَا أُعِدَّتْ لِلْأَجَانِبِ لَا لِأَنْفُسِنَا؛ وَهَذَا هُوَ الَّذِى يَجِبُ تَغْيِيرُهُ لِيَرْجِعَ الْمَرْءُ إِلَى الْمَعِيشَةِ الْخُصُوصِيَّةِ فَيُقِيمَ فِيهَا كَمَنْ يَحْتَلُّ حِصْناً مَنِيعاً

وَيجعَلهَا بحَيْثُ تَميلُ إِليْهَا النَّفسُ مَيْلاً كُلِّيًّا ففى الْحَيَاةِ الشَّخْصيَّةِ قُوَّةٌ عَظِيمَةٌ لَـكِنهَا مَجْهُولَةٌ؛ وَلَاسَبِيلَ إِلَى الارْتِقَاءِ لِقَوْمٍ لَا يعرِفُونَ حَقِيقَةَ مَاذُكِرَ.

لَـكِنْ إِذَا تَيَسَّرَ لِطَبَقَتِنَا الْوُسْطَى أَنْ تَخطُوَهَذِهِ الْخُطْوَةَ ـ وَذَلِكَ مُمْكِنٌ إِذَا أَرَادَتْ ـ فَلَيْسَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَفْرَادِهَا إِلاَّ أَنْ يُقدِمَ عَلَى العَمَلِ لِنفْسِهِ، فَالْأَمْرُ مُتَعَذِّرٌ عَلى طَبَقَةِ الْعَمَلِ لِاسْتِحَالَةِ أَنَّهَا تَعمَلُ بنُورِ الْعِلْمِ وَحْدَهُ، وَلِأَنَّ الْغَايَةَ المَقْصُودَةَ بَعِيدَةٌ عَنْهَا بعْدًا عَظِيماً وَلأَنَّهُ لَامُسَاعِدَ لَهَا مِنَ الاحْتِكَاكِ لِعَدَمِ وُجُودِهِ فَهِيَ مُحْتَاجَةٌ إِلىَ مَنْ يُعينُهَا.

هُنَا أُوَجِّهُ الخِطَابَ عَلى الأخصِّ إِلَى الَّذِينَ جَعَلُوا مِنْ هَمِّهِمُ السَّعْىَ فى إِيجَادِ الْوَسَائِلِ لِإِعَانَةِ الْمُحْتَاجِينَ وَهُم فى الْغَالِبِ يُسَاعِدُونَ الْعَامِلَ وَيَتَـكلفُونَ حِمَايَتَهُ ـ وَجَبَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَجِبْ ـ وَلَا يُحَصِّلُونَ مِنْ أَتْعَابِهِمْ إِلاَّ فَوَائِدَ قَلِيلَةً فَضْلاً عَمَّا يَلْحَقُ بالْعَمَلَةِ مِنْ إِضْعَافِ قَابِليَّتِهِمْ إِلَى الارْتِقَاءِ بِأَنْفُسِهِمْ، وَكُلُّ مُسَاعَدَةٍ لَا يَكُونُ الْغَرَضُ مِنْهَا جَعْلَ المُسَاعَدَةِ نَفْسِهَا فَضْلَةً[1] أَي إِعْدَادَ النَّاسِ لِمُسَاعَدَةِ أَنْفُسِهِمُ بِأَنفُسِهِمْ قَدْ تَصِيرُ مُصِيبَةً عُظْمَى؛ وَاللَّازِمُ هُوَ مُسَاعَدَةُ تِلْكَ الطَّبَقَةِ عَلى الارْتِقَاءِ بِنفْسِهَا بِإِعَانَتِهَا عَلى تَحْسِينِ مَسَاكِنِهَا وَتَنْظِيمِ المَعِيشَةِ الشَّخْصِيَّةِ.

(١) يريد نافلة وأمرا غير محتم.

إِنِّي أُلَاحِظُ الْآنَ بِكَمَالِ الْعِنَايَةِ مَشْرُوعاً بَدَأَ بِتَنفِيذِهِ أَحَدُ أَصْدِقَائِي . ذَلِكَ أَنَّهُ يُوجَدُ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ أَمْلَاكِهِ مَعْمَلٌ صَغِيرٌ يَشْتَغِلُ فِيهِ نَيِّفٌ[1] وَخَمْسُونَ عَامِلاً تَتَأَلَّفُ مِنْهُمْ عِشْرُونَ عَائِلَةً سَاكِنَةً بِجِوَارِ ذَلِكَ الْمَعْمَلِ فِي بُيُوتٍ أُعْطِيَتْ لَهُمْ بِأُجْرَةٍ سَنَوِيَّةٍ مَا بَيْنَ خَمْسِينَ فرنكاً وَسِتِّينَ ، وَهِيَ فِي الْوَاقِعِ لَا تُسَاوِي أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الْقِيمَةِ لِأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ عِشَشٍ أَوْ أَكْوَاخٍ أَبْوَابُهَا وَشَبَابِيكُهَا لَا تُقْفَلُ مَتَى فُتِحَتْ ؛ مِمَّا يَجْعَلُ سُكْنَاهَا لَا تُطَاقُ فِي زَمَنِ الشِّتَاءِ . وَهِيَ عَلَى الدَّوَامِ تُقْصِي[2] النَّاظِرَ إِلَيْهَا بِمَا عَلَاهَا مِنَ الْأَوْسَاخِ الَّتِي تَفُوقُ الْوَصْفَ . وَلَا أَذْكُرُ شَيْئاً عَنْ أَثَاثِهَا فَإِنَّهُ دُونَ مَا يَتَصَوَّرُ الْعَقْلُ بَسَاطَةً وَعَلَى حَالٍ لَا يُمْكِنُ نَعْتُهَا أَبَداً ! وَمِنْ تَمَامِ الشَّقَاءِ أَنَّ قِسْماً مِنْ تِلْكَ الْعَائِلَاتِ يَنْهَمِكُ فِي الْمُسْكِرَاتِ كَمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ غَالِباً . تِلْكَ هِيَ الْمَادَّةُ الَّتِي اشْتَغَلَ صَاحِبِي بِالْعَمَلِ فِيهَا ، وَظَاهِرٌ أَنَّهَا مِنْ أَحْسَنِ الْمَوْضُوعَاتِ فِي بَحْثِنَا وَأَنَّهَا تَجْعَلُ الْعَمَلَ مِنْ أَهَمِّ مَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ ، وَلِمُجَاوَرَةِ صَاحِبِنَا لِأُولَئِكَ الْقَوْمِ وَتَفَرُّغِهِ النَّاشِيءِ عَنِ الْإِقَامَةِ فِي الرِّيفِ سَهُلَ الِاجْتِمَاعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ وَبَدَأَ الِاخْتِلَاطُ إِذْ جَاءُوهُ يَطْلُبُونَ مِنْهُ دَوَاءً لِأَبْنَائِهِمْ أَوْ لِبَعْضِ الْمَرْضَى ، فَتَمَكَّنَتْ

(١) نيف الشيء على كذا : زاد ، يريد خمسين وزيادة (٢) تبعده ، إذ لا يطيق النظر اليها

زَوْجَتُهُ بِذَلِكَ مِنَ الدُّخُولِ فِي تِلْكَ الْمَسَاكِنِ حَيْثُ قُوبِلَتْ بِالشُّكْرِ وَالامْتِنَانِ وَعَادَتْ مُقْشَعِرَّةً مِنْ تَعَسِ مَاهُمْ فِيهِ ، وَعَلَى الْخُصُوصِ مِنْ إِهْمَالِ الأَطْفَالِ وَعَدَمِ الِاعْتِنَاءِ الْكُلِّي بِمَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ مِنَ الأَوَّلِيَّاتِ كَالنَّظَافَةِ وَمُرَاعَاةِ الصِّحَّةِ . وَكَانَ مِنْ أَوَّلِ احْتِفَائِهَا بِهِمْ أَنْ وَزَّعَتْ عَلَيْهِمِ الْمَلَابِسَ عَلَى شَرْطِ الِاعْتِنَاءِ بِهَا ، وَأَنْ يُنَظِّفَ الأَطْفَالُ وَتُمَشَّطَ شُعُورُهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، ثُمَّ جَعَلَتْ لَهُمْ فِي أَزْمَانٍ مَعْلُومَةٍ طَعَامًا خَفِيفًا وَقْتَ الْعَصْرِ يَجْتَمِعُ حَوْلَهُ أَبْنَاءُ الْعَمَلَةِ كُلُّهُمْ ، وَاشْتَرَطَتْ أَلَّا يَحْضُرَهُ إِلَّا مَنْ حَسُنَتْ هَيْئَتُهُ . وَبِذَلِكَ ازْدَادَ الِاجْتِمَاعُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَتَمَّ تَنْفِيذُ هَذَا الْقِسْمِ مِنْ مَشْرُوعِ صَاحِبِنَا عَلَى مَا يَنْبَغِي .

وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ خُطْوَةٍ نَحْوَ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ وَلَمْ تَكُنْ حَالَةُ مَا حَوْلَ الْمَسَاكِنِ بِأَحْسَنَ مِمَّا شَرَحْنَاهُ عَنْهَا ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ رَذَاذًا (١) اخْتَرَقَتِ الْمِيَاهُ الطَّرِيقَ فَصَارَ وَحِلًا وَهُوَ مَرْمَى الأَقْذَارِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَأُؤَكِّدُ أَنَّهُ كَانَ يَحْتَوِي عَلَى كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَوْسَاخِ أَخَسِّ الآدَمِيِّينَ . وَلَمْ يَمْضِ شَهْرٌ إِلَّا وَقَدْ أُصْلِحَ الطَّرِيقُ وَفُرِشَ بِالْحِجَارَةِ وَارْتَفَعَ عَنْ مُسْتَوَى الأَرْضِ وَاتُّخِذَ عَلَى جَانِبَيْهِ قَنَاتَانِ لِتَصْرِيفِ الْمِيَاهِ ، وَزَرَعَ صَاحِبُنَا فِي مَدْخَلِهِ أَمَامَ الْمَسَاكِنِ صِنْفًا مِنَ الأَشْجَارِ النَّضِرَةِ ذَاتِ الأَزْهَارِ فَكَانَتْ تِلْكَ الأَشْجَارُ أَشْبَهَ بِدَرْسٍ فِي

(١) الرذاذ: المطر الضعيف

الأشياء لدلالته على أنه يجب الاعتناء أيضا بما حول المساكن كالاعتناء بها، ودلالته أشد فعلا فى النفوس من إلقاء النصح والإرشاد. ويظهر أن أولئك المساكين أدركوا هذه الحاجة فتعهد كثيرون منهم بسقيا الأشجار والاعتناء بها، نعم ذلك شىء يسير إلا أنه جعل فيهم همة وهيأ لهم عملا يرتاحون إليه، وهى فائدة كبرى. بقى الهجوم على أجحار[1] الوحوش التى يأوى إليها أولئك البائسون لجعلها بيوتا محترمة وترتيبها بحيث تنمى فى النفس قيمة الإنسان وتنبئه بكرامة المسكن الذى يتمكن صاحبه من الارتياح إليه والراحة فيه حتى تنبعث الهمة إلى ترتيبه وتجميله، وهنا محل الصعوبة كما لا يخفى، ولحسن الحظ حدث أن مدير المعمل تغير بمدير جديد، ومن رأى هذا الأخير إصلاح تلك المساكن وستكون هذه فرصة مناسبة تتيح[2] لصاحبنا أن يحمل أولئك السكان على تحسين مساكنهم، وقد وعد بأنه يراقب ذلك ويتتبع حالة العملة المذكورين فى التغيير والترقى ويساعدهم عليه جهده، ويسطر النتيجة التى يصل إليها. ولا يتيسر للإنسان أن يقف على مجرى الأحوال كما ينبغى إلا إذا انحصرت فى دائرة صغيرة تسهل مشاهدتها.

(١) جمع جحر، والكلام على التشبيه والاستعارة (٢) تهيىء

رُبّمَا يَخْطُرُ بِالْبَالِ أَنَّ أَكْبَرَ عَائِقٍ فِي تَرَقِّي الْعَمَلَةِ مِنْ حَالَتِهِمْ إِلَى أَحْسَنَ مِنْهَا هُوَ قِلَّةُ ذَاتِ[1] يَدِهِمْ إِلاَّ أَنَّ الْمُشَاهَدَاتِ لاَ تُؤَيِّدُ هَذَا الظَّنَّ لِأَنَّهُ يُوجَدُ بَيْنَ الْعَائِلاَتِ الَّتِي تَشْتَغِلُ فِي ذَلِكَ الْمَعْمَلِ وَاحِدَةٌ يُرَى أَنَّهَا أَشَدُّهُمْ بُؤْسًا فَمَسْكَنُهَا أَسْحَقُ[2] الْمَسَاكِنِ وَأَبْنَاؤُهَا السِّتَّةُ أَتْعَسُهُمْ حَالاً وَهِيَ مُفْلِسَةٌ عَلَى الدَّوَامِ لاَ تَفْتَأُ تَطْلُبُ مِنَ الْمُدِيرِ مُقَدَّمًا جُزْءًا مِنْ أَجْرِهَا، وَقَدْ أَثْقَلَتْهَا الدُّيُونُ وَحُجِزَ عَلَى قِسْمٍ مِنِ اسْتِحْقَاقِهَا. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَا هِيَ فِيهِ مِنَ الشِّدَّةِ أَنَّ الْمَرْأَةَ اشْتَغَلَتْ يَوْمًا فِي بَيْتِ صَاحِبِنَا فِي نَظِيرِ فَرَنْكَيْنِ فَطَلَبَتْهُمَا قَبْلَ أَنْ تُغَادِرَ[3] الْبَيْتَ وَقَالَتْ إِنَّهَا لاَ تَمْلِكُ فَلْسًا وَاحِدًا تَقْتَاتُ بِهِ وَزَوْجُهَا وَأَوْلاَدُهُمَا. فَمُخَاطَبَةُ مِثْلِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ فِي تَحْسِينِ مَسَاكِنِهِمْ تَظْهَرُ بَادِئَ ذِي[4] بَدْءٍ كَأَنَّهَا سُخْرِيَةٌ وَاسْتِهْزَاءٌ، إِذْ هُمْ لاَ يَكَادُونَ يُحَصِّلُونَ قُوتَ يَوْمِهِمْ.

لَكِنْ انْظُرْ إِذَنْ إِلَى الرَّاتِبِ الشَّهْرِيِّ الَّذِي تَأْخُذُهُ تِلْكَ الْعَائِلَةُ كَمَا هُوَ ثَابِتٌ فِي دَفْتَرِ الْمَعْمَلِ :—

(١) أى اقلالهم واقتارهم (٢) يريد أحقر المساكن من أسحق الثوب أخلق وبلى
(٣) تفارق (٤) أى أول الأمر

	فرنكاً
أُجْرَةُ الرَّجُلِ	٩٠
« الْمَرْأَةِ	٦٠
« الْوَلَدِ الْبِكْرِ وَعُمْرُهُ ١٩ سَنَةً	٧٠
« الْبِنْتِ الْبِكْرِيَّةِ وَعُمْرُهَا ١٨ سَنَةً	٣٠
الْمَجْمُوعُ	٢٥٠

فَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا أَنَّ تِلْكَ الْعَائِلَةَ الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْ ثَمَانِيَةِ أَشْخَاصٍ أَرْبَعَةٌ مِنْهُمْ قَادِرُونَ عَلَى الْعَمَلِ تَعِيشُ تَعِسَةً (١) فِي بِلَادِ الرِّيفِ بِأُجْرَةٍ قَدْرُهَا ثَلَاثَةُ آلَافٍ مِنَ الْفَرَنْكَاتِ فِي السَّنَةِ ، وَهِيَ لَا تَدْفَعُ مَعَ ذَلِكَ إِلَّا خَمْسِينَ فَرَنْكاً أُجْرَةَ مَسْكَنِهَا ، وَهُوَ مَنْزِلٌ وَبُسْتَانٌ يُمْكِنُهَا أَنْ تَزْرَعَ الْخُضَرَ فِيهِ . وَمِمَّا يَسْتَغْرِبُ لَهُ الْإِنْسَانُ فِي فَقْرِ تِلْكَ الْعَائِلَةِ الْمُدْقِعِ (٢) أَنَّهَا لَمْ تَخْلُ يَوْماً وَاحِداً عَنِ الْعَمَلِ ، وَمَضَى عَلَيْهَا خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً تَقْرِيباً وَهِيَ فِي خِدْمَةِ ذَلِكَ الْمَعْمَلِ ، نَعَمْ زَادَ حِمْلُهَا بِكَثْرَةِ أَوْلَادِهَا ، إِلَّا أَنَّ أَجْرَهَا زَادَ أَيْضاً عَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ.

وَلِبَيَانِ الْعِلَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ فِي حَالَةِ تِلْكَ الْعَائِلَةِ يَنْبَغِي أَنْ نُسَلِّمَ بِأَنَّ تِلْكَ الْمَسْأَلَةَ الِاجْتِمَاعِيَّةَ لَيْسَتْ مُنْحَصِرَةً فِي أُجُورِ الْفَعَلَةِ كَمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ (٣) بَلْ رَاجِعَةً أَيْضاً إِلَى سِيَرِ الْأَفْرَادِ وَأَخْلَاقِهِمْ .

(١) شقية (٢) فقر مدقع: أى ملصق بالدقعاء أى التراب (٣) أى الجمهور وأكثر الناس .

وَرُبَّما عُنِيتُ[١] بِهَذَا المَوْضُوعِ يَوْماً مَّا . إِذْ لَوْ كَانَ الأَمْرُ دَائِراً عَلى الأُجْرَةِ لَزَالَ الإِشْكَالُ ، وَانْجَلَى الْمُعَمَّى[٢] بِمَا نَرَاهُ مِنْ حَالِ تِلْكَ الْعَائِلَةِ ، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ ! وَإِنَّمَا السَّبَبُ فِي تَعَسِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ وَانْتِشَابِ[٣] مَخَالِبِ الْفَقْرِ فِيهِمْ هُوَ سُوءُ سَيْرِهِمْ وَعُكُوفُهُمْ عَلَى الْمُسْكِرَاتِ ، إِذْ هِيَ مُنْتَشِرَةٌ بَيْنَهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يُظَنُّ . وَفِي مِيزَانِيَةِ الْفَعَلَةِ خُرُوقٌ[٤] تَذْهَبُ مِنْهَا الأُجُورُ كَمَا هِيَ فِي مِيزَانِيَةِ الأَوَاسِطِ مِنَ النَّاسِ :

يَعِيشُ الرَّجُلُ الْوَسَطُ مَعِيشَةً ضَيِّقَةً لِيَتَمَكَّنَ مِنْ إِرْضَاءِ شَهَوَاتِهِ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمَلْبَسِهِ وَإِعْدَادِ بَيْتِهِ لِلاسْتِقْبَالِ أَوْ لِيَدَّخِرَ الْمَالَ لِبَنِيهِ ، وَالْفَاعِلُ يَعِيشُ مُقَتِّرًا لِيَتَأَتَّى لَهُ الصَّرْفُ فِي أُمُورٍ غَيْرِ مُفِيدَةٍ أَوْ هُزْئِيَّةٍ[٥] أَوْ مَمْقُوتَةٍ[٦] وَالَّذِي يُعْوِزُهُمَا[٧] مَعاً إِنَّمَا هُوَ حُسْنُ السَّيْرِ لَا قِلَّةُ الْمَالِ . وَأَعْظَمُ طُرُقِ اسْتِعْمَالِ الْمَالِ فَائِدَةً هُوَ اتِّخَاذُ مَسْكَنٍ مَقْبُولٍ تَوَافَرَتْ فِيهِ أَسْبَابُ الرَّاحَةِ عَلَى قَدْرِ الإِمْكَانِ . وَكُلُّ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ رَاجِعٌ إِلَى بَيَانِ ذَلِكَ . وَالصَّرْفُ فِي هَذَا السَّبِيلِ هُوَ فِي الْوَاقِعِ اسْتِغْلَالٌ بِرِبْحٍ عَظِيمٍ ، لِأَنَّهُ فَضْلاً عَنْ كَوْنِهِ يَثْنِي[٨] صَاحِبَهُ عَنِ

(١) اهتممت واعتنيت (٢) الغامض (٣) يقال أنشب الفقر مخالبه فى فلان من نشب الشىء فى الشىء علق فيه ، والكلام استعارة (٤) ثقوب (٥) يريد غير جدية ليست من قوام العيش (٦) مكروهة يريد محرمة (٧) أعوزه الشىء: إذا احتاج إليه (٨) يصرف ويعدل به عنه

الصَّرْف فِى أُمُورٍ كَثِيرَةٍ لاَ فَائِدَةَ مِنْهَا، فَهُوَ يُنْمِى فِيهِ شُعُورَهُ بِمَكَانَتِهِ وَ بِاسْتِقْلاَلِهِ وَمَيْلِهِ إِلَى الْعَمَلِ وَاسْتِعْدَادِهِ لِلارْتِقَاء.

كُلُّ مَنْ تَوَافَرَتْ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ الْأَسَاسِيَّةُ يَكُونُ قَدْ تَوَصَّلَ، بِالنَّظَرِ لِذَاتِهِ، إِلَى حَلِّ الْمَسْأَلَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَصَارَ مَالِكاً لِنَفْسِهِ مُسْتَقِلاًّ عَنِ الْآخَرِينَ.

البَابُ الثَّالِث

﴿ الْفَرَنْسَاوِىُّ وَالْإِنْكِلِيزِىُّ السَّكْسُونِىُّ فى الْمَعِيشَةِ الْعُمُومِيَّةِ ﴾

يُوجَدُ بَيْنَ الْفَرَنْسَاوِىِّ وَالْإِنْكِلِيزِىِّ السَّكْسُونِىِّ فِى الْمَعِيشَةِ الْعُمُومِيَّةِ مِنَ الْفَرْقِ مَا شَاهَدْنَاهُ بَيْنَهُمَا فى الْمَدْرَسَةِ وَفى الْمَعِيشَةِ الْخُصُوصِيَّه، وَقَدْ خَصَّصْنَا الْبُحُوثَ الْآتِيَةَ لِبَيَانِ ذَلِكَ، وَأَظُنُّ أَنَّنَا نَكُونُ حِينَئِذٍ قَدْ أَتَيْنَا عَلَى ذِكْرِ أَهَمِّ الْأَسْبَابِ الَّتِى تَجْعَلُ الْإِنْكِلِيزِىَّ السَّكْسُونِيَّ فِى جَمِيعِ طَبَقَاتِ الْهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ أَرْقَى مِنْ غَيْرِهِ ارْتِقَاءً يُمَكِّنُهُ مِنَ النَّصْرِ فِى التَّزَاحُمِ فى الْحَيَاةِ، وَنَكُونُ أَيْضاً بَيَّنَّا السَّبِيلَ الَّذِى يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَسِيرَ فِيهِ لِكَىْ نُقَاوِمَ انْتِشَارَ ذَلِكَ الْجِنْسِ الَّذِى يَتَهَدَّدُ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ.

الفصل الأول

أَهْلُ السِّيَاسَةِ فى فَرَنْسَا وَفى إنـكلترا

إذَا أَخَذْنَا بالظَّوَاهِرِ رَأَيْنَا الْمجَالِسَ النِّظَامِيَّةَ التَّشْرِيعِيَّةَ وَاحِدَةَ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ إلاَّ اخْتِلَافاً يسيراً ، فَالْمُتفرِّجُ الَّذِى يُشَاهِدُ مجالِسَ النُّوَّابِ فى المَانْيَا وَانْـكِلْترَا وَإيتَالْيَا وَفَرَنْسَا يَتَأَثَّرُ تَأَثُّراً وَاحِدًا تقريباً، وَإذَا حكِمَ بِمُقْتَضَى هذَا الشُّعُورِ قَضَى بأَنَّ حُكُومَاتِ تِلْكَ الْبِلَادِ مُتَشَابِهَةٌ ، وَأَنَّ نِظَامَ مَجَالِسِهَا النِّيَابِيَّةِ يَكَادُ يَكُونُ وَاحِدًا ؛ وَأَنَّ الْخُلْفَ[1] نَاشِئٌ عَلَى الْخُصُوصِ مِنْ جِهَةِ تَـكْوِينِ الْأَحْزَابِ وَعَدَدِ رِجَالِ كلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا .

(هَذَا مَا ظَهَرَ وَلَـكِنْ بَقِيَ مَا اسْتَتَرَ) كما يَقُولُ (بَاسْتِيَا) وَمَا اسْتَتَرَ هُوَ الَّذِى يُهِمُّنَا كَشْفُ الْقِنَاعِ عَنْهُ[2]

إنَّ الَّذِى احْتَجَبَ عَنِ الْأَبْصَارِ — لِأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يُدْرَكُ بالأَعْيُنِ عَادَةً — هُوَ طَبَقَاتُ الْهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي يُنْتَخَبُ مِنْهَا النَّائِبُونَ عَنِ الأُمَمِ ، وَنِسْبَةُ عَدَدِ الْمُنْتَخَبِينَ مِنْ كلِّ طَبَقَةٍ وَطَائِفَةٍ إلَى الآخَرِينَ .

وَلَاشَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الْبَحْثَ يُؤَدِّى إلَى مَعْلُومَاتٍ مُهِمَّةٍ فى مَوْضُوعِنَا .

---

(١) الاختلاف (٢) يريد الذى يهمنا إيضاحه

فمنَ الْبَديهِىّ أنَّ لِصناعةِ الرَّجُلِ الَّتى احْترفَ بهَا تأْثيرًا فِي أفكارِهِ وقابليتِهِ لهذَا الْعملِ دُونَ ذاكَ، وَفى كيفيةِ نظرِهِ فى الأُمُورِ والأَحْوَالِ. ولِكُلِّ طبقةٍ مِنَ الزُّرَّاعِ والتُّجَّارِ وأَهْلِ الصِّنَاعةِ والأَطِبَّاءِ والمُحَامينَ والْجُنْدِ والمُوظَّفِينَ نَشْأَةٌ خاصةٌ بِهَا، وكلُّهمْ لاَ يرَوْنَ الشَّىْءَ الْوَاحِدَ مِنَ الْجهَةِ الْوَاحِدَةِ، وكلُّهمْ لاَ ينُوبُونَ عَنِ الْمنَافِعِ بعَيْنِهَا. ثُمَّ إنَّ تلْكَ الْمنَافعَ لَيْستْ مُتَسَاويةً مِنْ جهةِ ضَرُورتِهَا فِي الأُمَّةِ بَلْ بعْضُهَا أَهمُّ مِنَ الْبعْضِ. وعَلى كلِّ حالٍ فإنَّهَا ليْستْ مُعْتبَرةً بدرَجةٍ واحِدةٍ عِنْدَ النَّاسِ، وقدْ تخْتلِفُ بلْ رُبَّمَا تعارَضتْ.

نَتجَ منْ هذَا أنَّ عَناصرَ النِّيَابَةِ المِلِّيَّةِ(١) تتغيَّرُ تغيُّرًا عظِيمًا تبعًا لِحالَةِ الأُمَّةِ وباعْتبَارِ أنَّ أهْلَ هَذهِ الطَّائفةِ أَهمُّ مِنْ أَهْلِ تلكَ وأَرْفعُ قدْرًا أَوْ أَشدُّ بأْسًا. ويَنتجُ منْ ذلكَ أيضًا أنَّ المَجَالِسَ النِّيَابيَّةَ لاَ تبقَى على حَالٍ واحِدٍ فى أعْمَالِهَا ونظرِهَا فى مَصالِحِ الأُمّةِ بَلْ تتغيَّرُ نزعَاتُهَا وتخْتلِفُ آرَاؤُهَا تبعًا لِرأْىِ الْفَرِيقِ الَّذِى يَسُودُ الْبقيَّةَ مِنْ أَعضَائِهَا.

ولْنُبَيِّنْ مَا نقُولُ ببيان كَيْفيَّةِ تَشْكِيل مَجْلِس النُّوَّابِ عِنْدَنا.

ولاَ يَغيبَنَّ عَنْ ذِهْنِ الْقُرَّاءِ أنِّى مَا وصَلْتُ إلى معْرفةِ عنَاصِر ذَلكَ المَجْلِسِ إلاَّ بعْدَ الْجهْدِ والْعنَاءِ، إذْ لَمْ يَسْبقْنِى أحدٌ إلى ذلكَ الْبيَانِ،

(١) الملية: نسبة للملة وهي الطريقة أو الشريعة فى الدين، ولعله يريد هنا الشعبية

فَأَلْجَأَتْنِى ضَرُورَةُ الْبَحْثِ إِلَى النَّظَرِ فِى مَاضِى كُلِّ نَائِبٍ عَلَى حِدَتِهِ وَمَعْرِفَةِ مَا امْتَازَ بِهِ عَنْ إِخْوَانِهِ وَتَقْسِيمِهِمْ جَمِيعاً بِحَسَبِ صِنَاعَاتِهِمْ وَحِرَفِهِمْ .

وَقَبْلَ أَنْ نُورِدَ ذَلِكَ التَّقْسِيمَ نُلَاحِظُ أَنَّنَا لَمْ نَجِدْ حِرْفَةً يَدْخُلُ فِيهَا ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ عُضْواً لِأَنَّنَا لَمْ نَهْتَدِ لَهُمْ إِلَى طَائِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ يُمْكِنُ إِلْحَاقُهُمْ بِهَا ، فَمِنْهُمْ سِتَّةٌ مِنَ الْعَمَلَةِ رُبَّمَا صَحَّ إِلْحَاقُهُمْ بِصَفِّ أَرْبَابِ الصُّحُفِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَعَذَّرَ الْوُصُولُ إِلَى مَعْرِفَةِ حَالِهِمْ . عَلَى أَنَّ هَذَا النَّقْصَ الْجُزْئِيَّ لَا يُؤَثِّرُ شَيْئاً فِى التَّقْسِيمِ الْعَامِّ ، كَذَلِكَ لَمْ يَتَغَيَّرْ ذَلِكَ التَّقْسِيمُ فِى الْمَجْلِسِ الْجَدِيدِ الَّذِى انْتُخِبَ أَعْضَاؤُهُ بَعْدَ نَشْرِ هَذَا الْمَبْحَثِ إِلَّا يَسِيرًا ، بَلْ إِنَّ النُّوَّابَ مِنْ أَرْبَابِ الْحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ زَادُوا فَبَلَغُوا ٢٨٦ بَعْدَ أَنْ كَانُوا ٢٧٠ نَائِبًا .

﴿ جَدْوَلُ تَقْسِيمِ مَجْلِسِ النُّوَّابِ الفَرَنْسَاوِيِّ ﴾

مهنة	حزب الشمال	حزب اليمين	الجملة	الجملة العمومية	إجمال	
مُلَّاكُ أطْيَانٍ	٠٨	١٧	٢٥	٧٥	أهل الفلاحة	٧٥
زَرَّاعُونَ	١٣	٣٧	٥٠			
صُنَّاعٌ	٢٧	١٤	٤١	٤١	أهل الصناعة	٤١
تُجَّارٌ	١٤	٠٣	١٧			
أَرْبَابُ بُيُوتٍ مَالِيَّةٍ (بنوكه)	٠٢	٠٣	٠٥	٢٢	أهل التجارة	٢٢
أَعْضَاءُ جَمْعِيَّةِ المَعَارِفِ	١٢	٠٠	١٢			
أَطِبَّاءُ	٤٧	٠٣	٥٠			
صَيْدَلِيُّونَ	٠٣	٠٠	٠٣			
مُهَنْدِسُونَ مَلَكِيُّونَ	٠٥	٠٢	٠٧			
أَرْبَابُ جَرَائِدَ	٥٤	٠٥	٥٩	٥٩	أهل الحرف الادبية	٢٧٠
مُدَرِّسُونَ فِي عِلْمِ الْحُقُوقِ	٠٥	٠١	٠٦			
مُوَثِّقُونَ	١٤	٠٣	١٧	١٣٩		
وُكَلَاءُ الدَّعَاوَى	٠٩	٠٠	٠٩			
مُحَامُونَ	٨١	٢٦	١٠٧			
رُوحَانِيُّونَ	٠١	٠١	٠٢	٢	أهل الدين	٢
ضُبَّاطٌ بَرِّيُّونَ	٠١	٠٢	٠٣	٦	أهل السيف	٦
ضُبَّاطٌ بَحْرِيُّونَ	٠٠	٠٣	٠٣			
قُضَاةٌ	١٢	١١	٢٣	٩٥	أهل الوظائف الادارية	٩٥
مُوَظَّفُونَ	٣٩	٣٣	٧٢			
بِدُونِ حِرْفَةٍ	٢٢	٢١	٤٣	٤٣	بدون حرفة	٤٣

وَلْنُتَرْجِمْ عَنْ هَذَا التَّقْسِيمِ بِشَكْلٍ مَادِّيٍّ لِيَتَمَكَّنَ الْقَارِئُ مِنَ الْإِحَاطَةِ بِحَقِيقَةِ النِّيَابَةِ الْمِلِّيَّةِ تَمَامًا وَتَنْجَلِيَ النِّسْبَةُ بَيْنَ الطَّوَائِفِ وَالطَّبَقَاتِ . وَقَدْ وَضَعْنَا الْجَدْوَلَ الآتِيَ لِذَلِكَ وَقَسَّمْنَاهُ بِخُطُوطٍ عَمُودِيَّةٍ جَعَلْنَاهَا نُقَطًا ، وَالأَرْقَامُ الَّتِي فِيهَا تَدُلُّ عَلَى عَدَدِ النُّوَّابِ .

وَالَّذِي يَلْفِتُ النَّظَرَ أَوَّلًا فِي هَذَا الْجَدْوَلِ هُوَ عَدَمُ انْتِظَامِهِ النَّاشِيءِ مِنْ فَقْدِ التَّنَاسُبِ فِقْدَانًا تَامًّا بَيْنَ الأَعْدَادِ الدَّالَّةِ عَلَى الطَّوَائِفِ، وَثَانِيًا هُوَ أَنَّ نَصِيبَ الْحِرَفِ الْعَامَّةِ وَهِيَ الزِّرَاعَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ مِنْ ذَلِكَ الْعَدَدِ قَلِيلٌ ، وَأَنَّ الْحَظَّ الأَوْفَرَ فِي النِّيَابَةِ عَنِ الأُمَّةِ لِأَرْبَابِ الْحِرَفِ الأَدَبِيَّةِ وَمُوَظَّفِي الْحُكُومَةِ . وَتَتَبَيَّنُ أَهَمِّيَّةُ هَذَيْنِ الأَمْرَيْنِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ إِذَا قُورِنَ بَيْنَ تَشْكِيلِ مَجْلِسِ نُوَّابِنَا وَمَجْلِسِ نُوَّابِ إِنْكِلْتِرَا . وَقَدْ وَضَعْنَا جَدْوَلًا ثَانِيًا لِبَيَانِهِ ، وَلَوْ أَنَّنَا أَدْخَلْنَا فِي هَذَا الْجَدْوَلِ أَعْضَاءَ مَجْلِسِ اللُّورْدَاتِ لَزَادَ عَدَدُ النُّوَّابِ مِنْ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ كَثِيرًا ، لِأَنَّ هَذَا الْمَجْلِسَ مُؤَلَّفٌ كُلُّهُ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ إِلَّا قَلِيلًا . أَمَّا مَجْلِسُ السِّنَاتُو « الأَعْيَانِ » فِي فَرَنْسَا فَإِنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ كَثِيرًا فِي تَشْكِيلِهِ عَنْ مَجْلِسِ نُوَّابِهَا ، وَقَدْ كَتَبَ مُوسْيُو « تَايِنْ » كَلَامًا مُفِيدًا جِدًّا أَثْبَتَ فِيهِ أَنَّ الإِنْكِلِيزَ يَرَوْنَ أَنَّ النِّيَابَةَ الطَّبِيعِيَّةَ عَنْهُمْ رَاجِعَةٌ إِلَى أَهْلِ الزِّرَاعَةِ فَمَالُوا إِلَى انْتِخَابِهِمْ « رَاجِعْ كِتَابَ مُذَكَّرَاتٍ عَلَى انْكِلْتِرَا صَحِيفَةَ ٢١٦ إِلَى ٢٢٤ »

تشكيل مجلس النواب فى فرنسا

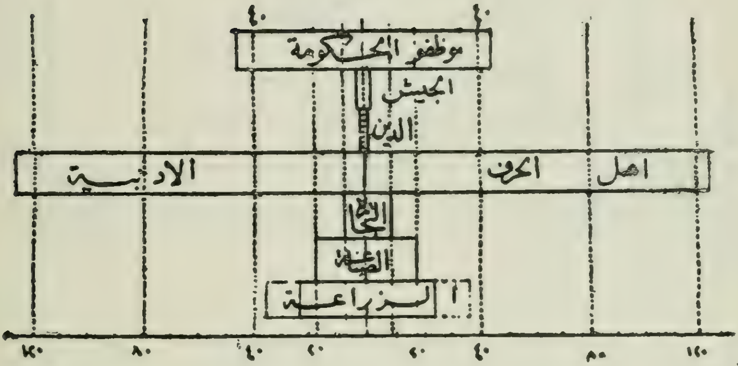

وَبِهَذَا الْجَدْوَلِ يُمْكِنُنَا أَنْ نَنْظُرَ إِلى جَمِيعِ الْحِرَفِ الَّتِى يَتَأَلَّفُ مِنْهَا مَجْلِسُ نُوَّابِنَا نَظْرَةً وَاحِدَةً. وَلْنُفْرِدِ الْكَلَامَ عَلى كُلِّ حِرْفَةٍ مِنْهَا:

يَرَى الْمُطَّلِعُ على هذَا الشَّكْلِ الَّذِى يُشْبِهُ الْهَرَمَ أَنِّى وَضَعْتُ الزِّرَاعَةَ وَالصِّنَاعَةَ وَالتِّجَارَةَ فى أَسْفَلِهِ لأَنَّهَا الأَسَاسُ الأَوَّلُ فَهِىَ الَّتِى يُحَصِّلُ الْمَرْءُ بِوَاسِطَتِهَا عَيْشَهُ الْيَوْمِىَّ وهِىَ الَّتِى تَقُومُ بِهَا جَمِيعُ الأَعْمَالُ الأُخْرَى وَهِىَ الَّتِى إِذَا اعْتَلَّتْ أَصْبَحَ جِسْمُ الأُمَّةِ سَقِيمًا وَإِنْ بَادَتْ بَادَ مَعَهَا كما يَنْعَدِمُ الْجِسْمُ الإِنْسَانِيُّ لِقِلَّةِ الْغِذَاءِ.

تشكيل مجلس النواب فى انكلترة

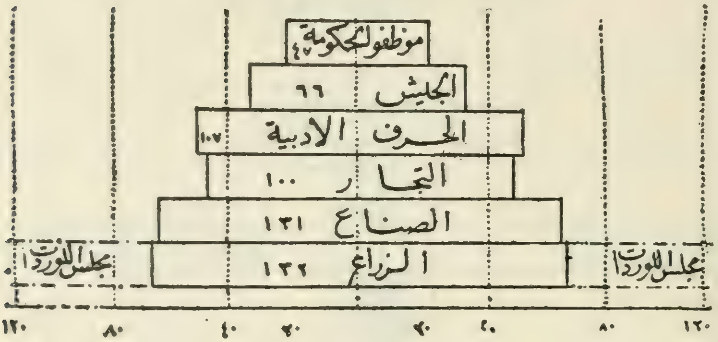

وَقَدْ يَتَصَوَّرُ الإِنْسَانُ أَنَّ أُمَّةً تَعِيشُ بِدُونِ مُحَامِينَ وَأُصُولِيِّينَ وَوُكَلَاءِ دَعَاوَى وَأَطِبَّاءَ وَمُوَظَّفِينَ وَلَكِنَّهُ لَا يُسَلِّمُ أَنْ تَعِيشَ أُمَّةٌ بِغَيْرِ زُرَّاعٍ يُنْتِجُونَ لَهَا مَادَّةَ غِذَائِهَا الأُولَى وَصُنَّاعٍ يَصْنَعُونَ حَاجَاتِهَا الَّتِي لَابُدَّ مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ وَتُجَّارٍ يُوَزِّعُونَ هَذَا وَذَاكَ فِي الْأَمَاكِنِ الْمُحْتَاجَةِ إِلَيْهَا .

وَجَدْوَلُنَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النِّيَابَةَ عَنِ الْحِرَفِ الثَّلَاثِ الأَوَّلِيَّةِ قَلِيلَةٌ جِدًّا، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَخْلُو مِنَ الْخَطَرِ بِذَاتِهِ ، وَيَظْهَرُ لَنَا الْخَطَرُ عَظِيمًا إِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ فِي كُلِّ حِرْفَةٍ عَلَى حِدَتِهَا :—

أَمَّا الزِّرَاعَةُ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْأَسَاسَ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ مَا عَدَاهُ لِأَنَّهَا أَشَدُّ لُزُومًا فِي الأُمَّةِ مِنَ الصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ لَا لِمُجَرَّدِ

أَنَّهَا هِيَ الْقَائِمَةُ بِأَمْرِ الْحَيَاةِ مُبَاشَرَةً بَلْ لِكَوْنِهَا أَيْضًا أَقْدَمَ مِنْ جَمِيعِ الْحِرَفِ وَأَثْبَتَهَا قَدَمًا ، وَثَبَاتُهَا مِنْ ثَبَاتِ الْأَرْضِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّهَا ، وَلَا يَعْتَرِيهَا التَّغَيُّرُ الْفُجَائِيُّ الْكُلِّيُّ كَمَا يَعْتَرِي الصِّنَاعَةَ وَالتِّجَارَةَ . فَالزِّرَاعَةُ مُسْتَقِرَّةٌ إِلَى حَدٍّ أَنَّهَا صَارَتْ طَبِيعِيَّةً فِي الْأُمَمِ ، لِذَلِكَ قِيلَ فِي الزُّرَّاعِ : هَكَذَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا ! وَاسْتِقْرَارُهَا يَجْعَلُهَا الْأُسَّ (١) الْمَتِينَ فِي الْأُمَّةِ لِأَنَّهَا تَجْذِبُ قِسْمًا مِنْهَا وَتَجْعَلُهُ مُلْتَصِقًا بِالْبِلَادِ مُتَمَسِّكًا بِتَقَالِيدِهَا ، وَقَلَّمَا تَجِدُ النِّظَامَ وَالدَّوَامَ عِنْدَ غَيْرِ الزَّرَّاعِينَ . وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الْعُنْصَرَ الَّذِي بِهِ حَيَاةُ الْأُمَّةِ لَا يُوجَدُ فِي مُقَدِّمَةِ النِّيَابَةِ الْمِلِّيَّةِ عِنْدَنَا عَلَى نِسْبَةِ مَا لَهُ مِنَ الْأَهَمِّيَّةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، فَمَا عَدَدُ الزُّرَّاعِ فِي مَجْلِسِ النُّوَّابِ إِلَّا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ وَهُوَ قَلِيلٌ جِدًّا بِجَانِبِ الْمِائَتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَهَذَا الْعَدَدُ عَلَى قِلَّتِهِ يَجِبُ تَنْقِيصُهُ إِذَا لُوحِظَ أَنِّي أَدْخَلْتُ فِيهِ أَصْحَابَ الْأَرَاضِي الَّذِينَ لَا يَحْتَرِفُونَ بِحِرْفَةٍ مَا ، وَلَيْسُوا كُلُّهُمْ مُشْتَغِلِينَ بِالزِّرَاعَةِ أَوْ مُهْتَمِّينَ لَهَا بِأَكْثَرَ مِنْ مَدِّ الْيَدِ لِتَنَاوُلِ الْإِيرَادِ أَوِ الصِّيَاحِ مِنْ سُوءِ الْحَالِ وَالْكَسَادِ .

وَمِنْ أُولَئِكَ النُّوَّابِ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ لَا يَصْدُقُ عَلَيْهِمْ مِنَ الزِّرَاعَةِ إِلَّا تَسْمِيَتُهُمْ بِالزُّرَّاعِ لِأَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ فِي بَارِيسَ طُولَ السَّنَةِ وَلَا

---

(١) الأساس

يُقِيمُونَ فِي الرِّيفِ إِلاَّ يَسِيراً وَيَرْتَبِكُونَ فِي جَوَابِ مَنْ يَسْأَلُهُمْ عَنْ حَرَكَةِ الزِّرَاعَةِ وَأَحْسَنِ الطُّرُقِ فِيهَا وَمِقْدَارِ مَا يُنْتِجُهُ (الْهِكْتَار) وَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْفَعَةِ السَّمَادِ الْمُعْتَادِ وَالسَّمَادِ الْكِيمِيَائِي وَطَرِيقَةِ صُنْعِهِ وَهَكَذَا . وَلِهَذَا رَأَيْتُ مِنَ الْوَاجِبِ تَمْيِيزَهُمْ بِعَلاَمَةٍ مَخْصُوصَةٍ حَتَّى يَكُونَ التَّقْسِيمُ مُطَابِقاً لِلْوَاقِعِ . فَدَلَلْتُ عَلَى نِسْبَتِهِمْ بِخَطٍّ مِنَ النُّقَطِ .

إِذَنْ لاَ يُوجَدُ فِي مَجْلِسِ النُّوَّابِ مِنْ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ الْحَقِيقِيِّينَ إِلاَّ خَمْسُونَ عُضْوًا ، وَمَعَ ذَلِكَ لَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ هَذَا الاِسْمَ جَمِيعاً وَالأَوْلَى أَلاَّ تُدَقِّقَ الْبَحْثَ فِيهِمْ

وَلَيْسَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْمِهْنَةُ عَلَى مَا قَدْ عَلِمْتَ مِنَ الأَهَمِّيَّةِ لِمَا يَرْتَبِطُ بِهَا مِنَ الْمَنَافِعِ الْعُمُومِيَّةِ وَلِكَثْرَةِ عَدَدِ الْمُحْتَرِفِينَ بِهَا ، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا عَدَدَ النَّائِبِينَ عَنْهَا ، وَلاَبُدَّ لِهَذَا التَّبَايُنِ فِي النِّسْبَةِ مِنْ مُؤَثِّرٍ قَوِيٍّ قَدِيمِ الْعَهْدِ نَشَأَ عَنْهُ عِنْدَنَا هَذَا الأَثَرُ الَّذِي لاَ يُشَاهَدُ مِثْلُهُ فِي الأُمَمِ الأُخْرَى وَلاَ أَرَاهُ إِلاَّ هَرَبَ كِبَارِ أَصْحَابِ الأَطْيَانِ مِنَ الزِّرَاعَةِ وَهَجْرَهُمُ الرِّيفَ بِسُكْنَى الْمُدُنِ وَقَدْ بَدَأَ بِهَذِهِ الهِجْرَةِ مُنْذُ قَرْنَيْنِ الْعَدَدُ الْعَدِيدُ مِنَ الأَشْرَافِ أَصْحَابِ الأَرَاضِي الْوَاسِعَةِ وَتَكَاثَفُوا بَيْنَ جُدْرَانِ مَدِينَةِ « فِرْسَاى » حَيْثُ أَصْبَحُوا

حَاشِيَةً لِلْمَلِكِ وَأَتْبَاعًا فى مَعِيَّتِهِ ، وَاتَّبَعَهُمْ فِي ذَلِكَ أَوَاسِطُ أَرْبَابِ الْأَمْلَاكِ مِنْ أَهْلِ الرِّيفِ .

لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ أُهْمِلَتْ فِيهِ الزِّرَاعَةُ وَاحْتُقِرَ الْاِحْتِرَافُ بِهَا مِثْلَ مَا أُهْمِلَتْ وَاحْتُقِرَتْ فِى فَرَنْسَا ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَرْضَى أَنْ يَكُونَ ابْنُهُ زَرَّاعًا إِلَّا إِذَا رَآهُ لَا يَلِيقُ لِلاحْتِرَافِ بِغَيْرِهَا ، وَأَصْبَحَتْ مَعِيشَةُ الْمَرْءِ فِى أَرْضِهِ أَشَدَّ وَقعاً عَلَى النُّفُوسِ مِنْ أَتْعَسِ الْمَنَافِى[1] ، وَقَدْ يُفَضِّلُ الْفَرَنْسَاوِىُّ وَظِيفَةً فِى « برسلونيت » عَلَى الْمَعِيشَةِ فِى أَرْضِهِ الَّتِي يَمْلِكُهَا ، وَأَرَادَتِ الْجَرَائِدُ الْجُمْهُورِيَّةُ سَنَةَ ١٨٧١ أَنْ تَحُطَّ مِنْ مَنْزِلَةِ بَعْضِ أَعْضَاءِ الْجَمْعِيَّةِ الْمِلِّيَّةِ الْعُمُومِيَّةِ فَاكْتَفَتْ بِأَنْ وَصَفَتْهُمْ بِأَنَّهُمْ « رِيفِيُّونَ »

أَصْبَحَ التَّبَاعُدُ عَنِ الزِّرَاعَةِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا أَمْرًا عَادِيًّا عِنْدَنَا ، حَتَّى إِنَّ قَسًّا مِنْ قُسُوسِ بَارِيسَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لِأَحَدِ أَصْدِقَائِى وَكَانَ مِنْ سُكَّانِ وِلَايَتِهِ : (كَيْفَ تُكَلِّفُ نَفْسَكَ أَنْ تَعِيشَ فِى الرِّيفِ ، وَفِى إِمْكَانِكَ مَعَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سَعَةِ الْمَالِ أَنْ تَعِيشَ عِيشَةً رَاضِيَةً فِى بَارِيسَ ؟)

إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ مِمَّا تَقَرَّرَ فِى الْأَذْهَانِ حَتَّى عِنْدَ أَعْظَمِ

(١) جمع منفى

الرِّجَال كمالاً وَوَقارًا ، لَمْ يَعُدْ مِنَ الْمُسْتَغْرَب أَنْ تفقدَ النِّسْبَةُ بَيْنَ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ وَبَيْنَ عَدَدِ النَّائِبِينَ عَنْهُمْ فِي مَجْلِسِ النُّوَّاب ، وَلاَ أَنْ يَنُوبَ عَنْهُمْ مَنْ كَانَ أَقَلَّهُمْ جَدَارَةً وَاسْتِعْدَاداً . وَلاَ حَقَّ لِأَرْبَابِ الْأَمْلاَكِ الْوَاسِعَةِ أَنْ يَلُومُوا إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ عَلَى سُقُوطِ اعْتِبَارِهِمْ عِنْدَ الْمُنْتَخِبِينَ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ عَلَيْهِمْ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأَطِبَّاءِ وَالْمُوَثِّقِينَ وَوُكَلاَءِ الدَّعَاوَى وَالْمُحَامِينَ كما سَنُبَيِّنُهُ .

لَسْتُ أَنْسَى حَادِثَةً شَهِدْتُهَا فِي مَجْلِسِ « لاَ بْلِي » وَهِيَ أَنَّهُ جَاءَهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي لِلانْتِخَابَاتِ الْعُمُومِيَّةِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَاب الْأَمْلاَكِ الْوَاسِعَةِ فِي إِقْلِيمِ « صَانْتَر » وَشَكَا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ الانْتِخَابَ لَمْ يُصِبْهُ وَكَانَ يَتَأَلَّمُ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ وَأَبَاهُ مِنْ قَبْلِهِ وَجَدَّهُ كَانُوا نُوَّابًا عَنْ أَهْلِ نَاحِيَتِهِمْ ، وَصَارَ يَصْخَبُ[1] وَيُفَوِّقُ[2] سِهَامَ الْمَلاَمِ عَلَى الْمُنْتَخِبِينَ ، وَيَنْدُبُ فَسَادَ الْأَفْكَارِ وَانْتِشَارَ مَبَادِىءِ الثَّوْرَةِ[3] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَال ، فَقَاطَعَهُ « لاَ بْلِي » سَائِلاً : (سَيِّدِي الْكُونْت : أَيْنَ كَانَ يَسْكُنُ جَدُّكُمْ ؟ قَالَ : فِي أَرْضِهِ وَكَانَ لاَ يَأْتِي بَارِيسَ إِلاَّ نَادِرًا ، قَالَ : وَأَيْنَ كَانَ يُقِيمُ وَالِدُكُمْ ؟ قَالَ لَمَّا تَزَوَّجَ أَبِي اتَّخَذَ مُقَامَهُ الْحَقِيقِيَّ فِي بَارِيسَ ، وَأَيْنَ تُقِيمُونَ ؟ قَالَ : وَأَنَا كَذَلِكَ

(١) يصيح صياحا شديدا (٢) فوق السهم وضع فوقته فى الوتر ليرمى به ، والـكلام على التشبيه والمراد لام لوما شديدا (٣) المراد الخروج على التقاليد التى يجب أن تتبع

فَقَالَ لَهُ « لاَ بْلِي » وَقَدْ أَخَذَ فِى كَلاَمِهِ مَا كَانَ يُعْرَفُ عَنْهُ مِنِ انْبَهَارِ مُخَاطِبِهِ أَحْيَانًا : إِذَنْ لاَ حَقَّ لَكَ فِى شَكْوَاكَ مِنَ الْمُنْتَخِبِينَ . هَبْهُمْ(١) أَقَامُوا عَلَى الْوَلاَءِ لَكَ بَعْدَ وَلاَئِهِمْ لأَبِيكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ، مَعَ أَنَّكَ تَرَكْتَ الإِقَامَةَ بَيْنَهُمْ وَالاهْتِمَامَ بِمَصَالِحِهِمْ وَصَرْفَ الْمَالِ الَّذِى تَأْخُذُهُ مِنْ بَلَدِهِمْ فِيهِ لَكِنَّهُمْ سَئِمُوا طُولَ الْمَدَى فَاخْتَارُوا لَهُمْ رَجُلاً أَقَلُّ صِفَاتِهِ أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ فِى كُلِّ يَوْمٍ ، وَأَنَّهُمْ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ كُلَّمَا مَسَّتْهُمُ الْحَاجَةُ لِطَلَبِ الْمَعُونَةِ ، وَاحْتَاجُوا إِلَى الْمَشُورَةِ وَقَدْ أَخَذَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مَكَانَكَ لِأَنَّكَ تَخَلَّيْتَ عَنْهُ مُنْذُ جِيلَيْنِ) وَلاَ أَذْكُرُ أَنِّي رَأَيْتُ ذَلِكَ النَّائِبَ الَّذِى اسْتَوْلَى الْيَأْسُ عَلَيْهِ عِنْدَ « لاَبْلِى » مَرَّةً أُخْرَى .

هَذَا مَثَلُ الْكَثِيرِ مِنْ أَتْرَابِ(٢) صَاحِبِنَا ، وَرُبَّمَا صَارَ يَوْمًا مِثْلَ أَرْبَابِ الأَمْلاَكِ الْعَظِيمَةِ فِى الأَقَالِيمِ الْغَرْبِيَّةِ الَّذِينَ لاَ يَزَالُ الأَهَالِى يُرْسِلُونَهُمْ إِلَى مَجْلِسِ النُّوَّابِ ، وَالسَّبَبُ فِي أَنَّهُمْ لَمْ يُتْرَكُوا إِلَى الآنَ طُولَ الزَّمَنِ الَّذِى قَضَاهُ آبَاؤُهُمْ بَيْنَ أُولَئِكَ الأَهَالِى .

وَأَمَّا الصِّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ اللَّتَانِ عَلَيْهِمَا مَدَارُ الْعُمْرَانِ بَعْدَ الزِّرَاعَةِ فَنَصِيبُهُمَا فِى مَجْلِسِ النُّوَّابِ أَقَلُّ مِنْ نَصِيبِهَا لِأَنَّا لاَ نَجِدُ فِيهِ إِلاَّ وَاحِدًا وَأَرْبَعِينَ صَانِعًا وَاثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ تَاجِرًا مَعَ أَنَّ عَدَدَ أَهْلِ

(١) قدرهم وافرضهم (٢) أشباه ونظائر

الصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ عَظِيمٌ وَالْمَنَافِعُ الَّتِى هِىَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ذَاتُ أَهَمِّيَّةٍ كُبْرَى وَلَابُدَّ مِنْ سَبَبٍ أَدَّى إِلَى ضَعْفِ النِّيَابَةِ عَنْهُ ، وَهُنَا لَا يُمْكِنُ اتِّهَامُهُمْ بِأَنَّهُمْ تَرَكُوا حِرَفَهُمْ كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الزِّرَاعَةِ ، لِأَنَّ الصِّنَاعَةَ وَالتِّجَارَةَ تَطْلُبَانِ مُبَاشَرَةَ أَصْحَابِهِمَا كُلَّ يَوْمٍ مَعَ الْعِنَايَةِ وَالِاهْتِمَامِ ، وَإِذَا ابْتَعَدُوا أَوْ فَتَرَتْ هِمَّتُهُمْ وَلَوْ قَلِيلاً تَقَهْقَرُوا لِسَاعَتِهِمْ بِتَغَلُّبِ الْمُتَسَابِقِينَ وَأَفْضَى بِهِمِ الْحَالُ إِلَى الإِفْلَاسِ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الضَّرُورَةَ الَّتِى تُلْجِئُهُمْ إِلَى مُبَاشَرَةِ أَعْمَالِهِمْ وَلَا تُمَكِّنُهُمْ مِنْ إِغْفَالِهَا يَوْماً وَاحِداً هِىَ الَّتِي لَا تُوَافِقُ نِظَامَ الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ عِنْدَنَا ، لِأَنَّ السُّلْطَةَ فِى بِلَادِنَا مَجْمُوعَةٌ فِى يَدِ الْحُكُومَةِ الْعَالِيَةِ فَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْفَصْلُ فِى جَمِيعِ الْمَنَافِعِ عَظِيمِهَا وَحَقِيرِهَا، وَكُلُّهَا يَجِبُ عَرْضُهَا عَلَى الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ لِتُبْدِىَ رَأْيَهَا فِيهَا ، وَلِذَلِكَ تَسْتَغْرِقُ جَلَسَاتُ هَذِهِ الْمَجَالِسِ أَكْثَرَ أَيَّامِ السَّنَةِ بِتَمَامِهَا . وَمِمَّا يُطِيلُ أَوْقَاتَ الِاجْتِمَاعِ مَا اعْتَادُوه أَثْنَاءَ انْعِقَادِ الْجَلَسَاتِ مِنْ كَثْرَةِ الْمُقَاطَعَةِ وَحَشْوِ الْمَبَاحِثِ بِالْأُمُورِ التَّافِهَةِ وَالِانْتِقَالِ مِنْهَا إِلَى الشَّخْصِيَّاتِ وَالْجُنُوحِ إِلَى السَّفْسَطَةِ وَالصِّبْيَانِيَّاتِ، وَلِذَلِكَ أَسْبَابٌ سَنَأْتِى عَلَى ذِكْرِهَا فِيمَا بَعْدُ. كُلُّ هَذَا لَا يَسْتَغْرِقُ وَقْتاً طَوِيلاً وَيَسْتَلْزِمُ إِدَامَةَ الْجَلَسَاتِ إِلَّا قَلِيلاً. وَلَيْسَ فِى اسْتِطَاعَةِ أَهْلِ الصِّنَاعَةِ وَالتُّجَّارِ أَنْ يَتْرُكُوا أَعْمَالَهُمْ هَذَا الزَّمَنَ كُلَّهُ ، لِذَلِكَ تَرَاهُمْ يُفَضِّلُونَ الْعُزْلَةَ عَنِ الِانْتِخَابَاتِ ، وَلَا

يُرَشِّحُونَ أَنْفُسَهُمْ للنِّيَابَةِ . وَمِمَّا يَزِيدُهُمْ رَغْبَةً فى الْعُزْلَةِ حَالَةُ التَّرْشِيحِ الَّتى صَارَتْ بحَيْثُ لاَ تَرُوقُ فى أَعْيُنِ أَهْلِ الْجِدِّ وَالْكَمَالِ الَّذِينَ تَعَوَّدُوا الأَخْذَ وَالْعَطَاءَ فى الْامُورِ الْمُهِمَّةِ، إِذْ يَنْبَغِى لِمَنْ يُرَشِّحُ لِعُضْوِيَّةِ الْمَجَالِسِ أَنْ يُعَرِّضَ (١) نَفْسَهُ لِلْمَطَاعِنِ الْفَادِحَةِ (٢) الَّتِى يُوَجِّهُهَا إِلَيْهِ سُوءُ النِّيَّةِ وَلِلشَّتَائِمِ وَالسِّبَابِ الَّتى تَرْمِيهِ بِهَا الْجَرَائِدُ الْمُضَادَّةُ لِمَذْهَبِهِ ، كَذَلِكَ يَنْبَغِى أَنْ يَحْضُرَ الِاجْتِمَاعَاتِ الْعُمُومِيَّةَ ، وَلَيْسَ الْهُدُوءُ وَسَلاَمَةُ الذَّوْقِ مِنْ مُمَيِّزَاتِهَا . وَلَيْسَ فِى الِاسْتِطَاعَةِ مُقَاوَمَةُ تِلْكَ الْأَمْخَاخِ الْمَائِجَةِ إِلاَّ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُتَعَوِّدًا الْكَلاَمَ عَارِفًا بِطُرُقِ التَّمْلِيقِ وَالإِكْثَارِ مِنَ الْوُعُودِ حَتَّى مَا عَزَّ الْوَفَاءُ بِهِ، عَالِمًا بِأَسَالِيبِ التَّفَيْهُقِ (٣) وَرَصِّ الْجُمَلِ الطَّنَّانَةِ (٤) الَّتى لاَ مَعْنَى فِيهَا ، وتِلْكَ حَالٌ لاَ يُحْسِنُهَا (٥) مَنْ تَفَرَّغَ لِأَعْمَالِ الصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ الْكُبْرَى ، فَإِنَّهَا أَعْمَالٌ لاَ تُؤَهِّلُ صَاحِبَهَا إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَلاَ تَجْعَلُهُ يَرْغَبُ فِيهِ. أَمَّا أَهْلُ الصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ الَّذِينَ يَقْتَحِمُونَ (٦) أَخْطَارَ الِانْتِخَابِ فَهُمْ وَاحِدٌ مِنِ اثْنَيْنِ : فَإِمَّا رَجُلٌ أَمِنَ عَلَى مَكْسَبِهِ وَصَارَ بِذَلِكَ قَلِيلَ الِاهْتِمَامِ بِحَرَكَةِ صِنَاعَتِهِ أَوْ تِجَارَتِهِ فَخَرَجَ عَنْ مَجْرَى الْأَحْوَالِ فِيهَا ، وَإِمَّا رَجُلٌ خَابَ فى صِنَاعَتِهِ أَوْ تِجَارَتِهِ فَلَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ مَا يَخَافُ عَلَيْهِ إِنْ تَرَكَهَا .

(١) يريد يوطن نفسه ويعدها لدلك (٢) الصعبة المثقلة (٣) يريد الثرثرة
(٤) من الطنين وهو صوت الذباب (٥) لا يجيدها (٦) يريد يقدمون عليها ويدخلونها

تِلْكَ هِيَ الْأَسْبَابُ الَّتِي لِأَجْلِهَا أَصْبَحَتِ الْحِرَفُ الْمِلِّيَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ أَعْنِي الزِّرَاعَةَ وَالصِّنَاعَةَ وَالتِّجَارَةَ وَلَيْسَ لَهَا مِنَ النُّوَّابِ إِلَّا الْقَلِيلُ؛ وَنُوَّابُهَا هُمْ فِي الْوَاقِعِ أَبْعَدُ أَهْلِهَا عَنْهَا.

بَقِيَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَنِ النَّائِبُ عَنَّا:

يَرَى الْقَارِئُ فَوْقَ تِلْكَ الْحِرَفِ الثَّلَاثِ تَجَسُّماً هَائِلاً حَيْثُ يَنْبَعِجُ (١) الشَّكْلُ وَيَتَمَدَّدُ تَمَدُّداً كَبِيراً فَيَكَادُ عَدَدُ أَهْلِ الْحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ يَبْلُغُ نِصْفَ عَدَدِ النُّوَّابِ كُلِّهِمْ، لِأَنَّهُمْ مِائَتَانِ وَسَبْعُونَ نَائِباً أَعْنِي ضِعْفَ أَعْضَاءِ الزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ. وَالْعُنْصُرُ الْغَالِبُ فِيهِمْ هُمُ الْأَطِبَّاءُ وَأَرْبَابُ الْجَرَائِدِ وَالْمُوَثِّقُونَ وَعَلَى الْخُصُوصِ الْمُحَامِينَ.

وَلْنَدْخُلْ بَيْنَ ذَلِكَ الْجَمْعِ لِنَقِفَ عَلَى حَقِيقَةِ تَرْكِيبِهِ:

يَبْلُغُ الْأَطِبَّاءُ وَالصَّيْدَلِيُّونَ ثَلَاثَةً وَخَمْسِينَ عُضْواً فَعَدَدُهُمْ كَعَدَدِ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ تَقْرِيباً وَيَزِيدُ عَلَى أَهْلِ الصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ مَعاً، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَنَّ صِنَاعَةَ الطِّبِّ تُوجِدُ فِي الْإِنْسَانِ اسْتِعْدَاداً مَخْصُوصاً لِمُدَاوَاةِ الْهَيْئَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ مِنْ أَمْرَاضِهَا، فَإِنَّا مَهْمَا اجْتَهَدْنَا لَا نَرَى ارْتِبَاطاً بَيْنَ الطِّبِّ الْبَاطِنِيِّ فِي الْأَمْرَاضِ وَالْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ مَا تَشْكُو الْأُمَّةُ مِنَ الْآلَامِ. كَذَلِكَ لَا تُوجَدُ نِسْبَةٌ بَيْنَ سَعَادَةِ الْأُمَّةِ وَعَدَدِ الْأَطِبَّاءِ فِيهَا كَالنِّسْبَةِ الْمَوْجُودَةِ بَيْنَ تِلْكَ السَّعَادَةِ وَبَيْنَ عَدَدِ الزُّرَّاعِ وَالصُّنَّاعِ وَالتُّجَّارِ. وَلَا نَحْسَبُ الْأَطِبَّاءَ أَيْضاً يَتَأَثَّرُونَ بِاخْتِلَالِ

(١) يريد يتسع

سِيَاسَةِ الْأُمَّةِ وَشُبُوبِ الثَّوْرَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَظَنَنَّاهُمْ أَشَدَّ النَّاسِ إِقْدَامًا على سَدِّ الْخَلَلِ وَمَنْعِ الْخَطَرِ؛ لَكِنَّا نَرَى الْأَمْرَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ هَذَا . فَبَيْنَمَا الصِّنَاعَاتُ الثَّلَاثُ الْأُولَى تُصْبِحُ كَاسِدَةً بَلْ تَقِفُ حَرَكَتُهَا بِمَا يَطْرَأُ عَلَى السِّيَاسَةِ مِنَ الِاخْتِلَالِ نُشَاهِدُ صِنَاعَةَ الطِّبِّ غَيْرَ مُتَأَثِّرَةٍ أَبَدًا لِأَنَّهَا إِنَّمَا تَتَعَلَّقُ بِسُوءِ حَالِ الْأَجْسَامِ وَالْأَمْرَاضِ الطَّبِيعِيَّةِ فِي الْإِنْسَانِ لَا بِحُسْنِ حَالِ الِاجْتِمَاعِ . وَمِمَّا يُدْهِشُنَا أَنْ يَكُونَ عَدَدُ الْأَطِبَّاءِ كَثِيرًا إِلَى هَذَا الْحَدِّ فِي مَجْلِسِ النُّوَّابِ مَعَ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ تِلْكَ الصِّنَاعَةُ مِنِ اسْتِمْرَارِ مُزَاوَلَتِهَا وَالْعَمَلِ فِيهَا . وَإِذَا غَابَ الطَّبِيبُ تَرَكَتْهُ الزَّبَائِنُ ، لِأَنَّ الْمَرِيضَ لَا يَقْوَى عَلَى الِاصْطِبَارِ . وَمِنْ هُنَا جَاءَ أَنَّ أَغْلَبَ الْأَطِبَّاءِ فِي مَجْلِسِ النُّوَّابِ لَيْسَ لَهُمْ زَبَائِنُ ، أَمَّا الَّذِينَ كَثُرَ عَمَلُهُمْ فَفَائِدَتُهُمْ فِى الِاحْتِفَاظِ بِزَبَائِنِهِمْ وَلَا يُفَضِّلُونَ عَلَيْهِمُ اقْتِحَامَ مَخَاطِرِ الِانْتِخَابِ وَطَلَبَ النِّيَابَةِ مِنْ مُوَاطِنِيهِمْ وَلَا يَبِيعُونَ مُرْتَزَقًا مَأْمُونًا كَثِيرَ الرِّبْحِ بِحَالَةٍ قَلَّ كَسْبُهَا وَبَعِيدٌ أَنْ تَدُومَ . إِذَنْ لَيْسَ أُولَئِكَ النُّوَّابُ نُخْبَةَ بَنِي حِرْفَتِهِمْ ، وَعَلَيْهِ فَلَيْسُوا بِعَضُدٍ قَوِيٍّ لِلنِّيَابَةِ الْمِلِّيَّةِ .

وَلِكَيْ نَقِفَ عَلَى سَبَبِ انْتِخَابِ هَذَا الْعَدَدِ الْعَظِيمِ مِنْهُمْ يَنْبَغِي أَنْ نَعْرِفَ الْأَمْرَيْنِ الْآتِيَيْنِ :

الْأَوَّلُ أَنَّ أُولَئِكَ النُّوَّابَ هُمْ فِى الْغَالِبِ مِنْ حِزْبِ الشِّمَالِ فَمِنَ الثَّلاَثَةِ وَالْخَمْسِينَ طَبِيباً وَصَيْدَلِيًّا خَمْسُونَ مِنَ الْحِزْبِ الْمَذْكُورِ وَثَلاَثَةٌ فَقَطْ مِنْ حِزْبِ الْيَمِينِ . وَلاَ شَكَّ فِى أَنَّ صِنَاعَةَ الطِّبِّ لَيْسَتْ هِىَ الَّتِى غَرَسَتْ فِيهِمْ تِلْكَ الْمُيُولَ حَتَّى ضَاعَتِ النِّسْبَةُ كَمَا تَرَى، لِأَنَّنَا إِذَا رَجَعْنَا إِلَى مَجْمُوعِ الْأَطِبَّاءِ كُلِّهِمْ لاَ نَرَى فِيهِمْ هَذَا الْمَيْلَ إِلَى هَذَا الْحَدِّ، وَسَبَبُهُ ظَاهِرٌ لِأَنَّ صِنَاعَتَهُمْ وَرَغْبَتَهُمْ فِى تَكْثِيرِ عَدَدِ زَبَائِنِهِمْ تَجْعَلاَنِهِمْ لاَ يَشْتَغِلُونَ بِالسِّيَاسَةِ إِلاَّ قَلِيلاً .

وَلَقَدْ نُسَلِّمُ أَنَّ هَذَا النَّقْدَ لاَ يَصْدُقُ عَلَى أَطِبَّاءِ مِنَ النُّوَّابِ الَّذِينَ لَيْسُوا هُمْ مِنْ خُلاَصَةِ أَهْلِ الْفَنِّ وَلاَ مِمَّنْ كَثُرَتْ زَبَائِنُهُمْ، وَلَكِنَّا لاَ نُسَلِّمُ بِأَنْ تَأَخُّرَهُمْ فِى صِنَاعَتِهِمْ هَاجَ خَوَاطِرَهُمْ وَأَلْقَوُا الْإِثْمَ(١) عَلَى الْهَيْئَةِ الْاِجْتِمَاعِيَّةِ فَمَالُوا إِلَى الْمُتَطَرِّفِينَ فِى السِّيَاسَةِ انْتِقَاماً مِنْهَا؛ إِذْ أَنَّنَا لاَ نَرَى سَبَباً يَمْنَعُهُمْ فِى هَذِهِ الْحَالَةِ مِنَ الاِنْحِيَازِ لِحِزْبِ الْيَمِينِ الَّذِى يَلْتَقِى مَعَ حِزْبِ الشِّمَالِ فِى مُحَارَبَةِ نِظَامِ الْهَيْئَةِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ الْحَالِىّ ، مَعَ أَنَّ لَهُمْ فِى الاِنْحِيَازِ إِلَيْهِ مَزِيَّةً تُمَكِّنُهُمْ مِنِ اتِّهَامِ الْحُكُومَةِ بِأَنَّهَا السَّبَبُ فِى إِخْفَاقِهِمْ . وَالَّذِى يُؤَيِّدُ أَنَّ هَذَا الدَّلِيلَ لاَ قِيمَةَ لَهُ هُوَ تَسَاوِى عَدَدِ الْمُحَامِينَ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يَشْغَلُهُمْ مِنَ الْقَضَايَا فِى حِزْبِ الشِّمَالِ وَحِزْبِ الْيَمِينِ تَقْرِيبًا، إِذَا لُوحِظَتِ

(١) يريد القوا الذنب والمسئولية

النِّسْبَةُ بَيْنَ جَمِيعِ الأَحْزَابِ فِى المَجْلِسِ .

الأَمْرُ الثَّانِى أَنَّ أَغْلَبَ هَؤُلاَءِ الأَطِبَّاءِ يَحْصُلُ انْتِخَابُهُمْ مِنْ جِهَاتِ الأَرْيَافِ ، وَالسِّرُّ فِى هَذَا أَنَّ أَصْحَابَ الأَمْلاَكِ الوَاسِعَةِ لاَ يُقِيمُونَ غَالِباً فِى الأَرْيَافِ كَمَا قَدَّمْنَا ، وَأَنَّ عَدَدَهُمْ قَلِيلٌ أَيْضاً فِى مَجْلِسِ النُّوَّابِ ، فَلَمَّا اخْتَفَوْا عَنْ أَعْيُنِ الأَهَالِى قَلَّتْ مَعْرِفَتُهُمْ بِهِمْ وَضَاعَ مَيْلُهُمْ إِلَيْهِمْ - وَهُمْ فِى ذَلِكَ مُصِيبُونَ - وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَقُومُوا بِالنِّيَابَةِ عَنْهُمْ إِذْ لَمْ يَعُدْ لَهُمْ بَيْنَهُمْ مِنَ المَآثِرِ غَيْرُ جَمْعِ المَالِ مِنْهُمْ لِيُنْفِقُوهُ فِى المُدُنِ الَّتِى يَسْكُنُونَ فِيهَا . وَأَرْبَابُ الأَمْلاَكِ الوَاسِعَةِ هُمْ فِى الغَالِبِ مِنَ المُحَافِظِينَ ، فَالنُّوَّابُ مِنْ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ فِى المَجْلِسِ خَمْسَةٌ وَسَبْعُونَ فِيهِمْ أَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ مِنْ حِزْبِ اليَمِينِ وَوَاحِدٌ وَعِشْرُونَ مِنْ حِزْبِ الشِّمَالِ ، وَبِتَرْكِهِمُ الرِّيفَ يَضِيعُ نُفُوذُهُمْ بَيْنَ أَهْلِهِ وَيَنْتَقِلُ بِالطَّبِيعَةِ إِلَى أَعْدَائِهِمْ فِى السِّيَاسَةِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حِزْبِ الشِّمَالِ فَيُنْتَخَبُونَ بَدَلاً مِنْهُمْ . وَلاَ يُوجَدُ فِى الأَرْيَافِ مَنْ يَصِحُّ لَهُ أَنْ يَقُومَ مَقَامَ أُولَئِكَ المُلاَّكِ الغَائِبِينَ إِلاَّ الأَطِبَّاءُ وَالمُحَامُونَ وَالمُوَثِّقُونَ، فَلِهَذِهِ الطَّوَائِفِ الثَّلاَثِ نُفُوذٌ طَبِيعِىٌّ بَيْنَ النَّاسِ عَظِيمٌ لِكَثْرَةِ مَنْ يُخَالِطُونَ وَالإِفْضَاءِ إِلَيْهِمْ بِأَسْرَارِ العَائِلاَتِ وَمَا يَقُومُونَ بِهِ مِنَ الخِدَمِ إِمَّا بِالإِرْشَادِ مَجَّاناً وَإِمَّا بِإِقْرَاضِ الأَمْوَالِ .. ثُمَّ هُمْ نُخْبَةُ النُّبَلاَءِ فِى الأَرْيَافِ ، بَعْدَ المُلاَّكِ ، فَلاَ غَرَابَةَ حِينَئِذٍ إِذَا

أَصَابَهُمْ الانْتِخَابُ وَجَلَسُوا فِي مَجَالِسِ النُّوَّابِ .

تِلْكَ مُشَاهَدَةٌ صَحِيحَةٌ وَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَحْدَهَا بِدَلِيلِ أَنَّكَ إِذَا رَاجَعْتَ عَدَدَ الأَعْضَاءِ مِنْ كُلِّ طَائِفَةٍ فِي كُلِّ حِزْبٍ فِي مَجْلِسِ النُّوَّابِ رَأَيْتَ المُوَثِّقِينَ وَوُكَلَاءَ الدَّعَاوَى يَكْثُرُونَ حَيْثُ يَكْثُرُ الأَطِبَّاءُ فَالمُوَثِّقُونَ سَبْعَةَ عَشَرَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ فِي الشِّمَالِ وَثَلَاثَةٌ فِي الْيَمِينِ ، وَوُكَلَاءُ الدَّعَاوَى تِسْعَةٌ كُلُّهُمْ فِي الشِّمَالِ . ثَبَتَ إِذَنْ أَنَّ أَهْلَ تِلْكَ الحِرَفِ لَمْ يَدْخُلُوا مَجْلِسَ النُّوَّابِ إِلَّا لِهُرُوبِ أَصْحَابِ الْأَمْلَاكِ . أَمَّا الْبِلَادُ الَّتِي حَفِظَ كِبَارُ المُلَّاكِ فِيهَا نُفُوذَهُمْ وَمَكَانَتَهُمْ فَلَا يَزَالُ أَطِبَّاؤُهَا وَمُوَثِّقُوهَا وَوُكَلَاءُ دَعَاوِيهَا يَقُومُونَ بِخِدْمَتِهِمْ لِلْمَرْضَى وَالأَرَامِلِ وَالأَيْتَامِ ، وَكُلُّ النَّاسِ هَادِئٌ مَسْرُورٌ .

وَلَسْتُ أَذْكُرُ شَيْئًا عَنِ الْمُهَنْدِسِينَ الْمَلَكِيِّينَ لِأَنَّهُمْ سَبْعَةُ نُوَّابٍ وَهُوَ عَدَدٌ يَسِيرٌ سَبَبُهُ أَنَّ حِرْفَتَهُمْ لَا تُمَكِّنُهُمْ بِطَبِيعَتِهَا كَالحِرَفِ السَّابِقَةِ مِنِ اجْتِذَابِ الْقُلُوبِ وَاسْتِمَالَةِ الاهَالِي .

وَأَمَّا أَرْبَابُ الصُّحُفِ فَكَثِيرُونَ ؟ إِذْ أَرَاهُمْ تِسْعَةً وَخَمْسِينَ كَعَدَدِ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ عَلَى التَّقْرِيبِ وَأَكْثَرَ جِدًّا مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ ، وَلَا أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا يَدَّعِي أَنَّهُمْ لَازِمُونَ فِي الأُمَّةِ لُزُومَ الزُّرَّاعِ ، وَأَنَّهُمْ أَشَدُّ لُزُومًا مِنْ أَرْبَابِ الصِّنَاعَةِ وَأَهْلِ التِّجَارَةِ مَعًا. وَزِدْ عَلَيْهِ أَنَّ أَرْبَابَ الصُّحُفِ لَا يُهِمُّهُمْ صَلَاحُ الحَالِ فِي الْبِلَادِ وَهُدُوءُ

الأفكارِ واستتبابُ النظامِ العامِّ كالزرّاعِ والصنّاعِ والتجّارِ، فحياةُ الجريدةِ منَ الحوادثِ تزدادُ أعدادُها أيّامَ الاضطرابِ ولذلكَ تنشُرُ بأحرُفٍ كبيرةٍ أشدَّ الأخبارِ إقلاقاً للراحةِ العموميّةِ وتقلُّ تلكَ الأعدادُ متى سادَ السكونُ على الناسِ، إلاّ أنَّ الجرائدَ لا تعدمُ سبيلاً للرواجِ فتختلقُ الحوادثَ وتعظِّمُ ما صغُرَ منها وتوقظُ اللاهيَ وتحضُّ على تهييجِ الأفكارِ لأنّها فى حاجةٍ إليهِ، انظُرْ كيفَ يزدادُ عددُ الجرائدِ فى أزمنةِ الاضطرابِ! وكلُّ منْ لمْ يطمسِ اللهُ على بصيرتِهِ يقولُ: إنَّ تقدّمَ الزراعةِ وارتقاءَ الصناعةِ ورواجَ التجارةِ إنّما يقومُ بقتلِ الصحُفِ وموتِ الجرائدِ.

يُقالُ إنَّ أربابَ الجرائدِ قدْ استعدُّوا للبحثِ فى المسائلِ السياسيّةِ لأنّهمْ يخوضونَ فيها كلَّ يومٍ، نعمْ أُسلِّمُ أنّهمْ مستعدّونَ للكلامِ فى كلِّ موضوعٍ، إلاّ أنّهُمْ يتكلّمونَ كما تتكلّمُ الجرائدُ، وصاحبُ الجريدةِ مضطرٌّ بطبيعةِ حرفتِهِ إلى التفكّرِ عاجلاً والحكمِ على الأشياءِ عاجلاً والكتابةِ عاجلاً؛ فما لاحتْ لهُ بارقةُ فكرٍ إلاّ كتبَ فيها منْ حينِها، إذْ ليسَ عندَهُ زمنٌ ليُنعِمَ النظرَ فيها. وكبارُ أهلِ الجرائدِ يعرفونَ ذلكَ ويشكونَ منهُ، أمّا الآخرونَ فلا يخطُرُ لهُمْ هذا على البالِ بلْ يعتقدونَ فى أنفسِهِمْ ما شاءَ اللهُ أنْ

يَعْتَقِدُوا ، وَيَقُولُونَ غَيْرَ هَازِلِينَ: إِنَّهُمْ أَرْبَابُ زَعَامَةٍ فِى الْأُمَّةِ وَأَهْلُ سِيَادَةٍ عَلَى الْأَفْكَارِ.

صَاحِبُ الْجَرِيدَةِ مُحْتَاجٌ إِلَى تَغْلِيظِ صَوْتِهِ لِيُسْمِعَ النَّاسَ وَيُحَوِّلَ الْأَفْكَارَ إِلَيْهِ وَتِلْكَ ضَرُورَةٌ قَضَتْ بِهَا مِهْنَتُهُ وَاسْتَلْزَمَتْهَا حَيَاةُ جَرِيدَتِهِ فَهُوَ يُبَالِغُ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ كَمَا أَنَّنَا نَأْكُلُ أَوْ نَنَامُ ، إِنْ قَالَ فِى رَجُلٍ إِنَّهُ نَذْلٌ أَوْ وَغْدٌ(١) فَمَعْنَاهُ لَيْسَ بِأَكْثَرَ مِنْ أَنَّهُ وَإِيَّاهُ فِى الرَّأْىِ مُخْتَلِفَانِ، وَلَيْسَ لِكَلَامِهِ غَايَةٌ يَقْصِدُهَا وَلَكِنْ هَكَذَا اقْتَضَتْ لَهْجَةُ الْجَرِيدَةِ فَوَجَبَ الصُّرَاخُ حَتَّى يَسْمَعَ النَّاسُ كَمَا يَقَعُ فِى الْمَوَالِدِ وَالْأَسْوَاقِ حَيْثُ الْوَسِيلَةُ فِى لَفْتِ الْقَوْمِ كَثْرَةُ الْجَلَبَةِ عَلَى الْأَبْوَابِ، وَذَلِكَ هُوَ مَا يُسَمَّى بِالْمُظَاهَرَةِ .

أَتَظُنُّ يَا صَاحِ (٢) أَنَّ تِلْكَ الْخِلَالَ هِىَ الَّتِى يَنْبَغِى لِلْأُمَّةِ أَنْ تَطْلُبَهَا مِنْ أُولَئِكَ السِّيَاسِيِّينَ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ الْبَحْثَ فِى مَنَافِعِ الْأُمَّةِ الْعَامَّةِ وَحُكُومَةِ الْبِلَادِ لَا يَتَأَتَّى إِلَّا لِقَوْمٍ اتَّصَفُوا بِالْحِكْمَةِ وَبُعْدِ النَّظَرِ وَسَلَامَةِ الْحُكْمِ وَالْمُسَالَمَةِ وَحُسْنِ الذَّوْقِ وَمَعْرِفَةِ الْأَعْمَالِ الْمُفِيدَةِ ؟ لَا أُنْكِرُ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْجَرَائِدِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهَا صِفَاتٌ لَيْسَتْ هِىَ الْغَالِبَةَ فِى تِلْكَ الطَّائِفَةِ بِالْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ نُشَاهِدُ أَنَّ النُّوَّابَ مِنْ أَرْبَابِ الْجَرَائِدِ لَمْ يُسَاعِدُوا عَلَى إِيجَادِ الْهُدُوءِ

(١) الوغد الرجل الدنىء (٢) يا صاحبى

فِي الْمُنَاقَشَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْحِكْمَةِ فِي مَبَاحِثِ الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ، وَمَا كَثُرَ عَدَدُهُمْ فِي سَرَايِ الْبُورْبُونِ إِلاَّ لِأَنَّ الصُّحُفَ فِي تَصَرُّفِهِمْ[١] وَالصُّحُفُ هِيَ رُسُلُ الانْتِخَابِ.

أَرْبَابُ الصُّحُفِ لَيْسُوا عَلَى نِسْبَةٍ وَاحِدَةٍ فِي الْأَحْزَابِ فَعَدَدُهُمْ تِسْعَةٌ وَخَمْسُونَ، مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ وَخَمْسُونَ فِي الشِّمَالِ وَخَمْسَةٌ فِي الْيَمِينِ. وَسَبَبُ هَذَا الاخْتِلَافِ أَنَّ حِزْبَ الشِّمَالِ يَعْتَمِدُ عَلَى الْفَعَلَةِ، وَحِزْبَ الْيَمِينِ يَعْتَمِدُ عَلَى الْفَلَّاحِينَ، وَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ الْجَرَائِدَ أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَبِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ اشْتَدَّ تَقَرُّبُ أَرْبَابِ الْجَرَائِدِ الْجُمْهُورِيَّةِ مِنْ جَمِيعِ الْمُنْتَخِبِينَ فِي الْمُدُنِ أَكْثَرَ مِنْ تَقَرُّبِ إِخْوَانِهِمِ الْمُحَافِظِينَ إِلَى أَهْلِ الرِّيفِ. وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الرِّيفِ قَرَءُوا الْجَرَائِدَ لَتَضَاعَفَ عَدَدُ الْمُحَامِينَ فِي مَجْلِسِ النُّوَّابِ. وَبَيْنَمَا السَّبَبُ فِي إِغَارَةِ الْأَطِبَّاءِ وَالْمُوَثِّقِينَ وَوُكَلَاءِ الدَّعَاوَى عَلَى الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ هُوَ تَمَنُّعُ كِبَارِ الْمُلَّاكِ حَتَّى فَقَدَ أَهْلُ الرِّيفِ رُؤَسَاءَهُمُ الطَّبِيعِيِّينَ، نَرَى السَّبَبَ فِي إِغَارَةِ أَرْبَابِ الصُّحُفِ آتِياً مِنْ أَهْلِ الصِّنَاعَةِ الَّذِينَ تَرَكُوا الْفَعَلَةَ بِغَيْرِ قَائِدٍ فَأَصْبَحُوا عُرْضَةً لِغَوَايَةِ الْجَرَائِدِ وَلَا حَامِيَ يَحْمِيهِمْ وَلَا دَافِعَ يَرُدُّهَا عَنْهُمْ، فَالرُّؤَسَاءُ هُمُ الْمَسْئُولُونَ فِي الْحَالَيْنِ:

أَكْثَرُ النُّوَّابِ مِنْ أَرْبَابِ الْحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ هُمْ أَهْلُ الْقَانُونِ

---

(١) يتصرفون بها كيف شاءوا

وَالَّذِينَ بَلغوا مِائَةً وَتِسْعَةً وَثَلاَثِينَ عُضْوًا غَيْرَ الْقُضَاةِ وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ هُمْ فِى عِدَادِ الْمُوَظَّفِينَ، لِأَنَّهُمْ وَإِنِ اتَّحَدُوا مَعَهُمْ فِى الصِّنَاعَةِ لَـكِنْ سَبَقَ وُجُودِهِمْ فِى خِدْمَةِ الْحُكُومَةِ جَعَلَنَا نُفْرِدُ لَهُمْ قِسْماً مَخْصُوصاً وَهُوَ قِسْمُ الْمُوَظَّفِينَ. وَقَدْ ذَكَرْتُ بَيْنَ أَهْلِ الْقَانُونِ مُدَرِّسِى الْحُقُوقِ السِّتَّةَ لِمُجَرَّدِ الْبَيَانِ فَقَطْ ثُمَّ أَشْرَكْتُ مَعَهُمْ الْمُوَثِّقِينَ وَوُكَلاَءَ الدَّعَاوِى وَقَدْ سَبَقَ الْكَلاَمُ عَلَيْهِمْ. بَقِىَ عِنْدَنَا الْعَدَدُ الْأَكْبَرُ وَهُمُ الْمُحَامُونَ:

يَبْلُغُ عَدَدُ الْمُحَامِينَ مِائَةَ نَائِبٍ وَسَبْعَةً، وَأُرِيدُ بِهِمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ تُوجَدُ أَسْمَاؤُهُمْ فِى جَدْوَلِ الْمُحَامِينَ الرَّسْمِىِّ وَلَا يَزَالُونَ يَشْتَغِلُونَ بِحِرْفَتِهِمْ، أَمَّا عَدَدُ حَائِزِى الشَّهَادَةِ فِى عِلْمِ الْحُقُوقِ فَيَزِيدُ فِى الْمَجْلِسِ عَلَى ثَلاَثِمِائَةٍ! وَلَسْنَا نَعْلَمُ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ أَوِ الْحَاضِرَةِ نَشَأَ فِيهَا مُتَعَلِّمُو عِلْمِ الْحُقُوقِ بِكَثْرَةٍ كَمَا هُوَ حَاصِلٌ عِنْدَنَا فِى الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ فَهُمْ غَارَةٌ حَقِيقِيَّةٌ بَلْ طُوفَانٌ وَهُمْ أَصْحَابُ الْكَلِمَةِ الْحَقِيقِيُّونَ فِى مَجْلِسِ النُّوَّابِ وَفِى فَرَنْسَا كُلِّهَا؛ وَقَدْ وَضَعُوا يَدَهُمْ تَمَامَ الْوَضْعِ عَلَى سَيْرِ الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ مِمَّا لَمْ يَسْبِقْهُمْ بِهِ أَهْلُ حِرْفَةٍ أُخْرَى.

كَيْفَ لَا يَكْثُرُ عَدَدُهُمْ وَالْمُحَامَاةُ فَنٌّ يَسْهُلُ تَرْكُهُ كَمَا يَسْهُلُ الرُّجُوعُ إِلَيْهِ؛ وَلَيْسَ فِى تَرْكِهِ ضَرَرٌ بِرَأْسِ مَالٍ! فَعُدَّةُ الْمُحَامِى

مَكْتَبُهُ ، وَمَكْتَبُهُ فى الغَالِب قِسْمٌ من مَسْكَنِهِ ! والنِّيَابَةُ طَرِيقَةٌ مِنْ طُرُقِ الظُّهُورِ لِأَنَّهَا تُتِيحُ لِلْمُحَامِى فُرْصَةَ بَيَانِ فَصَاحَتِهِ وَنَشْرِ بَلاغَتِهِ، وَفى سَرَاىِ البُورْبُون مِنبَرٌ أَرْفَعُ مِنْ مَنَابِرِ المحَاكِمِ . هُنَاكَ يَتَكَلَّمُ الْوَاحِدُ مِنْ عُلُوٍّ عَظِيمٍ وَيُسْمَعُ صَوْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ . إِذَنْ فى وَظِيفَةِ النِّيَابَةِ مَزِيَّةٌ لِلْمُحَامِى تُعْطِيهِ زَبَائِنَ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ ـ وَقَدْ حَصَلَ ـ أَوْ تُكَثِّرُ عَدَدَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ ضَرُورَةَ الْكَلامِ فى الْأَنْدِيَةِ الْعُمُومِيَّةِ وَالْمُجْتَمَعَاتِ الَّتِى يُحْجِمُ عَنْهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الزِّرَاعَةِ هِى مِنَ الْأُمُورِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَ الْمُحَامِى ، فَالْكَلامُ صَنْعَتُهُ وَمِنْ هُنَا كَانَ لَهُ عَلَى الْمُتَسَابِقِينَ مَعَهُ مَزِيَّةٌ كُبْرَى .

غَيْرَ أَنَّ الْمُحَامَاةَ لَا تُهَيِّئُ الْإِنْسَانَ لِإِدَارَةِ مَصَالِحِ الْبِلَادِ كَمَا تُسَهِّلُ لَهُ الدُّخُولَ فى مَجْلِسِ النُّوَّابِ ، لِأَنَّهَا لَا تَتَأَثَّرُ بِاعْتِلَالِ الْأَحْوَالِ الْعُمُومِيَّةِ كَمَا هُوَ الْحَالُ فِى الزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ بَلِ الظَّاهِرُ أَنَّهَا تَسْتَفِيدُ مِنْ ذَاكَ الاعْتِلَالِ لِأَنَّ قِوَامَهَا الدَّعَاوِى وَهَذِهِ تَكْثُرُ كُلَّمَا كَسَدَتِ الْأَعْمَالُ فَتَتَوَلَّدُ الْقَضَايَا السِّيَاسِيَّةُ فِي أَزْمِنَةِ الِاضْطِرَابِ وَتَتَوَلَّدُ الْقَضَايَا بَيْنَ الْأَقَارِبِ مَتَى فَسَدَ نِظَامُ الْعَائِلَةِ . وَعَلَى هَذَا فَسُوءُ حَالِ الْمُحَامِى فى قَضَايَاهُ لَا يَدُلُّ عَلَى مَجْرَى الْأَحْوَالِ السِّيَاسِيَّةِ بَلْ بِالْعَكْسِ .

يُقَالُ إِنَّهُمْ تَعَوَّدُوا الْمَبَاحِثَ الْقَانُونِيَّةَ وَاخْتَبَرُوا الْقَوَانِينَ

فَأَصْبَحُوا قَادِرِينَ عَلَى التَّشْرِيعِ . وَصَحِيحٌ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ بِمُقْتَضَى مِهْنَتِهِمْ قَوَانِينَنَا وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ وَوَاقِفُونَ عَلَى الْمَذَاهِبِ الَّتِي ذَهَبَتْ فِي تَفْسِيرِهَا،وَهُمْ بِذَلِكَ يُفِيدُونَ النِّيَابَةَ الْمِلِّيَّةَ، إِلَّا أَنَّهُمْ لِسُوءِ الْحَظِّ مَيَّالُونَ إِلَى تَغْلِيبِ الْجَانِبِ النَّظَرِيِّ الَّذِي هُوَ مَيْدَانُهُمْ عَلَى الْجَانِبِ الْعَمَلِيِّ وَالْمَنَافِعِ الْحَيَّةِ الَّتِي لَيْسَتْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ.

قَضَوْا حَيَاتَهُمْ بَيْنَ النُّصُوصِ فَكَانَ مِنْهُمْ أَنْ حَسِبُوا لَهَا تَأْثِيراً لَا مَرَدَّ لَهُ،وَالتَّأْثِيرُ فِي الْوَاقِعِ غَيْرُ مَوْجُودٍ واعْتَقَدُوا أَنَّ الْأُمَمَ إِنَّمَا تُسَاسُ بِوَضْعِ الْقَوَانِينِ فَقَلَّلُوا مِنْ تَأْثِيرِ الْقُوَّةِ الْحَيَوِيَّةِ الذَّاتِيَّةِ وَأَضْعَفُوا تَأْثِيرَ الصِّنَاعَاتِ وَالْفُنُونِ الْجَارِيَةِ وَهَذَا الْمَيْلُ هُوَ الَّذِي حَمَلَ أَهْلَ الْقَانُونِ فِي الزَّمَنِ الْقَدِيمِ عَلَى الدِّفَاعِ أَيِّ دِفَاعٍ عَنْ حُقُوقِ الْمَلَكِيَّةِ حَتَّى أَطْلَقُوهَا مِنْ كُلِّ قَيْدٍ إِضْرَاراً بِحُقُوقِ الرَّعَايَا وَحُرِّيَّةِ الْأَفْرَادِ وَاسْتِقْلَالِ الْبِلَادِ،وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ تَفْتُرْ لَهُمْ هِمَمٌ فِي زَمَنِنَا هَذَا ـ مِنْ حِزْبِ الْيَمِينِ كَانُوا أَوْ مِنْ حِزْبِ الشِّمَالِ ـ عَنْ جَمْعِ سُلْطَةِ الْبِلَادِ فِي قَبْضَةِ الْحُكُومَةِ الْعُلْيَا فَأَدْخَلُوا يَدَهَا الثَّقِيلَةَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَلَمْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالشَّكْوَى مِنْهَا إِلَّا إِذَا رَأَوْهَا فِي جَانِبِ خُصُومِهِمُ السِّيَاسِيِّينَ،وَهُمُ الْمَسْئُولُونَ قَبْلَ سِوَاهُمْ عَنِ اتِّسَاعِ دَائِرَةِ الْمَصَالِحِ الْأَمِيرِيَّةِ وَالدَّوَاوِينِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ الَّتِي أَضَرَّتْ بِمَالِيَّةِ الْبِلَادِ وَوَقَفَتْ حَجَرَ عَثْرَةٍ فِي سَبِيلِ انْتِشَارِ هِمَمِ الْأَفْرَادِ، وَعَلَيْهِمْ نَصِيبٌ فِي سُقُوطِ

مَنْزِلَةِ النِّظَامِ الشُّورِىِّ ، لِأَنَّ عَادَةَ ارْتِجَالِ الْقَوْلِ فِيهِمْ حَمَلَتْهُمْ على إِطَالَةِ الْمَبَاحِثِ بِكَلَامٍ فَصِيحٍ لَكِنْ بِغَيْرِ فَائِدَةٍ بَدَلاً مِنَ الْمُدَاوَلَاتِ الْمُفِيدَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِى تَقْتَضِى مَعَارِفَ مَخْصُوصَةً وَأَصْبَحْنَا نَسْمَعُ النَّاسَ يَصِيحُونَ فِى كلِّ مَكانٍ طَالِبِينَ مَجْلِسَ نُوَّابٍ يَقْصِرُ هَمَّهُ عَلى الأَعْمَالِ وَوِزَارَةً تَثْنِى الْعِنَانَ (١) عَنِ النَّظَرِيَّاتِ . أَقُولُ وِزَارَةً لِأَنِّى أَرَى الْمُحَامِينَ قَدْ شَغَلُوا أَهَمَّ مَرْكَزٍ بَيْنَ النُّظَّارِ، وَالْعَيْبُ فى هَذَا رَاجِعٌ إِلَى نِظَامِ مَجَالِسِنَا لِأَنَّهُ يَطْلُبُ فِى الْوَزِيرِ قَوْلاً رَجِيحاً (٢) لَا عَمَلاً مَلِيحاً وَيَشْتَرِطُ فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ مَا يَزْهُو (٣) بِهِ الْإِنْسَانُ لَا مَا تَظْهَرُ فَوَائِدُهُ الْحَقَّةُ لِلْعِيَانِ . تَرَى النَّائِبَ إِنْ رَامَ الْكَلَامَ وَجَبَ أَنْ يَرْقَى مِنْبَرَ الْخَطَابَةِ لَا أَنْ يَتَكَلَّمَ مِنْ مَكَانِهِ كَمَا فِى مَجْلِسِ نُوَّابِ الْإِنْكلِيزِ ، وَمَتَى تَوَسَّطَ ذَاكَ الْمَقَامَ لَزِمَهُ أَنْ يُقَدِّمَ مُقَدِّمَةً قَبْلَ الدُّخُولِ فِى الْمَوْضُوعِ ، وَيَخْتِمَ بِخَاتِمَةٍ إِذَا انْتَهَى فَيُضَيِّعَ جُزْءاً ثَمِيناً مِنَ الْوَقْتِ فِى فَيْهَقَةٍ وَرَصِّ أَلْفَاظٍ ضِخَامٍ وَيُقْصَى مِنَ الْمُنَاقَشَةِ جَمِيعُ النُّوَّابِ الَّذِينَ لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلى طُلَاوَةِ (٤) اللِّسَانِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ فِى الْغَالِبِ يَعْرِفُونَ حَقِيقَةَ الْأَحْوَالِ الْخَبِيرُونَ بِحَاجَاتِ الْبِلَادِ ، بِدَلِيلِ مَا هُوَ

(١) تثنى : تصرف يريد تعدل والعنان الزمام (٢) رجيحا : أى راجحا، يريد قولا بليغاً خلابا (٣) الزهو: الكبر والفخر وهو أيضا المنظر الحسن (٤) الطلاوة بضم الطاء وقد تفتح : الحسن

مُشَاهَدٌ فِى اللِّجَانِ حَيْثُ يَظْهَرُ فَضْلُهُمْ . وَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَبْقَى الْقَوْلُ قَوْلَهُمْ فِى الْجَلَسَاتِ الْعُمُومِيَّةِ . فَمِنَ الْمُقَرَّرِ أَنَّ أَكْثَرَ النُّوَّابِ عَمَلاً أَقَلُّهُمْ كَلاَمًا ، وَنِظَامُنَا يُبْعِدُهُمْ فِي زَوَايَا الْخُمُولِ وَيُصَدِّرُ لِلنَّاظِرِينَ كُلَّ ذِى مَنْطِقٍ فَصِيحٍ !!

وَالْخُلاَصَةُ أَنَّ الْمُحَامِينَ قَدْ يُفِيدُونَ النِّيَابَةَ الْمِلِّيَّةَ بِمَا لَدَيْهِمْ مِنَ الْمَعَارِفِ الْخُصُوصِيَّةِ ، وَلَكِنْ لِسُوءِ الْحَظِّ زَادَ عَدَدُهُمْ عَلَى نِسْبَةِ أَهَمِّيَّتِهِمْ فِي الأُمَّةِ فَصَارُوا أَصْحَابَ النُّفُوذِ فِى الْمَجْلِسِ وَوَجَّهُوا حَرَكَتَهُ إِلى حَيْثُ تَسُوءُ الْعُقْبَى .

وَبِقَدْرِ مَا أَغَارَ الْمُحَامُونَ عَلى الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ تَأَخَّرَ أَهْلُ الدِّينِ وَالْجُنُودُ فَلاَ تَرَى مِنَ الأَوَّلِينَ فِى الْمَجْلِسِ سِوَى رَجُلَيْنِ ؛ إِمَّا لأَنَّهُ يَصْعُبُ عَلى الرُّؤَسَاءِ الرُّوحَانِيِّينَ أَنْ يَجْتَازُوا مَتَاعِبَ الانْتِخَابِ وَإِمَّا لِخَوْفِ النَّاسِ مِنْ تَسَلُّطِهِمْ عَلى الْحُكُومَةِ . وَالسَّبَبُ فى أَنَّ رِجَالَ الْجَيْشِ لاَ يَزِيدُونَ عَلى سِتَّةِ نُوَّابٍ حَظْرُ الْقَانُونِ عَلى جَمِيعِ الضُّبَّاطِ الَّذِينَ فِى الْخِدْمَةِ الدُّخُولَ فِى الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ ، فَلاَ يُمْكِنُنَا حِينَئِذٍ أَنْ نَذْهَبَ مَذْهَبًا فى قِلَّتِهِمْ .

هَذَا وَقَدْ اسْتَوَى الْمُوَظَّفُونَ عَلى قِمَّةِ[1] الشَّكْلِ الَّذِى رَسَمْنَاهُ وَهُمُ الْفَرِيقُ الأَكْثَرُ عَدَدًا بَعْدَ أَهْلِ الْحِرَفِ الأَدَبِيَّةِ . وَلِيُلاَحَظْ

---

(١) استوى : استولى ، والقمة : أعلى الشيء

أَنَّا نعُدُّ الْمُوَظَّفِينَ باعْتِبَار وَظَائِفِهِمْ الَّتِى كانُوا يَشْغَلُونَهَا قَبْلَ الانْتِخَاب لِأنَّ النِّيابَةَ وَالْوَظِيفَةَ لَا يَجْتَمِعَان . وَهُمْ يَنقَسِمُونَ إِلَى ثَلاثَةٍ وَعِشْرِينَ قَاضِيًا وَاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ مُوَظَّفًا إدارِيًّا ، فالمجْمُوعُ خَمْسَةٌ وَتِسْعُونَ عُضْوًا وَهوَ عَدَدٌ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ الزُّرَّاعِ وَالصُّنَّاعِ وَالتُّجَّار معًا ، وَأَكْثَرُ أُولَئِكَ الْمُوَظَّفِينَ مِنْ رِجَالِ الْقَانُونِ وَلَكِنَّهُمْ زَادُوا عَلَى مَعَارِفِهِم الأَصْلِيَّةِ خِبْرَةً بِأَحْوَالِ النَّاسِ وَتَعَوَّدُوا بِمُقْتَضَى وَظَائِفِهِم احْتِرَامَ أَعْمَالِ الْحُكُومَةِ وَعَرَفُوا جَمِيعَ الطُّرُقِ الَّتِى تُؤَيِّدُ فَوْزَهَا وَتُوجِبُ نَصْرَهَا، وَقَوْمٌ هَذِهِ صِفَاتُهُمْ يُظَنُّ أَنَّهُمْ أَوْلَى بِالانْتِخَاب لِكَوْنِهِمْ أَدْرَى بِمَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَحَقَّ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْعَدَدُ الْأَوْفَرُ بَيْنَ النُّوَّابِ وَيَكُونُوا أَعْدَلَ الْقُضَاةِ لِلْحُكْمِ فى الْمَنْفَعَةِ الْعَامَّةِ : وَلِبَيَانِ مَا فى هَذَا الظَّنِّ مِنَ الْخَطَإِ أَوِ الصَّوَابِ نَبْحَثُ فى الْمَنْفَعَةِ الْعَامَّةِ .

الْمَنْفَعَةُ الْعَامَّةُ تَقْتَضِى أن يَكُونَ ثَمَنُ الْحُكُومَةِ رَخِيصًا حَتَّى لا نُكَلِّفَ الْأُمَّةَ مِنَ الْمَالِ إلاَّ يَسِيرًا ، لَكِنَّ مَنْفَعَةَ الْمُوَظَّفِينَ تَقْتَضِى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الثَّمَنُ رَفِيعًا إِلَى حَدِّ الْإِمْكَانِ : فَبِقَدْرِ ضَخَامَةِ الميزَانِيَّةِ تُوجَدُ الْوَظَائِفُ تَحْتَ تَصَرُّفِ الْحُكُومَةِ وَتَمْتَدُّ الْأَطْمَاعُ لِنَيْلِهَا . أَلا تَرَى فى كلِّ سَنَةٍ أَنَّ النُّفُوسَ تَمِيلُ إِلَى التَّوْفِيرِ وَالِاقْتِصَادِ سَدًّا لِلْعَجْزِ الَّذِى يَزْدَادُ عَامًا بَعْدَ عَامٍ ، حَتَّى إِذَا حَانَ زَمَانُ الْبَحْثِ فى أَبْوَابِ الْمِيزَانِيَّةِ وَتَتَابَعَتِ الْفُصُولُ إِثْرَ بَعْضِهَا تَغَيَّرَ شُعُورُ

مَجْلِسِ النُّوَّابِ وَانْحَرَفَ ذَلِكَ المَيْلُ الْأَوَّلِيُّ وَتَحَرَّكَ الْخَمْسَةُ وَالتِّسْعُونَ مُوَظَّفاً بِحَرَكَةٍ شَدِيدَةٍ لَا دَافِعَ لَهَا أَمَامَ تِلْكَ المِيزَانِيَّةِ الَّتِي هِيَ دَجَاجَةُ الْبَيْضِ الذَّهَبِيِّ عِنْدَهُمْ وَقَامُوا يُدَافِعُونَ عَنْ حَوْزَةِ المَالِ الَّذِي عَاشُوا مِنْهُ وَإِلَيْهِ المَصِيرُ إِذْ خَرَجُوا مِنْ مَجْلِسِ النُّوَّابِ . وَلَهُمْ فِي دِفَاعِهِمْ نَصِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ لِأَمَلِهِمْ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ رَوَاتِبُ المَجْلِسِ أَنْ يَجِدُوا فِي الْحُكُومَةِ مَلْجَأً يَأْوُونَ إِلَيْهِ كَمَا يَفْعَلُ فَأْرُ الْقِصَّةِ المَشْهُورَةِ فِي الْجُبْنَةِ الْهُولَنْدِيَّةِ . وَلَمَّا كَانَتِ الْحِرَفُ الَّتِي تُقَدِّمُ الْأَمْوَالَ لِلْحُكُومَةِ أَقَلَّ عَدَداً فِي الْمَجْلِسَيْنِ مِنَ الَّتِي تَعِيشُ مِنْ ذَلِكَ المَالِ يَنْتَهِي الْأَمْرُ بِالْإِقْرَارِ عَلَى المِيزَانِيَّةِ وَيُؤَجَّلُ الِاقْتِصَادُ إِلَى أَجَلٍ غَيْرِ مُسَمًّى؛ إِلا أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَنْقَضِي بِالإِقْرَارِ عَلَى المَصْرُوفَاتِ ؛ لِذَلِكَ يَرْكُضُ (١) النُّوَّابُ نَحْوَ الِاقْتِرَاضِ وَوَضْعِ الضَّرَائِبِ الْجَدِيدَةِ رَغْماً مِنْ وُعُودِهِمِ الَّتِي وَعَدُوا بِهَا الَّذِينَ اسْتَنَابُوهُمْ وَهَكَذَا يَعْظُمُ الْعَجْزُ سَنَةً بَعْدَ أُخْرَى .

المَنْفَعَةُ الْعُمُومِيَّةُ تَقُومُ بِتَبْسِيطِ مَصَالِحِ الْحُكُومَةِ وَعَدَمِ الْإِكْثَارِ مِنْ أَنْوَاعِ فُرُوعِهَا حَتَّى يَسْهُلَ عَلَى النَّاسِ مَعْرِفَةُ جِهَاتِ أَشْغَالِهِمْ وَتَقَضِّي شُؤُونِهِمْ كَمَا يَنْبَغِي فِي زَمَنٍ قَصِيرٍ . وَمِنْ مَصْلَحَةِ المُوَظَّفِينَ بَقَاءُ التَّعْقِيدِ الْحَالِيِّ وَهُمْ يَنْجَحُونَ عَلَى الدَّوَامِ فِي تَأْيِيدِهِ

(١) يركض: يجرى

رَغْمًا مِنِ الْمُعَارِضِينَ فى بَقَائِهِ ، أَوْ عَنْ مَشْرُوعَاتِ الْإِصْلَاحِ الَّتِى تُقَدَّمُ فى كُلِّ حِينٍ . أَمَّا فَائِدَتُهُمْ مِنْ بَقَائِهِ على مَاهُوَ عَلَيْهِ فَهِىَ أَنَّ التَّعْقِيدَ يَجْعَلُ وُجُودَهُمْ لَازِمًا لِحَلِّ مُشْكِلَاتِهِ وَيُوَسِّعُ اخْتِصَاصَاتِهِمْ وَيُصَيِّرُ التَّنْقِيبَ (١) عَلَيْهِمْ عَدِيمَ الْجَدْوَى، وَبِهَذَا يَصِيرُونَ أَقْوِيَاءَ مُسْتَقِلِّينَ غَيْرَ مَسْئُولِينَ .

وَمِنَ الْمَنْفَعَةِ الْعُمُومِيَّةِ أَلَّا تَتَدَخَّلَ الْحُكُومَةُ فِى الْأَحْوَالِ الْخُصُوصِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْأَفْرَادِ أَوْ بِالْقُرَى كُلِّ وَاحِدَةٍ عَلَى انْفِرَادِهَا وَأَلَّا تَعُوقَ هِمَمَ الْأَفْرَادِ عَنِ الْعَمَلِ بِمَا يَنْبَعِثُونَ إِلَيْهِ فِى طَلَبِ مَصَالِحِهِمْ وَأَلَّا يَجِدَهَا الْإِنْسَانُ أَمَامَهُ كَسُورٍ مِنْ حَدِيدٍ يَصُدُّهُ كُلَّمَا تَحَرَّكَ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا أَوْ كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يُدِيرَ بِنَفْسِهِ أَقَلَّ الْأَعْمَالِ أَوْ يُؤَدِّىَ أَقْدَسَ الْوَاجِبَاتِ . وَمَصْلَحَةُ الْمُوَظَّفِينَ تُخَالِفُ كُلَّ هَذَا فَلَا تَقُومُ إِلَّا إِذَا تَدَخَّلُوا فِى كُلِّ شَىْءٍ يَتَعَلَّقُ بِالْقُرَى وَالْعَائِلَاتِ وَكُلَّمَا تَدَخَّلُوا زَادُوا عَدَدَ الْوَظَائِفِ، وَزِيَادَةُ الْوَظَائِفِ تَجُرُّ زِيَادَةَ الْمُوَظَّفِينَ ، وَهَذَا حَالٌ ضَرَرُهُ عَظِيمٌ خُصُوصًا أَنَّهُ عَامٌّ تَشْتَرِكُ فِيهِ جَمِيعُ الْأَحْزَابِ : فَمِنَ الْخَمْسَةِ وَالتِّسْعِينَ نَائِبًا وَاحِدٌ وَخَمْسُونَ مِنْ حِزْبِ الْيَمِينِ ، وَأَقَلُّ شَىْءٍ نَخْتَلِفُ فِيهِ هُوَ حُبُّنَا جَمِيعًا لِلْمِيزَانِيَّةِ فِى كُلِّ عَامٍ .

(١) أى تتبع أعمالهم

يُقَالُ إنَّ كَثْرَةَ عَدَدِ المُوَظَّفِينَ فى الشُّورَى غَيْرُ مَعِيبٍ لِأَنَّهُمْ أَدَارُوا حُكُومَةَ الْبِلَادِ كلها فاكتسبوا الخِبْرَةَ التَّامَّةَ فى أَعْمَالِهَا وَعَرَفُوا مَا يَضُرُّهَا وَمَا يَنْفَعُهَا ، وَأَصْبَحُوا نُوَّاباً مُحَنَّكِينَ . وَالحَقِيقَةُ أَنَّ خِدْمَةَ الْحُكُومَةِ لا تُرَبِّى إلاَّ أشَدَّ الرِّجَالِ الْعُمُومِيِّينَ بُغْضاً عِنْدَ النَّاسِ لِأَنَّهَا تَقْتُلُ فِى الرَّجُلِ هِمَّتَهُ الذَّاتِيَّةَ وَالِاسْتِقْلَالَ ، وَتُمِيتُ شُعُورَهُ بِتَبِعَةِ(١) مَا يَجْرِى عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَهِيَ الصِّفَاتُ الَّتِى لَا بُدَّ مِنْهَا فِيمَنْ تَعَرَّضَ لِسِيَاسَةِ الأُمَّةِ . فَإِنْ كَانَ الْمُوَظَّفُونَ مِنَ الحِزْبِ الْقَابِضِ عَلَى أَزِمَّةِ الأَحْكَامِ رَأَيْتَهُمْ تَبَعاً لِلْحُكُومَةِ قَدْ أَهْدَوْهَا اسْتِقْلَالَهُمْ بِمَا يَرْجُونَ مِنْ حِفْظِ مَرْكَزٍ أَوْ نَيْلِ وَظِيفَةٍ عِنْدَهَا . وَإِنْ كَانُوا مِنْ خُصُومِهِ فَهُمْ أَعْدَاؤُهُ لِأَنَّهُمْ خُصُومُهُ يُحَاوِلُونَ إِسْقَاطَهُ لِكَىْ يَسْقُطَ فَهُمْ ثَوْرِيُّونَ طَبْعاً بِمَحْضِ أَنَّهُمْ خُصُومٌ . ضَعْ نَفْسَكَ بَيْنَهُمْ تَجِدْهُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إِمَّا الْمَوْتِ أَوِ الْحَيَاةِ ، لِأَنَّ الخِدْمَةَ لَمْ تُؤَهِّلْهُمْ لِكَسْبِ عَيْشِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ فَأَصْبَحُوا وَلَا عِيشَةَ لَهُمْ إِلاَّ فِي مَخَادِعِ(٢) الْوَظَائِفِ الْعُمُومِيَّةِ . إِذَنْ لَا عَجَبَ أَنْ يُحَوِّلُوا وِجْهَتَهُمْ إِلَى قِبْلَةٍ وَاحِدَةٍ أَلَا وَهِىَ خَرَابُ بَصْرَةَ ، أَىْ قَلْبُ حُكُومَةِ الْخُصُومِ .

لِهَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ فِي مَجْلِسِ النُّوَّابِ أَغْلَبِيَّةٌ مِنْ أَصْحَابِ الْمَنَافِعِ الْحَقِيقِيَّةِ فِى الْبِلَادِ حَتَّى تَضُمَّ الْمُوَظَّفِينَ وَتَقْصُرَهُمْ عَلَى دَائِرَةِ

(١) يريد المسئولية (٢) يريد أمكنة

لاَ يَظْهَرُ معها ضَرَرُهُمْ ، وَيَجِبُ أَنْ تَتَأَلَّفَ تِلْكَ الْأَغْلَبِيَّةُ مِنْ أَهْلِ الحِرَفِ الثَّلاَثِ الَّتِى وَضَعْنَاهَا فِى أَصْلِ الشَّكْلِ الَّذِى قَدَّمْنَاهُ : وَهِىَ الزِّرَاعَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَالتِّجَارَةُ، وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَّ عَدَدَ نُوَّابِهَا قَلِيلٌ وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْأَخْيَارِ .

هَذَا هُوَ عَيْبُ نِظَامِ حُكُومَتِنَا ، وَلِذَلِكَ فَالْمُوَازَنَةُ مَفْقُودَةٌ فِى مَجَالِسِنَا تَدُومُ دَوَامَ اليَقْطِينِ (١) لِأَنَّ الْأَغْلَبِيَّةَ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الْمُوَظَّفِينَ وَأَهْلِ الحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ ، فَقَدْ بَلَغَ عَدَدُهُمْ ثَلاَثَمِائَةٍ وَخَمْسَةً وَسِتِّينَ فِى مُقَابِلِ مِائَةٍ وَخَمْسَةٍ وَثَلاَثِينَ نَائِباً عَنِ الحِرَفِ الجَارِيَةِ الثَّلاَثِ .

رَأَى الْقُرَّاءُ أَنَّ الشَّكْلَ الَّذِى قَدَّمْنَاهُ إِلَيْهِمْ يُشْبِهُ الحِجَارَةَ الْعَظِيمَةَ الْمُتَزَعْزِعَةَ لِقِيَامِهَا عَلَى أَسَاسٍ ضَيِّقٍ تَمُوجُ فِى كُلِّ صَوْبٍ (٢) لِأَقَلِّ صَدْمَةٍ تُلاَقِيهَا . أَمَّا تِلْكَ الْأَحْجَارُ الْعَتِيقَةُ فَثَابِتَةٌ ، أَعْنِى أَنَّهَا تُقَاوِمُ تَقَلُّبَاتِ الحَوَادِثِ رَغْماً مِمَّا بِهَا مِنَ الاهْتِزَازِ وَتَمُرُّ عَلَيْهَا الْأَجْيَالُ وَهِىَ بَاقِيَةٌ . وَمِنْ سُوءِ حَظِّنَا أَنَّ الحَالَ لَيْسَ كَذَلِكَ عِنْدَنَا فَالنِّيَابَةُ المِلِّيَّةُ فِى فَرَنْسَا تَجْرِى مَعَ كُلِّ رِيحٍ تَهُبُّ مِنْ جَانِبِ الْأَفْكَارِ وَتَسْقُطُ إِلَى حَيْثُ تَمِيلُ تَارَةً فِى الشِّمَالِ وَتَارَةً فِى الْيَمِينِ ، فَتُهَشِّمُ فِى سُقُوطِهَا المَنَافِعَ الثَّلاَثَ الَّتِى رَزَحَتْ تَحْتَ أَثْقَالِهَا وَأَمْسَتْ عَاطِلَةً . مَعَ أَنَّهَا هِىَ المَنَافِعُ الْعُمُومِيَّةُ الحَقِيقِيَّةُ فِى الْبِلاَدِ .

(١) اليقطين: ما لا ساق له من النبات كالقثاء، وغلب على القرع المستدير وهو المراد هنا
(٢) جهة .

الْفَرْقُ بَيْنَ حَالِنَا وَحَالِ الْأُمَّةِ الْإِنْكلِيزِيَّةِ فِي هَذَا عَظِيمٌ . تَرَى شَكْلَ نِظَامِ النِّيابَةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ لَا يُمَثِّلُ ذَلِكَ الْحَجَرَ الَّذِي اخْتَلَّ مَرْكَزُ ثِقَلِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُمَثِّلُ أَهْرَامَ الْفَرَاعِنَةِ ذَوَاتَ الْقَوَاعِدِ الْعَرِيضَةِ الْقَوِيمَةِ . هُنَاكَ تَرَى نِسْبَةَ التَّوَازُنِ مَرْعِيَّةً ، وَكُلَّ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِ الْأُمَّةِ مُسْتَوِياً فِي مَكَانِهِ وَنِسْبَةَ تَغَيُّرِهِ عَلَى قَدْرِ الْمَنْفَعَةِ الْعُمُومِيَّةِ الَّتِي يُشَخِّصُهَا ، وَتَرَى الْحِرَفَ الْأَدَبِيَّةَ قَدِ انْحَصَرَتْ فِي دَائِرَةٍ مَقْبُولَةٍ ، فَزَالَ شَرُّهَا بَلْ صَارَتْ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ زُخْرُفاً مَلِيًّا وَرُكْناً مُهِمًّا مِنْ أَرْكَانِ التَّقَدُّمِ فِي الْأَفْكَارِ وَالْآدَابِ وَمُلَطِّفاً لِمَا عَسَاهُ يَتَأَتَّى مِنَ الْإِفْرَاطِ مِنْ جَانِبِ أَهْلِ الْحِرَفِ الْجَارِيَةِ.

الضَّرَرُ عِنْدَنَا كُلُّ الضَّرَرِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَنَا نُوَّابٌ طَبِيعِيُّونَ .

وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ مَنِ النَّائِبُ الطَّبِيعِيُّ فَاقْرَأْ مَا كَتَبَهُ (تاين) (مُذَكَّرَاتٍ عَلَى إِنْكِلْتِرَه صَحِيفَةَ ٢١٧ إِلَى ٢١٨) حَيْثُ يَقُولُ :

« إِنَّا لَنَعْجَبُ بِاسْتِقْرَارِ الْحُكُومَةِ الْإِنْكلِيزِيَّةِ ، وَلَكِنْ لَا عَجَبَ لِأَنَّهَا الْخُلَاصَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِتِلْكَ الْعَنَاصِرِ الْحَيَّةِ الَّتِي عَلِقَتْ بِالْأَرْضِ فِي جَمِيعِ أَنْحَاءِ الْبِلَادِ ، وَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّ الْحَرَكَةَ ثَوْرِيَّةٌ كَحَرَكَةِ اللُّورْد غردون قَامَتْ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَدَارَتْهَا يَدُ أَكْثَرِ تَجَارِبَ وَأَمْهَرُ سِيَاسَةً ، وَأَضَفْنَا إِلَيْهَا مَطَالِبَ الْفَوْضَوِيِّينَ ، وَضَمَمْنَا إِلَيْهَا رِجَالَ الْجَيْشِ ـ وَإِنْ كَانَ مُحَالاً ـ وَحَسِبْنَا أَنَّ النَّتِيجَةَ الْعَاجِلَةَ الْكُلِّيَّةَ هِيَ تَقْوِيضُ أَرْكَانِ الْمَجْلِسَيْنِ وَمَحْقُ آثَارِ الْعَائِلَةِ الْمَلَكِيَّةِ ، ثُمَّ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْبِلَادِ

بَعْدَ ذَلِكَ رَأَيْنَا أَنَّ قِمَّةَ الْحُكُومَةِ هِيَ الَّتِي دَفَتْ آثَارُهَا وَمَا دُونَهَا بَاقٍ لَمْ يَمْسَسْهُ سُوءٌ، لأَنَّكَ تَجِدُ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ وَكُلِّ وِلَايَةٍ عَائِلَاتٍ ثَابِتَةَ الدَّعَائِمِ تَجْتَمِعُ حَوْلَهَا عَائِلَاتٌ مِثْلُهَا، وَرِجَالاً ذَوِي مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ مِنَ الْمُهَذَّبِينَ وَأَهْلِ الأَحْسَابِ تَبْعَثُهُمْ هِمَمُهُمْ إِلَى قِيَادَةِ الزِّمَامِ وَالتَّقَدُّمِ إِلَى الإِمَامِ وَلِلنَّاسِ فِيهِمْ ثِقَةٌ فَيَتْبَعُونَهُمْ لأَنَّهُمْ أَبْنَاءُ بَجْدَتِهَا (١) بِمَا عُرِفُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ مِنْ عُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ وَسَعَةِ الْمَالِ وَسَابِقِ الْخِدَمِ، وَبِمَا أُوتُوا مِنَ التَّرْبِيَةِ وَحَازُوا مِنَ النُّفُوذِ، وَمِنْهُمُ الضُّبَّاطُ وَالْقُوَّادُ الَّذِينَ تَلْتَفُّ حَوْلَهُمُ الْجُنُودُ الْمُشَتَّتَةُ فَيَرْجِعُ الْجَيْشُ عَلَى الْفَوْرِ إِلَى نِظَامِهِ، بِخِلَافِ الأُمَّةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ فَإِنَّ أَوَاسِطَ النَّاسِ فِيهَا وَالْفَعَلَةَ وَالشُّرَفَاءَ وَأَهْلَ الأَرْيَافِ كُلٌّ يَحْذَرُ رَفِيقَهُ، وَكُلُّهُمْ مُتَخَالِفُونَ مُتَبَاغِضُونَ خَائِفُونَ، وَلَا رَئِيسَ إِلَّا الْمُوَظَّفُونَ الَّذِينَ هُمْ عَنْهُمْ أَجْنَبِيُّونَ وَالَّذِينَ هُمْ فِي وَظَائِفِهِمْ وَاجِفُونَ (٢) مُوَقَّتُونَ، وَالَّذِينَ لَا يُطِيعُهُمْ أَحَدٌ إِلَّا طَاعَةَ الْخَوْفِ بِلَا مَيْلٍ قَلْبِيٍّ وَلَا احْتِرَامٍ شَخْصِيٍّ، قَدِ احْتَمَلَهُمُ الْمَحْكُومُونَ وَهُمْ فِي احْتِمَالِهِمْ مُسَيَّرُونَ لَا مُخَيَّرُونَ، هَكَذَا كَانَتْ حُكُومَةُ الإِنْكِلِيزِ ثَابِتَةً لأَنَّ لِلإِنْكِلِيزِ نُوَّاباً طَبِيعِيِّينَ» .

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ صَحِيفَةَ (١٩٠) «لَيْسَتِ الْمُدُنُ فِي بِلَادِ الإِنْكِلِيزِ، كَمَا هِيَ عِنْدَنَا، الْمَوْطِنَ الْمُخْتَارَ. فَإِنَّا إِذَا اسْتَثْنَيْنَا الْمُدُنَ الصِّنَاعِيَّةَ

(١) تقول عنده بجدة ذلك: أى علمه، ومنه يقال: هو ابن بجدتها للعالم بالشىء المتقن له المميز له (٢) مضطربون

لا نرى أحداً يسكن عواصم الأرياف مثل مدينة يورك إلا البياعين الشرائين. أما خلاصة الأمة وعظماؤها فبعيداً عن المدن يسكنون ومقامهم الضياع والأرياف حتى إن مدينة لوندره نفسها أصبحت ملتقى أهل الأعمال لا موطناً لأكابر الرجال».

ما أسعد الأمم التي أسندت ظهرها إلى نوابها الطبيعيين فتمكنت بذلك من إيجاد النسبة بين عناصرها في النيابة الملية.

الفصل الثاني

﴿ السبب في أن الإنكليز السكسونيين ﴾

(أبعد عن مذهب الاشتراكيين من الألمانيين والفرنساويين)

لحوادث الاجتماعية كالنبات لكل نوع منها منبت مخصوص يظهر فيه، والبذرة الواحدة لا تنبت في جميع الأقاليم بكيفية واحدة، بل للوسط تأثير فيها كما أن له تأثيراً في كل شيء.

ومذهب الاشتراكيين لم يشذ عن هذه القاعدة، ومن الواجب أن نعرف تاريخه كما ينبغي حتى نقف على حقيقة ذلك المذهب وترقيه.

أَصْلُ نَشْأَةِ مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ وَأَوَّلُ تَكْوِينِهِ كَانَ فِي الْبِلَادِ الأَلْمَانِيَّةِ ، فَفِيهَا مَنْبَعُهُ وَمِنْهَا انْتَشَرَ فِي بَقِيَّةِ أَرْجَاءِ الْمَسْكُونَةِ. ذَلِكَ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الاشْتِرَاكِيُّونَ وَالَّذِينَ كَتَبُوا عَلَى مَذْهَبِهِمْ قَالَ مُوسْيُو (دولافلى) فِي كِتَابِهِ (مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ فِى الْعَصْرِ الْحَاضِرِ) صَفْحَةَ (٥) نَقْلاً عَنْ (بامبرجر) أَحَدِ النُّوَّابِ الْأَلْمَانِيِّينَ مَا نَصُّهُ : « مِنَ الْغَرِيبِ أَنَّ أَفْكَارَ الاشْتِرَاكِيِّينَ لَمْ تَجِدْ مَجَالاً فِى أَىِّ بَلَدٍ كَمَا وَجَدَتْ فِى أَلْمَانِيَا ، فَإِنَّهَا لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى الْفَعَلَةِ بَلِ انْجَذَبَتْ إِلَيْهَا الطَّبَقَةُ الْوُسْطَى حَتَّى سَمِعْنَا أَهْلَهَا مِرَاراً يَقُولُونَ : رُبَّمَا صَارَ الْحَالُ أَحْسَنَ مِمَّا هُوَ الآنَ إِذَا جَرَى الْعَمَلُ بِالْمَذْهَبِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ سَبَباً يَمْنَعُ مِنَ التَّجْرِبَةِ . وَقَدِ اخْتَرَقَ ذَلِكَ الْمَذْهَبُ الطَّبَقَاتِ الْعَالِيَةَ فِى الْأُمَّةِ وَدَخَلَ فِى جَمْعِيَّةِ الْمَعَارِفِ وَاسْتَوَى[1] عَلَى كَرَاسِيِّ الْمُدَرِّسِينَ . وَالْعُلَمَاءُ هُمُ الَّذِينَ رَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالشَّكْوَى مِنَ الْحَالَةِ الْحَاضِرَةِ ، فَتَبِعَتْهُمْ جَمْعِيَّاتُ الْفَعَلَةِ وَالصُّنَّاعِ ، وَالْمُحَافِظُونَ هُمُ الَّذِينَ نَدَّدُوا بِالاخْتِصَاصِ بِالْأَمْلَاكِ ، وَنَادَوْا بِالْوَيْلِ عَلَى رَأْسِ الْمَالِ ، وَلَسْنَا نَرَى نَظِيراً لِذَلِكَ فِى بَلَدٍ آخَرَ » وَقَالَ فِى مُقَدِّمَةِ ذَلِكَ الْكِتَابِ نَقْلاً عَنْ نَائِبٍ أَلْمَانِيٍّ آخَرَ فِي كَلَامٍ لَهُ أَمَامَ مَجْلِسِ النُّوَّابِ مَا يَأْتِي : « لَقَدْ حَطَّ جَيْشُ مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ رِحَالَهُ فِي الْبِلَادِ الْأَلْمَانِيَّةِ وَتَرَبَّى عِنْدَنَا التَّرْبِيَةَ الْفَلْسَفِيَّةَ وَالْعِلْمِيَّةَ » .

(١) استولى

وَفي الْوَاقِعِ يَجِدُ الْبَاحِثُ فى أَلْمَانيا جميعَ شِيَعِ هَذَا الْمَذْهَبِ: فَمِنْهُمُ الثَّوْرِيُّونَ وَمِنْهُمُ الْمُحَافِظُونَ وَمِنْهُمُ الإِنْجِيلِيُّونَ (١) وَالْكَاثُولِيكِيُّونَ وَالْمُدَرِّسُونَ في المَدَارِسِ. وَهَذَا الانْتِشَارُ يَدُلُّ بِذَاتِهِ عَلَى أَنَّ جَوَّ الْبِلَادِ الْأَلْمَانِيَّةِ يُلَائِمُ هَذِهِ الْمَذَاهِبَ وَيُسَاعِدُ عَلَى انْتِشَارِهَا وَهُوَ يَظْهَرُ كَثِيراً أَيَّامَ الانْتِخَابَاتِ، فَلِلثَّوْرِيِّينَ مِنْ أَهْلِهِ قِسْمٌ كَبِيرٌ في مَجْلِسِ النُّوَّابِ وَكَانَ عَدَدُ الْأَصْوَاتِ الَّتى أَصَابَتْ الْمُرَشَّحِينَ مِنْهُمْ في الانْتِخَابَاتِ الْأَخِيرَةِ قَرِيباً مِنْ مِلْيُونٍ وَنِصْفِ مِلْيُونٍ، فَإِذَا أَضَفْنَا إِلَيْهِمْ أَهْلَ الْفِرَقِ الأُخْرَى كَانَتِ الأَغْلَبِيَّةُ في مَجْلِسِ النُّوَّابِ الأَلْمَانىّ لِلاشْتِرَاكِيِّينَ.

تَخْتَلِفُ فِرَقُ الاشْتِرَاكِيِّينَ فى مَقَاصِدِهَا وَمَطَالِبِهَا، إلاَّ أَنَّهَا مُتَّفِقَةٌ كُلُّهَا عَلى أمْرٍ وَاحِدٍ هُوَ لُبُّ الْمَذْهَبِ وَرَايَتُهُ الَّتى تَخْفِقُ فَوْقَ رَأْسِ الْجَمِيعِ وَعَلَامَتُهُ الْخَاصَّةُ، وَهُوَ وُجُوبُ حَلِّ جَمِيعِ الْمَسَائِلِ الاجْتِمَاعِيَّةِ بِالْقَانُونِ أَوْ بِتَدَخُّلِ الْحُكُومَةِ، فَكُلُّهَا تُعَلِّلُ النَّفْسَ بِحُكُومَةٍ تُقَرِّرُ طَرِيقَةَ الشُّغْلِ وَتُحَدِّدُ الْمِلْكِيَّةَ وَتُقَدِّرُ الأُجُورَ وَتَتَكَفَّلُ بِإِسْعَادِ الأُمَّةِ فى مَجْمُوعِهَا وَفى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُنْفَرِداً بِحَيْثُ تَصِيرُ الْحُكُومَةُ رَئِيساً عَامًّا لِلْكُلِّ. وَبِالْجُمْلَةِ فَالْحُكُومَةُ هِىَ كَعْبَةُ الآمَالِ الْجَدِيدَةِ الَّتى يَحُجُّ إِلَيْهَا الاشْتِرَاكِيُّونَ عَلَى اخْتِلَافِ مَشَارِبِهِمْ. وَلِكَىْ يَتَبَيَّنَ هذَا نَأْتى عَلى طَرَفٍ مِنْ أَحْوَالِ كُلِّ فَرِيقٍ:

(١) يريد البروتستانت أتباع لوثر

أَقْرَبُهُمْ إلى المَعْقُول هُمُ الثَّوْرِيُّونَ لأنَّهُمْ يَذهَبُونَ بِرَأْيِهِمْ إلى آخِرِ مَا يُؤَدِّي إليْهِ ، وَتكادُ الْفِرَقُ الأُخْرَى لا تَعْمَلُ إلاَّ لِخِدْمَتِهِمْ ، إذْ مِنْ عَادَةِ الْفِكْرِ الإِنْسَانِيِّ مَتَى قُذِفَ بِهِ فِى مُنْحَدَرٍ أنْ يَسِيرَ حَتَّى يَبْلُغَ النِّهَايَةَ ، وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِى ازْدِيَادِهِمْ عَلَى الدَّوَامِ . وَمِنْ بَيْنِهِمْ نَبَغَ أُسْتَاذُ مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ الْحَالِيِّ الَّذِى أَكْمَلَ مَبَانِيَهُ وَكَانَ لِرَأْيِهِ تَأْثِيرٌ فِى جَمِيعِ الْفِرَقِ حَتَّى الْمُحَافِظِينَ وَالْمُدَرِّسِينَ وَهُوَ (كارل مركس) وَرَأْيُهُ مَبْسُوطٌ فِى كِتَابِهِ الْمُسَمَّى (رَأْسُ الْمَالِ) كِتَابٌ كلُّهُ قَضَايَا عَقْلِيَّةٌ كَقَضَايَا الحِسَابِ ، بَلْ هُوَ أَصْعَبُ مِنْهَا قِرَاءَةً وَأَتْعَبُ فَهْماً . وَمَبْنَى طَرِيقَتِهِ عِدَّةُ اسْتِنْتَاجَاتٍ مُتَرَتِّبَةٍ عَلَى حُدُودٍ وَتَعَارِيفَ وَفَرْضِيَّاتٍ وَحَدْسِيَّاتٍ(١) . فَبِإِحْدَى الْقَضَايَا يَهْدِمُ الْمُجْتَمَعَ الإِنْسَانِيَّ الحَاضِرَ ، وَبِثَانِيَةٍ يَبْنِيهِ عَلَى أُسٍّ جَدِيدٍ . وَمِنْ رَأْيِهِ (أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ الْوَحْدَةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتى يُمْكِنُ تَقْدِيرُ قِيمَةِ جَمِيعِ الْمَصْنُوعَاتِ بِحَسَبِهَا وَمَعْرِفَةُ الْفَرْقِ بَيْنَ بَعْضِ الأَنْوَاعِ وَبَعْضِهَا » . إذَنْ فَالعَمَلُ - وَإِنْ شِئْتَ فَقُلِ الْعَامِلُ - هُوَ الَّذِى يُوجِدُ رَأْسَ المَالِ . وَعَلَيْهِ فَرَأْسُ المَالِ ، كَمَا وُجِدَ الْيَوْمَ ، إِنَّمَا هُوَ نَتِيجَةُ تَعَدٍّ وَاغْتِصَابٍ . وَمِنْ هُنَا وَجَبَ رَدُّ المَالِ لِمَالِكِهِ الْحَقِيقِيِّ ، وَالْمَالِكُ الْحَقِيقِىُّ هُوَ مَجْمُوعُ الْفَعَلَةِ وَالْعُمَّالِ أَعْنِي أَنَّهُ يَجِبُ رَدُّ المَالِ إِلَى الْجَمْعِيَّةِ ذَاتِهَا

(١) الحدس: الظن والتخمين

وَهِيَ الْكلُّ . وَهَكَذَا أَخذَ المُؤَلِّفُ يَترَقَّى مِنْ رُتْبَةٍ إِلى رُتْبَةٍ حَتَّى انْتَهَى بِاعْتِبَارِ الْحُكُومَةِ رَئِيساً عَامًّا هُوَ الَّذِى عَلَيْهِ إِدَارَةُ الْعَمَلِ كلِّهِ وَتَقْسِيمُ ثَمَرَتِهِ بَيْنَ الْجَمِيعِ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ . وَقَدْ تَلَقَّى الاشْتِرَاكِيُّونَ الثَّوْرِيُّونَ هَذِهِ المَبَادِئَ وَاسْتَخْلَصُوا مِنْهَا طَرِيقَةً قَرَّرُوهَا بَيْنَهُمْ سَنَةَ ١٨٧٧ فى مُؤْتَمَرِ « غوطا » . وَإِلَيْكَ أَهَمَّ مَاتَقَرَّرَ :

« إِنَّ الْعَمَلَ مَنْبَعُ كلِّ ثَرْوَةٍ وكلِّ تَمَدُّنٍ ، وَلَمَّا كَانَ الْعَمَلُ الْعَامُّ الْمُفِيدُ لَا يَتَيَسَّرُ إِلَّا لِلْأُمَّةِ كلِّهَا فَالثَّمَرَةُ كلُّهَا مِلْكٌ لَهَا أَىْ لِجَمِيعِ أَفْرَادِهَا وَلِكُلِّ وَاحِدٍ الْحَقُّ فِى نَصِيبٍ يُنَاسِبُ حَاجَاتِهِ الَّتِى يَقْبَلُهَا الْعَقْلُ ، وَعَلى الْجَمِيعِ أَنْ يَعْمَلُوا .

إِنَّ آلَاتِ الْعَمَلِ فى الْهَيْئَةِ الْحَاضِرَةِ مُحْتَكَرَةٌ بَيْنَ أَيْدِى ذَوِى الْأَمْوَالِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ كَانَ الْفَعَلَةُ مُسَيَّرِينَ بِإِمْرَتِهِمْ ؛ وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِى الشَّقَاءِ وَالاسْتِعْبَادِ عَلى اخْتِلَافِ طُرُقِهِ وَأَحْوَالِهِ . وَعِتْقُ(١) النَّاسِ مِنْ هَذَا الْحَالِ يَقْتَضِى أَنْ تَصِيرَ تِلْكَ الْآلَاتُ كلُّهَا مِلْكاً عَامًّا لِلْهَيْئَةِ بِتَمَامِهَا ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَضَعَ نِظَاماً لِجَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَأَنْ يَكُونَ عَمَلُ الْكُلِّ لِمَنْفَعَةِ الْكُلِّ وَأَنْ تُقْسَمَ الثَّمَرَةُ عَلى الْجَمِيعِ بِلَا غَبْنٍ(٢) وَلَا تَمْيِيزٍ » .

(١) يريد تحريرهم (٢) غبنه فى البيع: خدعه، فهو من هذا

أَمَّا كَيْفِيَّةُ الْإِجْرَاءِ فِى الْهَيْئَةِ الجديدةِ الَّتى يَطْلُبُونَهَا فَهُوَ أَنْ يَصِيرَ كلُّ فَرْدٍ عَامِلاً فى عَمَلٍ حَيْثُ كان، وَيُعْطَى لِكلِّ عَامِلٍ أَجْرُهُ على كلِّ عَمَلٍ أَتَمَّهُ بِاعتِبَارِ مُتَوَسِّطِ السَّاعَاتِ الَّتى تَلْزَمُ إِتمَامِ ذَلِكَ الْعَمَلِ وَيُدْفَعَ لَهُ فى ذَلِكَ وَثَائِقُ تَدُلُّ على عَمَلِهِ لِيَسْتَبْدِلَ بِهَا مَا يُرِيدُ مِنَ الْمَصْنُوعَاتِ، وَتُوضَعَ هَذِهِ الْمَصْنُوعَاتُ فى مَخَازِنَ عُمُومِيَّةٍ يُصَرَّحُ لِلْمُوَكَّلِينَ بِهَا بِاسْتِبْدَالِ الْبَضَائِعِ بِالْوَثَائِقِ وَالْوَثَائِقِ بِالْبَضَائِعِ. وَتَصِيرُ الْعَقَارَاتُ بِأَنْوَاعِهَا مِلْكاً لِلْحُكُومَةِ وَيَعِيشُ كلُّ انْسَانٍ مِنَ الْعَمَلِ أَوِ الْوَظِيفَةِ الَّتى كُلِّفَ إِيَّاهَا فَلَا يَدَّخِرُ الرَّجُلُ إِلاَّ الْيَسِيرَ وَلَا يَتْرُكُ لِوَرَثَتِهِ إِلَّا مَا كَانَ مَالاً مَنْقُولاً.

وَأَشْهَرُ رُؤَسَاءِ فَرِيقِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ الثَّوْرِيِّينَ فِي هَذَا الْحِينِ ثَلَاثَةٌ هُمْ مُوسْيُو « بيبيل » و « ليبكنخت » و « ڤولمار » وَالْأَوَّلُ كَانَ صَانِعاً بِيَدِهِ فى أَحَدِ الْمَعَامِلِ، وَالثَّانِى مِنْ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْوُسْطَى، وَالثَّالِثُ مِنْ أَقْدَمِ الْعَائِلَاتِ الْعَظِيمَةِ فِي بِلَادِ « باڤير » وَكَانَ مِنْ ضُبَّاطِ الْجَيْشِ الْأَلْمَانِيِّ وَالْجَيْشِ الْبَابَوِيِّ. وَأُولَئِكَ الرُّؤَسَاءُ الثَّلَاثَةُ يُشَخِّصُونَ حَقِيقَةَ مَذْهَبِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ فى أَلْمَانْيَا كَمَا يَنْبَغِى وَيَدُلُّونَ عَلَى أَنَّ جُذُورَهُ تَمْتَدُّ فى أَعْمَاقِ الطَّبَقَاتِ النَّازِلَةِ وَتَنْتَشِرُ فُرُوعُهُ بَيْنَ الْأَوَاسِطِ حَتَّى تَصِلَ أَعْلَى دَرَجَةٍ فى النَّاسِ. وَقَدْ أَصْبَحَتْ أَلْمَانْيَا مُتَشَبِّعَةً بِهَذَا الْمَذْهَبِ مِنْ تَحْتِهَا وَمَنْ فَوْقِهَا عَلَى اخْتِلَافِ

فى الدَّرَجَةِ وَتفَاوُتٍ فى قُوَّةِ الِانْتِشَارِ . وَمَعَ هذَا فمُرِيدُو[١] الطَّائِفَةِ الثَّوْرِيَّةِ هُمْ مِنَ الطَّبَقَةِ النَّازِلَةِ إِلاَّ قَلِيلاً ، وَأَمَّا الْأَوَاسِطُ وَالْأَشْرَافُ فَإِنَّهُمْ يُفَضِّلُونَ الطَّوَائِفَ الْأُخْرَى لِأَنَّهَا أَكْثَرُ اعْتِدَالاً وَهِيَ الَّتِى بَقِيَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا.

قَدَّمْنَا أَنَّهُ يُوجَدُ فى أَلمَانْيَا بَيْنَ فِرَقِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ فِرْقَةٌ تُسَمَّى بِالْمُحَافِظِينَ ، وَلَاحَظَ مُوسْيُو « دولافلى » صَفْحَةَ (٣٣) أَنَّ كَلِمَتَىْ اشْتِرَاكِيِّينَ وَمُحَافِظِينَ مُتَنَافِرَتَان ، لِأَنَّ الِاشْتِرَاكِيَّ يَرْمِى إِلَى هَدْمِ مَا بَنَاهُ الْمُحَافِظُ وَمَعَ هذَا فَقَدْ وُجِدَ حِزْبٌ اتَّخَذَ الْكَلِمَتَيْنِ اسْماً لَهُ ! وَلَيْسَ مِنَ الْمُجَازَفَةِ[٢] أَنْ نَقُولَ : إِنَّ أَشْهَرَ رَئِيسٍ لَهُ هُوَ الْبرنْس دِى بِسْمَارْكَ عَلَى نَوْعٍ مَّا . وَلَا تَذْهَبُ هَذِهِ الْفِئَةُ كَسَابِقَتِهَا إِلَى وُجُوبِ إِلْقَاءِ آلَاتِ الْعَمَلِ كُلِّهَا بَيْنَ يَدَىِ الْحُكُومَةِ، وَإِنَّمَا يَصْدُقُ عَلَيْهَا اسْمُ الِاشْتِرَاكِيِّينَ لِأَنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى حَلِّ جَمِيعِ الْمَسَائِلِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ بِوَضْعِ نِظَامٍ مُحْكَمٍ وَزِيَادَةِ تَدَخُّلِ الْحُكُومَةِ حَتَّى تَصِيرَ مَنُوطاً[٣] بِهَا إِدَارَةُ الْعَمَلِ وَتَقْدِيرُ الْأُجُورِ وَسَنُّ الْقَوَاعِدِ لِجَمِيعِ طُرُقِ الإِنْتَاجِ وَالتَّحْصِيلِ ، وَرِجَالُ هَذِهِ الْفِئَةِ هُمْ فى الْغَالِبِ مِنَ الأَوَاسِطِ الَّذِينَ يَخَافُونَ مِنْ مَذْهَبِ الثَّوْرِيِّينَ وَيُرِيدُونَ الْهَرَبَ مِنْ غَائِلَتِهِمْ[٤] بِدَفْعِ الأُمَّةِ كُلِّهَا إِلَى حِمَى الْحُكُومَةِ كَأَنَّهُمْ

(١) يريد أتباع (٢) جازف فى كلامه: أى تكلم من غير قانون وبدون تبصر ، وهو من المجازفة فى البيع والجزاف هو البيع والشراء بلا وزن ولا كيل وعلى التخمين (٣) معلقا (٤) شرهم

يَقولُونَ لهَا (اعْمَلِى أَنْتِ مَا هُمْ عَامِلُونَ إِنَّ فِى ذَلِكَ نجاتَنَا أَجْمَعِينَ) وَكلٌّ يَعْلَمُ مُسارَعَةَ إِمْبرَاطُورِ الْمَانيَا الشَّابِّ الَّذِى يرَى أَنَّهُ خَبيرٌ بكلِّ شَىْءٍ إِلَى تلْبيةِ[1] هَذَا النِّدَاءِ، لِذَلِكَ أَتَى بمُظَاهرَاتٍ عِدَّةٍ كانَتْ عَقِيمَةَ الْعَاقِبَةِ بِقْدَارِ مَا دَوَّتْ[2] فِى الْأَرْجَاءِ، وَهُوَ الْيَوْمَ الرَّئِيسُ لِحِزْبِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ المُحَافِظِينَ.

وَأَمَّا فِئَةُ الِاشْتِرَاكِيِّينَ الْإِنْجِيلِيِّينَ فَسُمِّيَتْ كَذَلِكَ لِأَنَّ رُؤَسَاءِهَا مِنْ رُعَاةِ الْكَنِيسَةِ الرَّسْمِيَّةِ، وَقَدْ قَامَتْ كالَّتِى قَبْلَهَا لِتُؤَيِّدَ الْمَلَكِيَّةَ فِى الْأَذْهَانِ وَتُسَاعِدَ عَلَى انْتِشَارِ نُفُوذِ الملِكِ، مُتَذَرِّعَةً[3] فِى ذَلِكَ بِمَذْهَبِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ. وَهِىَ أَيْضًا تَطْلُبُ حَلَّ الْمَسَائِلِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ مِنَ الزِّيَادَةِ فِى وَظِيفَةِ الْحُكُومَةِ وَتَأْيِيدِ تَدَخُّلِهَا حَتَّى تَكُونَ الرَّئِيسَ الْعَامَّ لِجَمِيعِ النَّاسِ. وَإِلَيْكَ طَرَفًا مِنْ مَقَاصِدِهَا:

(إِنَّ حِزْبَ الْفَعَلَةِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ المَسِيحِىَّ مُؤَسَّسٌ عَلَى الِاعْتِقَادِ الدِّينِيِّ وَالوَلَاءِ لِلملِكِ وَالْوَطَنِ، وَهُوَ يَطْلُبُ مِنَ الْحُكُومَةِ إِيجَادَ طَوَائِفَ لِلْحِرَفِ مُمْتَازَةٍ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ بِحَيْثُ يَكُونُ لِكُلٍّ مِنْهَا نِظَامٌ قَانُونِيٌّ فِى جَمِيعِ المَمْلَكَةِ، وَيَكُونُ مِنْ مُقْتَضَى ذَلِكَ النِّظَامِ تَحْدِيدُ شُرُوطِ الِاحْتِرَافِ تَحْدِيدًا دَقِيقًا، وَأَنْ تُشَكَّلَ مَجَالِسُ تَحْكِيمٍ تَكُونُ قَرَارَاتُهَا نَافِذَةً عَلَى أَصْحَابِ الشَّأْنِ فِيهَا، وَأَنْ تُنْشَأَ صَنَادِيقُ

(١) إجابة (٢) صار لها دوى (٣) متوسلة

لِإعانةِ الأرامل واليتامى وعجزة العمل ، وأن تحدد ساعات الشغل على حسب طبيعة العمل ، وأن تستغل(١) أملاك الحكومة وأملاك القرى لفائدة الفعلة ، ويزاد على تلك الأملاك كلما كان ذلك مفيداً من الجهتين الاقتصادية والفنية ، وأن يضرب على الإيراد خراج يترقى بزيادته ، وأن يضرب رسم على التركات يترقى بحسب أهميتها وبعد قرابة الوارث من المتوفى) .

فأقصى ما يتخيله هذا الحزب هو أن يحكم البلاد مستبد عادل تكون سعادة الكل في سيادته .

وأما فئة الاشتراكيين الكاثوليكيين فكثيرة العدد ، وتألفت على إثر الكتاب الذى نشره موسيو (كتلير) قس (ميانس) وسماه (مسألة الفعلة والنصرانية) وكان له شأن كبير في البلاد الألمانية ، وقد نقل في كتابه هذا كثيراً عن (لاسال) الاشتراكي وتخلص مثله إلى وجوب تأسيس شركات للتعاون والعمل يكون الغرض منها وضع رأس المال في يد الفعلة فتنحل بذلك مسألة الأجور ، ولكن الذي عمم فكرة المؤلف وانتزع من كتابه طريقة اتفق عليها أهل المذهب إنما هو أحد تلاميذه وهو موسيو « موفانج » شماس كنيسة « ميانس » . وإليك بيان المهم منها :

(١) تستثمر

(إنَّ أُجورَ الْفعَلة غيرُ كافيةٍ لِلْقيام بحاجاتهم ، فوجبَ تدخُّلُ الْحُكومَةِ وهِيَ تتدخَّلُ لِتؤيِّدَ النِّظامَ الَّذِي تدعه طائِفةُ كُلِّ حِرْفةٍ لإِبائها. وعليها أَنْ تقرِّرَ ساعاتِ الْعمَلِ ، وتقدِّرَ الأُجورَ ، وتبيِّنَ علاقة الصِّبْيانِ مَعَ الرُّؤَساءِ ، والعُمَّالِ مَعَ أَصْحابِ المعامِلِ ، وأَنْ تقرِضَ جَمْعيَّاتِ الفَعلة ما تحتاجُ إليهِ مِنَ المَالِ ، وهُنا يظهرُ ميْلُ تِلْكَ الْفِئَةِ إلى الاشْتِراكِ . قال مُوسْيُو (موفانج) : لَسْتُ أُوافقُ على المعامِلِ التي يُشيرُ بها مُوسْيُو (لويزيلان) ولكِنِّي لا أَرى سبَبًا يمْنعُ الحكومة مِنْ مُساعَدةِ جَمْعيةِ الْفعلةِ إذا أُسِّسَتْ على نِظامٍ متينٍ (ومِنْ مقاصِدِها أَيْضاً أَنْ تجْعلَ الحكومةُ حدًّا لِظُلْمِ أَرْبابِ الأَمْوالِ ولكنَّها لَمْ تُبيِّنْ طَريقةَ الوُصُولِ إلى ذلِكَ. قالَ مُوسْيُو (موفانج) (إِنِّي لا أتعرَّضُ لِلْغِنَى ولا لِلأَغنياءِ، ولكِنَّ الذي أُندِّدُ بِهِ[1] هِيَ الطَّريقةُ التي يَغْتني بها اليَوْمَ أُولئِكَ الأَغْنياءُ المُوسِرُونَ) .

وليْسَ بيْنَ هذا المذْهَبِ ومذْهبِ الاشْتِراكِيِّينَ الثَّوْرِيِّينَ إلاَّ تفاوُتٌ يسيرٌ ، وأَهمُّ ما يفْترِقانِ فِيهِ هُوَ اعْتِمادُ أَحدِهما على الدِّينِ . نعَمْ إنَّ أصْحابَهُ لا يقُولُونَ بوُجُوبِ جَعْلِ الأَراضي كُلِّها مُشْتركةَ المِلْكِ ، ولكِنَّهُمْ لَيْسُوا بعيدينَ عَنْ هذهِ الغايَةِ لِأَنَّ مبادِئَهُمْ تُوصِّلُهُمْ حتْماً إليْها : فهُمْ يطْلُبُونَ أَنْ يكُونَ رأْسُ المَالِ مُشْتَرَكاً بَيْنَ

---

(١) أصرح بعيوبه

جَمْعِيَّاتِ الْفَعلَةِ. وَرَأْسُ الْمَالِ جُزْءًا مِنْ ذَلِكَ الْكُلِّ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُمْ يَطْلُبُونَ جَهْرَةً أَنْ تَكُونَ الْحُكُومَةُ هِيَ الرَّئِيسَ الْعَامَّ فِي الْعَمَلِ. وَعَلَيْهِ تَكُونُ هَذِهِ الْفِئَةُ تَابِعَةً حَقِيقَةً لِمَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ كَمَا عَرَفْنَاهُ. وَتَكُونُ تَسْمِيَةُ نَفْسِهَا بِهَذَا الاسْمِ حَقِيقَةً.

وَالأَخِيرَةُ هِيَ طَائِفَةُ الاشْتِرَاكِيِّينَ الْمُدَرِّسِينَ، إِلَّا أَنَّ رِجَالَهَا غَيْرُ مُتَّفِقِينَ عَلَى الْمَبَادِئِ، لِذَلِكَ يُوجَدُ بَيْنَ مُدَرِّسِي عِلْمِ الاقْتِصَادِ مَنْ يَقُولُ بِمَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ لَكِنْ عَلَى حَذَرٍ وَتَهَيُّبٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَمَشَّى فِيهِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ حَتَّى جَهَرَ بَعْضُهُمْ كَمُوسْيُو «وجنير» بِالْقَوْلِ بِوُجُوبِ تَحْدِيدِ الْمِلْكِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَالتَّوَسُّعِ فِي الْمِلْكِيَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ، وَلَكِنَّهُمْ كُلَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ مِنْ جِهَةِ وُجُوبِ حَلِّ الْمَسَائِلِ كُلِّهَا بِوَاسِطَةِ وَضْعِ نِظَامٍ دَقِيقٍ لِلْعَمَلِ وَالزِّيَادَةِ فِي تَدَخُّلِ الْحُكُومَةِ.

وَمَا سُقْتُ هَذَا الْبَيَانَ إِلَّا لِأُبَرْهِنَ عَلَى أَنَّ أَلْمَانِيَا وَسَطٌ يَتَخَلَّلُهُ مَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ مِنْ أَسْفَلِ الطَّبَقَاتِ إِلَى أَرْفَعِ الْمَقَامَاتِ فِيهَا. وَقَبْلَ أَنْ نَنْتَقِلَ مِنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ يَنْبَغِي أَنْ نَأْتِيَ بِالاخْتِصَارِ عَلَى السَّبَبِ الَّذِي أَدَّى إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ:

كَانَ ظُهُورُ مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ فِي الْوُجُودِ مُعَاصِرًا لِتَبَدُّلِ الْأَحْوَالِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْأُمَّةِ الْأَلْمَانِيَّةِ بِقِيَامِ سُلْطَةِ الْمَلَكِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ

مَقامَ سُلْطَةِ الْقُرَى وَالأَقَالِيمِ كما حَصَلَ ذَلِكَ فى إسْبَانيا مُنْذُ ثَلاثَةِ قُرُونٍ أَيَّامَ فيليب الثَّانِى ، وَفى فرَنسَا مُنْذُ قرنَيْنِ أَيَّامَ لوِيز الرَّابع عشرَ. وَالمُطَّلِعُ عَلى التَّارِيخِ يَعْرِفُ كَيْفَ بَدَأَ مُلوكُ البُرُوسِيا بهَذِهِ الحَرَكَةِ وَكَيْفَ أَنَّ أَمْبَرَاطِرَةَ الأَلْمَانِ يهتَمُّونَ مُنْذُ سَنَةِ ١٨٧٠ بِإِتْمَامِ مَا بَدَأَ بهِ الأَوَّلُونَ ، وَإِدْخَالِ التَّحْسِينَاتِ فِيهِ ، حَتَّى أَصْبَحَتْ أَلمَانيا كُلُّهَا فى قَبْضَةِ البُرُوسيا وَالبُرُوسيا كُلُّهَا فى قَبْضَةِ الحُكُومَةِ . وَقَدْ مَضَى زَمَنٌ طَوِيلٌ عَلى حُكُومَةِ البُرُوسيا وَهِيَ تَعْمَلُ بمبَادِئِ الاشْتِرَاكِيِّينَ وَإِنْ لَمْ تَقُلْ بِهَا . فَالتَّوَسُّعُ فى الجُنْدِيَّةِ حَتَّى عَمَّتْ جَميعَ النَّاسِ ، وَتَنْظِيمُ المَصَالِحِ الإِدَارِيَّةِ عَلى شَكْلٍ غَيْرِ بَسِيطٍ يَزْدَادُ تَعَقُّدًا فى كُلِّ حِينٍ يُشْبِهَانِ مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ مَا يَرْمِى إِلَيْهِ الاشْتِرَاكِيُّونَ مِنَ النِّظَامِ الَّذِى يُرِيدُونَهُ لِلأُمَّةِ بِتَمامِهَا فى المُسْتَقْبَلِ . وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ الحُكُومَةَ البُرُوسيانِيَّةَ تَضَعُ يَدَهَا عَلى كُلِّ رَجُلٍ مُنْذُ الطُّفُولَةِ فَتَبْتَدِئُ سُلْطَتُهَا عَلَيْهِ أَوَّلاً بِوَاسِطَةِ المَدَارِسِ ، ثُمَّ بِوَاسِطَةِ الجُنْدِيَّةِ لِتُرَبِّيَهُ حَسَبَ مَشِيئَتِهَا عَلى المَبَادِئِ الَّتِى تَخْتَارُهَا .

وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّنَا نَجِدُ فى القَانُونِ المَدَنِيِّ البُرُوسْيَانِيِّ نُصُوصًا مُطَابِقَةً لِمَبَادِئِ الاشْتِرَاكِيِّينَ . جَاءَ فى الفِقْرَةِ الأُولى مِنَ البَابِ التَّاسِعَ عَشَرَ مَا نَصُّهُ (يَجِبُ عَلى الحُكُومَةِ أَنْ تَقُومَ بِمَعِيشَةِ الَّذِينَ لا يَقْدِرُونَ عَلى الارْتِزَاقِ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ مَطْعَمٍ وَغَيْرِهِ ، أَوِ الَّذِينَ

لَيسَ فى قُدْرَتِهِمْ أَنْ يحصُلُوا على مَعِيشَتِهِمْ مِمَّنْ هُوَ مَسْئُولٌ عَنْهَا بمُقْتَضَى القَانُون) — الفِقْرَةُ الثَّانِيَةُ (يعَيَّنُ لِلذِينَ لا عمَلَ لَهُمْ شُغْلٌ يَلِيقُ بِحَالَةِ كلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ) —الفِقْرَةُ الثَّالِثَةُ (الأَشْخَاصُ الَّذِينَ يَحْمِلُهُمُ الكَسَلُ أَوْ حُبٌّ البَطَالَةِ أَوْ أيُّ سَبَبٍ آخَرَ مِنَ الأَسْبَابِ الرَّدِيئَةِ عَلَى عَدمِ الكَسْبِ وَتَحْصِيلِ وَسَائِلِ المَعِيشَةِ يُسْتَخْدَمُونَ فى الأَعْمَالِ النَّافِعَةِ تَحْتَ مُلاحَظَةِ الحُكُومَةِ) — الفِقْرَةُ السَّادِسَةُ (لِلْحُكُومَةِ الحَقُّ، كَمَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهَا أَيْضاً، أَنْ تُؤَسِّسَ مَصَانِعَ وَمَعَامِلَ يَكُونُ فِيهَا قِوَامُ حَيَاةِ المُحْتَاجِينَ وَتَهْذِيبُ أَخلاقِ المُسْرِفِينَ) — السَّابِعَةُ (لا يَجُوزُ لِلْحُكُومَةِ بِأَيِّ حَالٍ مِنَ الأَحْوَالِ أَنْ تَأْتِيَ عَمَلاً مِنْ شَأْنِهِ حَمْلُ النَّاسِ عَلَى الكَسَلِ خُصُوصاً الطَّبَقَاتِ النَّازِلَةَ أَوْ يُلهِي عَنِ الأَشْغَالِ) — العَاشِرَةُ (عَلَى جِهَاتِ الإِدَارَةِ البَلَدِيَّةِ فى القُرَى أَنْ تَقُومَ بِمُؤُونَةِ فُقَرَائِهَا) — الحَادِيَةَ عَشْرَةَ (وَعَلَيْهَا أَنْ تَبحَثَ عَنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ الفَقْرِ وَتُحِيطَ بِهِ السُّلْطَةَ العُلْيَا لِتَتَّخِذَ التَّدَابِيرَ الوَاقِيَةَ مِنْهُ).

وَلاَ شَكَّ أَنَّ الأُمَّةَ الَّتِي تُسَاسُ بِمِثْلِ هَذَا النِّظَامِ الَّذِي يَجْهَرُ بِحَقِّ النَّاسِ فى العَمَلِ وَيَقْضِي بِتَدَخُّلِ الحُكُومَةِ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ الحَقُّ تَحْتَ رِعَايَتِهَا وَيُوجِبُ التَّدَخُّلَ إِلَى هَذَا الحَدِّ فى حَيَاةِ الأَفْرَادِ الخُصُوصِيَّةِ تَكُونُ مُهَيَّأَةً بِالطَّبْعِ إِلَى قَبُولِ مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ

وَالعَمَلِ بِمَا جاءَ فِيهِ . هكَذَا تدرَّجَتْ تِلْكَ الأُمَّةُ فِى مباحِثِها طَالِبَةً حَلاً لِمَسْأَلَةِ الفَعلَةِ فوَصَلَتْ إلى وُجُوب مُسَاعَدَةِ الحكُومَةِ لِكُلِّ فَرْدٍ بذَاتِهِ ، وَأَنَّهُ يَنبَغِى تَغْييرُ نِظَامِ الاجْتِماعِ ذَاتِهِ ، وَلَمْ تَطْلُبِ الدَّوَاءَ مِنْ هِمَّةِ كلِّ وَاحِدٍ بالذَّاتِ . وَإِذَا تَأَمَّلْنَا وَجَدْنَا أَنَّ هَذِهِ الْمَبَادِىءَ الَّتى قرَأْنَاهَا فى قَانُون البرُوسيا الْمَدَنِىِّ، وَهِىَ الَّتى يُجَاهِرُ بوُجُوب اتِّباعِهَا مُلُوكُ البرُوسيا وَبرَاطِرَة أَلْمَانيا وَيَعْمَلُونَ هُمْ بِهَا تَأْيِيداً لِسُلْطَتِهِم الْمُطْلَقَةِ، هِىَ بِعَيْنِهَا مَبادِئُ الاشْتِراكِيِّينَ وَلاَ فَرْقَ بَيْنَهُمَا إلاَّ أَنَّ الاشْتِرَاكِيِّينَ اتَّخَذُوا تِلْكَ الْمَبَادِئَ صِيَغاً تَجْرِى عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَمَطَالِبَ قَالُوا إِنَّهَا هِىَ مَطَالِبُ الإنْسَان، أَى الأُمَمِ .

وَلَقَدْ كَانَتِ الطَّبَقاتُ الْوُسْطَى ، وَطَبَقَاتُ الأَشْرَاف مُسْتَعِدَّةً لِقَبُولِ هَذِهِ الأَوَامِرِ كَالطَّبَقَات النَّازِلَةِ ، فَإِنَّ الإِفْرَاطَ فى الْجُنْدِيَّةِ وَبُلُوغَ الإِدَارَةِ ذَلِكَ الْحَدَّ الْعَظِيمَ مِنَ الجسامَةِ وَالاتِّسَاعِ عَطَّلَ فى هَاتَيْنِ الطَّبَقَتَيْنِ وَظَائِفَ الْعَمَلِ أَوَّلاً ثُمَّ انْتَهَى فَجَعَلَهُمَا يَعْتَبِرَانِ الحكُومَةَ مَصْدَرَ كلِّ شيْءٍ فى حياةِ الأُمَّةِ . وَهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ نُظَرَائِهِمْ فى فرَنْسا ، لأَنَّ تَعدُّدَ الثَّوْرَات عِنْدَنَا أَضْعَفَ كَثِيراً مِنْ سُلْطَةِ الحكُومَةِ وَإِنْ كَانَتِ الْجُنْدِيَّةُ وَالإِدَارَةُ سَوَاءً عِنْدَنَا وَعِنْدَهُم . وَلاَ شَكَّ فى أَنَّ القَابِضِينَ عَلَى زِمَامِ الأَحْكَامِ لاَ يَسُوسُونَ الأُمَّةَ الْيَوْمَ كَمَا كَانَتْ تُسَاسُ أَيَّامَ الْمَلِكِ لِويز الرَّابعَ عَشَرَ .

وَمِمَّا تَقَدَّمَ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّ السَّبَبَ فِي أَنَّ الأُمَّةَ الأَلْمَانِيَّةَ صَارَتْ بِمُقْتَضَى حُكْمِ الزَّمَانِ مَنْبَعاً لِمَبَادِئِ الاشْتِرَاكِيِّينَ هُوَ تَأَخُّرُهَا قَرْناً كَامِلاً عَنْ بَقِيَّةِ أُمَمِ الْغَرْبِ الأُورُبِّي فِي سَبِيلِ التَّرَقِّي .

وَيَتَأَيَّدُ هَذَا إِذَا ثَبَتَ أَنَّ مَذْهَبَ أُولَئِكَ الْقَوْمِ إِنَّمَا يَنْتَقِلُ إِلَى غَيْرِ تِلْكَ الْبِلَادِ مِنْهَا وَبِوَاسِطَةِ الأَلْمَانِيِّينَ أَنْفُسِهِمْ، وَإِثْبَاتُ ذَلِكَ أَمْرٌ سَهْلٌ يَقُومُ بِتَتَبُّعِ سَيْرِ الْمَذْهَبِ فِي الْبِلَادِ الأُخْرَى :

فَفِي فَرَنْسَا كَانَ مَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ خَامِلاً إِلَى سَنَةِ ١٨٨٦ كَمَا جَاءَ فِي كِتَابِ « وانتزير » الْمُسَمَّى « مَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ الْعَامُّ » صَفْحَةَ ١٤٩ نَقْلاً عَنْ إِحْدَى جَرَائِدِ الاشْتِرَاكِيِّينَ الأَلْمَانِيِّينَ ، إِذْ قَالَتْ مُتَأَسِّفَةً : « يَتَقَدَّمُ مَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ تَقَدُّماً حَقِيقِيّاً لَكِنَّهُ بَطِيءٌ »

وَمِنْ ذَلِكَ الْحِينِ أَخَذَتْ أَحْزَابُ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ فِي الظُّهُورِ وَالاسْتِقْلَالِ وَالنُّمُوِّ ، وَكَانَ الْقَائِمُ بِحَرَكَةِ النُّمُوِّ عَلَى الْخُصُوصِ أَنْصَارَ مَذْهَبِ « كارل مركس » الأَلْمَانِيِّ ، وَأَهَمُّ الرُّؤَسَاءِ فِيهِمْ رَجُلَانِ : مُوسْيُو « جول جيزد » وَمُوسْيُو « لافارج » وَكَانَ يُطْلَقُ عَلَيْهِمَا اسْمُ مِرْكِسْتِيِّينَ نِسْبَةً إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ لِاجْتِهَادِهِمَا فِي إِدْخَالِ مَبَادِئِهِ الَّتِي وَضَعَهَا فِي كِتَابِهِ « رَأْس الْمَال » بِالْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ مُوسْيُو لافارج النَّائِبَ عَنْ مُقَاطَعَةِ « ليل » سَابِقاً كَانَ مُصَاهِراً

لِذَلِكَ الاشْتِرَاكِيِّ الشَّهِير ، لِذَلِكَ لَمَّا نَجَحَ مُؤْتَمَرُ المَرْكُسْتِيِّينَ فِي بَارِيسَ سَنَةَ ١٨٨٩ صَاحَ الاشْتِرَاكِيُّونَ فِي أَلْمَانْيَا طَوِيلاً بِأَصْوَاتِ الْفَرَحِ وَالانْتِصَارِ ، وَفِي هَذَا الْمُؤْتَمَرِ صَرَّحَ مُوسْيُو «جيزد» بَيْنَ تَصْفِيقِ سَامِعِيهِ بِأَنَّ مَذْهَبَهُ إِنَّمَا هُوَ مَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ الْأَلْمَانِيِّينَ (رَاجِعْ كِتَابَ « وانتر » المَذْكُورَ صَفْحَةَ ١٧٤) .

ثَبَتَ إِذَنْ أَنَّ مَذْهَبَ الاشْتِرَاكِيِّينَ فِي فَرَنْسَا مَأْخُوذٌ عَنْ مَذْهَبِهِمْ فِي أَلْمَانْيَا وَأَنَّهُ يُسَمَّى بِاسْمِ أَحَدِ الأَلْمَانِيِّينَ وَأَنَّهُ يَنْتَسِبُ جَهْرَةً إِلَى أَلْمَانْيَا .

وَفِي بِلَادِ الْبَلْجِيكِ اخْتَلَطَ مَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ بِمَذْهَبِ الْفَوْضَوِيِّينَ وَالْمُتَطَرِّفِينَ ، وَبَقِيَ زَمَناً تَتَجَاذَبُهُ عَوَامِلُ الْخُلْفِ وَالنِّزَاعِ وَلَمْ يَخْلُصْ وَيَسْتَقِلَّ إِلاَّ بَعْدَ جُهْدٍ وَعَنَاءٍ ، وَفِي إِبَّانِ[1] اسْتِقْلَالِهِ رَأَيْنَا اثْنَيْنِ مِنْ رُؤَسَائِهِ فِي أَلْمَانْيَا ، وَهُمَا مُوسْيُو « ببييل » وَمُوسْيُو « بيرنستين » جَاءَا إِلَى الْبَلْجِيكِ عَلَى الْخُصُوصِ لِيُرْشِدَا هَذَا الضَّوْءَ النَّاشِئَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَكَانَ لِهَذَا التَّدَخُّلِ تَأْثِيرٌ أَثْبَتَهُ أَحَدُ مُؤَرِّخِي مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ وَهُوَ « وانتر » صَفْحَةَ ١٢٢ حَيْثُ قَالَ :

(كَانَ مَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ فِي الْبَلْجِيكِ مُنْقَسِماً عَلَى نَفْسِهِ بِغَيْرِ نِظَامٍ فَأَصْبَحَ الْيَوْمَ فِي نَوْعٍ مِنَ التَّرْتِيبِ وَالانْضِمَامِ عَلَى نَسَقِ الْمَذْهَبِ الأَلْمَانِيِّ) .

---

(١) وقت

والَّذِي أَدْخَلَ مَذْهَبَ الِاشتِرَاكِيِّينَ فِي بِلَادِ هُولَنْدَه رَجُلٌ كَانَ مِنْ رُعَاةِ الْكَنِيسَةِ وَهُوَ « دوملانيوڤانهويس » وَقَدْ سَافَرَ هَذَا الرَّجُلُ مُنْذُ ثَلَاثِ سِنِينَ إِلَى بَرْلِينَ « لِيَتَعَلَّمَ مِنَ الِاشْتِرَاكِيِّينَ الأَلْمَانِيِّينَ طَرِيقَةَ عَمَلِهِمْ فِي الِانْتِخَابَاتِ » وَهَذَا الأَمْرُ وَحْدَهُ كَافٍ فِي بَيَانِ أَنَّ الْمَذْهَبَ فِي هُولَنْدَه مُسْتَمَدٌّ مِنْ أَلْمَانْيَا حَتَّى إِنَّهُمْ لَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى الأَخْذِ بِمَبَادِئِهِمْ بَلْ يَأْخُذُونَ عَنْهُمْ أَيْضًا كَيْفِيَّةَ أَعْمَالِهِمْ فِي الِانْتِخَابِ .

وَهَذَا حَالُ بُولُونْيَا فَلَمَّا عُقِدَ مُؤْتَمَرُ الِاشْتِرَاكِيِّينَ فِي بَارِيسَ سَنَةَ ١٨٩٠ كَانَ النَّائِبُ فِيهِ عَنْ إِخْوَانِهِمْ فِي بُولُونْيَا سَيِّدَةً يُقَالُ لَهَا « جانسكويسكا » وَقَدْ جَاءَ فِي تَقْرِيرِهَا عَنْ أَهْلِ حِزْبِهَا : « إِنَّهُمْ يَجْتَهِدُونَ دَائِمًا فِي تَقْلِيدِ إِخْوَانِهِمُ الْأَلْمَانِيِّينَ عَلَى قَدْرِ الْإِمْكَانِ فِي طُرُقِ نَشْرِ الْمَذْهَبِ وَكَيْفِيَّةِ السَّيْرِ وَإِنَارَةِ الْأَفْكَارِ » فَأَلْمَانْيَا هِيَ صَاحِبَةُ الصَّوْتِ أَيْضًا فِي بُولُونْيَا .

أَمَّا الرُّوسْيَا فَلَمْ يَكُنْ لِمَذْهَبِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ فِيهَا مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا الْعَدَمِيُّونَ وَالْفَوْضَوِيُّونَ حَتَّى هَذِهِ السِّنِينَ الْأَخِيرَةِ ، غَيْرَ أَنَّ الْحَالَ تَبَدَّلَتْ مُنْذُ بِضْعَةِ أَعْوَامٍ ، كَمَا ذُكِرَ ذَلِكَ فِي مُؤْتَمَرِ بَارِيسَ ، فَكَانَ لِلرُّوسْيَا مَنْدُوبَانِ اثْنَانِ فِيهِ أَحَدُهُمَا (لاروف) الثَّوْرِيُّ الْمَشْهُورُ الْقَدِيمُ ، وَمِنْ قَوْلِهِ فِي ذَلِكَ الْمُؤْتَمَرِ : إِنَّ الثَّوْرَةَ فِي الرُّوسْيَا تَقْتَرِبُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ

حِزْبِ الاجْتِمَاعِيينَ وَإِنَّ حِزْبَهَا (يتقَرَّبُ إِلى مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّين الأَلْمَانِيِّينَ وَيعْمَلُ عَلى طَرِيقَتِهِمْ) . هَذَا ، وَقَدْ نَشَرَ مُوسْيُو (بليكانو) أَحَدُ زُعَمَائِهِمْ فِى الرُّوسْيَا كِتَاباً هُوَ فِى الْحَقِيقَةِ مَذْهَبُ كارل مركس بتمَامِهِ وَأَسَّسَ حِزْبُ الأَحْرَارِ الاجْتِمَاعِيِّينَ الرُّوسِيِّينَ جَرِيدَةً سَمَّاهَا باسْمِ اشْهَرِ جَرَائِدِ الإِشْتِرَاكِيِّينَ فِى أَلْمَانيَا وَنَقَلَ عَنْهُ الْكَلِمَةَ الَّتِي اتَّخَذَهَا شِعَارًا وَهِيَ : (يَأَيُّهَا التُّعَسَاءِ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ أَلاَ فَاتَّحِدُوا) وَكَانَ ظُهُورُ تِلْكَ الْجَرِيدَةِ الرُّوسِيَّةِ فِى (جنيف) سَنَةَ ١٨٨٨ وَالْغَرَضُ مِنْهَا كَمَا جَهَرَتْ بِهِ نَشْرُ مَبَادِيءِ مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ الأَلْمَانِيِّينَ فِى الرُّوسْيَا .

وَمَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ لاَ يَزَالُ نَبْتاً حَدِيثاً فِى بِلاَدِ رُومَانيَا وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ قَالَ نَائِبُهَا فِى مُؤْتَمَرِ بَارِيس وَهُوَ (ماتى) الْقَائِمُ بِالْحَرَكَةِ فِى تِلْكَ الْبِلاَدِ مَا يَأْتِى : (يَتَقَدَّمُ مَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ حَتَّى بَيْنَ الْفَلاَّحِينَ وَأَكْبَرُ الْمُسَاعِدِينَ لَهُ هُمُ الْمُعَلِّمُونَ فِى مَدْرَسَةِ (جاسى) وَطَلَبَتُهَا لأَنَّهُمْ تَرْجَمُوا كُتُبَ كارل مركس . وَ (آنجل) وَ (لاسال) وَهَؤُلاَءِ هُمْ أَقْطَابُ الْمَذْهَبِ الأَلْمَانِيِّ .

وَقَالَ مُوسْيُو (وانتر) (وُلِدَ مَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ فِى سُويسْرَا مِنَ الْمَذْهَبِ الأَلْمَانِيِّ وَكَانَ بَيْنَهُمَا عَلَى الدَّوَامِ رَوَابِطُ مُحْكَمَةُ الْعُرَا[1]

(١) العرا : جمع عروة ، وعروة القميص مدخل زره والمراد هنا شديدة الاتصال

فَإِنَّا نُشَاهِدُ الاشتِرَاكِيِّينَ السويسريين بجانب إخوانهم الألمانيين في كُلِّ مكانٍ يتقابلون في المجتمعات ويتحدثون في الأدب والمبادئ ويتضافرون (١) في مقاوماتهم ويتعاونون على ما يطلبون) .

ولا عجب بعد هذا من أن الاشتراكيين في مدينة (بال) احتفلوا في الرابع من شهر سبتمبر بتذكار وفاة (لاسال) الاشتراكي الألماني وأنهم عقدوا في اليوم الثاني اجتماعاً عاماً دعوا إليه موسيو (ليبكنخت) وهو أيضاً اشتراكي ألماني لينشر بينهم مذهب كارل مركس . وللاشتراكيين السويسريين جرائد خاصة بهم إلا أن قائدهم لا يزال هو تلك الجريدة الألمانية الشهيرة فإنها روح اجتماعاتهم في (زوريخ) و (انترتور) و (آرو) و (بال) و (فروانفلد) و (صان غال) و (شافوز) و (اكوار) و (زوج) و (نيوشاتيل) و (لوزان) و (جنيف) وغيرها . وعليه فسويسرا هي إذن ضحية من ضحايا المذهب الألماني .

كذلك يأخذ التليان مذهبهم عن ألمانيا ويكفي للدلالة عليه أن نذكر البرقية التي بعث بها أعضاء نادي المتطرفين في رومه باسم الاشتراكيين التليانيين إلى الاشتراكيين الألمانيين.

(١) تضافروا على الشيء تعاونوا عليه

بمناسبة فوزهم في الانتخابات وهي (إن النادي ... يسلم على الاشتراكيين الألمانيين الذين هم دعاة الثورة الجديدة طلباً لتقرير العدل الاجتماعي ولا يزال الأحرار التليانيون يذكرون مفتخرين ما أنبأهم به (منزيني) منذ سنين عديدة مع ما كان عليه من كراهة مذهب كارل مركس، وهو أن ألمانيا الجديدة وإيتاليا الجديدة هما اللتان يقومان في المستقبل بحل المسألة الاجتماعية).

ويتضح مما تقدم بأجلى بيان أن ألمانيا هي منبع مذهب الاشتراكيين وأنها هي التي تبثه وتنشره في الأمم الأخرى

ويؤخذ منه أيضاً أن جميع البلاد لا تقبل مذهب الاشتراكيين بدرجة واحدة، فمنها ما تكون أرضها مستعدة لنمو بذوره كالتي ذكرناها، ومنها ما ليس كذلك كبلاد نرويج وإنكلترة والولايات المتحدة وغيرها من البلاد التي احتلها العنصر الإنكليزي السكسوني.

أما كون بلاد النرويج غير صالحة لانتشار المذهب فثابت من رسالة نشرتها جريدته الألمانية الشهيرة، وفيها يشكو المكاتب مر الشكوى من ذلك الحال ويعزوها(١) لما عليه تلك البلاد من التمسك الشديد بالدين. وهو تعليل ضعيف، لأننا رأينا في ألمانيا

(١) ينسبها

كَثِيرًا مِنَ الْكَاثُولِيكِ وَالْبُرُوتِسْتَانْتْ وَفِى مُقَدِّمَتِهِمْ زُعَمَاءُ الْكَنِيسَةِ قَدِ اعْتَنَقُوا مَذْهَبَ الاشْتِرَاكِيِّينَ .

وَمَا مِنْ شَىْءٍ يَسْتَوْقِفُ النَّظَرَ كَحَيْرَةِ مُؤَرِّخِى هَذَا الْمَذْهَبِ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَيْهِ فِى إِنْكِلْتِرَهْ فَإِنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ، أَوْ يَكَادُونَ أَلَّا يَجِدُوا، شَيْئًا يَذْكُرُونَهُ عَنْهُ فِى تِلْكَ الْبِلَادِ اللَّهُمَّ إِلَّا مَا قَاسَاهُ مُوسْيُو « اڤاين » مِنَ الْأَتْعَابِ — هُوَ أَيْضًا صِهْرٌ لِكارل مركس — الَّتِى ذَهَبَتْ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ (١). « وَهُنَا أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الإِصْبَعِ الأَلْمَانِيَّةِ (٢) » وَكَذَلِكَ أَتْعَابُ الشَّاعِرِ « موزيس » وَمسْيُو « هندمان » وَهُمَا رَجُلَانِ خَرَجَا عَنْ تَقَالِيدِ قَوْمِهِمَا فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمَا أَحَدٌ إِلَّا سَاخِرًا (٣)، وَقَدْ أَتَتِ الرِّسَالَةُ السَّنَوِيَّةُ الَّتِى يَنْشُرُهَا الدُّكْتُورُ « لودويج ريشتر » فِى كُلِّ سَنَةٍ عَنْ حَالَةِ الْمَذْهَبِ فِى جَمِيعِ الْبُلْدَانِ خَالِيَةً مِنْ ذِكْرِ انْكلتِرَهْ. وَالسَّبَبُ الَّذِى ذَكَرَهُ لِذَلِكَ هُوَ « أَنَّهُ لَا يُوجَدُ شَىْءٌ يُقَالُ » وَحَاوَلَ مُوسْيُو « ويزيوا » فِى كِتَابِهِ « حَرَكَةِ مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ فِى أُورُبَّا » صَفْحَةَ ٢٠٩ بَيَانَ عِلَّةِ عَدَمِ انْتِشَارِهِ فِى إِنْكلتِرَهْ فَقَالَ : « إِنَّ الْإِنْكِلِيزَ شَخْصِيُّونَ بِفِطْرَتِهِمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُتْرَكُوا لِأَنْفُسِهِمْ لِيُحَصِّلَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رِزْقَهُ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَرْضَاهَا ، وَطِبَاعُهُمْ تَأْبَى أَنْ يَتَجَنَّدُوا تَحْتَ أَىِّ لِوَاءٍ كَانَ ، وَأَنْ يَنْزِلُوا عَنِ اسْتِقْلَالِهِمْ

(١) يقال ذهب دمه درج أو أدراج الرياح أى هدرا لم يؤخذ بثاره والمراد هنا الأتعاب التى ذهبت سدى (٢) يريد الأثر الالمانى (٤) هازئا

الذاتي طلباً لعمل مشترك . وهذا، فيما أرى، أحد الأسباب التي تجعلهم لا يميلون إلى مذهب الاشتراكيين » .

وإذا انتقلنا إلى الولايات المتحدة رأينا كذلك أن هذا المذهب لم يدخل بين العنصر الإنكليزي السكسوني لأنه يقاومه كما يقاوم كرم (١) تلك البلاد آفة العنب « فيلوكسرا » وليس له في تلك البلاد أحزاب إلا من الإرلنديين، وعلى الخصوص من الألمانيين، كما شهد به موسيو « وانترير » في كتابه « مذهب الاشتراكيين العام » صفحة ٢٣٣ حيث يقول : « إنا عقدنا هذا الفصل للكلام على مذهب الاشتراكيين في أمريكا ، وكان حقه أن يعنون بمذهب الاشتراكيين الألمانيين في أمريكا لأن أحزابه في تلك البلاد وأخص القائمين به فيها لا يزالون من الألمانيين ومن رؤسائهم من كان عضواً في مجلس النواب الألماني. ولقد كان كارل مركس يرجو النجاح لمذهبه في الدنيا الجديدة ، وأشار بنقل مجلس بحوثه إلى تلك البلاد فخاب رجاؤه » وقال أحد الاشتراكيين الألمانيين يصف المذهب في أمريكا « إن ذلك الحزب لا وجود له إلا بالاسم ، لأن أصحابه لا يمكنهم أنى كانوا (٢) أن يكونوا حزباً سياسياً ، والمذهب نفسه يخال (٣) أنه أجنبي في الولايات المتحدة فقد كان إلى عهد قريب

(١) الكرم شجر العنب (٢) أى في أى مكان وجدوا (٣) يظن

لا يَقولُ بهِ غَيْرُ الْمُهاجرينَ مِنَ الألْمانِيِّينَ الَّذينَ كانوا يتكلَّمُونَ بلغتِهِمْ ولا يعرِفُونَ اللُّغَةَ الإنكليزيَّةَ إلاَّ قليلاً ، ثمَّ إنَّ لِهؤلاءِ المُهاجرينَ رأياً مخْصُوصاً فِي وَسائلِ انْتِشالِ الْفعَلَةِ مِنَ التَّابعيَّة[1] الَّتِي هُمْ فيها لا يَفهَمُهُ إلاَّ النَّذْرُ الْيَسيرُ مِنَ الْفعَلَةِ الامريكيِّينَ» .

وَلقَدِ اجْتهَدُوا كثيراً فِي اسْتِمالةِ إنكليزِ أمريكا إلى مَذْهَبِ الاشْتِراكيينَ فبعَثُوا إليْهِمْ كثيرينَ مِنَ الألْمانِيينَ ، نَذْكُرُ مِنْ بَيْنِهِمْ مُوسْيُو « ليبكنخت » وَإحْدَى بَناتِ كارل مركس الَّتِي تزَوَّجَتْ مُوسْيُو « اڤلين » فضاعَ كُلُّ ذلكَ سُدًى ورَفَضَتْ جمْعِيَّاتُ الْفعَلَةِ الانْضِمامَ إلَى حِزْبِ الاشْتِراكيِّينَ وَخسِرَ الْألْمانيُّونَ مَا بَذَلُوا مِنَ الْفصاحَةِ وَذلاقَةِ اللِّسانِ . ثُمَّ عمَدَ بَعْضُ الاشْتِراكيِّينَ إلَى الانْتِظامِ فِي سِلْكِ بَعْضِ طَوائِفِ الْفعَلَةِ الْ ... مَةِ الَّتِي بَلغَ أعْضاؤُها أكثَرَ مِنْ مِلْيُونٍ مِنَ النُّفوسِ وَحَسِبُوا أنَّهُمْ بِذلكَ يتَّصِلونَ إلَى نَشْرِ مَبادِئِهِمْ شَيْئاً فشَيْئاً وَلكِنَّهُمْ لَمْ يُفْلِحُوا » وَقالَ لَهُمْ رَئِيسُ الطَّائِفَةِ الأَعْظَمُ إنَّ رَغْبَتَهُ مُوَجَّهَةٌ إلَى تَطْهيرِ طائِفتِهِ مِنْ تِلْكَ الْعَناصِرِ الثَّوْرِيَّةِ الْمُتَطَرِّفَةِ » وَعَرَضَ بَعْضُهُمْ رَأْياً مَبْناهُ[2] الإقْرارُ علَى مُجَرَّدِ الْمَيْلِ إلَى اسْتِعْمالِ الْوَسائلِ الثَّوْرِيَّةِ فرُفِضَ الطَّلَبُ بِمائةٍ وَواحِدٍ وَخَمْسينَ صَوْتاً ضِدَّ اثْنَيْنِ وَخَمْسِـ .

(١) يريد الاستعباد (٢) يريد قوامه

كَذَلِكَ لَمْ يَنْجَحْ الاشْتِرَاكِيُّونَ لَدَى حِزْبِ الْفَعَلَةِ الْمُجْتَمِعِينَ إِذْ أُقْصِيَتْ مِنْهُ جَمِيعُ اللِّجَانِ الَّتِي تَلَوَّثَتْ بِمَذْهَبِهِمْ بِقَرَارٍ صَدَرَ مِنَ الْجَمْعِيَّةِ الْعُمُومِيَّةِ فِى « سِيرَاكِيز » ، وَإِلَى الْآنَ لَمْ تَنْجَحِ الْمَسَاعِي فِي نَشْرِ جَرِيدَةٍ وَاحِدَةٍ لِلِاشْتِرَاكِيِّينَ بِاللُّغَةِ الإِنْكليزِيَّةِ! وَلِلْمَذْهَبِ عَشْرُ جَرَائِدَ كُلُّهَا بِاللُّغَةِ الْأَلْمَانِيَّةِ وَهُوَ أَمْرٌ فِيهِ نَظَرٌ عَظِيمٌ ... وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ السَّبَبُ فِي أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ فِى مُؤْتَمَرِ الاشْتِرَاكِيِّينَ الْأَخِيرِ بِبَارِيسَ مِنْ أَمْرِيكَا إِلَّا الْمُحَازِبُونَ الْأَلْمَانِيُّونَ وَاضْطُرَّ الْمَنْدُوبُ الْمُقَرِّرُ وَهُوَ مُوسْيُو « كِيرشنر » الْأَلْمَانِىُّ أَنْ يَقُولَ فِى تَقْرِيرِهِ : « إِنَّ الْفَضْلَ فِى كَوْنِ الْفَعَلَةِ الْأَمْرِيكِيِّينَ أَخَذُوا يُدْرِكُونَ مَعْنَى التَّحَزُّبِ رَاجِعٌ بِالْأَخَصِّ إِلَى الْمُهَاجِرِينَ الْأَلْمَانِيِّينَ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْثَنُوا عَنْ إِرْشَادِ تِلْكَ الْجُمُوعِ الَّتِي لَا يَزَالُ الْجَهْلُ يُعْمِي بَصَائِرَهُمْ وَتَنْظِيمِ شَتَاتِهِمْ » .

ثَبَتَ إِذَنْ أَنَّ الْقَائِمِينَ بِنَشْرِ مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ فِى بِلَادِ الإِنكليزِ السَّكْسُونِيِّينَ هُمُ الْأَلْمَانِيُّونَ وَأَنَّهُمْ لَا يَنْجَحُونَ مَهْمَا اجْتَهَدُوا وَثَابَرُوا ، وَهُوَ أَمْرٌ جَدِيدٌ لَمْ نَعْهَدْهُ فِيمَا مَضَى . وَهَذَا هُوَ مَا تَمْتَازُ بِهِ تِلْكَ الْبِلَادُ عَلَى الَّتِي ذَكَرْنَاهَا مِنْ قَبْلُ؛ فَهُمْ فَرِيقٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ أَهَمُّ صِفَاتِهِ أَنَّهُ نَفُورٌ مِنْ مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ .

وَالسِّرُّ فِي هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ أَنْ نَشْأَةَ الْعُنْصُرِ الإِنكليزِيِّ السَّكْسُونِيِّ

اسْتِقلاَلِيَّةٌ مَحْضَةٌ كما أَنَّ نَشْأَةَ الْعُنْصُرِ الأَلْمَانِيِّ اتِّكَالِيَّةٌ بالمرَّةِ(١) .
وَبَيْنَمَا نفوذُ حُكُومَةِ الالمَانِيِّينَ يَمْتَدُّ امْتِدَادًا فَوْقَ الحدِّ الَّذِي يَنْبَغِي حَتَّى أَمَاتَ الهِمَمَ النَّفْسِيَّةَ وَمَحَقَ(٢) حَرَكَةَ الْقُرَى الذَّاتِيَّةَ نَرَى حُكُومَةَ الْفَرِيقِ الثَّانِي لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنَ الاسْتِيلاَءِ عَلَى سُلْطَةٍ كُبْرَى بَلْ وَقَفَتْ عَلَى الدَّوَامِ عِنْدَ حَدِّهَا بِمَا تُلاَقِيهِ مِنِ اتِّحَادِ الْقُوَّتَيْنِ : حَيَاةُ كلِّ فَرْدٍ بِذَاتِهِ ، وَاسْتِقْلاَلُ كلِّ قَرْيَةٍ بِخُصُوصِهَا .
فَأَلمَانْيَا هِيَ الْيَوْمَ الْوَسَطُ الَّذِي بَلَغَتْ فِيهِ أَثَرَةُ الْحُكُومَةِ مُنْتَهَاهَا ، وَبِلاَدُ الإِنْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ هِيَ الأُمَمُ الَّتِي عَاشَ أَفْرَادُهَا مُسْتَقِلِّينَ وَحَكَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ . وَمِنَ الْبَدِيهِيِّ حِينَئِذٍ أَلاَّ تَرَى الأُولَى سَبِيلاً لِحَلِّ الْمَسْأَلَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي غَيْرِ تَدَخُّلِ الْحُكُومَةِ وَسَنِّ اللَّوَائِحِ وَجَعْلِ آلاَتِ الْعَمَلِ مُشْتَرَكَةً بَيْنَ جَمِيعِ النَّاسِ مِنْ أَهْلِهَا ، وَأَنَّ الثَّانِيَةَ لاَ تَطْلُبُ النَّجَاةَ إِلاَّ مِنْ هِمَمِ الأَفْرَادِ وَتَرْفُضُ كلَّ الرَّفْضِ ذَلِكَ الاشْتِرَاكَ الْجَدِيدَ الَّذِي يُعْرَضُ عَلَيْهَا .

وَلَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَى تَكْرَارِ الأَسْبَابِ الَّتِي أَوْجَبَتْ هَذَا الاخْتِلاَفَ الْعَقْلِيَّ بَيْنَ الأُمَّتَيْنِ ، وَلَكِنِّي أُحِيلُ الْقُرَّاءَ عَلَى مَا كَتَبْتُهُ عَنْ ذَلِكَ مُفَصَّلاً فِي الْجُزْءِ الثَّالِثِ صَفْحَة ٥٥٨ وَمَا بَعْدَهَا وَالْجُزْءِ

(١) يريد اتكاليون اتكالا صرفا لا يشوبه شيء من الاستقلال (٢) محقه: أبطله ومحاه

الرَّابعِ صَفْحَة ١٣١ وَمَا بعْدَهَا مِنْ مَجلَّةِ الْعِلْمِ الِاجْتِمَاعِيِّ وَأَكْتَفِي بِأَنْ أُلاحِظَ أَنَّ أَثَرَ هَذَا الِاخْتِلَافِ فِي النَّشْأَةِ يَتَنَاوَلُ الْمَوْضُوعَ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ.

ثَبَتَ مِمَّا قَدَّمْنَاهُ ثَلاثَةُ أُمُورٍ: أَنَّ أَلْمَانيَا هِيَ مَنْبَعُ مَذْهَبِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ، وَأَنَّ الأَلْمَانِيِّينَ هُمُ الَّذِينَ يَنْشُرُونَ مَذْهَبَ الِاشْتِرَاكِيِّينَ فِي الدُّنْيا، وَأَنَّ مَذْهَبَ الِاشْتِرَاكِيِّينَ لاَ يَنْتَشِرُ فِي الأُمَمِ الَّتِي نَمَتْ فِيهَا هِمَمُ الأَفْرَادِ الذَّاتِيَّةُ، وَقَلَّ تَدَخُّلُ الْحُكُومَاتِ.

وَلَمْ يَبْقَ عِنْدَنَا إِلاَّ الْبَحْثُ فِيمَا إِذَا كَانَ مَذْهَبُ الِاشْتِرَاكِيِّينَ الأَلْمَانِيِّينَ هُوَ الأَفْضَلَ فِي حَلِّ مَسْأَلَةِ الْفَعَلَةِ أَمِ اسْتِقْلَالُ الإِنْكلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ وَفِيمَا هُوَ الْحَلُّ الَّذِي يَدَّخِرُهُ الْمُسْتَقْبَلُ.

وَإِنِّي أَرْجُو مِنَ الْقُرَّاءِ أَنْ يَعْتَقِدُوا بِأَنَّ نِظَامَ الِاشْتِرَاكِيِّينَ لَيْسَ بِالْجَدِيدِ أَبَدًا، كَمَا يَمِيلُ إِلَى اعْتِقَادِهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ اخْتَرَعُوهُ، بَلْ أَقُولُ إِنَّهُ قَدِيمٌ قِدَمًا عَظِيماً حَتَّى انْصَرَمَ (١) عُمْرُهُ، وَانْقَضَتْ أَيَّامُهُ وَصَارَ مِنَ السَّهْلِ الْوُقُوفُ عَلَى مَا يَأْتِي مِنْهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِمَعْرِفَةِ مَا نَتَجَ عَنْهُ فِي الْمَاضِي.

وَنَحْنُ إِذَا جَرَّدْنَا الْمَذْهَبَ مِنْ تِلْكَ الأَلْفَاظِ الْمُقَعَّرَةِ وَرَجَعْنَا

(١) أصل الصرم: القطع، والمراد هنا انقضى

بهِ إلى صورتهِ الحقيقية رأيناه إنما يتقهقر بنا إلى ما كانت عليهِ الأمم الغابرة تقهقر البسطاء إن لم أقل تقهقر الجهلاء ، وسنرى إن كان هذا النظام يليق بالمستقبل ، ولنقتصر الآن على العلم بأنه كان نظام الزمن الذي مضى وانقطع .

يريد الاشتراكيون كما عرفنا أن تكون الملكية وآلات العمل، وهي وسائل العيش في الدنيا ، مشاعاً للمجموع وأن المجموع يكون هو الرئيس الأكبر وهو الذي يوزع ما حصل عليه من العمل على كل عامل بحسب شغله أو بحسب حاجاته ولم يهتدوا تماماً إلى الاتفاق على طريقة التقسيم .

هذا هو مثال الجمعية التي يطلبها الاشتراكيون ، وفي ظني أنه غير مجهول عندنا ، فهو الذي ساد الأمم في الأعصر الأولى، ومع ما كان يوجد بين تلك الأمم من أوجه الافتراق والاختلاف كانت كلها قائمة على الملكية المشتركة :

فكانت الأرض عند بعضهم كالرعاة الرحل ملكاً لجميع السكان، وكان الجميع يستغلونها أقساماً بحسب العائلات والقبائل التي يرجع نسلها إلى أصل واحد ، كذا كان حال أقوام الزنوج وقبائل العرب والمغاربة وغيرهم ، فلما استقرت تلك العشائر النقالة في نواحيها أقامت كل عائلة وكل قبيلة بالطبع كما كانت من ناحية

شُيُوعِ أَمْلَاكِهَا وَالِاشْتِرَاكِ فِي مَنَافِعِهَا . وَكَانَ هَذَا شَأْنُ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ كَالعِبْرَانِيِّينَ وَالْجرمَانِيِّينَ وَالسَّلَافِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ كَانُوا يُقَسِّمُونَ الْأَرَاضِيَ بَيْنَ الْجَمِيعِ كُلَّ حِينٍ . وَمِنَ الْأُمَمِ مَنْ أَسَامَتْ مِلْكِيَّةَ أَرْضِهَا إِلَى الْوَازِعِ [1] ، وَصَارَ هَذَا سَيِّدًا عَامًّا مُكَافًا كَمَا يَبْتَغِي الِاشْتِرَاكِيُّونَ تَوْزِيعَ الْعَمَلِ بِالْقِسْطِ [2] بَيْنَ النَّاسِ وَتَقْسِيمِ ثَمَرَاتِهِ عَلَيْهِمْ وَإِيجَادِ مَعَاشٍ لِلْأَرَامِلِ وَالشُّيُوخِ ، وَأَكْبَرُ مِثَالٍ لِهَذَا النِّظَامِ هِيَ مِصْرُ أَيَّامَ الْفَرَاعِنَةِ . وَإِنِّي أَكْتَفِي هُنَا بِذِكْرِ مُجْمَلِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْمَعْرُوفَةِ عِنْدَنَا،وَأُرْجِعُ الْقُرَّاءَ - إِنْ أَرَادُوا زِيَادَةَ الشَّرْحِ - إِلَى مَا كَتَبْنَاهُ فِي مَجَلَّةِ الْعِلْمِ الِاجْتِمَاعِيِّ « رِسَالَةُ الْفُنُونِ أَيَّامَ الرُّعَاةِ وَرِسَالَةُ الزِّرَاعَةِ بِالِاشْتِرَاكِ جُزْء أَوَّل وَثَانٍ وَثَالِث وَعَاشِر وَرِسَالَةُ مِصْرَ الْقَدِيمَةِ لِمُوسْيُو « بريفيل» جُزْء تَاسِع صَفْحَة ٢١٢ و٥٤٩ وَجُزْء عَاشِر صَفْحَة ١٦٠ و ٣٣٨ وَجُزْء حَادِي عَشَر صَفْحَة ٨٠ و ٢٥٢ وَجُزْء ثَانِي عَشَر صَفْحَة ٦٩ وَغَيْرِهَا) .

عَلَى أَنَّ نِظَامَ الرُّوكِيَّةِ لَيْسَ خَاصًا بِالْأُمَمِ السَّالِفَةِ بَلْ ظَلَّ مَوْجُودًا فِي بَعْضِ جِهَاتِ الْمَسْكُونَةِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ، وَلَا يَزَالُ سَائِدًا بَيْنَ أَهْلِ آسْيَا وَأَفْرِيقَا الشَّمَالِيَّةِ بَلْ وَبَيْنَ جَمِيعِ بِلَادِ أُورُبَّا الشَّرْقِيَّةِ . فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْقَرْيَةَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَهُمْ (مير) عِبَارَةٌ عَنْ رُوكِيَّةٍ

(١) الحاكم (٢) العدل

عَظِيمَةٍ هِيَ الَّتِي تَمْلِكُ الأَرَاضِيَ وَتُقَسِّمُهَا بَيْنَ رُوكِيَّاتِ الْعَائِلاتِ فِي كُلِّ حِينٍ بِحَيْثُ لاَ يَكُونُ تَحْتَ يَدِ كُلِّ عَائِلَةٍ مِنَ الأَطْيَانِ إِلاَّ بِنِسْبَةِ عَدَدِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِنْ أَعْضَائِهَا ، فَالشُّغْلُ مُشْتَرَكٌ كَمِلْكِيَّةِ الأَرَاضِي .

ثَبَتَ إِذَنْ أَنَّ الرُّوكِيَّةَ لَيْسَتْ حَلاً جَدِيداً بَلْ هِيَ مَوْجُودَةٌ مِنْ يَوْمِ خَلَقَ اللهُ الدُّنْيَا وَلاَ يَزَالُ بَعْضُ الأُمَمِ يَعِيشُ فِيهَا .

وَدَفْعاً لِمَا عَسَاهُ يُقَالُ مِنْ أَنَّهُ حَلٌّ مَرْضِيٌّ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَوَسَّعَ فِي الْبَحْثِ حَتَّى نَرَى الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ .وَأَبْدَأُ بِلَفْتِ الْقُرَّاءِ إِلَى الْمُشَاهَدَتَيْنِ الآتِيَتَيْنِ : الأُولَى عَلِمْنَا مِنَ التَّارِيخِ أَنَّ إِحْدَى أُمَمِ الأَزْمَانِ السَّابِقَةِ تَقَدَّمَتْ كَثِيراً عَلَى الْبَقِيَّةِ وَانْتَهَى بِهَا التَّقَدُّمُ أَنْ سَادَتْ مَنْ سِوَاهَا وَأَعْنِي بِهَا الأُمَّةَ الرُّومَانِيَّةَ ، وَمِمَّا يَسْتَوْقِفُ النَّظَرَ أَنَّ الأُمَّةَ الرُّومَانِيَّةَ هِيَ الَّتِي تَمَكَّنَتْ مِنَ التَّخَلُّصِ مِنَ الرُّوكِيَّةِ بِدَرَجَةٍ لَمْ تَصِلْ إِلَيْهَا أُمَّةٌ سِوَاهَا ، وَلِذَلِكَ أَسْبَابٌ شَرَحَهَا مُوسْيُو (بريڤيل) فِي مَجَلَّةِ الْعِلْمِ الاجْتِمَاعِيِّ الصَّادِرَةِ فِي شَهْرِ يَنَايِرْ سَنَةَ ١٨٩١ ضِمْنَ رِسَالَةٍ عَلَى الرُّومَانِيِّينَ فِي مِصْرَ الْقَدِيمَةِ . نَعَمْ إِنَّهَا لَمْ تَتَخَلَّصْ مِنْهَا تَمَاماً لأَنَّ ذَلِكَ الحَظَّ لَمْ يَتَوَافَرْ لأُمَّةٍ مِنْ أُمَمِ الأَزْمَانِ الْقَدِيمَةِ ، غَيْرَ أَنَّا لاَ نَجِدُ أُمَّةً عَظَّمَتْ شَأْنَ الْمِلْكِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَبَالَغَتْ فِي احْتِرَامِهَا مِثْلَ الأُمَّةِ الرُّومَانِيَّةِ ، وَفِيهَا وَصَلَتْ أَنَانِيَّةُ الإِنْسَانِ

إلى أعظم نمو أتيح لأهل تلك العصور، وفيها صار الإنسان مسئولاً عن نفسه وعن عمله ، وفيها عرف الإنسان أنه لا ينبغي له الاعتماد على نفسه ، وتأسست الملكية الخصوصية التي هي نقيضة الملكية المشتركة، وصار لملكية الأفراد على الأرض من الاعتبار ما وصل إلى حد العبادة، حتى إنهم جعلوا حدود الأملاك من الأمور المقدسة ، وقالوا بوجود إله يسمى إله الحد ، وأقاموا أعياداً دعوها الحدية ، وتقرر أن الحد متى تقرر لا يجوز نقله . وقد جاء في قصصهم ما يدل على هذا حيث نسبوا إلى (جوبيتير) عظيم الآلهة أنه أراد أن يبني له هيكلاً علي جبل (كايتولان) ولكنه لم يتمكن من نزع ملكيته من مالكه إله الحد ، وعد الذى يهدم الحد أو يزحزحه خارجاً على الله ومارقاً من الدين ، وجاء في قوانينهم القديمة ما يشير إلى أن الرجل إذا أصاب الحد بطرف محراثه يصير ضحية هو وأثواره لآلهة النيران .

وعلى هذا فالأمة التى ارتقت وسمت فوق كل الأمم في الأعصر البعيدة عنا كانت أقلهم اتكالاً .

المشاهدة الثانية : أن استقراء أحوال الأمم الحاضرة يدلنا على أن التى لا تزال النشأة الاتكالية فيها شديدة هي أعظمها تأخراً وأقلها مالاً وأضعفها جانباً ، قد سبقتها في كل شيء جميع

الأُمَمِ الَّتى نَمتْ فِيهَا المِلْكيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ ، وَعَظُمَ فِيهَا تَأْثِيرُ المَرْءِ مُنْفَرِداً . وَذَلِكَ لاَ نَحْتَاجُ فِيهِ إلى دَلِيلٍ غَيْرِ النَّظَرِ فِي أَحْوَالِ الأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ الَّتى هِيَ الاتِّكَالِيَّةُ وَالأُمَمِ الغَرْبِيَّةِ الَّتى هِيَ الأُمَمُ الاسْتِقْلالِيَّةُ ـ عَلى اخْتِلافٍ بَيْنِهِمَا ـ حَيْثُ تَبْدُو لَنا الأُولَى غارِقَةً مُنْذُ قُرُونٍ عَدِيدَةٍ فِي سُبَاتٍ(١) عَميقٍ ، وَتَبْدُو لَنا الثَّانِيَةُ فِي مَظْهَرِهَا الْعَظِيمِ ، وَقَدْ أَبْلَغَتْ الْعَمَلَ إلَى الْغَايَةِ الْقُصْوَى ، وَرَفَعَتْ قَدْرَ الْإِنْسَانِ إلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ ، وَجَعَلَتْنَا حَائِزِينَ لِأَفْضَلِيَّةٍ لَمْ تَنَلْهَا أُمَمٌ قَبْلَنَا مِمَّا نَفْتَخِرُ بِهِ وَنَتِيهُ عَلى المَلاءِ(٢)، وَمَا كُنَّا لِنَعْرِفَ سَبَبَ إعْجَابِنَا قَبْلَ قِيَامِ الْعِلْمِ الاجْتِمَاعِيِّ .

وَإِذَا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ رَأَيْنَا أَنَّ أَكْبَرَ أُمَمِ الْغَرْبِ هِمَّةً فِى الْعَمَلِ وَأَرْقَاهُمْ فِى زِرَاعَتِهَا وَصِنَاعَتِهَا وَتِجَارَتِهَا وَأَشَدَّهُمْ بَأْساً فِى التَّنَافُسِ الَّذِى تَخْشَاهُ الْأُمَمُ الْأُخْرَى وَأَسْرَعَهُمْ إلَى احْتِلَالِ الْأَقَالِيمِ الَّتي لَا تَزَالُ خَالِيَةً فِى الدُّنْيَا هِيَ تِلْكَ الْأُمَّةُ الإنكليزِيَّةُ السَّكْسُونِيَّةُ الَّتي لَا تُجَارَى وَالَّتى ضَاقَتْ بِها بِلَادُ انْجلْتِرَه فَتَدَفَّقَتْ فِى الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ وَتَرَعْرَعَ فِى أَمْرِيكَا غُصْنُهَا الْقَوِيُّ فَكَانَتِ الْوِلَايَاتُ الْمُتَّحِدَةُ(٣)، وَكُلٌّ يَرَى هَذَا حَتَّى الَّذِينَ لَا يُبْصِرُونَ . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْأُمَّةَ الِاسْتِقْلَالِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ بَيْنَ أُمَمِ الْغَرْبِ هِيَ الْأُمَّةُ

(١) نوم (٢) الملأ: جماعة القوم (٣) كان هنا تامة

الإنكليزيَّةُ السكسونيَّةُ، وَأَنَّهَا أَبعَدُهمْ عَنِ النَّشْأَةِ الاتِّكاليَّةِ وَأَنَّهَا هِيَ الَّتي بَلغَتْ عِنْدَهَا هِمَمُ الأَفرَادِ مُنْتَهَاهَا وَوَصَلَتْ سُلْطَةُ الْحُكومَةِ إِلَى أَدْنَاهَا(١).

هَكَذَا كَانَتِ الأُمَّتَان اللَّتَان تَمَكَّنتَا مِنْ أَعْنَاقِ الْعَالَمِ فِي الزَّمَنَيْن: أُمَّةُ الرُّومَان في الْعَهْدِ الْقَدِيمِ، وَأُمَّةُ الإِنكليز السَّكْسُونيِّينَ في هَذَا الزَّمَان أَبْعَدَ الأُمَمِ عَنِ الاتِّكَالِ. وَمَا هَذَا الاتِّفَاقُ بِمُصَادَفَةٍ فَإِنَّ الْمُصَادَفَةَ مُحَالٌ وَإِنَّمَا هُوَ لاَزِمٌ مِنْ لَوَازِم نَشْأَةِ الاسْتِقْلاَلِ وَالاقْتِنَاعُ بِمَا نَقُولُ سَهْلٌ مَيْسُورٌ.

وَلَقَدْ يُمْكِنُنَا أَنْ نُلَخِّصَ الْمَوْضُوعَ في كَلِمَتَيْنِ. مَا اعْتَمَدَ الإِنْسَانُ عَلَى غَيْرِهِ وَانْتَظَرَ الْمَعُونَةَ مِنَ الْمَجْمُوعِ إِلاَّ قَلَّتْ هِمَّتُهُ وَقَعَدَ عَنِ الْكَدِّ بِنَفْسِهِ لِيَكْسِبَ مَعِيشَتَهُ، وَمَا عَرَفَ الإِنْسَانُ أَنَّهُ لاَ اعْتِمَادَ لَهُ إِلاَّ عَلَى نَفْسِهِ وَلاَ مَعُونَةَ إِلاَّ مِنْ عَمَلِهِ الذَّاتِيِّ إِلاَّ كَبُرَتْ هِمَّتُهُ وَاشْتَدَّ عَلَى الْكَدِّ سَاعِدُهُ لِيُحَصِّلَ رِزْقَهُ وَيَتَرَقَّى عَلَى الدَّوَامِ.

حَالُ الأَفْرَادِ في الأُمَمِ الاتِّكَالِيَّةِ كَحَالِ مُوَظَّفِي النِّظَّارَاتِ(٢) وَمُسْتَخْدَمِي الْمَصَالِحِ، وَهِيَ حَالٌ لاَ تُرَبِّي فِي الْمَرْءِ مَيْلاً إِلَى الْعَمَلِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ لأَنَّهُ نِظَامٌ يَقْتُلُ فِي الإِنْسَانِ مَلَكَةَ الْعَمَلِ وَتَقْدِيرَ

---

(١) أقلها شأنا وسلطانا (٢) يريد الوزارات

فَوَائِدِهِ الْعُظْمَى . فإِذَا تنَاوَلَ ذَلِكَ النظَامُ أُمَّةً بتَمَامِهَا انتَشَرَتْ آثَارُهُ بحَسَبِهِ ، وَإِذَا دَامَ تَوَارُثُهُ زمَناً طَوِيلاً مِنَ الآبَاءِ إِلَى الأَبْنَاءِ اشْتَدَّ ظُهُورُ تِلْكَ الآثَارِ عَلَى قَدْرِ مُدَّتِهِ ، فَتَضْعُفُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْعَمَلِ نَوْعاً فى الْوَلَدِ بعْدَ أَبِيهِ وَيَشْتَدُّ الضَّعْفُ فى بَنِيهِ . وَهَكَذَا حَتَّى يَصِلَ الجِيلُ الأَخِيرُ إِلَى خُمُولِ ذَلِكَ الرَّجُلِ الشَّرْقِىِّ الَّذِى لَمْ يَبْقَ لَهُ مِنَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْعَمَلِ إِلاَّ مَا يُحَصِّلُ بِهِ الْقُوتَ كَىْ لاَ يَمُوتَ جُوعاً . وَمَهْمَا قَلَّبْنَا الْحَوَادِثَ وَفَتَّشْنَا فى بُطُونِ التَّوَارِيخِ فَلاَ نَسْتَخْلِصُ غَيْرَ نَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ ، هِىَ أَنَّ النَّشْأَةَ الإِتِّكَالِيَّةَ قَدْ أَضْعَفَتِ الهِمَمَ فى كلِّ زَمَانٍ وَعَطَّلَتِ اسْتِعْدَادَ الأَفْرَادِ إِلَى الْعَمَلِ وَجَعَلَتْ أَهْلَهَا مِنَ الضُّعَفَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ . فإِنَّ الاتِّكَالَ وِسَادَةٌ⁽¹⁾ لَيِّنَةٌ تَلِيقُ بِمَنْ يَمِيلُ إِلَى النُّعَاسِ وَلَكِنَّهُ مَا كَانَ يَوْماً بُوقاً يَقُومُ عَلَى صَوْتِهِ مَنْ رَامَ النُّهُوضَ .

وَلَعَلَّ قَوْماً يَقُولُونَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَحَبِّ الأَشْيَاءِ إِلَيْهِمْ وَإِنَّهُمْ يُفَضِّلُونَ النَّوْمَ عَلَى الْقِيَامِ لِأَنَّ غَايَةَ الْمُتَمَنَّى⁽²⁾ فى الحَيَاةِ أَنْ يَسْتَرِيحَ الْمَرْءُ مَا اسْتَطَاعَ لاَ أَنْ يَشْقَى مَا اسْتَطَاعَ ، وإِنَّهُمْ يَرْتَاحُونَ لِخُمُولِ أَهْلِ النَّشْأَةِ الاتِّكَالِيَّةِ وَلاَ يَبْتَسِمُونَ لِذَاكَ الْكَدِّ وَالْعَنَاءِ الَّذِى تُنْمِيهِ النَّشْأَةُ الاسْتِقْلاَلِيَّةُ . وَأَنَا أُدْرِكُ هَذَا الاعْتِرَاضَ بَلْ أَقُولُ إِنَّ فِيهِ

(١) مخدة (٢) أى غاية ما يتمناه الانسان

رفقاً وحناناً بالناس وليس فيه عيب إلا أن مايطلبون محال لسببين :

الأول أن الأسباب الطبيعية التي تولدت عنها النشأة الاتكالية في الأزمان الماضية لم تعد مؤثرة في هذه الأيام ولا عامة كما كانت . فالأصل في وجود تلك النشأة حالة البداوة الأولى التي ظهرت في سهول آسيا الفسيحة ذات الأعشاب الكثيرة حيث بدأت الإنسانية بالترقي . فلما تفرق الناس استصحبوا معهم نشأتهم الأولى وأدخلوها حيث استقر بهم المقام ولم تتغير إلا حسب ظروف كل بلد وطباع الساكنين فيه، فخضعت لسلطانها جميع الأمم القديمة، كما بيناه، لأنها كانت قريبة العهد بمولدها ، ولأن تلك النشأة كانت ما تزال كما وجدت باقية في البلاد المجاورة لأعظم سهل موجود على وجه البسيطة . ومعلوم أن البداوة لم يعد لها ذلك التأثير على الأمم خصوصاً في الغرب لأنها بعيدة عنها زماناً ومكاناً، ولوجود الأمم الاستقلالية في الغرب من يوم ظهور الدين المسيحي لأسباب وظروف شرحت في مجلة العلم الاجتماعي ولا حاجة بنا إلى تكرارها (جزء أول صحيفة ١١٠)

ثبت إذن أن السبب الأول المؤثر في وجود النشأة الاتكالية لم يعد صالحاً اليوم لغايته ، وأنهم يريدون إحياء تلك النشأة بسبب

صِنَاعِيٍّ هُوَ الْقَهْرُ ، أَىْ سَنُّ الْقَوَانِينِ أَىْ تَدَخُّلُ الْحُكُومَةِ حَتَّى تَصِيرَ الرَّئِيسَ الأَعْظَمَ عَلَى الْكُلِّ فِى الْمُجْتَمَعِ الاشْتِرَاكِيِّ الَّذِى يَتَأَلَّفُ فِى خَيَالِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ . وَبَدِيهِىٌّ أَنَّ هَذَا الْحَالَ لَا يَتَحَقَّقُ اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا اصْطَدَمَ مَعَ طَبَائِعِ الأَشْيَاءِ فَغَلَبَهَا وَنَاطَحَ جَمِيعَ الْمَنَافِعِ الْمُتَأَلِّبَةِ(١) طَبْعًا عَلَيْهِ فَانْتَصَرَ عَلَيْهَا، لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ تَجْرِيدِ كُلِّ مَنْ كَانَ فِى يَدِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الأَرْضِ أَوْ يَسِيرٌ مِنْ آلَاتِ الْعَمَلِ مِمَّا مَلَكَ . وَلَسْنَا نَرَى كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى هَذَا السَّبِيلِ عَلَى فَرْضِ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ سَهْلٌ يَلِينُ لِكُلِّ مَطْلَبٍ ، وَلَكِنَّ الِاشْتِرَاكِيِّينَ لَا يَتَحَيَّرُونَ!!

هَبْهُمْ نَجَحُوا — وَلَا أَدْرِى كَيْفَ يَنْجَحُونَ — فَأَدْخَلُوا نِظَامَهُمْ الِاشْتِرَاكِىَّ فِى الْبِلَادِ الَّتِى لَهُمْ بِهَا فِى هَذِهِ الأَيَّامِ بَعْضُ النُّفُوذِ بَيْنَ سُكَّانِهَا، إِذْ ذَاكَ تَنْتَصِبُ(٢) أَمَامَهُمُ الْعَقَبَةُ الثَّانِيَةُ - وَلَا غَالِبَ لَهَا - فَتَسُدُّ فِى وَجْهِهِمِ الطَّرِيقَ سَدًّا مَكِينًا وَهِىَ السَّبَبُ الثَّانِى الَّذِى بَقِىَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ .

الثَّانِى إِذَا تَمَّ فَوْزُ الِاشْتِرَاكِيِّينَ بِمَا يَشْتَهُونَ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَرَوْا جَمِيعَ نَتَائِجِ النَّشْأَةِ الِاتِّكَالِيَّةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا بَادِيَةً بَيْنَ جُمُوعِهِمْ

(١) تألب الناس عليه: تجمعوا وانضم بعضهم الى بعض

(٢) تقوم

الاشتراكية عملاً بسنة: العلة بذاتها تنتج المعلول بذاته أبداً. ويكون فعل تلك النتائج في الناس أشد، لأن النظام الذي يطلبه الاشتراكيون الألمانيون أقسى وأحرج من الذي عرفناه عن زمن الفراعنة في الأمة المصرية؛ هنالك يستولى الضعف بعينه على دعائم تلك الأمم ويدخل الانحلال إلى أعصابها الحيوية، وهو الذي رمى بأمم الزمن القديم بين يدى الزمان. نعم لسنا نخاف اليوم من الرومان إلا أنه يوجد في طريق الأمم الاشتراكية خصم أشد بأساً وأصعب مراساً وهو الجنس الانكليزي السكسوني الذي هم بالاستيلاء على الدنيا بما أوتيه من نمو همة أفراده إلى الحد المستطاع، أصحيح بعد هذا أن الزمن مناسب لبث روح مذهب الاشتراكيين بين الأمم.؟؟

وكيف يخطر بالبال أن تلك العقول النيرة لا تجد من الإصلاح ما تشير به علينا إلا نظام الشرق مع زيادة في القيود وتشديد في التعاليم وأنهم يختارون لتقديم هذه المشورة ذلك اليوم الذي بلغت فيه قوة الغرب على الشرق منتهاها؟ أجل لن تبطئ عنهم نتيجة عملهم هذا، وقد نبأنا بها التاريخ على أن ما يجرى اليوم كاف للدلالة عليها.

يجرى اليوم أن أمم الغرب تحتل سائدة أمم الشرق وتنشئ

فِيهَا الْمُسْتَعْمَرَاتِ وَتُقِيمُ الْحُكُومَاتِ أَوْ تَضُمُّهَا إلى أَمْلاكِهَا ضَمّاً لا تَحْتَاجُ فِيهِ إلى مَشُورَةٍ أو اسْتِئْذَانٍ . يَجْرِى الْيَوْمَ أَنَّ تِلْكَ الأُمَمَ الاتِّكَالِيَّةَ أَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا خُلِقَتْ لِيَحْتَلَّهَا قَوْمٌ آخَرُونَ . وَالأُمَّةُ الْإِنْكلِيزِيَّةُ السَّكْسُونِيَّةُ هِيَ الَّتى تَتَقَدَّمُ جَمِيعَ الأُمَمِ فى هَذِهِ السِّيَادَةِ الْعَامَّةِ ، فَلَوْ أَنَّا وَضَعْنَا أَنْفُسَنَا مَوْضِعَ أُمَمِ الشَّرْقِ لَزِدْنَا فى سَبْقِ الْإِنْكلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ إِيَّانَا وَلَقَدَّمْنَا إِلَيْهِمْ فَرِيسَةً أُخْرَى . وَلَيْسَتِ الحَرْبُ سِجَالاً[1] بَيْنَ أُمَّتَيْنِ أُمَّةٍ نَمَتْ فِيهَا الهِمَّةُ وَالْإِقْدَامُ بَيْنَ أَفْرَادِهَا وَأُمَّةٍ بَاتَتْ فِيهَا الهِمَمُ مَضْغُوطاً عَلَيْهَا فَتَعَطَّلَتْ ، بَلْ لَا بُدَّ أَنْ تَسْتَعْلِيَ الْأُولَى عَلَى الثَّانِيَةِ .

أَهَذَا هُوَ الَّذِى يَخْطُرُ بِأَحْلَامِ[2] الِاشْتِرَاكِيِّينَ الْأَلْمَانِيِّينَ وَهَلْ يَرَوْنَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَيْلاً إلى أَنْ يَصِيرُوا إلى مَا صَارَ إِلَيْهِ هُنُودُ أَمَرِيكَا أَمَامَ الْإِنْكلِيزِ مِنْ سُكَّانِهَا .

وَمَعَ مَا تَقَدَّمَ كُلِّهِ فَلَسْنَا مِمَّنْ يَقُولُ بِأَنَّهُ لَيْسَ فِى الْإِمْكانِ أَبْدَعُ مِمَّا كَانَ بِالنَّظَرِ إِلَى الحَالَةِ الرَّاهِنَةِ كَمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ فِيمَا يَظْهَرُ بَعْضُ الِاقْتِصَادِيِّينَ . إِلَّا أَنَّ خَطَأَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ وَرَاءَ حَلٍّ مَرْضِيٍّ لِلْمَسْأَلَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ يَأْتِى مِنَ المَيْلِ إلى زِيَادَةِ تَدَخُّلِ الْحُكُومَةِ وَالضَّغْطِ على هِمَمِ الْأَفْرَادِ الذَّاتِيَّةِ وَالْوَاجِبُ بِالْعَكْسِ فَإِنَّ الحَقِيقَةَ الَّتى تُبَرْهِنُ

(١) يقال الحرب بينهم سجال أى تارة لهم وتارة عليهم (٢) عقول

عَلَيْهَا الحَوَادِثُ هِيَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْذُوَ عَلَى الدَّوَامِ حَذْوَ[1] الأُمَمِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ عَلَى غَيْرِهَا فِي المَاضِي وَفِي الزَّمَنِ الحَاضِرِ لَا بِقُوَّةِ السِّلَاحِ بَلْ بِمَا هُوَ أَشَدُّ بَأْساً مِنْهَا وَهِيَ قُوَّةُ النِّظَامِ الاجْتِمَاعِيِّ .

وَمِنَ المُشَاهَدِ أَنَّ هَذَا النِّظَامَ هُوَ أَلْيَقُ الْأَحْوَالِ لِحَلِّ المَسَائِلِ الَّتِي اخْتَلَفَ عَلَيْهَا المُشْتَغِلُونَ بِالْعَمَلِ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ وَأَعْنِي بِهَا مَسْأَلَةَ الْفَعَلَةِ الَّتِي يَدَّعِي الاشْتِرَاكِيُّونَ بَاطِلاً أَنَّهُمْ عَثَرُوا عَلَى مِفْتَاحِهَا . وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا نَقُولُ أَنَّ الأُمَمَ الاسْتِقْلَالِيَّةَ هِيَ الَّتِي أَصْبَحَ فِيهَا عَامِلَا الْعَمَلِ وَهُمَا السَّيِّدُ وَالْفَاعِلُ فِي أَحْسَنِ الْأَحْوَالِ المُوَافِقَةِ لِفَضِّ جَمِيعِ المُنَازَعَاتِ الَّتِي تَحْدُثُ بِسَبَبِ اتِّسَاعِ النِّطَاقِ فِي المَعَامِلِ الصِّنَاعِيَّةِ . وَلَا حَاجَةَ بِي أَنْ أُبَرْهِنَ عَلَى أَنَّ النَّشْأَةَ الاسْتِقْلَالِيَّةَ تُنْمِي بِذَاتِهَا فِي الرُّؤَسَاءِ الهِمَّةَ وَالإِقْدَامَ ، وَتُعَوِّدُهُمْ الاعْتِمَادَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَتُرَبِّي فِيهِمْ مَلَكَةَ اسْتِنْبَاطِ المَشْرُوعَاتِ أَكْثَرَ مِنَ النَّشْأَةِ الاتِّكَالِيَّةِ بِدَلِيلِ الْفَرْقِ بَيْنَ أُمَمِ الْغَرْبِ وَبَيْنَ أُمَمِ الشَّرْقِ . وَلَا مُشَاحَّةَ فِي أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ المُتَعَدِّدَةَ لَازِمَةٌ لِلنَّجَاحِ فِي إِدَارَةِ الْعَمَلِ بِالنَّظَرِ إِلَى الظُّرُوفِ وَالأَحْوَالِ الجَدِيدَةِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي طَرَأَتْ عَلَى الصِّنَاعَةِ بَعْدَ العُثُورِ عَلَى مَنَاجِمِ الْفَحْمِ . كَمَا أَنَّهُ لَا مِرَاءَ[2] فِي أَنَّ مِثَالَ الرَّئِيسِ الْكَبِيرِ ذِي الْكِفَايَةِ التَّامَّةِ وَالإِقْدَامِ قَدْ نَمَا وَتَقَدَّمَ

(١) يقال حذا حذوه فعل فعله واقتدى به (٢) لاجدال

فى الأُمَّةِ الإِنْكليزيَّةِ السَّكْسُونيّةِ أَكْثَرَ مِمَّا عَلَيْهِ أَهْلُ الأُمَمِ الاتِّكاليَّةِ أو الَّتى تَميلُ إلَى الاتِّكالِ وَهَذَا التَّقَدُّمُ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لِتلكَ الأُمَّةِ أَفْضَلِيَّةً يَخْشَاهَا الجَمِيعُ فى الصِّناعَةِ .

قالُوا (وَمَا الَّذِى يُفيدُهُ هَذا فى تَحْسِينِ حَالِ العَامِلِ وَهُوَ المَقْصُودُ أوَّلاً وَبالذَّاتِ) وَالجوَابُ عَلَى ذَلكَ بَسِيطٌ

فَأَوَّلُ شَرْطٍ فى اطْمِئْنانِ الْفَعَلَةِ عَلَى وُجُودِ مَا يَعْمَلُونَ فيهِ بِأَكْبَرِ مَا يُمكِنُ مِنَ الْفَائِدَةِ لَهُمْ أَنْ يَكُونَ الرُّؤَسَاءُ ذَوِى أَهْلِيَّةٍ كَافيَةٍ لِإِنْجَاحِ صِناعَتِهِمْ ، وَلَا شَكَّ فى أَنَّ النِّظامَ الَّذِى يُرَبِّى فى الرُّؤَسَاءِ ذَلِكَ الاسْتِعْدَادَ يَكُونُ مُناسِباً لِتَحْسِينِ حَالِ الْعُمَّالِ إِذْ مَتَى نَمَتْ صِناعَةُ الرَّئِيسِ تَيَسَّرَ لَهُ أَنْ يَدْفَعَ لِعُمَّالِهِ أُجُورًا طَيِّبَةً ، وَسَهُلَ عَلَيْهِمْ تَخْصِيصُ نَصِيبٍ مِنْ أَمْوَالِهِمْ لِإِيجادِ الْمُنْشَآتِ الَّتى تَدْفَعُ عَنْ رِجَالِهِمْ جَوائِحَ[1] الزَّمَانِ فَتُعِينُهُمْ إذَا احْتَاجُوا وَتَكْفُلُ لَهُمْ رِزْقَهُمْ إِذَا قَعَدُوا وَهَكَذَا وَذَلِكَ لَا يَتَيَسَّرُ لِلَّذِينَ ضَعُفَ اسْتِعْدَادُهُمْ وَقَلَّ إِقْدَامُهُمْ وَصَعُبَتْ عَلَيْهِمِ الْأَعْمَالُ .

يُقَالُ إِنَّ قُدْرَةَ الرُّؤَسَاءِ عَلى القِيَامِ بِتِلْكَ الْأَعْمالِ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا أَنَّهُم يَقُومُونَ بِهَا وَقَدْ يَجُوزُ كَمَا شُوهِدَ أَنَّهُمْ يَنْتَهِزُونَ نَجاحَهُمْ فى أَعْمَالِهِمْ فُرْصَةً لِزِيَادَةِ كَسْبِهِمْ غَيْرَ مُلْتَفِتِينَ أَقَلَّ الْتِفَاتٍ إِلى تَحْسِينِ حَالِ الْعُمَّالِ .

(١) الجائحة البلية والتهلكة والداهية العظيمة التى تجتاح أى تستأصل

وَهُوَ اعْتِرَاضٌ وَجِيهٌ ، غَيْرَ أَنَّهُ يُتِيحُ لَنَا فِى الْجَوَابِ عَنْهُ أَنْ نُبَيِّنَ أَفْضَلِيَّةَ النَّشْأَةِ الاسْتِقْلَالِيَّةِ عَلَى النَّشْأَةِ الاتِّكَالِيَّةِ ، لِأَنَّهَا مَعَ عِظَمِهَا لَمْ يَلْتَفِتِ الْبَاحِثُونَ إِلَيْهَا كَمَا يَنْبَغِى ، وَتِلْكَ الْأَفْضَلِيَّةُ حَاصِلَةٌ عِنْدَ الْفَعَلَةِ كَمَا هِىَ ثَابِتَةٌ لِلرُّؤَسَاءِ .

النَّشْأَةُ الاتِّكَالِيَّةُ تَجْعَلُ الْعَامِلَ غَيْرَ أَهْلٍ لِأَىِّ حَرَكَةٍ ذَاتِيَّةٍ عَظِيمَةٍ دَائِمِيَّةٍ ، بَلْ تُصَيِّرُهُ آلَةً صَمَّاءَ كَمَا كَانَ عَامِلُ الزَّمَنِ الْقَدِيمِ ، وَكَمَا هُوَ حَالُ الْعَامِلِ الشَّرْقِىِّ فِى هَذِهِ الأَيَّامِ ، وَكَمَا هُوَ الْعَامِلُ الْأَلْمَانِيُّ عَلَى التَّقْرِيبِ ، فَإِنَّ هَذَا الْأَخِيرَ أَصْبَحَ آلَةً فِى يَدِ الْمُقْلِقِينَ يُجَنِّدُونَهُ تَحْتَ لِوَائِهِمْ بِسُهُولَةٍ لَيْسَ لَهَا مَثِيلٌ ، لَا فَرْقَ بَيْنَ الْمُقْلِقِ الاشْتِرَاكِىِّ الثَّوْرِىِّ ، أَوِ الْمُحَافِظِ ، أَوِ الْإِنْجِيلِىِّ ، أَوِ الْكَاثُولِيكِىِّ أَوْ غَيْرِهِمْ . وَلَا قُوَّةَ فِى الظَّاهِرِ لِرُؤَسَاءِ الْمَذْهَبِ الْأَلْمَانِىِّ إِلَّا بِهَذَا الاسْتِسْلَامِ فَقَدْ لَانَتْ فِى أَيْدِيهِمْ طِينَةُ الْعُمَّالِ فَيُصَوِّرُونَهُمْ بِالشَّكْلِ الَّذِى يُرِيدُونَ وَيَسُوقُونَهُمْ كَالْأَغْنَامِ حَيْثُ يَشَاءُونَ ، وَهَذَا هُوَ السِّرُّ فِى دَهْشِهِمْ مِنِ اسْتِعْصَاءِ الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ جَاءُوا إِلَى إِنْكِلْتِرَه وَالْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ لِنَشْرِ مَبَادِئِهِمْ بَيْنَ تِلْكَ الْأُمَمِ ، وَذَهِلُوا لِأَنَّهُمْ وَجَدُوا الْفَعَلَةَ لَا يَسْمَعُونَ لَهُمْ نِدَاءً . وَتِلْكَ هِىَ دَهْشَةُ الرَّجُلِ الاتِّكَالِىِّ الَّذِى يَصْطَدِمُ فِي طَرِيقِهِ مَعَ الرَّجُلِ الاسْتِقْلَالِىِّ ، لِذَلِكَ

وَصفَ أَحَدُ أُولَئِكَ الْمُقْلِقِينَ عُمَّالَ الإِنكليزِ السَّكْسُونِيِّينَ مُحْتَقِرًا «بأَنَّهُمْ قومٌ لا يُبْصِرُونَ». وَإِلَيْكَ مَا كَتَبَهُ مُوسيُو «ويزيوا» أَحَد مُؤَرِّخِينَا فِي كِتَابِهِ «الاشْتِرَاكِيُّونَ فِي أُورُبَّا صفحة ٢١١» قَالَ: «لا يُوجَدُ فِي أُورُبَّا بَلَدٌ حَصَلَ الْعَمَلَةُ فِيهِ عَلَى الَّذِي نَالُوهُ فِي انجلترا لِتَحْسِينِ حَالَتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ أَكْثَرُوا فِيهَا صَنَادِيقَ الاقْتِصَادِ وَشَرِكَاتِ التَّأْمِينِ وَجَمْعِيَّاتِ التَّعَاوُنِ وَأَصْبَحُوا بِطَرِيقَتِهِمِ الْمُسَمَّاةِ «ترادسينيون» مِنْ أَهْلِ الأَمْوَالِ، وَلَكِنَّهُمْ حَصَّلُوا كُلَّ هَذَا بِغَيْرِ مَذْهَبِ الاشْتِرَاكِيِّينَ وَمِنْ دُونِ أَنْ يُفَكِّرُوا فِي تَغْيِيرِ النِّظَامِ الاجْتِمَاعِيِّ الْحَاضِرِ». وَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ حَصَّلُوا كُلَّ هَذَا بِدُونِ أَنْ يَرْضَوْا بِقِيَادَةِ الْمُقْلِقِينَ وَالْمُتَطَفِّلِينَ عَلَى السِّيَاسَةِ، وَهَذَا هُوَ ذَنْبُهُمُ الَّذِي لا يَغْفِرُهُ أُولَئِكَ الْمُقْلِقُونَ.

وَالَّذِي يُحِبُّ الْوُقُوفَ عَلَى مَا أَتَى بِهِ الْفَعَلَةُ مِنَ الإِنكليزِ السَّكْسُونِيِّينَ فِي إِنكلترَه وَالْوِلايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ بِأَنْفُسِهِمْ وَبِمَحْضِ قُوَّتِهِمِ الذَّاتِيَّةِ وَإِقْدَامِهِمْ بِدُونِ أَنْ يَطْلُبُوا مَعُونَةَ الْحُكُومَةِ بَلْ مَعَ رَفْضِهِمْ تِلْكَ الْمَعُونَةَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَقْرَأَ تَارِيخَ جَمْعِيَّاتِهِمُ الْمُسَمَّاةِ «ترادسينيون» الْمَذْكُورَةِ فَلا شَيْءَ أَفْيَدَ مِنْهُ وَلا أَقْطَعَ حُجَّةً عَلَى تَقَدُّمِ الْفَعَلَةِ مِنْ أَهْلِ النَّشْأَةِ الاسْتِقْلالِيَّةِ تَقَدُّمًا يَفُوقُ الْوَصْفَ، وَعَلَى مَا تُوجِدُهُ تِلْكَ النَّشْأَةُ فِيهِمْ مِنَ الاسْتِعْدَادِ لِلتَّقَدُّمِ وَالتَّرَقِّي.

وَمِمَّا يُلاحَظُ فِي تِلكَ الجَمْعِيَّاتِ هُوَ أَنَّهَا مُتَشَبِّعَةٌ بِاسْتِقْلالِهَا كامِّتِها وَأَنَّهَا لَيْسَتْ كَالجَمْعِيَّاتِ الأَلْمَانِيَّةِ الَّتِي تَتُوقُ[1] إلى تَعمِيمِ نِظامِهَا بَيْنَ الفَعلَةِ عِنْدَ جَمِيعِ الأُمَمِ أَوْ عِنْدَ أُمَّتِها ، وَتَرْمِي إلى تَغْيِيرِ الهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ بِتَمَامِهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ شَرِكاتٌ اسْتِقْلالِيَّةٌ تَتَأَلَّفُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ فَرِيقٍ مَخْصُوصٍ يَجْمَعُهَا مَقْصِدٌ مُعَيَّنٌ مَحْدُودٌ وَلا تَتَأَلَّفُ مِنْهَا جَمْعِيَّةٌ هَائِلَةٌ يَقُودُهَا بَعْضُ المُقْلِقِينَ وَيَسْتَعْمِلُونَهَا فِي إِقَامَةِ مَبَانِي مَجْدِهِمْ بَلْ هِيَ جَمْعِيَّاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ، أَوْ لا يَرْبِطُهَا إِلاَّ رِبَاطٌ صَغِيرٌ . وَيَشْعُرُ الْإِنْسَانُ إِذَا فَكَّرَ فِي نِظَامِ تِلْكَ الشَّرِكَاتِ أَنَّهَا وُجِدَتْ فِي أُمَّةٍ تَمِيلُ إِلَى الاسْتِقْلالِ وَالإِطْلاقِ لا فِي أُمَّةٍ تَعْشَقُ التَّقْيِيدَ وَالاسْتِبْدَادَ ،وَالتَّارِيخُ شَاهِدٌ عَلَى مَا نَقُولُ. فَقَدْ نَشَرَ مُوسْيُو « كاستلو » رِسَالَةً فِي « جَرِيدَةِ الاقْتِصَادِيِّينَ » الصَّادِرَةِ فِي دِيسَمْبِرْ سَنَةَ ١٨٩١ لَخَّصَ فِيهَا كِتَابَ مُوسْيُو «هويل» كَاتِمِ سِرِّ مُؤْتَمَرَاتِ هٰذِهِ الشَّرِكَاتِ الَّذِي سَمَّاهُ « النِّزَاعَ بَيْنَ الْعَمَلِ وَرَأْسِ الْمَالِ » وَمِمَّا جَاءَ فِيهَا : « لَقَدْ جَاءَتْ شَرِكَاتُ ترادسينيون لِلصُّنَّاعِ الْإِنْكِلِيزِ مَدْرَسَةَ تَهْذِيبٍ وَأَخْلاقٍ وَعَوْنًا عَلَى التَّرَقِّي ، وَلا تَزَالُ حَافِظَةً لِاسْتِقْلالِهَا النَّوْعِيِّ ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى لَمْ تَخْرُجْ عَنْ تَقَالِيدِ النَّشْأَةِ الاسْتِقْلالِيَّةِ — يُلاحَظُ أَنَّ الْكَلِمَةَ بِذَاتِهَا وَرَدَتْ فِي الرِّسَالَةِ — الَّتِي

---

(١) تاقت نفسه إلى الشيء اشتاقت إليه

قَامَتْ حِجَاباً بَيْنَهَا وَبَيْنَ انْضِمَامِهَا إِلَى جَمْعِيَّةٍ وَاحِدَةٍ تَدْخُلُ تَحْتَهَا جَمِيعُ الْهِمَمِ الذَّاتِيَّةِ وَمَكَاسِبُ الْمُشْتَرِكِينَ كلها فخابت بذلك كل الْمَسَاعِي الَّتِي بُذِلَتْ فِي هَذَا السَّبِيلِ . وَقَدْ بَلَغَ أَعْضَاءُ تِلْكَ الشَّرِكَاتِ فِي إِنْكِلْتِرَا وَحْدَهَا مِلْيُونًا وَنِصْفَ مِلْيُونٍ ، وَبَلَغَ دَخْلُهَا مِلْيُونَيْنِ مِنَ الْجُنَيْهَاتِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ أَعْنِي خَمْسِينَ مِلْيُونًا مِنَ الْفَرَنْكَاتِ ، وَعِنْدَهَا مَبْلَغٌ احْتِيَاطِيٌّ مِثْلُ ذَلِكَ بِالتَّمَامِ . تِلْكَ هِيَ قُوَّةُ الْعُمَّالِ الْهَائِلَةُ الَّتِي أَوْجَدَهَا الْإِقْدَامُ الذَّاتِيُّ فَلْتَأْتِ لَنَا أَلْمَانِيَا بِمِثْلِ هَذَا .

وَلَا تَنْقُصُ قُوَّةُ الْعُمَّالِ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ عَنْ ذَلِكَ كَمَا بَيَّنَّاهُ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى رَفْضِهِمِ الدُّخُولَ فِي مَذْهَبِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ .

وَمِمَّا يَجِبُ الِالْتِفَاتُ إِلَيْهِ أَنَّ تِلْكَ الْقُوَّةَ الْعَظِيمَةَ لَمْ تَكُنْ قَائِمَةً فِي وَجْهِ « الْهَيْئَةِ ذَاتِ رَأْسِ الْمَالِ » كَمَا يَقُولُ الِاشْتِرَاكِيُّونَ مُغْضَبِينَ بَلِ الْغَرَضُ الْوَحِيدُ مِنْهَا تَحْسِينُ حَالِ الْعُمَّالِ فِعْلاً بِالْمُعَارَضَةِ فِي تَخْفِيضِ الْأُجُورِ وَاقْتِصَادِ جُزْءٍ مِمَّا يَكْسِبُونَ لِتَخْفِيفِ الْبَطَالَةِ الَّتِي قَدْ تَأْتِي عَفْوًا ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ دُونِ أَنْ يَمُدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى طَلَبِ مُسَاعَدَةِ الْحُكُومَةِ أَبَدًا .

أَمَرَ مَجْلِسُ النُّوَّابِ بِإِجْرَاءِ تَحْقِيقٍ عَنْ حَالَةِ الْفَعَلَةِ فَقَرَّرَ أَغْلَبُ رُؤَسَاءِ الْعَمَلِ — رُؤَسَاءِ الْعَمَلِ ! هَلْ أَنْتُمْ سَامِعُونَ ؟ — أَنَّ الْعُمَّالَ الَّذِينَ مِنْ تِلْكَ الشَّرِكَاتِ هُمْ أَمْهَرُ فِي عَمَلِهِمْ وَأَخْلَصُ فِي شُغْلِهِمْ مِنْ بَقِيَّةِ

الْعُمَّالِ الَّذِينَ مَعَهُمْ . قَالَ الْمُؤَلِّفُ السَّابِقُ : « وَعَلَى الْعُمُومِ فَإِنَّهُمْ اكْتَفَوْا بِاسْتِعْمَالِ الطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ لِلْحُصُولِ عَلَى مَا بِهِ يَصِيرُونَ جَمْعاً مِنْ شَأْنِهِ إِنْمَاءُ الْهِمَمِ وَاحْتِرَامُ الْمَرْءِ لِذَاتِهِ ، وَلَمْ يَطْلُبُوا فِي الْوُصُولِ إِلَى غَرَضِهِمْ مِنَ الْحُكُومَةِ إِلَّا أَنْ تَرْفَعَ عَنْهُمُ الْقُيُودَ الَّتِي كَانَتْ تَغُلُّهُمْ(١) عَنِ التَّرَقِّي فِي هَذَا السَّبِيلِ دُونَ أَنْ يَلْتَمِسُوا مِنْهَا مِنَّةً(٢) أَوْ مَعُونَةً . وَقَدْ مَضَى عَلَى تِلْكَ الشَّرِكَاتِ نَحْوُ قَرْنٍ مِنَ السِّنِينَ ، وَلَمْ يَحِيدُوا(٣) عَنْ طَرِيقِهِمْ هَذَا لِأَنَّهُ الطَّرِيقُ الْجِدُّ وَبِهِ الْفَخَارُ وَلَهُ الْوَقَارُ ، وَهُوَ الَّذِي حَمَلَ أَقَلَّ النَّاسِ مَيْلاً إِلَيْهِمْ عَلَى أَنْ يَقُومُوا لَهُمْ بِوَاجِبِ الِاحْتِرَامِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ نُخْبَةُ الْعُمَّالِ ، وَقَدْ عُرِفُوا بِمَا عُرِفَتْ بِهِ الْأُمَّةُ الْبِرِيطَانِيَّةُ مِنْ ثَبَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْبَقَاءِ هَادِئَةً فِي مَبَادِئِهَا » .

هَكَذَا تَمَكَّنَتِ النَّشْأَةُ الِاسْتِقْلَالِيَّةُ مِنْ إِيجَادِ رِجَالٍ بَيْنَ رُؤَسَاءَ وَعُمَّالٍ هُمْ أَقْدَرُ النَّاسِ بِأَنْفُسِهِمْ عَلَى حَلِّ الْمَسْأَلَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ .

وَالْآنَ نَفْرِضُ ـ وَالْأَمْرُ وَاقِعٌ لَا شَكَّ فِيهِ ـ أَنَّ بَعْضَ الرُّؤَسَاءِ لَا يُدْرِكُونَ حَقِيقَةَ مَصْلَحَتِهِمْ فَيَبْتَزُّونَ(٤) أَمْوَالَ الْفَعَلَةِ وَيَأْكُلُونَ حُقُوقَهُمْ بِالْبَاطِلِ ، وَيَعْتَبِرُونَهُمْ كَالْآلَاتِ يَسْتَعْمِلُونَهُمْ مَتَى شَاءُوا وَيَتْرُكُونَهُمْ مَتَى شَاءُوا وَيُحَمِّلُونَهُمْ مَا لَا طَاقَةَ لَهُمْ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَلَا يَنْقُدُونَهُمْ إِلَّا الزَّهِيدَ مِنَ الْأُجُورِ وَلَا يَحْتَاطُونَ أَقَلَّ احْتِيَاطٍ لِمَنْعِ الْبَطَالَةِ

(١) تقيدهم (٢) المنة: النعمة (٣) يعدلوا (٤) يسلبون

وَمعُونَةِ الشُّيُوخِ عَلى مَصَائِبِ الدَّهْرِ ، أَلاَ يَكُونُ الْفعلَةُ مِنْ أَهْلِ النَّشْأَةِ الاسْتِقْلاَلِيَّةِ أَعْظَمَ اسْتِعْدَادًا ، وَأَكْبَرَ قُوَّةً ، وَأَشَدَّ بَأْسًا لاسْتِرْدَادِ حقِّهِمُ الْمَسْلُوبِ أَضْعَافَ أَضْعَافِ مَاعَلَيْهِ الْفَعَلَةُ الاتِّكاليُّونَ؟ إِنَّهمْ أَقْوَى لِأَنَّ قُوَّتَهُمْ تَأْتِيهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وَلِأَنَّهُمْ يلاَقُونَ مَا يَعتَرِضُهُمْ مِنَ الصِّعَابِ بِالْمُقَاوَمَةِ الذَّاتِيَّةِ مُبَاشَرَةً وَهُمْ نَاجِحُونَ. إِنْ أُجْحِفَ[1] بِحُقُوقِهِمْ فِى أَمْرٍ مُعَيَّنٍ وَجَدْتَهُمْ يَشْكُونَ شَكْوَى مُعَيَّنَةً ، وَيَطْلُبُونَ الإِنْصَافَ بِمَا لاَ يَخْرُجُ عَنْ حَدِّ المَعْقُولِ وَالْإِمْكَانِ لاَ كَمَا يَفعَلُ رُؤَسَاءُ الِاشتِرَاكِيِّينَ مِنْ سَرْدِ الْمَبَادِىءِ وَرَصِّ الْقَوَاعِدِ وَإِلْقَاءِ الْخُطَبِ الْمُهَيِّجَةِ ، وَنَشْرِ الرَّسَائِلِ فِى الْجَرَائِدِ ، وَتَحْضِيرِ الْمَشْرُوعَاتِ الْخَيَالِيَّةِ الَّتِى يَطْلُبُونَ فِيهَا قَلْبَ نِظَامِ الْهَيْئَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ بِتَمَامِهَا، وَالْفَعَلَةُ فِى خِلاَلِ ذَلِكَ يَمُوتُونَ جُوعًا .

لِذَلِكَ نَقُولُ: إِنَّ انْكلترَهْ وَالْوِلاَيَاتِ الْمُتَّحِدَةَ أَسبَقُ الْأُمَمِ فِى حَلِّ مَسْأَلَةِ الْفَعَلَةِ خُصُوصًا بِالنَّظَرِ إِلَى مَنْ كَانَ مِنْهُمْ اسْتِقْلاَلِيًّا مَحْضًا، وَهَؤُلاَءِ يَجْتَمِعُونَ تَحْتَ لِوَاءِ شَرِكَاتِ « تِرَادسِينيونْ » ، وَأَمَّا الْفَعَلَةُ الَّذِينَ هُمْ أَقَلُّ مِنْ أُولَئِكَ فَلاَ تَزَالُ الْمَسْأَلَةُ دَقِيقَةً بِالنَّظَرِ إِلَيْهِمْ فِى هَذَيْنِ الْبَلَدَيْنِ ، وَكَذَلِكَ عُمَّالُ الْحِرَفِ الصَّغِيرَةِ الَّتِى لاَ تَقْتَضِى فَنًّا مَخْصُوصًا كَالْحَمَّالِينَ فِي مَخَازِنِ لُونْدُرَهْ الْعُمُومِيَّةِ، إِلاَّ أَنَّ أُولَئِكَ الْعَمَلَةَ

---

(١) أى سلبوها، والمراد ظلموا فيها بانتقاصها

لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ النَّشْأَةِ الاسْتِقلالِيَّةِ الَّذِينَ اسْتَعَدُّوا لِلتَّزَاحُمِ فِي الحَيَاةِ بَلْ يَمْتَازُونَ عَنْهَا بِمَا فِيهِمْ مِنَ النَّقَائِصِ الشَّخْصِيَّةِ ، أَوْ لِأَنَّهُمْ مِنَ النَّشْأَةِ الاتّكالِيَّةِ كالإرْلَنْدِيّينَ وَالْإِيقُوسِيّينَ وَمُهَاجِرِى الأَلْمانِيّينَ وَالتَّلْيَانِ وَغَيْرِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ العَنَاصِرُ الَّذِينَ يَنْتَخِبُ الفَقْرُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَهْلَهُ وَرِجَالَهُ فِي إِنْكِلْتِرَه وَالوِلايَاتِ المُتَّحِدَةِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَجِدُ مَذْهَبُ الِاشْتِرَاكِيِّينَ مِنْ بَعْضِهِمْ مَيْلاً إِلَى مَبَادِئِهِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَحْتَشِدُونَ تَحْتَ لِوَاءِ أَهْلِ الثَّوْرَةِ وَالاضْطِرَابِ .

وَهَذَا أَيْضًا يُؤَيِّدُ مَا اسْتَخْلَصْنَاهُ مِنَ البُحُوثِ المُتَقَدِّمَةِ وَهُوَ تَأَخُّرُ أَهْلِ النَّشْأَةِ الاتّكالِيَّةِ عَنْ أَهْلِ النَّشْأَةِ الِاسْتِقْلالِيَّةِ بِمِقْدَارٍ عَظِيمٍ .

إِنَّمَا المُسْتَقْبَلُ لِلأُمَمِ الَّتِى تَمَكَّنَتْ مِنَ الخَلاصِ مِنْ تِلْكَ النَّشْأَةِ .

وَالحِكْمَةُ تَقْضِى عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ بِهَذِهِ الحَقِيقَةِ وَنُقَرِّرَهَا فَذَلِكَ أَوْلَى مِنَ التَّمَسُّكِ بِمَا يَدْعُونَهُ حَلًّا لِمَا نَحْنُ فِيهِ وَهُوَ خَيَالٌ ، لِأَنَّ ذَلِكَ المَذْهَبَ أَصْبَحَ بَالِيًا ، وَدَلَّ مَاضِيهِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ سَبَبًا فِي اسْتِيلاءِ الضَّعْفِ عَلَى قَوْمِهِ فِي أَزْمِنَةِ الفَرَاعِنَةِ كَمَا أَنَّهُ يَنْتَشِرُ اليَوْمَ فِي الدُّنْيَا كُلِّهَا بِوَاسِطَةِ أُمَّةٍ هِىَ أَشَدُّ أُمَمِ الغَرْبِ خُضُوعًا لِسُلْطَانِ الحُكُومَةِ المُطْلَقَةِ .

الفصل الثالث

﴿ فِي أَنَّ تَصَوُّرَ الْوَطَنِيَّةِ يَخْتَلِفُ عِنْدَ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ ﴾
(وَالإِنكليز السَّكْسُونِيِّينَ)

يَجِبُ عَلَى الْبَاحِثِينَ الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى اخْتِبَارِ الْأَفْكَارِ بِالْحَوَادِثِ وَلَا تَخْدَعُهُمْ شِقْشِقَةُ[1] الْأَلْفَاظِ أَنْ يَفْقَهُوا مَعْنَى كَلِمَتَيْ « وَطَن » وَ« وَطَنِيَّة » كَمَا يَنْبَغِي وَهُمَا كَلِمَتَانِ كَبِيرَتَانِ اعْتَادَ قَوْمٌ النُّطْقَ بِهِمَا ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ مِنْ غَيْرِ إِمْعَانٍ وَلَا تَمْيِيزٍ ، وَبَعْضُهُمْ يَنْطِقُ بِهِمَا مُعْجَبًا مُخْتَالًا ، فَلَا يَقْبَلُ فِيهِمَا جَدَلًا وَلَا تَأْوِيلًا ، وَآخَرُونَ يَلْفِظُونَهُمَا مُغْضَبِينَ مُحَقِّرِينَ بِلَا قَيْدٍ وَلَا مِيزَانٍ . فَبَيْنَمَا هَؤُلَاءِ يُمَجِّدُونَ الْوَطَنَ وَيَدْأَبُونَ عَلَى إِثَارَةِ الْوَطَنِيَّةِ فِي الْأَفْكَارِ يَسْعَى آخَرُونَ فِي الْحَطِّ مِنْ مَعَانِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ الْوَطَنَ امْرَأَةٌ تَدَّعِي الْأُمُومَةَ تَطَفُّلًا ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ الْوَهْمَ أَقَامَ زَمَانًا وَانْقَضَى وَلَمْ يَعُدْ مُوَافِقًا لِمُقْتَضَيَاتِ الْأَيَّامِ الْحَاضِرَةِ ، وَأَنَّ كُلَّ النَّاسِ إِخْوَانٌ وَيُعْلِنُونَ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ أَنَّهُمْ لَا وَطَنَ لَهُمْ غَيْرَ مُبَالِينَ بِمَا يُحِسُّهُ مُوَاطِنُوهُمْ مِنَ الْخَجَلِ لِسَمَاعِ مِثْلِ هَاتِهِ الْأَقْوَالِ .

---

(١) الشقشقة فى الأصل: غدة كالرئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج. ومنه يقال للفصيح هدرت شقشقته؛ والمراد هنا الألفاظ الخلابة

هَذَانِ مَذْهَبَانِ مُخْتَلِفَانِ يَتَعَذَّرُ التَّوْفِيقُ بَيْنَهُمَا ، غَيْرَ أَنَّ لِكُلِّ مَذْهَبٍ سَبَبًا يُعَلِّلُهُ وَمَصْدَرًا يَرْجِعُ إِلَيْهِ . وَيَنْبَغِى لَنَا أَنْ نُبَيِّنَ حَقِيقَةَ الْوَطَنِيَّةِ وَنَشْرَحَ صُوَرَهَا فِى الْأَذْهَانِ بِحَسَبِ تَقَلُّبِ الْأَزْمَانِ وَنَقِفَ عَلَى أَسْبَابِهَا وَنَتَائِجِهَا لِيَتَبَيَّنَ إِنْ كَانَ الْعَالَمُ صَائِرًا إِلَى تَأْيِيدِ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ أَوْ إِضْعَافِهَا أَوْ تَحْوِيرِهَا فَنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَصْدَقُ رَأْيًا وَأَصَحُّ فِكْرًا . فَإِذَا بَلَغَ مِنَّا الْعِلْمُ أَنَّهُمَا مُحِقَّانِ مِنْ جِهَةٍ وَمُخْطِئَانِ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى بَحَثْنَا عَنْ دَرَجَةِ خَطَإِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا .

تِلْكَ مَسْأَلَةٌ عَوِيصَةٌ دَقِيقَةٌ تَحْتَاجُ مِنْ كَاتِبِ هَذِهِ السُّطُورِ وَمِنْ قُرَّائِهِ إِلَى رَوِيَّةٍ كَبِيرَةٍ وَحُرِّيَّةِ فِكْرٍ وَاسِعٍ ، فَيَجِبُ عَلَيْنَا جَمِيعًا أَنْ نَطْرَحَ — وَلَوْ إِلَى حِينٍ — كُلَّ مَيْلٍ إِلَى الْحِزْبِ الَّذِى نَنْتَسِبُ إِلَيْهِ ، وَكُلَّ تَحَزُّبٍ لِلْبَلَدِ الَّذِى نَحْنُ مِنْهُ ، وَنَفْرِضَ أَنَّا نُوجَدُ فِى كَوْكَبٍ غَيْرِ قَارَّتِنَا حَيْثُ نُشْرِفُ مِنْهُ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى جَمِيعِ حَوَادِثِ الْأَرْضِ وَمَا يَجْرِى فِيهَا .

أَوَّلُ شَىْءٍ يَرَاهُ الْبَاحِثُ هُوَ أَنَّ الْوَطَنِيَّةَ لَا تَنْمُو بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ لِأَنَّهَا ثَمَرَةُ أَسْبَابٍ شَتَّى فَهِىَ تَتَنَوَّعُ بِحَسَبِهَا ، وَلَهَا صُوَرٌ مُخْتَلِفَةٌ تَمْتَازُ مِنْهَا أَرْبَعٌ عَنِ الْبَقِيَّةِ ، وَهِىَ : الْوَطَنِيَّةُ الدِّينِيَّةُ أَىِ الَّتِى يَكُونُ مَدَارُهَا الدِّينَ ، وَالْوَطَنِيَّةُ التِّجَارِيَّةُ أَىِ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى التَّنَافُسِ فِى التِّجَارَةِ ، وَالْوَطَنِيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ أَىِ الَّتِى تُبْنَى عَلَى التَّطَلُّعِ السِّيَاسِىِّ ،

وَالْوَطَنِيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ وَهِيَ الَّتِى تَرْجِعُ إِلى حُرِّيَّةِ كُلِّ فَرْدٍ فِى مَعِيشَتِهِ الذَّاتِيَّةِ .

﴿ الْوَطَنِيَّةُ الدِّينِيَّةُ ﴾

تَمْتَازُ بِالْوَطَنِيَّةِ الدِّينِيَّةِ أُمَمُ الْعَرَبِ وَالتُّرْكُمَانِ وَيُقَالُ لَهُمُ (التَّوَارِيجُ)[1] وَالْأَتْرَاكِ وَأَمْثَالِهَا . وَقَدْ بَيَّنْتُ فِى غَيْرِ هٰذَا الْكِتَابِ الْأَسْبَابَ الَّتِى تَحْمِلُ تِلْكَ الْأُمَمَ الَّتِى نَشَأَتْ فِى الصَّحَارَى عَلَى الْخُضُوعِ لِسِيَادَةِ الطَّوَائِفِ الدِّينِيَّةِ[2] فَيُوجَدُ فِى هٰذِهِ الْأَيَّامِ بَيْنَ تِلْكَ الْأُمَمِ كَمَا وُجِدَ فِى جَمِيعِ أَدْوَارِهَا الْمَاضِيَةِ طَائِفَةٌ يَرَى النَّاسُ كُلُّهُمْ أَنَّهَا صَاحِبَةُ الْحَقِّ فِى السِّيَادَةِ فَلَا يُنَازِعُهَا أَحَدٌ وَلَا يَخْرُجُ عَنْ حُكْمِهَا أَحَدٌ ، وَلَيْسَ رِجَالُ تِلْكَ الطَّائِفَةِ مِنْ قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ بَلْ هِىَ تَتَأَلَّفُ مِنْ كُلِّ مُتَعَصِّبٍ أَنَّى وُجِدَ ، لِذَلِكَ تَجِدُ فِيهَا قَوْمًا مِنْ شَمَالِى الصَّحَرَاءِ وَقَوْمًا مِنْ جَنُوبِيِّهَا عَلَى بُعْدِ مَا بَيْنَ الْمَرْكَزَيْنِ . وَتَمْتَازُ تِلْكَ الطَّائِفَةُ بِقُوَّةِ الْبَأْسِ وَبِامْتِدَادِ نُفُوذِهَا حَتَّى كَأَنَّهَا الْجَامِعُ الْعَامُّ لِتِلْكَ

(١) التواريج: أمة من برابرة منتشرة فى صحراء أفريقيا بين بلاد (القوت) شمالا وتنبوكتو جنوباً والنيجر غرباً وفزان شرقاً وهى تعتقد أنها من سلالة الترك وتحتقر العرب. ورجالها طوال القامة شديدو القوى خفيفو الحركات وديانتهم الاسلام وهم أشد القبائل بأساً فى وسط الصحراء وأصعبهم مراساً وهم الذين أبادوا الارسالية الفرنساوية التى توجهت الى تلك الاقطار تحت قيادة الميرالاى فلاتر لتخطيط السكك الحديدية فى تلك الاصقاع .

(٢) راجع مجلة المؤلف (العلم الاجتماعى) صفحة ٣١٥ وما بعدها من الجزء الخامس عشر

الْقَبائِلِ وَالْعَشَائِرِ . وَهِيَ الَّتِي وَقَفَتْ فِي وَجْهِ جَمِيعِ الْفَاتِحِينَ الَّذِينَ حَاوَلُوا اخْتِرَاقَ الصَّحَرَاءِ كَمَا وَقَفَتْ أَمَامَ الإِنْكلِيزِ عَلَى حُدُودِ السُّودَانِ الْمِصْرِيِّ كَأَنَّهَا حِصْنٌ عَزِيزُ الْمَنَالِ وَهِيَ الَّتِي تُصْدَمُ أَمَامَهَا الأُمَّةُ الْفَرَنْسَاوِيَّةُ فِي حُدُودِ صَحَرَاءِ الْجَزَائِرِ.

أُولَئِكَ هُمْ مُلُوكُ الصَّحَرَاءِ وَاسْمُهُمْ الطَّوَائِفُ الدِّينِيَّةُ وَاسْمُ رِجَالِهِمْ « الاخوان ». وَالْخُلَفَاءُ اسْمٌ لِلرُّؤَسَاءِ كَمَا يُقَالُ لَهُمُ الْمَشَايِخُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الأَسْمَاءِ، وَأَحْيَانًا يُسَمُّونَهُمُ الْمَهْدِيِّينَ أَوْ رُسُلَ اللهِ إِذَا حَمِيَتْ نَارُ الاعْتِقَادِ وَظَنَّ بَعْضُهُمْ نُزُولَ الْوَحْيِ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ. وَالْوَيْلُ الْوَيْلُ لِمَنْ يُحَاوِلُ الدُّخُولَ عِنْدَهُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأَزْمَانِ.

وَلِهَذِهِ الطَّوَائِفِ « زَوَايَا » فِي جَمِيعِ الْوَاحَاتِ وَهِيَ مَعَابِدُ تَابِعَةٌ لِلْجَامِعِ الأَكْبَرِ، فَفِي وَاحَةِ « غِمَار » بِالصَّحَرَاءِ اثْنَا عَشَرَ مَسْجِداً وَأَرْبَعُ زَوَايَا، مَعَ أَنَّ سُكَّانَهَا لَا يَزِيدُونَ عَلَى سَبْعِمِائَةٍ أَوْ ثَمَانِمِائَةٍ. وَلِلإِخْوَانِ كَلِمَةُ سِرٍّ يَفْهَمُونَهَا وَإِشَارَاتُ تَعَارُفٍ مَخْصُوصَةٌ. وَهُمْ دَرَجَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مُقَرَّرَةٌ لَدَيْهِمْ أَجْمَعِينَ تَبْتَدِئُ مِنَ السَّيِّدِ الأَكْبَرِ أَوِ الْخَلِيفَةِ إِلَى حَامِلِ الْعَلَمِ إِلَى الْحَارِسِ وَهَكَذَا. وَلَهُمْ جَمْعِيَّاتٌ عُمُومِيَّةٌ يَتَلَقَّوْنَ فِيهَا أَوَامِرَ السَّيِّدِ السِّرِّيَّةَ أَوْ يَحْتَفِلُونَ بِدُخُولِ بَعْضِ الْمُرِيدِينَ فِي الطَّرِيقَةِ أَوْ يُهَيِّئُونَ فِي الْبِلَادِ ثَوْرَةً ضِدَّ عَدُوٍّ يُرِيدُ الإِغَارَةَ عَلَيْهِمْ سَوَاءٌ كَانَ مِنْ دَاخِلِ الْبِلَادِ أَوْ خَارِجِهَا،

وَكلُّهُمْ وَطَنِيُّونَ وَهُمْ غُلاةُ الوَطَنِيَّةِ في الصَّحَراءِ .

إلَى هَذِهِ الوَطَنِيَّةِ يَرْجِعُ نِظَامُ العَشَائِرِ الَّتِى تَسْكُنُ إقْلِيمَىْ أَشُورَ ومِصْرَ فى الأَزْمَانِ الخَالِيَةِ،أَعْنِى فى الدَّوْرِ الأوَّلِ مِنْ تارِيخِ تِلْكَ الأُمَمِ الَّتى كانَتْ تَتَأَلَّفُ مِنَ الشُّعُوبِ الوَافِدَةِ حَدِيثاً مِنَ الصَّحَراءِ وَلِذَلِكَ خَضَعَتْ لِحُكْمِ الطَّوائِفِ الدِّينِيَّةِ وَقُسُوسِ الإِلَهِ «آمُون» خُضُوعًا كلِّيًا أَوْ جُزْئِيًّا ، وَإلَيْهَا أَيْضاً يَرْجِعُ مُحمدٌ «صلىِّ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» وَأَتْبَاعُهُ وَجَمِيعُ القَبَائِلِ وَالشُّعُوبِ الَّتى اجْتَمَعَتْ تَحْتَ رَايَتِهِ فى وِدْيانِ العَرَبِ أَو الصَّحَراءِ وَأَطْرَافِهِمَا مِنْ بِلادِ آسْيَا الصُّغْرَى إلى بِلادِ الأَنْدَلُسِ . كَذَلِكَ يَدْخُلُ فِيهَا التُّرْكُ فإِنَّهُمْ أخَذُوا عَنِ الإِسْلامِ أَشْكَالَ حُكُومَتِهِمْ وَكانُوا يُجارُونَهَا لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ البَدَاوَةِ غَيْرَ مُسْتَقِرِّينَ فى مَكانٍ.

وَيَكْفِى فى بَيَانِ حَقِيقَةِ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الوَطَنِيَّةِ ذِكْرُ هَذِهِ الأُمَمِ ، فَالمُتَمَسِّكُونَ بِهَا لاَ يُطِيقُونَ الجِدالَ فِيهَا ولاَ يُشْفِقُونَ أىَّ إشْفَاقٍ عَلَى أَعْدَائِهِمْ لِأَنَّ مَرْجِعَ الوَطَنِيَّةِ فِيهِم الدِّينُ وَهُوَ لاَ يَقْبَلُ التَّحْوِيرَ وَلا يَحْتَمِلُ التَّسَامُحَ والتَّفْسِيرَ .وَأَهَمُّ شَىْءٍ يُوجِبُ الخَشْيَةَ مِنْهَا هُوَ أنَّهَا لاَ تَقْتَصِرُ عَلى إخْضَاعِ الأَجْسامِ إلَى سُلْطانِهَا وَلَكِنَّهَا تَبْسُطُ سِيَادَتَهَا أَيْضا عَلَى الأَفْكارِ والأَرْواحِ فَلاَ تَكْتَفِى

بخضوع مَنْ تتغلبُ عليهِ إلى حُكمِها وَتُكلِّفُهُ اعتناقَ مَذْهَب أَصْحَابِهَا: فإمّا الإيمانُ وإمّا الإعدام. ولَقَدْ أَهْرَقتْ[١] هذهِ الوَطَنيَّةُ دِماءً كَثيرةً خضَبتْ بِهَا تاريخَ أجْيَالٍ عَديدةٍ وهِيَ اليَوْمَ تنكَشِفُ إلَى البَاحِثِينَ مُثْقَلَةً بالفَظَائعِ وَالآثَام.

إنَّ الدِّينَ إذَا اتَّخَذَ الإرْهَابَ سِلاَحَهُ بَدَلَ الدَّلِيلِ وَالإقْنَاعِ لَمْ يَكُنْ إلاَّ غَضَباً وَهِيَاجاً؛ وَمِنَ الوَاجِبِ التَّنْكِيلُ[٢] بهذهِ الوَطَنِيَّةِ بكُلِّ مَافى الجُهْدِ وَمُغَالبَتُهَا جُهْدَ الاستِطَاعَةِ وَهذَا الوَاجِبُ إنَّمَا يُطْلَبُ مِنَ المُؤْمِنِينَ لأَنَّهَا تحُطُّ مِنْ قَدْرِ الإحْسَاسِ الدِّينِيِّ والعَدَالَةِ[٣] الصَّمَدَانيةِ، وَهُمَا أَشْرَفُ الأُمُورِ وَأَعْلاَهَا مَقَامًا. ذَلِكَ لأَنَّ مَثَلَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ هَذهِ الوَطَنِيَّةَ كَمَثَلِ أَرْدَإِ الزَّنَادقَةِ وَأَخْبَثِ المُنَافِقِينَ، تَرَاهُمْ يَحْمِلُونَ السَّيْفَ أَو العَصَا وَيَاتُونَ مَوَارِدَ شَهَوَاتِهِمْ وَمَوَاضِعَ انْتِقَامِهِمْ وَمَرَامِيَ أَطْمَاعِهِمْ بِاسْمِ الدِّينِ وَتَحْتَ سِتَارِهِ[٤]

(١) أراقت وأسالت

(٢) يقال نكل به تنكيلا أى جعله نكالا وعبرة لغيره

(٣) يريد العدالة الالهية

(٤) نحن لاندرك معنى لحصر هذا النوع الممقوت من الوطنية فى الامم التى تقطن

﴿ الْوَطَنِيَّةُ التِّجَارِيَّةُ ﴾

تَمْتَازُ بِهَا أُمَمُ شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَبْيَضِ الْمُتَوَسِّطِ قَدِيماً أَيَّامَ كَانَ ذَلِكَ الْبَحْرُ شَبِيهاً بِحَوْضٍ ذِي سُورٍ مُقْفَلٍ ، أَعْنِي أَيَّامَ كَانَتْ سَوَاحِلُهُ آهِلَةً بِالْمَدَائِنِ وَالشُّعُوبِ الَّتِي تَمْتَدُّ عَلَى شَوَاطِئِ فِينِيقِيَا وَآسْيَا الصُّغْرَى وَالْيُونَانِ وَجَنُوبِي إِيتَالْيَا وَالْأَنْدَلُسِ وَإِفْرِيقْيَا الشَّمَالِيَّةِ وَكُلُّهَا تَطْلُبُ الرِّزْقَ مِنَ التِّجَارَةِ . وَلَا بُدَّ مِنْ أَنَّ التَّنَافُسَ كَانَ شَدِيداً بَيْنَ تِلْكَ الْأُمَمِ وَأَنَّ حَيَاةَ كُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا كَانَتْ مُتَوَقِّفَةً عَلَى فَوْزِهَا

الاقطار الاسلامية والاقتصار على ذكر العرب والترك والتركمان. فان كان يريد التعريض بالاسلام فانه لم يصب محجة الصواب لان الاسلام لا يلزم أحداً من مغايريه في الدين أن يصير مسلما بعد أن يدين لحكمه. والتاريخ أصدق شاهد على خلاف رأيه وكتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم صريحان في حقن دماء المسلمين ومسالميهم إلا الوثنيين منهم . هكذا جرى العمل حتى في زمن الفتح أيام ثورة الدين حيث ما كان يرجى الحنان والاشفاق . فان لم يكن الاستشهاد بالقرآن مقنعاً في مذهب غير المسلمين فانا نورد على عبارة المؤلف ما قاله حضرة العالم الشهير الكونت هنري دي كستري صاحب كتاب الاسلام في الفصل الثاني عن ملاينة الدين الاسلامي وكيف أنه عامل المسيحيين وقربهم اليه في مناصب الدولة ووظائف الملك (راجع ترجمتنا هذا الكتاب سنة ١٣١٥ هجرية)

وليس من الانصاف أن يرمى مسيحيو الشرق بهذه التهمة دون إخوانهم في الغرب لأن المذهب واحد. فان كان الدين هو الذي أغضب المؤلف من وطنيتهم لزمه أن يعمم حكمه على البقية وإن كان غيره فقد فسدت قاعدة رأيه. ولعله كان يقرب من الحقيقة لو أطلق شرحه على الوطنية الدينية من غير أن يقيدها بأمة دون أخرى لان فعل الدين في النفس واحد نصرانيا كان الرجل أو مسلماً أو يهوديا أو مجوسيا اه مترجم

دُونَ غيرِهَا ، وَلَيْسَ التَّارِيخُ الْقَدِيمُ إلاَّ عِبارَةً عَنْ قِصَصِ تِلكَ المُنافَسَاتِ التِّجارِيَّةِ .

وَمِنْ أَجلِ ذَلكَ احْتاجَتْ كُلُّ أُمَّةٍ مِنْ تِلكَ الأُمَمِ إلى أَنْ يَكُونَ نِظامُهَا مُوَافِقاً لِحَاجَاتِها، خُصُوصاً مَا يَتعلَّقُ بِدَفْعِ الأَعْدَاءِ وَمُهاجَمَةِ الْخُصُومِ ، إذْ كَانَ لا مَنَاصَ لِكُلٍّ مِنْها مِنَ الاعْتِمادِ عَلى نَفْسِهَا. وَهذَا هُوَ السَّبَبُ فِى اعْتِنائِهَا كلها بِتَرْبِيَةِ شُبَّانِهَا عَلى التَّمْرِينَاتِ الجِسْمِيَّةِ حَتَّى صَارَتِ الْقُوَّةُ وَالمَهارَةُ وَخِفَّةُ الحَرَكَاتِ وَالحِذْقُ فِى رَمْىِ النِّبَالِ أَعَزَّ صِفَاتِ الشباب ، فَأُقِيمَتْ مَيَادِينُ الأَلْعَابِ الْعُمُومِيَّةِ وَعَظُمَ الاهْتِمامُ بِهَا ، وَمَا ذَلِكَ إلاَّ لأَنَّهَا كانَتْ فِى الحَقِيقَةِ مَظَاهِرَ لِلْوَطَنِيَّةِ فِى ثَوْبٍ مَخْصُوصٍ .

هُنالِكَ كَانَتِ الْوَطَنِيَّةُ مَحَلِّيَّةً أَىْ مَقْصُورَةً عَلى أَهْلِ كلِّ مَدِينَةٍ أَوْ طَائِفَةٍ دُونَ جَارَتِهَا ، وَمِنْ هُنَا جَاءَ اسْمُ المَدِينَةِ وَالْبَلَدِ بِمَعْنَى الْوَطَنِ مِمَّا مُلِئَتْ بِهِ كُتُبُ المُتَقَدِّمِينَ . فَجَمِيعُ الأَعْمالِ الْعَظِيمَةِ وَالْوَقائِعِ الشَّهِيرَةِ الَّتِي احْتَفَظْنَا بِهَا كَأَنَّهَا مِنَ الدِّينِ وَجَعَلْنَا نَحْشُو بِهَا أَذْهَانَ أَبْنائِنا فِى المَدَارِسِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ وَلاَ تَأَمُّلٍ كلُّها صُوَرٌ مِنْ تِلكَ الْوَطَنِيَّةِ التِّجارِيَّةِ . وَقَدْ افْتَخَرَتْ كُلُّ مَدِينَةٍ بِشُجْعَانِهَا كما افْتَخَرَتْ بِحُكَمَائِهَا ، لِأَنَّ الفَرِيقَيْنِ غَرْسُ أَرْضٍ وَاحِدةٍ هِىَ حَالَةُ تِلكَ المُدُنِ الاجْتِماعِيَّةِ فِى هاتِهِ الأَزْمَانِ . قَالَ (استرابون) عَنْ (كروتون):

إنَّهُ كَانَ يَعْتَنِى عَلى الْخُصُوصِ بِتَرْبِيَةِ الشُّجعان حَتَّى تَوَصَّلَ إِلَى اخْتِصَاصِ رِجَالِهِ بِالْغَلَبَةِ فِى مَيادِينِ الْأَلْعاب الْعُمُومِيَّةِ ، وَقِيلَ إِنَّ أَضْعَفَ رَجُلٍ مِنْ رِجَالِهِ كَانَ يُعَدُّ فِى مُقَدِّمَةِ الْيُونَانِيِّينَ . وَكَانَ النَّاسُ يُعَظِّمُونَ الظَّافِرِينَ فِى تِلْكَ الْأَلْعَابِ تَعْظِيماً لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ ، فَيَخْلَعُونَ عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ الخِلَعِ وَيَخْتَصُّونَهُمْ بِأَكْبَرِ عَلَامَاتِ الشَّرَفِ وَالِامْتِيَازِ وَيَتَسَابَقُ الْمُصَوِّرُونَ إِلى إِقامَةِ تَمَاثِيلِهِمْ فى كُلِّ نَادٍ . هَكَذَا أُقِيمَ فِى (أولمبيا) تِمْثَالُ (استيلوس) وَهُوَ مِنْ تَلَامِذَةِ (كريتون) الْمَذْكُور ، وَقَدْ تَمَّتْ لَهُ الْغَلَبَةُ فى ثَلَاثَةِ أَلْعَابٍ مُتَوَالِيَاتٍ . وَتِمْثَالُ « فيليب » صَاحِبِ الِانْتِصَارَاتِ الْبَاهِرَةِ فى تِلْكَ الأَلْعَاب ، وَكَانَ أَجْمَلَ أَهْلِ زَمَانِهِ وَتَزَوَّجَ ابْنَةَ « تيليس » ظَالِمِ « تيباريس » وَعُدَّ بَعْدَ وَفَاتِهِ مِنْ أَكَابِرِ الْأَبْطَال ، وَتِمْثَالُ « فايلوس » وَكَانَ مَكْتُوبًا عَلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَقْفِزُ خَمْسًا وَخَمْسِينَ قَدَماً وَيَرْمِى بِالْكُرَةِ عَلى بُعْدِ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ خُطْوَةً ، وَأَشْهَرُهُمْ «ميلون» الْكِرِيتُونِى فَقَدْ بَلَغَتِ انْتِصَارَاتُهُ سِتَّةً وَعِشْرِينَ عَلَى اخْتِلَافِ الأَلْعَاب وَسَارَتِ الرُّكْبَانُ بِقُوَّتِهِ إِلى أَقْصَى الشَّرْقِ ، وَبَلَغَتْ مَسَامِعَ كِسْرَى الْفُرْسِ ، وَأُقِيمَ لَهُ تِمْثَالٌ مِنَ النُّحَاسِ . وكان لهُ شَأْنٌ خَطِيرٌ فى حُرُوبِ قَوْمِهِ مَعَ « سيباريس » .

وَكَانَتْ جَمِيعُ الْمَدَائِنِ تَطْمَعُ فى الِانْتِصَارِ فى أَلْعَابِ أُولمبيا ، وَأَنْ

تفوقها بألعابها ، ولذلك أقام سيباريس وكروتون فى نواحيهم الألعاب العمومية ، وجعلوا للفائزين فيها وسامات من الفضة رجاء أن يجتمع إليها يونان إيتاليا وسيسيليا ومدائن آسيا الصغرى . وتلك الألعاب هى الأصل الأصيل الذى نشأت عنه ألعاب الرومانيين المسماة « جلادياتور » وكانت من أفظع الشنائع أيام سقوط الدولة الرومانية .

تلك هى صور الوطنية التى عظمت عند أمم البحر الأبيض المتوسط فى قديم الزمان ، والذى ألجأهم إلى ذلك احتياج كل أمة إلى رد غارة غيرها بتجارتها وهى وطنية ترجع إلى المال، وكان من لوازمها الأثرة والشره ، ولم يكن السبب في تلك الوقائع والحروب التى رواها لنا مؤرخو تلك الأعصر موشاة(١) بما يعجب القراء إلا الرغبة في إذلال الخصوم بالقوة القهرية بعد العجز عن مغالبتهم بالمهارة فى التجارة والتفنن فى أساليبها ، ولم يكن لحب الوطن الخالص ورغبة التفانى فى الذود عنه من صدور أولئك التجار إلا مكان صغير فى الحقيقة لا كما يتصوره الناس عنهم . والدليل عليه أنه لما تمت الثروة لتلك المدائن وملئت خزائنها من الذهب والفضة لم تعد تطلب حمايتها من قومها وعمدت إلى

(١) من وشى الثوب أى حسنه بالألوان ونمنمه ونقشه، ووشى الكلام كذب فيه

تَجْنِيدِ جُيُوشِهَا مِنَ الأُجَرَاءِ . قالَ « جوستان » : انكَسَرَ أَبطَالُ « كريتون » سَنَةَ ٥٦٠ فى إحْدَى الْوَقَائِع فَأَهْمَلُوا مِنْ ذَلِكَ الْحِين صِنَاعَةَ الْحَرْب وَأَلْقَوا السِّلاحَ ، وَمَالُوا إِلَى الانْهِمَاكِ فى اللَّذَائِذ وَالانْغِمَاسِ فى الشَّهَوَاتِ مِثْلُ « سيباريس » ، وَكَذَلِكَ كَانَ شَأْن « تارانت » فَإِنَّهُ بَعْدَ أَن اشْتَهَرَ بِالشَّجَاعَةِ وَسَارَتْ بِذِكْرِ فَضْلِهِ الرُّكْبَانُ أَضَاعَهَا فى التَّنَعُّمِ وَالْفَسَادِ.

وَالْوَاقِعُ أَنَّ تِلْكَ الْوَطَنِيَّةَ الَّتى بَالَغَ النَّاسُ فِى الإِشَادَةِ (١) بِهَا تَرْجِعُ إِلَى رِوَايَةٍ ذَاتِ قِسْمَيْن : فَفِى الْقِسْمِ الأَوَّل نُشَاهِدُ بَعْضَ تِلْكَ الْمَدَائِن تُثِيرُ الْحَرْبَ عَلى بَعْضِهَا لِتَأْخُذَ حَظَّهَا مِنَ التِّجَارَةِ ، وَفى الْقِسْمِ الثَّانى نُشَاهِدُ الَّتى ظَفِرَتْ مِنْهَا قَدْ تَوَلاَّهَا الانْحِطَاطُ وَدُمِّرَتْ بِيَدِ مُتَغَلِّبٍ جَدِيدٍ خَرَجَ مِنْ مُجْتَمَعٍ يُخَالِفُ نَوْعَهَا .

الْوَطَنِيَّةُ السِّيَاسِيَّة

مَهْدُهَا عِنْدَ الأُمَمِ الَّتى عَظُمَتْ فِيهَا الْحُكُومَةُ وَانْحَصَرَتْ السُّلْطَةُ في رُؤَسَائِهَا ، وَأَعْظَمُ مِثَالٍ لَهَا الأُمَمُ الفَرَنْسَاوِيَّةُ وَالأَلمَانِيَّةُ وَالرُّوسِيَّة وَالتَّلْيَانِيَّةُ وَالأَنْدَلُسِيَّةُ « الإِسْبَانِيَّةُ » فى زَمَنِنَا هَذَا . وَمِثَالُهَا فى الزَّمَنِ القَدِيمِ الأُمَّةُ الرُّومَانِيَّةُ .

وَلَيْسَ القَائِمُ بِالْحُكْمِ فى هَذِهِ الأُمَمِ الطَّوَائِفَ الدِّينِيَّةَ أَوْ

(١) يقال أشاد بذكره: أى رفعه بالثناء عليه

الْمَجَالِسَ الْبَلَدِيَّةَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنَ التُّجَّارِ كما فِى النَّوْعَيْنِ السَّابِقَيْنِ ، بَلِ الْقَائِمُ عَلَيْهِ رُؤَسَاءُ مِن رِجَالِ الْحَرْبِ أَوْ مِمَّنْ جَمَعُوا حَوْلَهُمُ الْجُنْدَ الْمُجَنَّدَةَ وَامْتَدَّتْ سُلْطَتُهُمْ فِى أَقْطَارٍ شَاسِعَةٍ ، وَجَمَعُوا تَحْتَ تَصَرُّفِهِمْ وَسَائِلَ عَظِيمَةً مِنَ الْمَالِ وَالرِّجَالِ ، وَخَضَعَ لِأَوَامِرِهِمِ الْعَدَدُ الْعَدِيدُ مِنَ الْجُيُوشِ وَالْمُوَظَّفِينَ ، وَهُمْ لِذَلِكَ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى إِقَامَةِ الْحُرُوبِ لِوِلَايَتِهِمْ عَلَى جَمِيعِ عَنَاصِرِ الْبِلَادِ الْحَيَّةِ ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لِلدَّوْلَةِ مِنْ جِهَةٍ مَّا ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْعُمَّالِ إِرَادَةٌ غَيْرُ إِرَادَةِ الْحُكُومَةِ الَّتِى تَنْقُدُهُ رَاتِبَهُ مَلَكِيًّا كَانَ أَوْ عَسْكَرِيًّا . وَفِى مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ تَمِيلُ الْجُيُوشُ إِلَى الْحَرْبِ أَكْثَرَ مِنْ مَيْلِهَا إِلَى السِّلْمِ ، كَمَا أَنَّهُمْ لَا يُعَظِّمُونَ الْمَلِكَ أَوِ الْوَازِعَ الْأَكْبَرَ فِى الْجُمْهُورِيَّةِ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَكُونُ لَهُ مِنَ الْغَزَوَاتِ وَمَا يُؤْتَاهُ مِنَ الِانْتِصَارِ . وَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ رُؤَسَاءُ الْحُكُومَاتِ مَيَّالِينَ طَبْعاً إِلَى الْحَرْبِ ، وَكَثِيراً مَا تَكُونُ الْحَرْبُ سَبِيلَهُمُ الْوَحِيدَ فِى الِاسْتِئْثَارِ بِمَرْغُوبٍ أَوْ فِى دَفْعِ مُنَافِسٍ يَخْشَوْنَ مُزَاحَمَتَهُ . وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِى تِلْكَ الْحُرُوبِ الْعَدِيدَةِ الَّتِي مَنْشَؤُهَا التَّنَازُعُ عَلَى الْمُلْكِ بَيْنَ الْعَائِلَاتِ أَوِ الْأَطْمَاعُ الذَّاتِيَّةُ لِلْمُلُوكِ ، وَالنَّفْسُ تَنْخَدِعُ عَادَةً بِالِاسْتِيلَاءِ عَلَى سُلْطَةٍ تَجْعَلُ الْمَرْءَ فِى سَعَةٍ وَنَعِيمٍ ، وَالنَّاسُ يَعْتَرِفُونَ بِهِمَا وَيُقَدِّسُونَهُمَا مَتَى تَمَّ النَّصْرُ لِلْغَيْرِ .

غَيْرَ أَنَّهُ يَلْزَمُ الظَّافِرَ بَعْدَ ظَفَرِهِ أَنْ يَنْظُرَ فِى اسْتِبْقَاءِ نَصْرِهِ ،

وَالْبَقَاءِ لَيْسَ بِالأَمْرِ الْيَسِيرِ عَلَى حُكْمٍ وَاسِعِ الأَكْنَافِ لاَ بُدَّ فِيهِ مِنْ إِغْضَابِ قَوْمٍ وَجَرْحِ عَوَاطِفِ آخَرِينَ لِعِلَّةِ أَنَّهُ تَكَفَّلَ بِالْقِيَامِ مَقَامَ الْكُلِّ فِي التَّفْكِيرِ وَالتَّدْبِيرِ ، حَتَّى لَقَدْ يُخْشَى عَلَى تِلْكَ الْحُكُومَاتِ الضَّخْمَةِ أَنْ تَرْزَحَ[(١)] تَحْتَ هَذِهِ الأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ الَّتِى جَلَبَهَا عَلَيْهَا اسْتِعْلاَؤُهَا وَسُلْطَانُهَا الرَّفِيعُ. فَإِذَا وَصَلَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى هَذَا الْحَدِّ الْتَمَسَتْ مَخْرَجًا مِنْهَا بِالْحَرْبِ لِتَلْوِىَ أَفْكَارَ الأُمَّةِ عَنِ النَّظَرِ إِلَى الصُّعُوبَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ،وَهَذَا أَيْضًا هُوَ السَّبَبُ فِى حُرُوبٍ كَثِيرَةٍ مِمَّا خَلَّدَهُ التَّارِيخُ وَسَطَّرَهُ الْكُتَّابُ . وَمَتَى انْتَصَرَ أُولَئِكَ الْمُلُوكُ زَادَتْ سُلْطَتُهُمْ وَتَمَكَّنَتْ سِيَادَتُهُمْ،وَحِينَئِذٍ تَرَاهُمْ يُثِيرُونَ الْحُرُوبَ لِيَزْدَادُوا بَسْطَةً فِى الْمُلْكِ لاَ لِيُثَبِّتُوا أَمْلاَكَهُمْ وَلِيُمِدُّوا حُدُودَ مَمَالِكِهِمْ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَفْرَحُ بِهَا الْمُؤَرِّخُونَ وَتَحْزَنُ لَهَا الأُمَمُ ، أُولَئِكَ هُمْ أَكَابِرُ الْقَيَاصِرَةِ وَعُظَمَاءِ الأَمْلاَكِ[(٢)] وَالأَكَاسِرَةُ الَّذِينَ غَصَّتْ[(٣)] بِأَسْمَائِهِمْ صَفَحَاتُ التَّارِيخِ وَاتَّخَذَهُمُ الْمُؤَرِّخُونَ بَيَانًا لِمَرَاحِلِ الأَجْيَالِ.

عَلَى أَنَّ هَذِهِ الدُّوَلَ الْعَظِيمَةَ لاَ تُوَافِقُ طَبِيعَةَ الاجْتِمَاعِ لِمَا يُلاَزِمُهَا مِنِ ارْتِكَابِ أَكْبَرِ الْفَظَائِعِ فِى الْحَيَاةِ الْعُمُومِيَّةِ ، وَجَلْبِ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ وَالرَّزَايَا فِى الْحَيَاةِ الْخُصُوصِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ فَبَقَاؤُهَا مَحْدُودٌ وَدَوَامُهَا مُحَالٌ ، تَرَاهَا تَخِرُّ مُهَشَّمَةً[(٤)] عَقِبَ مَوْتِ شُجَاعِهَا،وَكَثِيرًا

(١) من قولهم رزح الجمل أى سقط ولم يستطع النهوض تعبا

(٢) الملوك (٣) امتلأت (٤) تخر: تسقط، ومهشمة : محطمة

مَا يُدْرِكُها الدَّمَارُ فى حيَاتِهِ . هُنالِكَ تَهُبُّ نَارُ الحُرُوبِ ثَانِيَةً بَيْنَ الخُلفَاءِ وَتَسْتَمِرُّ مِنْ جِيلٍ إلى جِيلٍ . وَفى الْغالِبِ يَكُونُ انْتِشَابُ تِلْكَ الحُرُوبِ رَغْمَ أَنفِ الْأُمَمِ لِاحْتِيَاجِهَا إلى السِّلْمِ كَىْ تَتفرَّغَ إلى السَّعْيِ وَرَاءَ رِزْقِهَا ، وَالْحَرْبُ تُعَطِّلُ الْأَعْمالَ . غَيْرَ أَنَّ صَوْتَ الْأُمَّةِ ضَعِيفٌ فى مِثْلِ هَاتِيكَ الدُّوَلِ ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِها الضَّغْطَ عَلى حُرِّيَّةِ الْأَفْرَادِ فِيما عَسَاهُ يَأْتِى مِنْ عِنْدِيَّاتِهِمْ بِما اسْتَلْزَمَهُ نِظَامُها مِنْ جَمْعِ السُّلْطَةِ كلِّهَا فى يَدِ قَوْمٍ مَعْدُودِينَ . أَمَّا الْعَامَّةُ الَّتى تُزَاوِلُ الْأَعْمالَ النَّافِعَةَ وَتُكِبُّ عَلى الْأَشْغَال الَّتى تَأْتِى بِالثَّمَرَةِ وَتُمَكِّنُهَا مِنْ أَدَاءِ الضَّرَائِبِ وَالْخَرَاجِ فَإِنَّهَا مَطْرُوحَةٌ وَرَاءَ السُّلْطَةِ الْعُمُومِيَّةِ الَّتى انْتَهَبَتْ مِنْها رُوَيْدًا رُوَيْدًا قُدْرَتَهَا عَلى الأَعْمالِ الْعامَّةِ وَأَضْعَفَتْ فِيهَا بَوَاعِثَ الاجْتِهَادِ وَمَصَادِرَ الإِنْتَاجِ وَجَعَلَتْهَا لاَ تَعْرِفُ مِنْ أُمُورِهَا إلاَّ الطَّاعَةَ وَالانْقِيَادَ ، فَهِىَ تَخْضَعُ إلَى الْحُكُومَةِ وَالْمُوَظَّفِينَ كما تَخْضَعُ لِأَهْلِ السِّيَاسَةِ أَوِ الْمُشْتَغِلِينَ بالسِّياسَةِ ، وَمَا عَلِمْنَا أَنَّ الأُمَّةَ أَبْدَتْ حِرَاكاً أَمَامَ رَغَائِبِ فيليب الثَّانى ، وَلاَ تَحْتَ حُكْمِ لِويزَ الرَّابِعَ عَشَرَ أَوْ حُكُومَةِ الثَّوْرَةِ أَوْ نَابلِيُونَ الأَوَّلِ .

وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الْحكوماتِ الْعَظِيمَةَ الَّتى جَمعَتْ مِنَ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ مَا يُمكِّنُها مِنْ إِرْضَاءِ أَطْمَاعِهَا السِّيَاسِيَّةِ لاَ يَتيَسَّرُ لَهَا تَسْيِيرُ أُمَمِهَا وَحَمْلُهَا على احْتِمَالِ مَا تَطْلُبُهُ مِنْهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالأَمْوَالِ إلاَّ إِذا

تَذَرَّعَتْ لديها بمنفعة الوطن وأثارت في نفوسها عواطف الوطنية. ترى تلك الحكومات تتفانى في حب السلام ، وما من أحد يسبقها في الجهر بهذا الميل ، وتقول إن الحرب أكبر المصائب وأعظم البلايا حتى لقد جاء ذكر السلم اثنتى عشرة مرة في خطاب امبراطور ألمانيا الذي ألقاه في «كيل»، ومع هذا يقضون حياتهم في الحروب أو في تجهيز معداتها وتهيئة لوازمها. وتلك الاستعدادات التي لا حد لها هي في الواقع أشد تدميراً وأعظم تخريباً من الحروب فإنها تستنزف[1] ما في الأمة من الرجال والأموال . وكلما اشتد وقر[2] هذا النظام اشتدت الحاجة في الحكومات إلى الاستنجاد بالوطنية ، ومن الصعب معرفة درجة ما تفعله الوطنية في نفوس أمة بلغت منتهى الاضمحلال من جراء هذه الأحوال ، كما لا تسهل معرفة مقدار ما تؤول إليه من الخراب إذا بلغت الوطنية منها حدها الأقصى . ومع هذا قد يتأتى الإلمام[3] بذلك إذا نظرنا إلى حالة الأمة التليانية ، لأن البحث في حالتها العلمية والاجتماعية يفيدنا فائدة كبرى ويرشدنا الى الغاية التي نحن صائرون إليها ، كذلك نهتدي إلى غرضنا بالتأمل في حالة بلاد الأندلس «أسبانيا» . وإنا نكتفي بتوجيه ذهن أهل العالمين إلى هاتين الأمتين ،

(١) من قولهم نزف ماء البئر أي نزحه واستخرجه كله ، والمراد تنفد (٢) حمل
(٣) يريد الاحاطة

وَنُضِيفُ إِلَيْهِمَا جُمْهُورِيَّاتِ أَمِرِيكَا الْجَنُوبِيَّةِ لِمَنْ رَغِبَ فِى الِاسْتِزَادَةِ مِنَ الْبَيَانِ .

قَالَ بَعْضُهُمْ وَنِعْمَ قَوْلُهُ : « وَلَوْ أَنَّا أَنْعَمْنَا النَّظَرَ فِى حَقِيقَةِ مَعْنَى (وَطَنٍ) لَتَرَكْنَا الطَّرِيقَ وَقَفَلْنَا رَاجِعِينَ ». وَمِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّ الْوَطَنِيَّةَ هِيَ الَّتِى كَانَتْ سَبَباً فِى قِسْمٍ عَظِيمٍ مِنَ الْفَظَائِعِ وَالْمُنْكَرَاتِ الَّتِى مَلَأَتِ التَّارِيخَ وَصَيَّرَتْ قِرَاءَتَهُ مَعِيبَةً مُخَالِفَةً لِلآدَابِ . نَعَمْ أَنَا عَالِمٌ بِأَنِّى أُحْدِثُ بِمَقَالِى هَذَا اضْطِرَاباً فِى نُفُوسِ بَعْضِ الْقُرَّاءِ ، وَأَرَاهُمْ لِغُلُوِّهِمْ فِى الْوَطَنِيَّةِ يُشَدِّدُونَ النَّكِيرَ عَلَيَّ وَيُفَوِّقُونَ نَحْوِى سِهَامَ اللَّوْمِ وَالتَّنْدِيدِ ، وَلِذَلِكَ فَإِنِّى أَخُصُّهُمْ بِمَقَالِى وَأَسْأَلُهُمْ إِنْ كَانُوا حَقِيقَةً فِى وَطَنِيَّتِهِمْ صَادِقِينَ ، وَأُرِيدُ بِالْوَطَنِيِّ مَنْ يَتَغَلَّبُ عَلَى أَعْدَائِهِ بِالأَفْعَالِ ، لِأَنِّى لَسْتُ أَجْهَلُ أَنَّ عَدَدَ الْوَطَنِيِّينَ بِالْقَوْلِ لَا يُحْصَى . غَيْرَ أَنَّ الْكَلَامَ فِى بَحْثِنَا لَا يُفِيدُ . وَأَنَا أَخْشَى أَنْ يَكُونَ السَّوَادُ الأَعْظَمُ مَغْرُوراً جَذَبَتْهُ الأَوْهَامُ فَادَّعَى مَا لَيْسَ فِيهِ .

إِنَّمَا الْوَطَنِيَّةُ تَقُومُ بِأَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ: دَفْعِ ضَرِيبَةِ الْمَالِ وَأَدَاءِ ضَرِيبَةِ الدِّمَاءِ ، وَلَسْتُ أُنْكِرُ أَنَّهُمْ يُؤَدُّونَ الْخَرَاجَ بِالتَّمَامِ ، وَلَكِنَّ رَأْسَ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الْجُبَاةِ[1] عَلَى أَنَّهُ لَا مَحِيصَ مِنَ الأَدَاءِ . وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّهُمْ جَمِيعاً يَسْتَغِيثُونَ مِنْ فَدَاحَةِ[2] الْمَصْرُوفَاتِ ، وَيَشْنُونَ

(١) الذين يجمعون الخراج (٢) فدحه الأمر: أثقله

الْغَارَةَ عَلى اسْتِرْسَالِ الْحُكُومَةِ فى تَوْسِيعِ دَائِرَةِ مَصَالِحِهَا ، وَإِذَا جَاءَهُمْ مُرَشَّحٌ فِى الْمَجَالِسِ النِّيَابِيَّةِ وَجَعَلَ يَخْطُبُ فِيهِمْ أَنَّهُ يَمِيلُ إِلى تَخْفِيفِ الضَّرَائِبِ وَالاقْتِصَادِ فِى الْمَصْرُوفَاتِ أَقْبَلُوا عَلَيْهِ وَأَهْدَوْهُ أَصْوَاتَهُمْ مُهَلِّلِينَ وَمُكَبِّرِينَ ، إِلاَّ أَنِّى أُقْسِمُ أَنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ يُبَرْهِنُونَ عَلى أَنَّهُمْ فى وَطَنِيَّتِهِمُ ، الَّتِى لَسْتُ أَرْضَاهَا ، كَاذِبُونَ ، لِأَنَّهُمْ لاَ يَجْهَلُونَ أَنَّ النِّظَامَ الَّذِي يُدَافِعُونَ عَنْهُ ، خِلاَفاً لِرَأْيِى ، يَقْتَضِى الْمَالَ الْكَثِيرَ . فَلَوْ كَانُوا فِى ادِّعَائِهِمُ الْوَطَنِيَّةَ صَادِقِينَ ، أَىْ لَوْ كَانَتِ الْوَطَنِيَّةُ فِيهِمْ غَيْرَ مُجَرَّدِ التَّشَدُّقِ[1] فى الْمَقَالِ وَكَانَتْ مَفْهُومَةً لَدَيْهِمْ بِغَيْرِ مَا يَتَظَاهَرُونَ بِهِ مِنَ الْحَرَكَاتِ الَّتِى لاَ يَرْضَاهَا الْعُقَلاَءُ لَمَّا سَاوَمُوا[2] الْحُكُومَةَ عَلى الْمَالِ الَّذِى تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِى تَغْذِيَةِ تِلْكَ الْوَطَنِيَّةِ وَصِيَانَةِ دَعَائِمِهَا . إِنَّهُمْ لَوْ صَدَقُوا لَدَفَعُوا الْمَالَ وَلَمْ يَشْكُوا ، إِذْ كُلَّمَا دَفَعُوا انْتَصَرَتْ وَطَنِيَّتُهُمْ وَكُلَّمَا انْتَصَرَتِ اسْتَبْشَرُوا وَفَرِحُوا ، أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنَ الْمُبْتَهِجِينَ لِأَنِّى غَيْرُ رَاضٍ عَنْ نِظَامِ الْهَيْئَةِ الْحَاضِرَةِ الْقَائِمِ عَلى تِلْكَ الْوَطَنِيَّةِ وَلاَ حَقَّ لَهُمْ أَنْ يَغْضَبُوا غَضَبِى لِأَنَّهُمْ إِنْ غَضِبُوا فَقَدْ خَالَفُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَنَاقَضُوا .

أَيُّهَا الْوَطَنِيُّونَ — الْعَلاَمَةُ الثَّانِيَةُ عَلى الْوَطَنِيَّةِ كَمَا تَفْهَمُونَهَا ،

(١) تشدق بالكلام وفيه: توسع فى الكلام من غير احتياط واحتراز

(٢) من قولهم تساوم البائع والشارى فى السلعة أى جرى بينهما مقاولة فى بيعها، وساوم بالسلعة عرضها بثمن دفع المشترى أقل منه، وهكذا الى أن يتفقا على الثمن .

هِيَ ضَرِيبَةُ الدِّمَاءِ . فَلْنَنْظُرْ كَيفَ أَنْتُمْ بِهَا قَائِمُونَ ، إِذَنْ لَيْسَ بِخَافٍ عَلَى أَحَدٍ أَنَّ كُلَّ اهْتِمَامِ الفَرَنْسَاوِيِّينَ ، حَتَّى غُلاةُ الْوَطَنِيَّةِ مِنْهُمْ ، مُوَجَّهٌ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ مُدَّةَ ثَلاثِ سِنِينَ هُمْ وَأَوْلادُهُمْ ، وَأَنَّهُمْ نَظَّمُوا حَيَاتَهُمْ لِلسَّعْيِ فِى هَذَا السَّبِيلِ . فَإِنْ كَانَتِ الْخِدْمَةُ ثَلاثَ سِنِينَ لازِمَةً فَمَا سَبَبُ الْهَرَبِ مِنْهَا؟ وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ لازِمَةٍ فَلِمَ الدِّفَاعُ عَنْهَا ؟ أَلا تَشْعُرُونَ أَنَّكُمْ مُتَنَاقِضُونَ فِى دِفَاعِكُمْ عَنْهَا وَهَرَبِكُمْ مِنْهَا ؟! إِنَّا نُشَاهِدُ الْمَدَارِسَ الَّتِى أُعْفِيَتْ تَلامِذَتُهَا مِنَ الْجُنْدِيَّةِ مُدَّةَ سَنَتَيْنِ ، بِمُقْتَضَى قَانُونِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْجَدِيدِ ، أَصْبَحَتْ غَاصَّةً بِالطُّلَّابِ وَكَانَ الْكَثِيرُ مِنْهَا فِى دَرَجَةٍ سَيِّئَةٍ مِنَ الانْزِوَاءِ لِقِلَّةِ الرَّاغِبِينَ فِيهَا فَأَقْبَلَ الْيَوْمَ عَلَيْهَا الْعَدَدُ الْعَدِيدُ حَتَّى إِنَّ مَدْرَسَةَ الْحُقُوقِ خَفَّضَتْ مِنْ شِدَّةِ الامْتِحَانِ وَسَهَّلَتِ الدَّرْسَ تَسْهِيلاً لِنَيْلِ شَهَادَتِهَا الَّتِى تُعْفِى حَامِلَهَا مِنَ الْجُنْدِيَّةِ سَنَتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ . وَكَأَنِّى بِالْمُدَرِّسِينَ وَقَدْ تَنَبَّهُوا إِلَى أَنَّهُمْ آبَاءٌ وَأَنَّ غُلُوَّهُمْ فِى الأُبُوَّةِ يُرْبِى عَلَى غُلُوِّهِمْ فِي الْوَطَنِيَّةِ . وَارْجِعْ إِلَى النُّوَّابِ وَالأَعْيَانِ فِى الْمَجْلِسَيْنِ لا تَجِدْ مِنْهُمْ عَشَرَةً يُؤَدِّى أَبْنَاؤُهُمْ خِدْمَةَ الْجَيْشِ ثَلاثَ سِنِينَ . هَكَذَا يُصَادِقُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ عَلَى جَعْلِ الْخِدْمَةِ ثَلاثَ سِنِينَ وَلَكِنَّهُ لا يُقِرُّ دُخُولَ ابْنِهِ فِيهَا .

وَبِالْجُمْلَةِ فَالْوَطَنِيَّةُ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا قَائِمَةٌ عَلَى الْمَطَامِعِ

السِّيَاسِيَّةِ بِوَاسِطَةِ الْحُرُوبِ وَتَوْسِيعِ نِطَاقِ الْمَصَالِحِ الْعُمُومِيَّةِ، غَيْرَ أَنَّهَا وَطَنِيَّةٌ صَعْبَةُ الاحْتِمَالِ عَلَى الامَمِ فَهِيَ تَفْرَحُ بِهَا فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ثُمَّ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَشْعُرَ بِثِقَلِهَا فَتَرْغَبَ فِي التَّخَلُّصِ مِنْهَا. وَحِينَئِذٍ تَتَكَلْكَلُ[1] تِلْكَ الْأَحْمَالُ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْبُسَطَاءِ أَعْنِي عَلَى الْأُمَّةِ فَتُمِيتُهَا وَتُضْعِفُهَا، ثُمَّ يَضِيقُ بِهَا الْخِنَاقُ يَوْماً فَتَثُورُ ثَوْرَةً وَاحِدَةً وَتَتَخَلَّصُ مِنْ مِثْلِ لُويز الرَّابِعَ عَشَرَ وَحُكَّامِ الثَّوْرَةِ وَنَابِلْيُونَ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَخْرُجُ مِنْ حُكْمِ هَؤُلَاءِ إِلَّا لِتَدْخُلَ فِي حُكْمِ لُويز الرَّابِعَ عَشَرَ وَحُكَّامِ الثَّوْرَةِ وَنَابِلْيُونَ!! لِأَنَّ أُولَئِكَ الْمُسَيْطِرِينَ عَلَى الدَّوَامِ مَوْجُودُونَ فِي مِثْلِ ذَاكَ النِّظَامِ .

الْوَطَنِيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ

يُوجَدُ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْوَطَنِيَّةِ عِنْدَ الْأُمَمِ الَّتِي تَفْهَمُ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ مَعْنًى غَيْرَ الْمَعَانِي الثَّلَاثَةِ السَّابِقَةِ، فَالرَّجُلُ مِنْ تِلْكَ الْأُمَمِ يَرَى أَنَّ الْوَطَنَ فِي بَيْتِهِ وَأَنَّ الْمَنْفَعَةَ الَّتِي يَجِبُ عَلَيْهِ الدِّفَاعُ عَنْهَا هِيَ اسْتِقْلَالُ ذَلِكَ الْبَيْتِ وَسَاكِنِهِ، وَأَنَّ الْوَطَنَ السِّيَاسِيَّ لَا مَفْهُومَ لَهُ إِلَّا إِيجَادُ وَسَائِلِ ذَلِكَ الاسْتِقْلَالِ الشَّخْصِيِّ، وَأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ لِلْوَطَنِ خَاصَّةً كَمَا فِي النَّوْعِ السَّابِقِ بَلْ إِنَّ الْوَطَنَ إِنَّمَا وُجِدَ لِخِدْمَةِ

(١) الكلكل، والكلكال: الصدر، وتتكلكل هنا: تتراكم وتثقل.

الْإِنْسَانِ فَهُوَ لَا يَهْتَمُّ كَثِيراً بِأَنْ يَكُونَ وَطَنِيًّا مِنْ أُمَّةٍ عَظِيمَةٍ وَإِنَّمَا جُلُّ اهْتِمَامِهِ أَنْ يَكُونَ وَطَنِيًّا مُسْتَقِلًّا . وبالْجُمْلَةِ فَإِنَّهُ يَرَى نَفْسَهُ رَجُلاً قَبْلَ أَنْ يَكُونَ وَطَنِيًّا .

هَذِهِ وَطَنِيَّةٌ تُخَالِفُ وَطَنِيَّةَ الْأُمَمِ اللَّاتِينِيَّةِ وَكَانَ أَوَّلُ ظُهُورِهَا في غَرْبِ الْقَارَّةِ الْأُورُبِّيَّةِ نَحْوَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ مِنَ الْمَسِيحِ فَأَدْخَلَهَا قَوْمُ « الفرنك » فى بِلَادِ « الغلوا » . وَالسَّكْسُونِيُّونَ فى بِرِيطَانِيَا الْعُظْمَى وَالسَّكْسُونِيُّونَ مِنَ هَيْئَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الَّتِى سَمَّيْنَاهَا بِالْأُمَمِ الاسْتِقْلَالِيَّةِ لِأَنَّهَا خَالَفَتِ الْجَمْعِيَّاتِ الَّتِى تَرْجِعُ فى أُصُولِهَا إِلَى الْأُمَّةِ الرُّومَانِيَّةِ الْقَدِيمَةِ فَجَعَلَتِ الشَّخْصَ، أَيِ الْفَرْدَ الْوَاحِدَ، رَاجِحًا عَلَى الدَّوْلَةِ .

وَرُجْحَانُ الْفَرْدِ عَلَى الدَّوْلَةِ هُوَ الَّذِى كَانَ السَّبَبَ فى تَجْزِئَةِ الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ وَالْجَزَائِرِ الْبِرِيطَانِيَّةِ إِلَى إِمَارَاتٍ صَغِيرَةٍ لَا تُحْصَى حَتَّى صَارَ عَدَدُهَا فى الْقُرُونِ الْوُسْطَى بِقَدْرِ عَدَدِ الْأَمْلَاكِ الْخُصُوصِيَّةِ: فَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ سَيِّداً فى أَرْضِهِ لَهُ الْحُكْمُ فِيهَا وَحِفْظُ النِّظَامِ بَيْنَ سَاكِنِيهَا ، وَهَكَذَا حَلَّتْ أَوْطَانٌ كَثِيرَةٌ مَحَلَّ ذَلِكَ الْوَطَنِ الْوَحِيدِ الرُّومَانِيِّ . وَلَيْسَ مِنْ غَرَضِى الْآنَ أَنْ أُبَيِّنَ هُنَا السَّبَبَ فِى زَوَالِ هَذَا الشَّكْلِ الْجَدِيدِ شَيْئاً فَشَيْئاً مِنَ الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَةِ حَيْثُ أَقْصَتْهُ عَنْهَا الْحُكُومَةُ الْمَلَكِيَّةُ الَّتِى جَمَعَتْ أَشْتَاتَ السُّلْطَةِ ، وَفى بَقَائِهِ كَمَا

هُوَ بِبِلَادِ انْكِلْتِرَا ، غَيْرَ أَنَّ الْوَاقِعَ هُوَ أَنَّنَا لا نَزَالُ نُشَاهِدُ تِلْكَ الصُّورَةَ عِنْدَ الْأُمَمِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ أَعْنِي فِي بِلَادِ إِنْكِلْتِرَا وَمُسْتَعْمَرَاتِهَا الْعَدِيدَةِ وَفِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ . وَلِكَيْ نُبَيِّنَ حَقِيقَةَ تِلْكَ الْوَطَنِيَّةِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَذْكُرَ طَرَفاً مِنَ الْحَوَادِثِ الَّتِي يَعْمَلُهَا الْكُلُّ لِمَا فِيهَا مِنَ الدَّلَالَةِ الْوَاضِحَةِ .

أَوَّلاً — سُهُولَةُ هِجْرَةِ الرَّجُلِ عَنْ وَطَنِهِ ، وَلَيْسَ مَقْصِدُنَا أَنْ يُهَاجِرَ مِنْهُ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ حُدُودِهِ بَلْ يَرْحَلَ عَنْهُ بَعِيداً جِدًّا فَيَقْطَعَ الْأَرْضَ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَى أُخْرَى . وَالْمُهَاجِرُ مِنَ الْإِنْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ يَشْعُرُ دَائِماً بِأَنَّهُ إِنَّمَا يَرْحَلُ عَنْ بَلَدِهِ مُسْتَصْحِباً لِوَطَنِهِ ، إِذْ هُوَ الْوَطَنُ حَيْثُ يَعِيشُ الْمَرْءُ حُرًّا (١) .

وَثَانِياً — اسْتِقْلَالُ الْمُسْتَعْمَرَاتِ بِالنَّظَرِ إِلَى الْعَاصِمَةِ الْكُبْرَى ، فَكُلُّ مُسْتَعْمَرَةٍ لَا يَلْزَمُهَا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تَابِعَةً لَهَا ثُمَّ هِيَ بَعْدَ ذَلِكَ مُطْلَقَةٌ تَحْكُمُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا كَمَتْبُوعِهَا . وَلَا تَحْسَبْ أَنَّ حُبَّ الْوَطَنِ يَحْمِلُهَا عَلَى تَسْلِيمِ نَفْسِهَا إِلَيْهِ يُسَيِّرُهَا كَمَا يُرِيدُ . ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ التَّابِعِيَّةَ وَقْتِيَّةٌ لَا تَدُومُ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَتَرَبَّى التَّابِعُ وَإِنْ دَامَتْ فَلِزَمَنٍ قَرِيبٍ

(١) هذا يذكرنا بقول الحريري

لا تركنن الى وطن فيه تهان وتمتهن
وارحل عن الدار التى تعلى الوهاد على القنن
وحب البلاد فأيها ارضاك فاختره وطن (المترجم)

لِأَنَّ المُسْتَعْمَرَاتِ الإِنْـكلِيزِيَّةَ تَمِيلُ إِلى الهِجْرَةِ مَثلُها كَمَثَلِ شُبَّانِ الإِنـكلِيزِ . هَـكَذَا انفَصَلَتِ الوِلاَيَاتُ المُتَّحِدَةُ عَنِ الأُمَّةِ البرِيطَانِيَّةِ وَهَـكَذَا تَبْدُو الآنَ عَلاَئِمُ الِانْفِصَالِ فِى أُوسْتَرَالْيَا وَزِيلانْدَا الجَدِيدَةِ وَكَـنَدَا وَرَأْسِ الرَّجَا . قَالَ أَحَدُ السُّيَّاحِ الإِنْـكلِيزِ وَهُوَ مُوسْيُو (مكس أوريل) : (يَفْتَخِرُ سُكَّانُ المُسْتَعْمَرَاتِ فى هَذِهِ الأَيَّامِ بأَنْ يُطْلَقَ عَلَيْهِم اسْمُ الِاسْتُرَالِيِّينَ وَ (الـكَنَدِيِّينَ) وَالإِفْرِيقِيِّينَ، وَيَنْمُو فِيهِمْ رُوحُ المِلَّةِ[1] كلَّ يَوْمٍ ، وَالإِنـكلِيزِىُّ هُوَ الَّذِى يُغَذِّى ذَلِكَ الإِحْسَاسَ فِيهِمْ ، إِذْ كُلُّ إِنْـكلِيزِىٍّ يُقِيمُ بِضْعَ سِنِينَ فى مُسْتَعْمَرَةٍ لاَ يَبْقَى إِنْـكلِيزِيًّا بَلْ يَصِيرُ أُوسْتُرَالِيًّا أَوْ كَنَدِيًّا أَوْ إِفْرِيقِيًّا وَيَحْلِفُ بِوَطَنِهِ الجَدِيدِ ، وَهُمْ لاَ يَقْبَلُونَ مِنَ العَاصِمَةِ الـكُبْرَى أَنْ تُرْسِلَ عَلَيْهِمْ وُلاَةً إِلاَّ تَأَدُّبًا مِنْهُمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَشْتَرِطُونَ عَلَيْهِمْ أَلاَّ يَشْتَغِلُوا بالسِّيَاسَةِ أَكْثَرَ مِمَّا تَشْتَغِلُ بِهَا المَلِكَةُ وَرِجَالُ البَيْتِ المَلَكِىِّ .

وَثَالِثًا — عَدَمُ الِالتِفَاتِ مُطْلَقًا إِلَى الجُنْدِيَّةِ ، وَقِلَّةُ الاهْتِمَامِ بِشَأْنِهَا ، قَالَ (أدواردريكلوس) فِى كِتَابِهِ (تَخْطِيطُ البُلْدَانِ الجَدِيدُ) : (إِنَّ إِنْجِلتِرَهْ هِىَ أَقَلُّ الدُّوَلِ فى الجُيُوشِ الدَّائِمَةِ مَعَ أَنَّهَا تَحْكُمُ عَلى أُمَمٍ أَكْثَرَ مِمَّا تَحْكُمُ جَمِيعُ دُوَلِ أُورُبَّا بِأَرْبَعَةِ

(١) يريد الروح الشعبى

الأَضْعَافِ ، فَلا يَزِيدُ جَيْشُها النِّظَامِيُّ عَلى مِائَةِ أَلْفِ جُنْدِيٍّ) وَهُوَ سُدْسُ الجَيْشِ الفرَنْسَاوِيِّ وَالأَلْمَانِيِّ وَالرُّوسِيِّ ، أَعْنِي بِلَادَ الوَطَنِيَّةِ الثَّالِثَةَ وَهُوَ رُبْعُ الجَيْشِ النمساوِيِّ وَثُلُثُ الجَيْشِ التَّلْيَانِيِّ فِي حَالَةِ السِّلْمِ . وَهُوَ جزءٌ مِنْ ثَلاثِينَ أَوْ مِنْ أَرْبَعِينَ مِنْ عَدَدِ الرَّعَايَا[1] .

وَهُنَاكَ أَمْرٌ آخَرُ يُوَضِّحُ جَيِّدًا أَنَّ نِظَامَ تِلْكَ الأُمَمِ لَا يُوَافِقُ الحُرُوبَ . قالَ « ريكلوس » فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ كِتَابِهِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ صفحة ٨٧٩ : « لَا يُوجَدُ فِي إِنكلترَهْ قَانُونٌ لِلْقُرْعَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَلَيْسَ فِي اسْتِطَاعَةِ الْحُكُومَةِ أَنْ تَحْشُدَ مِنْ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ جَيْشًا تُحَارِبُ بِهِ رَغَبَاتِ الْأُمَّةِ ، وَالْخِدْمَةُ عِنْدَهُمْ سَنَوِيَّةٌ . وَلَوْلَا أَنَّ الْمَجَالِسَ النِّيَابِيَّةَ تَقْضِي فِي كُلِّ سَنَةٍ بِاسْتِمْرَارِ الْعَسَاكِرِ مُجَنَّدَةً لَانْحَلَّ الْجَيْشُ فِي كُلِّ عَامٍ . وَمِنْ مَبَادِئِهِمْ أَنَّهُ لَا حَقَّ لِلْوَازِعِ فِي اسْتِبْقَاءِ جَيْشٍ مُسْتَمِرٍّ يُنفَقُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ المَالِ إِلَّا بِإِقْرَارِ الْقُرَى وَالْبُلْدَانِ ، فَهِيَ الَّتِي تُقَدِّمُ المَالَ اللَّازِمَ وَتُقَرِّرُ الْقَانُونَ الْعَسْكَرِيَّ فِي كُلِّ عَامٍ » . وَلْيُلَاحَظْ أَنَّ الْقُرْعَةَ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ كَذَلِكَ فِي الْبَحْرِيَّةِ ، بَلْ يُحْشَدُ رِجَالُهَا مِنَ الْمُتَطَوِّعِينَ كَالْعَسَاكِرِ الْبَرِّيَّةِ .

وَعَدَدُ الْجَيْشِ فِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ أَيَّامَ السِّلْمِ قَلِيلٌ جِدًّا ، فَلَا

(١) يظهر ان في الطبعة الفرنساوية خطأ لان مجموع الرعايا على تلك النسبة لا يزيد على أربعة ملايين وهو قليل كما لا يخفى . ولعل الاصل جزء من ثلاثمائة أو أربعمائة . ويجب أيضاً أن يكون المقصود بالمعدود الرعايا الاصليين التابعين (المترجم)

يَزِيدُ عَلَى سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفاً مع كَثْرَةِ عَدَدِ السُّكَّانِ وَبُعْدِ مَا بَيْنَ مَشْرِقَيْ تِلْكَ الْبِلَادِ .

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ أَنَّ تِلْكَ الأُمَمَ لَيْسَتْ مَيَّالَةً إِلَى الْجُنْدِيَّةِ . وَيَزْدَادُ عَدَمُ الْمَيْلِ بِتَكَاثُرِ جَمْعِيَّاتِ السَّلَامِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْجَمْعِيَّاتِ لَمْ تَنْتَشِرِ انْتِشَاراً مُحَسَّاً إِلَّا فِي إِنْجِلْتِرَهْ وَالْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ فَلَا يَبْلُغُ عَدَدُ جَمِيعِ أَعْضَاءِ الشَّرِكَاتِ الَّتِي تَأَلَّفَتْ لِهَذَا الْغَرَضِ فِي الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ إِلَّا أَلْفاً وَمِائَتَيْنِ ، وَلَا نَعْرِفُ فِي أَلْمَانِيَا سِوَى جَمْعِيَّةٍ وَاحِدَةٍ لَا يَزِيدُ عَدَدُ أَعْضَائِهَا عَلَى السَّبْعِينَ ، أَمَّا إِنْكِلْتِرَهْ فَفِيهَا خَمْسُ جَمْعِيَّاتٍ تَتَأَلَّفُ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ عُضْوٍ ، وَهَذَا بِخِلَافِ جَمْعِيَّةٍ سَادِسَةٍ تُسَمَّى جَمْعِيَّةَ السَّلَامِ تَأَلَّفَتْ سَنَةَ ١٨١٦ وَفِيهَا بِضْعَةُ آلَافٍ مِنَ الأَعْضَاءِ ، وَفِي الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ جَمْعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ يَبْلُغُ أَعْضَاؤُهَا أَكْثَرَ مِنْ مِلْيُونَيْنِ ، وَبِجَانِبِهَا جَمْعِيَّاتٌ كَثِيرَةٌ لَا تُحْصَى وَأَعْضَاؤُهَا فِي ازْدِيَادٍ عَلَى الدَّوَامِ . وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى بُغْضِهِمْ أَيْضاً لِلْحُرُوبِ اتِّجَاهُ الْمُيُولِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ إِلَى فَضِّ الْمَشَاكِلِ بِوَاسِطَةِ الْمُحَكِّمِينَ لَا بِاسْتِعْمَالِ الْمَدَافِعِ وَالسُّيُوفِ .

إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا سَهُلَ عَلَيْنَا أَنْ نُقَارِنَ بَيْنَ هَذِهِ الأَنْوَاعِ الأَرْبَعَةِ :

فَأَمَّا الْوَطَنِيَّةُ الدِّينِيَّةُ فَقَدِ انْحَصَرَتِ الْيَوْمَ فِى الصَّحْرَاءِ حَيْثُ تَتْعَبُ الطَّوَائِفُ الدِّينِيَّةِ فِى اسْتِبْقَائِهَا ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَهَا

أَثَرٌ فى الْخَارِجِ لِأَنَّهَا لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ وَقَدْ مَالَ الدِّينُ فِى أُمَمِ الْغَرْبِ إِلَى الْمُلاَيَنَةِ وَالْمُحَاسَنَةِ وَصَارَ يَنْتَشِرُ بِالْإِقْنَاعِ وَالاِسْتِدْلاَلِ لاَ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ ثُمَّ إِنَّهُ اتَّخَذَ الضَّمَائِرَ أَرْضاً يَسْكُنُهَا وَمَالَ عَنِ الاِسْتِعَانَةِ بِسُلْطَةِ الْحُكُومَةِ عَلَى جَانِبِ الْمُحَازِبِينَ[1] وَعَلَيْهِ تَرَى أَنَّ الْوَطَنِيَّةَ الدِّينِيَّةَ آخِذَةٌ فى التَّقَهْقُرِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ.

وَكَذَلِكَ الْوَطَنِيَّةُ التِّجَارِيَّةُ انْقَضَى زَمَانُهَا وَلَمْ يَعُدْ لِلْأَسْبَابِ الَّتِى كَانَتْ قَائِمَةً بِهَا عَلَى شَوَاطِئِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ أَثَرٌ فى الْوَقْتِ الْحَاضِرِ وَكَادَتْ الْمَدَائِنُ الْعَتِيقَةُ تَنْقَرِضُ إِنْ لَمْ تَكُنْ قَدْ بَادَتْ مِثْلُ فِينِيقِيَا وَقَرْطَاجَنَّةَ وَالْيُونَانِ ثُمَّ فِينِسْيَا وَجِينَ وَأَصْبَحَتْ تَدُلُّ بِأَطْلاَلِهَا أَوِ اضْمِحْلاَلِهَا عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْوَطَنِيَّةَ التِّجَارِيَّةَ لاَ تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ أُسًّا يَقُومُ عَلَيْهِ نِظَامُ الْهَيْئَةِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ . وَالْيَوْمَ لاَ حَيَاةَ لِلتِّجَارَةِ إِلاَّ بِالتَّنَافُسِ فِيهَا وَإِنْ عَمَدَتْ بَعْضُ الْأُمَمِ إِلَى تَخْفِيفِهَا أَوْ تَحْدِيدِهَا بِجَبْيِ الْخَرَاجِ عَلَى الْمَتَاجِرِ فى مَرَافِئِ[2] بِلاَدِهَا، بَلْ نُشَاهِدُ أَنَّ الْعَقَبَاتِ آخِذَةٌ فى الزَّوَالِ بَيْنَ الْأُمَمِ وَأَنَّ التِّجَارَةَ تَتَخَلَّصُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ قُيُودِهَا وَتَسِيرُ مُسْرِعَةً نَحْوَ الْإِطْلاَقِ بِلاَ قَيْدٍ وَلاَ حَرَجٍ . وَحِينَئِذٍ لاَ يُمْكِنُ الاِعْتِمَادُ عَلَى هَذِهِ الْوَطَنِيَّةِ فَسَتَلْحَقُ بِسَابِقَتِهَا لِتَصِيرَ مَعَهَا مِنْ زَخَارِفِ تَارِيخِ الْأَعْصُرِ الْخَالِيَةِ.

(١) يريد أهل الملل والنحل المخالفة الأخرى (٢) موانئ

وَمِنَ الأَسَفِ أَنَّهُ لَا يَسَعُنَا ذِكْرُ الثَّالِثَةِ كَمَا ذَكَرْنَا الأَولَيَيْنِ ، فإنَّ رُوحَ الْوَطَنِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ لَمْ تَمُتْ حَتَّى الآنَ ، غَيْرَ أَنَّ الْمَرَضَ قَدِ اشْتَدَّ بِهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَتَخَيَّلُهُ النَّاسُ وَبَدَتْ عَلَيْهَا أَمَارَاتُ الفَنَاءِ الْمُحَتَّمِ ، وَلَمْ يَعُدْ فِي الإِمْكَانِ اسْتِبْقَاءُ تِلْكَ الْوَطَنِيَّةِ زَمَنًا إِلَّا بِاسْتِعْمَالِ الْوَسَائِلِ الْوَقْتِيَّةِ وَاسْتِخْدَامِ أَسْبَابِ الْغُلُوِّ فِيهَا إِلَى حَدِّ التَّعَسُّفِ وَالتَّغَطْرُسِ مِمَّا جَعَلَهَا تَزْدَادُ وَقْرًا عَلَى الْأُمَّةِ حَتَّى صَارَتْ عِبْئًا ثَقِيلاً . وَمِنَ الْمَظْنُونِ أَنَّ الدَّائِرَةَ تَدُورُ عَلَى فَرَنْسَا أَوْ أَلْمَانِيَا مَثَلاً إِذَا سَبَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، فَخَرَجَتْ قَتِيلَةً تَحْتَ أَثْقَالِ هَذَا السَّلَامِ الَّذِى صَارَ أَصْعَبَ احْتِمالاً مِنَ الْقِتَالِ ، غَيْرَ أَنَّ الظَّافِرَ فِى ذَلِكَ الْحِينِ لَا يَفْضُلُ الْمَغْلُوبَ إِلَّا قَلِيلاً .

وَالنَّصْرُ كُلُّ النَّصْرِ لِلأُمَمِ الَّتِى وَطَّدَتْ أَرْكَانَ نِظَامِهَا عَلَى دَعَائِمِ الْوَطَنِيَّةِ الرَّابِعَةِ أَوِ الْوَطَنِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ ، فَهِيَ الَّتِى تَلُوحُ عَلَى وَجْهِهَا جَمِيعُ بَشَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ النَّامِيَةِ الَّتِي اسْتَقَرَّ لَهَا الْأَمْرُ وَأَمْسَتْ آمِنَةً عَلَى مُسْتَقْبَلِ الأَيَّامِ .

أَوَّلاً : لِأَنَّهَا طَبِيعِيَّةٌ فَلَا تَحْتَاجُ لِمُنَبِّهٍ مِنَ الْخَارِجِ دَائِمًا وَلَكِنَّهَا آتِيَةٌ مِنْ حَالَةِ اجْتِمَاعٍ شَأْنُهَا أَنْ تُرَبِّيَ فِى الْمَرْءِ بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ حَاجَةَ الِاسْتِقْلَالِ وَالْبُعْدَ عَنْ كُلِّ قَيْدٍ تُرِيدُهُ الدَّوْلَةُ وَلَا مَنْفَعَةَ لَهُ فِيهِ ، ثُمَّ

هُوَ لَا يَحْتَاجُ فِى الْمُحَافَظَةِ عَلَى هَذَا الاِسْتِقْلَالِ أَمَامَ الْحُكُومَةِ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ تِلْكَ الْقُيُودِ إِلَّا أَنْ يَتْبَعَ وِجْدَانَهُ الْخَاصَّ فَتَرَاهُ يَجْرِى عَلَى هَذِهِ الْوَطَنِيَّةِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ كَمَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَنَامُ .

ثَانِياً : لِأَنَّهَا تُسَاعِدُ عَلَى إِنْمَاءِ الثَّرْوَةِ فَهِىَ لَا تَقْتَضِي لِلْجَيْشِ نَفَقَةً طَائِلَةً ، وَهِىَ تَحْمِلُ النُّفُوسَ عَلَى الْكَدِّ وَالاِسْتِرْزَاقِ مَا اسْتَطَاعَتْ. وَلَا مُشَاحَّةَ فِى أَنَّ الْأُمَمَ الَّتِى مِنْ هَذَا النَّوْعِ هِىَ أَغْنَى أُمَمِ الْأَرْضِ كُلِّهَا وَمَا لَهَا مِنْ ثَمَرَةِ أَتْعَابِهَا .

ثَالِثاً : لِأَنَّهَا تُرَبِّى الْإِحْسَاسَ الْأَدَبِيَّ فِى الْإِنْسَانِ ، وَهُنَا مَوْضِعُ تَأَمُّلٍ لِأَنَّ غُلَاتَنَا أَفْسَدُوهُ فِى الْأَذْهَانِ طَلَباً لِمَنْفَعَتِهِمْ ، فَقَالُوا وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْحَرْبَ مَنْبَعٌ عَظِيمٌ تُسْتَمَدُّ مِنْهُ الشَّجَاعَةُ وَالْهِمَّةُ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْظَمَ الْمَنَابِعِ وَأَكْبَرَهَا، وَإِنَّهُ لَوِ انْعَدَمَتِ الْحَرْبُ سَقَطَتْ هِمَمُ بَنِي الْبَشَرِ وَذَلُّوا ، وَرُبَّمَا كَانَ الْقَوْلُ مُفِيداً فِى حَمْلِ الْأُمَمِ عَلَى تَقْتِيلِ بَعْضِهَا بَعْضاً ، وَلَـكِنَّهُ قَوْلٌ يُخَالِفُ الْمُشَاهَدَاتِ كُلَّ الْمُخَالَفَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّ مُتَوَحِّشِى أَمَرِيكَا الْجَنُوبِيَّةِ وَهَمَجَ أَفْرِيقَا فِى حَرْبٍ وَنِزَالٍ مُسْتَمِرٍّ مُنْذُ قُرُونٍ عَلَى أَمَاكِنِ الصَّيْدِ وَالاقْتِنَاصِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِى أَحَطِّ دَرَجَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَلَوْ صَحَّ قَوْلُ الْغُلَاةِ لَـكَانُوا أَوَّلَ الْأُمَمِ فِى نُمُوِّ الْإِحْسَاسِ الْأَدَبِيِّ مُنْذُ قُرُونٍ . وَإِذَا رَاجَعْنَا التَّارِيخَ رَأَيْنَا أَنَّ الرَّجُلَ لَمْ تَسْقُطْ آدَابُهُ وَلَمْ يَفْقِدْ مَزَايَا

الهِمَّةِ الصَّحيحَةِ إلاَّ فى أزْمَانِ الحُرُوب وَالغَارَاتِ أيَّام كانَتِ الوَطَنِيَّةُ الحَرْبِيَّةُ بَالِغَةً مُنْتَهَاهَا . هُنَا لِكَ تَتَرَادَفُ عَلى أَسِنَّةِ أقْلامِ الكُتَّاب حَوَادِثُ القَتْلِ وَالخَدِيعَةِ وَالزُّورِ وَمُصَارَعَةِ الأخِ أخَاهُ ، وَغيرِ ذَلِكَ مِنْ أنْوَاعِ الفَظَائِعِ وَالمَخَازِى . وَمِنَ الصَّعْبِ ألاَّ يُمَيِّزَ الإنْسَانُ بَيْنَ هَذِهِ الأحْوَالِ وَبَيْنَ مَا يَقْتَضِيهِ نُمُوُّ الإحْسَاسِ الأدَبِيِّ فى الأمَمِ . عَلى أنَّ ذَلِكَ مِنَ الأمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ ، فَإنَّهُ مَتَى ثَارَتْ ثَوْرَةُ الجَشَعِ فى قُلُوبِ الرُّؤَسَاءِ أقْبَلُوا بِكُلِّيَّاتِهِمْ وَجُزْئِيَّاتِهِمْ عَلَى الحَرْبِ وَالفُتُوحِ ، وَدَاسُوا كَرَائِمَ الشَّمَائِلِ بالأقْدَامِ ، وَمَتَى اشْتَبَكَ القِتَالُ وَحَمِىَ وَطِيسُ[1] الحَرْبِ بَيْنَ الجُنْدِ انْدَفَعَ العَسْكَرُ إلى إرْتِكَاب الشَّنَاعَاتِ وَأعْمَالِ القَسْوَةِ وَالتَّوَحُّشِ وَالفُجُورِ ، وَهِىَ الأفْعَالُ الَّتِى يُسَمِّيهَا النَّاسُ فَظَائِعَ الحَرْبِ وَمُوبِقَاتِ الجُيُوشِ . نَعَمْ يَرِدُ أنَّ نِظَامَ الجُيُوشِ فى هَذِهِ الأيَّامِ لا يَقْتَضِى مِثْلَ تِلْكَ الأعْمَالِ ـ وَهُوَ صَحِيحٌ ـ إلاَّ أنَّ فَسَادَ الأخْلاقِ حَاصِلٌ أيْضًا وَإنَّمَا تَغَيَّرَ شَكْلُهُ فَقَط .

وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ فى هَذَا الزَّمَانِ أنْ صَارَتْ الحَرْبُ نَادِرَةً ، وَصَارَتْ مَعِيشَةُ الجُنْدِيِّ مَعِيشَةَ سِلْمٍ مُدَجَّجٍ بالسِّلاَحِ ، وَصَارَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ذَلِكَ العَسْكَرِيِّ الَّذِى يَقْضِى حَيَاتَهُ فى الحُرُوبِ أجْيَالٌ طِوَالٌ وَأصْبَحَ جُنْدِيُّنَا يَقْضِى حَيَاتَهُ فِى الثُّكْنِ يَتَمَرَّنُ بِسِلاَحٍ قَدْ لاَ تَحِينُ

(١) الوطيس : التنور وما أشبهه والمعركة على التشبيه، يقال حمى الوطيس أى اشتدت الحرب

الْفُرْصَةُ لِاسْتِعْمَالِهِ فَهُوَ وَاحِدٌ مِنَ الْأُمَّةِ يَعِيشُ مُطْمَئِنًّا إِلاَّ أَنَّهُ عَلَى نَفَقَةِ الْحُكُومَةِ ، وَلَيْسَ فِي تِلْكَ الْمَعِيشَةِ مَا يُوجِبُ نُمُوَّ الْإِحْسَاسِ الْأَدَبِيِّ ، وَلَكِنِّي أَرَى فِيهَا مَا يَدْعُو إِلَى النَّقْصِ فِيهِ لِأَنَّهُمْ يَعِيشُونَ فِي شِبْهِ بَطَالَةٍ بِغَيْرِ عَمَلٍ ذَاتِيٍّ وَلَا تَبِعَةَ عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ ، مَحْرُومِينَ مِنْ جَمِيعِ الْمُشْتَهِيَاتِ كَالرُّهْبَانِ! وَكُلُّهَا شُرُوطٌ لَا تُوَافِقُ الْعِزَّةَ ، وَلَا تُرَبِّي الْأَنَفَةَ وَلَا تُشَجِّعُ النَّفْسَ وَلَا تُنْمِي الْإِحْسَاسَ ، لِأَنَّ أَوَّلَ الدَّلَائِلِ عَلَى نُمُوِّ الْإِحْسَاسِ الْأَدَبِيِّ فِي الْإِنْسَانِ قُدْرَتُهُ عَلَى مُغَالَبَةِ نَفْسِهِ وَاسْتِطَاعَتُهُ تَذْلِيلَ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ وَإِذْعَانُهُ إِلَى مَا تَقْتَضِيهِ مِنَ الْكَدِّ وَالْعَمَلِ . وَمِمَّا لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اثْنَانِ أَنَّ الْخِدْمَةَ الْعَسْكَرِيَّةَ تُضْعِفُ فِي الرَّجُلِ هَذَا الِاسْتِعْدَادَ إِضْعَافًا شَدِيدًا فَلَا يَلِيقُ الْجُنْدِيُّ الْقَدِيمُ إِلَّا لِلْخِدْمَةِ فِي مَكَاتِبِ الشُّرْطَةِ ، وَمِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِ أَنْ يَعُودَ زَارِعًا أَوْ أَجِيرًا كَمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يَصِيرَ جُنْدِيًّا ، لِأَنَّهُ يَرَى تِلْكَ الْأَعْمَالَ شَاقَّةً عَلَيْهِ ، فَثَبَتَ أَنَّ مُدَّةَ إِقَامَتِهِ فِي ثُكْنَةِ الْعَسَاكِرِ أَضْعَفَتْ عَزِيمَتَهُ وَأَوْهَنَتْ قُوَاهُ الْأَدَبِيَّةَ .

كَذَلِكَ يَتَأَثَّرُ الضَّابِطُ بِذَلِكَ الْوَسَطِ تَأَثُّرًا لَيْسَ حَمِيدًا . وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْتَغِلُونَ فَيَنْجُونَ مِنْ عَدْوَى الثُّكَنِ بَعْضَ النَّجَاةِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَفْضُلُونَ غَيْرَهُمْ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ يَكُدُّونَ فِي سَبِيلِ رِزْقِهِمْ ، وَمِنْهُمْ

مَنْ لاَ يعمَلُ عملاً أبدًا ، وَيكتَفون بأداء الواجبات العسكرية دون غيرها . وأولئك تراهم يقضون أوقات فراغهم الطويلة في المقاهي أو المقامرة أو استنشاق الهواء أو الزيارات أو الملاهي والملاذ ، وليس في هذه الأعمال كلها ما يرفع درجتهم الأدبية فوق درجة أقل الناس .

ولاَ شك في أن الأمم التي لم تحفل بالجندية والوظائف الإدارية أرفع منزلة في الآداب من التي بسطنا الكلام عليها ، لأن شبانها لا يجدون في العسكرية أو المصالح الأميرية مقاعد يتكئون عليها بلا تعب ولا عناء ، بل يضطرون في تحصيل رزقهم إلى الاحتراف بالصناعات الجارية ، وهذه تقتضي إقداماً أوفر وعزماً أوفى وفيها السراء والضراء[1] وتبعتها أكبر ، ولكنهم في كدهم هذا لتحصيل عيشهم وإيواء عائلاتهم يجدون همة وقدرة أدبيتين لا يجدهما من تيسر رزقه وعاش كسولاً .

رابعاً : لأنها تساعد على انتشار الأمة وسهولة تعود أفرادها الإقامة في جميع أنحاء المسكونة ، فبينما نحن الفرنساويين نجتهد في إحياء العواطف الوطنية التي تولاها الانحطاط في أرجاء البلاد كلها باستعراض الجيوش وإقامة الاحتفالات العسكرية يمخر[2]

(١) الرخاء والشدة (٢) مخرت السفينة في البحر اذا جرت تشق الماء مع صوت

خَصمْنَا فِي عُرْضِ الْبحَارِ بِسُفُنِهِ الْعَدِيدَةِ ، وَيُغِيرُ عَلَى أَطْرَافِ الْمَسْكُونَةِ بمُهَاجِرِيهِ الَّذِينَ لاَ نُحْصِي لَهُمْ عَدًّا وَكَأَنَّنَا لاَ نَرَاهُ أَوْأَنَّنَا نَحْتَقِرُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَسَلَّحْ مِثْلَنَا مِنْ قَدَمَيْهِ إِلَى عَيْنَيْهِ . وَلَكِنَّا لاَ نَزَالُ مُتَأَخِّرِينَ بِاعْتِقَادِنَا أَنَّ قُوَّةَ الأُمَّةِ مِنْ قُوَّةِ حُكُومَتِهَا لِأَنَّهُ اعْتِقَادٌ بَاطِلٌ ، إِذْ لَوْ كَانَ صَحِيحاً لَأَصْبَحَتْ سِيَادَةُ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ فِي يَدِ الأُمَمِ اللاَّتِينِيَّةِ ، وَمِنَ الْمُشَاهَدِ أَنَّهَا تَرْجِعُ الْقَهْقَرَى [1] كُلَّ يَوْمٍ أَمَامَ تَقَدُّمِ الأُمَمِ الْإِنْكلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ عَلَى صِغَرِ حُكُومَاتِهَا وَقِلَّةِ جُيُوشِهَا .

إِذَا تَبَيَّنَا هَذَا كَمَا يَنْبَغِي تَمَكَّنَّا مِنْ أَخْذِ ثَأْرِنَا مِنْ أَلْمَانِيَا كَمَا يَبْتَغِيهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، لِأَنَّنَا إِذْ ذَاكَ لاَ نَطْلُبُهُ بِالْإِفْرَاطِ فِي حَشْدِ الْجُيُوشِ وَتَعْبِئَةِ السِّلاَحِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُضْعِفُ الْغَالِبَ وَالْمَغْلُوبَ سَوَاءً ، بَلْ نَبْتَغِيهِ مِنْ وَرَاءِ إِعْلاَءِ كَلِمَةِ الأُمَّةِ فَهِيَ الْقُوَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ ، لِأَنَّ قِوَامَهَا الْعَمَلُ وَاسْتِقْلاَلُ الأَفْرَادِ بِهِ .

وَلْيُلاَحَظْ أَنَّ حَالَةَ الْحَرْبِ أَوْ حَالَةَ السِّلْمِ الْمُسَلَّحِ لَيْسَتْ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ الأَزَلِيَّةِ [2] بَلْ هِيَ نَتِيجَةُ أَشْكَالِ الْجَمْعِيَّاتِ الَّتِي اسْتَوْلَتْ عَلَى زِمَامِ الأُمَمِ إِلَى هَذَا الْحِينِ ، وَكَانَتْ كُلُّهَا رَاجِعَةً إِلَى الإِفْرَاطِ فِي تَعْظِيمِ السُّلْطَةِ الْعُمُومِيَّةِ وَتَوْسِيعِ نِطَاقِهَا . أَمَّا الأُمَمُ

(١) القهقرى : الرجوع الى خلف ، ورجع القهقرى أى رجع الرجوع المعروف بهذا الاسم لأن القهقرى ضرب من الرجوع (٢) القديمة

الَّتي اتَّخذت شكلاً آخرَ فإنها لم تعُد تشعرُ بحاجةٍ إلى الاقتتال ، وصارتِ الحربُ عندها نادرةً . وهم لا يستبقون جيوشهم على قلةِ عددِها إلاَّ تمسُّكاً بالعاداتِ وجرياً على الماضى ، أو لأجلِ أن يدفعوا بها غارةَ الأُممِ الَّتي لا تزالُ ترى كلَّ شىءٍ من خلالِ الجُندِ مليحاً .

ولنُلخِّص ما تقدَّمَ فنقولُ :

إنَّ الوطنيَّةَ السِّياسيَّةَ وطنيةٌ صناعيَّةٌ كاذبةٌ تقودُ الأُممَ إلى الدَّمارِ ، والوطنيَّةُ الحقيقيَّةُ هِيَ الَّتي تُفضِّلُ استقلالَ الشَّخصِ وتحميهِ من تعدِّياتِ الحكومةِ وتوسيعِ نطاقِها ضدَّ مصلحتِهِ ، لأنَّ هذهِ هِيَ الطَّريقةُ الوحيدةُ في استبقاءِ قوَّةِ الوطنِ وتحصيلِ سعادتِهِ

الفصل الرابع

﴿ فى أنَّ الفرنساويِّينَ يختلفُونَ عنِ الإنكليزِ السَّكسُونيِّينَ ﴾

(فى إدراكِ حقيقةِ التَّضامُنِ والتَّكافُلِ)

أصبحَ التَّكافُلُ اليومَ مذهباً مقبُولاً فى فرنسا كالبديهيَّاتِ حتَّى إنَّ أحدَ رُؤساءِ الوزارةِ السَّابقينَ وهوَ مُوسيُو « ليون بورجوا » كتبَ فيهِ رِسالةً مخصُوصةً قالَ فيها: إنَّ أحزابهُ عديدُونَ وذكرَ

مِنْهُمْ الِاشْتِرَاكِيِّينَ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ وَبَعْضِ عُلَمَاءِ الِاقْتِصَادِ الأَلْمَانِيِّينَ وَالْفَلَاسِفَةِ كَمُوسْيُو « فويه » وَ « ايزولى » وَحُكَمَاءِ الْفَلْسَفَةِ الْوَضْعِيَّةِ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُ مَذْهَبَ « الْغَيْرِيَّةِ » . قالَ : « وَالْمَذْهَبُ وَاحِدٌ عِنْدَ الْجَمِيعِ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ أَسْمَاؤُهُ ،وَمَرْجِعُهُ إِلَى الْقَوْلِ بِوُجُودِ رِبَاطٍ طَبِيعِيٍّ مِنَ التَّكَافُلِ بَيْنَ كُلِّ فَرْدٍ مِنَ الأَفْرَادِ وَبَيْنَ الْبَقِيَّةِ ». وَلَوِ اقْتَصَرُوا عَلَى ذَلِكَ لَأَمْكَنَ التَّسْلِيمُ بِهَذَا الْمَذْهَبِ إِذْ لَا ضَرَرَ فِيهِ ، وَلِأَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ بِحَقِيقَةٍ لَا تَخْفَى عَلَى عَامَّةِ النَّاسِ غَيْرَ أَنَّ فِي الأَمْرِ شَيْئاً آخَرَ يَنْبَغِي التَّحَرُّزُ مِنْهُ ،ذَلِكَ أَنَّ الْقَائِلِينَ بِهَذَا الْمَذْهَبِ يُرِيدُونَ أَنْ يَجْعَلُوهُ الْمَرْجِعَ الأَصْلِيَّ فِي الْمَسْأَلَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ بِتَمَامِهَا وَيَرَوْنَ أَنَّهُ الْوَسِيلَةُ فِي حَلِّ مُشْكِلَاتِهَا وَمَدَارُ بَحْثِهِمْ كُلِّهِ عَلَى الْمَسْأَلَةِ الآتِيَةِ: هَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْفَرْدُ تَابِعاً لِلْكُلِّ أَوِ الْكُلُّ لِلْوَاحِدِ؟ وَهُمْ يُجِيبُونَ بِأَنَّ الصَّوَابَ تَتَبُّعُ الْوَاحِدِ لِلْكُلِّ، وَعَلَيْهِ فَالْمَوْضُوعُ لَيْسَ بَسِيطاً وَلَكِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّنْقِيبِ .

وَأَكْبَرُ دَلِيلٍ — فِي رَأْيِ مُوسْيُو « بورجوا » — عَلَى صِحَّةِ الْمَذْهَبِ هُوَ قَوْلُهُ إِنَّ الرَّجُلَ تَابِعٌ لِلْجَمْعِيَّةِ لِأَنَّهُ مَدِينٌ لَهَا ،وَلَيْسَ هُوَ مَدِيناً لِمُعَاصِرِيهِ فَقَطْ ، بَلْ « يُولَدُ مَدِيناً لِلنَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ بِأَكْمَلِهِ »، وَمِنْهُ الأَجْيَالُ الْمَاضِيَةُ ، « لِأَنَّهُ يَأْخُذُ حَظَّهُ مِمَّا تَرَكَ آبَاؤُهُ وَآبَاءُ الآخَرِينَ »

وَيَرى المُتَأَمِّلُ مِنْ إيرادِ هَذَا الدَّليلِ عَلى هذهِ الصُّورَةِ أَنَّهُ يَسْهُلُ عَلى صاحِبِهِ إطَالَةُ الشَّرْحِ فِيهِ ، كما يَعْلَمُ أَنَّ مِنَ السَّهْلِ نَحْلَ طَرِيقَتِهِ لِلرَّدِّ عَلَيْهِ . قالَ : « يَتَبادَلُ النَّاسُ المَنافِعَ وَهُمْ أَحْياءٌ » فَهُمْ حِينَئِذٍ مُتَكافِلُونَ .

وَقَدْ يُجَابُ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ بِأَنَّهُ قَوْلٌ صَحِيحٌ ، وَبأَنَّ النَّاسَ يَتَبادَلُونَ أَيْضاً أَحْقاداً ، وَبَعْضُهُمْ مَعَ الْبَعْضِ الْآخَرِ يَتَنافَسُونَ! فَلَيْسُوا حِينَئِذٍ مُتَكافِلِينَ .

قالَ : « إذَا وُلِدَ الْإِنْسَانُ رَأَيْتَهُ يَتَمَتَّعُ بِرَأْسِ مَالٍ عَظِيمٍ جَمَعَتْهُ الْأَجْيالُ المَاضِيَةُ » فَهُوَ حِينَئِذٍ مَدِينٌ .

وَيُقالُ فِي الجَوابِ: نَعَم! وَلَكِنَّهُمْ أَيْضاً أَضْعَفُوا قُوَّةَ الْعَمَلِ الذَّاتِيِّ لأَنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا مِنَ الْأَرْضِ إلاَّ يَسِيراً لَمْ يَسْتَغِلُّوهُ فَصَيَّرُوا التَّنَازُعَ فِي الحَياةِ عَنِيفاً ؛ لِذَلِكَ يَكُونُ الْفَرْدُ مِنَ الدَّائِنِينَ .

وَهَكَذَا يَسْهُلُ الاسْتِرْسَالُ فِي هَذَا الْبَحْثِ عَلى هَذَا النَّحْوِ وَالمَوْضُوعُ وَاقِفٌ عِنْدَ الحَدِّ الْأَوَّلِ ! وَتَكُونُ النَّتِيجَةُ لَعِباً بَيْنَ مُتَناظِرَيْنِ يَنْتَهِي بِاعْتِقادِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُما أَنَّهُ أَلْزَمَ خَصْمَهُ الْحُجَّةَ وَأَسْكَتَهُ بِقُوَّةِ الْبُرْهَانِ .

وَالحَقِيقَةُ أَنَّ بَيْنَ النَّاسِ مَنافِعَ مُشْتَرَكَةً وَأُخْرَى مُتَناقِضَةً فَهُمْ لِلاجْتِماعِ دَائِنُونَ وَمَدِينُونَ ، وَهُنَا عُقْدَةُ الْإِشْكالِ ! إلاَّ أَنَّ مُوسْيُو « بورجوا » قَدْ سَهَّلَ لَنا حَلَّها بِرِسَالَتِهِ .

وَلْنَجْعَلْ مَبْدَأَ بَحْثِنَا ذَلِكَ الدَّلِيلَ الَّذِى اخْتَارَهُ دُونَ غَيْرِهِ وَرَدَّدَهُ مِرَارًا وَجَعَلَهُ الْعِمَادَ الْأَوَّلَ فِى تَفْضِيلِ الْكُلِّ عَلَى الْوَاحِدِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ: « يُولَدُ الْمَرْءُ مَدِينًا لِلْهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فَيَأْخُذُ حَظَّهُ مِمَّا تَرَكَ آبَاؤُهُ وَآبَاءُ الآخَرِينَ ، حَتَّى إِنَّ أَحْقَرَ الصُّنَّاعِ فِى زَمَنِنَا هَذَا لَيَفْضُلُ مُتَوَحِّشَ الْأَزْمَانِ الْقَدِيمَةِ بِمِقْدَارِ مَا بَيْنَهُ هُوَ مِنَ التَّفَاوُتِ وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ نَوَابِغِ عَصْرِهِ » إِلَى أَنْ قَالَ :

« وَمَا تَارِيخُ الإِنْسَانِيَّةِ إِلاَّ عِبَارَةٌ عَنْ تَارِيخِ مَا تَحَمَّلَهُ النَّوْعُ الإِنْسَانِىُّ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْخَسَائِرِ الَّتِى لاَ يُحْصَى عَدَدُهَا وَلاَ يُمْكِنُ تَقْدِيرُ أَهَمِّيَّتِهَا حَتَّى وَصَلَ بِعَقْلِهِ وَقُوَّةِ إِرَادَتِهِ إِلَى إِدْرَاكِ مَا أُودِعَ فِى الْكَوْنِ مِنَ الْعَنَاصِرِ وَالْقُوَى وَتَمَكَّنَ مِنْ إِخْضَاعِ الْجَمِيعِ لِسُلْطَانِهِ وَاسْتِعْمَالِهَا فِى مَنْفَعَتِهِ ، لِيَجِدَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ يَوْمَ يُوجَدُ وَسَطًا يَسْهُلُ عَلَيْهِ فِيهِ تَرْبِيَةُ مَلَكَاتِهِ وَإِنْمَاءُ مَا اخْتُصَّ بِهِ مِنَ الْقُوَى بِحُرِّيَّةٍ أَوْفَى وَأَكْبَرَ ، أَىْ لِتَكُونَ الإِنْسَانِيَّةُ أَحْسَنَ فِى الْحَالِ وَالاسْتِقْبَالِ مِنْهَا فِى الْمَاضِى وَإِلَى رَاحَةِ الْأَجْسَامِ أَقْرَبَ وَإِلَى دَعَةِ الْأَفْكَارِ أَلْزَمَ وَإِلَى اطْمِئْنَانِ الضَّمَائِرِ أَوْجَبَ » .

ذَلِكَ أَمْرٌ لاَ شَكَّ فِيهِ ؛ فَالرَّجُلُ مَدِينٌ لِلْهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ مِنَ التَّرَقِّى وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ فَضْلُهُ الْحَالِىُّ عَلَى مُتَوَحِّشِ الْقُرُونِ الْأُولَى . غَيْرَ أَنَّ الْبَحْثَ الْوَحِيدَ الْمُهِمَّ الَّذِى يَنْبَغِى الْخَوْضُ

فِيهِ هُوَ مَعْرِفَةَ كَيْفَ حَصَلَ هَذَا التَّرَقِّى فِى الْهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ: هَلْ كَانَ فِى حصُولِهِ الْكُلُّ خَاضِعاً لِلْفَرْدِ؟ أَوِ الفَرْدُ تَابِعاً لِلْكُلِّ كَما يَشَاءُ مُوسيُو بورجوا. وَبعِبَارَةٍ أُخْرَى هَلِ الّذِى أَوْجَبَ ذَلِكَ التَّرَقِّىَ الَّذِى صَيَّرَ فى رَأْيِهِم الْوَاحِدَ مَدِيناً لِلْكُلِّ هُوَ عَمَلُ الْجَمْعِ أَوْ عَمَلُ الْأَفْرَادِ؟ وَبِعِبَارَةٍ أَوْضَحَ: هَلْ هُوَ مِنْ عَمَلِ الْجَمْعِيَّاتِ الَّتِى كَانَتِ السُّلْطَةُ فِيهَا فَوْقَ كلِّ شَىْءٍ أَوْ مِنْ عَمَلِ الجَمْعِيَّاتِ الّتِى كَانَ كلُّ فَرْدٍ حُرًّا فِيهَا يَجْرِى وَرَاءَ مَصَالِحِهِ كَمَا يَشَاءُ؟ لِأَنَّهُ لَا يَتَأَتَّى لَهُمْ بِالطَّبْعِ أَنْ يَبْنُوا مَذْهَبَهُمْ عَلَى مَاحَصَلَ مِنَ التَّرَقِّى وَلَا يَلْتَفِتُوا إِلَى كَيْفِيَّةِ حُصُولِهِ وَطَرِيقَةِ اكْتِسَابِهِ

وَإِذَا تَمَهَّدَ هَذَا سَهُلَ عَلَيْنَا الْبَحْثُ في مَوْضُوعِنَا:

مِنَ الْحَقَائِقِ الَّتِى يَعْرِفُهَا كلُّ وَاحِدٍ أَنَّ الْأُمَمَ الْحَالِيَّةَ سَاعَدَتْ عَلى نُمُوِّ التَّقَدُّمِ أَكْثَرَ مِنَ الْأُمَمِ المَاضِيَةِ وَأَنَّ الْأُمَمَ الْغَرْبِيَّةَ تَفْضُلُ فى ذَلِكَ الامَمَ الشَّرْقِيَّةَ ، وَمِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الْأُمَمَ الْحَالِيَّةَ وَالْأُمَمَ الْغَرْبِيَّةَ إِنَّمَا فَضَلَتْ غَيْرَهَا بِتَغَلُّبِ الْعَمَلِ الشَّخْصِيِّ عَلى الْعَمَلِ الْعَامِّ ، أَىْ بِقُوَّةِ اسْتِقْلَالِ الْفَرْدِ أَمَامَ الْكلِّ ، فَكلَّمَا انْتَقَلْنَا مِنَ المَاضِى إِلَى الْمُسْتَقْبَلِ وَسِرْنَا مِنَ الشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ نُشَاهِدُ شَخْصِيَّةَ الْأَفْرَادِ تَعْظُمُ شَيْئاً فَشَيْئاً وَأَنَّ الْوَاحِدَ يَسْتَقِلُّ عَنِ الهَيْئَةِ وَيَسْتَأْثِرُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَعْمَالِ

دُونَ الْبَقِيَّةِ وَأَنَّ الْعَمَلَ أَصْبَحَ حُرًّا بعْدَ أَنْ كَانَ مُقَيَّدًا، وَأَضْحَى ذَاتِيًّا[1] بعْدَ أَنْ كانَ كُلِيًّا، كَمَا انْتَقَلَتْ المِلْكِيَّةُ مِنْ يَدِ الجَمْعِ وَتَقَسَّمَتْ عَلى الْأَفْرَادِ. فَبَطَلَتْ صَوْلَةُ الْقَبِيلَةِ عَلى كلّ وَاحِدٍ مِنْ أَعْضَائِهَا، وَبَادَتْ أَثَرَةُ الطَّوَائِفِ دُونَ أَفْرَادِهَا وَتَسَاوَى كُلٌّ بِأَخِيهِ مَدَنِيًّا وَسِيَاسِيًّا وَتَبَدَّلَتِ الحُكُومَاتُ مِنْ مَلَكِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ أَوْ جُمْهُورِيَّةٍ مُسْتَبِدَّةٍ إِلَى مَلَكِيَّةٍ أَوْ جُمْهُورِيَّةٍ حُرَّةٍ نِيَابِيَّةٍ.

وَبِالْجُمْلَةِ نُشَاهِدُ التَّقَدُّمَ الاِجْتِمَاعِيَّ يَسِيرُ خَلفَ اسْتِقْلَالِ الْأَفْرَادِ تُجَاهَ[2] الحُكُومَاتِ. وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى أُمَمِ الْغَرْبِ وَحْدَهَا رَأَيْنَا أَنَّ الَّتِى تَفُوقُ غَيْرَهَا مِنْهَا فِى التَّقَدُّمِ وَسُرْعَةِ التَّرَقِّى وَالثَّرْوَةِ وَالاِنْتِشَارِ هِيَ الَّتِى يَعظُمُ فِيهَا قدْرُ الْوَاحِدِ وَيتَأَيَّدُ اسْتِقْلَالُهُ الذَّاتِيُّ، ذَلِكَ كُلُّهُ وَاضِحٌ مُحَسٌّ فَلَا أُطِيلُ الشَّرْحَ فيهِ.

عَلى أَنَّ مُوسْيُو (بورجوا) لَا يُخَالِفُ فى الْحَقِيقَةِ مَا أَقُولُ، وَلَمْ يَفُتْهُ مَا فِى مَذْهَبِهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالْفَسَادِ وَإِنْ بَنَاهُ عَلى ظَاهِرٍ خَدَّاعٍ قَدْ تَفُوتُ مَضَارُّهُ عَلى غَيْرِ النَّاقِدِينَ، بَلْ عَرَفَ يَقِينًا أَنَّهُ يُؤَدِّى إِلَى إِمَاتَةِ رُوحِ العَمَلِ فِى الأَفْرَادِ وَسَدِّ بَابِ التَّقَدُّمِ الَّذِى هُوَ مَدَارُ مَذْهَبِهِ. لِذَلِكَ أَخَذَ يَتقَدَّمُ بِالرَّدِّ عَلى مَا خَشِيَ الاعْتِرَاضَ بِهِ عَلَيْهِ فَقَالَ (لَقَدْ عَرَفَ الْكُلُّ فِى تَارِيخِ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ

(١) فردياً (٢) تجاه بضم التاء وكسرها أى تلقاء

أَنَّ السَّبَبَ الأَصْلِيَّ فِى التَّرَقِّى تَزَاحُمُ الأَفْرَادِ عَلى اسْتِقْلالِهِمْ ، وَأَنَّ الأُمَّةَ لا تَتجِهُ نَحْوَ التَّقَدُّمِ إِلاّ إِذَا نَشِطَ الْوَاحِدُ مِنْ قُيودِهِ وَتَيَسَّرَ لَهُ اسْتِعْمَالُ مَا اخْتُصَّ بِهِ مِنَ المَلَكَاتِ وَالمَزَايَا ، وَأَنّهُ بِقَدْرِ تَقَدُّمِ الأَفْرَادِ في اسْتِقْلالِهِمْ وَنُمُوِّ حَرَكَاتِهِم الْجِسْمِيَّةِ وَالنَّفْسِيَّةِ الّتى هِىَ قِوَامُ كلِّ حَرَكَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ يَكُونَ تَقَدُّمُ الْهَيْئَةِ بِتَمَامِهَا وَيَعظُمُ عَمَلُهَا فى سَبِيلِ التَّرَقِّى وَالنَّجاحِ » .

وَذَلِكَ أَبْلَغُ مَا يُقَالُ ؛ غَيْرَ أَنَّ المُؤَلِّفَ بَعْدَ أَنْ فَرَغَ مِنْ هَذَا التَّحْقِيقِ جَعَلَ يَتَأَوَّلُهُ وَيَتَدَحْرَجُ فِيهِ حَتَّى أَرْجَعَهُ إِلَى مَذْهَبِهِ كَىْ لا تُتْرَكَ قُوَى الأَفْرَادِ لِلأفْرَادِ ، فَقَالَ : « وَاجْتِمَاعُ قُوَى الأَفْرَادِ تَحْتَ لِوَاءٍ وَاحِدٍ — قَهْرًا فِى أَزْمِنَةِ الاسْتِبْدَادِ أو اخْتِيَارًا فى أَعْصُرِ الْحُكُومَاتِ الْحُرَّةِ — هُوَ الّذِى أَيَّدَ بَقَاءَ الْمُجْتَمَعَاتِ الإِنْسَانيَّةِ وَحَفِظَهَا مِنَ الشَّتَاتِ وَهِىَ الْعَائِلَةُ وَالْقَبِيلَةُ وَالمَدِينَةُ وَالشَّعْبُ وَالدِّينُ وَالأُمَّةُ » . وعَلَيْهِ فَأَرْقَى نِظَامٍ فِى الْوُجُودِ هُوَ « الذى تَحْصُلُ بِهِ المُوَازَنَةُ بيْنَ الأَفْرَادِ وَالْكلِّ حَتَّى يَعِيشَ الْكلُّ لِلْوَاحِدِ وَيَعِيشَ الْوَاحِدُ لِلْكلِّ وَيُصْبِحَ هَذَانِ المُؤَثِّرَانِ مُتَلازِمَيْنِ بَعْدَ أَنْ ظَنَّهُمَا النَّاسُ نَقِيضَيْنِ زَمَنًا مَدِيداً ، أَلاَ وَهُمَا تَقَدُّمُ كلِّ فَرْدٍ فى حَيَاتِهِ وَتَقَدُّمُ الأُمَّةِ فِى حَيَاتِهَا » . وَمَزْجُ النِّظَامَيْنِ الْفَرْدِىِّ وَالْكلِّىِّ عَلى هَذَا النَّحْوِ يَأْخُذُ بِالأَفْكَارِ عِلْمًا وَيَدُلُّ صَرَاحَةً عَلى أَنَّ الْمؤَلِّفَ يُرِيدُ أَنْ يُرْضِىَ الْجَمِيعَ ؛ لَكِنْ مَنْ ذَا الّذِى يُبَيِّنُ لَنَا

مِقْدَارَ مَا يَجِبُ مِنْ كلِّ عُنْصُرٍ فِى هَذَا الْمَزِيجِ ؟ وَمَنِ الَّذِى يَتَوَلَّى أَمْرَ الْمَزْجِ بَيْنَ الْعُنْصُرَيْنِ ؟ وهَلْ يُوجَدُ مَنْ يَتَسَنَّى لَهُ هَذَا الْمَزْجُ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ عِلْمَ تَحْلِيلِ الْهَيْئَاتِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ أَكْثَرُ تَعْقِيداًوأَكْبَرُ اسْتِعْصَاءً مِنْ عِلْمِ تَحْلِيلِ الْأَجْرَامِ ؟

لَمْ يَفُتْ ذَلِكَ مُوسْيُو بورجوا فعقَدَ لَهُ فَصْلاً مَخْصُوصاً عُنْوَانُهُ « تَطْبِيقُ مَذْهَبِ التَّكَافُلِ الاجْتِمَاعِىِّ عَمَلاً » إِلَيْكَ أَهَمَّ حَدِيثِهِ فِيهِ:

يَجِبُ فِى التَّأْلِيفِ بَيْنَ الْعُنْصُرَيْنِ أَنْ يُلْتَفَتَ إِلَى طَبِيعَةِ الاِجْتِمَاعِ وَغَايَتِهِ وَالظُّرُوفِ الَّتِى تَكْتَنِفُ كلَّ فَرْدٍ يَوْمَ يَنْضَمُّ إِلَيْهِ ، وَحَظِّهِ مِنْهُ وَوَاجِبِهِ فِيهِ . وَبِالْجُمْلَةِ يَنْبَغِى أَنْ يُقَابَلَ بَيْنَ مَزَايَا الاِجْتِمَاعِ وَمَتَاعِبِهِ بِالنَّظَرِ إِلَى كلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِهِ ،حَتَّى يَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ مَالَهُ مِنَ الْحُقُوقِ وَمَا عَلَيْهِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ .

« وَلَيْسَ لِشَارِعِ [١] الأُمَّةِ أَنْ يَكُونَ هُوَ مُفَرِّقَ الْحُظُوظِ وَالْمَتَاعِبِ فِى الاِجْتِمَاعِ ، فَلَنْ يَكُونَ مِنْ وَظِيفَتِهِ إِيجَادُ الْحُقُوقِ بَيْنَ النَّاسِ، بَلْ تَنْحَصِرُ وَاجِبَاتُهُ فِى انْتِزَاعِهَا مِنْ مُلاَحَظَةِ رَوَابِطِهِمْ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ بَيَانِهَا وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِهَا . وَمَتَى تَبَيَّنَ النِّسْبَةَ الْكَائِنَةَ بَيْنَ عَنَاصِرِ الْهَيْئَةِ الاِجْتِمَاعِيَّةِ وَضَحَتْ لَهُ النِّسَبُ الَّتِى تُوجَدُ بَيْنَ ضَمَائِرِ الْمُجْتَمِعِينَ وَمَشَاعِرِهِمْ فَيُقَرِّرُهَا .

(١) هو المشرع والمشترع

وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ شَرْعُهُ قَانُونًا سَنَّتْهُ الْهَيْئَةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ وَأَلْزَمَتِ الْأَفْرَادَ اتِّبَاعَهُ إِلْزَامًا بَلْ يَكُونُ ذَلِكَ الْقَانُونُ عِبَارَةً عَنِ النَّامُوسِ[١] الطَّبِيعِيِّ لِلْهَيْئَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الْوَاجِبِ الْعَمَلُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ .

وَيَرَى الْقَارِئُ أَنَّ مُوسْيُو بورجوا عَلَى رَجَاءٍ مِنْ وُصُولِ النَّاسِ — بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ — إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الِاسْتِنَارَةِ وَالْعِرْفَانِ وَالْحِكْمَةِ تُمَكِّنُهُمْ مِنَ الِاتِّفَاقِ عَلَى عَقْدٍ اجْتِمَاعِيٍّ يَصِيرُونَ بِمُقْتَضَاهُ شَرِكَةً اخْتِيَارِيَّةً يَسْهُلُ عَلَيْهِمْ فِيهَا « الْجَمْعُ بَيْنَ الْقُوَى الْمُتَنَاقِضَةِ وَتَحْوِيلُهَا كُلِّهَا إِلَى مُؤَثِّرَاتٍ مُفِيدَةٍ لِكُلِّ فَرْدٍ وَلِلْمَجْمُوعِ ، وَأَنْ يُقِيمُوا عَلَى أَطْلَالِ التَّنَافُسِ وَالْخِصَامِ وَدَوَارِسِ[٢] السُّلْطَةِ الْقَهْرِيَّةِ وَالِاسْتِبْدَادِ بِنَاءَ هَيْئَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ عِمَادُهَا السَّلَامُ وَقِوَامُهَا التَّرَاضِي وَالِاخْتِيَارُ » .

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا مَطْمَحٌ لَا يَرْمِي إِلَيْهِ إِلَّا حَكِيمٌ حَكِيمٌ[٣] ، وَهُوَ الْغَرَضُ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَقْصِدَهُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي خُطَاهَا وَهُوَ الَّذِي يُمْكِنُهَا أَنْ تَسِيرَ إِلَيْهِ ، إِلَّا أَنَّهُ يَصْعُبُ عَلَيْنَا أَنْ نَمْشِيَ مَعَ الْمُؤَلِّفِ هَذَا الشَّوْطَ الْبَعِيدَ ، كَمَا يَصْعُبُ عَلَيْنَا أَنْ نُوَافِقَهُ عَلَى أَنَّ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي وَضَعَهَا تُؤَدِّي إِلَى النَّتِيجَةِ الْمَذْكُورَةِ . فَقَدْ دَلَّنَا عَلَى وُجُودِ قُوَّتَيْنِ فِي الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَهُمَا قُوَّةُ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهَا وَقُوَّةُ الْهَيْئَةِ

(١) يريد القانون (٢) يريد ما درس منها وعفا واندثر (٣) يريد حكيما متمكناً راسخاً

المُجْتَمِعَةَ وَاعْتَرَفَ بِأَنَّ التَّقَدُّمَ الَّذِى وَصَلَتْ إِلَيْهِ رَاجِعٌ إِلَى الأُولَى مِنْهُمَا ، ثُمَّ اسْتَنْتَجَ مع هَذَا وُجُوبَ إِنْمَاءِ الثَّانِيَةِ وَجَعْلِهَا مَحَلَّ الرَّجَاءِ فى « الْوُصُولِ إِلَى هَيْئَةٍ جَدِيدَةٍ عِمَادُهَا السَّلاَمُ وَقِوَامُهَا التَّرَاضِى وَالِاخْتِيَارِ » .

وَإِنِّي لاَ أُخْطِئُ كَثِيرًا إِذَا قُلْتُ بِأَنَّ هَذَا التَّنَاقُضَ مَقْصُودٌ ، فَإِنَّ مُوسْيُو « بورجوا » رَجُلٌ سِيَاسِيٌّ أَوَّلاً وَبِالذَّاتِ ، وَشُغْلُهُ الشَّاغِلُ قَبْلَ كُلِّ شَىْءٍ تَأْلِيفُ حِزْبٍ يَكُونُ لَهُ نَصِيرًا ، ثُمَّ الْعَمَلُ عَلَى دَوَامِ هَذَا الحِزْبِ وَانْتِشَارِهِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْإِمْكَانُ ، وَهُوَ يَخْشَى أَنْ يُنَفِّرَ مُحَازِبِيهِ إِنْ قَالَ لَهُمْ : إِنَّ الحَيَاةَ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ لَيْسَتْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَإِنَّمَا هِىَ مُغَالَبَةٌ دَائِمَةٌ ضِدَّ مَتَاعِبَ لاَ تُحْصَى مُتَجَدِّدَةٍ فى كُلِّ آنٍ وَلَنْ تَنَالُوا الظَّفَرَ فى هَذَا الجِهَادِ إِلاَّ إِذَا جَعَلْتُمْ كُلَّ اعْتِمَادِكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ لاَ عَلَى غَيْرِكُمْ . إِذْ كُلُّ مَا يُمْكِنُ لِأَهْلِيكُمْ وَأَصْدِقَائِكُمْ وَجِيرَانِكُمْ وَحُكُومَتِكُمْ أَنْ يُسَاعِدُوكُمْ بِهِ أَقَلُّ فى الحَقِيقَةِ بِكَثِيرٍ مِمَّا يُمْكِنُكُمْ أَنْ تُسَاعِدُوا بِهِ أَنْفُسَكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ إِذَا عَوَّلْتُمْ عَلَيْهَا وَلَمْ تَرْجِعُوا فى أُمُورِكُمْ إِلاَّ إِلَيْهَا . لِأَنَّهُ مِنَ الْمُسَلَّمِ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الخِطَابِ إِنَّمَا يُؤَثِّرُ فى عُقُولِ الْمُسْتَنِيرِينَ وَلاَ يَأْخُذُ إِلاَّ بِقُلُوبِ الَّذِينَ سَمَتْ مَدَارِكُهُمْ وَكَانُوا قَوْمًا عَارِفِينَ ، وَلَكِنَّهُ لاَ يَجْذِبُ الْجَمَاهِيرَ خُصُوصًا مَنْ أَسْلَمُوا أَمْرَهُمْ إِلَى أَهْلِ السِّيَاسَةِ وَوَقَفُوا حَظَّهُمْ فى الحَيَاةِ عَلَى

مَا يَعمَلُونَ . ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لاَ يَطْلُبُونَ نَصِيبَهُمْ فى الْوُجُودِ إِلاَّ مِنَ الْحُكُومَةِ ، وَلاَ يَرْجُونَ مزِيَّةً إلاَّ مِنَ الهَيْئَةِ بتَمامِهَا . وَمِثْلُ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ يَسْهُلُ اكْتِسَابُ قُلُوبِهِمْ إِذَا وُعِدُوا صَلاَحَ أُمُورِهِمْ بِوَاسِطَةِ ذَلِكَ التَّكَافُلِ لِأَنَّهُ صِيغَةٌ مُبْهَمَةٌ بَسِيطَةٌ يَقبَلُهَا النَّاسُ بِالسُّهُولَةِ وَلاَ تَضِيقُ عَلَى أَحَدٍ وَلاَ تُوجِبُ شَيْئاً مِنَ المَتَاعِبِ وَلاَ تَسْتَلْزِمُ مَعَ ذَلِكَ تَغْيِيرَ شَيْءٍ مِمَّا يَجْرِى عَلَيْهِ النَّاسُ فى الحَيَاةِ الآنَ . وَهِيَ دَعْوَةٌ تَلَذُّهَا عَامَّةُ النَّاسِ الَّذِينَ لاَ يُطْلَبُ مِنْهُمْ عَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ وَهُمْ يَطْلُبُونَ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَتَلَذُّهَا أَيضًا رِجَالُ السِّيَاسَةِ وَالْمُشْتَغِلُونَ بِالمَسَائِلِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْحُكَمَاءِ وَمُحِبُّو الْإِنْسَانِيَّةِ الَّذِينَ لاَ يَتَكَلَّفُونَ مِنَ الْقَوْلِ إلاَّ يَسِيراً لِيَظْهَرُوا أَمَامَ النَّاسِ فى ثَوْبِ قَوْمٍ عَرَفُوا مَتَاعِبَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَكَانُوا بِهَا مُشْفِقِينَ .

نَعَمْ يَكْفِي ذَلِكَ تَأْلِيفَ الْأَحْزَابِ وَجَمْعَ النُّصَرَاءِ ، وَلَكِنَّهُ لاَ يَكْفِي النُّهُوضَ بِالْإِنْسَانِيَّةِ نَحْوَ كَمَالِهَا ، بَلْ إِنَّهُ يَزِيدُ في سُوءِ حَالِهَا ، لِأَنَّ التَّكَافُلَ أَمْرٌ وَهْمِيٌّ أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ حَقِيقِيٌّ . وَإِلَيْكَ الْبَيَانَ بِالْإِيجَازِ .

أَوَّلاً — مُجَرَّدُ النِّدَاءِ بِأَنَّ النَّاسَ كُفَلاَءُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، وَأَنَّ مُسَاعَدَةَ الْبَعْضِ لِلْبَعْضِ وَاجِبَةٌ لاَ يَكْفِي إِيجَادَ التَّكَافُلِ أَوْ إِحْكَامَ

رَوَابِطِهِ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّمَا مَيْلُ الْأَفْرَادِ إِلَى الاعْتِمَادِ عَلَى الْجَمْعِ أَوْ جَعْلِ الْفَرْدِ تَابِعًا لِلْكُلِّ يَتَوَلَّدُ فِى الْهَيْئَاتِ الاجْتِمَاعِيَّةِ بِمُقْتَضَى نَوَامِيسَ مُقَرَّرَةٍ يُرْشِدُ إِلَيْهَا التَّأَمُّلُ فِى الْوُجُودِ وَيَعْرِفُهَا قُرَّاؤُنَا . فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ تِلْكَ النَّوَامِيسُ تَوَلَّدَ هَذَا الْمَيْلُ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إِلَى النِّدَاءِ بِهِ أَوِ الْإِرْشَادِ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ يَحْدُثُ بِانْتِظَامٍ كَمَا تَتَوَلَّدُ جَمِيعُ الْحَوَادِثِ الطَّبِيعِيَّةِ . فَإِذَا أَرَدْنَا إِنْمَاءَهُ وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ الظُّرُوفَ وَالْحَوَادِثَ الَّتِى اسْتَلْزَمَتْ وُجُودَهُ .

وَهُنَا يَظْهَرُ مَا فِى مَذْهَبِ التَّكَافُلِ مِنَ الْوَهْمِ وَالْخَيَالِ ؛ إِذْ لِسُوءِ الْحَظِّ كُلَّمَا قَوِىَ هَذَا الْمَيْلُ اشْتَدَّتْ تَابِعِيَّةُ الْوَاحِدِ لِلْكُلِّ وَتَأَصَّلَتْ عِنْدَهُ عَادَةُ الرُّكُونِ إِلَيْهِ ، وَقَلَّ اعْتِمَادُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَصَارَ أَعْزَلَ[1] أَمَامَ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ لِمَا يَعْتَرِيهِ مِنْ فُتُورِ الْهِمَّةِ وَضَعْفِ الْإِرَادَةِ وَسُقُوطِ الْعَزِيمَةِ عَنِ الْعَمَلِ . وَمَا لِتَأَخُّرِ الشَّرْقِ عَنِ الْغَرْبِ سَبَبٌ غَيْرُ هَذَا .

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَحْفَظَ التَّوَازُنَ بَيْنَ الْوَاحِدِ وَالْكُلِّ عَلَى الدَّوَامِ لَزِمَنَا الْقَوْلُ بِوُجُوبِ زِيَادَةِ اعْتِنَاءِ الْكُلِّ وَمُضَاعَفَةِ سَهَرِهِ عَلَى قَدْرِ مَا يَعْتَرِى الْوَاحِدَ فِى ذَلِكَ الْوَسَطِ مِنَ الْخُمُولِ وَالانْحِطَاطِ . وَمِنْ نَكَدِ الطَّالِعِ أَنَّ الْعَكْسَ هُوَ الْوَاقِعُ ! وَهُوَ مَعْقُولٌ ، لِأَنَّ ذَلِكَ الْكُلَّ

(١) الأعزل: الذى لا سلاح له

الَّذى يُحْتاجُ إليهِ فى الاسْتِعانةِ على ضَعْفِ الوَاحِدِ إنَّمَا يَتَأَلَّفُ مِنْ مَجْمُوعِ أُولَئِكَ الضُّعَفاءِ ، فطَبِيعَتُهُ مِنْ طَبِيعَتِهِمْ . وَالَّذِى يُضْعِفُ الفَرْدَ وَيَجْعَلُهُ مُفْتَقِرًا إلَى غَيْرِهِ يُضْعِفُ الْكُلَّ وَيُعْوِزُهُ . وَمَعْنَاهُ أَنَّ التَّكافُلَ يَزْدادُ ضَعْفاً بقَدْرِ اشْتِدَادِ الحاجَةِ إليْهِ . وَإِنِّى أَسْأَلُ الْقُرَّاءَ عَفْوًا عَنْ تقْرِيرِ هَذِهِ الحقَائِقِ الَّتى هِيَ فى الْوَاقِعِ بَدِيهِيَّاتٌ .

وَعَلَيْهِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ هذَا المَذْهَبَ مَعِيبٌ مِنْ جِهَتَيْنِ : أَوَّلاً لِأَنَّهُ يُوَلِّدُ فى الْأُمَّةِ أَفْرادًا لا أَهْلِيَّةَ لَهُمْ فى شَيْءٍ مِنَ الْأَعْمالِ وَيُسَاعِدُ عَلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ شَيْئًا فَشَيْئًا ، وَثَانِياً لِأَنَّ الأُمَّةَ تَضْعُفُ عَنْ مُسَاعَدَتِهِمْ كُلَّمَا كَثُرَ عَدَدُهُمْ .

مَا مُسَاعَدَةُ الْهَيْئَةِ لِلأَفْرَادِ إلَّا وَسِيلَةٌ عَرَضِيَّةٌ وَقْتِيَّةٌ تَحْصُلُ بِطَرِيقِ الِاسْتِثْنَاءِ عِنْدَ اشْتِدَادِ الضَّنْكِ(١) بِبَعْضِ النَّاسِ ، فَلَيْسَتْ دَوَاءً يَشْفِي الْعِلَّةَ بَلْ هِيَ مُسَكِّنٌ كالمُخَدِّرَاتِ تُهَدِّئُ سَوْرَةَ(٢) الأَلَمِ حِيناً لَكِنَّهَا لا تُنِيمُ الأَلَمَ إلَّا إذَا أَنَامَتْ المَرِيضَ .

كَذَلِكَ يُحْتَاجُ فِي تَطْبِيقِ مَذْهَبِ التَّكافُلِ عَمَلاً إلى اتِّفَاقِ جَمِيعِ الأفْرَادِ عَلى قَبُولِهِ ، أَىْ إلى تَحْرِيرِ ذَلِكَ العَقْدِ الاجْتِماعِيِّ الَّذِى يَنْشُدُهُ(٣) مُوسْيُو بُورجوا وَيَحْصُرُ آمَالَهُ فِيهِ . أَمَّا إذَا اعْتَضْنَا عَنْ عَمَلِ الْكُلِّ بِعَمَلِ كُلِّ فَرْدٍ فَإنَّا نَفْتَحُ لِكُلِّ وَاحِدٍ سَبِيلَ نَجَاةِ الْهَيْئَةِ الاجْتِماعِيَّةِ

(١) الضنك : الضيق من كل شيء ، يقال مكان ضنك وعيشة ضنك (٢) السورة : الحدة
(٣) يطلبه

بتمامها ، كما أنّ الدين يفتح لكلّ فرد باب سلامته الأبدية. فالواقع أنّ الحياة الاجتماعية كالحياة الأبدية كلاهما متعلق بالأفراد لا بالمجموع ، وعلى كلّ امرئ أن يتخيّر السبيل الذى يوصّله إلى نجاته بنفسه كما يتخيّر التربية التى تجعل أبناءه قادرين على الحياة بأحسن الطرق والوسائل . وكلما تشبعت الأفكار بأنّ قيام المجتمع الإنسانيّ متوقف على عمل كلّ فرد أحسّ كلّ واحد منهم بوجوب التعويل على نفسه دون غيره ومال إلى استعمال ما أوتيه من الهمة والإرادة والاجتهاد .

ربّ معترض يقول : أنا مقيم حبّ الذات مقام مذهب عليه صلاح الإنسانية وفيه نجاتها ؟ وهو اعتراض فخم الألفاظ يخاف منه أناس كثيرون ، لذلك وجب أن نفصح القول لنعلم إن كان حبّ الذات فيما نقول أو فى المذهب الذى يقول به غيرنا .

قلت إنّ مذهب التكافل خيالىّ وأزيد عليه ، ولا أخشى معارضاً ، أنّه صورة من صور حبّ الذات المخجل ، حتى إنى كنت وضعت لهذا الفصل عنواناً آخر (هو حبّ الذات عند الغيريّين(١)) وسيتضح للقرّاء أنّ التسمية كانت صحيحة لا مجرد تلاعب بالألفاظ . ذلك لأنّه بالبحث فى التكافل نراه يشتمل على أمرين : كون المرء

(١) يريد الذين يعتمدون على غيرهم

يُسَاعِدُ غيرَهُ ، وَكَوْنه يَنْتَظِرُ الْمُسَاعَدَةَ مِنْ غَيْرِه . وَلَعَمْرى لَسْتُ أَدْرِى أَىُّ الاعْتِبَارَيْنِ يَجْذِبُ النُّفُوسَ نَحْوَ هَذَا الْمَذْهَبِ وَيَجْعَلُ النَّاسَ يَجْتَمِعُونَ حَوْلَهُ إِنْ كَانَتْ رَغْبَتُهُمْ فِى مُسَاعَدَةِ غَيْرِهِمْ ، أَوْ رَجَاءهُمُ الْمُسَاعَدَةَ مِنْ ذَلِكَ الْغَيْرِ . وَمِنَ الْمُشَاهَدِ أَنَّ الَّذِينَ يَمِيلُونَ إِلَى مُسَاعَدَةِ غَيْرِهِمْ يُؤَدُّونَ تِلْكَ الْمُسَاعَدَةَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ مُنْذُ خُلِقَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَلَمْ يَقُولُوا بِأَنَّ عَمَلَهُمْ هَذَا مَذْهَبٌ لَازِمٌ فِى الْإِنْسَانِيَّةِ وَلَمْ يَتَحَرَّوْا النِّدَاءَ بِهِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ . وَعَلَيْهِ فَمَيْلُ الْمَرْءِ إِلَى مُسَاعَدَةِ غَيْرِهِ لَيْسَ هُوَ الاعْتِبَارَ الَّذِى أَوْجَبَ انْتِشَارَ مَذْهَبِ التَّكَافُلِ الْجَدِيدِ ، وَإِنَّمَا الَّذِى أَوْجَبَ ذَلِكَ هُوَ تَصَوُّرُ الْمُسَاعَدَةِ مِنَ الْغَيْرِ حَيْثُ يُمْسِى الْوَاحِدُ رَاجِياً أَنْ تَجْعَلَ لَهُ الْحُكُومَةُ أَوِ الْأُمَّةُ رَاتِباً أَوْ تُوجِدَ لَهُ عَمَلاً أَيًّا كَانَ يَعِيشُ مِنْهُ . هَذَا هُوَ الَّذِى يَخْتَلِبُ الْأَفْكَارَ وَيَجْتَذِبُ النُّفُوسَ وَيَحْشِدُ الْجُمُوعَ حَوْلَ مَذْهَبٍ ظَاهِرُهُ التَّضَامُنُ وَالتَّكَافُلُ وَبَاطِنُهُ الْأَثَرَةُ وَحُبُّ الذَّاتِ .

إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِى يُؤَدِّى الْجِزْيَةَ إِلَى صُنْدُوقِ الْحُكُومَةِ وَالَّذِى يَتَقَاضَى الرَّاتِبَ مِنْ ذَلِكَ الصُّنْدُوقِ شَرِيكَانِ مُتَكَافِلَانِ فِى عَمَلِهِمَا ، غَيْرَ أَنَّ لِكُلٍّ وِجْهَةً فِى شَرِكَتِهِ ، فَالتَّكَافُلُ يَحْلُو لِأَحَدِهِمَا دُونَ أَخِيهِ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَرْءَ مَيَّالٌ إِلَى التَّوَظُّفِ أَكْثَرَ مِنْ مَيْلِهِ إِلَى أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخَرَاجُ وَأَقْرَبُ إِلَى اعْتِبَارِ التَّكَافُلِ

فِي مَنفعتهِ مِنَ اعْتِبَارِهِ وَاجباً عَلَيْهِ .

وَالْخُلاصَةُ أَنَّ المَرْءَ مَيَّالٌ إِلىاسْتِخْدَامِ غَيْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَيْلِهِ إِلَى خِدْمَتِهِ، وَإِنْ صَاحَ مُوسيُو بورجوا بِمَا يُخَالِفُ مَاذُكِرَ . وَإِلَيْكَ دَلِيلَيْنِ قَرِيبَيِ الْعَهْدِ مِنَّا أَخَذْنَاهُمَا مِنْ طَرِيقَةِ الِاسْتِعْمَارِ عِنْدَنَا .

الْأَوَّلُ : نَنقُلُهُ عَنْ أُسْتَاذِ الْفَلْسَفَةِ مُوسيُو « لاپِى » مِنْ رِسَالَةٍ نَشَرَهَا في مَجَلَّةِ الْفَلْسَفَةِ الْعَقْلِيَّةِ يَصِفُ فِيهَا مُعَامَلَةَ الاورُبِّيِّينَ لِلأَهَالِي فى مُسْتَعْمَرَاتِنَا. قالَ : « لَقَدْ نَشَرَ الِاسْتِبْدَادُ جَنَاحَيْهِ فِى كلِّ نَاحِيَةٍ ، وَشَمِلَتِ الْأَثَرَةُ(١) جَمِيعَ النَّاسِ بِأَشَدِّ حَالاَتِهَا ، وَصِرْنَا نشَاهِدُ أَنَّ حُكْمَ الشُّرَفَاءِ يَحْيا مِنْ جَدِيدٍ في الْمُسْتَعْمَرَاتِ حَيْثُ الأورُبِّيُّ هُوَ السَّيِّدُ الْأَمِيرُ وَالْوَطَنِيُّ هُوَ الْخَادِمُ الْحَقِيرُ ؛ حَيْثُ الْأَمِيرُ هُوَ الَّذِى يَقْضِى بَيْنَ أَتبَاعِهِ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُصَادِرُهُمْ فى مَاشِيَتِهِمْ إِنْ جَاءَتْ لِتَرْعَى فى أَرَاضِيهِ، أَوْ يُقدِّرُ الْغَرَامَةَ الَّتى تجِبُ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ حَذَا الْخُدَّامُ حَذْوَ المَخْدُومِينَ، فَمَا وُجِدَ خَادِمٌ أُورُبِّيٌّ بَيْنَ خُدَّامٍ وَطَنِيِّينَ إِلاَّ رَأَيْتَهُ أَلْقَى مَا فِى يَدِهِ مِنْ آلاَتِ الْعَمَلِ وَجَعَلَ يُصْدِرُ الْأَوَامِرَ لِلآخَرِينَ !ثُمَّ الْجُنْدِيُّ يُوحِى إلى المَدَنِيِّ طَرِيقَةَ الِاسْتِبْدَادِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ عِيشَةَ الْمُسْتَعْمَرَاتِ لاَ تُلاَئِمُ الْفَضِيلَةَ ، وَلاَ تَدْعُو إلى مَكارِمِ الأَخْلاَقِ » .

---

(١) الأَنانية : أى حب النفس

وَالدَّلِيلُ الثَّانِى نَأْخُذُهُ عَنْ مُوسْيُو «لانسان» وَهُوَ مِنَ الطَّبِيعِيِّينَ خِلافاً لِمُوسْيُو «لانى» وَكَانَ حَاكِماً فِى «التونكين» وَقَضَى فِى الْمُسْتَعْمَرَاتِ زَمَناً طَوِيلاً، وَلَهُ كِتَابٌ سَمَّاهُ «مَبَادِئ الاسْتِعْمَار» تَكَلَّمَ فِيهِ عَنْ عَلاَقَاتِ الأُورُبِّيِّينَ بِالْوَطَنِيِّينَ. وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ قَوْلُهُ: «أَعْظَمُ رَجُلٍ مُتَمَدِّنٍ يَصِيرُ فِى الْمُسْتَعْمَرَاتِ كَالطِّفْلِ فِى مُعَامَلَةِ الْعَجْمَاوَاتِ[1] فَهُوَ يُعَامِلُ الْوَطَنِيِّينَ كَأَنَّهُمْ آلاَتٌ خُلِقَتْ لِلآلاَمِ، يَعْبَثُ بِدِينِهِمْ، وَلاَ يَحْتَرِمُ عَائِلاَتِهِمْ، وَلاَ يُوَقِّرُ مَا اعْتَادُوا تَوْقِيرَهُ فِى مُجْتَمَعَاتِهِمْ، وَلاَ يَعْبَأُ بِأَمْلاَكِهِمْ، وَلاَ يَتَهَيَّبُ أَشْخَاصَهُمْ، وَلاَ يُقَدِّرُ لَهُمْ حَيَاةً، وَلَيْسَ تَوَحُّش الاسْتِعْمَارِ فِى هَذِهِ الْأَيَّامِ بِأَقَلَّ مِنْ تَوَحُّشِهِ فِى غَابِرِ الْأَزْمَانِ». ثُمَّ أَتَى بِالشَّوَاهِدِ عَلَى قَوْلِهِ فَسَرَدَ وَقَائِعَ وَحَوَادِثَ لاَ عَدَدَ لَهَا. وَالْحَالُ وَاحِدٌ فِى كُلِّ جِهَةٍ فِى الْهِنْدِ الصِّينِيَّةِ وَمَدَغَشْقَرَ وَشُطُوطِ أَفْرِيقْيَا. ثُمَّ خَتَمَ مُوسْيُو «لانسان» الْكَلاَمَ بِقَوْلِهِ: «يَجِبُ وَضْعُ حَدٍّ لِهَذِهِ الْمُعَامَلاَتِ الْفَظِيعَةِ إِنْ كَانَتِ الْحُكُومَةُ تُرِيدُ أَلاَّ تَسُوءَ عُقْبَى السِّيَاسَةِ الاسْتِعْمَارِيَّةِ بِسَبَبِهَا». نَحْنُ نَرَى أَيْضاً أَنَّهُ يَجِبُ إِقَامَةُ حَدٍّ لِتِلْكَ الْمُعَامَلاَتِ الشَّنِيعَةِ الَّتِى تَقْسِمُ النَّاسَ إِلَى قِسْمَيْنِ: مَنْ يَسْتَعْمِلُونَ التَّكَافُلَ فِى مَنْفَعَتِهِمْ، وَمَنْ يَتَرَقَّبُونَ الْفُرَصَ لِيَسْتَأْثِرُوا بِمَنَافِعِهِ، وَالْفَرِيقُ الْأَوَّلُ ظَالِمٌ وَالْفَرِيقُ الثَّانِى

(١) العجماوات: البهائم.

مَظْلُومٌ، وَلـكِنهُمَا يجتمِعَانِ فِي رَغبَاتِهمَا أَنْ يَعِيشُوا كَلاًّ(١) عَلَى الْـكُلِّ، أَىْ عَلَى المَجْمُوعِ ،أَىْ عَلَى الْأُمَّةِ .

وَإِذَا بحثْنَا عَنْ طَرِيقَةٍ لِلْخَلَاصِ مِنْ هَذِهِ الحَالِ فَإِنَّا لاَ نجدُهَا فِي نَشْرِ مَذْهَبِ التَّكَافُلِ،لِأَنَّا رَأَيْنَا أَقَلَّ النَّاسِ اسْتِحْقَاقاً لِلْعِنَايَةِ قَدِ انْتَهَزُوهُ فُرْصَةً لِاحْتِكَارِ مَنَافِعِهِ إِضْرَاراً بِحُقُوقِ غَيْرِهِمْ فَلَمْ يَسْتَفِدْ مِنْهُ إِلاَّ الْخُبَثَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا التَّكَافُلَ آلَةً يَبْتَزُّونَ بِهَا أَمْوَالَ ذَلِكَ الْغَيْرِ وَيَسْتَعْمِلُونَهُ مُتَّكَأً لَهُمْ حَتَّى كَلَّ(٢) مِنْهُمْ وَاسْتَجَارَ وَقَرُبَ مِنَ الْعَدَمِ .

إِذَا ثَبَتَ هَذَا عَلِمْتَ أَنَّ تَرَقِّيَ الهَيْئَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ لاَ يَقُومُ بِالاتِّكَالِ عَلَى الْغَيْرِ وَالحَيْفِ(٣) عَلَيْهِ، وَذَلِكَ هُوَ أَكْبَرُ بُرْهَانٍ يُقَدِّمُهُ كُلٌّ وَاحِدٍ لِأَخِيهِ عَلَى أَنَّهُ وَإِيَّاهُ مُتَكَافِلاَنِ . وَيَحْصُلُ هَذَا التَّرَقِّي بِمِقْدَارِ مَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الاعْتِمَادِ عَلَى نَفْسِهِ وَكِفَايَةِ حَاجَاتِهِ بِنَفْسِهِ وَنَشْأَتِهِ عَلَى اسْتِعْمَالِ قُوَّتِهِ الذَّاتِيَّةِ وَهِمَّتِهِ الشَّخْصِيَّةِ . وَمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ يَنْبَغِي الاهْتِمَامُ بِتَرْبِيَةِ الْقُدْرَةِ الشَّخْصِيَّةِ أَكْثَرَ مِنَ الاهْتِمَامِ بِتَعْظِيمِ السُّلْطَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ .

عَلِمْنَا أَنَّ تَرْبِيَةَ النَّاسِ عَلَى الاعْتِمَادِ عَلَى الْهَيْئَةِ يُضْعِفُ مِنْ قُوَّتِهِمْ الذَّاتِيَّةِ ، وَمِنْهُ يُؤْخَذُ أَنَّ تَرْبِيَتَهُمْ عَلَى الاعْتِمَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ يَزِيدُ فِي

(١) عالة (٢) ضجر (٣) ظلمه

تِلْكَ الْقُوَّةَ وَهُوَ بُرْهَانٌ سَاطِعٌ عَلَى مَالِلْوَسَطِ مِنَ التَّأْثِيرِ . فَإِنْ كَانَ مُلَائِمًا لِلْعَمَلِ أَصْبَحَ الْعَامِلُ الطَّيِّبُ مَاهِرًا ، وَالْعَامِلُ الْمُتَوَسِّطُ مُتَقَدِّمًا وَالْعَامِلُ الْبَسِيطُ مُتَوَسِّطًا ، وَالْعَامِلُ الْخَمِلُ بَسِيطًا ، وَهَكَذَا تَتَرَقَّى الطَّبَقَاتُ وَاحِدَةً بَعْدَ الْأُخْرَى .

وَلْيُلَاحَظْ أَنِّى لَا أَقُولُ هَذَا اعْتِبَاطًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِى سَنَدٌ فِيهِ ، غَايَةُ مَا فِى الْأَمْرِ أَنِّى أُخِصُّ لِلْقُرَّاءِ حَوَادِثَ كَثِيرَةً كُلُّهَا ثَابِتَةٌ بِالْخَبَرِ وَالِاسْتِقْرَاءِ . وَدَلِيلُهُ مَا كَتَبَهُ إِلَىَّ صَدِيقِى وَزَمِيلِى الْفَاضِلُ مُوسْيُو « پول دوروسيه » فى الشَّهْرِ الْمَاضِى مِنْ مَدِينَةِ « سنسناتى » بِأَمْرِيكَا حَيْثُ ذَهَبَ لِيَسْتَطْلِعَ الْأَحْوَالَ فِى تِلْكَ الْبِلَادِ قَالَ : « رَأَيْتُ فِى أَمْرِيكَا كَنْزًا لِلِاسْتِقْرَاءِ لَا يَفْنَى فَهِىَ بَلْدَةٌ يَأْتِيهَا الْمُهَاجِرُونَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِلَا انْقِطَاعٍ ، وَقَدِ اشْتَغَلَ عُلَمَاؤُهَا بِالْبَحْثِ عَنِ الْأَجْنَاسِ الَّتِى فِيهَا قَابِلِيَّةٌ لِاحْتِمَالِ الْعِيشَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ وَالَّتِى لَا تَقْدِرُ عَلَيْهَا ، وَفِى ذَلِكَ فَائِدَةٌ كُلِّيَّةٌ لَا تَخْفَى . وَأَغْرَبُ مَا شَاهَدْتُ هُنَا هُوَ تَقَدُّمُ الْإِرْلَنْدِيِّينَ مُنْذُ عِشْرِينَ عَامًا ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَابِلٍ لِلتَّرَقِّى وَالنُّمُوِّ يَعْظُمُ وَيَكْبُرُ فِى هَذِهِ الْبِلَادِ ، لِذَلِكَ لَا تَرَى الْإِرْلَنْدِىَّ الْيَوْمَ يَكْنُسُ الطُّرُقَاتِ وَلَمْ يَعُدْ هُوَ ذَلِكَ الْعَامِلَ الْحَقِيرَ الْجَاهِلَ الَّذِى كُنَّا نَعْرِفُهُ مِنْ قَبْلُ ، بَلْ ذَلِكَ شَأْنٌ قَدِ اخْتُصَّ بِهِ الْآنَ « البولونى » وَالْإِيتَالِىُّ وَغَيْرُهُمَا .

وَلاَ شُبْهَةَ فِى أَنَّ هذَا الاِسْتِقرَاءِ مُفِيدٌ جداً وأنه يُساعِدُ كثيراً عَلَى توْضِيحِ مسْأَلَتِنَا الاجْتماعِيَّةِ التى نبْحَثُ فِيهَا ، وعَلَى القُرَّاءِ أَنْ يُقابِلُوا بَيْنَ هذَا وبيْنَ مَا نقَلناهُ عَنْ مُوسيُو « لابى » وَ « لانسان » لِيَتَبَيَّنُوا الفَرْقَ ويَقفوا عَلى حَقِيقَةِ المَوْضُوعِ ويهتدُوا إلى الصَّوابِ فيه.

الْأُورُبِّىُّ هُوَ الذى يهاجِرُ فِى الحالتَيْنِ ، إلاّ أنَّ الفرْقَ عظِيمٌ بيْنَ النَّتِيجَتَيْنِ . وَالسِّرُّ فِى هذَا أنَّ بعضَهُمْ أقامَ بِبَلَدٍ اتِّكالِىّ ، أىْ لمْ يَتعوَّدْ أهْلُهُ الاعْتِمادَ عَلَى أنفُسِهِمْ بَلْ عَلى الْهَيْئَةِ التى وُجِدُوا فِيهَا ، وَكانتْ نَتِيجَةُ تأْثِيرِ هذَا الْوَسَطِ مُضِرَّةً بالْفَرِيقَيْنِ الْوَطَنِىِّ وَالْأُورُبِّيّ الْأَوَّلُ لِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الظُّلْمِ وَالاسْتِبْدَادِ ، وَالثَّانى لِمَا يَأْتِيهِ[1] مِنْهُمَا . وَبَعْضُهُمْ أَقَامَ بِبَلَدٍ اسْتِقْلاَلِىّ أَىْ تعوَّدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِهِ المُحَافَظَةَ عَلَى اسْتِقلاَلِهِ تجاهَ الْهَيْئَةِ بتمامِها ، وَشبَّ عَلى الارْتقَاءِ بجِدِّهِ وَعَمَلِهِ مُسْتَعِيناً بِهِمَّتِهِ وَقُوَّتِهِ حَيْثُ الْقُدْرَةُ الشَّخْصِيَّةُ بلَغَتْ غايَتَها ، وَقَلَّ تأْثِيرُ الهيْئَةِ إلى الحدِّ الْأَدْنَى . فَإِذَا وَصَلَ الْأُورُبِّىُّ إلَى هَذَا الْوَسَطِ الحىِّ سَرَتْ فِيهِ حَرَكةُ الحيَاةِ ، وَتنبَّهَتْ قُوَاهُ ، وَتبَدَّلَتْ أَحوالُهُ ، فَصَارَ رَجُلاً غَيْرَ الَّذِى هَاجَرَ ، وَأَصْبَحَ قَادِرًا عَلى تَحْصِيلِ حَاجَاتِهِ بِنَفْسِهِ ، إِذْ لا سَبِيلَ لِلاعْتِمادِ عَلَى الْغَيْرِ فى تِلْكَ الْبِلاَدِ وَلاَ إِلَى ابْتِزَازِ المَالِ مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَلاَ إِلَى الاتِّكالِ عَلَى تَكافُلٍ وَهْمِىّ يَخْدَعُ

(١) يفعله

النُّفُوسَ كَذِباً وَتَلْبِيساً (١) . تِلْكَ بِلَادُ « الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » فَكُلُّ مَا فِيهَا يُنَادِيكَ : أَعِنْ نَفْسَكَ بِنَفْسِكَ . لِذَلِكَ تَحَوَّلَ الْإِرْلَنْدِيُّ وَارْتَقَى ، وَهِيَ مُعْجِزَةٌ مِنَ السَّهْلِ عَلَى مَنْ لَهُمْ أَقَلُّ إِلْمَامٍ بِالْعِلْمِ الِاجْتِمَاعِيِّ أَنْ يُدْرِكُوا السِّرَّ فِيهَا .

مَضَتِ الْأَجْيَالُ الطِّوَالُ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ وَهُوَ فِي وَسَطٍ اتِّكَالِيٍّ حَتَّى صَارَ يَهْرُبُ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ يُكَلِّفُهُ بَعْضَ الْعَنَاءِ أَوْ يَقْتَضِي بَعْضَ الْهِمَّةِ الذَّاتِيَّةِ مُتَعَوِّداً الْمَعِيشَةَ مِنْ تَكَافُلِ عَشِيرَتِهِ حَتَّى وَصَلَ بِتَأْثِيرِ ذَلِكَ التَّكَافُلِ إِلَى حَالَتِهِ الَّتِي نُشَاهِدُهُ عَلَيْهَا فِي أُورُبَّا مِنَ الِانْحِطَاطِ السِّيَاسِيِّ وَالضَّعْفِ الِاجْتِمَاعِيِّ فَأَصْبَحَ رَجُلاً تَرَفَّعَ عَنِ الْحِرَفِ الدَّنِيئَةِ الَّتِي كَانَ مَقْصُوراً عَلَيْهَا بِحُكْمِ مَذْهَبِ التَّكَافُلِ الْمُمِيتِ ، وَلَمْ يَعُدْ كَنَّاساً فِي الشَّوَارِعِ وَالطُّرُقَاتِ أَوْ صَانِعاً كَالْآلَةِ تَتَحَرَّكُ بِإِرَادَةِ غَيْرِهَا ، وَأَمْسَى قَادِراً عَلَى الْعَمَلِ بِنَفْسِهِ وَتَحْصِيلِ الرِّزْقِ مِنْ غَيْرِ الِاسْتِعَانَةِ فِيهِ إِلَّا بِهِمَّتِهِ وَدَخَلَ فِي طَرِيقِ سَعَادَتِهِ .

أَمَّا الْمُهَاجِرُونَ مِنَ التَّلْيَانِيِّينَ وَالْبُولُونِيِّينَ ، فَهُمْ أَقْرَبُ مِنْهُ عَهْداً بِمُعَاشَرَةِ الْأُمَّةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ وَلَمْ يَتِمَّ خَلَاصُهُمْ حَتَّى الْآنَ مِمَّا تَرَبَّوْا عَلَيْهِ فِي بِلَادِهِمْ ، وَلَمْ يَنْتَهِ تَحَوُّلُهُمْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ . إِلَّا أَنَّ الشَّوْطَ (٢) الَّذِي سَارَهُ الْإِرْلَنْدِيُّ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ يَدُلُّنَا عَلَى الْغَايَةِ

(١) تعمية وابهاماً (٢) الشوط : الجرى مرة واحدة الى الغاية . يقال جرى الفرس شوطاً والجمع أشواط

التى هُمْ صَائِرُونَ أَيْضًا إِلَيْهَا بِالتَّدْرِيجِ ، فَلاَبُدَّ لَهُمْ مِثْلَهُ أَنْ يَنَالُوا فِى ذَلِكَ الْوَسَطِ وَبِتَأْثِيرِهِ مَا فِيهِ سَعَادَتُهُمْ .

وَلاَ يَتَوَهَّمَنَّ أَحَدٌ أَنَّ هَذَا الانْقِلاَبَ يَحْصُلُ إِجْمَاعًا أَىْ يَنَالُهُ الْكُلُّ عَلَى السَّوَاءِ بَلْ هُوَ يَحْصُلُ لِكُلِّ فَرْدٍ عَلَى حِدَتِهِ كَمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ ، فَأَكْثَرُهُمْ عَمَلاً وَأَكْبَرُهُمْ هِمَّةً أَسْبَقُهُمْ إِلَى التَّرَقِّى ، ثُمَّ تَلِيهِم الطَّبَقَةُ الَّتِى دُونَهُمْ فَالَّتِى مِنْ بَعْدِهَا ، وَهَكَذَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا كَسَبَ .

ثَبَتَ مِنْ هَذَا أَنَّ الْأُمَمَ الِاسْتِقْلاَلِيَّةَ أَصْلَحُ لِنُمُوِّ التَّكَافُلِ الِاجْتِمَاعِىِّ مِنَ الْأُمَمِ الِاتِّكَالِيَّةِ . وَكَأَنِّى بِالَّذِينَ يُحِبُّونَ التَّمَادِىَ فِى الْجِدَالِ مِنَ الْقُرَّاءِ يَتَسَاءَلُونَ عَنْ مَصِيرِ الْأَفْرَادِ الَّذِينَ لاَ قِبَلَ(١) لَهُمْ بِالِارْتِقَاءِ بِأَنْفُسِهِمْ فِى مِثْلِ ذَلِكَ الْوَسَطِ الِاسْتِقْلاَلِىِّ رَغْمًا مِنْ تَعَدُّدِ وَسَائِلِ الْحَثِّ وَالتَّحْرِيضِ؟ فَأُجِيبُهُمْ بِأَنَّ مِنْ لَوَازِمِ هَذَا الْوَسَطِ تَقْلِيلَ عَدَدِ أُولَئِكَ الضُّعَفَاءِ جِدًّا بِخِلاَفِ مَذْهَبِ التَّكَافُلِ ، فَإِنَّهُ يُسَاعِدُ عَلَى كَثْرَتِهِمْ دَائِمًا ، وَبُرْهَانُهُ الْإِرْلَنْدِيُّونَ فِى الْوِلاَيَاتِ الْمُتَّحِدَةِ ثُمَّ إِنَّ مَذْهَبَ التَّكَافُلِ فَضْلاً عَنْ كَوْنِهِ يُعَوِّدُ النَّاسَ عَدَمَ الِاهْتِمَامِ بِتَحْصِيلِ حَاجَاتِهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَيُرَبِّيهِمْ عَلَى طَلَبِ الْمَعُونَةِ دَائِمًا مِنْ أُمَّتِهِمْ ، لاَ يُسَاعِدُ الضُّعَفَاءَ عَلَى النُّهُوضِ مِنْ خُمُولِهِمْ كَمَا أَنَّهُ يُضْعِفُ

---

(٢) لا طاقة

مِنْ هِمَمِ أُولِى الْعزمِ (٢) بِمَا يُقَلِّلُ مِنْ نَتَائِجِ عَمَلِهِمْ كما يَقُولُ عُلَمَاءُ الاقْتِصَادِ ، وَيُلْحِقُ بِهِم الْفقرَ فتقِلُّ قُدْرَتُهُمْ عَلى مُسَاعَدَةِ الْغَيْرِ وَإِنْ رَغِبُوا فِيهَا مَا استْطَاعُوا . وَنَقْصُ الثَّرْوَةِ فى يَدِ كلِّ فرْدٍ يُؤَدِّى إِلَى نَقْصِهَا في يَدِ الأُمَّةِ بِتَمَامِهَا ، وَحِينَئذٍ يَعْدَمُ الْبَائِسُ الضَّعِيفُ سَبِيلَ المَعُونَةِ مِنَ الْأَفْرَادِ وَمِنَ الْحُكُومَةِ سَوَاءً . وَلَنْ تَقُومَ الْأُمَّةُ بِمُسَاعَدَةِ الضُّعفاءِ وَمُوَاسَاةِ الْفُقَرَاءِ وَالْبَائِسِينَ إِلَّا إِذَا تَوَافَرَ المَالُ لَدَى الْكَثِيرِ مِنْ أَفْرَادِهَا حَتَّى يَسْهُلَ عَلَيْهِمْ تَخْصِيصُ مَا زَادَ عَلَى حَاجَاتِهِمْ لِلْخَيْرَاتِ ، وَالَّذِى يُسَاعِدُ عَلى إِنْمَاءِ ثَرْوَةِ الأَفْرَادِ هُوَ الَّذِى يُسَاعِدُ عَلَى إِنْمَاءِ رُوحِ المَعُونَةِ وَفِعْلِ الخَيْرَاتِ الْخُصُوصِيَّةِ وَالْعُمُومِيَّةِ . وَإِذَا قَابَلْتَ بَيْنَ مَا يُنفِقُهُ الإِنكليزُ وَالأَمْرِيكَانُ كلَّ عَامٍ فى هَذَا السَّبِيلِ وَبَيْنَ مَا نُنفِقُهُ نَحْنُ مَثلاً فى فرنسَا مِمَّا يَقِلُّ سَنَةً عَنْ سَنَةٍ وجَدْتَ الْفَرْقَ عَظِيماً وَارْتَاحَ ضَمِيرُكَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ .

تَلَخَّصَ مِنْ هَذَا أَنَّ رَجُلَنَا الاجْتِمَاعِيَّ يَمْتَازُ عَنْ رَجُلِ مَذْهَبِ التَّكَافُلِ بِقَدْرَتِهِ عَلَى مُسَاعَدَةِ الضُّعَفَاءِ وَبِكَوْنِهِ يُسَهِّلُ لَهُمْ أَيْضاً سَبِيلَ التَّقَدُّمِ وَالارْتِقَاءِ وَهُوَ الَّذِى يَسِيرُ بِالإِنْسَانِيَّةِ إِلى طَرِيقِ حَلِّ مُشْكِلَاتِهَا ، وَعَلَى الْخُصُوصِ إِلى حَلِّ مَا يُسَمَّى « مَسْأَلَةَ الْفَعَلَةِ وَالصُّنَّاعِ » فَهُوَ الَّذِى يَخْطُو نَحْوَ فَضِّ الإِشْكَالِ بِمَحْوِ حَالَةِ الْفَعَلَةِ

(١) الثبات والشدة فيما يعزم عليه الانسان أى ينويه

الْحَاضِرَةِ مِنَ الْوُجُودِ وَذَلِكَ هُوَ مُسْتَقْبَلُ الدُّنيا .

رُبَّمَا عدَّ هذا مِنْ قَبِيلِ السَّفْسَطَةِ لِتَعوُّدِنا الْحُكْمَ عَلى الْمُسْتَقْبَلِ بِالْمَاضِي وَلِكَوْنِهِ يَصْعُبُ عَلى الفِكْرِ طَبْعاً أَنْ يَنْسَى الأَوْضَاعَ الَّتِي اعْتَادَهَا وَإِنْ أَخَذَتْ فِي الانْزِوَاءِ وَالزَّوَالِ، وَأَنْ يَلْتَفِتَ إِلَى الأوْضَاعِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي تَظْهَرُ فِي الْوُجُودِ هُنَا وَهُنَاكَ، غَيْرَ أَنَّ عَلائِمَ هَذَا الانْقِلَابِ بَادِيَةٌ جَلِيَّةٌ فِي الأُمَمِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي طَرِيقِ الْمُسْتَقْبَلِ وَهِيَ وَاضِحَةٌ تَمَاماً فِي إِنْكِلْتِرَه وَالْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ فَإِنَّكَ تَرَى الصُّنَّاعَ فِي الْحِرَفِ الدَّنِيئَةِ كلُّهُمْ مِنَ الْأَجَانِبِ أَوْ مِنَ الْقَادِمِينَ حَدِيثاً وَلَمْ يَمْضِ عَلَيْهِمْ زَمَنٌ كَافٍ لِيَتَشَبَّهُوا بِأَهْلِ تِلْكَ الْبِلَادِ. وَالصِّنَاعَاتُ الرَّفِيعَةُ تُدَارُ بِالْآلَاتِ شَيْئاً فَشَيْئاً ، وَالرَّجُلُ يَنْتَقِلُ مِنْ كَوْنِهِ صَانِعاً أَوْ عَامِلاً إِلَى كَوْنِهِ مُوَظَّفاً أَوْ مُلَاحِظاً . كَذَلِكَ أَصْبَحَ الصَّانِعُ الْفَلَّاحُ الَّذِي نَعْرِفُهُ فِي بِلَادِنَا مِن زَمَنٍ مَدِيدٍ عَلَى وَشْكِ الزَّوَالِ، فَإِنَّ آلَاتِ الزِّرَاعَةِ تَكْثُرُ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى كَأَنَّ الْفَلَّاحَ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَقَالِيمِ أَمِرِيكَا عَالِمٌ يَبْحَثُ فِي طَبَقَاتِ الْأَرْضِ عَنْ مَعَادِنِهَا فَيَحْرُثُ وَيُمَهِّدُ وَيَحْصُدُ وَيَدْرُسُ (١) وَهُوَ مُسْتَرِيحٌ عَلَى جِلْسَةٍ مُنْتَظِمَةٍ يَقُودُ مِنْهَا دَابَّتَهُ كَأَنَّهُ فِي عَمَلِهِ أَحَدُ الظُّرَفَاءِ فِي عَرَبَتِهِ وَرُبَّمَا رَأَيْتَهُ بِلِبَاسِ الظُّرَفَاءِ أَحْيَاناً . وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَتَعَلَّمَ

---

(١) درس الحنطة ونحوها دراساً ودرساً: داسها بالنورج ونحوه

أَطْوَارَهُمْ وَيَتهذَّبَ بِأَفْكَارِهِمْ، وَسَيَتِمُّ لَهُ ذَلِكَ . وَقدِ اتَّسعَ ذِهْنُهُ فِى جَمِيعِ مَا يُرَقِّى الزِّرَاعَةَ لِذَلِكَ لَا يُحْجِمُ عَنِ اسْتِعْمَالِ كلِّ جَدِيدٍ فِيهَا.

الْوِلَايَاتُ الْمُتَّحِدَةُ الآنَ فى طَلِيعَةِ الْأُمَمِ مِنْ جِهَةِ التَّقَدُّمِ الِاجْتِمَاعِىِّ، كَمَا سَبَقَتْهُمْ فى المَصْنوعَاتِ الميكَانِيكِيَّةِ .وَهُمَا نَوْعَانِ مِنْ أَنْوَاعِ التَّقَدُّمِ مُتَلَازِمَانِ لَا كَمَا يَظُنُّ النَّاسُ عَادَةً فَالثَّانِى نَتِيجَةُ الْأَوَّلِ وَالْأَوَّلُ يَتَأَثَّرُ كَثِيراً بِالثَّانِى، وَلَيْسَ فِى قُدْرَةِ أَحَدٍ أَنْ يُخْبِرَ بِمَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْأُمَمُ مِنَ التَّرَقِّى بِاجْتِمَاعِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ .

وَجَبَ عَلَيْنَا إِذَنْ أَنْ نُقْلِعَ عَنِ التَّمَسُّكِ بِأَوْضَاعِ الِاجْتِمَاعِ الْقَدِيمَةِ كَمَا أَخَذْنَا فى تَرْكِ آلَاتِ الْعَمَلِ التى تُدِيرُهَا يَدُ الْإِنْسَانِ فَذَلِكَ هُوَ المَاضِى الَّذِى يَبْعُدُ عَنَّا كُلَّ يَوْمٍ وَلَا مَرَدَّ لَهُ أَبَدًا.

وَبَيْنَمَا الْعَالَمُ الإِنْسَانِىُّ يَسِيرُ مُظَفَّرًا نَحْوَ حَالٍ جَدِيدٍ نَرَى رَجُلاً كَمُوسْيُو بُورجوا ـ نُجِلُّهُ أَنْ يَكُونَ فى عِدَادِ كُلِّ النَّاسِ مَعَ كَوْنِهِ يَطْمَعُ فى رِيَاسَةِ حِزْبِ التَّرَقِّى فى الْبِلَادِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ ـ يَعْرِضُ عَلَيْنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى مَذْهَبٍ تَقَادَمَ الْعَهْدُ عَلَيْهِ حَتَّى بَلِىَ ظَانًّا أَنَّهُ كَشْفٌ جَدِيدٌ !وَهُوَ أَوْهَى المَذَاهِبِ وَأَشَدُّهَا تَعَسُّفًا وَاسْتِبْدَادًا. حَقًّا لَيْسَ لَنَا مِنْ حَظٍّ !

الفصل الخامس

﴿ ما أَحْسَنُ حالاَتِ الاجْتِماعِ لِتَحْصِيلِ السَّعَادَةِ ﴾

أَلَّفَ السِّيرْ (جون لوبوك) كِتَاباً عِنْوَانُهُ (سَعَادَةُ الحَيَاةِ) وَقَدِ انْتَشَرَ انْتِشَاراً عَظِيماً فى انكلتره حَتَّى إِنَّ الَّذِى عُنِىَ بِتَرْجَمَتِهِ إِلَى اللُّغَةِ الْفَرَنْسَاوِيَّةِ لَمْ يَفْرُغْ مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ إِلاَّ بَعْدَ أَنْ أُعِيدَ طَبْعُ الْكِتَابِ عِشْرِينَ مَرَّةً وَمِنَ الْجُزْءِ الثَّانِى إِلاَّ بَعْدَ أَنْ ظَهَرَتْ طَبْعَتُهُ السَّابِعَةُ وَالسَّبْعُونَ.

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الْقُرَّاءُ أَنَّ الْمُؤَلِّفَ أَمْسَكَ الْعَنْقَاءَ(١) وَجَعَلَ يَعْرِضُهَا عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ فِى نَظِيرِ بَعْضِ شِلِنَاتٍ يَدْفَعُونَهَا ثَمَنَ كِتَابِهِ إِذْ لَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ لَقُلْنَا إِنَّ الإِنْكلِيزَ لَيْسُوا بِطَمَّاعِينَ بَلِ الْكِتَابُ بِجُزْأَيْهِ عِبَارَةٌ عَنْ جَمْعِ حِكَمٍ وَنَقْلِ أَفْكَارٍ مِنْ كُتُبِ جَمِيعِ الْمُؤَلِّفِينَ الْمَشْهُورِينَ. وَغَرَضُ الْمُؤَلِّفِ مِنْ هَذَا الْجَمْعِ وَذَاكَ النَّقْلِ أَنْ يُبَرْهِنَ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ سُعَدَاءُ لِكَوْنِهِمْ أَحْيَاءً.

وَلِلدَّلاَلَةِ عَلَى صِحَّةِ رَأْيِهِ جَعَلَ يَسْرُدُ مُوجِبَاتِ السَّعَادَةِ الَّتِى يُشَاهِدُهَا الإِنْسَانُ وَاحِداً فَوَاحِداً كَالارْتِيَاحِ بَعْدَ أَدَاءِ الْوَاجِبِ وَاللَّذَّةِ مِنْ

(١) العنقاء طائر مجهول لم يوجد يضرب به المثل فى استحالة الشيء أو عزته

قِرَاءَةِ أَشْهَرِ مَا أُلِّفَ وَأَحْسَنِ مَا كُتِبَ وَنِعْمَةِ المحبَّةِ وَلَذَّةِ السِّيَاحَةِ وَلَذَّةِ الْبَيْتِ وَالمَلَاذِّ العِلْمِيَّةِ وَالْعِشْقِ وَالْفُنُونِ وَالشِّعْرِ وَالْمُوسِيقَى وَبَدَائِعِ الطَّبِيعَةِ وَهَكَذَا . وَهُوَ لِكُلِّ شَيْءٍ بَشُّ الْوَجْهِ هَشُّ النَّفْسِ يَمْلَؤُهُ الْأَمَلُ عَلَى الدَّوَامِ ، فَلَا يَرَى إِلَّا سُرُورًا بِحَيْثُ يَضْعُفُ خَصْمُهُ عَنْ مُنَاضَلَتِهِ . وَمِنْ قَوْلِهِ : « لَقَدْ سَمِعْتُ النَّاسَ كَثِيرًا يَشْكُونَ مِمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ كُفْرَانِ النِّعَمِ وَمَحَبَّةِ الذَّاتِ . أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَشْعُرْ مَرَّةً وَاحِدَةً بِأَثَرِ هَاتَيْنِ الْمُصِيبَتَيْنِ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي » ذَلِكَ أَمْرٌ يُوجِبُ الِاسْتِغْرَابَ أَوْ يَدْعُو إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ صَاحِبَهُ رَجُلٌ مِنَ الْبُسَطَاءِ . وَإِلَيْكَ أَغْرَبَ مِنْهُ قَالَ : « نَحْنُ فِي الْحَقِيقَةِ أَغْنِيَاءُ أَكْثَرَ مِمَّا نَظُنُّ ، وَكَثِيرًا مَا نَسْمَعُ بِشِدَّةِ رَغَبَاتِ النَّاسِ فِي الْكَسْبِ وَالِاسْتِحْوَاذِ ، وَبَعْضُهُمْ يَحْسُدُ كِبَارَ الْمُوسِرِينَ وَيَظُنُّ السَّعَادَةَ فِي امْتِلَاكِ الْأَرَاضِي الْوَاسِعَةِ ، غَيْرَ أَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الرَّجُلَ يَمْلِكُ الْأَرْضَ وَالْأَرْضُ تَمْلِكُهُ كَمَا قَالَ « امِرسون ». وَلَوِ ارْتَقَيْنَا قَلِيلًا بِالْفِكْرِ لَوَجَدْنَا أَنَّ لَنَا الْأُلُوفَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنَ الْفَرَاسِخِ وَالْأَمْيَالِ ، فَالشَّوَارِعُ وَالطُّرُقَاتُ وَالسِّكَكُ الْعُمُومِيَّةُ وَالْجُسُورُ وَشَوَاطِئُ الْبَحْرِ عَلَى اخْتِلَافِ صُنُوفِهَا وَتَنَوُّعِ مَنَاظِرِهَا ، كُلُّهَا مِلْكٌ لَنَا ، فَنَحْنُ مِنْ كِبَارِ الْأَغْنِيَاءِ وَلَا عِلْمَ لَنَا . وَلَيْسَتِ الْأَرْضُ

هِيَ الَّتِى تَنْقُصُنا بَلِ الَّذِى نَحْتَاجُ إلَيْهِ هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى التَّمَتُّعِ بِمَا مَلَكْنا، وَتِلْكَ مَزِيَّةٌ عُظْمَى تَتْبَعُها مَزِيَّةٌ أُخرَى وَهِيَ أنَّها لاَ تُكَلِّفُنا عَمَلاً وَلَا تَطْلُبُ مِنَّا عَنَاءً . فَصَاحِبُ الْأَمْلَاكِ مَشْغُولُ الْبالِ عَلَى الدَّوَامِ ، وَلَكِنَّ المَنَاظِرَ الطَّبِيعِيَّةَ مَمْلُوكَةٌ لِكُلِّ مَنْ لَهُ عَيْنانِ تُبْصِرانِ . وَبِهذَا المَعْنَى صَحَّ لِمُوسْيُو « كنجلى » أنْ يَقُولَ «إنَّ بُسْتَانَهُ زَمَنَ الشِّتَاءِ كَانَ الْخُضْرَةَ الَّتِى تَكْتَنِفُ بَعْضَ المَكَانِ الَّذِى يَسْكُنُهُ، لا لأنَّهُ كَانَ يَمْلِكُها حَقِيقَةً بَلِ اعْتِبارًا بِالمَعْنَى الَّذِى يَجْعَلُ الْأُلُوفَ مِنَ الْبَشَرِ مَالِكِينَ لِلشَّيْءِ بِعَيْنِهِ ».

وَالْكِتَابُ كُلُّهُ مَحْشُوٌّ بِهذَا الْأَمَلِ الشَّدِيدِ ، وَأَدِلَّةُ المُؤَلِّفِ عَلَى مَذْهَبِهِ كُلُّها مِنْ هذَا الْقَبِيلِ . وَمِنَ المَعْلُومِ أنَّ الإنْكِلِيزَ السَّكْسُونِيِّينَ لاَ يَقْنَعُونَ بِمِثْلِ تِلْكَ الأَدِلَّةِ الضَّعِيفَةِ ، كَمَا أنَّ تِلْكَ الأَدِلَّةَ لَيْسَتْ هِيَ السَّبَبَ فِى انْتِشارِ الْكِتَابِ بَيْنَهُمْ ذَلِكَ الانْتِشَارَ .

وَمِمَّا يَجِبُ الْبَحْثُ عَنْهُ مَعْرِفَةُ السَّبَبِ الَّذِى لأَجْلِهِ لَمْ يَنْتَشِرْ هَذَا الْكِتَابُ عِنْدَنَا إلاَّ قَلِيلاً وَلِأَجْلِهِ يَضْحَكُ الْفَرَنْسَاوِيُّونَ مِنْ قِرَاءَتِهِ وَيَتَبَسَّمُونَ لِسَرْدِ أَدِلَّتِهِ .

وَيَلْزَمُنا فِى ذَلِكَ أنْ نُنْعِمَ النَّظَرَ وَنُطِيلَ التَّأَمُّلَ أَكْثَرَ مِنْ مُوسْيُو « لوبوك » فِى مَوْضُوعِ تِلْكَ السَّعَادَةِ الَّتِى شَغَلَتِ الإنْسَانَ طُولَ الزَّمَانِ .

تَعْرِيفُ السَّعَادَةِ

نُرِيدُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ « السَّعَادَة » حَالَةَ ارْتِيَاحٍ تَقُومُ بِنَفْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَمَكَّنُونَ مِنَ التَّغَلُّبِ عَلَى مَتَاعِبِ الحَيَاةِ المَادِّيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ تَغَلُّبًا حَقِيقِيًّا .

وَالْغَرَضُ مِنْ وَصْفِ المَتَاعِبِ بِالمَادِّيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ أَنْ يَتَنَاوَلَ التَّعْرِيفُ حَاجَتَى المَرْءِ الْعَظِيمَتَيْنِ فِى الدُّنْيَا، وَهُمَا رَاحَةُ الجِسْمِ وَرَاحَةُ النَّفْسِ ،فَوُجُودُهُ كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِمَا .

وَيَلْزَمُنَا قَبْلَ كُلِّ شَىْءٍ أَنْ نَقِفَ عَلَى حَقِيقَةِ الأَسْبَابِ الَّتِى ذَهَبَ الْكَثِيرُونَ إِلَى أَنَّهَا هِىَ وَحْدَهَا مَصْدَرُ سَعَادَةِ الإِنْسَانِ كَالطَّبْعِ وَالصِّحَّةِ وَالمَالِ وَالدِّينِ .

فَأَمَّا الطَّبْعُ الحَسَنُ فَهُوَ الَّذِى يَمِيلُ بِصَاحِبِهِ إِلَى أَخْذِ الأَشْيَاءِ بِأَحْسَنِ جِهَاتِهَا أَىْ يَحْمِلُهُ عَلَى اعْتِبَارِ جِهَةِ الحُسْنِ فِى الأَشْيَاءِ مُطْلَقًا . وَلِكُلِّ شَىْءٍ جِهَةُ حُسْنٍ وَأُخْرَى نَقِيضُهَا ، غَيْرَ أَنَّ الْخَيَالَ مَحْدُودٌ مَهْمَا كَانَ شَدِيدًا ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ لَا يُغَيِّرُ مِنْ حَقَائِقِ الأُمُورِ شَيْئًا ، وَمَتَى اتَّضَحَتِ الحَقِيقَةُ وَوَجَبَ التَّسْلِيمُ بِهَا كَانَ الْيَأْسُ أَشَدَّ وَقْعًا ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ تَوَهُّمَ عَدَمِ وُجُودِ الضَّرَرِ لَا يُنَافِيهِ .

وَأَمَّا الصِّحَّةُ فَإِنَّهَا تَكْفِينَا شَرَّ كَثِيرٍ مِنَ الآلَامِ الجِسْمِيَّةِ ، وَتَجْعَلُنَا بِذَلِكَ قَادِرِينَ عَلَى مُزَاوَلَةِ الْعَمَلِ اللَّازِمِ فِى تَحْصِيلِ المَأْكَلِ

وَالْمَلْبَس وَالمَسْكَنِ، غيرَأَنَّهَا لاَ تُعْطِي إلاَّ الْقُدْرَةَ ، وَقَدْ تَتَعَطَّلُ الْقُدْرَةُ بِسَبَبٍ مِنَ الأسبَاب ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ بَالِغاً مُنْتَهَى الصِّحَّةِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ فِي أَشَدِّ حَالاَتِ الضَّنْكِ وَالِاحْتِيَاجِ ، وَمَا ذَلِكَ مِنْ مُوجِبَاتِ السَّعَادَةِ فِي شَيْءٍ .

وَأَمَّا المَالُ فَكَثِيرُونَ يَعْتَبِرُونَهُ أَهَمَّ وَسِيلَةٍ فِي السَّعَادَةِ ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ يَضْمَنُ لِصَاحِبِهِ عَيْشَهُ الْيَوْمِيَّ ، وَيُسَهِّلُ لَهُ اجْتِيَازَ الْكَثِيرِ مِنَ الْمَتَاعِبِ الْمَادِّيَّةِ وَلَيْسَ هَذَا بِيَسِيرٍ ، وَلَكِنَّ المَالَ لَا يُفِيدُ شَيْئًا فِي اجْتِيَازِ الْمَتَاعِبِ الادَبِيَّةِ ، فَمِنْ شَأْنِهِ المَيْلُ بِالْهِمَّةِ إِلَى الْفُتُورِ ، وَإِضْعَافِ الْإِرَادَةِ . وَمِنْ أَهَمِّ أَسْبَابِ السَّعَادَةِ الْأَمَلُ ، أَيْ رَجَاءُ الْحُصُولِ عَلَى الْمَرْغُوبِ ، فَإِذَا مَلَكْتَ مَا رَجَوْتَ ضَاعَ جُزْءٌ عَظِيمٌ مِنْ مَيْلِكَ السَّابِقِ إِلَيْهِ ، وَالمَالُ لاَ يَجْعَلُ لِلأَمَلِ مَحَلاًّ لِأَنَّهُ يُسَهِّلُ الْحُصُولَ فَوْرًا عَلَى الْمُرَادِ ، وَذَلِكَ يُؤَدِّي إِلَى ضَعْفِ لَذَّةِ الانْتِظَارِ . وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّ الْأَغْنِيَاءَ يَطْلُبُونَ دَائِمًا مَلَاذَّ جَدِيدَةً وَمَلَاهِيَ غَيْرَ الَّتِي اعْتَادُوهَا لِأَنَّهُمْ سَرِيعُو الشِّبَعِ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ فِي أَوَّلِهِ. فَالمَالُ يُضَيِّعُ الِاهْتِمَامَ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَمَتَى ضَاعَ الِاهْتِمَامُ فَقَدَ الرَّجُلُ ذَوْقَ سَعَادَةِ الْحَيَاةِ ذَوْقاً صَحِيحًا فَلَا يَحْفِلُ بِشَيْءٍ وَلَا شَيْءَ يَحْمِلُهُ عَلَى الِاهْتِمَامِ . وَخَطَؤُنَا فِي المَالِ آتٍ مِن اعْتِبَارِنَا إِيَّاهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْفَقْرِ أَوِ التَّوَسُّطِ فِي المَعِيشَةِ ، وَالْوَاجِبُ أَنْ نَنْظُرَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْثُ هُوَ وَنُقَدِّرَهُ

حقَّ قدْرِهِ فى الْوَاقِعِ وَنفْس الأَمْرِ تقْدِيراً صَحِيحاً . وَإِذَا فعلْنا ذَلِكَ وَجَدْنَاهُ أَبْتَرَ(١) مِنْ جِهَاتٍ كَثِيرَةٍ حَتَّى إِنَّ صَاحِبَهُ لاَ يَتَمَكَّنُ بِوَاسِطَتِهِ فِى بَعْضِ الأَحْيَانِ مِنَ التَّغَلُّبِ عَلى الصُّعُوبَاتِ المَادِّيَّةِ الَّتِى تَعْرِضُ لَهُ ، وَإِنْ خُيِّلَ لِبَعْضِهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ المسْتَغْرَبَاتِ . أَلاَ تَرَى أَنَّ الَّذِينَ يَمِيلُونَ فِي مَعِيشَتِهِمْ إِلَى اللَّذَّاتِ وَالزَّخَارِفِ يَصْرِفُونَ فِى غَالِبِ الأَحْوَالِ أَكْثَرَ مِمَّا يَكْسِبُونَ ، وَيَنْتَهِى بِهِمِ الأَمْرُ إِلى تَعَوُّدِ الصَّرْفِ مِنْ غَيْرِ حِسَابٍ وَإِلَى فِقْدَانِ تَعَوُّدِ الْعَمَلِ ، فَيَخْتَلُّ التَّعَادُلُ عِنْدَهُمْ .وَفى ذَلِكَ الْجُبِّ(٢) الْعَمِيقِ انْهَالَتْ ثَرْوَةُ كِبَارِ الأَغْنِيَاءِ فى كُلِّ زَمَانٍ ، كَمْ مِنْ عَائِلَةٍ كَانَتْ ذَاتَ بَسْطَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْيَسَارِ فَأَصْبَحَ أَبْنَاؤُهَا بَائِسِينَ ، فَإِنْ دَامَ الْحَالُ لِأَبْنَائِهِم افْتَقَرَ الدَّوْرُ الثَّانِى أَوِ الثَّالِثُ ، وَيُمْسُونَ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى إِصْلاَحِ حَالِهِمِ المَادِّىِّ فَضْلاً عَنِ الأَدَبِىِّ ، لأَنَّ مَنْ فَقَدَ عَادَةَ الْعَمَلِ وَالْكَدِّ يَصْعُبُ عَلَيْهِ اسْتِرْجَاعُهَا ، كَذَا حَالُ الشُّرَفَاءِ مِنَّا وَكَذَا شَأْنُ الْمُوسِرِينَ مِنَ الأَوَاسِطِ وَهِىَ سُنَّةٌ أَبَدِيَّةٌ . وَالْخُلاَصَةُ أَنَّ فَرَاغَ الْيَدِ أَدْعَى إِلَى تَحْسِينِ حَالِ الإِنْسَانِ مَادِّيًّا وَأَدَبِيًّا مِنَ الثَّرْوَةِ ، لِأَنَّهُ أَدْعَى إِلَى الْعَمَلِ وَالِاجْتِهَادِ .

بَقِىَ عَلَيْنَا الدِّينُ ، وَقَدِ اعْتَبَرَهُ بَعْضُهُمْ كَافِيًا فى تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ ،

---

(١) يريد ناقصاً (٢) الجب : البئر التى لم تبن بالحجارة والكلام استعارة

وَلاَ شُبْهَةَ فى أَنَّ الدِّينَ يُسَاعِدُ كَثِيراً عَلى اجْتِيَازِ مَتَاعِبِ الْحيَاةِ النَّفْسِيَّةِ ، غَيْرَ أَنَّهُ إِنْ لَمْ يُصَادِفْ فى نَفْسِ صَاحِبِهِ قُدْرَةً عَلى الْعَمَلِ وَاسْتِعْدَاداً لِلْكَدِّ كانَ تَأْثِيرُهُ مَقْصُوراً عَلى التَّوَكُّلِ وَالِاسْتِسْلَامِ إِلَى حُكْمِ الْقَضَاءِ ، وَالاسْتِسْلَامُ لِأَمْرٍ إِذْعَانٌ مِنَ الْمُسْتَسْلِمِ بِأَنَّهُ مُتْعِبٌ شَاقٌّ ، وَهَذَا هُوَ الِاعْتِقَادُ الَّذِى يُحْدِثُهُ الدِّينُ فى النُّفُوسِ مِنْ جِهَةِ الْحيَاةِ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ ، فَيَرَى صَاحِبُنَا أَنَّهَا دَارُ عَنَاءٍ وَبُكَاءٍ ، وَيَمِيلُ إِلَى الِاعْتِقَادِ بِأَنَّ السَّعَادَةَ لَيْسَتْ فى هَذِهِ الْحيَاةِ الدُّنْيَا . وَالْوَاقِعُ أَنَّ الدِّينَ لَا يُقْصَدُ بِهِ أَوَّلاً وَبِالذَّاتِ سَعَادَةُ الْأُمَمِ فِي الدُّنْيَا بَلِ السَّعَادَةُ الأُخْرَوِيَّةُ لِأَنَّهُ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى الأُمُورِ الزَّائِلَةِ وَلَكِنْ إِلَى الْخُلُودِ وَهُوَ أَفْضَلُ مَا يُبْتَغَى عَلَى التَّحْقِيقِ . لَكِنَّا لَا نَبْحَثُ فى هَذَا وَإِنَّمَا كَلَامُنَا فِيمَا يُحَصِّلُ لَنَا سَعَادَةَ هَذِهِ الدَّارِ الْفَانِيَةِ ، لِأَنَّا لَا نَتَكَلَّمُ فى التَّوْحِيدِ بَلْ نَتَكَلَّمُ فى الْعِلْمِ الِاجْتِمَاعِيِّ .

وَلَا يَغِيبَنَّ عَنِ الْقُرَّاءِ أَنَّ بَعْضَ الْمُتَصَفِّينَ بِالتَّقْوَى يُخْطِئُونَ خَطَأً فَاحِشاً فى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى قَاعِدَةِ التَّسْلِيمِ فَيَتَذَرَّعُونَ بِهَا إِلَى الْكَسَلِ وَالْخُمُولِ وَيَقُولُونَ فى أَنْفُسِهِمْ إِنَّ الْحيَاةَ لَا تُسَاوِى تِلْكَ الْمَتَاعِبَ كُلَّهَا ثُمَّ يَرْمُونَ تكلانهم[1] كُلَّهُ عَلَى اللهِ « الَّذِى

(١) توكلهم

لا يَنسى مَنْ آمنَ بهِ وَلجأَ إليْهِ » وَينسونَ قوْلَهُ تعَالَى « أعِنْ نَفْسَكَ يعِنْكَ رَبُّكَ (١) » وَالأَدْعى للرَّاحَةِ عِنْدَهُمْ أنْ يرْمُوا أحمَالَهُمْ كُلَّهَا عَلَيْهِ . وَمَنْ كانَ هَذَا فِكْرَهُ أصْبَحَ ضَعِيفاً تِلْقَاءَ أتْعَابِ الْحَيَاةِ مَادِّيًّا وَأَدَبِيًّا . وَعَلَيْهِ فالدِّينُ إذَا فَسَدَ الْعَمَلُ بِهِ يَصِيرُ آلَةَ ضَعْفٍ وَانحِطَاطٍ مَعَ أنَّهُ قِوَامُ الْحَيَاةِ وَفيهِ أَكْبَرُ مُعِينٍ عَلى تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ، وَلكنَّ النَّاسَ يُعَزُّونَ أَنْفُسَهُمْ مَتَى فَسَدُوا بقَوْلِهِمْ: (إنَّ اللهَ يَبْتَلِي عَبيدَهُ الْمُخْلِصِينَ) أَوْ بِقَوْلِهِمْ: (أَبْنَاءُ الْجَحِيمِ أَكْبَرُ حِذْقاً وَأَوْفَرُ حَظًّا فى الدُّنْيَا مِنْ أَبْنَاءِ النَّعِيمِ) وَمَا أَسْهَلَهَا طَرِيقَةً فى إرْجَاعِ الإنْسَانِ خَطَايَاهُ وَآثَامَهُ إلَى اللهِ وَحْدَهُ!!..

إذَا ثَبَتَ هَذَا فَلَنَا أَنْ نَقُولَ بِأَنَّ الأَسْبَابَ السَّالِفَ ذِكْرُهَا لَا تَكْفِي تَحْصِيلَ السَّعَادَةِ وَإنَّمَا هِيَ مِنَ الْمُسَاعِدَاتِ عَلَى تَحْصِيلِهَا، وَالْوَاقِعُ أَنَّ تَأْثِيرَهَا يَتبَعُ الوَسَطَ الَّذِي تُوجَدُ فِيهِ وَكَيْفِيَّةَ اسْتِعْمَالِهَا قُوَّةً وَضَعْفاً. وَمِنْ هُنَا وَجَبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ يَكُونُ الْوَسَطُ مُلَائِمًا أَوْمُنَافِياً لِتَحْصِيلِ السَّعَادَةِ، أَيْ لإيجَادِ ذَلِكَ الارْتِيَاحِ الَّذِي يَشْعُرُ بِهِ مَنْ تَمَكَّنَ مِنَ التَّغَلُّبِ عَلَى مَتَاعِبِ الحَيَاةِ المَادِّيَّةِ وَالأَدَبِيَّةِ تَغَلُّباً حَقِيقِيًّا.

(١) يشير الى بعض آيات الانجيل

وَإِذَا نَظَرْنَا إِلَى الْأُمَمِ وَجَدْنَاهَا لَا تَسِيرُ فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ نَحْوَ السَّعَادَةِ، بَلْ تَفْتَرِقُ إِلَى ثَلَاثٍ:

الْأُولَى: هِيَ الَّتِي سَهُلَ فِيهَا تَحْصِيلُ السَّعَادَةِ لِسُهُولَةِ وَسَائِلِ الْمَعِيشَةِ.

الثَّانِيَةُ: هِيَ الَّتِي يَصْعُبُ فِيهَا الْحُصُولُ على السَّعَادَةِ لِصُعُوبَةِ تِلْكَ الْوَسَائِلِ.

الثَّالِثَةُ: هِيَ الَّتِي تُدْرَكُ فِيهَا السَّعَادَةُ رَغْماً مِنْ تِلْكَ الصُّعُوبَةِ.

وَلْنَشْرَحْ تِلْكَ الْأَحْوَالَ الثَّلَاثَةَ الَّتِي يُخَالُ أَنَّهَا غَامِضَةٌ لَا يُدْرَكُ الْمُرَادُ مِنْهَا. كُلُّنَا يَعْرِفُ الْمَثَلَ الْمَشْهُورَ — لَيْسَ لِلْأُمَّةِ السَّعِيدَةِ تَارِيخٌ مَعْرُوفٌ — وَالْمَثَلُ صَحِيحٌ عِلْماً.

أَمَّا الْأُمَمُ الَّتِي لَا تَارِيخَ لَهَا فَهِيَ الَّتِي تَعِيشُ مِنَ الرِّزْقِ الطَّبِيعِيِّ كَالْعَشَائِرِ الرَّحَّالَةِ الَّتِي تَنْتَقِلُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ بَيْنَ الْمَرَاتِعِ وَالْمُرُوجِ. هُنَالِكَ تَكْثُرُ الْأَعْشَابُ فَلَا يَجِدُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ لِلْعَمَلِ دَاعِياً. وَأَهَمُّ أُولَئِكَ الْأَقْوَامِ عَشَائِرُ التَّتَارِ (الْمَنْغُولِيِّينَ). وَإِنِّي لَا أَذْكُرُ قَبَائِلَ الصَّحَارَى كَالْعَرَبِ وَشُعُوبِ أَوَاسِطِ أَفْرِيقْيَا لِأَنَّهُمْ مُضْطَرُّونَ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْعَمَلِ لِيُحَصِّلُوا إِتْمَامَ عَيْشِهِمْ

فَعِنْدَ الْعَشَائِرِ الرَّحَّالَةِ الْحَقِيقِيَّةِ تَجِدُ صُعُوبَةَ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ مُمَهَّدَةً مُذَلَّلَةً مِنْ ذَاتِهَا.

أَمَّا المَتَاعِبُ المَادِّيَّةُ الَّتِى تَرْجِعُ إِلَى المأْكَلِ وَالمَلْبَسِ وَالمَسْكَنِ فَهِىَ مَعْدُومَةٌ ، إِذِ المَاشِيَةُ كَافِلَةٌ لِتِلْكَ الحَاجَاتِ وَهِىَ تَتَغَذَّى بِمَا تُنْبِتُهُ الأَرْضُ مِنَ الأَعْشَابِ بِدُونِ عَمَلٍ لِلإِنْسَانِ. وَلَيْسَ على وَجْهِ المَسْكُونَةِ رَجُلٌ خَلَصَ مِنْ تِلْكَ الأَثْقَالِ وَأَمِنَ المَوْتَ جُوعاً مِثْلُ أُولَئِكَ القَوْمِ فَلاَ يَهْتَمُّونَ كُلَّ يَوْمٍ بِتَحْصِيلِ قُوتِهِمْ كما هُوَ حَالُنا، لأَنَّ العُشْبَ قَدْ كَفَاهُمْ مُؤُونَةَ ذَاكَ الاهْتِمامِ وَالعُشْبُ يَنْبُتُ وَحْدَهُ وَلاَ يَحْتَاجُ النَّازِلُ فِيهِ إِلَى حَصْدِهِ أَوْ تَجْفِيفِهِ أَو ادِّخَارِهِ . وَبِذَلِكَ نَجَا أُولَئِكَ القَوْمُ مِنْ مَخَالِبِ الفَقْرِ وَالفَاقَةِ وَلاَ يَعْرِفُونَ مَا نُسَمِّيهِ مَسْأَلَةَ الفَعَلَةِ لِأَنَّهُمْ لَيْسَ فِيهِمْ رَجُلٌ أَجِيرٌ .

وَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِى أَمِنَ بِطَبِيعَةِ الحَالِ مِنْ جِهَةِ حَاجَاتِهِ المَادِّيَّةِ آمِنٌ أَيْضاً مِنْ جِهَةِ الحَيَاةِ الأَدَبِيَّةِ ، وَلاَ يَنْبَغِى أَنْ نَقِيسَهُ بِنَا فَإِنَّ لَنَا حَاجَاتٍ وَرَغَبَاتٍ وَمَقَاصِدَ كَيَّفَتْهَا ظُرُوفُ اجْتِماعِنَا وَأَكَّدَتْهَا حَالَةُ مَعِيشَتِنَا مِمَّا لاَ نِسْبَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ماهُوَ فِيهِ . وَتِلْكَ الحَاجَاتُ الَّتِى اسْتَحْدَثْنَاهَا أَوِ الَّتِى وَلَّدَهَا فِينَا وَسَطُنَا الاجْتِماعِىُّ تَجْعَلُنا مِنَ التُّعَسَاءِ مَا عَجَزْنَا عَنِ القِيامِ بِهَا ، فَإِذَا كُفِينا مُؤُونَةَ حَاجَةٍ تَوَلَّدَتْ فِينَا حَاجَاتٌ جَدِيدَةٌ وَرَغَائِبُ غَيْرُ الأُولَى أَشَدُّ تَحَكُّماً وَأَصْعَبُ إِرْضَاءً . لِذَلِكَ قَالُوا : (السَّعَادَةُ فِى الإِقْلاَلِ مِنَ الرَّغَبَاتِ) كما قَالُوا (يَنْبَغِى لِلْمَرْءِ أَنْ يَكْتَفِىَ بِالعَيْشِ الوَسَطِ الهَنِىِّ)وَهُوَ قَوْلٌ حَسَنٌ ،

غَيْرَ أَنَّ حَالَتَنَا الاجْتِماعِيَّةَ تَدْفَعُنَا إلى ضِدِّ مَا بِهِ يَنصَحُونَ، على أَنَّهُمْ لَمْ يُرْشِدُونَا إلى تِلْكَ الحِكْمَةِ إلاَّ لأَنَّ الْعَمَلَ بِهَا نَادِرٌ في الْوُجُودِ. وَأَقْطَعُ دَلِيلٍ عَلى أَنَّ ذَلِكَ الرَّحَّالَةَ رَاضٍ عَنْ حَالَتِهِ ـ وَهَذَا الرِّضَا هُوَ أَقْصَى مَرَاتِبِ السَّعَادَةِ فى هَذِهِ الدَّارِ ـ أَنَّكَ لَنْ تُفْلِحَ فى حَمْلِهِ على اسْتِبْدَالِهَا، إذْ مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ اسْتِعْصَاءً عَلى الانْتِقَالِ مِنْ حَالٍ إِلَى غَيْرِهِ هُوَ الْبَدَوِيُّ الَّذِى لاَ يَرْضَى أَنْ يَسْتَعِيضَ غُدُوَّهُ وَرَوَاحَهُ بِالاسْتِقْرَارِ فى مَكَانٍ وَاحِدٍ وَلاَ أَنْ يَتَخَلَّى عَمَّا أَلِفَ فى الْبَدَاوَةِ لِيَعْتَنِقَ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الأَعْمَالِ الَّتى نُجَاهِدُ فِيهَا لِتَحْصِيلِ قُوتِنا. وَالأُمَمُ الْمُتَمَدِّنَةُ الْمُتَاخِمَةُ (١) لِتِلْكَ الْعَشَائِرِ تَعْلَمُ مَا نَقُولُ فَإِنَّهَا لَمْ تَصِلْ إِلَى إِدْخَالِ بَعْضِ التَّعْدِيلِ فى أَحْوَالِهِمْ إلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ، وَاسْتِعْمَالِ طُرُقِ الإِعْنَاتِ (٢) مِمَّا يَكَادُ يَبْلُغُ حَدَّ الْقَهْرِ وَالإِجْبَارِ. وَلَمْ يَنْجَحِ الْقَيَاصِرَةُ فِى هَذَا السَّبِيلِ مَعَ (السُّلاَفِيِّينَ) إلاَّ بَعْدَ مُرُورِ الأَجْيَالِ وَالْقُرُونِ. وَمَعْلُومٌ أَنَّ يَدَ الْقَيَاصِرَةِ لَمْ تَكُنْ رَحِيمَةً قَطُّ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّهُمْ لَمْ يَنْجَحُوا تَمَاماً، وَلاَ يَزَالُ السُّلاَفِيُّ عَلى جَانِبٍ عَظِيمٍ مِنْ حَالَتِهِ الأُولى يَعِيشُ فى مَبَادِىءِ الْبَدَاوَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعِيشُ فى عَادَاتِ الحَضَارَةِ وَالتَّمَدُّنِ، وَلاَ يَزَالُ يُقَدِّرُ السَّعَادَةَ بِكَثْرَةِ الْمَاشِيَةِ لاَ بِسَعَةِ الأَرْضِ الَّتى يَفْلَحُهَا.

(١) المجاورة، وتخوم الأرض: حدودها (٢) الاعنات من العنت: وهو الوقوع فى أمر شاق

وَقَدْ كَانَ الْقُدَمَاءُ يعرِفُونَ تِلكَ السَّعادَةَ فى الْعَشَائِرِ الْبَدَوِيَّةِ فكَانَ (هومير) وَمِنْ بعْدِهِ (ايفور) يُسَمِّيَانِهِمْ (أَعْدَلَ النَّاسِ). وَقَالَ (كوريلوس) الرَّحَّالَةُ (هُمْ أُولَئِكَ الْقَوْمُ الأَفَاضِلُ الْعُدُولُ) وَقَالَ (استرابون) : (إِنَّهُمْ يَعِيشُونَ عِيشَةَ تَقَشُّفٍ وَلاَ هَمَّ لَهُمْ بِجَمْعِ المَالِ) وَلاَ يَزَالُ هَذَا رَأْىَ السُّيَّاحِ فى هَذَا الْعَصْرِ قالَ مُوسْيُو (هوك) يُحَدِّثُ عَنِ (المَنْغُولِيِّينَ) وَقَدْ عَاشَ بَيْنَهُمْ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ: (أُولَئِكَ المَنْغُولِيُّونَ لَهُمْ نُفُوسٌ دِينِيَّةٌ كما يَنْبَغِى ، فَتَرَاهُمْ دَائِماً مُشْتَغِلِينَ بِالْحَياةِ الْبَاقِيَةِ، وَكُلُّ مَا فى هَذِهِ الدَّارِ صَغِيرٌ فى أَعْيُنِهِمْ فَهُمْ يَعِيشُونَ فى هَذِهِ الدُّنْيا كَأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْهَا) .

ذَلِكَ هُوَ مِثَالُ الرَّجُلِ الَّذِى يُقَلِّلُ مِنْ رَغَبَاتِهِ ، وَيَرَى السَّعَادَةَ فى عَيْشٍ وَسَطٍ لَيْسَ بِالمَغْبُوطِ عَلَيْهِ . وَمَرْجِعُ هَذِهِ السَّعَادَةِ هُوَ الْوَسَطُ المَادِّىُّ الَّذِى يَعِيشُ فِيهِ لِكِفَايَتِهِ وَتَوْفِيرِهِ وَسَائِلَ الْعَيْشِ أَىَّ تَوْفِيرٍ . ثُمَّ إِنَّ سُهُولَةَ المَعِيشَةِ تَزْدَادُ لَدَيْهِمْ بِضَرُورَةِ اجْتِمَاعِهِمْ ،فَقَدْ تَبْلُغُ الْعَائِلَةُ مِنْهُمْ مِئَاتٍ مِنَ النُّفُوسِ كما كَانَ عَلَيْهِ أَسْبَاطُ[1] التَّوْرَاةِ . فَلَيْسَ الرَّجُلُ بِمَعْزِلٍ عَنِ النَّاسِ قَطُّ ، بَلِ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَسْتَعِينُ بِأَخِيهِ فَيُصْبِحَانِ فى مَأْمَنٍ مِنْ طَوَارِقِ

(١) السبط من اليهود كالقبيلة من العرب

الْحَدَثَان . وَلَيْسَ الضُّعَفَاء مِنْهُمْ وَالْمُقْعَدُونَ وَفَاقِدُو الْأَهْلِيَّةِ وَالطَّائِشُونَ مُهْمَلِينَ وَشَأْنَهُمْ وَلَا مُعَرَّضِينَ لِتِلْكَ الْحَالَةِ التَّعِسَةِ الَّتِي تَفَاقَمَ خَطْبُهَا (١) بَيْنَ الْقَوْمِ الْمُتَمَدِّنِينَ .

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّكَ تَرَى الرَّجُلَ فِي تِلْكَ الْمُجْتَمَعَاتِ سَعِيدًا بِوَفْرَةِ الْغِذَاءِ الطَّبِيعِيِّ وَمَعُونَةِ الْوَسَطِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ فَهُوَ بِهِمَا فِي مَأْمَنٍ مِنْ غَوَائِلِ الْحَيَاةِ بَعِيدٌ عَنْ مُوجِبَاتِ الشَّقَاءِ سَعِيدٌ لَا يَبْتَغِي مِنْ حَالَتِهِ بَدِيلًا .

وَيُوجَدُ بِجَانِبِ تِلْكَ الْعَشَائِرِ أَقْوَامٌ آخَرُونَ غَيْرُ قَلِيلِينَ يَعِيشُونَ مِنَ الْأَعْشَابِ مُسْتَعِينِينَ بِجَمْعِيَّتِهِمْ الْمُتَكَاثِفَةِ لَكِنْ عَلَى حَالٍ أَقَلَّ كَمَالًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ، فَهُمْ أَيْضًا فِي مَأْمَنٍ عَلَى التَّقْرِيبِ مِنْ صُرُوفِ الْحَيَاةِ . وَأُولَئِكَ الْأَقْوَامُ طَبَقَاتٌ بَعْضُهَا أَحَطُّ مِنْ بَعْضٍ فِي دَرَجَةِ السَّعَادَةِ وَهِيَ تَبْتَدِي مِنْ تِلْكَ الطَّبَقَةِ الَّتِي وَصَفْنَاهَا لَكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَى حَالَةِ الْأُمَمِ الثَّانِيَةِ الَّتِي سَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا :

تِلْكَ الْأُمَمُ الثَّانِيَةُ هِيَ الَّتِي فَقَدَتْ وَسَائِلَ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ لِفَقْدِ الْأَعْشَابِ الطَّبِيعِيَّةِ وَتَمَزُّقِ الْعَائِلَةِ . فَالرَّجُلُ فِيهَا وَاقِفٌ بِنَفْسِهِ أَمَامَ مَتَاعِبِ عَيْشِهِ وَلَكِنَّهُ لَا يُقْدِمُ عَلَى اقْتِحَامِهَا، بَلْ إِنَّهُ يُفْرِغُ جُهْدَهُ فِي الْهَرَبِ مِنْهَا . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ السَّبَبَ فِي هَرَبِهِ هَذَا مَا فُطِرَ

---

(١) الخطب : الأمر صغر أو عظم وغلب استعماله للأمر العظيم المكروه . وتفاقم الخطب عظم ولم يجر على استواء

عَلَيْهِ الْمَرْءُ مِنْ حُبِّ الِابْتِعَادِ عَنِ الشَّقَاءِ، وَهُوَ سَبَبٌ صَحِيحٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ إِلَّا أَنَّهُ يَلْزَمُنَا الْبَحْثُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِى جَعَلَ التَّرْبِيَةَ وَقِيَامَ الضَّرُورَةِ لَا تُزِيلَانِ ذَلِكَ الدَّاعِيَ إِلَى الْبَطَالَةِ وَالْكَسَلِ.

وَالْعِلْمُ الِاجْتِمَاعِيُّ يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأُمَمَ الَّتِى تَسْكُنُ الْقِسْمَ الْأَكْبَرَ مِنْ وَجْهِ الْبَسِيطَةِ، وَنَاحِيَةً مِنْ غَرْبِيِّ أُورُبَّا قَدْ نَشَأَتِ اتِّكَالِيَّةً أَيَّامَ كَانَ آبَاؤُهُمُ الْأَقْدَمُونَ يَعِيشُونَ فِى تِلْكَ الْبِقَاعِ ذَاتِهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ بِغَيْرِ عَنَاءٍ.

فَأُمَمُ الْيَوْمِ سُلَالَةُ أُمَمِ الْأَمْسِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَعُدْ تُنْبِتُ شَيْئًا مِنْ نَفْسِهَا كَمَا مَضَى.

وَرَجُلُ الْيَوْمِ مِنْ تِلْكَ الْأُمَمِ تَعَوَّدَ الِاعْتِمَادَ عَلَى مَا يَسُوقُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنَ الرِّزْقِ الطَّبِيعِيِّ، وَمَا يُسَاعِدُهُ بِهِ الْأَهْلُ وَالْمُوَاطِنُونَ، ثُمَّ أَمْسَى وَقَدْ فَقَدَ الْمَعُونَتَيْنِ وَاضْطُرَّ إِلَى اقْتِحَامِ الْأَتْعَابِ لِيُحَصِّلَ قُوتَهُ بِنَفْسِهِ فَالْحَاجَةُ تُنَادِيهِ، (اعْمَلْ وَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ وَمَضَاءٍ وَلَا تَرْكَنْ إِلَى غَيْرِكَ، إِذْ لَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ غَيْرِ هَذِهِ فِى تَحْصِيلِ رِزْقِكَ وَسَعَادَتِكَ) وَفِطْرَتُهُ الْأَصْلِيَّةُ وَمَا شَبَّ عَلَيْهِ مِنَ الْعَادَاتِ يُجِيبُ هَذَا النِّدَاءَ: (إِنَّ الْعَمَلَ وَالْجِدَّ وَالْعَزِيمَةَ مَتَاعِبُ أَحْلَى مِنْهَا اجْتِنَابُهَا وَفِى الْبُعْدِ عَنْهَا سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ). وَالْغَالِبُ هُوَ صَوْتُ الْفِطْرَةِ، لِأَنَّهُ يَجِدُ أُذُنًا

صَاغِيةً (١) هِيَ الْعَادَةُ الْمَأْلُوفَةُ ، لاَ سِيَّمَا أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ يَرْتَاحُ إِلَى الِاسْتِرْسَالِ مَعَهَا .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لاَ مَلْجَأَ لِلْمَرْءِ مِنْ تَحَمُّلِ هَاتِيكَ الْمَتَاعِبِ إِلاَّ اسْتِعْمَالُ مَا وَرِثَهُ عَنْ آبَائِهِ مِنَ الِاعْتِمَادِ عَلَى الْغَيْرِ وَالْعِيشَةِ مِمَّا يَكْسِبُونَ أَعْنِي بِذَلِكَ التَّمَادِيَ فِي طَلَبِ الْمَعُونَةِ مِنَ النَّاسِ شَأْنُ الزُّنْبُورِ مَعَ النَّحْلَةِ .

نَعَمْ زُنْبُورٌ ذَلِكَ الْفَتَى الَّذِي بَلَغَ الْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ وَكَانَ سَلِيمَ الْجِسْمِ صَحِيحَ الْقُوَى ، ثُمَّ جَعَلَ كُلَّ اعْتِمَادِهِ عَلَى مَا يَتَنَاوَلُهُ مِنْ عَائِلَتِهِ فَلاَ يَعِيشُ إِلاَّ مِنْ مَكَارِمِهَا ! ! .

زُنْبُورٌ ذَلِكَ الْفَتَى الَّذِي بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالْعِشْرِينَ أَوِ الثَّلاَثِينَ ، ثُمَّ هُوَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى الزَّوَاجِ إِلاَّ مِنْ جِهَةِ الْمَهْرِ الَّذِي يَكُونُ لِخَطِيبَتِهِ لِيَكُونَ لَهُ مِنْهُ سَبِيلٌ سَهْلٌ لِلْمَعِيشَةِ عَلَى نَفَقَتِهَا ! ! .

زُنْبُورٌ ذَلِكَ الْفَتَى الَّذِي يَحْتَقِرُ الْمِهَنَ الْحُرَّةَ وَالصِّنَاعَاتِ الْمُسْتَقِلَّةَ وَيَرَى الشَّرَفَ كُلَّ الشَّرَفِ فِي وَظَائِفِ الْحُكُومَةِ حَيْثُ لاَ جُهْدَ وَلاَ عَنَاءَ وَلاَ هِمَّةَ وَلاَ إِقْدَامَ فَيَعِيشُ كَلاًّ (٢) عَلَى بَيْتِ الْمَالِ ! !

زُنْبُورٌ ذَلِكَ الرَّجُلُ مُتَوَسِّطُ الْحَالِ أَوِ الأَجِيرُ الَّذِي لاَ يَرَى فَرَجًا مِنْ مَصَاعِبِ الْحَيَاةِ فِي الزَّمَنِ الْحَاضِرِ غَيْرَ الِالْتِجَاءِ إِلَى الْهَيْئَةِ

(١) صغا اليه : مال ، وأصغى اليه : مال اليه بسمعه (٢) عالة

كَالْبَلَدِيَّةِ أَوِ الْحُكُومَةِ لِيَطْلُبَ المَعُونَةَ مِنْهَا وَيَعِيشَ أَيْضًا مِنْ بَيْتِ المَالِ .

ثُمَّ زُنْبُورٌ ذَلِكَ الَّذِى اتَّخَذَ السِّيَاسَةَ مِهْنَةً وَاسْتَخْدَمَ سَذَاجَةَ قَوْمِهِ فَتَحَبَّبَ إِلَيْهِمْ بِوَعْدِهِمْ مَا يَشْتَهُونَ حَتَّى يَعِيشَ عَلَى نَفَقَةِ أُولَئِكَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَخْدَعُهُمْ وَيُلْحِقَ بِهِمِ الْفَقْرَ وَالدَّمَارَ !!

إِذَا بَلَغَ الْحَالُ فِى أُمَّةٍ هَذِهِ الدَّرَجَةَ انْتَفَى الْعَجَبُ مِنْ ظُهُورِ الاِشْتِرَاكِيِّينَ فِيهَا وَسُرْعَةِ انْتِشَارِهِمْ بَيْنَ طَبَقَاتِهَا إِذْ فِى مَذْهَبِهِمْ وَعْدٌ لِلنَّاسِ بِهَيْئَةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ جَدِيدَةٍ يَكُونُ الْكُلُّ فِيهَا مِنَ الزَّنَابِيرِ لَكِنْ ، لِسُوءِ حَظِّ الْمُبَشِّرِينَ بِهَذَا النَّعِيمِ لَا وُجُودَ لِلزَّنَابِيرِ إِلاَّ إِذَ وُجِدَ النَّحْلُ وَلَا سَبِيلَ لِلإِكْثَارِ مِنَ الْأُولَى إِلاَّ إِذَا ضُوعِفَ عَمَلُ الثَّانِيَةِ ، وَهَذِهِ ضَرُورَةٌ يُؤْسَفُ علىوُجُودِهَا وَلَوْلَاهَا لَحَلاَ بِالطَّبْعِ لِكُلِّ انْسَانٍ أَنْ يَعِيشَ مِنْ مَالِ الْجَمِيعِ .

وَرُبَّ مُعْتَرِضٍ يَقُولُ : أَجَلْ إِنَّ حَالَةَ الزَّنَابِيرِ مِمَّا تَرْتَاحُ لَهُ النُّفُوسُ وَالهَمُّ كلُّ الهَمّ فى صَيْرُورَةِ الإِنْسَانِ زُنْبُورًا ، فَمَنْ نَالَ ذَلِكَ كَانَ سَعِيدًا وَعَلَيْهِ فَلْتَحْىَ الزَّنَابِيرُ . غَيْرَ أَنَّ الأُمَّةَ الَّتِى يَكُونُ هَذَا حَالُهَا لَا تُسَاعِدُ عَلَى تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ كَثِيرًا لأَنَّ مِنَ المُعْضِلَاتِ أَنْ يُحَصِّلَ الإِنْسَانُ سَعَادَتَهُ بِأَقَلِّ عَمَلٍ مُمْكِنٍ فِى أُمَّةٍ لَا قِوَامَ لَهَا إِلاَّ بِأَكْثَرِ عَمَلٍ مُمْكِنٍ ، وَطَالِبُ هذا شَبِيهٌ

بالرَّجُلِ الَّذِى يطْلُبُ حاجَتَهُ مِنْ وَرَاءِ نَهْرٍ جارٍ ، فَهُوَ مُضْطَرٌّ إِلى مُقَاوَمَةِ المَاءِ عَلى الدَّوَامِ فى كلِّ يَوْمٍ وَسَاعَةٍ وَالنَّهْرُ لا يَزالُ يَجْرِى ضِدَّ مَقْصِدِهِ وَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُ تَعَذَّرَ أَنْ يَكُونَ خَلِيَّ الْبَالِ سَعِيداً.

هَذِهِ حَالٌ لَا يَأْمَنُ الضَّيْمَ (١) مَعَهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ صَارُوا مِنْ صَفِّ المُوَظَّفِينَ أَنْفُسِهِمْ ، مَعَ أَنَّهُمْ قَدْ خَلَصُوا بِذَلِكَ مِنْ مَتَاعِبَ كَثِيرَةٍ فى الْحَيَاةِ لِأَنَّ غَالِبَهُمْ يَعِيشُ فِى ضِيقٍ وَتَقْتِيرٍ اضْطِرَاراً إِلَى المَعِيشَةِ هُمْ وَعَائِلاتُهُمْ وَإِلَى تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ بِرِزْقٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ هُوَ الشَّقَاءُ تَحْتَ الْكُسْوَةِ السَّوْدَاءِ وَهُوَ أَقْسَى شَقَاءٍ فى الوُجُودِ . ذَلِكَ بُؤْسٌ لا يَتَمَكَّنُ المَرْءُ مَعَهُ مِنَ المُحَافَظَةِ على دَرَجَتِهِ بَيْنَ النَّاسِ وَلاهُوَ يَخْلُصُ مِنَ التَّأَلُّمِ بِهِ ، فَهُوَ جُرْحٌ يَتَجَدَّدُ فِي كلِّ صَبَاحٍ . وَزِدْ عَلى ذَلِكَ أَنَّهُ يَعِيشُ مَسْلُوبَ الْإِرَادَةِ مُؤْتَمِراً (٢) بِغَيْرِهِ ! وَالآمَالُ مَحْصُورَةٌ وَلِلرَّجَاءِ حَدٌّ قَرِيبٌ .

ثُمَّ الْحَالُ أَشَدُّ فِى تِلْكَ الْأُمَمِ بِالنَّظَرِ لِغَيْرِ المُوَظَّفِينَ الَّذِينَ يُضْطَرُّونَ إِلَى الْعَمَلِ بِأَنْفُسِهِمْ وَهُمْ عَلَيْهِ غَيْرُ قَادِرِينَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَهَيَّئُوا لَهُ مِنْ قَبْلُ بِالتَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَالْكَسْبُ غَيْرُ مُحَقَّقٍ فَيَوْمٌ يُسْرٌ وَيَوْمٌ فى إِعْسَارٍ . وَلَهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا وَظَائِفَ

(١) الضيم : الظلم (٢) يقال ائتمر الأمر أى امتثله

الْحُكومَةِ وَأَطْماعٌ تَمْتَدُّ نحوها، وَهُمْ عَلى الدَّوامِ يَرْجِعُونَ مِنْ آمالِهِمْ خائِبِينَ .

وَبالجُمْلَةِ فالْحَيَاةُ شاقَّةٌ على الْجَمِيعِ وَالْكلُّ مُتَأَثِّرٌ بنَشْأَتِهِ الاتِّكالِيَّةِ وَهِيَ السَّبَبُ فِي اعْتِقادِ كلِّ واحِدٍ أَنَّ مَالَ الْأَبِ مَالٌ لِجَميعِ عَائِلَتِهِ. لِذلِكَ تَرَى الرَّجُلَ يَتَجَرَّدُ عَنْ أَمْلاكِهِ فِي حَيَاتِهِ وَيَهَبُها مَهْرًا لِأَوْلَادِهِ مَتَى حَانَ وَقْتُ الزَّوَاجِ وَوَجَبَ على كلِّ وَالِدٍ أَنْ يَجْمَعَ مِنَ المَالِ مَا يَكْفِي جَمِيعَ أَوْلَادِهِ مَعَ أَنَّ مِنَ الصَّعْبِ في هَذِهِ الأَيَّامِ أَنْ يُحَصِّلَ الْإِنْسَانُ مَالًا يَكْفِيهِ وَحْدَهُ . فلَمَّا رأى قَوْمُنَا أَنَّ القِيَامَ بِهَذَا الْوَاجِبِ مُتَعَذِّرٌ لَمْ يَجِدُوا لَهُمْ بُدًّا مِنَ الْهَرَبِ مِنْهُ إِلَّا الْإِقْلالَ مِنَ الْأَبْنَاءِ، وَأَصْبَحْنَا نُفَضِّلُ أَنْ نَمْهَرَ أَبْنَاءَنَا عَلى الإِكْثارِ مِنْ نَسْلِنا . وَمَعَ هَذَا لَا تَزَالُ الحَياةُ مُتْعِبَةً إِذْ نَحْنُ نَعِيشُ عِيشَةَ ضِيقٍ وَحِرْمَانٍ وَنَقْتَصِدُ اقْتِصَادَ الْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ ، وَذَلِكَ مِمَّا يُكَدِّرُ صَفْوَ الحَيَاةِ وَيُعَطِّلُ السَّعَادَةَ فِي الْأُمَّةِ .

وَلِهَذَا الضِّيقِ فِي تِلْكَ الْأُمَمِ آثَارٌ يَنْبَغِي النَّظَرُ فِيهَا وَأَكْتَفِي بِذِكْرِ أَرْبَعَةٍ يَرْجِعُ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهَا إِلَى دَوْرٍ مِنْ أَدْوَارِ الْأُمَّةِ الَّتِي ظَهَرَ فِيهَا ، وَقَدْ عُنِيتُ بِاخْتِيَارِهَا فِي بِلَادٍ مُخْتَلِفَةٍ :

فَالْأَوَّلُ هُوَ يَأْسُ النُّفُوسِ الَّذِي امْتَازَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْهِنْدِيَّةُ وَهُوَ

مَذْهَبُ الْفَنَاءِ المَعْرُوفُ عِنْدَهُمْ بِاسْمِ (نيرفانا). وَقَدِ انْتَشَرَ هَذَا الرُّوحُ بِسُرْعَةٍ بَيْنَ سُكَّانِ الشَّرْقِ الْأَقْصَى مَعَ أَنَّ زِرَاعَتَهُمْ لَا تَزَالُ قَرِيبَةً مِنَ الحَالَةِ الطَّبِيعِيَّةِ، إِلاَّ أَنَّهُمْ حُرِمُوا مِنَ التَّسْهِيلَاتِ اللَّازِمَةِ فِيهَا. وَمَعْنَى (نيرفانا) هُوَ النَّجَاةُ أَوِ السَّلَامَةُ، وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَى السَّعَادَةُ الَّتِى وَعَدَ بِهَا الهِنْدِيِّينَ صَاحِبُ المَذْهَبِ الْبُوذِيِّ المَشْهُورِ. وَمَدَارُ هَذِهِ السَّعَادَةِ عَلَى أَنَّ النَّاسَ لَا يَرْجِعُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إِلَى حَيَاةٍ كَالَّتِى فَارَقُوهَا بَلْ يَدْخُلُونَ فِى حَيَاةٍ أُخْرَى غَيْرِ جِسْمِيَّةٍ وَلَا مُحَسَّةٍ، وَمِنَ المُوَصِّلَاتِ إِلَيْهَا السُّبَاتُ[1] المُسْتَمِرُّ، وَالتَّسْلِيمُ المُطْلَقُ، وَهَجْرُ الْعَمَلِ، وَإِنْكَارُ فَضْلِهِ حَتَّى يَكَادُ المَرْءُ يَنْسَى أَنَّهُ مَوْجُودٌ. وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ إِنْكَارِ السَّعَادَةِ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَتَرَى الرَّجُلَ مِنْهُمْ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْيَأْسُ مِنْ تَحْصِيلِ سَعَادَتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَلَا يَجِدُ لَهُ مَلْجَأً فِى مَعِيشَتِهِ غَيْرَ الانْكِمَاشِ وَالِاسْتِمَاتَةِ! لَا يَسْعَى لِتَحْصِيلِ رِزْقِهِ وَلَا يُغَالِبُ مَا يَعْرِضُ لَهُ مِنَ الصُّعُوبَاتِ فِى حَيَاتِهِ بَلْ يُسْلِمُ نَفْسَهُ لِكُلِّ جَائِحَةٍ[2] عَلَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ.

وَالثَّانِي مَذْهَبُ الْعَدَمِيِّينَ المَعْرُوفِينَ فِى الْأُمَمِ السِّلَافِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ بِاسْمِ (نهليست) وَهُوَ ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْيَأْسِ أَيْضًا. وَهُمْ أُمَمٌ خَرَجُوا مِنْ حَالَةِ المَعِيشَةِ الْبَسِيطَةِ إِلَى حَالَةِ أُورُبَّا الْغَرْبِيَّةِ، وَرَأَوْا

(١) السبات فى الأصل: النوم، ويراد به هنا تلك الحالة التى تشبه الغيبوبة

(٢) الجائحة : الشدة التى تجتاح المال، والمراد هنا المصيبة مطلقاً

أَنَّهُمْ مُلْجَئُونَ إلى الْكَدِّ وَالْعمَلِ فَأَرَادُوا الهَرَبَ مِنْ تِلْكَ الوَاجبَاتِ الجديدَةِ وَلَمْ يهْتَدُوا إليْهِ سَبيلاً . لِذَلِكَ تولَّدَ فِيهِمْ مَذْهَبُ الْعدَمِ أَىْ إنْكارِ كلِّ مَا في الْوُجُودِ وَوُجُوبِ الْعمَلِ بِمَا يَقْتَضى التَّخْرِيبَ وَالإِبَادَةَ . وَأُولَئِكَ قوْمٌ لاَ سَعَادَةَ لَهُمْ فى هَذِهِ الدَّارِ أَيْضًا .

وَالثَّالِثُ مَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ وَهُوَ الْيأْسُ الَّذِى اسْتوْلَى عَلى أُمَمِ الْغرْبِ الَّذِينَ عَلى الحالَةِ الاتِّكالِيَّةِ قَليلاً أَوْ كَثيراً . وَالسَّبَبُ فى ظُهُورِ هَذَا الرُّوحِ كما بَيَّنَّاهُ ، النَّشْأَةُ الأَصْلِيَّةُ الَّتي فُطِرَتْ عَلَيْهَا تِلْكَ الأُمَمُ . وَخُلاَصَةُ المَذْهَبِ حَملُ كُلِّ فرْدٍ على طَلَبِ السَّعَادَةِ مِنْ أُمَّتِهِ ، وَفيهِ إنْكارُ مزَايَا الْعَمَلِ وَالاجْتِهادِ وَالهِمَّةِ وَالإِقْدَامِ . وَمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلى حَقيقَةِ رَأْيِهِمْ فَلْيَقْرَأْ رِسَالَه مُوسْيُو (لافارج) ضِدَّ الْعمَلِ الَّتى عِنْوَانُها (حَقُّ الإِنْسَانِ فى الْكَسَلِ) فَمِنْها : (لَقَدِ اسْتَوْلَى الْجُنونُ على طَبقَاتِ الْفعَلَةِ فى الأُمَمِ الَّتى سَادَ فِيهَا أَصْحَابُ الأَمْوَال ، وَنَشَأَ عَنْ هَذَا الْجُنون بُؤْسُ حَال النَّاس وَضَنْكُ الهَيْئَةِ الاجْتِماعِيَّةِ اللَّذَان أُصِيبَتْ بِهِمَا الإِنْسَانِيَّةُ مُنْذُ قَرْنَيْن كَامِلَيْن فَكَدَّرَا صَفوَ الْعَيْشِ عَلَيْها . وَالْعمَلُ هُوَ السَّبَبُ الْفَعَّالُ فى فَسَادِ أَفْكارِ الأُمَمِ الَّتى سَادَ المَالُ فِيهَا وَهُوَ السَّبَبُ فِى تَشْوِيهِ[1] الإِنْسَانِ وَتَرْكِيبِ الإِنْسَانِ) ثُمَّ أَرَادَ المُؤَلِّفُ أَنْ يَسْتَدِلَّ عَلى أَفْضَلِيَّةِ الْكَسَلِ عَلى

---

(١) تقبيح

الْعمَلِ فَذَكَرَ المَثَلَ الأَنْدَلُسِيَّ : (الرَّاحَةَ هِيَ الصِّحَّةُ [١]). وَعَلَى كلٍّ فإِنَّ ظُهُورَ ذَلِكَ المَذْهَبِ يَدُلُّ دَلاَلَةً قَاطِعَةً عَلَى أَنَّ أَهْلَهُ لاَ يَجِدُونَ سَعَادَتَهُمْ فِى هَذِهِ الدَّارِ كما خُلِقَتْ.

وَالرَّابِعُ مَذْهَبُ التَّطَيُّرِ [٢] وَهُوَ الفِكْرُ الَّذِى اسْتَوْلَى عَلَى طَبَقَاتِ المُسْتَنِيرِينَ فِى الْأُمَمِ الغَرْبِيَّةِ ، وَأُرِيدُ بِهِ تِلْكَ المَذَاهِبَ الْفَلْسَفِيَّةَ أَوِ الَّتِى تَنْتَسِبُ إِلَى الفَلْسَفَةِ الَّتِى سَادَتْ بَيْنَ الأُمَمِ الأَلْمَانِيَّةِ وَالسَّلْتِيَّةِ وَبَنَوْا عَلَيْهَا نَظَرَهُمْ فِى هَذِهِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا. نَعَمْ لاَ أُنكِرُ أَنَّ اليُونَانِيِّينَ وَالتِّلْيَانَ يَتَوَسَّمُونَ الخَيْرَ فِي الحَيَاةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَلَكِنَّ السَّبَبَ فِي هَذَا عِنْدَ الأُمَّتَيْنِ المَذْكُورَتَيْنِ سُكْنَاهُمْ بِلاَدًا تَكْثُرُ فِيهَا النَّبَاتَاتُ وَالأَعْشَابُ ، فَيَسْهُلُ عَلَيْهِمْ زَرْعُهَا زَرْعًا بَسِيطًا وَذَلِكَ مِمَّا يُؤَيِّدُ القَاعِدَةَ الَّتِى ذَكَرْنَاهَا ، وَقَدْ يَعِيشُ العَدَدُ الكَثِيرُ مِنْهُمْ مِنْ جَنْىِ الثِّمَارِ وَلاَ يَعْمَلُونَ إِلاَّ قَلِيلاً. وَالشَّحَّاذُونَ فِى مَدِينَةِ نَابِلْ هُمْ أَعْظَمُ مِثَالٍ لِتِلْكَ الأُمَمِ ، لِذَلِكَ تَصِلُ الأُمَمُ الَّتِى تَسْكُنُ جَوَانِبَ البَحْرِ الأَبْيَضِ المُتَوَسِّطِ بِالأُمَمِ الَّتِى تَرَى سَعَادَتَهَا العُظْمَى فِى سُهُولَةِ مَعِيشَتِهَا.

وَيَتَبَيَّنُ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ مَسْأَلَةَ السَّعَادَةِ مُفَصَّلَةٌ فِى الحَالَةِ الثَّالِثَةِ، غَيْرَ

(١) ولو كان يعرف العربية لتمثل بقول بعضهم :

ان البطالة والكسل أحلى مذاقاً من عسل

(٢) التشاؤم

أَنَّهَا هِيَ الْحَالَةُ الَّتِي يَنْجَحُ السَّعْيُ فِيهَا وَرَاءَهَا ، فَقَدْ رَأَيْنَا الْإِنْسَانَ يَبْحَثُ عَنْ سَعَادَتِهِ فِي رَاحَتِهِ أَوْ فِي أَنَّهُ لَا يَشْتَغِلُ إِلَّا الْقَلِيلَ مَا اسْتَطَاعَ. وَهُوَ فِي حَالَةِ الرَّاحَةِ يَجِدُ السَّعَادَةَ إِلَّا أَنَّهَا عَفِنَةٌ ضَئِيلَةٌ، وَهُوَ فِي الثَّانِيَةِ لَا يَجِدُهَا أَبَدًا .

لَكِنَّهُ فِي الْحَالَةِ الثَّالِثَةِ يَطْلُبُهَا بِجِدِّهِ الذَّاتِيِّ وَعَمَلِهِ الْخَاصِّ ، فَلَا يَهْرُبُ مِنْ صَعْبٍ وَلَا يَجْزَعُ لِعَمَلٍ شَاقٍّ، بَلْ يُقْدِمُ عَلَى الْمَتَاعِبِ ثَابِتَ الْجَأْشِ ، وَيُقَدِّرُهَا كَمَا يَنْبَغِي ثُمَّ يَجْتَازُهَا بِعَزْمٍ وَإِقْدَامٍ .

وَيُخَالُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ أَنَّ طَلَبَ السَّعَادَةِ مِنَ الْكَدِّ وَالْعَنَاءِ أَمْرٌ يُشْبِهُ التَّهَكُّمَ الْمُؤْلِمَ أَوْ لَعِبَ النَّصِيبِ (١) ، وَهُوَ صَحِيحٌ إِذَا لَمْ يُلَاحِظِ الْإِنْسَانُ فِي الْحُكْمِ عَلَى هَذَا إِلَّا ذَاتَهُ وَمَا يَشْعُرُ بِهِ ، لِأَنَّهُ بِالطَّبْعِ مَيَّالٌ إِلَى الرَّاحَةِ أَكْثَرَ مِنْ مَيْلِهِ إِلَى التَّعَبِ . أَعْنِي أَنَّهُ يُفَضِّلُ السَّهْلَ عَلَى الْعَسِيرِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بَاعِثٌ يَدْعُوهُ إِلَى الْحَرَكَةِ لَصَبَا (٢) إِلَى عِيشَةِ الزُّهَّادِ وَالْمُتَعَبِّدِينَ وَاكْتَفَى بِحَشَائِشِ الْأَرْضِ طَعَامًا .

وَلَكِنْ لَا نَبْحَثُ عَنْ شُعُورِ الْقَارِئِ أَوْ عَمَّا نَشْعُرُ بِهِ نَحْنُ، بَلْ نَتَتَبَّعُ الْوَقَائِعَ وَنَسْتَقْرِي الْحَوَادِثَ لِنَقِفَ عَلَيْهَا كَمَا يَنْبَغِي . وَمَهْمَا كَانَتْ غَرَابَةُ الْأَمْرِ فَإِنَّ إِدْرَاكَهُ مِنَ الْمَيْسُورِ عَقْلًا ، وَالْمَرْءُ

(١) أى لعب ورق (اليانصيب) يريد المقامرة التى قد تخطىء وقد تصيب (٢) مال

لم يطلب السعادة بالهرب من الكد والنصب إلا لكونه يستعظم الجهد الذى يجب عليه أن يتحمله فى التغلب على الصعوبات الممكنة ، وعادة الإنسان ألا يقبل العمل المطلوب منه إذا علم من نفسه عدم القدرة على أدائه، غير أن العمل الذى لا يتأتى لزيد من الناس فعله لصعوبته عنده يكون سهلا عند كثيرين غيره ، بل ربما كان من الأمور المحببة إليهم . وإذا ثبت هذا ثبت بالطبع أن أولئك القوم الأشداء الأقوياء لا ينظرون إلى الحياة كما ننظر نحن إليها ، وأنه لا تأثير فيهم لتلك المذاهب من يأس وعدم وفوضى وتطير .هم يرون الحياة كلها بعين غير أعيننا فتتجلى لهم فى بهاء وجمال.لذلك كان مذهبهم مذهب رجاء وآمال وحسن ظن بالاستقبال .

بقى علينا أن نعرف إن كان أولئك القوم موجودين أم لا ؟ ولا يشك أحد ممن قرأ الأسطر السابقة فى أنهم موجودون . ولكنى أريد أن أبرهن على أمر جديد وهو أن الجمعيات الاستقلالية كما توجب رفعة أممها فى العالم وتقدمها على غيرها فإنها هى التى تميل بالإنسان إلى تحصيل أوفى حظ ممكن من السعادة فى هذه الدار إذا اتفقت فى جميع الظروف هى والأمم الأخرى .

شرحت فيما تقدم نظام مدرسة غرض القائمين بها تعليم

الإنسان كيف يقدر على تحصيل عيشه بنفسه، وقلت إنها تربى العزيمة والإرادة والثبات وأنها تقوى الجسم كما تربى العقل.

وشرح موسيو «روزيه» و«بيرو» في مجلة (العلم الاجتماعي) تلك الطريقة عينها في بلاد الإنكليز والولايات المتحدة فعرفنا منهما أن الشاب يشب على اعتقاد أن الرجل إذا سقط يجب أن يسقط على قدميه كالهر، سواء تعلم في البيت أو في المدرسة أو بين إخوانه وهم يعملون. فوجهة الشبان هناك الكد والتزاحم في الحياة لا الإخلاد[1] إلى الراحة والكسل وهم لا يخافون من تلك الكلمات: تزاحم في الحياة كد نصب، لأنهم لا يخافون من مسمياتها وما عدم خوفهم إلا من أن تربيتهم جعلتهم قادرين على مغالبتها.

والواقع أن تلك الأمة الإنكليزية السكسونية قد أخرجتنا من معظم البلاد التي كنا نحتلها فلم يحل علينا القرن مذ كنا أصحاب السيادة والنفوذ في آسيا وافريقا وأمريكا، إلا وقد انهزمنا في كل مكان أمامها فهي خصمنا الموروث وهي الخصم الذي يجب علينا أن نقلده في ارتقائه. ولسنا بترداد هذا النصح نعمل كعالم وقف على حقائق الأشياء فقط بل كمحب لوطنه يلاحظ المستقبل ويأخذ بالأحوط.

(١) الركون والميل

إلاّ أَنّ غَرضِى الآنَ يَنحصِرُ فى بيَانِ أَنّ تلكَ التّربيةَ تجعلُ الرَّجُلَ سَعيدًا أَكْثَرَ مِنْ غيرِهِ لِمَا تُوجِدُهُ في نفسِهِ مِنَ الاعْتِقادِ برِفعَتِهِ عَمّنْ سِوَاهُ وَاستِخْفَافِهِ بالمَتَاعِبِ واسْتِسْهَالِهِ كلّ صَعْبٍ فى سَبيلِ وُجُودِهِ. وَإليكَ مَثلاً لا يَخْلُو مِنَ الْغَرَابَةِ فى بَابِهِ وَهُوَ مِنْ أَلْطَفِ مَا يُحْكَى عَثَرْتُ عَلَيْهِ فى جَرِيدَةِ «الطان» بقَلَمِ مُوسيُو «دى فارينى» قال: «اجْتَمَعَ فى أَوَاخِرِ يَنَايِرَ المَاضِى عَلى مَائِدَةٍ فى أَحَدِ مَطَاعِمِ «بوسطون» لَفِيفٌ مِنَ الشُّبَّانِ ذَوِى الْبُيُوتِ الْكَرِيمَةِ تَخَرَّجُوا حَدِيثًا مِنْ كلِّيَّةِ «هاروارد» وَفَاقُوا في العِلْمِ وَالتَّمْرِينَاتِ الجِسْمِيَّةِ ثُمَّ أَخَذُوا يَتَجَاذَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ فَقَالَ أَحَدُهُمْ وَكَانَ اسْمُهُ «بول جونيس»: إنَّهُ لَمْ يَبْقَ في الْوِلَايَاتِ المُتَّحِدَةِ فَقِيرٌ إلاَّ الَّذِينَ لا ثِقَةَ لَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَإِنَّهُ لَوْ أَضَاعَ هُوَ جَمِيعَ مَا تَرَكَهُ لَهُ أَبُوهُ مِنَ المَالِ وَأَصْبَحَ لَا يَمْلِكُ فَلْسًا وَاحِدًا وَكَانَ عُرْيَانَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَوَسِعَهُ أَنْ يُحَصِّلَ عَيْشَهُ وَأَنْ يَرْجِعَ مِنْ تِلكَ الْبِلَادِ بِخَمْسَةِ آلافِ دُولَارٍ أَىْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ فرَنْكٍ بَعْدَ مَصَارِيفِهِ كُلِّهَا، وَذَلِكَ بَعْدَ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الزَّمَانِ. فَتَرَاهَنَ مَعَهُ أَصْحَابُهُ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفَ فرَنْكٍ وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنهُ يَتَوَجَّهُ فى الْيَوْمِ الثَّانى وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ يَنَايِرَ إِلَى الْحَمَّامَاتِ التُّرْكِيَّةِ وَهُنَاكَ يَتَجَرَّدُ عَنْ جَمِيعِ مَلابِسِهِ حَتَّى إذَا جَاءَ

الزَّمَنُ المَحْدُودُ بَدَأَ بِطَوَافِهِ حَوْلَ الأَرْضِ. وَكَانَتِ الصُّعُوبَةُ عَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِسِيَاحَتِهِ لِأَنَّهُ كَانَ عُرْيَانًا لِذَلِكَ وَجَّهَ اهْتِمَامَهُ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ إِلَى سَتْرِ عَوْرَتِهِ بِأَقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ المَالِ فَجَعَلَ يَمْسَحُ أَحْذِيَةَ رِجَالِ المَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ بِجِدٍّ وَرِضًى كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَوَّدْ غَيْرَ تِلْكَ الصَّنْعَةِ فِي حَيَاتِهِ. ثُمَّ يَتَنَاوَلُ الرَّاتِبَ المُخَصَّصَ لِهَذَا العَمَلِ وَهُوَ زَهِيدٌ فَيَقْسِمُهُ بَيْنَ قُوتِهِ وَكِسَائِهِ وَمَكَثَ هَكَذَا خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا وَهُوَ زَمَنٌ كَبِيرٌ نَظَرًا لِلْأَجَلِ المَحْدُودِ لَهُ وَهُوَ سَنَةٌ وَاحِدَةٌ. فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الحَمَّامِ قَصَدَ مَدِينَةَ لُنْدُرَهْ لِيُسَافِرَ مِنْهَا إِلَى الهِنْدِ وَلِكَيْ يُحَصِّلَ أُجْرَةَ السَّفَرِ جَعَلَ يَبِيعُ الجَرَائِدَ فِي الأَسْوَاقِ وَيَشْتَغِلُ بِالسَّمْسَرَةِ وَمُرَافَقَةِ الأَجَانِبِ كَتَرْجُمَانٍ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الفَرَنْسَاوِيَّةَ وَالأَلمَانِيَّةَ وَالتَّلْيَانِيَّةَ وَتَوَصَّلَ بِصِفَتِهِ تَرْجُمَانًا إِلَى السَّفَرِ مَجَّانًا عَلَى إِحْدَى البَوَاخِرِ الأَمْرِيكِيَّةِ إِلَى لُنْدُرَهْ وَمَعَهُ مِنَ المَالِ خَمْسُونَ دُولَارًا أَيْ مِائَتَانِ وَخَمْسُونَ فَرَنْكًا. وَصَارَ يُلْقِي الخُطَبَ فِي لُنْدُرَهْ حَتَّى كَثُرَ المَالُ لَدَيْهِ، وَالْتَحَقَ بِبَعْضِ الجَرَائِدِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ وَحَصَلَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَصَارِيفِهِ إِلَى البِلَادِ الهِنْدِيَّةِ. وَلَمَّا قَامَ إِلَى تِلْكَ البِلَادِ أَخَذَ مَعَهُ مَتْجَرًا خَفِيفًا بِمَا جَمَعَ مِنَ المَالِ وَبَاعَهُ فِي مَدِينَةِ (كَلْكُوتَا) بِثَمَنٍ رَبِيحٍ، وَلَا يَزَالُ الآنَ سَائِرًا فِي طَرِيقِهِ. وَيَظْهَرُ مِنْ خِطَابَاتِهِ لِأَصْحَابِهِ وَمَا يَنْشُرُهُ فِي الجَرَائِدِ أَنَّهُ مُتَأَسِّفٌ عَلَى عَدَمِ

جَعْلِه الجُعْلَ ضِعْفَيْنِ وَلَوِ استَلْزَمَ ذَلِكَ مُضَاعَفَةَ المَبْلَغِ الَّذِى تَعَهَّدَ بِكَسْبِهِ لَدَى عَوْدَتِهِ مِنْ سِيَاحَتِهِ .

وَيَظْهَرُ أَنَّ انتِشَارَ هَذِهِ الرُّوحِ فِى جِسْمِ الْأَمْرِيكَانِيِّينَ حَرَمَ الْإِنْكلِيزَ لَذِيذَ المَنَامِ فَقَدْ قَرَأْنَا فِى جَرِيدَةِ (بتى جرنال) أَنَّ اثْنَيْنِ مِنْ شُبَّانِهِمْ تَرَاهَنَا عَلَى الْأَمْرِ بِعَيْنِهِ وَاجْتَازَا الْبِلَادَ الفَرَنْسَاوِيَّةَ لِلْغَايَةِ نَفْسِهَا حَتَّى يُبَرْهِنَا أَنَّهُمَا غَيْرُ مُتَأَخِّرَيْنِ عَنْ إِخْوَانِهِمَا .

عَرَّفْنَا السَّعَادَةَ بِقَوْلِنَا إِنَّهَا حَالَةُ ارْتِيَاحٍ تَقُومُ بِنَفْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَمَكَّنُونَ مِنَ التَّغَلُّبِ عَلَى مَتَاعِبِ الحَيَاةِ المَادِّيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ تَغَلُّبًا حَقِيقِيًّا ، وَعَلَيْهِ فَكُلُّ وَسَطٍ يُسَاعِدُ الْإِنْسَانَ عَلَى اجْتِيَازِ تِلْكَ المَتَاعِبِ كَمَا يَجْتَازُ الصَّبِيُّ حَوَاجِزَ الْأَلْعَابِ،يُسَاعِدُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ عَلَى تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ . وَلَسْتُ أَدْرِى إِنْ كَانَ أُولَئِكَ الشُّبَّانُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ ذَكَرْتُهُمْ يَفُوزُونَ بِمَا تَرَاهَنُوا عَلَيْهِ أَمْ لَا ، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ مَحَلًّا لِلنَّظَرِ بَلِ الَّذِى يَقْتَضِى الِالْتِفَاتَ هُوَ تِلْكَ الحَالَةُ الْفِكْرِيَّةُ الَّتِى دَبَّتْ فِى أَذْهَانِهِمْ وَتِلْكَ الهِمَّةُ الذَّاتِيَّةُ الَّتِى يَدُلُّ عَلَيْهَا عَمَلُهُم . وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ يَنظُرُونَ إِلَى الحَيَاةِ بِنَظَرٍ يُخَالِفُ نَظَرَ الْأُمَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَدَّمْنَا ذِكْرَهُمَا مُخَالَفَةً كُلِّيَّةً . فَإِنَّ الرَّجُلَ فِيهِمَا يُلْقِى السِّلَاحَ أَمَامَ الصِّعَابِ إِذَا اعْتَرَضَتْهُ فِى طَرِيقِهِ وَيُمْسِى تَعِسًا لِشُعُورِهِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالِانْهِزَامِ . أَمَّا رَفِيقُهُ فَفِى نَفْسِهِ اعْتِقَادٌ بِأَنَّ هِمَّتَهُ

أَكْبَرُ مِنْ كلِّ صَعْبٍ يلقاهُ وَهُوَ فى الْوَاقِعِ أَشَدُّ مِرَاساً وَأَثْبَتُ قَدَماً، وَاعْتِقَادُهُ هَذَا سَبَبٌ فى اطْمِئْنَانِهِ وَتَبَسُّمِهِ لِلْحَيَاةِ تَبَسُّمَ الْمُوقِنِ بِالنَّجَاحِ . ذَلِكَ رَجُلٌ قَدْ تَوَلَّى بِيَدِهِ زِمَامَ السَّعَادَةِ عَلَى قَدْرِ مَا يَسَّرَ اللهُ لِلْبَشَرِ فى الْحيَاةِ الدُّنْيَا .

لِهَذَا لا نَرَى الزَّنَابِيرَ بَيْنَ صُفُوفِ تِلْكَ الأُمَّةِ إلاَّ نَادِراً، وَلَيْسَ لَهُمْ وُجُودٌ فى الأُمَمِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ السَّكْسُونِيَّةِ اللَّهُمَّ إلاَّ إِنْ كَانُوا مِنْ تِلْكَ الأُمَمِ الاتِّكَالِيَّةِ الَّذِينَ اسْتَوْطَنُوا الْبِلاَدَ الإِنْكِلِيزِيَّةِ قَدِيماً أَوْ هَاجَرُوا إلى الْبِلاَدِ الأَمْرِيكِيَّةِ حَدِيثاً . وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ طَائِفَةَ السِّيَاسِيِّينَ فى هَذِهِ الْبِلاَدِ الأَخِيرَةِ مِنَ الإِرْلَنْدِيِّينَ، وَلْيُلاَحَظْ أَنَّهَا هِيَ الطَّائِفَةُ الَّتِى كَثُرَ شَغْبُهَا [1] وَقَلَّ رِضَاهَا بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهَا .

حَقِيقَةً لَيْسَ مِنَ الزَّنَابِيرِ أُولَئِكَ الشُّبَّانُ الَّذِينَ بَلَغُوا الْمُتَمِّمَةَ لِلْعِشْرِينَ وَلَمْ يَطْلُبُوا مُسَاعَدَةً مِنْ آبَائِهِمْ قَطُّ، وَتَزَوَّجُوا بِنِسَاءٍ بِغَيْرِ مَهْرٍ، وَاحْتَقَرُوا الْوَظَائِفَ فى الْحُكُومَةِ وَفَضَّلُوا عَلَيْهَا الاشْتِغَالَ بِالْحِرَفِ الْجَارِيَةِ وَالصِّنَاعَاتِ الْمَأْلُوفَةِ الْمُسْتَقِلَّةِ وَجَعَلُوا اتِّكَالَهُمْ عَلَى هِمَمِهِمْ غَيْرَ مُنْتَظِرِينَ مَعُونَةً مِنَ الْحُكُومَةِ أَوِ الأُمَّةِ . وَمِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ بِأَنَّ هَؤُلاَءِ الْقَوْمَ الَّذِينَ قَدْ تُرِكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ أَقْرَبُ إلى السَّعَادَةِ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا صَادَفَتْهُمْ صُعُوبَةٌ مَدُّوا الأَعْنَاقَ نَحْوَ الْغَيْرِ يَرْجُونَ مَعُونَتَهُ . وَهَذَا الشُّعُورُ هُوَ السِّرُّ فى نَجَاحِ كِتَابِ

(١) الشغب بسكون الغين تهييج الشر.

مُوسْيُو « جون لوبوك » وَانتِشاره ذَلكَ الانتشَارَ الْغَرِيبَ ممَّا لاَنُدْرِكُ لَهُ نحنُ سبباً ، فإنَّ أَدِلَّتَهُ ضَعِيفةٌ لاَ تُؤَدِّى بذَاتِهَا إلَى إقْنَاعِ وَاحِدٍ مِنْ قُرَّائِهِ بالرِّضَى بِمَا نَالَ مِنْ رزْقِهِ إلاَّ إذَا كانتْ نَفْسُهُ مُتَشَبِّعَةً بذَاكَ الِارْتِيَاحِ وَالاطْمِئْنَانِ ، وتجلَّتْ لَهُ الْحيَاةُ بمَظَاهِرِ الْفَرَحِ والابْتِهَاجِ مِمَّا يَبْعُدُ عَنَّا تَصَوُّرُهُ . وَبالجُمْلةِ فإنَّهُ كِتَابٌ أَلَّفَهُ إنْكليزىٌّ لِقَوْمٍ مِنَ الإِنكليز ، وكأنّى بمُتَرْجِم هَذا الْكِتَابِ إلى لُغَتِنَا ، وَقَدْ أَحسَّ بهَذِهِ الحَقِيقَةِ حَيْثُ قالَ : (لَقَدْ شَرَحَ هَذَا الْكِتَابُ أَجْمَلَ صِفَاتِ الإِنْكليزِ الْعَقْلِيَّةِ فَهُوَ إنكليزىٌّ بمَا أُودِعَ فِيهِ مِنَ الِاسْتِبْشَارِ وَحُسْنِ الحَظِّ بالْمَآلِ ، وَكَمَالِ الرِّضَى وَالِارْتيَاحِ).
وَهوَ استِنبَاطٌ صَحِيحٌ ، لِأَنَّ المُؤَلِّفَ يُلَقِّبُ إنكلترَهْ بإنكلترَهْ المُبْتَهِجَةِ وَيقُولُ : (إذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ الْحُزْنَ الصَّحِيحَ فَوَلِّ وَجْهَكَ قِبَلَ المَشْرِقِ إذْ لَيْسَ شَىْءٌ أَشَدَّ حُزْناً مِنْ شِعرِ عُمَرَ الْخَيَّامِ ، أَوْ شِعْرِ دِيوَاسَ[1] قَالاَ .

(الزَّمَنُ الَّذِى يَقْضِيهِ الْمَرْءُ فى هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيا قَصِيرٌ ، وَهُوَ لاَ يَنَالُ مِنْهَا غَيْرَ حُزْنٍ وَآلاَمٍ وَلاَ يُدْرِكُ مِنْ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ إلاَّ الْيَسِيرَ ، وقَدْ أَصْبَحَتْ مَسَائِلُ الْحَيَاةِ بغَيْرِ حَلٍّ وَلاَتَ حِينَ[2] النَّظَرِ فِيهَا ، فقَدِ انقَضَى الأَجَلُ وَوَجَبَ الرَّحِيلُ).

(١) قد بحثنا عن هذين الاسمين فلم نقف على ثانيهما ولم نعثر لاولهما على منظوم بهذا المعنى ، ولذلك سقنا الترجمة نثراً (المترجم)

(٢) أى ليس الحين حين النظر فيها

(الْحَيَاةُ أَشْبَهُ بِرِيَاحٍ ضَلَّتْ وِجْهَتَهَا، وَنَحْنُ أَشْبَهُ بِصَوْتٍ لِتِلْكَ الرِّيحِ. نَطْلُبُ الرَّاحَةَ فَلاَ نُلاَقِى إِلاَّ مَا يُوجِبَ التَّحَسُّرَ وَالانْتِحَابَ وَانْهِمَالَ الْعَبَرَاتِ، وَلاَ نُلاَقِى إِلاَّ عَوَاصِفَ تُهَدِّدُنَا، وَحَرْبًا نَقْتَتِلُ فِيهَا)

ثُمَّ اتَّفَقَ رَأْىُ الْمُؤَلِّفِ وَرَأْيُنَا فَقَالَ: (وَإِذَا صَحَّ هَذَا وَكَانَتْ الْحَيَاةُ الْإِنْسَانِيَّةُ عَلَى قَدْرِ مَا قَالُوا مِنَ الْإِيلاَمِ وَالشِّدَّةِ فَلاَ غَرَابَةَ فِى أَنَّ الْعَدَمَ، أَىِ انْقِضَاءَ الْأَكْدَارِ، يَكُونُ مِنْ أَقْصَى الأَمَانِى وَلَوْ أَضَاعَ النَّاسُ فِى سَبِيلِهِ وِجْدَانَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ). وَفِى هَذَا كَمَا قُلْنَا بَيَانٌ لِوُجُودِ مَذْهَبِ التَّطَيُّرِ فِى كُتُبِ الْجِرْمَانِيِّينَ وَالسَّلْتِيِّينَ، أَىْ فِى الْأُمَمِ الَّتِى لَمْ تَتَعَوَّدِ الْعَمَلَ وَلَمْ تَتَرَبَّ عَلَى الِاجْتِهَادِ كَمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِى فَلْسَفَةِ الشَّرْقِيِّينَ وَأَشْعَارِهِمْ.

كَذَلِكَ يُوَافِقُنَا فِى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْإِنْكِلِيزِىَّ السَّكْسُونِىَّ لاَ يَهَابُ الْكَدَّ، وَلاَ يَرْهَبُ الْعَمَلَ، وَلاَ يَخْشَى الصِّعَابَ، وَأَيَّدَ قَوْلَهُ بِأَقْوَى الْحُجَجِ، قَالَ فِى أَوَّلِ الْفَصْلِ الْعَاشِرِ الَّذِى عُنْوَانُهُ (الراحة والعمل) مَا تَرْجَمَتُهُ: (إِنِّى بِالطَّبْعِ لاَ أَعُدُّ ضَرُورَةَ الْعَمَلِ بَيْنَ مَتَاعِبِ الْحَيَاةِ). وَهَذِهِ جُمْلَةٌ لاَ أَظُنُّهَا تَصْدُرُ مِنْ قَلَمِ كَاتِبٍ نَشَأَ فِى أُمَّةٍ اتِّكَالِيَّةٍ لِأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ كَانَ يَعُدُّ الْعَمَلَ فِى مُقَدَّمَةِ تِلْكَ الْمَتَاعِبِ. أَمَّا السِّيرْ «جون لوبوك» فَإِنَّهُ يَسْتَثْنِى مِنْهَا الْعَمَلَ بِلُطْفٍ وَصَدْرٍ رَحِيبٍ حَيْثُ

يَقولُ بالطَّبْعِ، لِأَنَّ ذلكَ أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ عِنْدَهُ. وَفِي اعْتِقَادِي أَنَّ قُرَّائِي لَنْ يُوَافِقُوهُ، كَمَا أَنِّي أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي أَنِّي مِنْ صَفِّهِمْ. وَلَا غَرَابَةَ فَإِنِّي أُقِيمُ هَذِهِ الدَّعْوَى عَلَى نَفْسِي كَمَا أُقِيمُهَا عَلَى قَوْمِي. ثُمَّ تَرَقَّى السِّيرْ جون لوبوك فِي فِكْرِهِ فقالَ: (إِنَّ الْعَمَلَ، وَإِنْ شَقَّ، مَنْبَعُ مَنَابِعِ السَّعَادَةِ مَتَى ابْتَعَدَ الْمَرْءُ فِيهِ عَنْ حَدَّى التَّفْرِيطِ وَالْإِفْرَاطِ. فَكُلُّنَا يَعْلَمُ كَيْفَ أَنَّ الزَّمَانَ يَمُرُّ سَرِيعاً عَلَى الإِنْسَانِ الْمُشْتَغِلِ، وَأَنَّ الأَوْقَاتَ تَثْقُلُ عَلَى الْكُسَالَى، ثُمَّ الِاشْتِغَالُ يُذْهِبُ الْهَمَّ وَيُسَرِّي[1] أَحْزَانَ الْمَعِيشَةِ الْيَوْمِيَّةِ، وَلَا يَجِدُ الْمُشْتَغِلُ مِنْ زَمَانِهِ وَقْتاً يَقْتُلُهُ فِي التَّخَيُّلِ أَوِ الِاضْطِرَابِ، وَنَحْنُ مَعَاشِرَ الْإِنْكِلِيزِ إِنَّمَا نَجَحْنَا وَصِرْنَا أُمَّةً حَيَّةً نَامِيَةً لِأَنَّنَا قَوْمٌ نُحِبُّ الشُّغْلَ وَنَهْوَى الْعَمَلَ).

وَقَدْ مَدَحَ عُلَمَاءُ الْأَخْلَاقِ عِنْدَنَا الْعَمَلَ وَاجْتَهَدَ أَسَاتِذَةُ الْمَدَارِسِ فِي غَرْسِ مَحَبَّتِهِ فِي قُلُوبِ الْأَطْفَالِ، وَلَكِنَّا نَمْدَحُهُ وَنُوصِي بِهِ وَنُعَلِّمُ مَحَبَّتَهُ بِاعْتِبَارِهِ أَحَدَ الْوَاجِبَاتِ وَكَأَنَّهُ ضَرُورَةٌ لَا مَفَرَّ مِنْهَا فَوَجَبَ الْخُضُوعُ لِحُكْمِهَا وَحَمْلُ النَّفْسِ عَلَى الْقِيَامِ بِمَا اقْتَضَتْهُ أَمَّا عِنْدَهُمْ فَصِيغَةُ الْكَلَامِ غَيْرُ ذَلِكَ فَهُمْ إِنَّمَا يُشِيرُونَ إِلَى أَنَّ الْأَمْرَ يَجْرِي كَذَلِكَ فِي الْعَالَمِ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ وَلَا يَعُدُّونَ الْعَمَلَ مُتْعِباً بَلْ يَقُولُونَ إِنَّهُ (مَنْبَعٌ مِنْ

(١) سرى عنه الهم: انكشف

مَنَابِعِ السَّعَادَةِ)، وَمَامِنْ أَحَدٍ يُخَالِفُ قَوْلَهُمْ ! حَتَّى إِنِّى سَأَلْتُ فَتَاةً مِنَ الْإِنْكلِيزِ فَوَجَدْتُهَا عَلَى رَأْيِ السِّيرِ جون لوبوك تَرَى الرَّاحَةَ فِى الْعَمَلِ وَالْكَدِّ وَالتَّغَلُّبِ عَلَى الصُّعُوبَةِ وَتَقُولُ: إِنَّ كُلَّ النَّاسِ فِى بَلَدِهَا عَلَى رَأْيِهَا وَكُنْتُ فِى أَثْنَاءِ كَلَامِهَا أُظْهِرُ الِاسْتِنْكَارَ فَقَالَتْ : وَلَا بُدَّ لِلْإِنْكلِيزِيِّ مِنْ عَمَلٍ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ مِنَ الْأَشْغَالِ الِاعْتِيَادِيَّةِ مَا يَعْمَلُ فِيهِ عَمَدَ إِلَى التَّجْذِيفِ فِى النَّهْرِ أَوْ إِلَى لَعِبِ الْكُرَةِ وَالرِّيَاضَةِ الْجِسْمِيَّةِ أَوْ قَصَدَ قِمَّةَ جَبَلٍ شَاهِقٍ يَصِلُ إِلَيْهَا، وَلَوْ كَانَ فِى الْأَمْرِ خَطَرٌ تَلَذَّذَ بِاجْتِيَازِ صَعْبٍ مِنَ الصِّعَابِ . وَلَا شَكَّ فِى أَنَّ الْإِنْكلِيزَ لَا يَنْظُرُونَ إِلَى الشُّغْلِ بِهٰذِهِ الْعَيْنِ الرِّيَاضِيَّةِ إِلَّا لِأَنَّهُمْ مُتَعَوِّدُونَ ! حَتَّى صَارَ فِى جِبِلَّتِهِمْ أَمْرًا مَقْضِيًّا. قال موسيو جون لوبوك :(وَقَدْ شَاهَدَ أَحَدُ السُّيَّاحِ الشَّرْقِيِّينَ جَمَاعَةً فِى أُورُبَّا يَلْعَبُونَ لِعْبَةً شَاقَّةً وَرَأَى بَيْنَهُمْ كَثِيرًا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ فَعَجِبَ وَسَأَلَ: لِمَ لَا يَسْتَعْمِلُونَ غَيْرَهُمْ فِيمَا شَقَّ مِنْ هٰذِهِ اللِّعْبَةِ بِأُجْرَةٍ يَدْفَعُونَهَا؟) وَالسَّائِلُ إِنَّمَا جَرَى فِى سُؤَالِهِ عَلَى حَسَبِ تَرْبِيَتِهِ لِأَنَّ الْأُمَمَ الِاتِّكَالِيَّةَ لَا تَنْظُرُ إِلَى الْعَمَلِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ أَمْرًا مُتْعِبًا. وَقَدْ جَاءَ فِى الْمَثَلِ التُّرْكِيِّ (أَوْلَى لِلْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ جَالِسًا مِنْ أَنْ يَكُونَ قَائِمًا، وَأَنْ يَكُونَ نَائِمًا مِنْ أَنْ يَكُونَ جَالِسًا، وَأَنْ يَمُوتَ مِنْ أَنْ يَكُونَ نَائِمًا) وَمَعْلُومٌ أَنَّ تِلْكَ الْأَمَانِيَّ

بَعيدَةُ المَنَالِ. لِذَلِكَ كانَت الامَمُ التَّى تَوَدُّهَا أَتْعَسَ الْأُمَمِ فى الحياةِ الدُّنْيَا وهِىَ لِذَلِكَ أَشَدُّهَا حُزْنَاً وَكَدَرًا . أَمَّا الْأُمَمُ التَى تَعْتَقِدُ أَنَّ الْأَوْلَى لِلإِنْسَانِ أنْ يَكُونَ قائمًا مِنْ أَنْ يَكُونَ جَالِساً فَهِىَ بِالطَّبْعِ أَوْفَرُ حَظًّا وَأَوْفَى سَعَادَةً، إِذْ يَلْزَمُ الفوْزَ فى الدُّنْيَا أَلاَّ يَجْلِسَ المَرْءُ مَا اسْتَطَاعَ إِلَى الْوُقُوفِ سَبِيلاً .

لَـكِنْ لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ إِدْخَالُ هَذِهِ الرُّوحِ فى الْأَذْهَانِ فَلاَ يَكْفِي ذَلِكَ أَنْ يُنَادَى عَلَى مَنَابِرِ الْخَطَابَةِ أَوْ فِى المَدَارِسِ بِأَنَّ السَّعَادَةَ فى الْعَمَلِ لِأَنَّ هَذِهِ الصِّيغَةَ بِهَذَا التَّرْكِيبِ (السعادة فى العَمَل) غَيْرُ صَحِيحَةٍ حَتَّى عِنْدَ الَّذِينَ يَنْطِقُونَ بِهَا ولاَ يَعْمَلُونَ بِهَا إلاَّ قَلِيلاً ، وَلَوْ كَانَتْ صَحِيحَةً لَأَصْبَحَ النَّاسُ أَجْمَعُونَ لا تَنْثَنِي لهُمْ عَزِيمَةٌ عَنِ الْعمَلِ أَبَدًا ، إِذْ مَامِنْ أحَدٍ إلاَّ وَهُوَ يُحِبُّ السَّعَادَةَ حُبًّا كَثِيراً . وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ مُعْظَمَ الْبَشَرِ لاَيَجِدُ السَّعَادَةَ فى الْعمَلِ.

وَالْوَاقِعُ أَنَّ السَّعَادَةَ لَيْسَتْ فى الْعمَلِ بَلْ هِىَ فى الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ وَفَرْقٌ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ . فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْرَءُونَ : لَيْتَنَا نُحِبُّ الْعمَلَ وَلَـكِنَّهُمْ لاَيُحِبُّونَهُ وَلَنْ يُحِبُّوهُ مَعَ مَا يَقْرَأُونَ فى كُتُبِ الْأَخْلَاقِ مِنَ الْحَضِّ عَلَيْهِ وَالنصْحِ بِهِ وَمَعَ مَاجَاءَتْ بِهِ الْفَلْسَفَةُ وَأَمَرَ بِهِ الدِّينُ مِنْ وُجُوبِهِ وَإِسْنَادِ النَّجَاحِ إِلَيْهِ . وَلَنْ يَصِلَ المَرْءُ إِلَى اجْتِيَازِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ إِلاَّ بَعْدَ أنْ يَكُونَ مِنْ وَسَطٍ تَعَوَّدَ

حُبَّ الْعمَلِ زمَانًا طَوِيلاً. وَذَلِكَ يَقْتَضِى أنَّ الْأبَوَيْنِ لَا يَرَيَانِ مِنْ وَاجِبِهِمَا بِالنَّظَرِ إِلى أَبْنَائِهِمَا إلاَّ تَرْبِيَتَهُمْ تَرْبِيَةً صَحِيحَةً. وَأَنَّ الْأَبْنَاءَ يَرَوْنَ أَنْ لاَ مَلْجَأَ لَهُمْ في الْحيَاةِ إلاَّ أَنْفُسُهُمْ. وَأَنَّ الزَّوْجَةَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا الرَّفِيقُ لَا المَالُ الْكَثِيرُ. وَأَنَّ الْحُكُومَةَ لَا تَأْخُذُ مِنَ السُّلْطَةِ إلاَّ مَا احْتَاجَتْ إِلَيْهِ. وَلاَ تَتَوَسَّعُ فى الْوَظَائِفِ إِلاَّ بِقَدْرِ الضَّرُورَةِ لِتُشَجِّعَ النَّاسَ بِذَلِكَ عَلى اعْتِنَاقِ الحِرَفِ وَالاشْتِغَالِ بِالصِّنَاعَاتِ الَّتى تَقْتَضِى الْعَمَلَ وَتَسْتَلْزِمُ الْجُهْدَ وَتَطْلُبُ الهِمَمَ الذَّاتِيَّةَ.

وَبِالاخْتِصَارِ يَنْبَغِى أَنْ يَقِلَّ اعْتِبَارُ الْمُوَظَّفِ وَالسِّيَاسِيِّ وَالْبَطَّالِ الَّذِى لَاَ عَمَلَ لَهُ عَنِ اعْتِبَارِ الزُّرَّاعِ وَذَوِى الصِّنَاعَةِ وَالتَّاجِرِ، وَظَاهِرٌ أَنَّ ذَلِكَ كلَّهُ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْبَسِيطِ غَيْرَ أَنَّهُ كُلَّهُ لَازِمٌ فى تَحْصِيلِ السَّعَادَةِ لِلنَّاسِ وَكُلُّهُ لَازِمٌ فى اسْتِمَالَةِ الرَّجُلِ إِلى الْعَمَلِ أَوَّلاً وَغَرْسِ مَحَبَّتِهِ فى قَلْبِهِ ثَانِياً.

وَمَهْما بَحَثْنا عَنْ حَلٍّ صَحِيحٍ لِلْمَسْأَلَةِ الاجْتِماعِيَّةِ لاَ نَجِدُ إلاَّ هَذَا.

الفصل السادس

﴿ فِى ضَعْفِ المُؤَثِّرِ الأَدَبِىِّ ﴾

« وَفِى أَمَارَاتِ نُهُوضِ الهَيْئَةِ الاجْتِماعِيَّةِ »

ظَهَرَ فى هَذِهِ الْأَوْقَاتِ فَرِيقٌ مِنَ النَّاسِ يَطْلُبُ مِنْ عِلْمِ الْأَخْلَاقِ الْأَخْذَ بِنَاصِرِ بَنِى الْإِنْسَانِ لِلنُّهُوضِ مِمَّا آلُوا إِلَيْهِ مِنَ الانْحِطَاطِ وَيَسْعَى وَرَاءَ « تَطْمِينِ السَّرَائِرِ وَتَهْدِئَةِ الضَّمَائِرِ بِمَعِيشَةٍ أَحْسَنَ وَأَرْضَى » كَمَا هُوَ اللَّفْظُ الَّذِى اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ وَيَقُولُونَ: إِنَّ الطَّرِيقَ إِلَى غَرَضِهِمْ هَذَا هُوَ تَرْبِيَةُ الْإِنْسَانِ عَلَى تَحَمُّلِ الحِرْمَانِ وَمَحَبَّةِ الْغَيْرِ وَإِنَّ حَالَةَ النَّاسِ الَّتِى هُمْ فِيهَا الْيَوْمَ لَيْسَتْ « مُسَبَّبَةً عَنْ أَحْوَالِهِمِ الاجْتِمَاعِيَّةِ أَوِ السِّيَاسِيَّةِ » بَلْ « مَرْجِعُهَا إِلَى الأَخْلَاقِ وَالدِّينِ » . وَمِنْ هُنَا كَانَ أَنْجَحُ الْوَسَائِلِ فى تَغْيِيرِ تِلْكَ الحَالَةِ هُوَ أَنْ يَبْدَأَ كُلُّ وَاحِدٍ بِتَغْيِيرِ نَفْسِهِ وَأَنْ يُولَدَ مِنْ جَدِيدٍ » كَمَا هُوَ قَوْلُهُمْ وَقَوْلُ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا : وَإِنَّ « أَوَّلَ عَمَلٍ يَدْخُلُ بِهِ المَرْءُ بَابَ هَذَا الإِصْلَاحِ هُوَ الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ مَحَبَّةِ الذَّاتِ وَالْخُضُوعُ إِلَى التَّعَالِيمِ المَأْثُورَةِ » . وَبِالْجُمْلَةِ يُرِيدُ أُولَئِكَ الْقَوْمُ لِإِصْلَاحِ حَالِ الْبَشَرِ أَنْ يُعِيدُوا « زَمَانَ الأَخْيَارِ أَهْلِ التَّحْقِيقِ وَالأَبْرَارِ » وَيَقُولُونَ إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ الآنَ بَيْنَنَا « وَلَكِنَّهَا اليَنَابِيعُ الرَّائِقَةُ وَالْعُيُونُ الصَّافِيَةُ تَذْهَبُ سُدًى .

وَاحِداً فَوَاحِداً فى الأَرَاضِي المُجْدِبَةِ وَالرِّمَالِ المُتْرِبَةِ وَالنَّاسُ لاَهُونَ فَيَتَرُ كَوْنَهَا تَضِيعُ وَلاَ يَسْتَقُونَ مِنْهَا، وَمَنِ اسْتَقَى فَقَلِيلٌ غَيْرُ ظَاهِرٍ » ثُمَّ يشِيرونَ بالمُحَافَظَةِ عَلَى تِلْكَ الْيَنَابِيعِ وَالإِكْثَارِ مِنْهَا .

وَهُمْ مَعَ هَذَا يَتَبَرَّءُونَ مِنَ المَيْلِ إلى إِيجَادِ دِينٍ جَدِيدٍ أَوْ إِضَافَةِ شِيعَةٍ عَلَى الَّتِى وُجِدَتْ مِنْ قَبْلُ وَيُنَادُونَ بأَنَّهُ « لَيْسَ مِنَ الْغَرَضِ بِنَاءُ مَرْسًى جَدِيدٍ تَرْسُو إِلَيْهِ الأَرْوَاحُ ، وَإِنَّمَا المُرَادُ إِطْلاَقُ الْيَنْبُوعِ فِى المَرَاسِى المَوْجُودَةِ لِيَمْلأَهَا المَاءُ فَتَتَّصِلَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ » .

وَالْوَاقِعُ أَنَّهُمْ لاَ يَأْتُونَ بِدِينٍ جَدِيدٍ لِأَنَّهُمْ لاَ يَقُولُونَ بِمَذْهَبٍ مَخْصُوصٍ ، بَلْ تِلْكَ فِكْرَةٌ دِينِيَّةٌ أَىْ مَيْلٌ دِينِيٌّ مَخْصُوصٌ الْغَرَضُ مِنْهُ مُقَاوَمَةُ مَذْهَبِ المَادِيِّينَ وَأَهْلِ الْيَأْسِ . لِذَلِكَ مَدُّوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى جَمِيعِ الطَّوَائِفِ وَالنِّحَلِ المَسِيحِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِمَّنْ يَشْعُرُونَ بِحَاجَتِهِمْ إلى مُسَاعِدٍ أَجْنَبِيٍّ فى مُحَارَبَةِ الشَّهَوَاتِ وَالتَّغَلُّبِ عَلَى الأَهْوَاءِ جَاءَ فى كِتَابِهِمِ المُسَمَّى « عقلنا » : « إِنَّا وَإِنِ اعْتَبَرْنَا جَمِيعَ التَّابِعِينَ لِلْكَنَائِسِ عَلَى اخْتِلاَفِهَا مِنَ المُسَاعِدِينَ المَحْبُوبِينَ لَدَيْنَا ، نَرَى أَيْضًا فى المُنْشَقِّينَ أَوِ المُتَفَرِّقِينَ أَبْنَاءً لَنَا لِأَنَّهُمْ فى عُزْلَةٍ شَدِيدَةٍ » أَعْنِى أَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَيْهِمْ كُلَّ مَنْ آلَمَتْهُ الحَيَاةُ أَدَبِيًّا وَمَادِّيًّا حَتَّى يُكَوِّنُوا هَيْئَةً جَدِيدَةً أَسَاسُهَا تَضْحِيَةُ المَنْفَعَةِ الذَّاتِيَّةِ وَتَرْكُ مَحَبَّةِ الذَّاتِ وَإِمَاتَةُ الشَّهَوَاتِ وَإِغْفَالُ المُيُولِ الشَّخْصِيَّةِ وَمَحَبَّةُ الْغَيْرِ

وَيقولُونَ: « إنَّ الإنسانَ يُؤثِّرُ بإرادَتِهِ فى نُفوسِ الْغيرِ بمُجرَّدِ إقْدامِهِ بِشَجاعَتِهِ على الْعيشةِ الرُّوحانيَّةِ ».

لكِنْ هلْ تَضْحِيَةُ الذاتِيَّاتِ، وتَذْليلُ النفْسِ، وحُبُّ الْغيْرِ وهِيَ التي يَجْمَعُهَا قولُهُمْ « المؤثر الأدبى » تُؤَدِّى، كما يُؤَكِّدُونَ لزُوماً، إلى رفعِ شأْنِ الْعالَمِ الإنْسانِيِّ وإيجادِ النِّظامِ الاجْتماعِيِّ المطْلُوبِ.

هَذا هُوَ محَلُّ الْبَحْثِ ومَوضِعُ النَّظَرِ، وأنا أَجْهَرُ بمُخالَفَتِهِمْ وأقولُ بأنَّ المُؤَثِّرَ الأدَبيَّ مهْمَا عَظُمَ فِعلُهُ لا يَكفِي للقِيامَ بحاجَةِ الْهيْئةِ الاجْتماعِيَّةِ، ولا أُبالى إذا أخْجَلْتهُمْ بشُذُوذِي عنْهُمْ وأَخْجَلْتُ مَعهُمْ قوْماً آخرِينَ. على أنِّى لَسْتُ مِنَ الْيائِسِينَ الذينَ خَرَجُوا عَنْ جميعِ الْأَدْيانِ، ولكنِّي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ التَّابِعينَ لِمذْهَبٍ مُقرَّرٍ فى الدِّينِ ولِي كَنِيسَةٌ أرْكَنُ إليهَا، فقَوْلِي هـذا لَيْسَ ناشِئاً عَنْ بُغْضٍ أوْ مُجافَاةٍ، بَلِ الْعِلْمُ هُوَ الذي أَمْلاهُ عَلَيَّ. وإذا أَرَدْتُمْ أيُّهَا الْقُرَّاءُ فَابْحَثُوا مَعِي فِيهِ:

لَنا فى الْبَحْثِ طَرِيقٌ سَهْلٌ حَقِيقيٌّ، وَهُوَ أَنْ نَقيسَ مُرادَهُمْ فى الْمُسْتَقْبَلِ بِمَا كانَ فى الْمَاضِى. وَقَدْ نَبَغَ فى بَعْضِ الْأَزْمانِ الْماضِيَةِ رِجالٌ مِنَ الْأَوْلِياءِ الْبَرَرَةِ الْأَخْيارِ اعْتَقَدَ النَّاسُ بِحَقٍّ فِيهِمْ أَنَّهُمْ بَلَغُوا مِنْ كَمالِ الصِّفَاتِ وَتَهْذِيبِ الأَخْلاقِ حَدَّ الإعْجازِ، وَبَرْهَنُوا عَلَى تَضْحِيَةِ الذَّاتِيَّاتِ وَرَدِّ جِماحِ الشَّهَوَاتِ، وَحُبِّ الْغَيْرِ

أَىَّ بُرْهَانٍ . وَلاشَكَّ فى أَنَّ أَصحَابَنا يرْضَوْنَ كمَالَ الرِّضَى ، وَيُصْبحون آمِنِينَ عَلى صَلاحِ النوْعِ البَشَرِىِّ إِذا تيَسَّرَ العَوْدُ إِلى مِثْلِ تِلْكَ الأَوْقَاتِ ، وَظُهُورُ مِثْلِ أُولئِكَ الأَقْطَابِ وَرُجُوعُ ذَلِكَ اليَنْبُوعِ إِلَى مَجَارِيهِ .

وَلْنَنْظُرْ مَاذَا نَتَجَ عَنْ ذَلِكَ فى الْأَيَّامِ الْأُولَى لِظُهُورِ الدِّينِ المَسِيحِىِّ ؟ جَرَى ذَلِكَ اليَنْبُوعُ وَفَاضَ حَتَّى فَارَ المَاءُ واسْتَوَى عَلَى جَانِبَيْهِ ، وَكانَ بجَانِبِهِ أَيْضًا يَنْبُوعٌ آخَرُ يُسَاعِدُهُ مَاؤُهُ يَتَكَوَّنُ مِنْ دِمَاءِ أُلُوفِ المُسْتَقْتِلِينَ حُبًّا فى ذَلِكَ الدِّينِ وَأَهْلِهِ ، فَمَا أَزْهَرَتْ رِيَاضُ الأَوْلِيَاءِ فى زَمَنٍ أَكْثَرَ مِنْ تِلْكَ الأَزْمَانِ وَمَا بَلَغَ الإِنْسَانُ فِى الأَدَبِ وَالْكَمَالِ دَرَجَةً أَعْلَى مِنَ الَّتى بَلَغهَا فِيهَا ، ومَعَ هَذَا يَخَالُ لِى أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَنحطُّوا إِلَى دَرْكٍ[1] أَسْفَلَ مِمَّا هَبَطُوا إِلَيْهِ فى تِلْكَ الأَيَّامِ بِذَاتِهَا . زَمَانٌ كانَ الحُكْمُ فِيهِ حُكْمَ القَيَاصِرَةِ ، أَعْنِى أَنَّ حُكُومَتَهُ كانَتْ أَرْدَأَ الْحُكُومَاتِ الَّتى تَوَلَّتْ زِمَامَ النَّاسِ فى جَمِيعِ الأَزْمَانِ وَأَفْظَعَهَا ، وَهِىَ الَّتى سَبَقَتْ غَيْرَهَا فى أَسَالِيبِ المَظَالِمِ وَأَفَانِينِ الْمَغَارِمِ ، وَلَيْسَ لِمَا اسْتَوْلَى عَلى الإِنْسَانِ مِنَ الذُّلِّ وَالْهَوَانِ وَالْخَسْفِ وَالْحِرْمَانِ وَفَسَادِ التَّرْبِيَةِ الْعَامَّةِ وَسُوءِ التَّرْبِيَةِ الخَاصَّةِ إِذْ ذَاكَ نَظِيرٌ إِلَّا شُذُوذًا . قالَ القَسُّ «سلفيان» : لَسْنَا نَجِدُ مِثْلَ تِلْكَ المَظَالِمِ

(١) واحد الدركات يسكن ويحرك

فى جميع الأمم إلا عند الرومانيين ، فما بلغ الفرنك من الشره هذا المبلغ وما عرف « الهونس » وأمم « الفندال » و « الجوط » مثل هاتيك الفظائع والآثام ، بل إن الرومانيين أنفسهم الذين يعيشون بين المتبربرين لا يطيقون تلك الفعال ، ولا يتمنون إلا أنهم لا يعودون إلى حكم الرومان مرة أخرى . وهذا هو السبب فى أن إخواننا هجروا الأوطان وفضلوا الإقامة بين المتبربرين ، ومن لم يقدر على الرحيل لكثرة عائلته أو ثقل بيته لم ير بداً فى الحياة من الالتجاء إلى الأغنياء ، فأسلموا أنفسهم إليهم . ومع ذلك لم يحمهم الموسرون من ظلم الظالمين ، بل زادوهم بلاء وشقاء ».

وهذا الشقاء قديم تكلم عنه « لاكتانس » فقال : « مسحت الأطيان حتى قيست الذرات منها ، وجرى تعداد قوائم مكعبات الكروم وأصول الأشجار ، وسجلت أنواع الحيوانات على اختلافها فى الدفاتر والأوراق ولم تغب نفس واحدة عن الحاسبين وقد حشدت الخلائق فى المدن من جميع الجهات وسارت قوافل الرقيق تغدو وتروح فى الخلاء وسمعت أصوات السياط وضربات التعذيب صاعدة من كل جهة ومكان ، وكان الرجل يدفع الضرائب عن أرض لا يملكها ولا هى فى يده حتى

الْعَجَزَةُ حَتَّى الْمَرْضَى حَتَّى الأَمْوَاتُ سُجِّلُوا فى دَفَاتِرِ الصَّيَارِفِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمِ الْجِزْيَةُ أَىْ عَلَى الأَحْيَاءِ مِنْ أَجْلِهِمْ ».

وَلَمْ تُتْرَكْ تِلْكَ الْمَظَالِم بِغَيْرِ طَعْنٍ وَلاَ تَنْدِيدٍ، بَلْ قَامَ الأُلُوفُ مِنَ الْقُسُوسِ وَالرُّهْبَانِ وَالأَوْلِيَاءِ لِنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّنْدِيدِ عَلَى الْمُعْتَدِينَ وَجَعَلُوا يَعِظُونَ النَّاسَ بِاتِّبَاعِ أَسْلَمِ الْمَسَالِكِ وَكَانُوا لَهُمْ فى ذَلِكَ قُدْوَةً حَسَنَةً وَلَكِنَّ الِانْحِطَاطَ اسْتَمَرَّ فِى هُبُوطِهِ وَسَارَ سَيْرًا حَثِيثاً وَلَمْ تُجْدِ الأَقْوَالُ وَلاَ نَجَحَتِ التَّعَالِيمُ وَلَمْ يَقِفِ الدَّمَارُ بُرْهَةً وَاحِدَةً مِنَ الزَّمَانِ بَلْ ظَلَّ يَتَقَدَّمُ حَتَّى اسْتَحْكَمَ الْفَشَلُ وَتَمَّ التَّمَزُّقُ وَالِانْحِلاَلُ !!

هُنَالِكَ أَقْبَلَ الْمُتَبَرْبِرُونَ وَأَتَوْا بِتِلْكَ الْمُعْجِزَاتِ الَّتِى عَجَزَ عَنْهَا أُولَئِكَ الأَفَاضِلُ وَالأَوْلِيَاءُ بِسُهُولَةٍ لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا وَمِنْ دُونِ أَنْ يَلْتَفِتُوا إِلَى مَا يَصْنَعُونَ، وَرَغْماً مِنْ تَوَحُّشِهِمْ وَمَعَايِبِهِمْ وَمَا ارْتَكَبُوا مِنَ الْجَرَائِمِ وَالآثَامِ فَبَرَزَتْ مِنْ بَيْنِهِمِ الأُمَمُ الْحَاضِرَةُ الَّتِى تُخَالِفُ الأُمَمَ الْغَابِرَةَ كُلَّ الْمُخَالَفَةِ وَتَفُوقُهَا مِنْ جِهَةِ الأَخْلَاقِ وَالأَحْوَالِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ.

رُبَّمَا يُعْتَرَضُ بِأَنَّ الْمُتَبَرْبِرِينَ إِنَّمَا نَجَحُوا فى تَغْيِيرِ الأَحْوَالِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ لِأَنَّهُمْ نَشَرُوا فى الأُمَّةِ الرُّومَانِيَّةِ بَسَاطَتَهُمْ فى الْمَعِيشَةِ وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا أَقَلَّ فَسَاداً فى الأَخْلَاقِ لِقِلَّةِ الْمَالِ عِنْدَهُمْ، إِلَّا أَنَّ

هَذَا الاِعْتِرَاضَ يَسْقُطُ إِذَا لُوحِظَ أَنَّ الْأُمَمَ الْمُتَبَرْبِرَةَ لَيْسَتْ كلُّهَا هِىَ الَّتِى احْتَلَّتِ الْبِلاَدَ ،وَأَنَّ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْهَا إِلَيْهَا لَمْ يَكُونُوا مِنْ أَبْسَطِهِمْ مَعِيشَةً وَأَقَلِّهِمْ مَالاً « رَاجِعْ فى شَرْحِ هَذَا الدَّلِيلِ مَا كَتَبَهُ مُوسيو دى نورفيل » فى مَجَلَّةِ الْعِلْمِ الاِجْتِمَاعِىِّ تَحْتَ عُنْوَانِ « تَارِيخُ النَّشْأَةِ الاِسْتِقْلاَلِيَّة » .

عَلَى أَنَّنِى لاَ أَنْسُبُ نَجَاحَ الْمُتَبَرْبِرِينَ إِلَى تَوَحُّشِهِمْ وَرَذَائِلِهِمْ وَجَرَائِمِهِمْ ، وَسَأُبَيِّنُ فِيمَا بَعْدُ سَبَبَ هَذَا التَّحَوُّلِ وَأَكْتَفِى الْآنَ بِبَيَانِ أَنَّهُمْ قَامُوا بِمَا عَجَزَ عَنْهُ غَيْرُهُمْ وَأَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَحْمِلُونَ مَعَهُمْ رُوحًا أَشَدَّ بَأْساً وَأَكْبَرَ قُوَّةً مِنْ فِعْلِ الْمُؤَثِّرِ الْأَدَبِىِّ .

وَلَنَا فى إِرْلَنْدَه مِثَالٌ آخَرُ عَلَى ضَعْفِ ذَلِكَ الْمُؤَثِّرِ الْأَدَبِىِّ، فَقَدْ سُمِّيَتْ تِلْكَ الْجَزِيرَةُ فى الْقَرْنِ السَّادِسِ بِجَزِيرَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْقِدِّيسِينَ وَكَانَتْ مَشْحُونَةً بِالْمَعَابِدِ وَالْأَدْيِرَةِ وَمِنْهَا ذَهَبَ الْمُرْسَلُونَ لِنَشْرِ الدِّينِ الْمَسِيحِىِّ فى الْأُمَمِ الْجِرْمَانِيَّةِ،وَكَانَ فى إِمْكَانِ جَمْعِيَّةِ الْأَخْلاَقِ أَنْ تَجِدَ فِيهِمْ أَنْصَاراً بِقَدْرِ مَا تُرِيدُ لِأَنَّ كُلَّ النَّاسِ فى جَمِيعِ الْأَقْطَارِ كَانُوا مُشْتَغِلِينَ بِتِلْكَ « الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّة » ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْبِلاَدُ غَاصَّةً بِالرِّجَالِ الَّذِينَ اتَّصَفُوا بِمَا تَسْعَى إِلَيْهِ مِنَ الْأَخْلاَقِ كَحُبِّ الْخَيْرِ وَالْعَقْلِ وَالتُّقَى وَمَا كَانَ اعْتِقَادُهُمْ كَنَارِ الْقَشِّ لاَ تَكَادُ

تُوقَدُ حتَّى تَصِيرَ رَمَاداً بَلْ هُوَ اعْتِقَادٌ مَتِينٌ لأنَّ إرلنده لا تزالُ إلى الْيَوْمِ مَهْدَ الْحَمِيَّةِ الدِّينِيَّةِ . وَكَانَ مِنَ اللَّازِمِ أَنَّ هَـذِهِ الحياةَ الْأَدَبِيَّةَ تُوجِدُ فِي تِلْكَ الأُمَّةِ حَالَةَ اجْتِمَاعٍ مِنْ أَحْسَنِ الحالاتِ وَأَكْثَرِهَا دَوَاماً وَأَرْضَاهَا ، وَلَـكِنَّهَا لِسُوءِ الْحَظِّ مَا جَنَتْ إلاَّ دَوَامَ التَّقَهْقُرِ وَكَانَ مَبْدَأُ ظُهُورِهِ وَهِيَ فِي أَشَدِّ حَالاَتِهَا تَمَسُّكاً بِتِلْكَ الْأَخْلَاقِ وَلَا تَزَالُ هَاوِيَةً حَتَّى الآنَ .

وَهُنَا أَيْضًا لا أَنْسُبُ تَأَخُّرَهَا إلى نُمُوِّ الْأَخْلَاقِ وَالدِّينِ فِيهَا لِأَنِّى أَقَعُ بِذَلِكَ فِيمَا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الخطأِ إذْ قَالُوا إنَّ بَيْنَ حَرَكَةِ الْأَخْلَاقِ وَحَرَكَةِ الْأُمَمِ نِسْبَةً كَمَا بَيْنَ الْعِلَّةِ وَالمَعْلُولِ وَهُوَ خَطَأٌ أَنَا أَجْتَهِدُ فِى نَفْيِهِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ ، وَسَأَفِى هَذَا الْمَقَامَ حَقَّهُ لِأَنَّهُ مِفْتَاحُ المَوْضُوعِ الَّذِى أَبْحَثُ فِيهِ .

بَلَغَتْ حَرَكَةُ الْأَخْلَاقِ وَالدِّينِ فِى إيتَالْيَا فِى الْقَرْنِ الثَّالِثَ عَشَرَ وَالْقَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ مَبْلَغاً عَظِيماً وَظَهَرَ فِيهَا مِنَ الْقَائِمِينَ بِتِلْكَ الحركةِ كِبَارٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ كَالْقِدِّيسِينَ « فرنسوا داسيز » وَ « كاير » وَ « انطوان دى بادو » وَالسَّعِيد « يواقيم دى فلور » وَ« حنادى پارم » وَ « فراسالامبو » وَ « يعقوبين دى تودى » وَ« سليستان » وَ« كترين دى ستين » وَغَيْرِهِمْ وَظَهَرَتْ طَوَائِفُ الْفِرَنْسِيسْكَانِ وَ « كلاريس » الَّتِى أَدْهَشَتِ الدُّنْيَا بِفَقْرِهَا وَخُضُوعِهَا وَهُمَا الْفَضِيلَتَانِ اللَّتَانِ يُحِلُّهُمَا

أَصْحَابُ المُؤَثِّرِ الأَدَبِيِّ أَعْلَى مَقَامٍ ، لِقَوْلِهِمْ : إِنَّهُ لَا صَلَاحَ لِلنَّاسِ « إِلَّا إِذَا تَجَرَّدُوا عَنِ التَّعَلُّقِ بِكُلِّ أَمْرٍ لَا يَكُونُ ضَرُورِيًّا » : وَلِقَوْلِهِمْ « عَجَبًا لِقَوْمٍ يَأْتُونَ لِيَنْصَحُوا الأُمَّةَ وَهُمْ فِي العَرَبَاتِ رَاكِبُونَ ! مَعَ أَنَّهَا لَا فَائِدَةَ لَهَا مِنَ اقْتِنَائِهِمْ تِلْكَ العَرَبَاتِ وَهُمْ بِذَلِكَ إِنَّمَا يَزْرَعُونَ الحَسَدَ فِي القُلُوبِ بِمَا يُظْهِرُونَ مِنَ التَّأَنُّقِ وَالتَّرَفُّهِ وَيُؤَكِّدُونَ بِهَذَا وُجُودَ طَبَقَاتٍ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مَعَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ ذَلِكَ وَهْمٌ وَخَيَالٌ وَعَلَيْهِ فَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُشْفِقَ حَقِيقَةً عَلَى الأُمَّةِ وَنَتَأَسَّى لِمَا هِيَ فِيهِ مِنَ الآلَامِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَجَرَّدَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَجْعَلَ الحَيَاةَ فِي الظَّاهِرِ حَيَاةَ تَفَاخُرٍ وَتَنَعُّمٍ وَلَا مَحِيصَ لَنَا عَنِ العَمَلِ بِهَذَا الوَاجِبِ وَإِنْ كَانَ شَاقًّا كَمَا قَدَّمْنَا إِذْ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْكِسَ سُلَّمَ أَحْكَامِ العَقْلِ فَنَجْعَلَ الفَوْقِيَّ تَحْتِيًّا وَالتَّحْتِيَّ فَوْقِيًّا وَبِالجُمْلَةِ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ قَلْبِ العُقُولِ قَلْبًا تَامًّا فَإِذَا لَمْ تَتَهَيَّأِ النُّفُوسُ إِلَى هَذَا الانْقِلَابِ فَلَا بُدَّ لَهَا مِنَ الانْتِحَابِ[1] عَلَى مَفَاسِدِ النَّاسِ كَمَا يَبْكِي الأَطْفَالُ » وَلَوْ أَنَّ هَذَا الخِطَابَ قُرِئَ عَلَى القِدِّيسِ « فرنسوا داسيز » لَأَمْضَى عَلَيْهِ بِاليَدَيْنِ لِأَنَّهُ كَانَ يُرِيدُ أَيْضًا « أَنْ يَتَجَرَّدَ المَرْءُ مِنْ كُلِّ مَا لَيْسَ ضَرُورِيًّا » قَالَ : « اذْهَبُوا وَلَا تَلْبَسُوا فِضَّةً وَلَا ذَهَبًا وَلَا تَأْخُذُوا مَالًا فِي جُيُوبِكُمْ وَلَا وِطَابًا[2] وَلَا بُرْدَيْنِ وَلَا نَعْلَيْنِ وَلَا عَصًا »

(١) الانتحاب رفع الصوت بالبكاء (٢) الوطاب جمع وطب وهو فى الأصل سقاء اللبن وهو جلد الجذع فما فوقه والمراد هنا الجلد مطلقاً ولعله يريد ولا عيابا (شنطا)

وَنَحْنُ نَعْلَمُ مَا كانَ لِمَذْهَبِهِ مِنْ سُرْعَةِ الانْتِشَارِ وَكَثْرَةِ إقْبالِ النَّاسِ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَمْضِ عَلى تَأْسِيسِهِ تِسْعُ سَنَوَاتٍ حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ إرْسَالِ خَمْسَةِ آلافِ مُرِيدٍ[1] إلى الجَمْعِيَّةِ الْعُمُومِيَّةِ فى « آسيز » وَبَلَغَ عَدَدُ أَصْحَابِهِ مِائَةً وَخَمْسَةَ عَشَرَ أَلفَ نَسَمَةٍ يُقِيمُونَ فى سَبْعَةِ آلافِ دِيرٍ وَذَلِكَ غَيْرُ أَدْيِرَةِ النِّسَاءِ وَعَامَّةِ الْقَوْمِ الَّذِينَ مَالُوا إلى ذَلِكَ المَذْهَبِ وَجَرَوْا عَلَيْهِ .

وَلَوْ أَنَّ تِلْكَ الجَمَاهِيرَ أَصْغَتْ إلى هَذَا النِّدَاءِ لَأَصْبَحَ أَصْحَابُ المُؤْتَمَرِ الأَدَبِيِّ آمِنِينَ عَلى تَحْسِينِ حَالِ الأُمَّةِ الفَرَنْسَاوِيَّةِ لَكِنَّ الحَوَادِثَ دَلَّتْنَا عَلى أَنَّ انتِشَارَ الأَخْلَاقِ وَالدِّينِ ذَلِكَ الانْتِشَارَ لَمْ يُؤَثِّرْ بِأَكْثَرَ مِمَّا كانَ لَهُ مِنَ النَّتَائِجِ فى الدَّوْلَةِ الرُّومَانِيَّةِ وَأَيرْلَنْدَه التَّعِسَةِ . وَظَلَّتْ عَوَامِلُ التَّقَهْقُرِ تُنْهِكُ الأُمَّةَ التَّلْيَانِيَّةَ بَيْنَ فَوْضَى سِيَاسِيَّةٍ وَفَسَادِ أَخْلَاقٍ دِينِيَّةٍ مِنْهُمَا فى أُمَّةِ الرُّومَانِ أَيَّامَ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ . وَلَمْ تَقْتَصِرِ النَّهْضَةُ الجَدِيدَةُ عَلى إرْجَاعِ التَّلْيَانِ إلى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الأُمَمُ الْغَابِرَةُ مِنَ الأَخْلَاقِ وَالْفُنُونِ بَلْ أَعَادَتْ إلَيْهَا أَيْضاً رَذَائِلَهُمُ الأُولَى . وَانْتَهَى الحَالُ فى ذَلِكَ البَلَدِ بِتَقْوِيضِ أَرْكَانِ نِظَامِهِ الاجْتِمَاعِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ وَلَمْ يُغْنِ عَنْ ذَلِكَ سَعْيُ القِدِّيسِينَ وَالأَخْيَارِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ النُّفُوذِ ، وَلَمْ يَقْتَدِ النَّاسُ بِهِمْ فِيمَا كَانُوا بِهِ يَتَظَاهَرُونَ .

(١) يريد بالمريد هنا التابع الدينى

لَسْتُ أَبْغِي الإِكْثَارَ مِنْ إِيرَادِ الأَمْثِلَةِ ، فَتَارِيخُ تِلْكَ الأَزْمَانِ مَحْشُوٌّ بِهَا ، وَلَكِنِّي أَسْتَمِيحُ(١) الْقُرَّاءَ فِي ذِكْرِ شَاهِدٍ وَاحِدٍ .

ذَهَبَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ إِلَى تَعْظِيمِ آدَابِ الدِّيَانَةِ الْبُوذِيَّةِ وَأَحَلُّوهَا مَكَاناً عَلِيًّا ، وَهِيَ فِي الْوَاقِعِ شَدِيدَةُ الإِشْفَاقِ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَالْبَائِسِينَ كَثِيرَةُ الْحَنَانِ عَلَى الْمَظْلُومِينَ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَيْسَ الْمُرَادَ بَلِ الْمَدَارُ عَلَى مَعْرِفَةِ مَا إِذَا كَانَتْ تَعَالِيمُ تِلْكَ الدِّيَانَةِ أَوْجَدَتْ حَلاًّ لِلْمَسْأَلَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَنَهَضَتْ بِأُمَمِ الْهِنْدِ وَالشَّرْقِ الأَقْصَى الَّتِي كَانَ لَهَا عَلَيْهَا التَّأْثِيرُ الْعَظِيمُ مِنْ وِهَادِ الانْحِطَاطِ إِلَى أَوْجِ(٢) السَّعَادَةِ وَالْهَنَاءِ .

بَلَى(٣) إِنَّ انْحِطَاطَ تِلْكَ الأُمَمِ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى دَلِيلٍ . وَمَا عَلَى الْبَاحِثِ إِلاَّ أَنْ يَنْظُرَ بِعَيْنِهِ لِيَعْلَمَ كَيْفَ الْحَالُ وَلِيُوقِنَ بِأَنَّ آدَابَ تِلْكَ الدِّيَانَةِ لَمْ تَنْتَشِلْ تِلْكَ الأُمَمَ مِنَ الْحَضِيضِ الَّذِي هُمْ فِيهِ .

وَمِنْ أَظْهَرِ الْبَرَاهِينِ عَلَى عَدَمِ نَجَاحِ الْمُؤَثِّرِ الأَدَبِيِّ فِي تَحْسِينِ حَالِ الأُمَمِ أَنَّ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ قَوْلَنَا لاَ يَسَعُهُمْ أَنْ يُنْكِرُوا مَا يُشَاهِدُونَ فِي أَحْوَالِ الأُمَمِ مِثْلَنَا بَلْ إِنَّ الْحَقَّ يَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ

(١) استماحه : سأله العطاء . والمراد هنا أطلب من القراء إعطائي فرصة لذكر هذا الشاهد (٢) الأوج : العلو (٣) بلى جواب للتحقيق توجب ما يقال لك لانها ترك للنفي

بالرَّغم مِنْ إرادَتِهِمْ مَدْفُوعًا بِقُوَّةِ الحَوادِثِ وَالمُشاهَداتِ ، وَهِيَ أَكْبَرُ الدَّوافِعِ وأَلزَمُها بيانًا .

إِلَيْكَ مَا جاءَ فى مَنْشُورِ الحِزْبِ المُشارِ إِلَيْهِ قالُوا « نَعَمْ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ العائِلاتِ وَالمَدارِسَ تَقُولُ لِلأَطْفالِ إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الإِنْسانِ أَنْ يَكُونَ صادِقًا أَمِينًا مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ ، وَأَنْ يَكُونَ صِدْقُهُ وَأَمانَتُهُ قائِمَيْنِ بِإِخْلاصِهِ وَنَزاهَتِهِ ، وَلَوْ كانَ مُجَرَّدُ قَوْلِ الشَّىْءِ وَسَماعِهِ مِنَ المُخاطَبِ كافِيًا لِلعَمَلِ بِهِ لَأَصْبَحَ فَتْحُ الضَّمائِرِ وَاجْتِذابُ القُلُوبِ إِلَى الدِّينِ أَمْرًا يَسِيرًا ، كَذَلِكَ قَدِ انْتَشَرَتِ الكَنائِسُ وَالمَعابِدُ وَالهَياكِلُ انْتِشارًا عَظِيمًا ، وَيَدْخُلُها الكَثِيرُ مِنَ الأَطْفالِ لِيَتَلَقَّوْا تَعالِيمَها ، وَالعَدَدُ العَدِيدُ مِنَ النَّاسِ لِيَسْمَعُوا الوَعْظَ وَالنَّصائِحَ ، وَتُشاهِدَ أَعْيُنُهُمْ بِما يُمَثِّلُ أَمامَها مِنَ المَناظِرِ وَالاحْتِفالاتِ ، كَيْفَ يَنْتَقِلُ المَرْءُ مِنْ حالَتِهِ الاعْتِيادِيَّةِ فَيَصِيرُ مِنْ أَهْلِ الخَيْرِ تَقِيًّا . وَلِلوَعْظِ وَالإِرْشادِ رُهْبانٌ وَقُسُوسٌ يُعَدُّونَ بِالآلافِ ، وَهُمْ لا يَفْتُرُونَ عَنْ أَداءِ ذَلِكَ الواجِبِ ، فَلَوْ كانَ هَذا كُلُّهُ مِمَّا يُوَصِّلُ إِلى الغايَةِ وَحْدَهُ وَإِنْ عَزَّ نَيْلُها لَأَصْبَحْنا بِها ظافِرِينَ ، لَكِنَّا مَعَ مَا نَقُولُ لا نَرَى الإِنْجِيلَ سائِدًا فى النَّاسِ ، وَلا هُمْ يَعْمَلُونَ بِمُقْتَضَى قَواعِدِ الحِكْمَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتى أَسَّسَها عُظَماءُ الفَلاسِفَةِ فى الأَعْصُرِ الأَخِيرَةِ وَالَّتِي تُطابِقُ تَعالِيمَ الإِنْجِيلِ وَمَبادِئَهُ . وَالجَلِيُّ الواضِحُ أَنَّ الفَرْقَ

عظيمٌ بين درجة الكمال التى يشعر بها الوجدان بعد هذا العناء وبين ما نجرى عليه فعلاً من الأخلاق والآداب » « راجع كتاب عقلنا صحيفة ١١ » .

ولو أنى القائل لما أجدت كما أجادوا ، والعجب من كون الذين كتبوا ما نقلنا لم يدركوا مكان الضعف فى مذهبهم الذى أسسوه على المؤثر الأدبى دون سواه ، يعترفون بأن « ألوفاً من القسوس والرهبان يعملون على الدوام لإنجاح مقصدهم » فى الأخذ بناصر الأمم من وهدتها وأولئك القسوس والرهبان هم من جميع المذاهب والأديان ، فمنهم الكاثوليكى والبروتستانتى واليهودى ، ويا ليتهم كانوا وحدهم بل أضافوا إليهم « عظماء فلاسفة العصر » وخرجوا من هذا كله يعترفون والحزن ملء قلوبهم بأنهم كلهم أمسوا خائبين وبأن الناس لا يعملون بما قضى به الإنجيل وما قرره الحكماء وأعجب منه أنهم بعد ذلك يقولون وهم مطمئنون هادئون بوجوب « الابتداء بالعمل من جديد » ويؤملون النجاح حيث لم تنجح الكنائس والمعابد على اختلاف مذاهبها مع ما كان لها من قوة السلطان ونفوذ الكلمة وعلو الشأن كأنهم لم يعرفوا أن عدم نجاح تلك المساعى مع ما سوعدت به من الأعمال والإخلاص والتجرد عن الذات وفعل الخيرات

وَتَضْحِيَةِ النُّفُوسِ وَالأَرْوَاحِ وَحُبَّ الْجَارِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لاَ شَيْءَ يَنْفَعُ وَلاَ مُرِيدَ يَنْجَحُ إِنْ دَامَ يَسْلُكُ ذَاكَ الطَّرِيقَ. وَكلُّ عَالِمٍ خَابَتْ تَجْرِبَتُهُ لاَ يَغِيبُ عَنْهُ هَذَا الْخَاطِرُ الْبَدِيهِيُّ الْبَسِيطُ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا حَتَّى الآنَ أَنَّ الْمُؤَثِّرَ الأَدَبِيَّ لاَ يَكْفِي تَحْقِيقَ سَعَادَةِ الأُمَمِ وَدَوَامِ نَعِيمِهَا وَتَحْصِيلِ مَجْدِهَا الاجْتِمَاعِيِّ وَأَنَّهُ يَنْقُصُهُ شَيْءٌ آخَرُ فِقْدَانُهُ هُوَ السَّبَبُ فِي تَخَلُّفِ الْغَرَضِ الْمُرَادِ

فَلْنَبْحَثْ حِينَئِذٍ عَنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ الَّذِي يُعْوِزُنَا

وَلْيَسْمَحْ لِيَ الْقُرَّاءُ أَنْ أَضْرِبَ فِي الْبَيَانِ مَثَلاً أَسْتَعِيرُهُ مِنَ الْإِنْجِيلِ وَأَظُنُّ بِهَذَا التَّشْبِيهِ لاَ أُغْضِبُ أَصْحَابَ الْمُؤَثِّرِ الأَدَبِيِّ

يُمْكِنُ تَشْبِيهُ الْمُؤَثِّرِ الأَدَبِيِّ بِبِذْرَةٍ تَنْبُتُ إِنْ غُرِسَتْ فِي أَرْضٍ صَالِحَةٍ وَلاَ تَنْبُتُ إِنْ خَبُثَ مَغْرِسُهَا. وَعَلَيْهِ فَلِجَوْدَةِ الأَرْضِ وَفَسَادِهَا تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ. وَلَسْتُ بِهَذَا أَقُولُ قَوْلاً جَدِيدًا وَإِنَّمَا هُوَ قَوْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ إِجْمَاعًا بِالتَّقْرِيبِ وَقَدْ قَرَّرَهُ الْوُعَّاظُ وَعُلَمَاءُ الأَخْلاَقِ وَالْمُتَكَلِّمُونَ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ وَدِينٍ أَلْفَ أَلْفِ مَرَّةٍ مِنْ يَوْمِ أَنْ ظَهَرَ الإِنْجِيلُ وَصَارَ مِنَ الْعَادِيَّاتِ لِصِحَّتِهِ وَبَدَاهَتِهِ

غَيْرَ أَنَّهُمْ لِسُوءِ الْحَظِّ أَقَامُوا بِجَانِبِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ خَطَأً أَلْبَسَهَا مِنَ الظَّلاَمِ ثَوْبًا فَأَخْفَاهَا: إِذْ حَسِبُوا أَنَّ جَوْدَةَ الْبِذْرَةِ تُوَلِّدُ جَوْدَةَ الأَرْضِ وَتَقْتَضِي الإِنْبَاتَ وَقَالُوا « لَيْسَ مِنْ أَرْضٍ غَيْرِ صَالِحَةٍ وَمَا

الْفَسَادُ إلاَّ فى الْبُذُورِ » وَظَاهِرٌ أنهُ لمْ يَبْقَ بيْنَ هذَا الْقَوْلِ وَإهمالِ النظَرِ فى طَبِيعَةِ الأرْضِ التى يُرادُ الْغرْسُ فيهَا إلاَّ مرْحلَةٌ قَصِيرَةٌ وَقدِ اجْتَازُوهَا بأسْهَلِ مَا يَكُونُ فانتقلُوا مِنْ قَضِيَّةٍ إلى قضِيَّةٍ حَتَّى قَالُوا مَانَصُّهُ بالْحَرْفِ الْوَاحِدِ « لَيْسَ مَحلُّ الْبحْثِ مَعْرِفَةَ مَا إذا كانَ الزَّمَنُ الْحَاضِرُ أرَادَأَ مِنَ الزَّمَنِ المَاضِي لأنَّهُ لَيْسَ فى استِطَاعَةِ أَحَدٍ أَنْ يُحقِّقَ شَيْئاً فى هَذَا الْبَابِ فَمِنَ الْعَبَثِ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ » وَمَعْنَاهُ أَنَّ مِنَ الْعَبَثِ الْبَحْثَ عَنْ طَبِيعَةِ الأرْضِ الْمُرَادِ غَرْسُهَا . ادَّعَوْا هَـذَا بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَمَلَئُوا الْيَدَيْنِ مِنْ بُذُورِ الأخْلَاقِ ثُمَّ بَذَرُوهَا فى كلِّ صَوْبٍ[1] وَمَعَ كُلِّ رِيحٍ تَهُبُّ وَعَجِبُوا بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ تَخَلُّفِ نَبْتِهَا أَوْ أَنَّهُمْ أَخفَوْا عَجَبَهُمْ بِمَا ذَهَبُوا إليْهِ مِنِ انْتِظَارِ النَّبْتِ يَوْماً لَا يَعرِفُونَ لهُ وَقتاً فَقَالُوا « إنَّ الْمَقْصِدَ خَطِيرٌ وَالْعَمَلَ جَلِيلٌ فَلَا يَطْمَعَنَّ أَحَدٌ مِنا فى أنْ يُدْرِكَ بَوَادِرَ تَحَقُّقِهِ غَيْرَ أَنَّ هذا لَا يُغَيِّرُ مِنْ وَاجِبِنَا لِأَنَّ النَّجَاحَ لَيْسَ مِنْ أَعْمَالِنَا (رَاجِعْ كِتَابَ عَقْلُنَا صَفْحَةَ ٢٦)

أجَلْ إنَّمَا النّجاحُ هُوَ الَّذِى مِنْ عَمَلِنَا وَهُوَ كُلُّ الْعَمَلِ بَلْ لَا عَمَلَ لَنَا إلاَّ هُوَ . وَمِنَ الْمُسْتَغْرَبَاتِ أَيُّهَا النَّاسُ أَنْ تَدْعُوا الْقِيَامَ بِذَاكَ الْمَقْصِدِ الْأمْجَدِ الرَّفِيعِ الشَّأْنِ وَهُوَ النُّهُوضُ بِالْأُمَمِ مِنْ

(١) الصوب : الجهة

حَضيضهَا مِنْ جهةِ الْأخلاقِ وَالْأحوالِ الاجتماعيَّةِ ثُمَّ أَنتُمْ تدَّعُونَ مَعَ هذا أَنَّ النّجاحَ ، أى نُهوضَ الأمم ، لَيسَ مِنْ عمَلِكُمْ . إنكم إذنْ قَوْمٌ تحِبُّونَ الفنُونَ لِذَاتِهَا ومَكارِمَ الْأخلاقِ لِمكارِمِ الأخلاقِ .

مَا عدَمُ نجاحِ أصْحَابِ المُؤتَمرِ الأدَبيِّ وَحْدَهُ مِمَّنْ خلَوْا مِنْ قَبْلِكمْ إلاَّ مُسبَّبٌ عَنْ ذَلكَ الاعْتِقَادِ الفَاسِدِ بأنَّهُ لا تأثيرَ لطبيعةِ الأَرْضِ الَّتى تُلْقَى البُذُورُ فِيهَا وَبأنَّهُ مِنَ العَبَثِ الالتفاتُ إليْهَا . إنَّمَا طَبِيعَةُ الأرضِ الاجتماعِيَّةُ سَبَبٌ مِنَ الأسْبَابِ الجوهَريَّةِ الَّتى لَهَا التَّأثيرُ الأَعْظَمُ فِى نَجَاحِ المُؤتَمرِ الأدبيِّ وَخَيْبَتِهِ . وَلاَ أُريدُ الاسْتِدْلاَلَ عَلى مَا أَقُولُ إلاَّ بتَجَارِبِ مُوسْيُو (بول دى جاردان) صَاحِبِ الدَّعْوَةِ إلى تَأْليفِ الْقُلُوبِ حَوْلَ المُؤْتَمرِ الْأدَبيِّ، فَقَدِ الْتقَيْنَا فى إيدنبُورْج أيَّامَ قَصَدْنَاها لإِلْقاءِ بَعْضِ الخُطَبِ هُنَاكَ هُوَ فى مُؤْتَمرِهِ الْأدَبيِّ وَأَنَا فى الْعِلْمِ الاجْتِمَاعِيِّ ، وَرَأَيْتُهُ مُتَعجِّباً مِنْ إقْبالِ النَّاسِ عَلى مَذْهَبِهِ .ويَرَى-كما أخبَرَنى-(أنَّ الْأَرْضَ صَالِحَةٌ جدًّا!وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ لَقِيَ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ المَدينَةِ قَوْماً يُصْغُونَ إليْهِ بكَمَالِ الالْتِفَاتِ وَيَسْمَعُونَ حَدِيثَهُ بجِدٍّ وَاهْتِمَامٍ وَعَلى أَفْكَارٍ تَلِيقُ كلَّ اللياقة بمَذْهَبِهِ وَنَشْرِ مَبادئِهِ ،وَكانَ دَهِشاً مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ اسْتِعْدَادِ الْأَفْكَارِ فى هَذِهِ المَدِينَةِ

— ٣٠ —

وَبَيْنَ حَالَةِ الْأَفْكَارِ فى فَرَنْسَا إذ يُوجَدُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ أَنفُسِهِمْ عِنْدَنَا مَنْ يَتْبَعُهُ لِمُجَرَّدِ الانْضِمَامِ إِلَيْهِ حُبًّا فى التَّقْلِيدِ وَالتَّمَسُّكِ بِكُلِّ شَيْءٍ جَدِيدٍ جَرْيًا مَعَ مُيُولِ الفَرَنْسَاوِيِّينَ فى هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلى عُلُومِ الأَدَبِ وَالْأَخْلَاقِ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنَّا الْيَوْمَ يَتَمَذْهَبُ بِمَذْهَبِ كَذَا أَوْ كَذَا لِيُقَالَ ، كما جرى على أَلْسِنَتِهِمْ ، ذَلِكَ أَظْرَفُ وَأَحْلَى ! ذَلِكَ أَحْكَمُ وَأَدَقُّ ! ذَلِكَ هُوَ الرَّأْيُ الأَخِيرُ : ذَلِكَ مَيْلٌ مِنَ الْمُيُولِ وَهَكَذَا مِنَ الأَلْفَاظِ الْغَرِيبَةِ الَّتِى دَرَجَتْ بَيْنَهُمْ . فَإِذَا تَبَدَّلَ الحَالُ أَوْ جَدَّ جَدِيدٌ رَأَيْتَهُمْ يَتَسَارَعُونَ إلى تَرْكِ مَا تَعَشَّقُوا وَذَهَبُوا يَتَفَرَّجُونَ عَلَى الرَّأْيِ الْمُطِلِّ(١) كما يَتْرُكُ الرَّجُلُ رِدَاءَ الصَّيْفِ لِيَلْبَسَ ثَوْبَ الشِّتَاءِ . وَفى كُلِّ هَذِهِ الأَدْوَارِ تَرَى عَامَّةَ الْقَوْمِ يَقْلِبُونَ ذَاكَ الْجِدَّ هَزْلاً كما هِيَ عَادَةُ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ فى قَلْبِ كُلِّ شَيْءٍ تَهَكُّمًا .

تِلْكَ أَرْضٌ لَيْسَتْ صَالِحَةً لِوَضْعِ الْبُذُورِ فِيهَا ، وَالنَّشْأَةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ الحَاضِرَةُ لَيْسَتْ مُسْتَعِدَّةً لِقَبُولِ فِعْلِ الْمُؤَثِّرِ الأَدَبِيِّ كما قَامَتْ فى وَجْهِهِ عِنْدَ الأُمَّةِ الرُّومَانِيَّةِ وَفى إِيرْلَنْدَه وَإِيتَالْيَا ، وَفى الشَّرْقِ حَيْثُ لَمْ يَأْتِ بِمَا كَانَ يُنْتَظَرُ مِنْهُ مِنَ الْمَزَايَا وَلَا بِمَا أَرَادُوا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنْهَا .

وَجَبَ إِذَنْ أَنْ يُبْدَأَ بِتَغْيِيرِ النَّشْأَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ ذَاتِهَا ، إِنْ كَانَ الْمُرَادُ

(١) المطل : المشرف القادم ، يريد الرأى الجديد

الْوُصُولَ إلى فَائِدَةٍ صَحِيحَةٍ، أعْنِي أَنَّهُ يَنبغي البَدْءُ فى الإصْلَاحِ بأَوَّلِهِ.

وَأَوَّلُ مَا يَجِبُ البَدْءُ فِيهِ عِنْدَنا، حَتَّى يكُونَ المُؤَثِّرُ الأَدَبِيُّ صَالحاً لِلْغَرَضِ المَطْلُوبِ، تَرْبِيَةُ الرِّجَالِ وَإعْدَادُهُمْ لِلْحَيَاةِ الحَقِيقِيَّةِ. وَنَحْنُ الْيَوْمَ نُعَلِّمُ أَبْنَاءَنا أَنَّ مُنْتَهَى الأَمَلِ وَمُنْتَهَى الحِكْمَةِ هُوَ الْخَلَاصُ بِمَا فى الجُهْدِ مِنْ مَتَاعِبِ الحَيَاةِ وَتَقَلُّبَاتِهَا. يَقُولُ الوَالِدُ لِوَلَدِهِ: (يَا بُنَيَّ تَوَكَّلْ أَوَّلاً عَلَيْنَا فى دُنْيَاكَ! فَإِنَّكَ تَرَى كَيْفَ نَقْتَصِدُ وَنَدَّخِرُ لِنَجْمَعَ لَكَ مَالاً جَزِيلاً نُقَدِّمُهُ لَكَ مَهْراً يَوْمَ زَوَاجِكَ وَلَقَدْ بَلَغَ حُبُّنَا لَكَ مَبْلَغاً لَا نَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَنْ نَتْرُكَ أَمَامَكَ عَقَبَةً مِنْ عَقَبَاتِ الحَيَاةِ إلاَّ ذَلَّلْنَاهَا مَا اسْتَطَعْنَا. ثُمَّ تَوَكَّلْ بَعْدَنا عَلَى أَقَارِبِنَا وَأَصْدِقَائِنَا فى مَعُونَتِكَ وَالتَّوْصِيَةِ بِكَ حَتَّى تَنَالَ مُرْتَزَقاً. وَتَوَكَّلْ أَيْضاً عَلَى الحُكُومَةِ فَلَدَيْهَا مِنَ الْوَظَائِفِ عَدَدٌ لَا يُحْصَى!! وَهُنَاكَ يَبِيتُ المَرْءُ مُطْمَئِنَّ الْبَالِ آمِناً مِنَ التَّقَلُّبَاتِ يَقْبِضُ رَاتِبَهُ فى آخِرِ كُلِّ شَهْرٍ عَلَى التَّوَالِى وَيَتَرَقَّى بِطَبِيعَةِ الحَالِ لِمُجَرَّدِ وُجُودِ المَعَاشِ وَحَقِّ التَّقَاعُدِ وَالْوَفَاةِ حَتَّى إِنَّكَ لَتَعْرِفُ رَاتِبَكَ مَتَى بَلَغْتَ سِنَّ كَذَا وَكَذَا وَمَتَى تَنَالُ المَعَاشَ فَتَقْعُدَ عَنِ الْعَمَلِ آمِناً مُسْتَرِيحاً بِحَيْثُ إِنَّكَ بَعْدَ أَنْ تَكُونَ قَضَيْتَ زَمَناً مِنْ حَيَاتِكَ وَكَأَنَّكَ لَمْ تَأْتِ عَمَلاً يُمْكِنُكَ أَنْ تَعِيشَ بَقِيَّةَ عُمْرِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَأْتِيَ عَمَلاً أَبَداً وَإِنْ كُنْتَ لَا تَزَالُ فى سِنٍّ يَكُدُّ فِيهَا المَرْءُ وَيَتْعَبُ. وَلَمَّا كَانَ أَيُّهَا الْوَلَدُ الْعَزِيزُ رَاتِبُ

الْوَظَائِفِ زَهِيداً - وَمَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ - يَنْبَغِى لكَ أَنْ تَتَوَكَّلَ أَيْضًا عَلَى الْمَهْرِ الَّذِى تَأْتِى بِهِ لكَ زَوْجَتُكَ . وَعَلَيْهِ فَمِنْ وَاجِبكَ قَبْلَ كلِّ شَىْءٍ أَنْ تبحثَ عَنْ زَوْجَةٍ غَنِيَّةٍ وَلْيَطْمَئِنَّ بالكَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَسَنَبْحَثُ لكَ نَحْنُ عَنْهَا ، وَسَنَجِدُهَا إِنْ شَاءَ اللهُ . تِلْكَ أَيُّهَا الْوَلَدُ الْعَزِيزُ هِيَ النَّصِيحَةُ الَّتِى يُمْلِيهَا عَلَيْنَا حُبُّنَا لَكَ وَمَيْلُنَا إِلَيْكَ » .

هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الَّذِى يَسْمَعُهُ الْوَلَدُ كلَّ يَوْمٍ فِى بَيْتِ أَبِيهِ وَمِنْ جِيرَانِهِ وَمُخَالِطِيهِ وَأَنَّى ذَهَبَ ! وَلاَ شَكَّ فِى أَنَّهُ يُعَوِّدُهُ مِنْ غَيْرِ شُعُورٍ الِاعْتِمَادَ عَلَى غَيْرِهِ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَيُبْعِدُهُ عَنْ حُبِّ الْمُرْتَزَقَاتِ الَّتِى تَقْتَضِى الْجِدَّ وَتَسْتَلْزِمُ الْهِمَّةَ وَالإِقْدَامَ وَقَدْ يُصِيبُ فِيهَا أَوْ يَخِيبُ كَالزِّرَاعَةِ وَالصِّنَاعَةِ وَالتِّجَارَةِ ، وَيَجْعَلُهُ مَيَّالاً إِلَى الْحَيَاةِ الْمُسْتَرِيحَةِ .

وَمَتَى صَارَ هَذَا نَظَرَهُ فِى الْحَيَاةِ جَمَدَتْ إِرَادَتُهُ وَخَمَلَتْ هِمَّتُهُ ، وَارْتَخَتْ مِنْهُ الْعَزِيمَةُ وَصَارَ غَيْرَ قَادِرٍ عَلَى الْكَدِّ وَالْعَمَلِ مَيَّالاً إِلَى الْهَرَبِ مِنَ الصِّعَابِ لاَ رَاغِباً فِى مُغَالَبَتِهَا يَبْحَثُ عَمَّا فِى الْحَيَاةِ مِنَ الْمُسَلِّيَاتِ لاَ عَنِ الْجِدِّيَّاتِ ، وَيُمْسِى غَيْرَ قَابِلٍ لِتَأْثِيرِ ذَلِكَ الْمُؤَثِّرِ الْأَدَبِيِّ الَّذِى يَطْلُبُ الْكَدَّ وَيُوجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَقْهَرَ نَفْسَهُ لِيَمْلِكَهَا .

هَذَا هُوَ الْمَانِعُ الأَكْبَرُ لِلْعَمَلِ بِمُقْتَضَى الإِرْشَادِ الأَدَبِيِّ وَحْدَهُ

وَلاَ يُمكِنُ إزالتهُ بالمُؤَثِّرِ الأدبيِّ وَحْدَهُ، لأَنَّ الوَسَطَ الاجْتِمَاعِيَّ كلَّهُ مُتَضَافِرٌ[1] عَلَيْهِ. فالمُؤَثِّرُ الأَدَبِيُّ يَقولُ: « يَجِبُ على المَرْءِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَعِدًّا لِإِجْرَاءِ مَا فِيهِ كُلْفَةٌ عَلَيْهِ[2] » وَوَسَطُنَا الاجْتماعِيُّ كلُّهُ يَصِيحُ بِضِدِّ هَذَا، وَيَغشَى[3] بِصَوْتِهِ كلَّ صَوْتٍ عَدَاهُ، وجَبَ إذَنْ تَغيِيرُ هَذَا الوَسَطِ قَبْلَ كلِّ شَيْءٍ، وأَنْ يكُونَ تَغيِيرُهُ عَلى النَّحْوِ الَّذِي يُوجِبُ نُمُوَّ هِمَمِ الأَفْرَادِ الذَّاتِيَّةِ، وَبعِبَارَةٍ أُخْرَى تَوْجِيهُ النَّاسِ إِلَى اعْتِنَاقِ « الْحَيَاةِ الحَقِيقِيَّةِ ».

يَقولُونَ إنَّ هَذَا أَمَدٌ بَعِيدٌ، وَلَكِنَّ أَقْرَبَ الطُّرُقِ هُوَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الغَرَضِ المَقْصُودِ وَالْمُؤَثِّرُ الأَدَبِيُّ باعْتِرَافِ أَهْلِهِ لاَ يُؤَدِّي إِلَيْهِ

عَلَى أَنَّ الطَّرِيقَ لَيْسَ بَعِيدًا كما يَظُنُّونَ لِأَنَّ الزَّمَانَ يَدْفَعُنَا نَحْوَهُ وَدَافِعُ الزَّمَانِ أَشَدُّ الْبَوَاعِثِ كُلِّهَا، وَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُوَجِّهَ أَعْمَالَنَا وَنَلْفِتَ هِمَمَنَا إِلَى مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ وَنُسَاعِدَهَا فِي فِعْلِهَا وَنَسْتَبْطِئَهَا لاَ أَنْ نُقَاوِمَهَا وَنَعُوقَهَا وَنُؤَخِّرَهَا.

وَهَأَنَذَا أَذْكُرُ بِوَجْهِ الاخْتِصَارِ عَلاَمَاتِ تِلْكَ الْحَرَكَةِ وَبَوَادِرَهَا

الْعَلاَمَةُ الأُولَى: اخْتِلاَطُ الْجِنْسِ الإِنْكِلِيزِيِّ السَّكْسُونِيِّ وَمُنَافَسَتُهُ ـ إِنَّا لاَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْ تِلْكَ الْمُزَاحَمَةِ وَالْمُنَافَسَةِ، فَإِنَّا نَلْتَقِي مَعَ ذَلِكَ الْجِنْسِ الْمِقْدَامِ الْمُغِيرِ فِي جَمِيعِ الأَقْطَارِ الَّتِي

(١) تضافروا على الشيء: تعاونوا عليه (٢) يريد مشقة (٣) يغشى: يغطى

يمتد إليها نفوذنا ، نجده على أبوابنا فى أوربا ونجده أنى ذهبنا فى البلاد الأجنبية وهو الذى نجده فى كل مكان نتخذه مستعمرة لنا أو نضع فيه أى عمل كان . ينافسنا حيث وجدنا بزراعه ومستعمريه وصناعه وتجاره ، وأنتم تعلمون ما في منافسته من الخطر علينا لما امتازت به من عزم القائمين بها وثباتهم وخبرتهم بالمسائل العملية وتعودهم الاعتماد على أنفسهم ، فيجب أن يكون لنا مشجع من هذه المزاحمة وتلك المنافسة ، لأن المرء ينبعث إلى العمل إذا ضاق الفضاء أمامه وخاف التقهقر من المواقع التى يحتلها ، ويستفيد من التمثل (١) بخصمه ، ويتأثر به فى أحواله وأعماله .

ونحن إنما نحث الشبان الذين يحضرون درسنا فى العلم الاجتماعى على الذهاب إلى لندره لكى يتلقوا ذلك الدرس المفيد بالخبر والعيان فيها ، إذ يجتمعون هناك بأهل تلك الأمة ويتعلمون منها المزايا التى تفضل بها من عداها

غير أن هذه العلامة لا تكفى الدلالة على أن الترقى بدأ فينا إذا لم تقترن بغيرها مما هو كائن فى الأمة نفسها .

العلامة الثانية خيبة طريقة التعليم عندنا كما أجمع الناس على تحقيقه .

---

(١) التشبه

خيبة التعليم ظاهرة لجميع الناس، لذلك يزداد عدد المنددين يوماً فيوماً كما يزدادون جرأة في التنديد وإقداماً، وفيهم من كل صنف حتى من المدرسين ووزراء المعارف العمومية وجميع الأحزاب السياسية، والكل متفق تقريباً على أن المدارس لم تأت بما كان يرجى منها. والمشتغلون بالتعليم يشاهدون سقوطه وانحطاط درجته على وجه العموم. نعم تعلم المدارس شباناً يخرجون منها حائزين للشهادة الثانوية «بكالوريا» أو موظفين ومستخدمين ولكنها لا تربي رجالاً قادرين على تحصيل عيشهم بأنفسهم.

ودليلنا على وجوب إدخال التحوير في طريقة التعليم عندنا ماقرأناه ضمن خطاب ألقاه في هذا الموضوع على أحد الأندية موسيو «لاڤيس» رئيس فريق من رجال التعليم عندنا يسعون في الوصول إلى تلك الغاية حتى يكون التعليم صالحاً لاستثمار ما أودع في المرء من القوى والملكات وهو: «إني أذكر كلمة قالها لي أحد الشبان الإنكليز: وهي أرجوك ألا تظنني من العلماء فإن المدرسة لا تعلمنا شيئاً كبيراً اللهم فيما أظن إلا كيف نسير في الحياة» وما أجمل هذا الفخار الإنكليزي الذي اندرج طي هذا التواضع في المقال ولا شك عندي في أن زائري ما كان ليرضى أن يستعيض عن علم السير في الحياة بمعارفنا

المَدْرَسِيَّةِ ولَوْ أَنِّى عَرَضْتُ المُقَارَضَةَ عَلَيْهِ لَأَجَابَنِى إنَّ انكلترا مُحْتَاجَةٌ إلَى رِجَالٍ تَعَوَّدُوا الاعْتِمَادَ عَلى أنفُسِهِمْ وَشَبُّوا عَلى الاسْتِقْلالِ وَالْإِقْدَامِ لِيَكُونُوا لَهَا تُجَّاراً وَسَاسَةً وَصُنَّاعًا » .

وَلَيْسَ بِيَسِيرٍ أَنَّنَا قَدْ عَرَفْنَا حَاجَةَ طَرِيقَةِ التَّعْلِيمِ عِنْدَنَا إلَى التَّغْيِيرِ وَالْإِصْلاحِ وَأَنَّهَا لَا تُعَلِّمُنَا « كَيْفَ نَسِيرُ فى الْحَيَاةِ » وَلَا تُعَوِّدُنَا « الاعْتِمَادَ عَلى أنْفُسِنَا » فَإِنَّ إِدْرَاكَ الْخَطإِ أَوَّلُ خُطْوَةٍ نَحْوَ الْحَقِيقَةِ .

الْعَلَامَةُ الثَّالِثَةُ تَقَدُّمُ التَّمْرِينَاتِ الْجِسْمِيَّةِ عِنْدَ الشُّبَّانِ :

كفَانَا مَا احْتَقَرْنَا مِنَ التَّرْبِيَةِ الْجِسْمِيَّةِ ، فَقَدْ جَهِلْنَا مِنْهَا حَتَّى اسْمَهَا . وَكُلُّنَا يَعْرِفُ مَدَارِسَنَا وَطُولَ دُرُوسِهَا وَقِصَرَ أَوْقَاتِ الاسْتِرَاحَةِ مِنْهَا وَعَدَمَ وُجُودِ تَمْرِينٍ مِنْ أَىِّ نَوْعٍ كَانَ وَنُزْهَتَهَا الَّتِى تُشْبِهُ نُزْهَةَ الْمَسْجُونِينَ حَيْثُ يَغْدُو التَّلَامِذَةُ وَيَرُوحُونَ بَيْنَ أَرْبَعِ حِيطَانٍ مُرْتَفِعَةٍ تَحْزُنُ النفُوسَ ثُمَّ فُسْحَةَ يَوْمِ الْخَمِيسِ وَيَوْمِ الْأَحَدِ عَلى النِّظَامِ الْعَسْكَرِىِّ إِذْ يَخْرُجُ الطَّلَبَةُ صَفًّا صَفًّا كَمَا يَتَرَيَّضُ الشُّيُوخُ لَا الشُّبَّانُ . وَلَا شَكَّ فى أَنَّ الْبَقَاءَ تَحْتَ هَذَا النِّظَامِ يُطْفِئُ هِمَّةَ الْجِسْمِ وَيَجْعَلُهُ عَائِقًا لِصَاحِبِهِ لَا مُسَاعِداً لَهُ . وَعَلَيْهِ فَلَا يَتَأَتَّى نُمُوُّ الْقُدْرَةِ وَالْإِقْدَامِ وَحُبِّ الْعَمَلِ وَالْمَيْلِ إِلَى الاسْتِقْلَالِ . وَالرَّجُلُ إِذَا كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنْ آلَةٍ طَبِيعِيَّةٍ جَيِّدَةٍ

يَكُونُ أشَدَّ وُثُوقاً مِنْ نفسِهِ ، وَأقْدَرَ عَلَى مُغَالبَةِ الْحيَاةِ وَاقتِحَامِ مَتَاعِبِهَا وَأكْثَرَ مَيْلاً إِلَى العَمَلِ لَا إِلَى البَطَالَةِ وَالْبَقاءِ تَابعاً كمَا لَوْ كَانَ مُوَظَّفاً وَيَشْعُرُ مِنْ نَفْسِهِ شعُوراً أعْظَمَ بِرُجُولَتِهِ وَهُوَ كذَلِكَ فِى الْحَقِيقَةِ . وَقَدِ انْتَشَرَتْ التَّمْرِينَاتُ الْجِسْمِيَّةُ انْتِشَاراً عَظِيماً مُنْذُ بِضْعِ سِنِينَ كمَا هُوَ المَعْلُومُ وَدَارَتْ أسْمَاءُ الأَلْعَابِ الْمُخْتَلِفَةِ الْإِنـكلِيزِيَّةِ عَلَى ألْسِنَةِ الْفَرَنْسَوِيِّينَ ودَخلَتْ فِى لُغَتِهِمْ وَخَصَّصَتْ كلُّ جَرِيدَةٍ قِسْماً مِنْ صَفَحَاتِهَا لِنَشْرِ مَا يَتعَلَّقُ بِتِلْكَ الْأَلْعَابِ وَأُنْشِئَتْ فِيهَا جَرَائِدُ مَخْصُوصَةٌ تَطْبَعُ بَعْضُهَا مَا يَزِيدُ عَلَى عَشَرَةِ آلَافِ نُسْخَةٍ فِى كلِّ مَرَّةٍ وَصَارَ يَجْتَمِعُ لِلتَفَرُّجِ عَلَى تِلْكَ الْأَلْعَابِ فِى بَعْضِ الْأمَاكِنِ مَا يُنِيفُ(١) عَلَى الْعِشْرِينَ أَلْفَ نَسَمَةٍ ، وَقَدْ يَغَصُّ المَكَانُ فَيُرَدُّ الزَّائِرُونَ ، وَلَا شُبْهَةَ فِى أَنَّ الشُّبَّانَ الَّذِينَ جَذَبَتْهُمْ تِلْكَ التَّمْرِينَاتُ إِلى هَذَا الحَدِّ هُمْ أقْدَرُ مِنْ غَيْرِهِمْ عَلَى تَحَمُّلِ أتْعَابِ الحَيَاةِ وَأكْبَرُ هِمَّةً وَأَشَدُّ عَزْماً لأَنَّهُمْ تَعَلَّمُوا كَيْفَ يَتَغَلَّبُونَ عَلَى تَكَاسُلِ أَجْسَامِهِمْ وَيَحْكُمُونَ عَلَى حَرَكَاتِهَا وَتِلْكَ أَحْسَنُ الْوَسَائِلِ لِلنَّجَاحِ فِيمَا تَقْتَضِيهِ الحَيَاةُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَأَصْبَحَتْ هَذِهِ الشَّبِيبَةُ مَحَلَّ الْأَمَلِ وَمَوْضِعَ الرَّجَاءِ .

الْعَلَامَةُ الرَّابِعَةُ : كَثْرَةُ التَّزَاحُمِ عَلَى الْوَظَائِفِ الْإِدَارِيَّةِ وَالْحِرَفِ الْأَدَبِيَّةِ .

(١) يزيد.

غصّتْ وَظَائِفُ الحُكومَةِ وَالحِرَفُ الأَدَبِيَّةُ بِأَهْلِهَا حَتَّى ضجّ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَأَمْسَى على بَابِ الوَظِيفَةِ أَوِ الحِرْفَةِ الوَاحِدَةِ عشَرَةُ طُلَّابٍ وَعِشْرُونَ وَمِائَةٌ لِأَنَّ كلَّ النَّاسِ رَاغِبٌ فِيهَا وَزَادَ عددُهُمْ حَتَّى مُلِئَتْ بِهِمْ دهَالِيزُ المَصَالِحِ الإِدَارِيَّةِ وَضَاقَتْ رِحَابُهَا وَتَهَافَتُوا على حَمْلِ كُتُبِ التَّوْصِيَةِ وَبَاتُوا حيَارَى. وَلَمَّا اشْتَدَّ الأَمْرُ ظَهَرَ فى الوُجُودِ فِكْرٌ جَدِيدٌ وَهُوَ أَنَّ النَّاسَ صَارُوا يَشْعُرُونَ بِصُعُوبَةِ نَيْلِ تِلْكَ الوَظَائِفِ وَقلَّ الأَمَلُ فِيهَا ، وَهِيَ لا تجْزِى عَنِ الأَتْعابِ الَّتى يُقَاسُونَهَا لِلْوُصُولِ إِلَيْهَا ، وَبَدَأَتِ العُيُونُ تَشْخَصُ إِلَى الحِرَفِ المُسْتَقِلَّةِ الَّتى هِيَ أَيْضاً أَكْثَرُ رِبْحًا وَأَوْفَرُ كَسْباً إِلاَّ أَنَّهُمْ لا يَزَالُونَ مُتَرَدِّدِينَ وَلَكِنَّ الشُّخُوصَ مَوْجودٌ فَلْنَتْرُكِ الأَمْرَ لِفِعْلِ الزَّمَانِ إِذْ لَا بُدَّ لِهَذِهِ الحَرَكَةِ مِنَ الظُّهُورِ تَماماً وَقَدْ ظَهَرَتْ مِنْ قَبْلُ فى الشُّبَّانِ الَّذِينَ هُمْ أَكْبَرُ اسْتِعْدَاداً وَأَبْعَدُ نَظَرًا .

الْعَلامَةُ الخَامِسَةُ : هُبُوطُ فَائِدَةِ المَالِ

بَعْدَ أَنْ كَانَتْ فَائِدَةُ النُّقُودِ خَمْسَةً فى المِائَةِ نَزَلَتْ إِلَى أَرْبَعَةٍ ثُمَّ صَارَتْ ثَلاثَةً فى هَذِهِ الأَيَّامِ بَلْ إِنَّ فَائِدَةَ أَحْسَنِ القَرَاطِيسِ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ وَوَجَبَ حِينَئِذٍ أَلاَّ يَعْتَمِدَ الإِنْسَانُ عَلى إِيرَادِهِ أَوْ مَهْرِ زَوْجَتِهِ وَصَارَ مِنَ الصَّعْبِ كِفَايَةُ الحَاجَاتِ بِرَوَاتِبِ الوَظَائِفِ لِقِلَّتِهَا وَأَصْبَحَتْ مَعِيشَةُ الرَّجُلِ مِنْ إِيرَادِهِ الخَاصِّ أَصْعَبَ وَأَشَدَّ حَرَجًا

إذا اكتفى بهِ وركن إلى البطالةِ وتلكَ حالٌ مِنْ أقوى البواعثِ فِي حملِ المرءِ على العملِ بنفسِهِ وألاّ يعتمدَ إلاّ على نفسِهِ . وليسَ فِي قدرةِ النّاسِ أنْ يستعصوا زمانًا طويلاً على إجابةِ هذا النّداءِ لأنّهم بعدَ أنْ يطرقوا أبوابَ الاقتصادِ كلّها لا بدَّ لهم مِنْ دخولِ ذلكَ البابِ .

العلامةُ السّادسةُ : فداحةُ الضّرائبِ إلى الحدِّ الأقصى

الفرنساويّونَ همُ الأمّةُ الّتي كثرتْ ضرائبُها عنْ غيرِها وهمْ يحتملونَ وقرَها[1] بقوّةِ التّوفيرِ والاقتصادِ لا بقوّةِ العملِ والاجتهادِ لأنَّ النّاسَ إذا ارتقوا في الأمّةِ عندنا تركوا الزّراعةَ والصّناعةَ والتّجارةَ معَ أنَّ الّذينَ يرتقونَ همُ الّذينَ كانَ في قدرتِهِم أنْ يصلوا بها إلى الغايةِ القصوى منَ التّحسينِ والإتقانِ بما أوتوا منَ العقلِ وما جمعوا منَ الأموالِ . ومنْ هنا نقصَ إيرادُ هذهِ المصادرِ الثّلاثةِ الّتي عليها مدارُ الثّروةِ العامّةِ سنةً بعدَ أخرى وأصبحَ منَ المتعسّرِ الاعتمادُ على الضّرائبِ لأنّها تصعبُ حينًا بعدَ حينٍ اللّهمَّ إلاّ إذا عرفنا طريقَ الاعتمادِ على أنفسِنا لنقوّمَ ما اعوجَّ مِنْ حالِ الزّراعةِ والصّناعةِ والتّجارةِ ونوجّهَها نحوَ النّموِّ المستمرِّ فهيَ المنبعُ

---

(١) الوقر بالكسر : الحمل

الَّذِى تَسْتَقِى مِنْهُ جَمِيعُ الْحِرَفِ الدَّخِيلَةِ الَّتى اتَّخَذَتْ لَهَا مَوْطِنًا مُخْتَارًا فى المِيزَانِيَّةِ .

الْعَلَامَةُ السَّابِعَةُ مَيْلُ النَّاسِ ثَانِيَةً إِلى المَعِيشَةِ الْخَلَوِيَّةِ والِاحْتِرَافِ بِالْمِهَنِ الْمُسْتَقِلَّةِ .

وَالسَّبَبُ فِي هَذَا المَيْلِ هُوَ الِازْدِحَامُ عَلى أَبْوَابِ الْوَظَائِفِ ، وَهُبُوطُ فَائِدَةِ المَالِ وَعَدَمُ كِفَايَةِ الْمِيزَانِيَّةِ بِحَاجَةِ الأُمَّةِ ، وَقَدْ بَدَأَ النَّاسُ يُقَلِّلُونَ مِنَ احْتِقَارِهِمْ لِتِلْكَ الْمِهَنِ الَّتِى هَجَرُوهَا لِمُجَرَّدِ الِاسْتِحْسَانِ لاَ بِالْبُرْهَانِ وَلِتَوَهُّمِ أَنَّهَا دُونَ الرُّتْبَةِ ، وَلِلنُّفُورِ مِنْ كلِّ عَمَلٍ يَقْتَضِى الْكَدَّ وَيَطْلُبُ الهِمَّةَ ، وَيَكُونُ صَاحِبُهُ فِيهِ مَسْئُولاً عَنْهُ ، وَسَيَعُودُونَ إِلَيْهَا خَاضِعِينَ لِحُكْمِ الزَّمَانِ . ظَهَرَتْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ عَلَى الْخُصُوصِ فِى الزِّرَاعَةِ ، فَقَدِ الْتَجَأَ إِلَيْهَا اضْطِرَارًا عَدَدٌ مِنْ أَرْبَابِ الْأَمْلَاكِ الَّذِينَ خَسِرُوا بِانْحِطَاطِ الزِّرَاعَةِ وَهُبُوطِ فَائِدَةِ الأَمْوَالِ وَالتَّزَاحُمِ حَوْلَ الْوَظَائِفِ الْإِدَارِيَّةِ ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَوَدُّونَ إِطَالَةَ مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْمُدُنِ وَلَكِنَّ طَبِيعَةَ الْحَالِ تَدْفَعُهُمْ إِلَى الرِّيفِ وَقَدِ انْتَهَى بِهِمُ الْحَالُ — وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ — فَتَعَوَّدُوا الِاشْتِغَالَ بِاسْتِغْلَالِ أَرَاضِيهِمْ الَّتِى هَجَرَهَا الْمُسْتَأْجِرُونَ أَوْ أَضَرُّوا بِهَا ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ يَسْكُنُ وَسْطَ أَمْلَاكِهِ وَيَقْضِى الْقِسْمَ الأَكْبَرَ مِنَ السَّنَةِ فِيهَا ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَقَامَ فِيهَا نِهَائِيًّا طَلَبًا لِلِاقْتِصَادِ

وَممَّا يَدُلُّ عَلى تِلكَ الحَرَكَةِ أَيْضًا انتِشَارُ الشَّرِكاتِ الزِّرَاعِيَّةِ وَكَثْرَةُ الْجَرَائِدِ الزِّرَاعِيَّةِ وَالْجمْعِيَّاتِ الزِّرَاعِيَّةِ، فَقَدْ ظَهَرَتْ هَذِهِ الْجَمْعِيَّاتُ مِئَاتٍ مِئَاتٍ فى كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَكَانَ تَأْلِيفُهَا بِسَعْى أَصْحَابِ الأَمْلاَكِ الْوَاسِعَةِ الَّذِينَ كانُوا فى مَبْدَإِ الأَمْرِ يَسْتَخْدِمُونَهَا فى أَغْرَاضِهِمْ السِّيَاسِيَّةِ وَتَأْيِيدِ نُفُوذِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ صَارُوا يَتَأَثَّرُونَ شَيْئًا فَشَيْئًا بِذَلِكَ الْوَسَطِ الجَدِيدِ ، وَأَصْبَحُوا يَتعَرَّفُونَ مَسَائِلَ السَّمَادِ وَالآلاَتِ الزِّرَاعِيَّةِ الَّتى احْتَقَرُوهَا إِلَى هَذَا الحِين، وَانْقَلَبَتِ الجَمْعِيَّةُ زِرَاعِيَّةً مَحْضَةً بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ . وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ فَطِنَ بَعْضُ أَصْحَابِ الأَمْوَالِ إِلَى هُبُوطِ أَسْعَارِ الأَطْيَانِ لِانحِطَاطِ الزِّرَاعَةِ فَعَكَفُوا عَلَى مُشْتَرَى الأَرَاضِى، لِأَنَّ غَلَّةَ الأَطْيَانِ مَائِلَةٌ إِلَى التَّقَرُّبِ مِنْ فَائِدَةِ النُّقُودِ .

العَلاَمَةُ الثَّامِنَةُ :التَّشْجِيعَاتُ عَلَى الاسْتِعْمَارِ

إِنَّ قُوَّةَ الْأُمَّةِ فِى الِاسْتِعْمَارِ مِنْ أَدَلِّ الدَّلاَئِلِ عَلَى قُوَّتِهَا الِاجْتِمَاعِيَّةِ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى مَا لِأَهْلِهَا مِنَ الْهِمَّةِ وَالإِقْدَامِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى الانْتِشَارِ فى الدُّنْيَا . وَهَذِهِ الصِّفَةُ هِىَ الَّتى أَصْبَحَتْ بِهَا الأُمَّةُ الإِنْكلِيزِيَّةُ السَّكْسُونِيَّةُ تُهَدِّدُ مَنْ سِوَاهَا . نَعَمْ لاَ يَسَعُنَا أَنْ نَقُولَ بِأَنَّ فَرَنْسَا دَخَلَتْ فى هَذَا الطَّرِيقِ حَقِيقَةً لِأَنَّا لاَ نَزَالُ نَبْعَثُ بِالعَسَاكِرِ وَالمُوَظَّفِينَ أَكْثَرَ مِنَ المُسْتَعْمِرِينَ ،غَيْرَ أَنَّ مِنَ

الْمُشَاهَدِ حُصُولَ التَّشْجِيعِ عَلَى الِاسْتِعْمَارِ وَالِاجْتِهَادَ فِى بَيَانِ مَزَايَاهُ وَقَدْ أُسِّسَتْ لِهَذَا الْغَرَضِ شَرِكَاتٌ وَأُنْشِئَتْ جَرَائِدُ ، وَنُظِّمَتْ بَعَثَاتُ الاستكشافِ وَصَارَ عَدَدُ الَّذِينَ يهتمُّونَ بِعِلْمِ تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ يَكْثُرُ فِى كُلِّ يَوْمٍ كَأَنَّ الفَرَنْسَاوِىَّ الَّذِى أَلِفَ بَيْتَهُ أَخَذَ يَلْتَفِتُ إِلَى أَنَّهُ يُوجَدُ خَارِجَ فَرَنْسَا بِلَادٌ تُمْكِنُ الإِقَامَةُ بِهَا وَالمَعِيشَةُ فِيهَا . وَمَعَ اعْتِرَافِنَا بِأَنَّ ذَلِكَ كلَّهُ لَا يَزَالُ فِى عَالَمِ الْقُوَّةِ نَرَى أَنَّ الْعَلَامَاتِ الَّتِى سَبَقَ ذِكْرُهَا تَبْعَثُ الهِمَمَ أَيْضاً إِلَى الِاسْتِعْمَارِ وَتُسَاعِدُ عَلَى نُمُوِّ تِلْكَ الحَرَكَةِ .

الْعَلَامَةُ التَّاسِعَةُ : سُقُوطُ مَنْزِلَةِ السِّيَاسَةِ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوهَا حِرْفَةً سُقُوطاً مُسْتَمِرّاً .

كما أَنَّ قُوَّةَ الأُمَّةِ فِى الِاسْتِعْمَارِ دَلِيلٌ عَلَى قُوَّتِهَا الِاجْتِمَاعِيَّةِ كَذَلِكَ ثِقَتُهَا بِالسِّيَاسَةِ وَالْمُحْتَرِفِينَ بِهَا بُرْهَانٌ عَلَى ضَعْفِهَا وَانْحِطَاطِهَا لِمَا فِى ذَلِكَ مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ النَّاسَ يَعْتَمِدُونَ عَلَى الْحُكُومَةِ أَكْثَرَ مِن اعْتِمَادِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَنَّهُمْ مَيَّالُونَ إِلَى الِارْتِزَاقِ مِنَ الْوَظَائِفِ أَكْثَرَ مِنْ مَيْلِهِمْ إِلَى الْكَسْبِ مِنَ المِهَنِ الْحُرَّةِ الْمُسْتَقِلَّةِ وَالَّذِى تَطْمَعُ فِيهِ الْأَحْزَابُ بَعْدَ انْتِصَارِهَا إِنَّمَا هُوَ الْتِهَامُ الْغَنِيمَةِ أَعْنِي الْوَظَائِفَ فِى الْحُكُومَةِ فَالْأَسْلَابُ لِمَنْ ظَفِرَ وَمَتَى رَسَخَتْ هَذِهِ الْأَفْكَارُ فِي الْعُقُولِ أَبْعَدَتْ أَهْلَهَا عَنِ الْحِرَفِ الْمُسْتَقِلَّةِ

وَالْحِرَفُ الْمُسْتَقِلَّةُ هِيَ الَّتِي فِيهَا قُوَّةُ الْأُمَّةِ الْحَيَوِيَّةُ كَمَا أَنَّ تِلْكَ الْأَفْكَارَ تُثَبِّطُ الْعَزَائِمَ وَتَثْنِي الْهِمَمَ . وَعِنْدَنَا الْيَوْمَ مِنَ الْعَلَامَاتِ الصَّحِيحَةِ مَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْفَرَنْسَاوِيِّينَ بَدَءُوا يَنْفُضُونَ عَنْ أَفْكَارِهِمْ غُبَارَ هَذَا الْخَيَالِ فَصِرْنَا نَعْقِلُ أَنَّ السِّيَاسَةَ لَمْ تَأْتِ لَنَا بِمَا كُنَّا نَرْجُوهُ مِنْهَا وَأَنَّ أَمَلَنَا قَدْ خَابَ فِي كُلِّ صَوْبٍ فَلَمْ نَنَلْ حَظَّنَا مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ وَالْإِخَاءِ ، وَلَمْ نَحْظَ بِحُكُومَةٍ قَلَّ مَصْرِفُهَا وَلَمْ تُخَفِّفْ عَنَّا ضَرَائِبَنَا وَلَمْ تَحْصُلِ الْمُسَالَمَةُ وَالِاحْتِمَالُ فِي الْآرَاءِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ الدِّينِيَّةِ وَلَمْ وَلَمْ ، بَلْ رَجَعْنَا مِنَ الْيَأْسِ إِلَى قَلْبِ الْحُكُومَاتِ وَإِسْقَاطِ الْوِزَارَاتِ ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ تَنْقِيحُ الْقَوَانِينِ وَتَعْدِيلُ النِّظَامِ وَأَصْبَحْنَا وَقَدِ اخْتَبَرْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَصِرْنَا عَالِمِينَ بِمَا فِي جَوْفِ السِّيَاسَةِ كُلِّهَا . وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَوَلَّدَ هَذَا الرُّوحُ الْجَدِيدُ الَّذِي نُشَاهِدُهُ وَهُوَ زِيَادَةُ عَدَدِ الَّذِينَ يَقِلُّ اهْتِمَامُهُمْ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ بِالْجَرَائِدِ السِّيَاسِيَّةِ الْمَحْضَةِ . ارْجِعْ إِلَى زَمَنِ « الْإِصْلَاحِ » أَوْ زَمَنِ « حُكُومَةِ شَهْرِ يُولْيه » أَوْ زَمَنِ « الْإِمْبَرَاطُورِيَّةِ الثَّانِيَةِ » نَفْسِهَا تَرَ أَنَّ كُلَّ جَرِيدَةٍ سِيَاسِيَّةٍ كَانَتْ قُوَّةً بِذَاتِهَا يَحْتَرِمُهَا النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ قَوْلَهَا ، وَكَانَتْ لِصَاحِبِ الْجَرِيدَةِ قُوَّةٌ كُبْرَى حَتَّى كَانَ أَعْظَمُ رِجَالِ الْعَصْرِ مِنْ أَصْحَابِ الْجَرَائِدِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَمْسَكَ عَلَيْهِ جَرِيدَتُهُ فِي مَنْصِبِهِ وَكَانَتْ جَرَائِدُ « ناسيونال » و « جلوب » وَ « كونستيتيسيونيل »

وَ « الديبا » تقلِبُ الرَّأىَ الْعَامَّ كيفما شاءت وتوقدُ نارَ الثَّوْرَةِ فِى بِضْعَةِ أشهرٍ إنْ أرادَتْ ولَمْ يكُنْ فِى الْأُمَّةِ مِنَ الْجرائِدِ إلاَّ السِّيَاسِيَّةُ وَكانَتْ كلُّ جريدَةٍ تُشَخِّصُ فريقاً مُسْتقلاًّ مِنْ أقسامِ الرَّأىِ الْعَامِّ . ولكِنْ ما أعْظمَ تقلُّبات الزمانِ فقدْ أضاعتِ الْجرائِدُ السِّياسِيَّةُ قِسْماً كبيراً مِنْ سُلْطانِهاوقِسْماً أكبرَ مِنْ قُرَّائِها وَانتقَلَ الرَّوَاجُ إلى الجرائِدِ المُسَمَّاةِ جرائِدَ الطَّرِيقِ التى أزْوَتِ السِّيَاسَةَ إلى رُكْنٍ صغِيرٍ[1] وَاعْتبرَتْهَا تَشُدُّ الخِناقَ عَلَى النَّاسِ وَإِلى الجرائِدِ الإِخْبارِيَّةِ الَّتى تنقُلُ الحوادِثَ الْبرْقيَّةَ مِنْ غيْرِ أنْ يكونَ لها رَأْىٌ فى السِّيَاسَةِ وَإِلى النَّشرَاتِ الموْضوعِيَّةِ الَّتى تُكْتَبُ فى الْأَعْمالِ وَتُترْجِمُ عَنْ حالِ المِهَنِ وَالصِّناعَاتِ أوْتخْدُمُ المنافِعَ المَحَلِّيَّةَ وَكانَ هذَا الصِّنْفُ مجْهولاً تماماً قبْلَ أرْبعِينَ أَوْ خمْسِينَ عاماً . وَمِنْ علاماتِ ذلِكَ السُّقوطِ أيْضاً أنَّ المرَاتِبَ السِّيَاسِيَّةَ لَمْ تعُدْ وَحْدَهَا صاحِبَةَ المنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ وَالمكانَةِ الْعالِيَةِ فى نَظَرِ النَّاسِ وَلَمْ يعُدْ لِلْمُوَظَّفِينَ مِنَ الاعْتِبارِ مَا كانَ لَهُمْ أَيَّامَ الْحكُومَاتِ السَّابقَةِ بل الْفَرْقُ بيْنَ الحالتَيْنِ عَظِيمٌ . أيْنَ ذلِكَ المُدِيرُ أَيَّامَ الإِمْبرَاطُورِيَّةِ الَّذي ماكانَ يقعُ بصَرُ أَحَدٍ عليْهِ إلاَّ ارْتعَدَتْ فرائِصُهُ[2] وَتولاَّهُ الْفزَعُ وَالاضْطِرَابُ؟ أَيْنَ تِلْكَ المحَاكِمُ

(١) أى جعلتها فى زاوية صغيرة (٢) الفرائص جمع فريصة وهي لحمة بين الثدى والكتف ترعد عند الفزع يقال ارتعدت فرائصه أى فزع

التي عرفناها منذ أربعين عاماً حيث كانت كل محكمة إقليم منها أشبه بقديسين تحصنوا في الوظائف وامتنعوا في حصون القضاء. لقد أصبحنا شاعرين بأن تلك الوظائف أقل ثباتاً وأضعف مكانة مما كنا نظنه من قبل وبأنها تقيد استقلال صاحبها بسلاسل وأغلال وبأنها قليلة الراتب عديمة المكاسب. هذا ولست أذكر في بياني حوادث « بناما » التي تشمئز لأجلها من السياسة نفوس الذين هم أقل الناس نفوراً منها.

اليوم انكشف غطاء الأبهة والجلال الذي كان يغشى الدولة ووزراءها وموظفيها ونعم الحال، فالذي تخسره الحكومة يكسبه الأفراد، والحياة الخصوصية والحياة المحلية، وتلك هي الدعائم الحقيقية المتينة التي يشاد عليها بناء الهيئة الاجتماعية. وعلى هذا ففي الحال تقدم من تلك الجهة أيضاً.

العلامة العاشرة: قيام الرأي العام حقيقة ضد سيادة الجندية

إن انتشار الجندية عقبة في طريق الإصلاح الاجتماعي فإنه يضر بثروة الأمة، ويدفع الشبان إلى المدارس العالية فيثنيهم عن الاشتغال بالفنون الجارية والمهن النافعة، والذين لا ينجحون في سبيل الجندية لا يكونون أهلاً لاعتناق الحرف المستقلة التي

تَقْتَضِى الْهِمَّةَ وَالْإِقْدَامَ الذَّاتِىَّ ، لِأَنَّ تِلْكَ التَّرْبِيَةَ أَضَرَّتْ بِهٰذِهِ الْمَلَكَاتِ . غَيْرَ أَنَّهُ يُمْكِنُنَا أَنْ نُبَشِّرَ قَوْمَنَا بِأَنَّ الْجُنْدِيَّةَ أَصْبَحَتْ فِى انْزِوَاءٍ مُنْذُ الْآنَ إِذْ لَمْ يَعُدْ لِلْأُمَّةِ قُدْرَةٌ عَلَى تَحَمُّلِ أَثْقَالِهَا زَمَنًا طَوِيلًا وَلِأَنَّ السِّلْمَ بِهٰذَا الثَّمَنِ أَشَدُّ ضَرَرًا مِنْ حَرْبٍ تَكُونُ وَبَالًا . وَقَدْ فَرَغَتْ خَزَائِنُ إِيتَالْيَا بِمَا أَنْفَقَتْهُ حُكُومَتُهَا فِى هٰذَا السَّبِيلِ ، وَلَابُدَّ لَهَا مِنَ الِاقْتِصَادِ فِى حَرْبِيَّتِهَا . وَلَا تَزَالُ أَلْمَانْيَا وَفَرَنْسَا تَقُومَانِ بِأَعْبَاءِ جُيُوشِهِمَا بِغَايَةِ الصُّعُوبَةِ وَإِنْ دَامَ الْحَالُ زَمَنًا فَإِنَّهُ يَضُرُّ بِحَيَاةِ الْأُمَّتَيْنِ ، وَلَابُدَّ لِهٰذَا الْبُرْهَانِ الْمَالِىِّ مِنَ الْفَوْزِ عَلَى أَدِلَّةِ الْجُنْدِيَّةِ كُلِّهَا . عَلَى أَنَّ أَنْصَارَ الْجُنْدِيَّةِ أَصْبَحُوا الْيَوْمَ يَذُمُّونَ مَا آلَتْ إِلَيْهِ ، وَأَصْبَحَتْ أَعْمَالُهُمْ تُكَذِّبُ أَقْوَالَهُمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّ طُولَ الْإِقَامَةِ فِى الثُّكَنِ يَجْعَلُ الِاحْتِرَافَ بِغَيْرِ الْجُنْدِيَّةِ صَعْبًا بَعِيدَ الْإِمْكَانِ ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَرَاهُمْ أَسْرَعَ النَّاسِ إِلَى تَخْلِيصِ أَوْلَادِهِمْ مِنْهَا . وَالْفَائِزُ مَنْ وَجَدَ لَهُ مَهْرَبًا مِنْ ذَلِكَ النِّظَامِ الَّذِى يَقُولُونَ أَمَامَ النَّاسِ بِضَرُورَتِهِ وَفَوَائِدِهِ . هٰذَا هُوَ السَّبَبُ فِى إِقْبَالِ النَّاسِ عَلَى الْمَدَارِسِ الَّتِى يُعْفَى طَلَبَتُهَا مِنْ سَنَتَيْنِ فِى الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ مُنْذُ صَدَرَ الْقَانُونُ الْجَدِيدُ إِقْبَالًا حَتَّى صَارَ الْقَاصِدُونَ يَدُوسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى أَبْوَابِهَا ، وَفِى ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَّةِ أَظْهَرُهَا عَلَى النُّفُورِ مِنَ الْخِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ

لأنها حالة شعرت بها الأمة من غير منبه إليها ، وليس أمام الآباء والأمهات فى العائلات الكبيرة من المعضلات[1] التى لا ينفكون يلتمسون لها حلا إلا كيف ينجون بأولادهم من الخدمة المشار إليها ، وهى مع ذلك أبهى النظامات عندنا ، وأما أهل الطبقات النازلة فيخضعون لحكمها وهم يزمجرون ويحسدون أهل الطبقات الرفيعة على تخلصهم منها ، ومتى هرب الناس من نظام وهجره ألصقهم به وأشدهم دفاعا عنه فقد أدركه الضعف وصار منحطا . ولا أظن أن نمو الجندية إلى هذا الحد يدوم دوام أعمارنا ، فإن لم يكن فينا من سلامة الذوق ما يكفينا مؤونته لقام بتلك الوظيفة عسر الحال من جهة المال ومنفعة العموم .

العلامة الحادية عشرة : سقوط منزلة المشروعات الخيرية

نعم إن المقصد الذى توجد لأجله جمعيات البر والإحسان ، وجمعيات الإعانة وجمعيات الخير العام من أجل المقاصد وأسماها لكنها مضرة من جهة كونها تجعل الناس يعتقدون بأنها كافية لحل المسألة الاجتماعية مع أنها من قبيل المسكنات لا الأدوية ، فهى تخدر الألم كالمورفين ولا تشفيه . والمساعدة الحقيقية إنما تكون بجعل المساعد قادرا على الترقى لا تقديم المعونة إليه

---

(١) أعضل الأمر : اشتد واستغلق

وَمِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ كَانَ الْبَحْثُ عَنْ حَلِّ الْمَسْأَلَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ بِتِلْكَ الْوَسَائِلِ لَا يَخْلُو مِنَ الْخَطَرِ.

وَمِنَ الْمُحَقَّقِ أَنَّ إِقْبَالَ النَّاسِ عَلَى هَذِهِ الْأَعْمَالِ وَتَعْظِيمَهُمْ لِلْقَائِمِينَ بِهَا أَخَذَ فِي التَّنَاقُصِ لِأَنَّ الْمَسَاعِيَ الَّتِي بُذِلَتْ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ ذَهَبَتْ أَدْرَاجَ الرِّيَاحِ وَدَامَ خِذْلَانُهَا زَمَنًا طَوِيلًا وَفَقَدَ النَّاسُ مَا كَانَ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الثِّقَةِ الْحُسْنَى وَتَيَسَّرَ لَهُمْ أَنْ يَقِفُوا عَلَى ضَعْفِ تِلْكَ الْمَسَاعِي الْمُجْتَمِعَةِ مَعَ مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ مَظَاهِرِ الْقُوَّةِ وَالنَّجَاحِ لِأَنَّهَا لَيْسَتْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا بُرْهَانًا عَلَى ضَعْفِ الْإِنْسَانِ. وَأَيْقَنَ الْكُلُّ بِأَنَّ رَئِيسَ الْمَعْمَلِ أَوْصَاحِبَ الْأَطْيَانِ أَوْ مُدِيرَ الْمَتْجَرِ إِذَا اهْتَمَّ بِأَمْرِ رِجَالِهِ، أَتَى بِفَائِدَةٍ أَكْبَرَ مِمَّا يَأْتِيهِ خَمْسُونَ رَجُلًا مِنْ رِجَالِ تِلْكَ الْمَشْرُوعَاتِ فِي تَحْسِينِ حَالِ قَوْمٍ تَشَتَّتُوا فِي كُلِّ صَوْبٍ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُمْ وَلَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ أَقَلُّ رَابِطَةٍ طَبِيعِيَّةٍ فِعْلِيَّةٍ.

الْعَلَامَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : تَدَفُّقُ الْمَذَاهِبِ الِاشْتِرَاكِيَّةِ

إِنَّ الْعَلَامَاتِ الَّتِي سَبَقَ ذِكْرُهَا تَدْفَعُنَا بِلَا شَكٍّ فِي طَرِيقٍ غَيْرِ طَرِيقِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ لِأَنَّهَا تُسَاعِدُ عَلَى نُمُوِّ الْهِمَّةِ الذَّاتِيَّةِ وَحَصْرِ السُّلْطَةِ الْعُمُومِيَّةِ. وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ نَرَى أَعْظَمَ الْأُمَمِ تَقَدُّمًا عَلَى الْبَقِيَّةِ، وَهِيَ الْأُمَّةُ الْإِنْكِلِيزِيَّةُ السَّكْسُونِيَّةُ، إِنَّمَا حَازَتْ هَذَا

التَّقدُّمَ بِهِمَّةِ أَفْرَادِهَا فَمَذْهَبُ الاشْتِرَاكِيِّينَ يُنَاقِضُ حِينَئِذٍ مجْرَى الْأَحْوَالِ الْحَاضِرَةِ . أَمَّا سَبَبُ ظُهُورِ هذَا الْمَذْهَبِ مِنْ جِهَةٍ وَكَوْنِنَا اتَّخَذْنَاهُ دَلِيلاً عَلَى تَقدُّمِ الْأُمَمِ نَحْوَ التَّرَقِّى مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَظَاهِرٌ ، وَبَيَانُهُ أَنَّ التَّحَوُّلَ الَّذِى قَدَّمْنَا ذِكْرَ عَلامَاتِهِ لَا يَحْصُلُ فِى أُمَّةٍ بِالسُّهُولَةِ مِنْ دُونِ أَنْ يَضُرَّ بِبَعْضِ الْمَصَالِحِ فِيهَا وَإِيلَامِهَا بَعْضَ الْأَلَمِ . كَانَ الرَّجُلُ مُتَعَوِّداً مُسَاعَدَةَ أَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالْحِزْبِ السِّيَاسِىِّ الَّذِى انْتَمَى إِلَيْهِ وَالْحُكُومَةِ ، وَكَانَتِ الْأُمَّةُ الَّتِى يَعِيشُ فِيهَا مَائِلَةً إِلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَى حَالَتِهَا لَا مُتَّجِهَةً نَحْوَ التَّرَقِّى وَكَانَ التَّسَابُقُ فِيهَا قَلِيلاً لِضَعْفِ وَسَائِلِ النَّقْلِ . وَكُلُّ ذَلِكَ يُؤَدِّى إِلَى بَقَاءِ التَّقَالِيدِ كَمَا كَانَتْ وَدَوَامِ وَسَائِلِ الارْتِزَاقِ عَلَى مَاهِىَ عَلَيْهِ . غَيْرَ أَنَّ تَسْهِيلَ وَسَائِلِ النَّقْلِ وَاتِّسَاعَ نِطَاقِ مَعَامِلِ الصِّنَاعَةِ عَلَى إِثْرِ كَشْفِ الْفَحْمِ حَطَّمَتْ جَمِيعَ تِلْكَ الْحَوَاجِزِ وَمَزَّقَتْ دَائِرَةَ ذَلِكَ الْوَسَطِ الْعَتِيقِ الَّذِى كَانَ يَحْتَضِنُ الْإِنْسَانَ بَيْنَ جَوَانِبِهِ وَأَصْبَحَ الزَّارِعُ وَالصَّانِعُ وَالتَّاجِرُ عُرْضَةً لِمُنَافَسَةِ جَمِيعِ الزُّرَّاعِ وَكُلِّ الصُّنَّاعِ وَالتُّجَّارِ فِى الدُّنْيَا فَمَنْ كَانَ مِنَ الْقَوْمِ ذَا عَزِيمَةٍ وَهِمَّةٍ وَإِقْدَامٍ رَأَى فِى ذَلِكَ الْحَالِ الْجَدِيدِ تَغْيِيراً لَا بُدَّ مِنْهُ فِى الدُّنْيَا وَاتَّخَذَ لَهُ مِنْهُ حَظّاً فَانْدَفَعَ يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ فِى الْهِمَّةِ وَالْإِكْثَارَ مِنَ الْإِقْدَامِ وَوَصَلَ إِلَى دَرَجَةٍ مِنَ الْغِنَى وَالْقُوَّةِ لَمْ تَكُنْ لِأَحَدٍ

فى حسَابٍ . ذَلكَ شَأْنُ الْأُمَّةِ الْإنـكليزيَّةِ السَّـكْسُونيَّةِ لِأَنَّهَا كَانَتْ فى مُقَدَّمَةِ الْـكُلِّ مِنْ جِهَةِ هِمَّةِ أَفْرَادِهَا وَإِقْدَامِهِمْ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْحِينِ أَخَذَتْ تَنْتَشِرُ فى أَرْجَاءِ الْمَسْكُونَةِ وتُهَدِّدُ جَمِيعَ الْأُمَمِ الْأُخْرَى . وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ أَقَلَّ عَزْمًا وَأَضْعَفَ إقْدَاماً تَوَلَّاهُ الدَهَشُ وَأَنَّ (١) تَحْتَ أَثْقَالِ الحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ سِلَاحاً مِنْ عَزْمِهِ وَلَمْ يَتَدَارَكْ قُوَاهُ لِيُقَاوِمَ مَا أَقْبَلَ عَلَيْهِ مِنَ المَتَاعِبِ وَاحْتَفَّهُ (٢) مِنَ الصِّعَابِ بَلِ اسْتَسْهَلَ النَّحِيبَ أَوَّلاً وَعَمَدَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مُنَاجَاةِ وَسَطِهِ الْمُتَمَزِّقِ الْبَالى مِنْ أَهْلٍ وَأَصْحَابٍ وَحكُومَةٍ وَأُمَّةٍ جَرْيًا عَلَى سُنَّةِ أَسْلَافِهِ الْأَوَّلِينَ . ثُمَّ الْتَفَتْ تِلْكَ الْجُمُوعُ الضَّالَّةُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ وَتَدَاعَى (٣) الْمُتَأَخِّرُونَ وَالضُّعَفَاءُ وَفَاقِدُو الْأَهْلِيَّةِ إِلَى صَعِيدٍ (٤) وَاحِدٍ فَاحْتَشَدُوا تَحْتَ لِوَاءِ مَذْهَبِ الِاشْتِرَاكِيِّينَ وَمَا مَذْهَبُ الِاشْتِرَاكِيِّينَ إِلاَّ صُورَةٌ مِنْ صُوَرِ رُوكِيَّةِ الشَّرْقِ الَّتِى أَدَّتْ بِأُمَمِهِ إِلَى الضَّعْفِ وَالِانْحِلَالِ هَكَذَا لَمَّا رَأَتْ طَوَائِفُ الْعُمَّالِ فى الْقَرْنِ المَاضِى أَنَّ مَنِيَّتَهَا قَدْ حَانَتْ بِاتِّسَاعِ نِطَاقِ المَعَامِلِ جَمَعَتْ مَا بَقِيَ فِيهَا مِنَ الْقُوَى وَقَامَتْ تُقَاوِمُ التَّقَدُّمَ الْجَدِيدَ جُهْدَهَا فَأَكْثَرَتْ مِنَ اللَّوَائِحِ وَشَدَّدَتِ الْقُيُودَ وَالْأَحْكَامَ الَّتِى كَانَتْ تَحْفَظُ لَهَا احْتِكَارَ الْعَمَلِ وَتَحْمِيهَا مِنْ مُنَافَسَةِ

(١) أن المريض : تأوه أو صوت ألماً (٢) أحاط به واكتنفه (٣) أى دعا بعضهم بعضاً (٤) أصل الصعيد: وجه الأرض أو ما ارتفع منها

الأجنبي ولكن ذهبت أتعابها أدراج الرياح كما يعلمه كل واحد منا ونسف التيار الجديد تلك النظامات العتيقة فجعلها نسياً منسياً .

أخطأ الاشتراكيون إذ جهلوا التاريخ فجاءوا بمذهب درجت عليه الأعوام وجعلوا يصادمون الحوادث الطبيعية التي تدفع العالم الإنساني في طريق جديد . ومهما اجتهدوا وشددوا العزائم فإنهم إنما يزيدون في قوة البرهان على هذا المصير الجديد الذي تألبوا لمغالبته بما بقي فيهم من القوة كما فعلت الطوائف التي ذكرناها من قبل وأصبحوا على فعلهم نادمين . وليس لمذهب الاشتراكيين فائدة تنتظر إلا زيادة الضعف في نفوس أولئك الذين عميت بصائرهم فأصبحوا يرجون السلامة من منج لا وجود له إلا في الخيال .

ما مذهب الاشتراكيين بجديد يبدو ، ولكنه قديم يتفانى . وعليه فمهما قلبنا الحوادث وغيرنا وجهة البحث فيها لا نستفيد منها غير أن العالم متقدم ونحن معه نحو إنماء الهمة الذاتية في الإنسان، ولا سبيل للنجاح في هذه الأيام إلا بهذا .

والآن أسأل إن كان واجبنا اليوم هو في الاكتفاء بفعل المؤثر الأدبي والنداء به نداء مبهماً أو في أننا نقف على حقيقة أحوال المعيشة الجديدة التي يتوقف عليها رغد الأمة ؟ لأنه ثبت أن المؤثر

الأدبيَّ وحدَهُ لا يقومُ بحاجتنا في هذه الأزمان ، وفي أنَّنا ننشرُ تلك الفضائلَ الاجتماعيَّةَ ونُدافعُ عنها لأنها دارُ السَّلام .

ولا خوفَ من هذا على المؤثِّر الأدبيِّ أن يُنسَى وتثقلَ عليه وطأةُ نُمُوِّ الهمَّة الذاتيَّة واعتمادُ كلِّ امرئٍ في الحياة على نفسه ، كما أنَّهُ لا يُخشَى من حطِّ درجة الإنسان وجعله محبًّا لذاته وإماتة الأمل وقتل روح الاحتمال وعاطفة الإحسان وحبِّ الجار فيه فإنِّي لن أفرُغَ من كتابي إلاَّ إذا أسكنتُ رَوْعَ[1] القرَّاء ممَّا يخافونَ .

أقولُ لهم إنَّ ترتيبَ الحوادثِ وسيرَ الوجودِ يُرشدُنا إلى أنَّ الأممَ التي بلغتْ فيها همَّةُ الإنسان مُنتهاها هي ملجأُ الحياة الأدبيَّة الصَّحيحة حيثُ تثبتُ الأخلاقُ وتبقى المحامدُ . وبيانُهُ أنَّ المؤثِّرَ الأدبيَّ إنَّما يجعلُ المرءَ قادراً على قهر النَّفس والتَّغلُّب على هواها . وليسَ من درسٍ يتعلَّمُ فيه الرَّجُلُ قهرَ نفسه وقيادةَ زمامها أشدَّ فعلاً من الحياة المليَّة التي يتعلَّمُ فيها أنَّهُ لا اعتمادَ لهُ إلاَّ على نفسه . وليسَ من مُربٍّ يأخذُ بمجامع القلوب أكثرَ من تلك الحياة فهيَ التي تقودُ المرءَ إلى « الحياة الحقيقيَّة » وهيَ المدرسةُ الطَّبيعيَّةُ التي تُريه كيفَ يحتملُ المتاعبَ والرَّزايا ، وهيَ الأسهلُ تناولاً والأكثرُ شيوعاً وطلاَّباً . تلك ضرورةٌ أشدُّ فعلاً في النُّفوس من

(١) الروع الفزع والخوف

وَعْظِ الوَاعِظِينَ وَنُصْحِ الحُكَمَاءِ وَالمُرْشِدِينَ الَّذِينَ يَدْخُلُ كَلامُهُمْ مِنْ إِحْدَى الأُذُنَيْنِ وَيَخْرُجُ مِنَ الأُخْرَى ذَلِكَ لِأَنَّ الأَعْمَالَ تَدْعُو إِلَى الْعَمَلِ أَكْثَرَ مِنَ الأَقْوَالِ .

جَاءَ فِي الْكِتَابِ « إِنَّكَ لَتَنَالُ عَيْشَكَ مِنْ عَرَقِ جَبِينِكَ » حِكْمَةٌ هِيَ أُسُّ الْقُوَّةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَمَبْنَى الآدَابِ وَبِهَا تَتَمَكَّنُ الأَخْلَاقُ . وَمَا مِنْ أُمَّةٍ هَرَبَتْ مِنْ حُكْمِ تِلْكَ الحِكْمَةِ الَّتِي تَقْضِي عَلَى المَرْءِ بِالْكَدِّ وَالْعَمَلِ بِمَا تَلْتَمِسُ مِنَ الحِيَلِ إِلَّا انْحَطَّتْ أَخْلَاقُهَا وَتَأَخَّرَتِ الآدَابُ بَيْنَ قَوْمِهَا ، كَذَا أَهْلُ الْجُلُودِ الْحُمْرِ أَمَامَ الشَّرْقِيِّينَ ، كَذَا الشَّرْقِيُّونَ أَمَامَ الْغَرْبِيِّينَ كَذَا أُمَمُ الْغَرْبِ اللَّاتِينِيُّونَ وَالجِرْمَانِيُّونَ أَمَامَ الإِنْكِلِيزِ السَّكْسُونِيِّينَ .

﴿ تم ﴾

فهرس

صحيفة

٣ مقدمة المترجم

٤٨ مقدمة المؤلف

٥١ مقدمة الطبعة الثانية — قول فيما يدعى من أفضلية الالمانيين

الباب الأول

٦١ الفرنساويون والانكليز السكسونيون فى المدرسة

الفصل الاول

٦٣ فيما اذا كان نظام التعليم بالمدارس الفرنساوية يربى رجالا

الفصل الثانى

٧٤ فيما اذا كان نظام التعليم فى المدارس الالمانية يربى رجالا

الفصل الثالث

١٠٩ فيما اذا كان نظام التعليم فى المدارس الانكليزية يربى رجالا

الفصل الرابع

١٤٢ كيف ينبغى أن نربى أولادنا ؟

الباب الثانى

١٧٠ الفرنساوى والانكليزى السكسونى فى حياتهما الخصوصية

الفصل الاول

١٧١ فى أن طريقة التربية عندنا تقلل المواليد فى فرنسا

الفصل الثانى

١٩٤ فى أن طريقة التربية عندنا مضرة بثروة الأمة الفرنساوية

الفصل الثالث

٢٠٩ في أن التربية السكسونية تساعد على التزاحم فى الحياة ـ النوع والاخلاق

الفصل الرابع

٢٤٣ فى أن طريقة المعيشة المنزلية تساعد على نجاح الانكليز السكسونيين

الباب الثالث

٢٧٩ الفرنساوى والانكليزى السكسونى فى المعيشة العمومية

الفصل الاول

٢٨٠ أهل السياسة فى فرنسا وفى انكلترا

الفصل الثانى

٣١٤ السبب فى أن الانكليز السكسونيين أبعد عن مذهب الاشتراكيين من الالمانيين والفرنساويين

الفصل الثالث

٣٦٠ فى أن تصور الوطنية يختلف عند الفرنساويين والانكليز السكسونيين

الفصل الرابع

٣٩١ فى أن الفرنساويين يختلفون عن الانكليز السكسونيين فى إدراك حقيقة التضامن والتكافل

الفصل الخامس

٤١٦ ما هى أحسن حالات الاجتماع لتحصيل السعادة؟

الفصل السادس

٤٥٠ فى ضعف المؤثر الأدبى وفى أمارات نهوض الهيئة الاجتماعية

BINDING SECT. AUG 30 1978

PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

CB Demolins, Edmond
220 Sirr taqaddum al-Inkiliz
D49 al-Saksuniyin
1899

20

UTL AT DOWNSVIEW
D RANGE BAY SHLF POS ITEM C
39 09 23 07 05 015 5